

المدن الكبرى في الشرق الأدنى القديم

الجزء الثاني

الشرق الأدنى القديم



تأليف: د. محمد بيومي مهران

مصر والشرق الأدنى القديم

(١٨)

المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم

الجزء الثاني
الشرق الأدنى القديم

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش. سوثير - المنزلة - الإسكندرية - ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش. قتال السويدي - الكيلو - ت ٥٩٧٣١٤٦

مصر والشرق الأدنى القديم

(١٨)

المدن الكبرى
فى
مصر والشرق الأدنى القديم

الجزء الثانى
الشرق الأدنى القديم

الأستاذ الدكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية

ع. ش. سويفت - القنارية - ت. ٤٨٣٠١٦٤
٣٨٧ ش. قنار الرئيس السابق - ت. ٥١٧٣١٤٦

تقديم

تحدثنا فى «الجزء الأول» من هذا الكتاب (المدن الكبرى والمراكز الأثرية فى مصر والشرق الأدي القديم) - عن مصر.

وتحدثت فى هذا «الجزء الثانى» من نفس الكتاب، عن المدن والمراكز الأثرية فى «الشرق الأدي القديم» - فى بلاد العرب، وفى العراق القديم، وفى بلاد الشام (فلسطين - لبنان - سورية - شرق الأردن)، وفى السودان والمغرب القديم، ثم فى إيران وآسيا الصغرى.

وسوف يرى القارئ - كما قلنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة - أن هناك من المدن التاريخية القديمة ما تغير اسمه القديم، حتى نسيه الناس - أو يكادون - على أن هناك نوعاً آخر من المدن التاريخية، لم يحفظ له أهميته غير مكاته الدينية ومثالنا فى ذلك مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف

وأما «مكة المكرمة»: حيث الحرم المكى الشريف، حيث الكعبة البيت الحرام، ومقام إبراهيم^(١) وزمزم^(٢).

وفى مكة المكرمة، ولد سيد الأولين والآخرين - سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ﷺ وفيما نبى، ومنها خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض - ولم تكن هناك دعوة عامة من قبل، وإليها يحج المؤمنون بهذه الدعوة من كل الأجناس، وصدق الله العظيم، حيث يقول: «وأذن فى الناس بالحج، يأتوك رجالاً، وعلى كل ضامر، يأتين من كل فج عميق»^(٣).

والمدينة المنورة: مدينة الرسول - ﷺ - ودار الهجرة، التى نصرت الإسلام، وأعزت كلمة المسلمين، فاستحقت التكرين والتخليد، حتى يقوم الناس لرب

(١) أنظر: سورة البقرة: آية ١٢٥.

(٢) محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم ١٢٧ / ٢ - ١٣٣، يحيى حمزة كوشك: زمزم، طعام

طعم، وشفاء سقم - جلة ١٩٨٣، وانظر: نيل الأوطار ١٥ / ٨٦ - ٨٨، صحح مسلم ١٩ / ٦٣ -

٦٤، صحيح البخارى ٤ / ٢٢١، محمد بن علوى: فى رحاب البيت الحرام - جلة ١٩٧٩.

(٣) سورة الحج: آية ٢٧.

العالمين، ثم شاءت إرادة الله - الكريم المنان، ذى الفضل العظيم - ولا راد لمشيئة - أن تعطى المدينة المنورة، ما لم تعطه لغيرها من المدائن، وأن تخصصها بميزة لا تتطاول إليها واحدة من مدائن الدنيا، حيث شرفت بأن تضم فى ثراها جثمان سيد الأولين والآخرين، جدنا ومولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ.

هذا إلى أن بالمدينة المنورة ثنى الحرمين الشريفين، فضلا عن أنها البلد الذى اختاره الله، ليكون أول عاصمة إسلامية فى التاريخ، تخرج منها جيوش النور، تحمل راية الإسلام، وهداية القرآن، إلى جميع أنحاء المعمورة.

ومسجد الرسول بالمدينة، أحد المساجد الثلاثة، التى لا تشد الرحال إلا إليها، (المسجد الحرام - المسجد النبوى الشريف - المسجد الأقصى)، هذا إلى أن الصلاة فى مسجد الرسول، خير ألف صلاة، فيما سواه، إلا المسجد الحرام^(١).

وفى مسجد سيدنا رسول الله - ﷺ وآله وسلم - بالمدينة المنورة والروضة الشريفة، التى هى روضة من رياض الجنة^(٢).

والقدس الشريف: هى المدينة الوحيدة فى العالم التى يجمع أصحاب الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - على قدسيتها، ومن ثم فقد كانت - وماتزال ومستظل إن شاء الله أبداً - رمزاً للبشرية المتدنية، على اختلاف مللها ونحلها ومذاهبها، فاليهود يقدسونها، لأن لهم فيها ذكريات دينية وسياسية، ويقدسها المسيحيون لأنها موطن السيد المسيح، ومبعث هدايته، ولأبها كنيسة القيامة التى يحجون إليها، لأن جثمان السيد المسيح الطاهر - فيما يعتقدون - قد

(١) نُظر صحيح البخارى ٧٦ / ٢، صحيح مسلم ١٦٣ / ٩ - ١٦٨، محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ١١١ / ٣ - ١٤١، تاريخ العرب القديم ٢٥٢ / ٢ - ٢٥٧.

(٢) صحيح البخارى ٧٧ / ٢، صحيح مسلم ١٦١ / ٩ - ١٦٣، محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ١٢٨ / ٣ - ١٤١، تاريخ العرب القديم ٢٥٧ / ٢ - ٢٦٢، الدكتور السيد المالكي: الذخائر المحمدية من ٧٧ - ٨١، السهمودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ٤٢٦ / ٢ - ٤٣٩، على الملا القارى: شرح الشفا ١٦٣ / ٢ - ١٦٥، القاضى عياض الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٩١ / ٢ - ٩٩.

دفن في مكان هذه الكنيسة ثم رفع إلى السماء^(١).

ويقدسها المسلمون لأنها أولى القبلتين، وبها ثالث الحرمين الشريفين^(٢)، ولأنها مسرى مولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ - وصدق الله العظيم حيث يقول «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله»^(٣).

وعن أبي الدرداء، عن النبي - ﷺ - أنه قال «فضلت الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفي مسجدي بألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس بخمسائة صلاة»^(٤).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: البيت المقدس بتة الأنبياء، وسكنته الأنبياء، ما فيه موضع شبر، إلا صلى فيه نبي أو قام فيه ملك^(٥).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك كثيراً من عواصم الشرق القديم لا يعرف عامة الناس عنها شيئاً، بل إن بعضاً من المثقفين لا يكادون يعرفون عنها شيئاً ذا قيمة علمية، فماذا يذكر الناس عن: قرناو - شبوه - تمنع - صرواح، وكلها كانت عواصم لدول في بلاد العرب (معين وحضر موت وقتبان وسياً)، كانت يوماً ما، ملء السمع والبصر.

وماذا يذكر الناس مثلاً عن عواصم الآشوريين في العراق القديم: آشور -

(١) لوقا ٢٤ / ٤١ - ٥٢، فيلب حتى تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ١ / ٢٨٧، عمر كمال توفيق:

تاريخ الإمبراطورية البيزنطية - ١٩٦٧، ص ٣٩ ثم قارن:

Eusebius, Bk, IX, ch. 5.2 وكذا Sozomenus, bk, i, ch. 4

(٢) صحيح مسلم ٩ / ٥ - ١١، صحيح البخاري ١ / ١١٠ - ١١١، ١ / ٢٥، إرواء الغليل ١ /

٣٢٢، محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ١ / ٣٥٠ - ٣٥٤، سيرة ابن هشام ١ /

٤٠١، ابن كثير: السيرة ٢ / ٣٧٢ - ٣٧٣، التفسير ١ / ٢٨٦ - ٢٨٨.

(٣) سورة الإسراء: آية ١.

(٤) مجير الدين الحنبلي: الأنس الحليل بتاريخ القدس والخليل ١ / ٢٩٩ الشيخ محمد محمود

الفحام: المسلمون واسترداد بيت المقدس، القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٢.

(٥) مجير الدين الحنبلي: المرجع السابق، ص ٢١١.

كالح، «كار - توكلتى - نتورتا» - دور شاروكين - نينوى». وماذا يذكر الناس عن عواصم آسيا الصغرى، بل عن المغرب والسودان القديم. ويدهى أن هذا الأمر، إنما ينطق على مدن ومواقع أثرية كثيرة، في مصر والشرق الأدنى القديم، لم نشأ أن نتبع فيها طريقة المعاجم التقليدية، وإنما اخترنا أن نسير فيها، طبقاً للتسلسل التاريخي لكل بلد على حدة -- قدر الإمكان - ومن ثم فقد قدمنا في كل جزء منها فهرست بالمدن والمواقع، حتى يستطيع القارئ الرجوع إلى مكان الموقع الذي يريده في الدراسة.

والله العلى الكريم، ذو الفضل العظيم، أسأل أن يكون في هذه الدراسة بعض النفع للقارئ المتخصص، فضلاً عن القارئ العادي.

«وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب»

الاسكندرية في ٢٥ رمضان ١٤١٩هـ

١٣ يناير ١٩٩٩

دكتور

محمد بيومي مهران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

سيدنا ومولانا محمد وآله الطيبين الطاهرين

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد، كما صليت
على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل
محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم في
العالمين، إنك حميد مجيد

الفصل الأول في شمال الجزيرة العربية (١) مكة المكرمة

(١) موقع مكة الجغرافي وأهميته:

تقع مكة المكرمة في منتصف الطريق المسالك بين اليمن والشام، وعلى بعد ٨٠ كيلو من البحر الأحمر، في واد غير فسيح من أودية جبال السراة تحيط به الجبال من كل جانب، وتكاد تحجبه إلا من ثلاثة منافذ، يصله أحدها بطريق قريب من البحر الأحمر، عند مرفأ «الشمبية» - مرفأ مكة في عصر النبوة وما قبله، وبعدة، حتى عصر عثمان بن عفان رضی الله عنه (٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م)، حيث بنى ميناء جدة - وأما المنفذ الثالث، فيصل المدينة المقدسة، بالطريق المؤدى إلى فلسطين^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن الأبحاث العلمية الحديثة، إنما قد أثبتت أن «الكعبة المشرفة» في قلب مكة المكرمة، إنما هي «مركز الأرض» ففي الخامس عشر من شهر يناير من عام ١٩٧٧ م، أعلن الأستاذ الدكتور حسين كمال، رئيس قسم الهندسة المدنية في كلية الهندسة - جامعة عين شمس، في حديث له نشر في صحيفة «الأهرام» بأنه توصل إلى ما يشبه النظرية الجغرافية التي تؤكد أن «مكة المكرمة» في مركز اليابس من الكرة الأرضية - أي «مركز الأرض».

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا، أنه من المعروف - تاريخياً ودينياً، قبل الإسلام، وفي الإسلام - أن «الحجر الأسود» هو علامة بدء طواف الطائفين حول الكعبة، وأن هؤلاء الطائفين إنما يبدأون طوافهم منه، بجاعلين الحجر الأسود عن أيسارهم، ويسيرون هكذا في سائر طوافهم حول الكعبة، حتى يختتموا طوافهم

(١) أحمد إبراهيم الشريف، الحجاز قبيل ظهور الإسلام، ص ٢٧ (الجزيرة العربية في عهد الرسول والخلفاء الراشدين - الجزء الأول - الرياض ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م).

بالحجر الأسود أيضاً، في إطار مسيرتهم، وهو على أيسارهم - ما عدا الحمس - .

ومن ثم فإذا قارنا بين نظرية مركزية الكعبة المشرفة في مكة المكرمة للأرض، وبين عملية الطواف الذي يمشى فيه الطائفون صوب اليسار، وأضفنا إلى ذلك دورة الكرة الأرضية العامة من هذه الناحية، فنكون حينئذ قد أدركنا جزءاً كبيراً من سر الطواف صوب اليسار، خلافاً للتيامن، الذي عليه آداب الإسلام، في الأعمال والأحوال ومختلف الشؤون الإسلامية العامة.

ولعلنا الآن نفهم الحكمة الإلهية من اختيار مكة المكرمة، مقراً لبيت الله الحرام، ومنطلقاً للرسالة الخاتمة - رسالة سيد محمد ﷺ - وهكذا كانت مكة المكرمة، مكاناً مقدساً، شرف بمولد - وكذا مبعث - النبي الخاتم، سيدنا ومولانا وجدنا، محمد رسول الله - ﷺ - ومهبطاً للوحي، ونقطة انطلاق الدعوة الإسلامية إلى العالم أجمع^(٢)، حيث بعثه ربه إلى الناس كافة، قال تعالى: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً»^(٣).

وهكذا أصبحت مكة المكرمة - بموقعها المتوسط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب - محطة صالحة لطرق القوافل الطوال، وهكذا أصبحت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام، ولن يعود بتجارة من الشام يحملها إلى شواطئ جنوب الجزيرة العربية.

والواقع أن موقع مكة الممتاز جغرافياً، إنما كان سبباً في أن يجعل من المدينة المقدسة عقدة تتجمع فيها القوافل، التي ترد من الجنوب تريد الشام، أو القادمة من 'اسم تريد اليمن، حتى إذا ما كان القرن السادس الميلادي، كتب للقرشيين

(٢) محمد بيومي مهران، الحضارة العربية القديمة، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٣٠٣، عبد القدوس الأبيصاري، الكعبة، (الجزيرة العربية قبل الإسلام - الرياض، ١٩٨٤، ص ١٢٥)، الحم عمر بن فهد، إتحاف الوري بأحبار أم القرى، ص ٦٦ - ٦٧.

(٣) سورة سآ نة ٢٨.

نجحاً بعيد المدى في احتكار التجارة في بلاد العرب، فضلاً عن السيطرة على طرق القوافل التي كانت تربط اليمن بالشام من ناحية، وبالعراق من ناحية أخرى^(٤).

(٢) أسماء مكة المكرمة:

لاريب في أن مكة المكرمة، إنما هي أهم مواضع الحضرة في الحجاز الشريف، ولاريب كذلك في أنها إنما ترجع - في نشأتها الأولى - إلى عهد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق. م)، وولده إسماعيل عليه السلام (١٨٥٤ - ١٧١٧ ق. م)^(٥)، وأن سكانها إنما كانوا من أبناء إسماعيل عليه السلام، إلى جانب قبائل عربية أخرى، لم يقدم لنا المؤرخون عنها معلومات دقيقة - أو حتى شبه دقيقة كالعماليق وجرهم وخرزاعة^(٦)، وأن الإسماعيليين - أو العدنانيين كما يسميهم المؤرخون المسلمون - كانوا يتكلمون اللغة العربية التي لم تصلنا بها نقوش مكتوبة، ربما بسبب عدم وجود خط متميز لهم قبل الإسلام - كخط المسند في الجنوب - وربما لأن طبيعة السكان في الحجاز لم تكن تميل إلى الكتابة^(٧)، وإن وجدت كتابات لغير الإسماعيليين في الحجاز، كالشموديين مثلاً.

(٤) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٥٤، وكذا:

S. A. Huzayyin, Arabia and The Near East, Cairo, 1942, p. 142

- 143 W. M. Watt, Muhammad at Mecca, Oxford, 1953, p. 3.

وفي الترجمة العربية (محمد في مكة - تعريب شعبان بركات) ص ١٨ - ٢٠.

(٥) أنظر: (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١ / ١٢١ - ١٢٧، ١٩٥٠ (الرياض ١٩٨٠).

(٦) أنظر ابن قتيبة: المعارف ص ٣١٣، الأغاني ١٩ / ٩٤، وانظر عن العماليق (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١٢ / ٥٦٣ - ٥٧١).

(٧) النويري ١٢ / ٢٧٨، كشف الظنون ١ / ٢٥ - ٢٦، أصل الخط العربي ص ٧، عيد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية ١ / ٧٧، وكذا: E. Gibbon, the decline and fall of the Roman Empire, p. 220).

ويختلف المؤرخون في اشتقاق كلمة «مكة»، فذهب فريق إلى أنها إنما سميت مكة كذلك، لأنها نملك النجبارين، أى تذهب نخوتهم، وذهب فريق ثان إلى أنها إنما تقع بين جبلين مرتفعين عليها، وهى فى هبطة بمنزلة المكوك، وذهب فريق ثالث إلى أن الكلمة مشتقة من «أمتك» من قولهم: أمتك الفيصل ضرع أمه، إذا مصه مصاً شديداً، ولما كانت مكاناً مقدساً للعبادة فقد امتكت الناس، أى جذبتهم من جميع الأطراف^(٨)، إلى غير ذلك من التفسيرات المألوفة عند الاخباريين فى تفسير الأسماء التى لاعلم لهم بها.

غير أن إسم مكة لما كان سابقاً لتفسيرات الاخباريين هذه، ولما كان الجنوبيون قد سكنوا مكة مع الإسماعيليين، فإن هناك من يرجح أن الاسم إنما أخذ من لغة الجنوب، مستنداً إلى البيت الحرام، فمكة أو «مكرب» - فى رأى هذا الفريق من العلماء - كلمة بمعنى مكونة من «مك» و«رب»، ومك بمعنى بيت، فتكون «مكرب» بمعنى «بيت الرب» أو «بيت الإله»، ومن هذه الكلمة أخذت مكة إسمها، - بكة بقلب الميم باء على عادة أهل الجنوب - ويرى «بروكلمان» أنها مأخوذة من كلمة «مقرب» العربية الجنوبية، ومعناها «الهيكل»^(٩).

هذا وقد أطلق القرآن الكريم على مكة عدة أسماء، منها «بكة» لقول الله تعالى: «إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين»^(١٠)، وهنا يحاول الاخباريون أن يفرقوا بين مكة وبكة، فالأولى هى القرية كلها، والثانية

(٨) ياقوت ١ / ١٨١ - ١٨٢، ابن هشام ١ / ١٢٥ - ١٢٦، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤٣٩١.

(٩) أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٨، كارول بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ٣٣، وكذا:

Gerald De Gaury, Rulers of Mecca, London, 1951, p. 24.

(١٠) سورة آل عمران: آية ٩٦، ويرى أن رجلاً سأل الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، أهو أول بيت، قال لا، وقد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً، وأول من بناه إبراهيم عليه السلام (تفسير الكشاف ١ / ٤٤٦، تفسير الطبرى ٣ / ٦٩، ٧ / ١٩، ثم قارن ١٧ / ٢٠، البداية والنهاية ٢ / ٢٩٩).

موضع الكعبة البيت الحرام، أو أن «بكة» هي موضع البيت الحرام ومكة ما سوى ذلك»^(١١).

كذلك أطلق القرآن على مكة «أم القرى» في قوله تعالى «ولتنذر أم القرى ومن حولها»^(١٢)، ولعل هذه التسمية القرآنية إنما تدل على أن مكة إنما هي أعظم مدن الحجاز، ولأنها شرفت ببيت الله، أول بيت وضع للناس في الأرض، فيه الهدى، وفيه البركة، وفيه الخير الكثير، جعله الله مثابة للناس وأماناً، وهو كذلك للأحياء جميعاً، ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض جميعاً - ولم تكن هناك دعوة عامة من قبل - وإليه يحج المؤمنون بهذه الدعوة من كل البقاع، ومن كل الأجناس^(١٣)، وصدق الله العظيم حيث يقول «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق»^(١٤).

وهناك الاسم القرآني «البلد»، لقول الله تعالى: «لا أقسم بهذا البلد، وأنت حلٌّ بهذا البلد»^(١٥) وهناك «البلد الأمين» لقول الله تعالى: «والتين والزيتون، وطور سنين، وهذا البلد الأمين»^(١٦).

هذا وقد أورد أصحاب التواريخ والمعاجم اللغوية ومعاجم البلدان، أسماء كثيرة للبلد الحرام^(١٧). وقد نظم «القاضي أبو البقاء بن الضياء الحنفي» سبعة أبيات،

(١١) الأزرقي ١ / ١٨٨، تفسير المنار ٤ / ٧، تفسير الطبري ٧ / ٢٣ - ٢٧، تفسير البيضاوي ١٧٢ / ١.

(١٢) سورة الأنعام: آية ٩٢، سورة الشورى: آية ٧.

(١٣) في ظلال القرآن ٧ / ١١٤٨، ٣١٤٢ / ٢٥.

(١٤) سورة الحج: آية ٢٧.

(١٥) سورة البلد: آية ١ - ٢.

(١٦) سورة التين: آية ١ - ٣.

(١٧) انظر (معجم البلدان لياقوت الحموي ١ / ٤٧٥، ١٨١ / ٥ - ١٨٢، الفاسي: العقد الثمين ١ /

٣٦-٣٥، سيرة ابن هشام ١ / ١٢٥ - ١٢٦، المويري: نهاية الأرب ١ / ٣١٣ - ٣١٤،

القاموس المحيط ١ / ٢٣٥، ٢٣٩، ٩٧ / ٣، ٣١٩، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام من

١٨، صبح الأعشى ٤ / ٢٤٨، بلوغ الأرب ١ / ٢٢٨، تاريخ الخميس ص ١٢٥، تفسير القرطبي

٢٠ / ٥٩ - ٦٠، تفسير البيضاوي ٣ / ٥٥٩، تفسير المعر الرازي ٣١ / ١٨٠، تفسير الطبري

١٧ / ١٩ - ٢٦، ٣٠ / ١٩٣ - ١٩٤).

جمع فيها أسماء مكة المكرمة نحو الثلاثين اسماً، نقلها «ابن ظهيرة» في كتابه «الجامع اللطيف»، وهي:

لمكة أسماء ثلاثون عددت	ومن بعد ذلك اثنان منها اسم بكة
صلاح وكوني والحرام وقادس	وحاطمة البلد العريش بقرية
ومعطشه أم القرى رحم باسمه	ونساسة رأس بفتح الهمزة
مقدسة والقادسة ناشة	ورأس وتاج أم كسونى كسيرة
سبوحة عرش أم رحمن عرشنا	كسذا حرم البلد الأمين كبلدة
كذلك اسمها البلد الحرام لأمنها	وبالمسجد الأسنى الحرام تسمت
وما كثرة الأسماء إلا لفضلها	جباها به الرحمن من أجل كعبة ^(١٨)

(٣) نشأة مكة المكرمة:

لعل أقدم ذكر لمكة البلد الحرام في النصوص القديمة، إنما يرجع إلى القرن الثاني الميلادي، إذ يحدثنا الجغرافي اليوناني المتحصر - بطليموس - (١٢١ - ١٥١ م) من بطلمية (النشأة الحالية بمحافظة سوهاج)^(١٩)، عن مدينة دعاها «مكرية» (ماكورابا Macoraba)، رأى العلماء أنها المدينة المقدسة - مكة المكرمة^(٢٠).

هذا ويذهب «أوجست ميلر» وغيره، إلى أن المعبد الذي ذكره «ديودور الصقلي» (القرن الأول ق.م) في أرض قبيلة عربية، دعاها (Bizomeni) إنما يعني به «بيت مكة»، أمر غير مقبول، فهو يقع بعيداً عن مكة المكرمة في «حسمى» في مكان دعاها «ألويس موسل» باسم «عوافة»، حيث بنت قبيلة نمود،

(١٨) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ٢٨٣ (مكة المكرمة ١٩٨٣).

(١٩) انظر (محمد بيومي مهران: مصر ١ / ٨٧ - ٨٨).

(٢٠) انظر:

Ptolemy, VI, p. 7, 32.

Gerald De Gaury, Rulers of Mecca, London, 1951, p. 24. وكذا.

فيما بين أخريات عام ١٦٦م، وبداية عام ١٦٩م، معبداً هناك^(٢١)، وربما كان هذا المعبد هو الذي أشار إليه «ديودور» على أنه المعبد الذي يقدمه العرب^(٢٢).

وليس هناك إلى سبيل من ريب، في أن المدينة المقدسة، إنما ترجع إلى ما قبل عصر بطليموس (١٢١ - ١٥١م)، حيث كتب كتابه «الجغرافيا» والمعروف باسم «جغرافية بطليموس» حوالي عام ١٥٠م^(٢٣).

ومن ثم فقد ذهب فريق من العلماء إلى أن مكة المكرمة، إنما هي سابقة لكتابة أسفار التوراة (العهد القديم)^(٢٤)، فإنما هي «ميشاء» المشار إليها في سفر التكوين^(٢٥)، وهي «ميشاء» التي يرى الرحالة «برتون» أنها كانت بيتاً مقصوداً لعبادة أناس من الهند، ويقول الرحالة الشرقيون أنها كانت كذلك بيتاً مقصوداً للصائمين، الذين أقاموا في جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون^(٢٦).

على أنه من الغريب أن بعض المؤرخين العرب إنما يذهب إلى أن تأسيس المدينة المقدسة، إنما كان في منتصف القرن الخامس الميلادي^(٢٧)، ومن ثم فإنه

(٢١) أنظر عن معبد العرافة:

Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 15.

J. B. philby, The Land of Middian, MEG, 9, 1955, p. 127 F. وكذا:
Gerald De Gaury, op. cit., p. 12.

وكذا: BIOR, 15, 1958, p. 8 - 9.

(22) Gerald De Gaury, op. cit., p. 12.

C. H. Oldgather, Diodorus Siculus, Bibliotheca Book, III, وكذا:
XXXI.

(٢٣) أنظر:

Ptolemy, Geographia, Edited by C. F. Nobble, 3 Vols 1843 -
1845.

(٢٤) أنظر عن تاريخ كتابة أسفار التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل، الجزء الثالث، التوراة،
الإسكندرية ١٩٧٩، ص ١٨ - ٩٦).

(٢٥) تكوين ١٠ / ٣٠.

(٢٦) عباس العقاد: مطلع النور، ص ١١٣.

(٢٧) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ٤٥/١، صبح الأعشى، ١٤ / ٢٥٠.

يتأخر بتاريخها حوالي ثلاثة وعشرين قرناً، لسبب لا أدريه، وإن كان يخيل إلى أنه اعتبر تاريخ مكة لا يبدأ إلا بقصى بن كلاب، الذي حدد له القرن الخامس الميلادي^(٢٨)، وطبقاً لرواية الإخباريين التي ذهبت إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة إلى أن تولي أمرها «قصي بن كلاب» ذلك لأن جرهم وخزاعة - فيما يزعمون - لم يكونوا براغبين في إقامة بيوت بجوار بيت الله الحرام^(٢٩)، وكأننا نريد هؤلاء الإخباريون أن يقولوا لنا أن مكة ظلت على بداوتها، منذ أقام بها اسماعيل، عليه السلام، في القرن التاسع عشر ق. م، وحتى أصبح أمرها بيد «قصي بن كلاب» في القرن الخامس الميلادي، وتلك مبالغة - فيما أظن - غير مقبولة.

هذا وقد ذهبت آراء أخرى إلى أن تاريخ مكة، إنما يرجع إلى القرن الأول ق. م، واعتماداً على رواية «ديودور الصقلي» - الآنف الذكر - ورغم أن ديودور لم يذكر تاريخ واسم المعبد، إلا أن أصحاب هذا الاتجاه إنما رأوا أن وصف ديودور للمعبد بأنه كان محجة للعرب جميعاً، لا ينطبق إلا على الكعبة المشرفة^(٣٠)، ولكن «ديودور» لم يحدد لنا بدء سكنى المدينة المقدسة، فضلاً عن تحديد تاريخ بناء المعبد نفسه، ومن ثم فربما اعتمد المؤرخون في تحديدهم للقرن الأول ق. م، كباية لسكنى مكة، على أنه العصر الذي عاش بعده ديودور الصقلي.

ويذهب «دوزي» إلى أن تاريخ مكة إنما يرجع إلى أيام داود عليه السلام، حيث أقام بنو شمعون بن يعقوب - والذين يسميهم الإخباريون جرهم - الكعبة^(٣١)، في القرن العاشر ق. م^(٣٢)، وتلك أكذوبة كبرى لأسباب منها (أولاً)

(٢٨) حسن إبراهيم: المرجع السابق، ص ٤٦.

(٢٩) تاريخ يعقوب، ١ / ١٩٧.

(٣٠) جواد علي ٤ / ١٢، وكذا: R. Dozy, Die Israeliten zu Mekka, p. 13.

E. Gibbon, op. cit., p. 50. وكذا:

Caussin de Perceval, op. cit., I, p. 174. وكذا:

(31) R. Dozy, op. cit., p. 15.

(٣٢) انظر عن تاريخ داود، كتابنا إسرائيل، ص ٤١٧ - ٤١٨.

أن قبيلة شمعون الإسرائيلية لم تهاجر أبداً إلى مكة، وإنما كل ما جاء عنها - وطبقاً لرواية التوراة نفسها^(٣٣) - أنها هاجرت على أيام حزقيا ملك يهوذا (٧١٥ - ٦٨٧ ق.م) إلى الجنوب الغربي من واحة معان، ثم تابعت سيرها حتى بجاية الجنوب الغربي لجبل سعير، حيث قضوا على بقايا ضعيفة، أو جيوب صغير للعمالق هناك^(٣٤)، ومنها (ثانياً) أن قبيلة شمعون كانت من أضعف القبائل الإسرائيلية حتى عشية موت سليمان، عليه السلام، في عام ٩٢٢ ق.م، وانقسام الدولة بعد ذلك مباشرة، إلى يهوذا وإسرائيل، ويكاد يجمع المؤرخون اليهود أنفسهم على أن قبيلة شمعون إنما كانت دائماً وأبداً تعيش على هامش القبائل الإسرائيلية، وأنها أبداً لم تحتل المكانة التي تجعلها تقوم بدر مستقل في العصر التاريخي الإسرائيلي^(٣٥)، فضلاً عن أن تقوم بهجوم ساحق على بلاد العرب وتنتزلي على مكة.

ومنها (ثالثاً) أن التوراة نفسها تكاد تتجاهل سبط شمعون، دون غيره من أسباط إسرائيل، ربما لضآلة شأنه، حتى أنها لا تكاد تتعرض لذكر هذا السبط، إلا عند دخول بني إسرائيل أرض كنعان^(٣٦)، وإلا بعد طلب من يهوذا^(٣٧)، ثم مرة أخرى، عند رحيله من جنوب يهوذا إلى واحة معان، في أخريات القرن الثامن وأوائل القرن السابع ق.م، كما أشرنا من قبل، مما دفع بعض الباحثين إلى أن يذهبوا بعيداً، فيرون أن سبط شمعون لم يكن له وجود في عالم الحقيقة^(٣٨).

ومنها (رابعاً) أن هذا الرأي إنما يؤمن بغير حدود بما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن الخليل عليه السلام، لم يذهب إلى الحجاز، وبالتالي لم يتم

(٣٣) أخبار أيام لان ٤ - ٤١ - ٤٣.

(٣٤) الرهبان موسل: شمال الحجاز، ص ٥ - ٩، وكذا:

D. S. Margoliouth, op. cit., p. 51.

(35) M. Noth, The History of Israel, p. 23.

(٣٦) يشوع ١٩: ١ - ٩.

(٣٧) قضاة ١: ٣.

(38) C. F. Burney, Israel's Settlement in Canaan, p. 37 - 58.

مع ولده اسماعيل يبناء الكعبة، وهو زعم لا يعتمد إلا على التعصب ضد العرب، وعلى معارضة الحقائق التاريخية، فضلاً عما جاء في القرآن الكريم بشأن هذه الأحداث الثابتة^(٣٩)، ومنها (خامساً) أنه يتأخر بتاريخ مكة المكرمة قرابة قرون تسعة.

وهناك رواية اخبارية يزعم أصحابها أن العماليق إنما كانوا يعيشون في مكة والمدينة وبقية مدن الحجاز، وأنهم قد عاثوا في الأرض فساداً، ومن ثم فقد أرسل إليهم موسى، عليه السلام، حبشاً قضى عليهم، وسكن اليهود المنطقة بدلاً عنهم^(٤٠) ولا ريب في أن هذا زعم كذوب من أساسه - الأمر الذي سوف نناقشه بالتفصيل عند الحديث عن المدينة المنورة - وعلى أى حال فإن موسى إنما كان يعيش في القرن الثالث عشر ق.م، وأنه خرج بالاسرائيليين من مصر حوالي عام ١٢١٤ ق.م، كما حددنا ذلك في كتابنا اسرائيل^(٤١).

والرأى عندي أن تاريخ مكة إنما يرجع إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ذلك أننا نعرف - تاريخياً ودينياً - أن الخليل عليه السلام، قد أتى بولده اسماعيل وزوجه هاجر من فلسطين، وأسكنهما هناك في هذه البقعة المباركة^(٤٢)، طبقاً لصريح القرآن الكريم، حيث حيث يقول ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة

(٣٩) انظر كتابنا اسرائيل، ص ١٨٣ - ١٨٩، وكتابنا دراسات في التاريخ القرآني، الفصل الرابع، من الجزء الأول ص ١٨١ - ٢٣٥.

(٤٠) حواد على ١٣ / ٤، الأعلام النفسية، ص ٦٠ وما بعدها.

(٤١) انظر (محمد يوسى مهران) اسرائيل ١ / ٢٥١ - ٤٥٦، وأنظر طبعة ١٩٩٩ ص ٢٥٩ - ٤٤٢.

(٤٢) تاريخ الطبري ١ / ٢٥١ - ٢٥٩، ابن الأثير ١ / ١٠٢ - ١٠٥، ابن كثير ١ / ١٥٤ -

١٥٤، المقدسي ٣ / ٦٠، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٣٦ - ٣٧، شفاء العمام ٢ / ٣، تاريخ الخميس

ص ١٠٦، تاريخ البيهقي ١ / ٢٥، تفسير روح المعاني ١٢ / ٢٣٦ - ٢٣٧، تفسير الطبري

١٣ / ٢٣٠ - ٢٣٣، تفسير الفخر الرازي ١٩ / ١٣٦، الأزرقى ١ / ٥٤ - ٥٦.

من الناس^(٤٣) تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون^(٤٤).

والتاريخ يحدثنا أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - قد فقد الأمل في إيمان القوم في العراق القديم - بعد المناظرة التي جرت بينه وبين ذلك الذي وصفه القرآن بأنه الذي آتاه الله الملك^(٤٥) - فإن الله لا يهدى القوم الظالمين.

وهكذا اتجه الخليل عليه السلام، من بلده «حاران» (حاران) - وتقع على نهر بلخ، على مبعده ٩٦ كيلا إلى الغرب من تل حلفا - إلى كنعان. ويقيم الخليل عليه السلام، ما شاء الله له أن يقيم في أرض كنعان، ثم يرحل عنها - لأسباب كثيرة، لاريب أن أهمها الدعوة إلى الله تعالى^(٤٦) - صوب أرض الكنانة الطيبة، ويرجع العلماء - أو يكادون - أن وصول أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، إلى مصر، إنما كان على أيام الأسرة الثانية عشرة المصرية (١٩٩١ - ١٧٨٦ ق.م)^(٤٧).

ثم يعود أبو الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - إلى فلسطين مرة أخرى، وقد تزوج في مصر من السيدة هاجر^(٤٨)، رضوان الله عليها، ويقيم في فلسطين،

(٤٣) تذهب كتب التفسير إلى أن الله سبحانه وتعالى لو قال «أفئدة الناس» ولم يقل «أفئدة من الناس»، لادحهم عليهم الفرس والروم والناس كلهم، ولحجت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال «أفئدة من الناس» فاختص به المسلمون (انظر: تفسير ابن كثير ١٤٢ / ٤، تفسير البضاوي ١ / ٥٢٣، تفسير القرطبي ١٩ / ٣٧٣، التفسير الكبير للفخر الرازي ١٩ / ١٣٧، تفسير النسفي ٣ / ٢٦٤، تفسير روح المعاني ١٣ / ٢٣٨ - ٢٣٩، تفسير الطبري ١٣ / ٢٣٣ - ٢٣٤).

(٤٤) سورة إبراهيم: آية ٣٧، وانظر: تفسير روح المعاني ١٣ / ٢٣٦ - ٢٤١، مجمع البيان للطبري ١٣ / ٢٢٤ - ٢٣٠، تفسير الطبري ١٣ / ٢٢٩ - ٢٣٥، تفسير ابن كثير ٤ / ١٤١ - ١٤، تفسير الكشاف ١٢ / ٣٨٠).

(٤٥) انظر (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الرابع - بيروت ١٩٨٨، ص ١٤٧ - ١٥٦).

(٤٦) انظر عن هجرات إبراهيم عليه السلام (محمد بيومي مهران: اسرائيل ١ / ٨٢ - ١٣٢، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١ / ١٢٧ - ١٥٩).

(٤٧) انظر (محمد بيومي مهران: مصر، الجزء الثاني، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٤٣٠ - ٤٣٦).

(٤٨) انظر عن السيدة هاجر (محمد بيومي مهران اسرائيل ١ / ١٧٥ - ١٨٤)، وانظر طبعة ١٩٩٩، ص ١٦٤ - ١٧١.

حيناً من الدهر - شهوراً وربما سنين عدداً - ثم يتجه إلى أرض الحجاز الشريف،
بولده إسماعيل، وزوجه هاجر (٤٩).

هذا ويروي البخاري عن سعيد بن جبيرة (٤٥ - ٩٥ هـ / ٦٦٥ -
٧١٤ م) عن عبد الله بن عباس (٥٠) (٣ ق. هـ / ٦١٩ م - ٦٨ هـ / ٦٨٧ م)
قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل، أم إسماعيل اتخذت منطلقاً لتعفى أثرها
على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل - وهي ترضعه - حتى
وضعها عند البيت، عند دوحه فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ
أحد، وليس بها ماء، فوضعها هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء
فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب،
وتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل
لا يتلفت إليها، فقالت له: أ الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذا لا يضيئنا، ثم
رجعت.

فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثانية، حيث لا يروونه، استقبل بوجهه
البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات (٥١)، ورفع يديه، فقال: «ربنا إني أسكنت من

-
- (٤٩) أنظر (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم / ١ - ١٣٨ - ١٥٩)
(٥٠) أنظر عن ابن عباس (طبقات ابن سعد ٢ / ٣٦٥ - ٣٧٢ ط بيروت حلية الأولياء / ١ - ٣١٤ -
٣٢٩، طبقات العقهاء للشيرازي ص ١٨ - ١٩، تذكرة الحفاظ للذهبي، ص ٤٠ - ٤٢،
نكت الهميان للصفدي، ص ١٨٠ - ١٨٢، تهذيب التهذيب لابن حجر ٥ / ٢٧٦ - ٢٧٩،
الأعلام للزركلي ٤ / ٢٢٨، الإصابة في تمييز الصحابة ٢ / ٣٣٠ - ٣٣٤، الاستيعاب لابن
عد البر ١٢ / ٣٥٠ - ٣٥٧، فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي / ١ - ٦٢ - ٦٩، وفيات الأعيان
٣ / ٦٢ - ٦٩، شذرات الذهب / ١ - ٧٥ - ٧٦).
- (٥١) ابن كثير: البداية والنهاية / ١ - ١٥٤ - ١٥٧، قصص الأنبياء / ١ - ٢٠٣، تفسير القرطبي
٣٥٩٨، ٣٥٩٧، صحيح البخاري / ٤ - ١٧٢ - ١٧٧.

ذريتي بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات، لعلهم يشكرون،^(٥٢).

ومرغان ما فرغ الطعام والماء، فعطشت هاجر، وعطش وليدها، وراح يتلبط، ونظرت إليه، وهو يتلوى من العطش، فأحست نياط قلبها يتمزق وكاد عقلها أن يعطش، وراحت تسمى بين الصفا والمروة، تلهف على رؤية أحد يتقذ وليدها من الموت عطشاً، حتى إذا ما أتمت السعي سبع مرات، عادت إلى اسماعيل، فإذا الماء قد ظهر عند قدميه، فجعلت تخوضه فى فرح، وتغرف الماء فى سقاتها، وأرضعت وليدها، وإذا بملك عند زمزم يقول لها: لاتخافى الضيمة، فإن هذا بيت الله الحرام، بينه هذا الغلام وأبوه، وأن الله لا يضيع أهله،^(٥٣).

وهكذا كتب الله الرؤوف الرحيم لإسماعيل وأمه النجاة، وكان السعي بين الصفا والمروة من شعائر الله، وصدق عز من قال: «إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر، فلا جناح عليه أن يطوف بهما، ومن تطوع خيراً، فإن الله شاكراً عليم»^(٥٤)، ويروى ابن عباس - حبر الأمة، وترجمان القرآن - عن سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله (ﷺ) قوله: «فلذلك سعى الناس بينهما»^(٥٥).

ولست أدري: هل كان يدور بخلد جدتنا العظيمة، أم اسماعيل، عليهما

(٥٢) سورة إبراهيم: آية ٣٧، وانظر: تفسير روح المعاني ١٣ / ٢٣٦ - ٢٤١، تفسير السعدي ٤ / ٦٩ - ٧٣، تفسير الطبري ١٣ / ٢٢٩ - ٢٣٥، الطبرسي ١٣ / ٢٢٤ - ٢٣٠، تفسير ابن كثير ٢ / ٨٣٧، تفسير الكشاف ٢ / ٣٨٠، فى طلال القرآن ٤ / ٢١٠٩ - ٢١١٠، صغرة التماسير ٢ / ١٠٠، زاد السير ٤ / ٣٦٧ - ٣٦٨، تفسير النسفى ٢ / ٢٦٣ - ٢٦٤، تفسير القرطبي، ص ٣٥٩٧ - ٣٦٠٣.

(٥٣) معجم باقوت ٣ / ١٤٨ - ١٤٩، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٣٦، شفاء الغراء ٢ / ٣ - ٤، المقدسى ١٣ / ٦٠ - ٦٢، الأزرقى ١ / ٥٤ - ٥٥، ٢ / ٣٩ - ٤٠، وانظر: القصة كاملة فى: صحيح البخارى ٤ / ١٧٢ - ١٧٩ (دار الحديث - القاهرة).

(٥٤) سورة البقرة: آية ١٥٨.

(٥٥) صحيح البخارى ٤ / ١٧٣.

السلام، أن ملايين المسلمين على مر السنين، سوف يسمون بين الصفا والمروة سبعة أشواط، تخليداً لذكرى ما كان في ذلك السعى من خير وبركة^(٥٦).

ويمر نفر من «جرهم» - أو من العماليق في رواية أخرى - بوادٍ قريبٍ من مكة، ويعرفون بأمر «زمزم»، ثم لم يلبثوا إلا قليلاً، حتى يعرضوا على السيدة الجليلة - أم إسماعيل - أن يقيموا في جوارها على أن يكون الماء ماءها، فأذنت لهم، وشب إسماعيل بينهم، وتعلم العربية منهم - فضلاً عن المصرية التي أخذها عن أمه - ثم تزوج بواحدة من بناتهم^(٥٧)، وإن كانت التوراة إنما تذهب إلى أن هاجر قد أخذت لولدها إسماعيل زوجة من أهلها، من مصر^(٥٨).

ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن هناك من المؤرخين المسلمين من تنبه إلى الفارق بين لغة قريش - لغة القرآن الكريم - ولغة عرب الجنوب، أي بين لغة العدنانيين ولغة القحطانيين، فلو كان إسماعيل قد تعلم العربية من «جرهم» لكانت لغته موافقة للغتهم، أو لغة غيرهم ممن نزل مكة، فضلاً عن أن منزلة «عرب» عند الله، ليست بأعلى من منزلة إسماعيل، عليه السلام، كما أن منزلة «قحطان» ليست بأعلى عند الله من منزلة إبراهيم، خليل الرحمن، وأبي الأنبياء، حتى يمنع إسماعيل فضيلة اللسان العربي، التي أعطيت لعرب بن قحطان^(٥٩)، ومن ثم فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن إسماعيل إنما كان أول من ألهم هذا اللسان العربي المبين^(٦٠)، بل أن هناك من يذهب إلى أن قحطان

(٥٦) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٣٦/١٩، تفسير القرطبي ٣٦٩/٩ - ٣٧٠، تفسير الطبري ٢٣٠/١٣ - ٢٣٢، شفاء الغرام ٣/٢ - ١٦،٦، مروج الذهب ٤٦/٢ - ٤٧، ابن كثير: قصص الأنبياء ١/١٠٥، الأزرقى: أخبار مكة ٤٠/٢.

(٥٧) صحيح البخارى ١٧٤/٤، الكامل لابن الأثير ١٠٣/١ - ١٠٤، مروج الذهب ٤٦/٢ - ٤٧، تاريخ الطبرى ٢٥٨/١، تفسير الطبرى ٢٣٠/١٣، تفسير البيضاوى ٥٢٣/١، تفسير الألوسى ٢٣٧/١٣، تفسير القرطبي ٢٧٤/٩، الأزرقى ١/١٠٥٧، شفاء الغرام ٤/٢، تاريخ ابن خلدون ٢٧/٢، ٣٣١، ٣٣٢، الإكليل ٩٨/١ - ١٠٢.

(٥٨) تكوين ٢١/٢١.

(٥٩) مروج الذهب ٤٦/٢.

(٦٠) تاريخ ابن خلدون ٨٦/٢، تاريخ الغميس ص ١١٠، تاريخ نيحوى ٢٢١/١، لسان العرب ٧٥/٢.

نفسه من ولد اسماعيل (٦١).

هذا وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه - أن قحطان من ولد اسماعيل - علي ماروي عن سيدنا رسول الله - ﷺ - أنه قال كل العرب من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام (٦٢)، هذا فضلا عن أن سيدنا رسول الله - ﷺ - مر بناس من أسلم خزاعة - وهم من قحطان - وكانوا يتناضلون، فقال: إرموا بني اسماعيل، فإن أباكم كان راميا (٦٣)، ومن ثم فإن ابن خلدون، (٧٣٢ - ٨٠٨هـ / ١٣٢٢ - ١٤٠٦م) إنما يذهب إلى أن جميع العرب إنما هم من ولد اسماعيل، لأن عدنان وقحطان، إنما يستوعبان العرب العدنانية والقحطانية (٦٤).

وفي إحدى زيارات الخليل لولده اسماعيل، وجده يصلح نبلا له، من وراء زمزم، فقال له: «يا اسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعيني، قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه السلام، وهو يبني: وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (٦٥).

ثم قال إبراهيم لاسماعيل، عليهما السلام: إئتني بحجر حسن، أضعه علي

(٦١) الاكليل ١٣٠/١ - ١٠٥، الفلقشندي: نهاية الأرب ص ٣٩٦ - ٣٩٧، تاريخ ابن خلدون ٢٤١ ١/٢ - ٢٤٢

(٦٢) طبقات ابن سعد ١/ ٢٥ (دار التحرير - القاهرة ١٩٦٨).

(٦٣) الاكليل ١٠٣/١ - ١٠٥، وفي صحيح البخاري (١٧٩/٤): «مرن النبي ﷺ، علي نضر من أسلم يتنازلون، فقال رسول الله ﷺ: إرموا بني اسماعيل، فإن أباكم كان راميا، وأنا مع بني فلان، قال: فأمسك أحد العريضين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: مالكم لانرون؟ فقالوا: يا رسول الله نرمى وأنت معهم، قال: إرموا، وأنا معكم كلكم».

(٦٤) تاريخ ابن خلدون ٢٤١/٢، نهاية الأرب للفلقشندي ص ٣٩٦ - ٣٩٧، الاكليل ١٠٣/١ - ١٠٥، قارن جواد علي ١/ ٤٨١ - ٤٨٢.

(٦٥) فتح الباري ٤/ ١٧٥، ومبشر ١٧٧٤.

الركن، فيكون للناس علماء، وذهب إسماعيل بالشمس لأبيه حجراً، فأناه به، ولكنه وجدته قد ركب الحجر الأسود في مكانه، فقال: يا أبت من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتاني به من لم يتكلم على بنائك، أتاني به جبرئيل من السماء (٦٦).

ولعل من الجدير بالإشارة هنا، أن تقديس الحجر الأسود، وبما نجم من ارتباطه بشيء مقدس، فقد يكون رمزاً للعهد الذي أخذه إبراهيم على نفسه وولده، يجعل هذا البيت مثابة للناس وأمناء، أو يكون قد أقامه إبراهيم حجة عليه وعلى ولده، بأن هذا قد انتقل من ملكهم إلى الله تعالى، ليكون للناس مصلى، ومسجداً للطائفين ولما كفيين والركع السجود، ومن ثم فقد وضعه في الركن الأقرب إلى الباب، ليكون أول حدود هذا البيت المكرم، الذي يتبدأ منه الطائفون، ومن ثم فقد كان الحجر الأسود محترماً من إبراهيم، محترماً من ولده، مقدساً عند المسلمين إلى اليوم، وإلى الغد، وإلى أن يغير الله هذه الأرض غير الأرض (٦٧).

هذا وليس صحيحاً أن الحجر الأسود إنما قد اختار له إبراهيم اللون الأسود، لسهولة تعيينه، وتحديد مكانه، كما أنه ليس صحيحاً ما يزعمه بعض المستشرقين من أن الحجر الأسود إنما هو من نوع «النيازك»، وأن تلؤلؤه دليل على أنه كان ذي لون غير السواد، وذلك لأن هذا اللون الأسود الذي نراه الآن إنما كان سببه خطايا الجاهلية وأرجاسها (٦٨).

روى الحافظ الدمياطي (أبو محمد شرف الدين حميد المؤمن بن خلف الدمياطي - ٦١٣ - ٧٠٥ هـ / ١٢١٧ - ١٣٠٦ م) في «المتجر الرابع» عن ابن

(٦٦) تاريخ الطبري ٢٥٠/١ - ٢٦٠، تفسير الطبري ٦٦/٣ - ٧٠، الكامل لابن الأثير ١٠٦/١، ابن كثير: البداية والنهاية ١٥٦/١، ١٦٣ - ١٦٦، تفسير القرطبي ١٢٢/٢، تاريخ الخميس ص ١١٣، شفاء للفرام ٤/٢ - ٨.

(٦٧) علي حسن الخربوطي: الكعبة على مر العصور - القاهرة ١٩٦٧ ص ١٩ - ٢٠، لطفى جصاصك ثورة الإسلام ص ٥٩، الهجرسي: كتاب الحج ص ٢٥، وانظر: العقد الثمين ٦٧/١ - ٦٨.

(٦٨) عبد القدوس الأنصاري: الكعبة ص ٢٣٦ (الجزيرة العربية قبل الإسلام - الرياض ١٩٨٤)، إدوار غالب: الموسوعة في علوم الطبيعة ٥٩٢/١.

عباس، رضى الله عنهما، قال قال رسول الله ﷺ: «الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة، وإنما سودته خطايا المشركين، يبعث يوم القيامة مثل أحد، يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا» - رواه ابن خزيمة.

ورواه الترمذى مختصراً قال: نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضاً من اللبن، فسودته خطايا بنى آدم» - قال الترمذى حديث حسن صحيح^(٦٩).

ولعل لسائلاً يتساءل: متى انتقل إبراهيم الخليل بولده وزوجه إلى مكان البيت الحرام في مكة المكرمة؟ وبعبارة أخرى متى بدأ تاريخ مكة المكرمة؟ ثم متى بنيت الكعبة المشرفة؟

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أننا قد توصلنا في دراسات سابقة إلى أن سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - انما عاش في الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م)^(٧٠)، وأنه رزق بولده اسماعيل، وهو في السادسة والثمانين من عمره^(٧١)، ومن ثم فإن اسماعيل يكون قد ولد في عام ١٨٥٤ ق.م، ولما كان قد عاش ١٣٧ عاماً - طبقاً لرواية التوراة^(٧٢) - فإنه يكون قد عاش في الفترة (١٨٥٤ - ١٧١٧ ق.م).

هذا وإذا ما كان صحيحاً ماذهب إليه بعض المؤرخين من أن إسماعيل قد شارك أباه إبراهيم، عليهما السلام، في بناء الكعبة، وهو في الثلاثين من عمره^(٧٣)، تصديقاً لقول الله تعالى «وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»^(٧٤)، فإن بناء الكعبة إنما كان

(٦٩) الحافظ الدمياطى: لتجر الرابع في ثواب العمل الصالح - تحقيق عبد الملك بن دهيش ص ٣٠٤ (مكة المكرمة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

(٧٠) أنظر: محمد يوسى مهران اسرائيل ٧٢/١-٨٢، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١٢٧-١٢١/١ (الرياض ١٩٨١) - دراسة حول التأريخ للأبياء ص ٨٩ - ١٧٨ (مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - العدد ٣٩ لعام ١٩٩٢م).

(٧١) تكوين ١٦/١٦.

(٧٢) تكوين ١٨/٣٥.

(٧٣) مروج الذهب ٣٦٧/١ (ط بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

(٧٤) سورة البقرة: آية ١٢٧.

حوالى عام ١٨٢٤ ق.م، ونظرا لأن إسماعيل قد جرى به إلى مكان الحرم، وهو مايزال رضيعا، أى حوالى ١٨٥٤ ق.م، فإن بدء سكنى مكة إنما كان حوالى عام ١٨٥٤ ق.م، وهذا يعنى أن مكة قد عمّرت منذ حوالى منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وهو تاريخ يجعلها واحدة من أقدم مدن بلاد العرب - الجنوبية والشمالية سواء بسواء.

وهكذا يمكن القول: إن تاريخ الحجاز القديم، لن يكون مفهوما، إلا عن طريق دراسة تاريخ أبى الأنبياء، سيدنا إبراهيم وولده سيدنا إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - وعلى أية حال، فإن سيدنا إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، إنما هو أبى العرب^(٧٥)، وهو بانى كعبتهم^(٧٦)، وهو الذى دعا الله تعالى أن يجعل مكة أقدس بقاع الأرض^(٧٧)، وهو أول من أذن فى الناس بالحج^(٧٨)، وأول من دعا لهذه الأرض الطيبة من الحجاز الشريف بالأمن والسكينة، والخير والبركة^(٧٩).

وهكذا كان الحجاز الشريف مهد خاتم الأنبياء والمرسلين - سيدنا ومولانا وجدنا محمد، ﷺ - ومهبط الوحى، ومنزل القرآن، تتجه إليه ملايين - بل بلايين - قلوب المسلمين ووجوههم، فى كل يوم خمس مرات^(٨٠) وتؤمّه كل سنة للملايين من الحجيج، إستجابة لدعوة إبراهيم، وأداءً للفریضة الخامسة من فرائض الإسلام - الحج -^(٨١).

وهكذا يبدو بوضوح أن أبى الأنبياء - إبراهيم عليه بالصلاة والسلام - لم يرتبط بدين من الأديان، كما ارتبط بالإسلام، ولم يؤمن أصحاب دين بالخليل،

(٧٥) سورة الحج: آية ٧٨.

(٧٦) سورة البقرة: آية ١٢٧.

(٧٧) سورة آل عمران: آية ٦٩.

(٧٨) سورة الحج: آية ٢٧.

(٧٩) سورة البقرة: آية ١٢٦.

(٨٠) أوقات الصلاة الخمس.

(٨١) سورة البقرة: آية ١٤٤.

كما آمن به المسلمون، ولم يتباه جنس بانتسابهم إلى الخليل، كما تباهى العرب بعامّة - وقريش بخامسة - ولم يتمسك أصحاب دين بدعوة الخليل، كما تمسك به المسلمون؛ رغم مزاعم اليهود والنصارى - أنهم ورثة الخليل، فى الإيمان والتوحيد الصحيح^(٨٢).

(٤) تحريم مكة المكرمة:

من المعروف - دينياً - أن مكة المكرمة، إنما قد حرمها الله - سبحانه وتعالى - بنص الكتاب والسنة.

(١) فمن الكتاب قول الله تعالى: «إنما أمرت أن أعبد رب هذا البلدة الذى حرمها، وله كل شىء، وأمرت أن أكون من المسلمين»^(٨٣)، وقول الله تعالى: «وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا، أو لم نمكن لهم حرماً آمناً، يحسى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا، ولكن أكثرهم لا يعلمون»^(٨٤)، وقول الله تعالى: «أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً، ويتخطف الناس من حولهم، أفبالباطل يؤمنون، وبنعمة الله يكفرون»^(٨٥). وروى البخارى (١٧٧/٤) بسند عن أنس: أن رسول الله ﷺ، طلع له أحد، فقال: هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وإنى أحرّم ما بين لابتيتها (أى المدينة).

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن مجاهد أن رسول الله - ﷺ، قام يوم الفتح فقال: إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لم تحل لأحد قبلى، ولا تحل لأحد بعدى، ولم تحل لى إلا ساعة من الدهر، لا ينفر صيدها، ولا يعضد شوكةا، ولا يختلى خلالها، ولا تحل لقطعتها،

(٨٢) محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١١٥/١ - ١١٦.

(٨٣) سورة النمل: آية ٩١.

(٨٤) سورة القصص: آية ٥٧.

(٨٥) سورة المتكوت: آية ٦٧، ثم أنظر عن تفسير الآيات الثلاثة الأخيرة (تفسير ابن كثير: ٦٠٤/٣ -

٦٠٥، ٦٣٠، ٦٧١، ٦٧٢، تفسير القرطبي ٤٩٦٢، ٥٠١٥، ٥٠٧٩، ٥٠٨٠ - تفسير

النسقى ٢٢٤/٣، ٢٤٠-٢٤١، ٢٦٤، فى ظلال القرآن ٢٦٦٩/٥ - ٢٦٧٠، ٢٧٠٣ -

٢٧٠٤ - ٢٧٥٢، صفوة التفسير ٤٢١/٢، ٤٤٠، ٤٦٨، تفسير البحر المحيط ١٢٦/٧).

(٨٦) صحيح البخارى ١٩٤/٥.

الا لمنشد، فقال العباس بن عبد المطلب، إلا الأذخر بإرسول الله، فإنه لا بد منه للقين والبيوت، فكت ثم قال، إلا الأذخر فإنه حلال (٨٦).

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى شريح المدرى أنه قال لعمرو بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة - إئذن لى أبها الأمير، أحدثك قولاً قام به رسول الله - ﷺ - الغد يوم الفتح، سمعته أذناى، ووعاه قلبى وأبصرته عيناي، حين تكلم به، حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجراً، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله - ﷺ - فيها، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب (٨٧).

وروى البخارى فى صحيحه (باب لا يحل القتال بمكة)، وقال أبو شريح رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: ولا يسفك بها دماً، وعن ابن عباس، رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ - يوم فتح مكة - لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنقرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى، ولم يحل لى، إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها، قال العباس: بإرسول الله، إلا الآخر، فإنه لقينهم، وليبوتهم، قال: إلا الأذخر، (٨٨)!

وعن أبى شريح المدوى أنه قال لعمرو بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة - إئذن لى أبها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله - ﷺ - للغد من يوم الفتح، فسمعت أذناى، ووعاده قلبى، وأبصرته عيناي - حين تكلم به - إنه حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ﷺ، ولم يأذن

(٨٧) صحيح البخارى ١٩٠/٥.

(٨٨) صحيح البخارى ١٨١/٣ - ١٩.

لكم، وإنما أذن لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس،
ويليغ الشاهد الغائب. فقيل لأبي شريح ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك
منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيد عاصيا ولا فارا بدم، ولا فارا بخربة خربة
بليدة (٨٩).

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عمر، رضى الله عنهما، قال قال
النبي ﷺ، معنى، أندرون أى يوم هذا؟ قال: الله ورسوله أعلم، فقال: فإن هذا يوم
حرام، أفتردون أى بلد هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: بلد حرام، أفتردون أى
شهر هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم؟ قال شهر حرام، قال: فإن الله حرم عليكم
دماءكم وأموالكم وأعراضكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم
هذا (٩٠).

وروى الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن منصور عن مجاهد عن طاوس
عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ، يوم الفتح - فتح مكة - الهجرة، جهاد
ونية وإذا استنفرتم فأنفروا، وقال يوم الفتح - فتح مكة - «إن هذا البلد حرمه الله
يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة، لا يعصده
شوكة، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط، إلا من عرفه، ولا يخلى خلالها، فقال العباس:
يا رسول الله، إلا الأذخر، فإنه لقينهم وليوتهم، فقال: إلا الأذخر (٩١).

وروى مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى الزبير عن جابر قالك سمعت النبي
ﷺ، يقول: لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح (٩٢).

وعن أبى هريرة قال: لما فتح الله عز وجل على رسول الله ﷺ، مكة، قام فى
الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها
رسوله والمؤمنين، وإنها أحلت لي ساعة من نهار، وأنها لن تخل لأحد

(٨٩) صحيح البخارى ١٧/٣ - ١٨.

(٩٠) صحيح البخارى ٢١٦/٢ - ٢١٧.

(٩١) صحيح مسلم ١٢٣/٩ - ١٢٦.

(٩٢) صحيح مسلم ١٣٠/٩.

بعدي، فلا ينفّر صيدها، ولا يختلي شوكتها، ولا تخل ساقطتها، إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يقدى، وإما أن يقتل، فقال العباس: إلا الأذخر يارسول الله، فإنما نجعله في قبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله ﷺ: إلا الأذخر^(٩٣).

وفي زاد المعاد «فلما كان الغد من يوم الفتح، قام رسول الله ﷺ، في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك فيها دماً، أو يعضد بها شجرة، فإن أحداً ترخص لقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما حلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب^(٩٤).

وروى أبو داود في سننه عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: لما فتح الله تعالى على رسول الله ﷺ، مكة، قام النبي ﷺ، فيهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله حبس عن مكة القليل، وملط عليها رسوله والمؤمنين، وإنما أحلت لي ساعة من النهار، ثم هي حرام إلى يوم القيامة لأبعض شجرها، ولا ينفّر صيدها، ولا تخل لقطتها، إلا لمنشد، فقال عباس أو قال: العباس: يارسول الله، إلا الأذخر، فإنه لقبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله ﷺ: إلا الأذخر^(٩٥).

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي الزبير عن جابر قال، قال رسول الله - ﷺ - «إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة، ما بين لابتيها^(٩٦)، لا يقطع عضاهها، ولا يصاد صيدها^(٩٧).

(٩٣) صحيح مسلم ١٢٨/٩ - ١٢٩.

(٩٤) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد - تحقيق شعيب الأرنؤوط - الجزء الثالث من ٤١١ - ٤١٢ (بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م)، وأخرجه السلي ٢٠٣/٥ - ٢٠٦، مسند الإمام أحمد ٣١/٤ - ٣٢، والترمذي.

(٩٥) سنن أبي داود ٤٦٥/١ (ط الحلبي - القاهرة ٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م).

(٩٦) اللابا (اللافا)، هي حرة فيها شيء مستطيل غير واسع، وهي على أبة حال صخور بركانية، وأما لابنا المدينة فهما حرة وأقم والويرة حيث تحصر المدينة بينهما.

(٩٧) صحيح مسلم ١٣٦/٩.

وفي «نيل الأوطار» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ - يوم فتح مكة - «إن هذا البلد حرام، لا يعصد شوكه، ولا يختلى خلاه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته، إلا لمعرف، فقال العباس: إلا الأذخر، فإنه لا بد منه، فإنه للقيون والبيوت، فقال، إلا الأذخر» (٩٨).

وعن عطاء أن غلاما من قريش قتل حمامة من حمام مكة، فأمر ابن عباس أن يفدى عنه بشاة - رواه الشافعي وابن أبي شيبة والبيهقي (٩٩).

وفي تهذيب الآثار بسنده عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل حرم مكة، فلم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، لا يختلى خلالها، ولا يعصد شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها، إلا لمعرف، قال العباس، إلا الأذخر، لصاغتنا وقبورنا، قال: إلا الأذخر» (١٠٠).

(٥) حدود الحرم:

من البدهي - وقد أصبحت مكة حرما بأمر الله تعالى - أن تحدد حدود هذا الحرم، وهي - على أية حال - معروفة، وقد نصبت فيها حجارة تعرف باسم «أنصاب الحرم»، فما وراءه حل، وما دونه حرم، وأول من نصب هذه الحجارة (أنصاب الحرم) سيدنا إبراهيم عليه السلام، دله على مواضعها جبريل، عليه

(٩٨) محمد بن علي الشوكاني: نيل الأوطار، شرح متقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار - الجزء الخامس ص ٢٤ (ط الكتب العلمية - بيروت).

(٩٩) نفس المرجع السابق ص ٢٥

(١٠٠) الامام الطبري: تهذيب الآثار - مسند عبد الله بن عباس خرج أحاديثه محمود محمد شاكر - السفر الأول ص ٧، وأنظر شرح الحديث ٨/١ - ٥٤ (ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م)، وأنظر أحاديث ٣٠/٥ - ٣١.

وقوله: «لا يعصد شوكه» أي لا يقطع، وقوله: «ولا يختلى خلاه»: الحلا: هو الرطب من النبات واختلاؤه قطفه واحتشاشه، وقوله: «إلا الأذخر» الأذخر: نبات معروف عند أهل مكة طيب الريح، له أصل متدفق وقضبان دقاق - ينبت في السهل والحزن، وأهل مكة يسقون به البيوت بين الحشب ويسدون به الخلل بين اللنات في القبور (أنظر: نيل الأوطار ٢٤/٥ - ٢٥، تهذيب الآثار - مسند عبد الله بن عباس ٨/١ - ٥٤)

السلام، ثم حوفظ عليها بعد ذلك، قبل الإسلام، وبعده، وإلى الآن، وإلى الغد إن شاء الله.

وتروى المراجع أن أنصاب الحرم، إنما قد جددت، بعد إبراهيم، فى عهد ولده إسماعيل عليهم السلام، ثم فى عهد «قصى بن كلاب» (فى القرن الخامس الميلادى).

وفى عصر النبوة، أمر سيدنا رسول الله - ﷺ - «نسيم بن أسد الخزاعى» بتجديد أنصاب الحرم، يوم فتح مكة (٨ هـ = ٦٣٠ م)، ثم جددت فى عهد الفاروق عمر، رضى الله عنه (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م)، فبعث أربعة كانوا يتدثون فى بواديها - فجددوا أنصاب الحرم، منهم مخزومة بن نوفل وأبو هود سعيد بن يربوع المخزومى، وحويطب بن عبد العزى، وأزهر بن عبد عوف الزهرى - وهم من قريش، فجددوها.

وفى العام السادس والعشرين للهجرة (٦٤٥/٦٤٦ م) جدد ذو النورين عثمان بن عفان، رضى الله عنه (٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٦٤ - ٦٥٦ م) أنصاب الحرم وذلك عندما بعث «عبد الرحمن بن عوف» رضى الله عنه، على الحج، وأمره أن يجدد أنصاب الحرم، فبعث عبد الرحمن نفرا من قريش - منهم حويطب بن العزى، وعبد الرحمن بن أزهر، وكان سعيد بن يربوع قد ذهب بصره فى آخر خلافة عمر، وذهب بصر مخزومة بن نوفل فى خلافة عثمان، فكانوا يجددون أنصاب الحرم.

وفى العهد الأموى (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م) جدها عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م).

وفى العصر العباسى (١٣٢ - ٦٥٦ هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨ م) جدها الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م) فى عام ١٥٩ هـ (٧٧٦ م)، كما جدها «المقتدر بالله» (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)، وفى عام ٣٢٥ هـ (١٣٦ م) أمر «الراضى بالله» العباسى بعمارة العلمين من جهة التنعيم، وفى عام ٦١٦ م (١٢١٩ م) أمر «المظفر» صاحب أربيل بعمارة العلمين من جهة عرفة،

كما جدها السلطان أحمد الأول العثماني في عام ١٠٢٣هـ (١٦١٤).

وأما آخر من جدها فهو الملك عبد العزيز آل سعود (١٨٨٠ - ١٩٥٣م) من جهة عرفة. هذا ومن الجدير بالإشارة، أن حدود الحرم الغربية والشرقية إنما تبعد عن الكعبة المشرفة ٢٠ كيلا، ومن الجنوب ١٣ كيلا، حيث الآكام التي تحف بوادي عرفة، ومن الشمال مسجد العمرة (مسجد السيدة عائشة على رأس وادي التنعيم، وعلى مسبعة ٨ كيلا من الكعبة المشرفة)، وهذا يعني أن حدود حرم مكة المكرمة، إنما هو ٨٨٢ كيلا مربعا تقريبا (١٠١).

(٦) أمان مكة:

قال الله تعالى: «إذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمانا، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والماكفين والركع والسجود، وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، ومن كفر فأمتعه قليلا، ثم اضطره إلى عذاب النار، وبئس المصير» (١٠٢).

والآيات الكريمة إنما تؤكد أن الله تعالى، إنما أراد أن يكون هذا البيت مثابة يثوب إليها الناس جميعا، فلا يروعه أحد، بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم، فهو ذاته آمن وطمأنينة وسلام (١٠٣).

ولقد أمروا أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله - وهذا مانخاره في تفسيره (١٠٤) - فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو

(١٠١) أنظر: الأزرقى: أخبار مكة ١٢٥/٢ - ١٣١، ٣٠٩/٢ محمد بيومي مهران: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين - السيرة النبوية الشريفة ٢٦٠/١ (بيروت ١٩٩٠م).
(١٠٢) سورة البقرة: آية ١٢٥ - ١٢٦، وأنظر: تفسير القرطبي ص ٤٩٦ - ٥٠٥، تفسير السفي ٧٣/١ - ٧٥، صفوة التفاسير ٩٢/١ - ٩٤، تفسير السعدي ٦٥/١ - ٦٦، تفسير الطبري ٢٥/٢ - ٥٦، تفسير المنار ٣٧٨/١، تفسير ابن كثير ٢٥٠/١ - ٢٥١.
(١٠٣) في ظلال القرآن ١١٣/١.

(١٠٤) اختلف المفسرون في المراد بمقام إبراهيم، فقيل هو المقام المعروف، وقيل هو الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء الكعبة، وقيل هو الحرم كله، وروى ابن عباس وعطاء أنه مواقف الحج كلها، وقيل عرفة ومزدلفة والجمار، وعن عائشة رضي الله عنها: أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ، وزمان أبي بكر، رضي الله عنه، ملتصقا بالبيت، لم أحره عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وقيل كان المقام عند البيت، فحول رسول الله ﷺ إلى موضعه هذا (أنظر تفسير المنار ٣٧٩/١، تفسير ابن كثير ٢٥١/١ - ٢٥٤).

الأمر الطبيعي، الذي لا يثير اعتراضاً، وهو أول قبلة يتوجه إليها المسلمون - ورقة إبراهيم بالإيمان والترحيد الصحيح - بما أنه بيت لقصاده وعباده من المؤمنين، بيت الله، لا بيت أحد من الناس، وقد عهد الله - صاحب البيت - إلى عبدين من عباده صالحين، أن يقوموا بتطهيره وإعداده للطائفتين والعاكفين والركع السجود، - أى للحجاج الوافدين عليه، وأهله العاكفين فيه، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون - فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكاً لهما، فيورث بالنسب عنهما، إنما كانا سادتين له بأمر ربهما، لإعداده.

ثم مرة أخرى يؤكد دعاء إبراهيم صفة الأمن للبيت وللبلد، ويدعو للمؤمنين من مكانه أن يبرزقهم الله من الثمرات^(١٠٥).

وعن أبي العالية في قوله تعالى «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً»، يقول: وأمناً من العدوان، وأن يجعل فيه السلام، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حزلهم وهم آمنون لا يسيون.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فيه، فلا يعرض له، كما وصفه الله - في المائة - «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس»، أى يدفع عنهم بسبب تعظيمها سوء^(١٠٦).

ولقد أكد الله تعالى الأمن للبلد الحرام، في سورتي القصص والعنكبوت^(١٠٧) - كما أشرنا من قبل -.

(٧) مكة في عهد إسماعيل وولده:

عاش إسماعيل - عليه السلام - بجوار بيت الله الحرام، وتزوج من امرأة مصرية، على رواية التوراة^(١٠٨)، ومن يمينه على رواية الإخباريين^(١٠٩) وقد أنجب

(١٠٥) في ظلال القرآن ١١٣/١ - ١١٤.

(١٠٦) تفسير ابن كثير ٢٥١/١، وأنظر: تفسير القرطبي ص ٤٩٦ - ٤٩٧.

(١٠٧) سورة القصص: آية ٥٧، سورة العنكبوت: آية ٦٧.

(١٠٨) تكوين ٢١-٢١.

(١٠٩) ابن كثير ٢/١ - ١، تاريخ الطبري ٣١٤/١، ابن الأثير ٤/١ - ١، ١٠٥، ١٢٥.

الأردني ٨٦/١، مروج الذهب ٢٠/٢ - ٢١، تاريخ ابن خلدون، للمعارف ص ١٦

من زوجته المصرية أو اليمنية - لست أدى على وجه التأكيد - أولاده إلاثني عشر، وهم - طبقاً لرواية التوراة^(١١٠) - «بنايوت وقيدار وأدثيل ومسام ومشماع ودومه ومسا وحدار وتيحا ويطور ونافيش وقدمه» وقد نقلهم الأخباريون في كتبهم بشيء قليل أو كثير من التحريف^(١١١).

وأياً ما كان الأمر، فإن إسماعيل قد ظل - بعد إبراهيم - يدعو الناس إلى عبادة الله في مكة ومجاورتها، حتى إذا ما انتقل إلى جوار ربه الكريم قام بنوه من بعده على السلطة الزمنية في مكة، وعلى خدمة البيت الحرام غير أن «جرهم» - طبقاً لرواية الاخباريين - سرعان ما تولت أمر البيت، وأبناء إسماعيل مع أخوتهم لا يرون أن ينازعوهم الأمر، لخزوتهم وقرابتهم وإعظاماً للحرمة أن يكون بها بنى أو قتال، إلى أن قدمت قبائل «الأزد» مهاجرة من اليمن، في فترة لانستطيع تحديدها على وجه اليقين، ونازعت واحدة من هذه القبائل (خزاعة) جرهم أمر البيت، حتى استولت عليه وطردت جرهم من مكة، ولم يلبث أبناء إسماعيل أن انتشروا في أنحاء شبه الجزيرة العربية، وخاصة في شمالها، وليست أسماء القبائل التي نسب إلى إسماعيل، إلا أسماء أبنائه أو أحفادهم^(١١٢).

وتاريخ بنى إسماعيل من هذه الفترة، وحتى عهد قصى، غامض غموضاً شديداً، ولا يعرف حتى المؤرخون العرب كيف يملأون فراغ هذه القرون المتطاولة، ولا تبرز شمسهم - مشبعة بالغيوم - فوق أفق التاريخ الحقيقي - إلا من عهد قصى في منتصف القرن الخامس الميلادي، على أن هذا لا يمنعنا أن نذكر - طبقاً لروايات الاخباريين - أنهم هم الذين قاموا على الحكومة والبيت في مكة،

(١١٠) تكوين ٢٥: ١٤ - ١٦.

(١١١) ابن الأثير ١٢٥/١، تاريخ الطبری ٣١٤/١، ابن كثير ١٩٣/١، مروج الذهب ٢١/١ - ٢٢، تاريخ ابن خلدون ٣٩١/٢، الأخبار الطوال ص ٩، تاريخ الخميس ١١١، جمهرة أساب العرب ص ٧، ٩ - ١٥، شفاء الغرام ١٧/٢ - ١٨.

(١١٢) مروج الذهب ٢٢/٢ - ٢٤، الأخبار الطوال ص ٩ - ١٠، صبح الأعشى ٣١٥/١، العقد النسيم ١٣١/١ - ١٣٢، تاريخ الخميس ص ١٢٤ - ١٢٦، أحمد إبراهيم الشريف - مكة والمدنية في الجاهلية وعصر الرسول ص ١٠١، ميروك نافع: المرجع السابق ص ١٣٣، ابن هشام ١٢٥/١.

الخليل، عليهما السلام^(١١٦)، وإلى هذا يشير الحديث الشريف «إختار الله من ولد إسماعيل كنانة، وإختار قريشا من كنانة، وإختار بنى هاشم من قريش، وإختارني من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار^(١١٧)» وفي رواية مسلم في صحيحه (٣٦١/١٥): إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قصياً وإنما هو أول رئيس من رؤساء مكة يمكننا الحديث عنه، دون أن يخالجننا ريب فيما نقول، فالرجل قد خلد ذكره في التاريخ بأعماله العظيمة في مكة، رغم ريب المرتابين، والرجل قد أوجد من النظم في تنظيم الحج إلى بيت الله الحرام، ما بقى بعده مئات السنين، والرجل هو الذي جعل البلد الحرام خالصاً لأهله من بنى كنانة من ولد إسماعيل، عليه السلام، بعد أن أبعد عنه المغتصبين من خزاعة.

وقد قام قصي بعدة إصلاحات في مكة، فبعد أن جمع القرشيين المبعثرين في نواحي متعددة إلى وادي مكة، جعل لكل بطن حياً خاصاً به على مقربة من الكعبة، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام، فيتعهدونه بالصيانة، ويدفعون عنه الخطر، ومن ثم فإنه لم يترك بين الكعبة والبيوت التي بنتها بطون قريش، إلا بمقدار ما يسمح للناس بالطواف، وإن كان أهم أعماله إنما هو إنشاؤه دار الندوة، حيث كان يدار فيها - تحت رئاسته، كل أمر قريش - وما أرادوه من حرب أو تجارة أو مشورة أو نكاح - فما كان لرجل ولا لأمراة أن يتزوج إلا فيها، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع إلا فيها، ومن ثم فقد كان على صاحب النار أن يشق درعها بيده، وكان القوم يفعلون ذلك بيناتهم إذا بلغن الحلم، وربما كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش - ذكوراً كانوا أم إناثاً - وأما

(١١٦) تاريخ الطبري ٢٥٤/٢ - ٢٧٥، ابن الأثير ١٨٢ - ٣٣، ابن خلدون ٢٩٨/٢، تاريخ الاسلام للذهبي ١٧/١، الاشتقاق ٢٠/١ - ٣٢، الاكليل ١١٠/١ - ١١٦، أخبار الزمان للمسعودي ص ١٠٤، الفلستندى: نهاية الأرب في معرفة أساب العرب ص ٢٣ - ٢٥ (القاهرة ١٩٥٣)، المعارف ص ٢٩ - ٣٢، الزبيرى: كتاب نسب قريش، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٣-١٤

(١١٧) ابن كثير. البداية والنهاية ٢٠٢/٢، وانظر: المواهب للتسلطاني ١٣/١.

الخليل، عليهما السلام^(١١٦)، وإلى هذا يشير الحديث الشريف «إختار الله من ولد إسماعيل كنانة، وإختار قريشا من كنانة، وإختار بنى هاشم من قريش، وإختارنى من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار^(١١٧)» وفى رواية مسلم فى صحيحه (٣٦/١٥): «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم».

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قصياً وإنما هو أول رئيس من رؤساء مكة يمكننا الحديث عنه، دون أن يخالفنا ريب فيما نقول، فالرجل قد خلد ذكره فى التاريخ بأعماله العظيمة فى مكة، رغم ريب المرتابين، والرجل قد أوجد من النظم فى تنظيم الحج إلى بيت الله الحرام، ما بقى بعده مشات السنين، والرجل هو الذى جعل البلد الحرام خالصاً لأهله من بنى كنانة من ولد إسماعيل، عليه السلام، بعد أن أبعد عنه المفتصبين من خزاعة.

وقد قام قصى بعدة إصلاحات فى مكة، فبعد أن جمع القرشيين المبعثرين فى نواحي متعددة إلى وادى مكة، جعل لكل بطن حياً خاصاً به على مقربة من الكعبة، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام، فيتعهدونه بالصيانة، ويدفعون عنه الخطر، ومن ثم فإنه لم يترك بين الكعبة والبيوت التى بنتها بطون قريش، إلا بمقدار ما يسمح للناس بالطواف، وإن كان أهم أعماله إنما هو إنشاؤه «دار الندوة»، حيث كان يدار فيها - تحت رياسته، كل أمر قريش - وما أرادوه من حرب أو تجارة أو مشورة أو نكاح - فما كان لرجل ولا لأمراة أن يتزوج إلا فيها، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع إلا فيها، ومن ثم فقد كان على صاحب الدار أن يشق درعها بيده، وكان القوم يفعلون ذلك بيناتهم إذا بلغن الحلم، وربما كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش - ذكوراً كانوا أم إناثاً - وأما

(١١٦) تاريخ الطبرى ٢٥٤/٢ - ٢٧٥، ابن الأثير ١٨/٢ - ٢٣، ابن خلدون ٢٩٨/٢، تاريخ الإسلام للذهبي ١٧/١، الاشتقاق ٢٠/١ - ٣٢، الاكليل ١١٠/١ - ١١٦، أخبار الزمان للمسمودى ص ١٠٤، الفلقشندي: نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ص ٢٣ - ٢٥ (القاهرة ١٩٥٣)، المعارف ص ٢٩ - ٣٢، الزبيرى: كتاب نسب قريش، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٣-١٤.

(١١٧) ابن كثير: البداية والنهاية ٢٠٢/٢، وانظر. المواهب للقسطلانى ١٣/١.

أعضاء دار الندوة هذه، فكانوا جميع ولد قصي، وبعضاً من غيرهم، على شريطة أن يكون الواحد منهم قد بلغ الأربعين من عمره، أو كان من ذوى القدرات الخاصة^(١١٨)، وهكذا كانت دار الندوة بمثابة دار مشورة ودار حكومة في آن واحد، يديرها الملأ من القوم - الذين كانوا يشبهون إلى حد ما أعضاء مجلس الشيوخ الأثيني^(١١٩) - ويتكونون من رؤساء العشائر وأصحاب الرأي والحكمة فيهم، للنظر فيما يعترض القوم من صعاب^(١٢٠).

وكان قصي شديد العناية بالبيت الحرام، حتى ذهب البعض إلى أنه أعاد بناءه، ومن ثم فإن قصياً إنما هو أول من جدد بناء الكعبة من قريش ثم سقفها بخشب الدوم، وجريد النخل.

ويشير الأزرقى إلى استعانة قصي بأخيه لأمه «زراح بن ربيعة»، وهو بيلاد قومه «بنى عذرة» من قضاة، وأن قصياً - وقد انتصر على أعدائه من خزاعة، وأصبح سيد المدينة المقدسة - إنما قال في ذلك شعراً يشكر فيه لأخيه «زراح بن ربيعة»:

أنا ابن المعاصمين بنى لؤى	بمكة مسولدى وبها ربيت
ولى البطحاء قد علمت معد	ومروتها رضيت بها رضيت
وفيسها كانت الآباء قبلى	فما شويت أخى ولا شويت
فلست لغالب إن لم تأئل	بها أولاد قيسر والنبيت
زراح ناصرى وبه أسامى	فلست أخاف ضيماً ما حيت ^(١٢٠)

(١١٨) عبد الحميد العبادى: المرجع السابق ص ٨ - ٩، الأغابى ٤ / ٢٨٤، الألوسى ١ / ٢٤٨، ابن هشام ١ / ١٣٤ - ١٣٦ (مكتبة الجمهورية بمصر)، ابن سعد ١ / ٣٩ - ٤٠، المقدسى ٤ / ١٢٧، الأزرقى ١ / ٢٠٧ - ٢٠٩، ياقوت ٥ / ١٨٦ - ١٨٧، تاريخ الطبرى ٢ / ٢٥٧ - ٢٥٩، تاريخ اليعقوبى ١ / ٢٤٠، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٢٣٥، أساب العرب للبلادى ١ / ٥٢، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٤٣٠٠، شفاء الغرام ٢ / ٨٦ - ٨٧، الإشتقاق ١ / ١٥٥، تاريخ مكة ص ٤٥، حياة محمد ص ١١١، أحمد إبراهيم: المرجع السابق، ص ١١٥.

P. K. Hitti, op. cit., p. 104.

(119) W. M. Watt, op. cit., p. 9.

De Lacy O'Leary, op. cit., p. 183.

(١٢٠) حراد على ٤ / ٤٧، ركذا.

هذا وقد نص الشعر العربي الجاهلي على بناء «جرهم للبيت الحرام» ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى المزني (ت. ٦٠٩م) في معلقته:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم (١٢١)
وقول الأعشى (ميمون بن قيس ت. ٦٢٩م):

فإني وثوبى راهب اللج والتي بناها قصى والمضاض بن جرهم (١٢٢)
وقول الأستاذ الأنصاري: ولما كانت «الوار» في اللغة العربية حرف عطف، لا يقتضى الترتيب الزمني فيما عطف بها، وعليه فتقديم «قريش» و «قصى» في البيتين على «جرهم»، ليس معناه أن بناء قريش وقصى - الذي نرى أن المعنى به بناء قريش - هو سابق في الزمن لبناء جرهم، فإن الأمر بالعكس من ذلك، كما هو معلوم ومعروف، بالبداية من التاريخ (١٢٣).

وكان قصى أول من أظهر «الحجر الأسود» وجريد النخل، كما كان أول من أظهر الحجر الأسود بعد أن دفتته «إياد» في جبال مكة، ثم أوكل أمره من بعده إلى جماعة من قريش، حتى أعاد القوم بناء الكعبة في عام ٦٠٦م (١٥ ق. هـ)، فوضعوه في ركن البيت بإزاء باب الكعبة في آخر الركن الشرقي، ويحدثنا التاريخ أن القوم كادوا يقتتلون على من يحوز شرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، لولا حكمة سيد الأولين والآخرين - محمد ﷺ - وذلك بأن وضع الحجر في ثوب، ثم أمر بأن تأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم رفعوه جميعاً، فلما بلغوا موضعه، وضعه بيده الشريفة، ثم بنى عليه (١٢٤).

(١٢١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٤.

(١٢٢) ديوان الأعشى، ص ١٥.

(١٢٣) عبد القدوس الأنصاري: الكعبة (الجزيرة العربية قبل الإسلام، الرياض، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م).

(١٢٤) مروج الذهب ٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٢٥ - ٢٦، تاريخ الطبری ٢/ ٢٨٨ - ٢٩٠، ابن كشيبر ٢/ ٢٩٩ - ٣٠٤، ابن الأثير ٢/ ٤٤ - ٤٥، ياقوت ٤/ ٤٣٦٦، ابن هشام ١/ ١٩٩ - ٢٠٠، الأزرقى ١/ ١٥٧ - ١٦٤، تاريخ الخميس، ص ١٢٦ - ١٣١، المقدسى ١/ ١٤٠، ابن سعد ١/ ٩٣ - ٩٥، تفسير القرطبي ٢/ ١٢٢ - ١٢٣، هيكل: حياة محمد، ص ١٤١ - ١٤٢.

ولعل من أهم أعمال قصى أنه جعل وظيفة «سدانة الكعبة» - وهي خدمة البيت الحرام - من أهم الوظائف في عهده، والأمر كذلك بالنسبة إلى وظيفة «السقاية»، بخاصة في بلد شحت مياهه في وقت كان يستقبل فيه أكثر مما يطيق من الحجيج، ومن ثم فقد كان على صاحب السقاية توفير المياه لزوار بيت الله الحرام، حتى يسر لهم مهمة الحج، ويجعل الإقبال عليه كبيراً، ومن ثم يذهب الاخباريون إلى أن قصياً قد حفر بئراً سماها «العجول»، وكانت «الرفادة» - وهي خرج تدفقه قريش من أموالها إلى قصى ليصنع منه طعاماً للحجاج ممن لم يكونوا على ميسرة - من الوظائف الهامة التي ظهرت في مكة على أيام قصى، وتروى المصادر العربية أن قصياً قال لقومه: «إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وأن الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشرباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم»، ففعلوا فكانوا يخرجون من أموالهم فيصنع به الطعام أيام «منى»، فجرى الأمر على ذلك في الجاهلية والإسلام، وأخيراً كان من أعمال قصى «اللواء» - وهو رياسة الجيش في الحروب - ويسند لمن بيده اللواء، يسلمونه إليه عند قيام الحرب (١٢٥).

ويجمع المؤرخون على أن قصياً إنما ظل يمسك بهذه الوظائف جميعاً حتى وفاته، كما ظل كذلك الرجل الوقور المطاع في قومه، لا يخالف، ولا يرد عليه شيء أقره، ولعله في جمعه لرياسة دار الندوة وعقده اللواء وجمعه الرفادة، يقابل في اصطلاحاتنا الحديثة، رياسة السلطات التشريعية والحربية والمالية - إن جاز هذا التعبير (١٢٦).

ولعل هذا هو الذي دفع «الأب هنرى لامانس» إلى القول، بأن مكة إنما

(١٢٥) ابن الأثير ٢/ ٢١ - ٢٣، الطبرى ٢/ ٢٥٨ - ٢٦٠، ابن هشام ١/ ١٢٤ - ١٤٠، ياقوت ١٨٧٦/ ٥، ابن سعد ١/ ٤١، البلاذرى ١/ ٥١، ابن خلدون ٢/ ٢٣٥، المحقوبى ١/ ٢٤٠ - ٢٤٢، الأزرقى ١/ ٦٢، ١٢٧.

(١٢٦) محمد مبروك نافع: المرحح السابق، ص ١٣٩.

كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية، وقد يكون لشخصية أقصى الغدة تأثيره في ذلك، إلا أن تنظيمات قريش لم تكن في واقع الأمر، إلا تنظيمات قبلياً في جوهره، وإن بدا في ظاهره تنظيماتاً جمهورياً، لأن الزعيم لم يكن يحمل لقباً معيناً، فضلاً عن أن هناك من الأدلة ما يشير إلى أن العشيرة إنما كانت تتمتع بحرية كاملة، ولاتخضع لسلطان غيرها في كثير من الأحيان، بل إن كثيراً من الأفراد إنما كانوا يخرجون على رأى العشيرة نفسها، ومن النوع الأول عدم مشاركة بنى زهرة لقريش في موقعة بدر، رغم موافقتها على القتال وخروجها إليه، بل إن بنى عدى لم يخرجوا للقتال أصلاً، ومن النوع الثاني خروج أبى لهب على رأى بنى هاشم، وانضمامه إلى بقية بطون قريش في مقاطعتها لبني هاشم، وبقاء العباس على علاقته الودية ببطون قريش. رغم تضامته مع بنى هاشم، هذا إلى جانب أن العشيرة إنما كانت تخرج أحياناً على رأى مجلس القبيلة، ومثال ذلك اجتماع بنى هاشم والمطلب على حماية المصطفى - ﷺ - ومواجهة قريش (١٢٧).

ويرى الدكتور طه حسين - يرحمه الله - أنه من العسير أن نحدد لمكة نظاماً من نظم الحكم التي يعرفها الناس، فلم يكن لها ملك، ولم تكن جمهورية ارستقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة، ولم تكن جمهورية ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة أيضاً، ولم يكن لها طاغية يدير أمورها على رغمها، وإنما كانت قبيلة عربية احتفظت بكثير من خصائص القبائل البادية، فهي منقسمة إلى أحياء وبطون وفصول، والتنافس بين هذه جميعاً قد يشتد حيناً ويلين حيناً آخر، ولكنه لا يصل إلى الخصومات الدامية، كما هو الحال في البادية، وأمور الحكم، تجرى كما تجرى في البادية، وكل ما وصلت إليه قريش من التطور في شؤون

(١٢٧) أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ١١٢ - ١١٣، ابن هشام ١/ ٣٦٥، الطبري ٢/ ٣٢٣ - ٣٢٨، ٤٢٩، ٤٣٨، ٤٤٣٣، ابن الأثير ٢/ ٨٧، ١٧، ١٢١، ابن كثير ١٣/ ٨٤ - ٨٨، ٢٥٧، ٢٦٦، وكذا.

H. Lammens, La Republique Marchand de la Mecque.

الحكم هو أنها لم يكن لها سيد أو شيخ يرجع إليه فيما يشكل من الأمر، وإنما كان لها سادة أو شيوخ يلتزم منها مجلس في المسجد الحرام، أو في دار الدوة (١٢٨).

ويذهب الدكتور الأنصاري إلى أن أقرب مسمى ينطبق على مكة المكرمة لعله المسمى الذي كان معروفاً منذ القدم، وهو «ممالك المدن»، وإن كانت قريش لم تأخذ بمميزات هذه الممالك، إلا أن ما قام به «قصي» من تنظيمات تجعلنا نعتقد أن تأثير التنظيمات السياسية في بلاد الشام، إنما كان واضحاً فيها، ومن المعروف أن قصياً إنما قد عماد يافعاً من أطراف بلاد الشام، فلعله شاهد فيها تنظيمات المدن (١٢٩)، ووجد مكة مهياً لذلك، ووجد في قريش عنصراً مساعداً على تفهم الأهداف التي يرمى إليها، وإن كان الأمر أصبح وراثياً، فيما وزعه بين أبنائه من سلطات وأعمال كلفوا بها.

وأما أقدم ذكر لقريش في النصوص العربية الجنوبية القديمة، فربما كان - كما أشرنا من قبل - يرجع إلى أيام الملك الحضرمي «العزيلط»، والذي حكم في القرن الأول قبل الميلاد على رأي، وفي القرن الثالث الميلادي على رأي آخر (١٣٠)، فهناك ما يشير إلى أن عشر نساء قرشيات رافقت الملك «العزيلط» إلى حصن «أنو»، فإذا كان النص يعني حقاً قريشاً، قريش صاحبة مكة، فإننا نكون وقفنا لأول مرة على إسم قريش في وثيقة مدونة من عصر هذا الملك (١٣١).

(١٢٨) طه حسين: مرآة الإسلام، ص ٢٢.

(١٢٩) فؤاد حسين. المرجع السابق، ص ٢٧٤ - ٢٧٩، وكذا:

H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., p. 114.

BASOR, 119, p. 14.

وكذا:

(١٣٠) حراد على ١٢ / ١٤٥، وكذا:

Le Museon. 1964, 3 - 4, p. 484.

(٩) بنو هاشم:

وأياً ما كان الأمر، فلقد أنجب قصى ثلاثة أبناء - عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى - ورغم أن عبد الدار كان أكبر أخوته، إلا أن عبد مناف كان أكثر شهرة، وأرفع شأنًا، وأعظم مهابة، ومن ثم فقد رأى قصى أن يعوض عبد الدار عما فقده من مقومات الزعامة، فأسند إليه كثيراً من الوظائف ليقارم شخصية أخيه القوية، وتمضى الأيام وورث الأبناء الآباء، ويقوم النزاع بينهم، حتى ينتهى آخر الأمر، بأن يتولى عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة (مفاتيح الكعبة) واللواء ورياسة دار الندوة لبني عبد الدار (١٣٢).

ويتولى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه عبد مناف، ويروى المؤرخون أنه كان غياث قومه فى عام الهجرة، فرحل إلى فلسطين حيث اشترى كميات من الدقيق وقدم بها إلى مكة، فبذل طعامه لكل نازل بالبلد المقدس أو وارد عليه، وسمى بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الشريد ودعوة الجياح إلى قصاعه بدلاً من اسمه الأصلي عسرو، وبما يروى عنه كذلك أنه أول من سن الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء والصيف، وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها، فنسب إليه أنه أول من سنها (١٣٣).

هذا بالإضافة إلى أن الرجل العظيم قد عقد بنفسه مع الامبراطورية الرومانية، ومع أمير غسان، معاهدة حسن جوار ومودة، وحصل من الامبراطور الرومانى على

(١٣٢) ابن الأثير ٢/٢١٢، تاريخ الطبرى ٢/٢٥٥، ٢٥٩، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٣٥-٢٣٦، تاريخ يعقوبى ١/٢٤١، تاريخ الكعبة المعظمة، ص ٢٨٤، ابن سعد ١/٤١ - ٤٢، المهيرو، ص ١٦٦، المعارف، ص ٦٠٤، أنساب الأشراف ١/٦٠، العقد الشمس ١/١٤٨، شفاء العمام ٢/٧٥ - ٧٦، ٨٧، نسب قريش ص ١٤، ياقوت ١/١٨٧، جمهرة أنساب العرب، ص ١٤، نهاية الأرب ١/٢٤٨، الأزرقي ١/١٠٩ - ١١٠.

(١٣٣) تاريخ الطبرى ٢/٢٥١ - ٢٥٢، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٣٦ - ٢٣٧، تاريخ الكعبة المعظمة، ص ٢٨٥ - ٢٨٦، ابن هشام ١/١٤٥ - ١٤٦، أنساب الأشراف ١/٥٨، الاشتقاق ١/١٣، المقدسى ٤/١٢٨ - ١٢٩، ابن سعد ١/٤٣ - ٤٤، ذيل الأمالى والوادى ص ١٩٩ - ٢٠٠، حياة محمد ص ١١٢، العقاد. المرحع السابق، ص ٢٠، الأزرقي ١/١١١. تاريخ يعقوبى ١/٢٤٢ - ٢٤٣، صبح الأعشى ١/٣٥٨، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٢٩٥، العقد الشمس ١/١٤٨، بلوغ الأرب ٢/٢٨٤، شفاء العمام ٢/٧٧، ٨٨.

الإذن لقريش بأن تجرب الشام في أمن وطمأنينة، كما عقد نوفل والمطلب حلفاً مع فارس، ومعاهدة تجارية مع الحميريين في اليمن (١٣٤).

ويذهب الاخباريون إلى أن هاشماً وعبد شمس توأمان، وأن أحدهما ولد قبل الآخر وأصبح له ملتبقة بجبهة صاحبه، فنحيت فسال الدم، فقيل يكون بينهما دم، ومن ثم فإنهم يرون أن أمية بن عبد شمس قد حسد هاشماً على رياسته وإطعامه، فتكلف أن يصنع مثله، ولكنه قد عجز، ومن ثم فقد شمت به ناس من قريش، وتنافر هو وهاشم، وانتهى الأمر بجلاء أمية عن مكة عشر سنين، فكان ذلك أول خلاف بين بني هاشم وبني أمية (١٣٥).

وفي الواقع - كما يقول الأستاذ العقاد - فلقد كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ورسامة، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيطة ومظهر مشنوء، ويتعقد الإجماع - أو ما يشبه الإجماع - على أخبار الجاهلية التي تنم على هذه الخصال في الأستين، وبقي الكثير منها إلى ما بعد قيام الدولة الأموية فلم يفتدوه (١٣٦).

وهناك ما يشير إلى أن المنافرات بين البيتين - الهاشمي والأموي - قد استمرت، وذلك أمر لا غرابة فيه، فالبيتان - فيما نظن - على طرفي تقيض، وربما خفي السبب الذي يرجع إليه هذا الفارق بين الأستين، فقد يرى بعضهم أنه يرجع إلى النسب المدخول، وقد رمى الأمويون الأرائل بشبهات كثيرة عمود

(١٣٤) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٤٢ - ٢٤٣، تفسير الفجر الرازي ١ / ٣١ / ١٨٠، نمار القلوب للثعالبي ص ١١٥ - ١١٦، ذيل الأمالي والنوادر، ص ١٩٩، حياة محمد ص ١١٥، وكذا: L. Caetani, Annali dell'Islam, 1905, p. 109.

(١٣٥) ابن الأثير ١ / ١٦ - ١٧، تاريخ الطبري ١٢ / ٢٥٢ - ٢٥٤، تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٤٢، ابن سعد ١ / ٤٤، ٥٢، شفاء الغرام ١ / ٢١ / ٨٥، نسب قريش ص ١٤، بلوغ الأرب ١٢ / ٢٨٣ - ٢٨٤، نهاية الأرب ١ / ٣٠٧ - ٣٠٨، للقرنبي: كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ص ٧، ٢، حواد علي ١ / ٧١ - ٧٢، عمد المنعم ماخذ المرجع السابق ١ / ١٠٣ - ١٠٤، فارس - تفسير المار ١١ / ٩٧ - (١٣٦) العقاد. مطلع النور، ص ١١٨.

النسب، وعرض لهم بذلك أناس من ذوى قرياهم فى صدر الإسلام، وأشهر ما اشتهر من هذه الشبهات قصة «ذكوان» الذى يقولون أنه من آباؤهم، ويقول السابون أنه عبد مستلحق على غير سنة العرب فى الجاهلية.

فلقد روى «الهيثم بن عدى» فى كتاب «المثالب» أن «دغفلا» النسابة دخل على معاوية بن أبى سفيان - وهو خليفة - فقال له معاوية: من رأيت من عليّ قريش؟ فقال: رأيت عبد المطلب بن هاشم، وأمّية بن عبد شمس قال: فصف أمّية، قال: رأيت شيخاً قصيراً، نحيف الجسم، ضريباً يقوده عبده «ذكوان»، فقال: مه، ذاك ابنه أبو عمرو، فقال: هذا شئ قلتموه وأحدثتموه، أما الذى عرفت، فهو الذى أخبرتك (١٣٧).

وفى العقد الفريد، «قيل للإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه، وكرم الله وجهه فى الجنة - أخبرنا عنكم وعن بنى أمّية، فقال: بنو أمّية أغدر وأمكر وأفجر، ونحن أصبح وأفصح وأسمح».

وعلى أى حال، وأياً ما كان سر هذا الفارق البين، فلقد كان بنو هاشم - أسرة النبى ﷺ - أصحاب رئاسة، وكانت لهم أخلاق رئاسة، عرفوا بالنبل والكرم والهمة والوفاء والعفة، وبرزت كل خليفة من هذه الخلائق فى حادثة ماثورة مذكورة، فلم تكن خلائقهم هذه من مناقب الأماديج التى يتبرع بها الشعراء، أو من الكلمات التى ترسل إرسالاً على الألسنة ولايراد بها معناها.

ويبلغ هذا التنافر بين الأسرتين شأواً بعيداً، فيما بين عبد المطلب وحرب بن أمّية، إذ كان كلاهما نمطاً فى بابه، ويروى المؤرخون أن حرباً نافر عبد المطلب إلى نفييل جند عمر بن الخطاب - وإن رأى البعض أن المنافرة إنما كانت مع هاشم - وأن نفيلاً قد قضى فيها لعبد المطلب، وأنه خاطب حرباً قائلاً: «أتنافر

(١٣٧) انظر: العقد: مطلع البر، ص ١١٨ - ١٢٠، ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلى، القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٢٢، الأعلى ١/ ١٢.

رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة وأوسم منك وسامة، وأقل منك لامة، وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صفداً، وأطول منك مذوداً» (١٣٨).

وأما في الإسلام، فقد كان بنو أمية حجرة عثرة في سبيل الدعوة الإسلامية وناصبوها العداة الشديد، إلا قليلاً منهم ممن هداهم الله للإسلام، وبعد هجرة الرسول - ﷺ - إلى المدينة المنورة، واشتباك المسلمين مع مشركي قريش، كان عتبة بن ربيعة بن عبد شمس قائد الجيش في غزوة بدر، وكان أبو سفيان قائد العير، وفي غزوتي أحد والأحزاب كان أبو سفيان قائداً للجيش، بل إن أبا سفيان، حتى بعد إسلامه يوم فتح مكة، فقد كان - وكذا ولده معاوية - من الطلقاء ومن المؤلفة قلوبهم، فضلاً عن أنه هو القاتل بعد اضطراب المسلمين في غزوة حنين والأزلام في كنفاته «لانتهاى هزيمتهم دون البحر»، تعبيراً عما في نفسه من الضغن على الإسلام ورسول الإسلام (١٣٩).

هذا وقد تميز عهد عبد المطلب بأمر كثيرة هامة، لعل أهمها: إعادة حفر زمزم، وحملة الفيل على مكة، على أن أهم الأحداث من عهده دون منازع - ليس في تاريخ مكة فحسب، وإنما في تاريخ البشرية جمعاء - إنما كان مولد جدنا ومولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ - وبذا كتب للرجل العظيم أن يكون جد سيد الأولين والآخرين، جد المصطفى ﷺ.

وعلى أية حال، فإن كتب السيرة إنما تروى أن عبد المطلب، إنما قد شرف في قومه شرقاً لم يبلغه أحد من آباءه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم حتى أنه

(١٣٨) العقاد: مطلع النور، ص ١١٨ - ١٢٠، وانظر: بلوغ الأرب ١ / ٣٠٧ - ٣٠٨، أعلام النبوة للمداودي، ص ١٣٨ (القاهرة ١٩٣٥)، عبد الفتاح شحاته: تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام ٢ / ٢٤٩ - ٢٥٠.

(١٣٩) عبد الفتاح شحاته: المرجع السابق، ص ٢٥٠، ابن الأثير ٢ / ١٢٣ - ١٢٤، ١٢٤، ١٢٤٩، ١٧٨، ٢٦٣، ابن كثير ١٣ / ٢٦٩ - ٢٧٠، ٤ / ١١، ٩٥، ٣٢٧، تاريخ الطبري ٢ / ٤٤٢ - ٤٤٣، ٥٠١، ٥٦٦، ٣ / ٧٤، المعارف ص ٧٥، المخبر ص ٤٧٣، تفسير الطبري ١٤ / ٣١٣ (دار المعارف ١٩٥٨) نهاية الأرب للقلقشندي ص ٧٩٨ (بمقداد ١٩٥٨)، عبد المعصم ماجد: المرجع السابق، ص ١١٣، ١١٥ - ١١٧.

كان يفرش له فراش حول الكعبة، فيجلس عليه، ويجتمع حوله رؤساء قريش، لا يجزؤ أحد على أن يجلس على فراشه، إلا النبي ﷺ (١٤٠).

وروى ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال: كان لعبد المطلب مفرش في الحجر يجلس عليه، لا يجلس عليه أحد غيره، وكان رؤساء قريش يجلسون حوله - دون المفرش - فجاء رسول الله ﷺ - وهو غلام لم يبلغ الحلم - فجلس، فجذبه رجل فبكى، فقال عبد المطلب: ما لابنى يبكى؟ قالوا: أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه، فقال عبد المطلب: دعوا ابني يجلس، فإنه يحسن في نفسه الشرف، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لا يبلغه عربي - قبله ولا بعده - فكانوا بعد ذلك لا يردونه عنه حضر عبد المطلب أو غاب.

هذا وقد دلت شفاقية عبد المطلب على ما للنبي ﷺ، من شأن عظيم، فأحبه حياً ما أحبه أحد مثله، وفي كل مناسبة كان يأخذ بيد ولده أبي طالب، ويضعها في يد حفيده محمد - ﷺ ويقول له: «يا أبا طالب سيكون لابنى هذا شأنًا، فأحفظه ولا تدع مكروهاً يصل إليه».

هذا وتروى كتب السيرة أيضاً أن عبد المطلب إنما كان مجاب الدعوة، وكان يقال له «القياض» لجوده، و«مطعم طير السماء»، لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال، كما كان من حلمااء قريش وحكمائها.

وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغى، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيئات الأمور، وكان يقول - كما في السيرة الحلبية - «لن يخرج من الدنيا ظلم حتى ينتقم منه، وتصيبه عقوبة، إلى أن هلك رجل من أهل الشام لم تصبه عقوبة، فقبل لعبد المطلب في ذلك ففكر ثم قال: والله إن وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته».

هذا وقد رفض عبادة الأصنام - في آخر عمره على الأقل - ووجد الله سبحانه وتعالى، وتوثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها، وجاءت السنة بها، منها الوفاء

(١٤٠) السيرة الحلبية ١ / ١٧٨.

بالنذر، والمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل المؤرودة، وتحريم الخمر والزنا، وأن لا يطوف بالبيت عريان^(١٤١).

وكان عبد المطلب - أو شعبة الحمد، وهذا اسمه الأصلي^(١٤٢) - قوی الشخصية، عريض الجاه، مسموع الكلمة، روى أن رجلاً من «تميم»^(١٤٣) تقدم حرب بنى أمية، فقال له حرب: موعذك مكة، فبقي التميمي دحراً، ثم أراد دخول مكة، وأخذ يبحث عن مجير له، فقبل له: لا يجيرك إلا عبد المطلب، فأتى ليلاً، ودخل دار الزبير بن عبد المطلب بن هاشم - أول من دعا إلى حلف الفضول^(١٤٤) - وأخبره القصة، فقال له الزبير: تقدم إلى المسجد، فإننا لا نتقدم من نجيره، فرآه حرب بن أمية، فلطمه، فغدا عليه الزبير بالسيف، فأخذ حرب يعدو حتى دخل دار عبد المطلب - والد الزبير - وقال له: أخرجني من الزبير، فأكفأ عليه جفنة كان أبوه هاشم يطعم الناس فيها، فبقي تحتها ساعة، ثم قال له عبد المطلب: أخرج، فقال حرب: كيف أخرج، وسبعة من ولدك قد اجتمعوا بسيوفهم على الباب، فألقى عليه عبد المطلب رداً، فعلم أبناؤه أنه أجاره، ففترقوا.

والى هذه القصة أشار عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، حين دخل على معاوية بن أبي سفيان بن حرب في خلافته، وعنده وفود العرب، فذكر كلاماً عن حرب بن أمية، فقال له ابن عباس: «من أكفأ عمي عبد المطلب إناء، وأجاره بردائه، فسكت معاوية تماماً»^(١٤٥).

وروى أن يهودياً - كان في جوار عبد المطلب - أغلظ القول لحرب بن أمية في سوق نهامة، فأعزى به من قتله، فلم يتركه عبد المطلب حتى أخذ منه مائة

(١٤١) انظر السير الحلبية ٦ / ١ - ٧.

(١٤٢) أسباب الأشراف ١ / ٦٤ - ٦٥، ابن كثير، السيرة النبوية ١ / ١٨٤ - ١٨٥، سيرة ابن

هشام ١ / ١٣٧ - ١٣٨، السيرة الحلبية ١ / ١٠ - ١١.

(١٤٣) تميم: قبيلة عربية في نجد، لها بطون كثيرة (كحالة: مجمع قبائل العرب القديمة والحديثة

١ / ١٢٥ - ١٢٣).

(١٤٤) انظر: السيرة الحلبية ١ / ٢١١ - ٢١٥، ابن كثير السيرة النبوية ١ / ٢٥٧ - ٢٦١.

(١٤٥) انظر (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ١ / ٨٣

ناقة، دفعها لابن عيم اليهودي، الذي كان في جواره، ثم ترك منادمة حرب، ونادم عبد الله بن جدعان^(١٤٦).

هذا وقد تنازع العلماء في دين عبد المطلب، فذهب فريق إلى أنه كان على ملة إبراهيم - أي أنه لم يعبد الأصنام، على أن هناك وجهاً ثانياً للنظر، يذهب إلى أن الله أحياء - بعد حديث النبي - ﷺ - أنه من أصلاب الطاهرين وأرحام الطاهرات، دليل على أن آباء النبي - ﷺ - وأمهاته إلى آدم، ليس فيهم كافر، لأن الكافر لا يوصف بأنه طاهر، روى ابن الجوزي^(١٤٧) في الوفاء عن ابن عباس، أن رسول الله - ﷺ - قال: «لم يلتق أبواي قط على سقاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذباً، ولانتشعب شعبتان، إلا كنت في خيرهما».

وعن أبي هريرة أنه ﷺ، قال: «ما ولدني بغى قط، منذ خرجت من صلب آدم، ولم تتنازعني الأمم كائناً عن كائنه، حتى خرجت من أفضل حيين من العرب، هاشم وزهرة»، وفي هذا دليل على طهارة آباءه وأمهاته من الكفر.

وأورد «ابن عساكر» من حديث عاصم عن شعيب عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى «وتقلبك في الساجدين»^(١٤٨) قال: «من نبي إلى نبي، حتى أخرجت نبياً».

وروى البزار وابن أبي حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعنى قلبه من صلب نبي إلى صلب نبي، حتى أخرجه نبياً^(١٤٩).

وفي تفسير القرطبي: وقال ابن عباس: أي في أصلاب الأنبياء آدم ونوح

(١٤٦) انظر: أنساب الأشراف ١ / ٧٣ - ٧٤، السيرة الحلبيّة ١ / ٦، محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ١ / ٨٣.

(١٤٧) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٦.

(١٤٨) سورة الشعراء: آية ٢١٩

(١٤٩) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٦٣.

وإبراهيم حتى أخرجه نبياً (١٥٠).

هذا وقد حكم الإمام القرطبي أن من مات قبل البعثة - زمن الفترة - إنما يموت ناجياً، ولا يعذب، ويدخل الجنة (١٥١)، لقول الله تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» (١٥٢).

وقد طبقت الأئمة الأشاعرة من أهل الأصول، والشافعية من الفقهاء، على أن من مات، ولم يبلغه الدعوة، يموت ناجياً، ويدخل الجنة، ونص على ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه (١٥٠ - ٢٠٤ هـ - ٧٦٧ - ٨٢٠ م) في درته الفريدة «الأم» (١٥٣)، ومن ثم فإن عبد المطلب إنما كان مؤمناً، أو أنه لم يشرك بالله عز وجل.

وفي السيرة الحلبية، عن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، قال رسول الله - ﷺ - «بعث جدى عبد المطلب فى زى الملوك، وأبهة الأشراف» (١٥٤).

على أن هناك وجهاً رابعاً للنظر إنما يذهب أصحابه إلى أن عبد المطلب إنما كان مشركاً، - هو وغيره من آل النبي ﷺ - إلا من صح إيمانه، وهذا أمر فيه تنازع بين الإمامية والمعتزلة والشوارج والمرجئة وغيرهم من الفرق فى النص والاختيار (١٥٥).

(١٥٠) تفسير القرطبي، ص ٤٨٦٠.

(١٥١) تفسير القرطبي، ص ٣٨٤٧ - ٣٨٤٨.

(١٥٢) سورة الإسراء: آية ١٥، وانظر تفسير ابن كثير ٤٧/٣ - ٥٤، تفسير النسفي ٢/٣٠٩، فى ظلال القرآن ٤/٢٢١٦، صفوة النفاير ١٥٤/٣ تفسير القرطبي، ص ٣٨٤٧ - ٣٨٤٨.

(١٥٣) انظر: الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، - الأم - (كتاب الشعب - القاهرة ١٩٦٩، ٧ أجزاء).

(١٥٤) على يرهان الدين الحلبى: السيرة الحلبية (إنسان الميون فى سيرة الأمين للمؤمن) الجزء الأول، القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م، ص ١٨٤.

(١٥٥) انظر عن الآراء المختلفة فى عقيدة عبد المطلب (محمد بيومى مهران: فى رحاب النسي وآل بيته الطاهرين - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الأول، بيروت، ١٩٩٠، ص ٧٩ - ٨٦).

(١٠) مكانة مكة المكرمة:

أصبحت مكة منذ آل أمرها إلى قريش على أيام قصي مركزاً للحياة الدينية في شبه الجزيرة العربية، تشد إليه الرحال، وتلج إليه الأبصار وفيها أكثر من كل جهة سواها، كانت ترمي الأشهر الحرم، بسبب وجود الكعبة المشرفة هناك، لذلك كله، ولمركزها الممتاز في تجارة العرب، كانت تعتبر وكأنها عاصمة شبه الجزيرة العربية.

وفي الواقع أنه رغم وجود البيوت الحرام في بلاد العرب، كبيت الأقيصر وبيت ذى الخلصة وبيت صنعاء وبيت نجران وغيرها من البيوت الحرام^(١٥٦)، فإن واحداً منها لم يجتمع له مثل ما اجتمع لبيت مكة، ذلك لأن مكة إنما كانت ملتقى القوافل بينَ الحنوب والشمال، وبين الشرق والغرب، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام، لمن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطئ الجنوب، وكانت القبائل تلوذ منها بمشاة مطروقة تتردد عليها، ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل في باديتها أو في رحلاتها، فليست مكة دولة كدولة التبابعة في اليمن، أو المناذرة في الحيرة، أو الغساسنة في الشام - وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان، كسلطان الروم أو الفرس أو الأحباش، وراء الإمارات العربية المتفرقة على الشواطئ، أو بين بوادي الصحراء - وإنما كانت مكة بمثابة عبادة وتجارة، وليست في حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش ولا يبالى من عداه، وهي إن لم تكن كذلك من أقدم زمانها، فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق، الذين روى عنهم الرواة أنهم كانوا يعشرون كل ما دخلها من تجارة^(١٥٧).

وزاد من قيمة مكة، أن اليمن - بعد الاحتلال الحبشي في عام ٥٢٥م -

(١٥٦) أنظر: باقوت ١/ ٢٣٨، ٣/ ٤٢٧، ٤/ ٣٩٤ - ٣٩٥، ٥/ ٢٦٨ - ٢٦٩، بلوغ الأرب

١/ ٣٤٦ - ٣٤٧، ٢/ ٢٠٢، ٢٠٧ - ٢٠٩، ١١٢، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٩٣،

الأصنام ص ٣٨، الروض الأصف ١/ ٦٦، الأغاني ٣/ ١٧٢

(١٥٧) العقاد. مطلع البدر، ص ١١٢ - ١١٣

لم تنجح في سد الفراغ الذي تركته البحرية الرومية، ربما لظروف جغرافية أكثر منها سياسية، ومن ثم فقد أصبح الطريق البري - عبر تهامة والحجاز - هو الطريق الوحيد المفتوح أمام التجارة، وكان لا بد - بعد زوال النشاط اليمني - أن يوجد من يسد هذا الفراغ ويقوم بدور الوسيط المحايد بين المتنازعين، لنقل التجارة، وقد وجد هذا الوسيط ممثلاً في مكة (١٥٨)، التي حظيت منذ منتصف القرن الخامس الميلادي بمكانة ممتازة بين عرب الشمال فضلاً عن طرفي الصراع الدولي (الفرس والروم) وقت ذلك، وساعد على ذلك رغبة الفريقين المتنازعين في وجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية، وبعد مكة وصعوبة الوصول إليها من ناحية أخرى (١٥٩).

وهكذا كان موقع مكة الجغرافي سبباً في أن يجعل من المدينة المقدسة عقدة تتجمع فيها القوافل، التي ترد من العربية الجنوبية تريد الشام، أو القادمة من الشام تريد اليمن، حتى إذا ما كان القرن السادس الميلادي نجح القرشيون في احتكار التجارة في بلاد العرب، فضلاً عن السيطرة على طرق القوافل التي تربط اليمن بالشام من ناحية وبالعراق من ناحية أخرى (١٦٠).

وقد بلغت شهرة القرشيين في التجارة ومهارتهم فيها، إلى أن يذهب البعض إلى القول بأن «قريشاً» إنما سميت كذلك لاحترافها التجارة، لأن القرش إنما هو التجارة والاكتساب (١٦١)، وإلى أن تذكر رحلاتهم التجارية في القرآن الكريم،

(١٥٨) أحمد إبراهيم: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٥٤.
 S. A. Huzayyin, Arabia and the Far East, p. 142 - 3. وكذا.
 E. Gibbon, op. cit., 5, p. 213. وكذا.

(١٥٩) أنظر كتابنا «دراسات تاريخية من القرآن الكريم»، الجزء الأول.
 (160) W.M. Watt, Muhammed at Mecca, Oxford, 1963, p. 3.
 (١٦١) ابن هشام ١/ ٦٠، باقوت ٤/ ٣٣٦، مجمع الأمثال ٢/ ٧٢، نهاية الأرب ص ٣٦٤ (بتداد ١٩٥٨)، فحس الإسلام ص ١٣ - ١٤، تاريخ مكة، ص ٥٩، السلاوي ١/ ٥٩، راجع تفسيرات أخرى في: باقوت ٤/ ٣٣٦ - ٣٣٧، تفسير روح المعاني ٣٠/ ٢٣٨ - ٢٣٩، تفسير الفخر الرازي ٣٢/ ١٠٦

حيث يقول سبحانه وتعالى: «إيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» (١٦٢).

هذا وقد كانت قوافل مكة أشبه بالحملات تكون بالآلاف الإبل، التي يقوم على حمايتها جيش خاص دعوة «الأحابيش» (١٦٣) لعلهم من العرب أو السودان، فكانت مكة أشبه بينك كبير، فلم تكن القوافل ملكاً لشخص واحد وإنما كانت هناك طريقة لجمع المال من عدة أسر معروفة، كهاشم وأمية ومخزوم ونوفل (١٦٤)، وقد أدى ذلك إلى تضخم أموال قريش، حتى بلغت قوافلهم التجارية في عهد غزوة بدر (١٦٥) ألف بعير، مضافاً إليها خمسون ألف دينار منقولة بين أنفالهم، بل إن رجلاً واحداً - هو سيد بن العاص (أبو أحيحة) - استطاع أن يسهم في رأس مالها بثلاثين ألف دينار، كما بلغت قوافلهم في بعض المرات ألفين وخمسمائة بعير، وهي نسبة لها قيمتها المادية. إذا قيست بالثروات في عهدها، هذا وقد بلغ ثراء قريش إلى أنها قد استطاعت في غزوة بدر أن تفتدى أسراها من المكيين

(١٦٢) سورة قريش، وانظر: تفسير القرطبي ٢٠ / ٢٠٠ - ٢٠٩ (دار الكتب المصرية)، تفسير الفخر الرازي ٣٢ / ١٠٣ - ١١٠، تفسير البيضاوي ١٢ / ٥٧٧، تفسير الطبري ١٢٠ / ٣٠٥ - ٣٠٩ (طبعة الحلبي)، تفسير روح المعاني ٣٠ / ٢٢٨ - ٢٤١.

(١٦٣) انظر عن الأحابيش: تاج المروس ٤ / ١٣٠، ١٩ / ٢٠٠، تاريخ الطبري ٢ / ٥٠١، تاريخ البيهقي ١ / ٢٤١، تاريخ مكة ص ٥٢، نسب قريش ص ٣٨٩، ابن الأثير ٢ / ١٤٩، المعارف ص ٣٠٢ - ٣٠٣، الصمدة ٢ / ١٩٤، اللسان ٦ / ٢٧٨، البلاذري ١ / ٧٦، ٥٢، المحبر ص ٢٤٦، ٢٦٧، العبادي: المرجع السابق، ص ١٢ - ١٣، حواد علي ١٣ / ٣٠ - ٣٦.

(١٦٤) تاريخ الطبري ١٢ / ٤٢١ - ٤٢٢، تاريخ ابن خلدون ٢ / ١٧، الطنقات الكبرى ١ / ٤٠، عبد المنعم ماجد ١ / ٧٩، وكذا:

Essad Bey, La Vie de Mahomot, p. 42.

(١٦٥) أنظر عن غزوة بدر (يوم الجمعة ١٧ رمضان ٢ هـ = ١٤ مارس ٦٢٤م): تاريخ الطبري ١٢ / ٤٢١ - ٤٧٩، تاريخ ابن خلدون ٢ / ١٧ - ٢١، ابن الأثير ٢ / ١١٦ - ١٣٧، ابن كثير ٢ / ٢٥٦ - ٣٤٤، وفاء الوفا ١ / ١٩٦ - ١٩٧، ابن هشام ٢ / ٦٣ - ٦٤، المعارف ص ٧٥ - ٧٨، الأغاني ٤ / ١٧٦ - ٢٠٩، ياقوت ١ / ٣٥٧ - ٣٥٨، البيهقي ١ / ٢٤١ - ٢٢٢، تفسير الطبري ١٣ / ٤٠٩، ٤٤٣، ٥٧٨.

بأربعة آلاف درهم للرجل، إلى ألف درهم، إلا من عفا عنهم النبي - ﷺ - من
المقدمين (١٦٦).

وعلى أى حال، فإن ظروف مكة السياسية والاقتصادية والجغرافية قد جعلت
منها مدينة عربية لجميع العرب، فلم تكن كسروية أو قيصرية، ولا تبعية أو نجاشية،
كما عساها أن تكون لو استقرت على مشارف الشام، أو عند تخوم الجنوب،
ولهذا تمت لها الخصائص التي كانت لازمة لمن يقصدونها، ويجدون فيها من
يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه (١٦٧).

وقد عملت قريش على توفير الأمن في منطقة مكة، وهو أمر ضروري في
بيشة تغلى بالغات وطلب الثأر، حتى يكون البيت الحرام ملاذاً للناس وأمناً،
وحتى يجد فيها من تضيق به الحياة، ويتعرض لطلب الثأر، الأمن والحماية،
ولعل هذا هو السبب في أن تحافظ قريش على الأشهر الحرم في موسم الحج،
حتى يأمن الناس فيه على أنفسهم وأموالهم، هذا فضلاً عن حركة اصلاح أخرى
قامت بها قريش، مؤداها ألا تفر بمكة ظلماً، سواء أكان من أهلها أم من سائر
الناس، فعقدت من قبائلها ومع القبائل الأخرى المجاورة حلفاً عرف بالحلف
الفضول، يروى المؤرخون أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف، فاجتمع في دار
«عبد الله بن جدعان» بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم،
وتعاهدوا على أن لا يظلم بمكة غريب ولا قريب، ولا حر ولا عبيد، وإلا كانوا معه
يأخذون له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم، وعمدوا إلى ماء زمزم فجعلوه في
حقتة وبعثوا به إلى البيت الحرام فغسلت به أركانها وشربوه، ومن عجب أن
الأمويين وبنو عبد شمس قد أبوا على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف، وقد
روى عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان

(١٦٦) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص ٣٦ - ٣٧، وانظر: الراقي، كتاب المغازي، ١٢٨/١ -

١٤٥ بيروت ١٩٨٤.

كندا. P.K.Hitti. op.cit., p 104.

(١٦٧) العقاد، مطابع النور ص ١١٣.

حلقاً مما أحب أن لى به حمر النعم، ولو ادعى به فى الإسلام لأجبت، (١٦٨).

وأم تكثف قريش بذلك، وإنما عملت على توفير الماء والطعام للحجيج فى منطقة يشح فيها الماء ويقل الطعام، ومن ثم فقد قامت بحفر الآبار فى منطقة مكة وأنشأت فيها أماكن للسقاية، لم أوكلت سقاية الحاج إلى البطون القرية منها، وهكذا غدت سقاية الحاج - بجانب عمارة البيت وسدائه - عملاً يراه القوم فى قمة مفاخرهم وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد فى سبيل الله» (١٦٩).

وكان أمر ضيافة الحجيج عملاً لا يقل عن سقايتهم، وقد أسندتها قريش إلى الأغنياء من رجالانها، لأن قدوم الحجاج من أماكن بعيدة من شبه الجزيرة العربية، يصعب معه حمل الزاد، ومن ثم فقد كانت الرفادة تكلف أصحابها الكثير من أموالهم، بجانب ما تقدمه قريش لهم، إلا أن هذا الأمر فى الوقت نفسه قد أفاد قريشاً كثيراً، إذ كانت المزاكلة فى نظر العرب، إنما هى عقد حلف وجوار، فضلاً عن أن الضيافة فى ذاتها من أكبر ما يحمى الرجل عليه، وهكذا كانت قريش بعملها هذا، وكأنها تعقد حلقاً مع كل القبائل العربية، تحمى به تجارتها، وتسبغ على رجالانها نوعاً من التقدير والاحترام عند العرب، لا يتوفر لغيرهم (١٧٠).

-
- (١٦٨) المقاد: المرجع السابق، ص ١١٣. ١١٩، ابن هشام ١/١٤٣ - ١٤٥ (مكتبة الجمهورية بمصر)، المثير ص ١٦٧، المعارف ص ٢٩٤، ابن كثير ٢/٢٩١ - ٢٩٢، ابن الأثير ٢/٤١ - ٤٢، السيرة الحلبية ١/١٥٧، الروض الأنف ١/٩١، نصار القلوب للشمالي ص ١٤١، تاريخ اليعقوبى ١٧/٢ وما بعدها، عبد المنعم ماجد ١/٨٣، محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ١٣٥ (القاهرة ١٩٧١).
- (١٦٩) سورة التوبة: آية ١٩، وانظر: تفسير الطبرى ١٤/١٦٨ - ١٧٣، تفسير المنار ١٠/٢١٥ - ٢٢٠، الكشاف ٢/١٨٠، تفسير ابن كثير ٣/٣٧٢ - ٣٧٤، تفسير القرطبي ٨/٩١ - ٩٢، فى طلال القرآن ١٠/١٦١٤ - ١٦١٥، تيسير العلى التقدير ٢/٢١٦ - ٢١٧.
- (١٧٠) ابن هشام ١/١٤٥، ابن سعد ١/٥٨.

وخطت قريش خطوة أخرى في اجتذاب القبائل العربية، فنصبت أصنام جميع القبائل عند الكعبة^(١٧١)، فكان لكل قبيلة أوثانها تأتي في الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها، وهكذا أخذ عدد الأصنام يزداد عند الكعبة بمرور الزمن، حتى جاء وقت زاد عددها على ثلاثمائة، كان منها الكبير ومنها الصغير، ومنها ما هو على هيئة آدميين أو على هيئة بعض الحيوانات أو النباتات، وإن كان أكبرها جميعاً إنما هو «هبل» الذي جعله النورم على هيئة إنسان من عقيق أحمر^(١٧٢).

ويبدو أن الأساس الذي قامت عليه مكانة الكعبة، أن البيت الحرام بهجملته كان هو المقصود بالقداسة، غير منظور إلى الأوثان والأصنام التي اشتمل عليها، وربما اشتمل على الوثن المعظم تقدسه بعض القبائل، وتزديده قبائل أخرى، فلا يغض ذلك من مكانة البيت عند المعظمين والمزدرين، واختلقت الشعائر والدعوى التي يدعيها كل فريق لصنمه ووثنه ولم تختلف شعائر البيت - كما يتولاها مدنته المقيمون إلى جواره والمتكلفون بخدمته - فكانت قداسة البيت هي القداسة

(١٧١) تعرضت الكعبة قبيل الإسلام لعدة سيول في أوقات مختلفة، أدت إلى تصدع جدرانها، مما اضطر النورم إلى هدمها وإعادة بنائها، ويكاد يجمع المؤرخون أن ذلك تم، والمصطفى (ﷺ) في الخامسة والثلاثين من عمره الشريف، فإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان المولد النبوي في ٢٠ أبريل ٥٧١ م - كما حدده محمود الفلكي - فإن إعادة بناء الكعبة إنما كان في عام ٦٠٦ م (انظر: الطبري ١٨٧ / ٢ - ٢٩٠، ابن الأثير ٤٢ / ٢ - ٤٥، المسعودي ١ / ٢٧١ - ٢٧٣، ابن كثير ٢ / ٢٩٩، ٢٠٤، ياقوت ٤ / ٤٦٦، الأزرقى ١ / ٢٥٤ - ٢٥٥، العمري ١ / ٦٤، المقدسى ٤ / ١٣٩ - ١٤٠، ابن هشام ١ / ١٩٢ - ١٩٩، التنقيح العربي قبل الإسلام ص ٣٨، تفسير الطبري ٢ / ١٢٢ - ١٢٣، تاريخ الخميس، ص ١٢٦ - ١٣٦، نهاية الأرب ١ / ٢٣٢، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٢٥ - ٢٧٦، وكذا:

A.Guillaume, op.cit, p. 23

وكذا:

I.Sahid, In CHI, I. 1970, p. 31

(١٧٢) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٥٤ - ٢٥٥، الروص الألف ٢ / ٢٧٦، الأزرقى ١ / ١٢٠ - ١٢١، نيسابور حفساره نمرت ص ١٢٤، تاريخ التمدن الإسلامي ١ / ٢٧، الأصنام ٢٧ - ٢٨، E.Gibbon, op.cit., p. 225 وكذا:

التي لاخلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية، وجاز عندهم - من ثم - أن يحكموا بالضلالة على اتباع صنم معلوم، ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير (١٧٣).

وبقيت الكعبة المشرفة هكذا بأصنامها (٣٦٠ صنماً) حتى العام الثامن للهجرة، حيث أكرم الله تعالى رسوله والمؤمنين بفتح مكة في رمضان ٨ هـ (ديسمبر ٦٣٠)، فقام المسلمون بتحطيم الأصنام، ويروي أن النبي ﷺ، رأى صورة إبراهيم، وهو يستقسم بالأزلام، فقال: قاتلهم الله، جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام، وفي صحيح البخارى عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ، لما قدم مكة، أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، قال: فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم واسماعيل في أيديهما، لأزلام، فقال رسول الله ﷺ: قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط، (١٧٤)، ثم حكم رسول الله ﷺ، برفع كل التماثيل والصور، وهو يقول «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» (١٧٥).

وفي ثاني يوم الفتح، خطب النبي ﷺ، خطبته المشهورة التي وضع فيها مآثر الجاهلية، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ثم قال: يا أهل قريش، ويا أهل مكة، ما ترون أنى فاعل بكم، قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وهكذا اعتقهم رسول الله ﷺ، وكانوا له فيثاً، ومن ثم فقد سمي سكان مكة يوم الفتح «بالطلقاء»، ثم أعلن رسول الله ﷺ، إن مكة سوف تبقى

(١٧٣) العقاد: مطلع النور، ص ١١٥.

(١٧٤) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد ٢/ ٢٩٦ (بيروت ١٩٨٥)، صحيح البخارى ٣/ ٣٧٥ - ٣٧٦، سنن أبى داود ١/ ٦٤٧، السهيلي: الروض الأوفى ٢/ ٢٧٤ - ٢٧٦، صحيح مسلم ٥/ ١٧٣، ارشاد السارى ٧/ ٢١٠، السيرة الحلبية ١/ ١٤٤، ٣/ ٨٧، القاسمى: العقد الثمين ١/ ١٥٧، ٢١٢، ابن الكلبي: الأصنام ص ٣١ - ٣٢، الأزرقى: أخبار مكة ١/ ١٦٨ - ١٦٩.

(١٧٥) سورة الإسراء. آية ٨١

حرماً آمناً لا يقاتل فيها، وأن تكون الكعبة هي بيت الله الحرام، يحج إليها العرب حتى المشركون منهم (١٧٦).

وفي العام التاسع للهجرة (٦٣٠ - ٦٣١ م) - عام الوفود - بقى المصطفى ﷺ في المدينة يستقبل الوفود، حيث كان ما يزال في بلاد العرب من لم يؤمن بعد بالله ورسوله، وإن كانوا في الوقت نفسه، ما يزالون - كما كانوا في الجاهلية - يحجون إلى الكعبة في الأشهر الحرم، ومن ثم فليبق سيدنا رسول الله ﷺ، إذا بالمدينة، حتى يتم الله كلمته، وحتى يأذن الله له بالحج إلى بيته، وليخرج أبو بكر حاجباً بالناس (١٧٧).

على أن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، سرعان ما أسر الإمام على بن أبي طالب، رضی الله عنه، وكرم الله وجهه، أن يسرع إلى مكة قبل أن تصل إليها وفود الحجيج من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، ليلفهم بسورة نزل بها الوحي من السماء، والتي عرفت بسورة براءة، ويقوم سيدنا الإمام على بالمهمة خير قيام، ويبلغ رسالة النبي الأعظم ﷺ، إلى الناس في اجتماعهم العام هذا «يوم الحج الأكبر» في «منى» وقبل الوقوف في «عرفات»، وقد جاء في هذه الرسالة، قول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله، إن شاء، إن الله عليهم حكيم» (١٧٨).

(١٧٦) تاريخ الطبري ٣ / ٧٦١، البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٢، النويري: تهذيب الأسماء، واللغات ١ / ٢٩٨، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٤٤ - ٤٥، المعهودى مروج الذهب ٢ / ٢٩٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢ / ٢٥٥، ابن كثير: البداية والنهاية ٤ / ٣٠١

(١٧٧) ابن هشام: سير النبي ﷺ ٢ / ٩١٩، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢ / ٢٨٦ - ٢٩٢، ابن قتيبة: المعارف ص ٨٢، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٥١ - ٥٨، فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١٦٤ - ١٦٥، ارضيغ. حياة محمد ص ٢٢٩، محمد حسين فيكل: حياة محمد ص ٤٧٠ - ٤٧٦. الصديق أبو بكر، ص ٥٣.

(١٧٨) سورة التوبة: آية ٢٨، وانظر: تفسير الطبري ١٤ / ١٩٠ - ١٩٨، تفسير البحر المحيط ٥ / ٢٧ - ٢٩، في ظلال القرآن ٣ / ١٦١٨ - ١٦١٩، تفسير الحلالين ص ١٧٠، ١٧٣، تفسير القرطبي ص ٢٩٤٢ - ٢٩٤٨، تفسير المار ١٠ / ٢٤٠ - ٢٤٧، تفسير السفي ٢ / ١٢٢ -

ويعلن الإمام على بن أبي طالب، رضى الله عنه، وكرم الله وجهه فى الجنة، بأمر رسول الله ﷺ، «يا أيها الناس: إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد اليوم مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عد رسول الله ﷺ، عهد فهو إلى مدته، وأجل على الناس أربعة أشهر بعد ذلك، ليرجع كل قوم إلى بلادهم، ومن يومئذ لم يحج بالبيت مشرك، ولم يطف بالبيت عريان»، وهكذا أعاد الإسلام إلى الكعبة وجهها الصحيح، كما كان على أيام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، بيتاً لله وحده، لا يعبد فيه أحد غيره» (١٧٩).

وهكذا ازدادت الكعبة المشرفة شرفاً وفضلاً فى الإسلام، فقد جعل الله تعالى الكعبة البيت الحرام قبلة المسلمين فى صلاتهم، وجعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فى غيره، كما أن الحج - ركن الإسلام الخامس - لا يتم إلا بالطواف حول الكعبة المشرفة، فهذان ركنان من أركان الإسلام الخمسة - الصلاة والحج - لا يتم الواحد منهما إلا بالإتجاه إلى الكعبة المشرفة فى مكة المكرمة. ولا يصح الثانى إلا فى مكة ومجاورتها (عرفة - المزدلفة - منى)، وهكذا، ومنذ السنة التاسعة للهجرة النبوية الشريفة (عام ٦٣٠/٦٣١م) أصبحت مكة المكرمة مدينة الإسلام المقدسة، يحج إلى كعبتها كل عام عدد من البشر يفوق - على وجه اليقين - أى عدد آخر من الحجاج إلى أى مكان آخر على ظهر الأرض، يقصدون إليها لأداء فريضة الحج والصلاة فى بيتها الحرام، والطواف حول كعبتها

= ١٢٣، صفوة التفاسير ١/ ٥٣٠، تفسير أبى السعود ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥، تفسير ابن كثير ١٢ / ٥٤١ - ٥٤٢، صحيح البخارى ٦ / ٨١.

(١٧٩) ابن هشام: سير النبى ﷺ ١٤ / ٢٠١ - ٢٠٥، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ١٢ / ٢٩١، المسعودى: مروج الذهب ٢ / ٢٩٠، التنبيه والإشراف ص ١٨٦ - ١٨٧، تاريخ ابن خلدون ١٢ / ٥٣، تفسير الطبرى ١٤ / ٩٥ - ١١٢، تفسير البصاوى ١ / ٢٨٢، محمد بن عبد الوهاب: مختصر زاد المعاد ٢ / ٣٦٧ - ٣٦٨، الخريوطى المرجع السابق، ص ٨٨٩، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ٤٧٦، الساعى: تاريخ مكة، ص ٥٤، فيلب حتى: المرجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٤، محمد استونى المرجع السابق، ص ١٧.

هذا وقد وردت عدة أحاديث شريفة في فضائل الكعبة المشرفة - فضلاً عن مكة نفسها - من ذلك ما رواه البخارى ومسلم في صحيحيهما بسنده عن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ أنه قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فيها، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب»، روى الترمذى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إلى ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك»، وفي رواية للإمام أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان عن ابن الحمرء أن رسول الله ﷺ قال: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت»، روى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ، قال: «لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة سلاح».

وروى أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة فى مسجدى هذا (أى مسجد الرسول بالمدينة) خير من ألف صلاة، إلا فى المسجد الحرام، وفضل المسجد الحرام فضل مائة صلاة» وعن عطاء بن أبى رباح عن ابن الزبير قال، قال رسول الله ﷺ «فضل المسجد الحرام على مسجدى مائة صلاة»، وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام»، وروى التوروى فى شرح صحيح مسلم عن عبد الله بن الزبير قال قال ﷺ: «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى» وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال «لأنشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدى هذا، والمسجد الحرام، ومسجد الأقصى» (١٨٠).

(١٨٠) انظر: صحيح مسلم ١٩ / ١٢٣ - ١٦٩ (بيروت ١٩٨١)

(٢) المدينة المنورة

(١) موقع المدينة الجغرافي وأهميته:

تقع المدينة المنورة - يثرب - على مسافة ٤٨٠ كيلوا شمالى مكة المكرمة، فى واحة خصبة، غزيرة المياه، بين لابتين بركائيتين: الأولى: حرة واقم، وهى الحرة الشرقية، وتسمى أيضاً حرة بنى قريظة، لأنهم كانوا بطرفها القبلى، وحرة زهرة، لمجاورتها لها، وتنقسم حرة واقم، باعتبار المنازل الواقعة فيها قديماً، إلى خمس مناطق متجاورة، منطقتان كانتا لليهود، وثلاث كانت للأوس من الأنصار، فقى زهرة منازل بنى النضير، وفى شمالها منازل بنى قريظة، وفى شمال هذه - أى منازل بنى قريظة، تقع منازل بنى ظفر من الأنصار، وبجانبهم نحو الشمال كذلك منازل بنى عبد الأشهل، مع بنى زعور بن جشم الأنصاريين، وفى منازل بنى عبد الأشهل كان حصنهم «واقم» وهو الذى سميت به الحرة، وبشمالهم منازل بنى حارثة إلى نهاية الحرة شمالاً^(١).

ويذهب الأستاذ الأنصارى: إلى أنه قد عثر فى «حرة واقم» هذه، على آثار مصنع قديم فيه أنواع القطع الفخارية المدهونة من كل لون، وبجانب هذا المصنع صهريج ماء مطلى بالرصاص بالداخل، وبشرقه غدير^(٢).

هذا وفى حرة واقم هذه كانت وقعة الحرة المشهورة (يوم الأربعاء ٢٨ ذى الحجة ٦٣ هـ - ٢٨ سبتمبر ٦٨٢ م)، حيث قتلت جيوش يزيد بن معاوية ابن أبى سفيان (٦٠ - ٦٣ هـ / ٦٨٠ - ٦٨٤ م) خلقاً كثيراً، واستبيحت مدينة الرسول (ﷺ) ثلاثة أيام، وذهبت بعض المصادر إلى أن عدد القتلى بلغ ألف

(١) السهمودى: وفاة الوفا بأخبار دار المصطفى ١/٤ ١١٨٨ (بيروت ١٣٩١ هـ / ١٩٧١)، عبد القدوس الأنصارى: آثار المدينة المنورة ص ٢١٠، (المطبعة السلفية، المدينة المنورة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م).

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢١١.

وسبعمائة من بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التاهمين، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصبيان، وقتل من حملة القرآن سبعمائة، ومن قريش ٩٧ قتلوا صبراً، وانتضت ألف عذراء، روى ابن الجوزي بسنده إلى المدائني عن أبي قرعة، قال هشام بن حسان: ولدت بعد الحرة ألف امرأة من غير زواج، وروى المدائني بسنده عن أم الهيثم ابنة يزيد قالت: رأيت امرأة من قريش تطوف، فعرض لها أسود فعانقته فقبلته، ققلت: يا أمة الله، أتفعلين هذا بهذا الأسود، فقالت: هو ابني: وقع على أبوه يوم الحرة، ومن المؤلم المحزى أن يكتب مسلم بن عقبة المري - قائد جيش زياد في الحرة- بما فعله بأهل المدينة، ثم يوقع كتابه «فلاتأس على القوم الفاسقين»^(٣).

والثانية - حرة الوبرة: وكانت تقع بضاحية المدينة الغربية - وعلى مبعدة ٤ كيلا من المدينة - وكانت أقرب إلى المدينة من حرة واقم، وتمتاز بكثرة الهضاب والمستنقعات والمنخفضات والمرتفعات، وفي هذه الحرة المدرج الذي يقال أنه وثنية الوداع، وفي طرفها الشمالي الشرقي منازل بني سلامة، ومن تحت طرفها الغربي بحر حررة وقصره ومزارعه، وبطرفها الشمالي مسجد القبليين، وبطرفها الغربي أطم الصيحات وقلعة قباء.

هذا ومن المعروف أن حرة الوبرة هذه، وحررة واقم، أنهما اللاتيات اللتان تحدان حرم المدينة، وأنهما تلتقيان في تاحيتهما الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية، بالنسبة للمدينة^(٤).

(٣) أنظر عن واقعة الحرة (تاريخ الطبري ٥ / ٤٨٢ - ٤٩٥، ابن الأثير. الكامل في التاريخ ٤ / ١١١ - ١٢١، المسعودي مروج الذهب ٢ / ٩٢، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ١ / ٢٨٦ - ٢٨٧، تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٥٠ - ٢٥١، من محمد بيومي مهران: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين، الجزء الثامن، الإمام الحسين بن علي، ص ١٨٣ - ١٨٩ (بيروت ١٩٩٠)، العقد الفريد ٤ / ٢٨٦، ٥ / ١٣٦ - ١٤٠، حسين محمد يوسف: الحسين بن علي، ص ٣٧٨ - ٣٨٤ (القاهرة ١٩٧٣)، ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ١٩٨ - ٢١٩، ابن دقماق: الجواهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، ص ٦٩٠ - ٦١١).

(٤) المسعودي الوفاء ٤ / ١١٨٨ - ١١٩٠، عد القدوس الأنصاري. المرجع السابق، ص ٢١٢ -

هذا ويحد المدينة المنورة من الشمال «جبل أحد»، كما يقع «جبل عير» على حدها الجنوبي، وتكتنف الوديان الحرتين من الشرق والغرب، منحدره من الجنوب والشرق، محيطة بالمدينة من جهاتها الجنوبية والشمالية والغربية حتى تجتمع في شمالها الغربي، وتسير في انحدارها مياه الأمطار فتجعل من أرض المدينة جنات ذات زرع، زاوية بالخضرة، وبساتين تنبت أشجار النخيل والفاكهة، ولذلك فقد كانت حياة السكان في المدينة إنما تعتمد في المقام الأول على تملك الأرضين الزراعية واستثمارها.

وأما أودية المدينة فهي ستة: ١- وادي العقيق (في ضاحيتها الغربية) ٢- وادي رانواء (في ضاحيتها الجنوبية الغربية) ٣- وادي بطحان (في ضاحيتها الجنوبية) ٤- وادي مذنيب (في ضاحيتها الجنوبية الشرقية) ٥- وادي مهزور (في ضاحيتها الشرقية) ٦- وادي قناة (في ضاحيتها الشمالية الشرقية).

هذا ويسيل وادي العقيق وقناة في خارج المدينة، أما الوديان الأربعة الأخرى (رانواء - بطحان - مذنيب - مهزور) فتجتمع في وادي بطحان من جنوب المدينة، وتسير ممتزجة مع بعضها حتى تدخل المدينة من الأبواب الحديدية التي كانت معمولة لها قديماً تحت باب قباء بشرقيه.

هذا وتشق الأودية الأربعة المدينة ممتزجة، إلى الشمال، وذلك في المسيل المعروف باسم «أبو جيدة» حتى تخرج من باب «البرابيع»، وتفيض في «صفاصف» إلى أن تبلغ سفح جبل «سلع» ثم تفيض إلى «زغابة» حيث تجتمع بسيل العقيق ووادي قناة^(٥).

ولعل من الأهمية بمكان أن أهل المدينة (يشرب) إنما كان مدار شربهم في الجاهلية على الآبار وهي:

١- بئر أريس: نسبة إلى صاحبها، وتقع غربي مسجد قباء بحوالي ٢٨ م،

(٥) انظر ودان المدينة (عبد القدوس الأنصاري، آثار المدينة المهررة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٣ م، ط ثلاثة، ص ٢١٥ - ٢٢٧).

وعمقها ١٢ متراً وفي أسفلها فتحتان يجرى منها الماء إلى البئر، وثلاثة تصلها بمجرى العين الزرقاء، وماؤها غزير، وهو عذب خفيف، وكثيراً ما جلس النبي (ﷺ) على قفها، وقد عرفت باسم «بئر الخاتمة» منذ وقع فيها خاتم النبي من يد عثمان بن عفان في السنة السادسة من عهده والبئر الآن جافة.

٢- بئر رومة: وتقع في عرضة العقيق الكبرى، قرب مجتمع الأسيال (زغابة) بشمال غربي المدينة، وقطرها ٤ م، وعمقها ١٢ م، وهي غزيرة الماء، وماؤها عذب صاف، خفيف للغاية، ولذا فقد رغب النبي (ﷺ) أصحابها على شرائها، ووقفها على المسلمين، وقد فعل ذلك عثمان بن عفان فاشتراها من صاحبها اليهودي بعشرين ألف درهم ثم أوقفها على المسلمين.

٣- بئر غرس: وكان النبي (ﷺ) يشرب منها، بل وأوصى بغسله بمائها بعد وفاته، وكانت وقت ذلك لسعد بن خيثمة الأنصاري.

٤- بئر حاء: وتقع خارج سور المدينة، وكانت ملكاً لأبي طلحة الخزرجي، وقد أوقفها على أقاربه، وآل قسم منها إلى حسان بن ثابت، ثم اشتراها كلها معاوية بن أبي سفيان وبني بها قصرأ (قصر بني جديلة لوقوعه في منازلهم)، ليأوي إليه بنو أمية، إذا وقعت بهم النوائب، كما كان متوقماً.

٥- بئر بضاعة: وتقع قريباً من سقيفة بني ساعدة، وهما لبني إساعدة.

٦- بئر السقيا: وتقع جنوبي مبنى السكة الحديدية، ويفصل بينهما طريق مكة، وهي عميقة محفورة في الصخر، وقد شرب منها النبي (ﷺ) وتوضأ، وعلى أرضها - وتدعى الفلجان - عرض النبي (ﷺ) الجيش الذهاب إلى «بدر»، وكانت ملكاً لذكوان الزرقني، ثم اشتراها منه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

٧- بئر أبي أيوب: ولعله أبو أيوب النجاري الخزرجي الأنصاري، الذي تنسب إليه بئران أو ثلاثة، - وهو الذي شرف بنزول النبي (ﷺ) - بمنزله عند قدومه المدينة في الهجرة عام ٦٢٢ م (١هـ) - وتعرف حتى الآن ببئر أبي أيوب، وتقع شرقي البقيع، وكان ماؤها بين العذب والمالح.

٨- بئر ذروان: وتنسب إليها حادثة السحر المزعومة^(٦)، وتقع في منازل بنى زريق وهم أصحاب الشرا، وتقع حوى المدينة.

٩- بئر عروة بن الزبير، وتقع في طرف حرة الوبرة الغربى بالنسبة إلى المدينة، عن يسمين المسافر في الطريق إلى مكة، وماؤها أرق مياه المدينة وأعديها وأخفها، ويقول ابن خلكان: ليس في المدينة بئر أعذب منها.

(٢) بين مكة ويثرب:

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك خلافاً بين الأوضاع الجغرافية والسكانية والاقتصادية بين كل من المدينتين المقدستين - مكة المكرمة والمدينة المنورة - فإذا كانت مكة المكرمة قد نمتعت بالنظام، وسادها جو من الهدوء والاستقرار، وكانت العوامل التي تربط بين الجماعة فيها، تؤدي وظيفتها على نحو مرض إلى حد كبير، وذلك بسبب وحدة السكان فيها، واجتماعهم على غاية واحدة هي: رعاية البيت الحرام، والقيام على تنظيم التجارة الداخلية والخارجية، والتي كانت أهم موارد الرزق في البلد الحرام^(٧).

إذا كان ذلك كذلك في مكة المكرمة، فإن «يثرب» (المدينة المنورة) لم تكن كذلك، فسكانها من عنصرين مختلفين (عرب ويهود)، وكذلك؛ لم تكن لهم غاية مشتركة يحرصون عليها، ويترابطون من أجلها، ومن ثم فقد سادها الإضطراب، وعمتها المنازعات.

وإذا كانت حياة الزراعة من طبيعتها، أن تربط الناس بالأرض، وتفرض عليهم الاستقرار، فإنها في مجتمع المدينة، وهو مجتمع قبلي، إنما تكون مشاراً للنزاع الدائم، حيث لا توجد في هذا المجتمع قوة فوق قوة القبائل والعشائر، تستطيع أن تقر الحقوق، وتفرض السلم، وتعاقب من يخل به.

(٦) انظر عن قصة سحر النبي ﷺ (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة، الجزء الثالث، بيروت ١٩٩٠، ص ١٦٩ - ١٨٩)

(٧) عبد القدوس الأنصاري آثار المدينة المنورة - المدينة المنورة ١٩٧٣ ص ٢٤١ - ٢٥٦ إبراهيم رفعت مرآة الحرمين ١ / ٤٢٨ - ٤٣٠، على حافظة فصول من تاريخ المدينة، ص ١٦٩

ومن ثم، فما كان من شأنه أن يؤدي إلى الاستقرار، كان هو في ذاته، عامل من عوامل النزاع والإضطراب، حيث كان كل فريق يتطلع إلى أن تكون أخصب البقاع في يده، وكان السعى عن طريق القوة هو الطريق أو السبيل المألوف لتوسيع الأملاك، والحصول على أفضل البقاع الزراعية.

ولما كانت المدينة مكونة من عنصرين من السكان (عرب ويهود) فقد انقسمت إلى معسكرين متعاديين، يترقب الواحد منهما الفرصة لقهر الآخر والحصول على ما في يده - أو خير ما في يده -.

على أن كلا من هذين القسمين - العرب واليهود - إنما انقسم بدوره إلى وحدات متصارعة، ولم يربط بين هذه الوحدات في المعسكر الواحد، إلا ما كان يربطها من تقاليد العصبية القبلية، والشعور بأن الفرد وحده، إنما هو عاجز عن حماية نفسه ضد الآخرين، ومن ثم فقد ساد المدينة جو من عدم الأمن، جعل الحياة في يثرب - قبل الإسلام - أمراً عسيراً.

وهكذا انجذبت ميل السكان في يثرب - قبل الإسلام - رغبة في الحفاظ على النفس والمال إلى إقامة الحصون والآطام، للإحتماء بها عند الحاجة، حتى امتلأت المدينة بالحصون، وحتى كان لليهود وحدهم - كما يقول السمهودي - تسعة وخمسون إاطماً، ولم يكن العرب أقل منهم رغبة في بناء الآطام، حتى كان لبطن واحد منهم، تسعة عشر إاطماً^(٨).

هذا وقد اختلفت يثرب عن مكة في أنها إنما تتميز عنها بمزايا لم تعرفها مكة، من طيب الهواء، وجودة التربة، كما أنها لم تكن على طريق القوافل التي تحمل الطيوب بين اليمن والشام فحسب، وإنما كانت كذلك راحة حقيقية، ذات تربة صالحة لزراعة النخيل - وهو كثير فيها - ومن ثم فقد أصبحت واحدة من أمهات المراكز الزراعية في بلاد العرب^(٩).

(٨) السمهودي، وقاه الروا ١٩٠ - ٢٢٠ (بيروت ١٩٧١)؛ أحمد إبراهيم الشريف، الحجاز قبل ظهور الإسلام، ص ٢٢ - ٢٣ (الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، الجزء الأول، الرياض، ١٩٨٩م).

(9) P. K. Hitty, History of Arabs, 1960, p. 104.

ولم تقتصر الخلافات بين مكة والمدينة (يثرب) على النواحي الجغرافية والسكانية والإقتصادية، وإنما امتدت كذلك إلى النواحي الدينية، ذلك أن مكة جميعها تسكنها قبيلة عربية واحدة - قريش - تدين بدين واحد - الوثنية - أما المدينة (يثرب) فكان فيها العرب وثنيين، واليهود يدينون باليهودية.

(٣) أسماء المدينة المنورة:

لم تكن المدينة المنورة تعرف بهذا الاسم - أي المدينة - قبل نصرتها للإسلام وهجرة سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله (ﷺ) إليها في الثاني عشر من ربيع الأول - في السنة الثالثة عشرة من المبعث (٢٤ سبتمبر عام ٦٢٢م)، وإنما كانت تسمى «يثرب»، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: «وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا» (١٠).

وقد ذكرت يثرب في الكتابات المعينية، ربما بسبب وجود جالية معينة كانت تقيم هناك، خلفتها أخرى سبئية، بعد أن ورث السبئيون دولة معين في اليمن، ومستعمراتها في شمال غرب شبه الجزيرة العربية، ولعل هذا هو السبب الذي دفع بالنسابين من بعد أن يروا في سكان يثرب من العرب، أزدًا من قحطان (١١).

هذا وقد كثرت أسماء المدينة في العصر الإسلامي، حتى بلغت عشرة أسماء، على رأى، وأحد عشر اسماً، على رأى آخر، وتسعة وعشرين على رأى

(١٠) سورة الأحزاب: آية ١٣، وانظر. تفسير القرطبي ١٤ / ١٤٧ - ١٤ (دار الكتب)، تفسير الفخر الرازي ٢٥ / ١٩٩ - ٢٠٠، تفسير روح المعاني ٢١ / ١٥٨ - ١٦١، تفسير البيضاوي ٢ / ٢٤٠ - ٢٤١، تفسير الطبري ٢١ - ١٣٤ - ١٣٧، تفسير أبي السعود ٣ / ٢٠٥، الدر المشور في التفسير بالمأثور ١٥ / ١٨٧ - ١٨٨، تفسير العلي القدير ٣ / ٣٥٥ - ٣٥٦، تفسير الكشاف ٣ / ٢٥٤، في ظلال القرآن ٢١ / ٢٨٢٨ - ٢٨٢٩.

(١١) جواد على ٤ / ١٢٨، وكذا:

Ency. of Islam, III, p. 83, p. 118.

H Winkler, Arabisch-Semitsch Orientalisch, in MVG, 1901, وكذا: p 63.

ثالث، وأربعة وتسعين على رأى رابع، وإن كان أهمها جميعاً: المدينة وشرب وطيبة وطابة والعاصمة والقاصبة والجديّة والحبوبة والمؤمنة والمباركة والمحافظة والمختارة والجابرة والعذراء والغراء والبارة والمقدسة والناجية وذات الحرار ومدخل صدق وقرية الأنصار وسيدة البلدان والخيرة وأرض الهجرة ودار الهجرة ودار الأخيار ودار الإيمان ودار الأبرار ودار السنة وبيت الرسول ومدينة الرسول ومضجع الرسول ورحم رسول الله ﷺ (١٢).

ومن أسف أن تاريخ يثرب التقديم مجهول، فلا توجد مدونات يمكن الرجوع إليها، ولم تقم بها حفريات علمية يمكن أن تقدم لنا معلومات ذات قيمة عن تاريخ المدينة المقدسة القديم، وإن كانت هناك حفريات قد أجريت دون أن يقصد بها ذلك الهدف العلمى - كالتى حدثت فى الأعوام ١٣٢٣، ١٣٣٥، ١٣٥٢ هـ - فى أحد البساتين، إبان حفر أساس القسم الشمالى لمدرسة العلوم الشرعية الواقعة بقرب باب النساء، وفى المناخية جنوب السبيل، إلا أنها قد كشفت عن بعض أشياء قد تشير إلى أن المدينة الحالية، إنما قامت على أنقاض مدينة أخرى - الأمر الذى أشار إليه السمهودى منذ القرن التاسع الهجرى - ومن ثم فإن معلوماتنا الحالية، إنما تعتمد فى الدرجة الأولى على زواياك الاخباريين، وأكثرها من ذلك النوع الذى عرفناه من قبل (١٣).

(٤) سكان المدينة:

يروى الأخباريون أن سكان يثرب إنما كانوا من العماليق، ثم من اليهود، ثم العرب - من أوس وخزرج - وأن العماليق إنما كانوا أول من زرع الزرع واتخذ

(١٢) رفا الوفا ١/ ٧ - ١٩، خلاصة الوفا ص ٧ - ١٧، الدرر الثمينة فى تاريخ المدينة (ملحق بالجزء الثانى من شفاء العرام) ص ٣٢٢، المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٣٠ (ليدن ١٩٠٦)، الأعللاق ص ٥٩، البكرى ١/ ٤ - ١٢٠١، ١٢٠٢، ياقوت ١٥/ ٨٢ - ٨٣، ٤٣٠، عمدة الأخبار ص ٤١، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٥٢٨.

(١٣) عبد القدوس الأضرارى: آثار المدينة المنورة، ص ١٩٢ - ١٩٤، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٢٩٠ - ٢٩١، محمد حسين هيكى فى منزل الرحى؛ ص ٥١٢ - ٥١٤.

بها النخيل، وعمر بها الدور والآطام، واتخذ الضياع، وأنهم يرجعون في نسبهم إلى عملاق ابن أرفخشذ بن سام^(١٤).

غير أن التاريخ لا يحدثنا عن سكان المدينة إلا عن اليهود والعرب.

(١) اليهود:

يقدم لنا الاخباريون روايات ترجع بوجود اليهود في يثرب إلى عصر موسى عليه السلام (الأمر الذي ناقشناه في كتابنا «اسرائيل»^(١٥))، وقد ناقشنا هذه الروايات في كتابنا «تاريخ العرب القديم»^(١٦)، ورفضناها جميعاً، غير أن هناك حقيقة تاريخية تقول: إن اليهود كانوا يسكنون يثرب، حتى أجلاهم عنها سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ، بل عن الحجاز كله، بعد غزوات: بنى قينقاع^(١٧)، وبنى النضير^(١٨)، وبنى قريظة^(١٩)، وخيبر^(٢٠)، ثم عن بلاد العرب كلها، فلقد روى عن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع فيها إلا مسلماً» - رواه أحمد ومسلم والترمذي وصححه^(٢١).

-
- (١٤) وفاء الوفا / ١، ١٠٧، ١١، خلاصة الوفا، ص ١٥٤ - ١٥٦، ياقوت / ٥ / ٨٤ (مادة مدينة).
- (١٥) أنظر عن عصر موسى والآراء التي دارت حوله (محمد بيومي مهراي: بنو اسرائيل / ١ - ٣٢٤ - ٤١١ (طبعة ١٩٩٩).
- (١٦) أنظر (محمد بيومي مهراي: تاريخ العرب القديم / ٢ - ٢٠٦ - ٢٢٤ (الطبعة السادسة عشرة ١٩٩٥).
- (١٧) أنظر عن «غزوة بنى قينقاع» (محمد بيومي مهراي: السيرة النبوية الشريفة / ٢ - ٢٦٧ - ٢٧٥ (بيروت ١٩٩٠).
- (١٨) أنظر عن «غزوة بنى النضير» (محمد بيومي مهراي: السيرة النبوية الشريفة / ٢ - ٢٧٧ - ٢٨٦ (بيروت ١٩٩٠).
- (١٩) أنظر عن «غزوة بنى قريظة» (محمد بيومي مهراي: السيرة النبوية الشريفة / ٢ - ٢٨٧ - ٣٠٢ (بيروت ١٩٩٠).
- (٢٠) أنظر عن «غزوة خيبر» (محمد بيومي مهراي: السيرة النبوية الشريفة / ٢ - ٣٠٣ - ٣٣٤ (بيروت ١٩٩٠).
- (٢١) الشوكلي - الأملار من أحاديث سيد الأحرار - شرح مستقى الأحبار، الجزء ثامن من ٦٤، (بيروت - دار الكتب العلمية).

وعن عائشة قالت: آخر ما عهد رسول الله ﷺ، أن قال: لا يترك بجزيرة العرب دينان» - رواه أحمد (٢٢).

وعن ابن عمر: أن عمر أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وذكر يهود خيبر، إلى أن قال: أجلاهم عمر إلى يثماء وأريحا - رواه البخاري (٢٣).

وعن أبي عبيدة بن الجراح قال: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ: أخرجوا يهود أهل الحجاز، وأهل نجران من جزيرة العرب» - رواه أحمد (٢٤).

في الواقع أن الآراء متضاربة في هذا الأمر إلى درجة أننا لانستطيع التوفيق بينهما، إذ تذهب بعض الآراء إلى أن ذلك إنما حدث في القرن الثالث عشر ق.م (٢٥)، بينما تذهب آراء أخرى إلى أنه إنما كان في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد (٢٦)، والفرق بينهما جد شاسع، قد يصل إلى حوالي أربعة عشر قرناً، ومن هنا كانت الصعوبة في التوفيق بين هذه الآراء المختلفة أحياناً، والمتضاربة أحياناً أخرى.

وهناك رأى ثالث يذهب إلى أن اليهود إنما قدموا إلى بلاد العرب في القرن الثامن قبل الميلاد؛ بعد سقوط السامرة - عاصمة إسرائيل - في أيدي الآشوريين عام ٧٢٢ ق.م (٢٧)، وليس من شك في أن هذا الاتجاه قد تركز إلى حد كبير

(٢٢) نفس المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢٣) نفس المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢٤) نفس المرجع السابق، ص ٦٤ - ٦٥، وانظر: محمد أبو زهرة: خاتم النبیین ١٢ / ١٩٠٦، ابن كثير: السيرة النبوية ٣ / ٤١٤ - ٤١٦ (القاهرة: ١٩٦٥)، سنن الدرسي ٢ / ٢٢٣، إحسان لريا صيرما: سياسة الرسول ﷺ في غزواته مع اليهود (كتاب البحوث والدراسات، قطر ١٩٨١، الجزء الثاني، ص ٢١٧).

(٢٥) وماء الرنا ١ / ١٠٧، ١١١، الروض الأنف ٢ / ١٦، أمر الداء ١ / ١٢٣، ياقوت ١٥ / ٨٤، ابن حلدون ١٢ / ٨٧ - ٨٨ (القسم الأول) ٢ / ٢٨٦ - ٢٨٧ (القسم الثاني)، الأغاني ٣ / ١١٦، ١١٩ / ٩٤.

(26) Jisephus, The Jewish War, II, 18, 1, 3 - 4.

O'Leary, op. cit., p. 173 وكذا: IC, III, p. 170 وكذا.

(٢٧) محمد بيومي مهران: إسرائيل ١٩٤٠-١٩٥٠.

A Guillaume, Islam. 1964, p 11

بسقوط السامرة في يوم ما من شهر ديسمبر عام ٧٢٢ ق.م^(٢٨)، وأن العاهل الآشوري «سرجون الثاني» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) قد هجر أكثر عناصر السكان أهمية، وربما النبلاء والأعياء، غير أن التهجير إنما كان - طبقاً لرواية التوراة^(٢٩) - إلى «حلب وخابور ومدن مادي»، وحين تكررت العملية في عام ٧٢٠ أو ٧١٥ ق.م، فإن العاهل الآشوري قد جاء يقوم من «بابل وكوت وحماة»، ومن موسسة وعيلام، فضلاً عن قبائل نمود (تامود) ومرسيمانو وجبايا، والعرب الذين يعيشون بعيداً في الصحراء وأسكنهم في السامرة، وذلك رغبة من العاهل الآشوري في كسر التحالفات القديمة في سورية وفلسطين، بإدخال أجناب إلى البلاد^(٣٠)، وهكذا يبدو واضحاً أنه ليست هناك أية إشارة في التوراة، أو في النصوص إلى تهجير يهود من السامرة إلى يثرب، وإلى غيرها من بلاد العرب، ومن ثم فإن المؤرخين يرفضون هذا الاتجاه.

وهناك فريق رابع يرى أن هجرة اليهود إلى يثرب إنما كانت بعد سقوط اليهودية وتدمير الهيكل في القرن السادس قبل الميلاد، على يد «نبوخذنصر» في عام ٥٨٦ ق.م - وربما في أغسطس ٥٨٧ ق.م - وإبعاد كثير من اليهود إلى بابل، وهو ما عرف في التاريخ باسم «السيبى البابلي»^(٣١)، وعندما قتل اليهود

(28) A.T. Olmsted, in AJSL, 47, p. 262.

.A.Leo Oppenheim, in ANET, p. 28

وكذا

J.Finegan, op.cit, p. 210.

وكذا

A.G.Lie, The Inscriptions of Sargon II, Part, I, The Annals, 1929, p. 5.

(٢٩) ملوك ثان ١٧ . ٦.

(٣٠) ملوك ثان ١٧ : ١ - ٢٦، عزرا ٤ : ٢، ٩، محمد بيومي مهران، إسرائيل ١٢ / ٥٠٩ - ٥١٢.

A.L. Oppenheim, in ANET, p. 260.

وكذا

S A. Cook, in CAH, III, p. 385.

وكذا

C.Roth, A Short History of The Jewish People, p. 28 - 9.

وكذا

(٣١) تاريخ الطبرى ٥٣٩/١، أبو الفداء ١٢٣/١، الأغاني ٩٤ / ١١٩، الروم الألف ١٦/٢،

اسرائيل ولفنون - المرحع السابق ص ٦.

.E.Dozy, op- cit, p. 135 وكذا A. Guillaume, op- cit, p. 11

«جداليا» نائب نبوخذنصر في أورشليم (٣٢)، أدركوا مدى الكارثة التي حلت بهم، وخوفاً من إنتقام العاهل البابلي، فقد كان الهروب إلى مصر هو سبيل النجاح الوحيد أمامهم، ونقرأ في التوراة «فقام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش وجاءوا إلى مصر، لأنهم خافوا من الكلدانيين» (٣٣)، ومرة أخرى ليس في هذه الأحداث إشارة إلى هروب يهود إلى يثرب، كما تذهب الروايات العربية (٣٤).

على أنه في هذه الإضطرابات، لا يمكن القول أن مصر كانت هي سبيل النجاح الوحيد أمام اليهود - كما تقول التوراة - ومن ثم فربما قر فريقي من يهود إلى بلاد العرب، وإن كنا لانستطيع - بحال من الأحوال - أن نقول أنهم قد ذهبوا إلى يثرب بالذات، ولعل الذهاب إلى تيماء وإلى وادي القرى ومجاورتها، ربما كان أقرب إلى الصواب من الذهاب بعيداً إلى يثرب، ذلك لأن الطريق إلى الحجاز لم يكن مقفلاً أمام يهود في تلك الفترة، وبخاصة وأن اليهود كانوا هاربين من فلسطين، يبحثون عن ملجأ يقيهم شر العذاب الذي يمكن أن يصبه عليهم العاهل البابلي، والحجاز أقرب المناطق إلى فلسطين، كما أن وجود بعض من يهود على طرق التجارة بين جنوب بلاد العرب وشمالها فيما بعد العصر الروماني، قد يدعم الرأي القائل بوجود هجرة يهودية إلى بلاد العرب منذ تلك الفترة (٣٥).

البابليين غير أن حملات المتكررة بعد ذلك على شتال بلاد العرب، فضلاً عن استقرار «نيونيد» في تيماء، ولمدة قد تقرب من سنوات عشر، كما أشرنا من قبل، قد يضعف هذا الاتجاه، ورغم أن هناك من يذهب إلى أن حملة نيونيد على بلاد العرب، قد ضمت بين رجالها بعضاً من يهود، وأن هذا النفر من يهود، إنما أقاموا في شمال الحجاز - وحتى يثرب - إقامة دائمة استمرت حتى ظهور

(٣٢) ارميا ٤١: ١ - ١٨، زكريا ٧: ٥.

(٣٣) ملوك ثان ٢٥: ٢٦.

(٣٤) وفاة الوفا ١١٢/١، تاريخ ابن خلدون ١٠٧/٢.

(٣٥) اسرائيل ولفسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٦، وكذا A Guillaume, op.cit. p. 11.

الإسلام، فإن العاهل البابلي لم يشر أبداً إلى عناصر يهودية في جيوشه، أو أنه قد أسكن يهوداً في تلك المناطق، كما أننا لانملك من الأدلة ما يؤيد وجهة النظر هذه. (٣٦)

وهناك فريق خامس يذهب إلى أن وجود اليهود في بئر بئر إنما يرجع إلى القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، وليس من شك في أن الأدلة التاريخية إنما في جانب هذا الاتجاه أكثر من غيره، ولعل من أهم هذه الأدلة أن الظروف السياسية التي كانت يهود تمر بها في تلك الفترة - بعد أن نجح الرومان في السيطرة على سورية ومصر في القرن الأول ق.م، وعلى اليهودية ودولة الأنباط في القرن الثاني بعد الميلاد - قد ساعدت هذه الظروف على هجرة أعداد من يهود إلى شبه الجزيرة العربية، التي كانت بعيدة عن السيطرة الرومانية، فضلاً عن أن بلاد العرب إنما كانت مازال في بداوة تشبه ما كان عليه اليهود إلى حد ما، هذا إلى أن اليهود أنفسهم إنما كانوا ينظرون إلى العرب على أنهم من ولد إسماعيل، وبما أنهم - أي اليهود - من ولد اسحاق، فهو جميعاً إذن من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام، وبالتالي فهم من ذوى رحمهم، ولهم بهم صلة قرى، هذا فضلاً عن أن أمر هجرة اليهود إلى أعالي الحجاز ودخولهم إليه أمر سهل ميسور، فالأرض واحدة وهي متصلة، والطرق مفتوحة مطروقة، ولا يوجد مانع يمنع اليهود، أو غير اليهود، من دخول الحجاز، ولا سيما أن اليهود كانوا خائفين، فارين من فتك الرومان، وأقرب مكان مأمون اليهم هو الحجاز (٣٧).

غير أن الهجرة الحقيقية إنما كانت بعد الثورة اليهودية ضد الرومان، ثم إخماد هذه الثورة بأشد العنف وأقسى أنواع التدمير على يد «تيتوس» في عام

(٣٦) جواد على ٥١٣/٦.

F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, II, p. 74.

وكذا

O'Leary, op.cit, p. 173.

وكذا

(٣٧) فيليب حتى. المرجع السابق ص ٣٧٥ - ٣٧٧.

Josephus, The Jewish War, II, 18 1, 3 - 4.

وكذا

٢٠٠٠ م. حيث دمرت المدينة المقدسة، وأحرق المسجد الأزرق الذي بناه زهير بن زهير،
إحراقاً تاماً، حتى أن القوم نسوا بعد حين من الدهر، إن كان المعبد قد بنى على
التل الشرقي أو الغربي من أورشليم، وحتى أن محاولة بنائه - اعتماداً على وصف
التوراة له - قد فشلت نهائياً، كما منع بقية السكان من مجرد الإقتراب من
أورشليم، ومن ثم فقد هاجرت مجموعات من السكان إلى بلاد العرب، ووصلت
إلى يثرب.

غير أن الثورة سرعان ما تجددت مرة أخرى على أيام هديران، فيما بين عامي
١٣٢، ١٣٥ م، وانتهت الثورة إلى القضاء تماماً على اليهود، ككيان سياسي في
فلسطين، وتغير أسم المدينة المقدسة (القدس) إلى «إيليا كاهنبولينا» وتحول المعبد
اليهودي إلى معبد لإله الرومان «جويتر»، ثم بيعت النساء اليهوديات كإماء،
رضاع اليهود في غياهب التاريخ، وسرعان ما فر - من أسعده الحظ فنجأ - إلى
مكان يحتمى به من غضبة الرومان القاسية، وكان من هؤلاء المحظوظين فريق من
يهود وصل إلى يثرب.

وكان هؤلاء - إلى جانب من وصلوا بعد تدمير القدس على يد قيتوس -
هم الذين كونوا الجالية اليهودية في شمال الحجاز، وفي يثرب بصفة خاصة (٣٨)،
وزاد عددهم بمرور الزمن، حتى إذا اظهر الإسلام كان معظم سكان وادي القرى
إلى يثرب من اليهود، هذا وهناك في الحجر، وفي مواضع أخرى من أرض
الأنباط، كتابات نبطية، يرجع بعضها إلى القرن الأول الميلادي، وبعضها الآخر
إلى القرن الرابع الميلادي، وردت بها أسماء عبرية تشير إلى أن أصحابها من
يهود (٣٩).

وتؤيد المصادر العربية هذا الاتجاه، فتذكر أنه لما ظهرت الروم على بني إسرائيل
جاءوا بالشام فوطؤوهم ونكحوا نساءهم، خرج بنو النضير وبني قريظة وبني هديل

(٣٨) واجب حتى: المرجع السابق من ٣٧٥ - ٣٧٧.

Josephus, The Jewish War, II, 18, 1, 3 - 4.

وكذا

J.Herovity, Judaeo -Arabic Relations in Pre - Islamic, Times, (٣٩)
IC.III, 1929, p. 170.

(بهدل) هارمين إلى من بالحجار من يهود، فلما فصلوا عنهم بأهليهم اتبعهم الروم فأعجزوهم، وهلك جند الروم في المفاوز والصحارى الخالية من الماء، وهذه الروايات مأخوذة عن يهود المدينة أنفسهم، ثم أخذت جموع اليهود في الجزيرة العربية تزداد وتكثر بعد اضطهاد الروم لهم، ثم قصد بنو النضير وقريظة منطقة يثرب، وارتادوا حتى تخيروا أنخصب بقاعها فسكنوها^(٤٠).

وهكذا سكنت جاليات يهودية منطقة يثرب، والطرق المؤدية إلى الشام وأن قرتكزت كتل اليهود الكبرى في يثرب بالذات، حيث كان فيها ثلاث قبائل، ربما بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين، وهى قينقاع^(٤١) والنضير وقريظة، إلى جانب بطون وعشائر يهودية أخرى، ذهب الاخباريون إلى أنها بلغت أكثر من عشرين بطنا، منهم بنو عكرمة وبنو محمر وبنو زعرورا وبنو الشظية وبنو جشم، وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص (العصيص) وبنو ثعلبة^(٤٢).

هذا وهناك من يرجع بنسب بنى النضير وبنى قريظة إلى طبقة الكهان - سلالة هارون عليه السلام - وأما بقية يهود بلاد العرب، فبعضهم يرجع إلى نفس طبقة الكهان، وبعضهم الآخر إنما ينتمى إلى نسل الأسباط العشرة المفقودة^(٤٣).
غير أننا لانستطيع أن نوافق على هذا الاتجاه، ذلك لأن - الأسباط العشرة -

(٤٠) الأغاني ١١٩ / ٩٥، ابن خلدون ٢٨٧ / ٢، وفاء الوفاء ١١٢ / ٢، اسرائيل ولفنسون: المرجع

السابق ص ١٠٠٩، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص ٣٠٧.

(٤١) يرى «أوليري» أن بنى قينقاع إما عرب متهودون، أو من بنى أدوم (Op.cit, p. 173)،

وأظهر عن موقفهم من الرسول ﷺ بحسب علاقاتهم مع غيرهم من يهود بنى قريظة وبنى النضير،

وأشراكهم فى يوم بعات (ابن كثير ٣ / ٤ - ٤، للقمي ١٩٥ / ٤، ابن خلدون ٢٣ / ٢، ابن

هشام ٢٣٤ / ٢، المعارف ص ٩٤، تاريخ الطبرى ١٢ / ٤٧٩ - ٤٨٣، اسرائيل. ولفنسون: المرجع

السابق ص ١٢٧ - ١٣١).

(٤٢) وفاء الوفاء ١١٢ / ١ - ١١٦، ابن هشام ٢٥٩ / ٢، الأغاني ١١٩ / ٩٥، اسرائيل ولفنسون.

المرجع السابق ص ١١٤، أحمد إبراهيم الشريف للمرجع السابق ص ٢٩٤ - ٢٩٥، جواد على

٥٢٢ / ٦

Friedlander The Jews of Arabia and The Rechabites, in JQR, (٤٣)

1919 - 1911 p 254

والذين كانت تتكون منهم دويلة اسرائيل التي قامت عقب انفصال الدولة عشية موت سليمان في عام ٩٢٢ ق.م، إلى اسرائيل وعاصمتها السامرة، ويهوذا وعاصمتها اورشليم^(٤٤) - إنما ضاعوا في غياهب التاريخ بعد الاحتلال الأشوري للسامرة في عام ٧٢٢ ق.م، ثم قيام سرجون الثاني بتهجير أكثرهم إلى مناطق أخرى من للإمبراطورية، ثم أتى بقبائل أخرى من بابل وعيلام وسورية وبلاد العرب، لتحل محل الإسرائيليين المسيبيين، ثم أسكنهم في السامرة ومجاورتها، ومن هذا الخليط الجديد ظهر في التاريخ مسمى «بالسامريين»^(٤٥).

وهكذا وضع سرجون الثاني نهاية لكيانهم كأمة، وأنهى وجود الأسباط العشرة كدولة، ولم يقدر لهم العودة مرة أخرى إلى المنطقة التي أخذوها غيلة واغتصابا من أصحابها، ثم سرعان ما اندمجوا مع غيرهم من السكان الأصليين في المناطق التي أجسروا على الإقامة فيها، وليست هناك أية إشارة على أن بلاد العرب كانت ضمن هذه المناطق، وإن ذكرت نصوص العاهل الأشوري أن من بين من أتى بهم إلى السامرة قبائل من بلاد العرب^(٤٦) - كما أشرنا من قبل - فهل أتى سرجون بجزء من الأسباط العشرة في مكان هؤلاء المهجرين من بلاد العرب؟ هذا ما سكتت عنه النصوص تماما، ومن ثم فإننا لانستطيع القول بأن بعضا من يهود بلاد العرب كانوا من الأسباط العشرة.

وعلى أي حال فإن فريقا من المؤرخين انحأ يذهب إلى أن يهود بلاد العرب، إنما هم عرب تهودوا، وإن لم يكونوا مزوديين بمعلومات كافية في التوحيد، وأنهم لم يكونوا خاضعين لقانون التلمود كله، حتى أن بعضا من يهود دمشق وحلب في القرن الثالث الميلادي أنكروا عليهم يهوديتهم، وأن

(٤٤) ملوك أول ١١: ٣٥ - ١٢، ٣٦ - ٢: ٢٥.

M. Noth, op.cit, p. 58.

وكذا

C.Roth, op.cit, p. 23.

وكذا

(٤٥) فيليب حتى المرجع السابق ص ٢١٤.

The Book of Jewish Knowledge, 1964, -p. 120.

وكذا

A.L. Oppenheim, ANET, p 286

(٤٦)

كانوا من ذلك شديدي التمسك بدينهم^(٤٧).

هذا ويذهب فريق من المؤرخين إلى أن بنى التضجير وبنى قريظة فرعان من قبيلة جذام العربية، تهودوا وسموا باسم المكان الذي نزلوا فيه^(٤٨)، وطبقا لرواية الاختباريين، فإن «حبل بن جرال» من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان، قد تهود هو وقومه، وعاش مع بنى قريظة. حتى ظهر الإسلام، ثم هداه الله إلى الدين القويم فأسلم^(٤٩).

ويكاد يجمع المؤرخون على أن يهود بلاد العرب انما هم من يهود فلسطين، وأنهم قد تركوها فيما بين عامي ٧٠، ١٣٥ م^(٥٠)، كما أشرنا من قبل - ويذهبون إلى أن يهود بنى التضجير وبنى قريظة من نسل هارون^(٥١)، وأن بقية البطون اليهودية من أسباط بنى إسرائيل الأخرى^(٥٢)، وأن يهود خيبر من «يهو ناداب بن ركاب»، وأنهم هاجروا إلى خيبر بعد خراب الهيكل الأول في عام ٥٨٦ ق.م، ثم بقوا فيها حتى عهد الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» (١٣ - ٢٣ هـ - ٦٣٤ - ٦٤٤ م)، وأن كلمة «خيبر» كلمة عبرانية بمعنى الطائفة والجماعة، وبمعنى الحصن والمعسكر^(٥٣)، وهو نفس الرأي الذي ذهب إليه

(٤٧) إسرائيل ولغنتون. المرجع السابق ص ١٣، ٧٣، حسن إبراهيم المرجع السابق ص ٧٣.

D.S. Margoliouth, op.cit, p. 60 وكذا
H.Lammens, op.cit, p. 66, 81. وكذا
Graetz, History of The Jews, III, p. 51 - 75. وكذا

(٤٨) تاريخ اليمقوي ٣٦/٢، ٣٩.

(٤٩) جواد على ٥٥/٦، وكذا الإصابة ٢٢٣/١ وما بعدها (رقم ١٠٧١).

(٥٠) O'Leary, op.cit, p. 173.

(٥١) Graetz, op.cit, p. 56. وكذا D.S. Margoliouth, op.cit, p. 59.

(٥٢) جواد على ٥٢٢/٦ - ٥٢٣، وكذا Freidlander, op.cit, p. 254.

(٥٣) ملوك ثان ١٠: ١٥ - ٢٨، البكري ٥٢١/١، تاج العروس ١٦٨/٣، زاد المعاد ١٣٢/٢،

و.كنا Graetz, op.cit, p. 56.

C.C. Torrey, The Jewish Foundations of Islam, p. 13 وكذا

J.Hastings, op.cit, p. 784. وكنا EI, 3, p. 869 وكذا

من نسبوها إلى رجل يدعى «خبيبر بن قانية بن مهلائيل»، رأى فيه البعض «شفطيا بن مهلائيل» من بني فارض^(٥٤)، على أن هناك من يفسرها بمعنى مجموعة من المستوطنات، وإن رأى أن اللفظة عبرية^(٥٥).

على أن الاستدلال يبحث لنوى علي جنسية يهود بلاد العرب، طبقا لما تشير إليه الأسماء التي يحملها اليهود - قبائل وأفراد - لا يمكن أن يعتد به أو يعول عليه، فمن الحق أن بعض أسماء القبائل اليهودية عبرية محضة، ولكنها لا تدل على أنها عبرية الجنس، إذ يمكن أن تكون جموع اليهود التي هاجرت إلى بلاد العرب، قد اتخذت أسماء الأماكن التي نزلت بها أسماء لها، بل إن الواقع إنما يدلنا على أن اليهود كانوا قد تركوا منذ أمد طويل الإنتساب إلى قبائلهم، وأصبحوا يعرفون بأسماء القرى والأقاليم التي جاءوا منها، فكان يقال فلان الأورشليمي أو فلان الحبروني... هكذا ومن ثم فالطريقة المثلى - فيما يرى إسرائيل ولفنسون - إنما هي النظر في الأخلاق والتفاليد، واتجاه الأعمال والأفكار، وهنا فسوف نجد أن يهود بلاد العرب يهودا أكثر منهم عربا، هذا إلى جانب أن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم الجبال في شمال بلاد العرب، إنما أتت اليهود بها من فلسطين، حيث تكثر هناك الحصون المنيعة في الجبال^(٥٦).

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم إنما وجه الخطاب إلى اليهود بتعبير «بنى إسرائيل»، ونعى عليهم مسلك اليهود الأقدمين مع موسى والأنبياء من بعده، وما كان منهم من تعجيز وإحراج وكفر وتكذيب وعدو، ونقض للشرائع وتحريف للكلام عن مواضعه، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أمواله الناس بالباطل، وذلك في صدد التنديد بموقفهم من النبي - ﷺ - وهي كثير من الآيات جعل اليهود المعاصرين والقدامى موضع خطاب وسباق وسلسلة واحدة، حيث يوجه

R.Dozy, op.cit, p 136

(٥٤) أبو الفدا ٨٩/١، وكذا

G.Weil, Mohammed der Prophet, p. 185

(٥٥) حواد على ٥٢٦/٦ كذا

(٥٦) إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ١٥ - ١٦.

الخطاب إلى بنى إسرائيل أو إلى اليهود بصيغة المثنى القريب، فيقتض «إمكان من الأقدمين وما كان من المعاصرين بأسلوب يرجح أن المقصود به تقرير الصلة النسبية بين هؤلاء وأولئك، وربط ما بدا من أخلاق المعاصرين ومواقفهم بما كان من أخلاق القدماء، كأن الجميع يصدرن عن جيلة واحدة وأخلاق متوارثة، وإذن: فتوجيه الخطاب في القرآن الكريم إلى يهود يشرب بـ «بنى إسرائيل» يسوغ الترجيح، بل الجزم بأن اليهود الذين كانوا في الحجاز، بصفة عامة، هم نازحون وأنهم إسرائيليون، وأنهم ليسوا قبائل عربية تهودت، وإن كان هناك عرب تهودوا، فإنهم لم يكونوا جماعة محسومة، وليست إلا أفراد» (٥٧).

على أنه يجب ألا يفهم من هذا كله، أن كل يهود بلاد العرب من أصل يهودي، فهناك الكثير من العرب المتهودين، ولاسيما بالقبائل اليهودية المسماة بأسماء عربية أصيلة، لها صلة بالوثنية، مما يدل على أنها إنما كانت وثنية قبل أن تتهود، وهناك الكثير من البطون العربية التي تهودت (٥٨)، فقد تهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقرظة والنضير، وتهود قوم من بنى الحارث بن كعب، وقوم من غسان، وقوم من جذام، وقوم من «بلي» (٥٩).

هذا فضلا عن أن هناك ما يشير إلى أن المرأة المقلات في الجاهلية كانت تنفر إن عاش لها ولد أن تهوده، ومن ثم فقد تهود بعض منهم، فلما جاء الإسلام أراد الأنصار إكراه أبنائهم عليه، فنهاهم الله عن ذلك (٦٠)، حيث يقول سبحانه

(٥٧) عبد الفتاح شحاته: تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام - الجزء الثاني، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٥٨) T.Noldeke, op.cit, p. 52

(٥٩) تاريخ اليعقوبي ١، ٢٥٧، حواد ٥٢٥/٦.

وكلنا Graetz, op- cit, p. 408 وكلنا Islamic Culture, II, 2p. 177

(٦٠) أديان العرب في الجاهلية ص ٢٠١، إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ٨٨، السنن الكبرى

للبیهقي ١٨٦/٩، سنن أبي داود ٧٨/٣ - ٧٩.

وتعالى لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» (٦١)، كما أن اليهود قد عملوا على التبشير بدینهم بين العرب إلى حد ما.

(٢) العرب:

يروى الاخباريون أن القبائل العربية - من أوس وخزرج - قد هاجرت من اليمن إلى يثرب على أثر حادث سيل العرم، وهناك في يثرب وجدت تلك القبائل أن الأموال والأطام والنخيل في أيدي اليهود، فضلا عن العدد والقوة، فأقام الأوس والخزرج مع اليهود، وعقدوا معهم حلفا يأمن به بعضهم إلى بعض، ويمتحنون به من سواهم (٦٢).

وهكذا فإن هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب - إنما كانت - طبقا لرواية الاخبارين - بسبب سيل العرم، الأمر الذي لا يمكن تحديده زمنه بسهولة ذلك لأن سد مأرب إنما تهدم عدة مرات، خلال الفترة الطويلة التي مضت منذ تشييده في منتصف القرن السابع ق.م - وربما الثامن ق.م (٦٣) - وبين آخر مرة أصلح فيها السد في عام ٥٤٣م، على أيام أبرهة الحبشي طبقا لما جاء في نصي (جلالز ٦١٨) و (CIH, 541) (٦٤)، إذ أن هناك عدة اشارات إلى تهدم السد واصلاحه،

(٦١) سورة البقرة: آية ٢٥٦، وأنظر: تفسير الطبري ٤٠٧/٥ - ٤٢٤ (دار المعارف بمصر)، تفسير القرطبي ٢٧٩/٣ - ٢٨٢، تفسير روح الماني ١٢/٣ - ١٥، تفسير مجمع البيان للطبرسي ٣٠٤/٣ - ٣٠٧، تفسير المنار ٣٥/٣ - ٤٠، تفسير أبي السعود ١٨٩/١ - ١٩٠، تفسير ابن كثير ٣١٠/١ - ٣١٢ (دار احياء التراث العربي)، تفسير المعلى القاسم ٢٢٠/١ - ٢٢٢، تفسير الكشاف ٣٨٧/١، في ظلال القرآن ٢٩٣/٢ - ٢٩٦، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣٢٩/١ - ٣٣١، تفسير النسفي ١٢٩/١.

(٦٢) ابن كثير ١٦٠/٢، الأعاني ٦٩/١٩، باقوت ٣٥/٥ - ٣٨، تاريخ اليعقوبي ٢٠٣/١ - ٤٢٠، ابن هشام ١٧/١ - ١٩، الأملق النفسية ص ٦٢، جواد علي ١٢٩/٤، على حافظ: فصول من تاريخ المدينة من ١٤ - ١٥.

(٦٣) جواد علي، ٢٨١/٢، مزه مؤيد العظم، المرجع السابق ص ٨٨

Die Araber, p. 27 وكذا D.Nielsen, op.cit, p. 79

F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 587. (٦٤)

A.Sprenger, op.cit, p. 31 - 126. وكذا

E Glasser, op.cit, p 390. وكذا

=

منها ماحدث على أيام «شمر يهرعش» (٦٥)، ومنها ماحدث على أيام «ناران بهنعم» عندما تهدم السد عند موضع «حبابض» و«رحبتن»، وأن القوم قد كتب لهم نجحا كبيرا في إصلاحه (٦٦).

ولعل التهدم الذي حدث على أيام «شرحبيل يعفر» في القرن الخامس الميلادي، إنما كان واحدا من أشد تهدمات السد خطيرة، لأن آثاره تعدت الآثار الجانبية، إلى هروب سكان المنطقة إلى الهضاب والجبال، ثم هجرتهم من هذه المنطقة إلى أراضين أخرى، ربما لأنه كان بسبب كوارث طبيعية، كالزلازل والبراكين، وليس مجرد سقوط أمطار غزيرة، ومع ذلك فقد نجح القوم بعد كل هذا في تجديد بناء السد وترميمه، على مقربة من «رحب» وعند «عبرن»، فضلا عن حفر مسابيل للمياه، وبناء القواعد والجدران، كما أشرنا من قبل، وقد تم ذلك في عام ٤٤٩ / ٤٥٠م (٦٧)، وأخيرا ذلك التهدم الذي كان على أيام أبرهة الحبشي.

وهكذا يبدو بوضوح أن تحديد تاريخ معين لخراب سد مأرب، وهجرة القبائل العربية من اليمن إلى وسط بلاد العرب وشمالها، أمر لايمكن - على ضوء معلوماتنا الحالية - أن نقول فيه كلمة نظن أنها القول الفصل، أو حتى قريبا من هذا القول، وأن الأمر مايزال في مرحلة الحدس والتخمين، حتى تقدم لنا الأرض الطيبة في اليمن أو في غيرها، ماينير أماننا الطريق.

LeMuseum, 1953, 66, p. 340.

وكنا

A.F.L Beeston, Problems of Sabaean Chronology, BASOR, 16, 1954.

(٦٥) جراد على ٢١٠/٧.

A.Jamme, op,cit, p. 176. (٦٦)

Le Museum, 1964, 3-4, p. 491 - 498.

وكنا

E.Glaser, in MVG, II, 1897, p. 372 - 372, 389 - 390

(٦٧)

Le Meseon, 1964, 3-4, p.493 - 4.

وكنا

H.St.J.B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947

A Sprenger, Dicc Alte Geographie Arabiens. Berlin. 1875 p 13, 20, 28

وأما الروايات العربية، فإن بعضها منها إنما يشير إلى أن ذلك إنما قد حدث، قبل الإسلام بأربعة قرون، بينما يشير البعض الآخر إلى أن تلك الهجرات إنما تمت في القرن الخامس الميلادي، وعلى أيام «حسان بن تيمان أسعد» (٦٨)، على أن هناك فريقا ثالثا إنما يقترح أخريات القرن الرابع الميلادي، معتمدا في ذلك على نسب «سعد بن عبادة الخزرجي»، وجعله مقياسا للزمن الذي ربما تكون الهجرة قد تمت فيه، فتمسب سعد - طبقا لرواية النسابين - إنما هو «سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج الأصغر بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر بن حارثة»، فمن سعد إلى الخزرج الأكبر أحد عشر جيلا، وإذا افترضنا أن الفرق بين كل جيلين خمسة وعشرين عاما، كانت المدة بين الهجرة النبوية الشريفة (في عام ٦٢٢م)، وبين الخزرج الأكبر، حوالي مائتين وخمسة وسبعين سنة، أي أن هجرة الأوس والخزرج، ربما كانت في أخريات القرن الرابع (٦٩)، هذا ويحدد «سديو» هذه الهجرة بعام ٣٠٠م، ثم الاستيلاء على المدينة في عام ٤٩٢م (٧٠).

وأيا ما كان الأمر، فإن الأخباريين يذهبون إلى أن الأوس (٧١) والخزرج أخوان، فهما أبناء «حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن الغطريف بن امرئ القيس البطريق، بن ثعلبة بن مازن بن الأزدة» (٧٢)، الذي ينتهي نسبة إلى «عرب بن قحطان»، ولكن القوم إنما كانوا

(٦٨) باقوت ٣٥/٥، حرجي زيمان: العرب قبل الإسلام ص ١٥٥، وانظر - الفصل التاسع من

كتابتنا، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ٣٠٩ - ٣٥٢.

(٦٩) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص ٣١٥.

(٧٠) لويس أميل سديو: تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر ص ٥١.

(٧١) هناك من يفسر كلمة الأوس بأنها اختصار لكلمة «أوس مناة» وهو صنم جاهلي (جواد علي ١٣٥/٤).

(٧٢) ابن الأثير ٦٥٥/١، وفاة الرقا، ١٢٤/١، اللسان ١٨/٤، تاج العروس ١٠٣/٤، المعقد الفريد

١٦٦/٣، ابن هشام ٣٤٧/٣، الانتشاق ٤٣٥/٢، ٤٣٧، باقوت ٢٠٣/٤، ٨٥/٥،

المعارف ص ٤٩، المقدسي ١٢٠/٤ - ١٢١، دائرة المعارف الإسلامية ١٥٠/٣، جمهرة أنساب

العرب ص ٣٣٢، نهاية الأرب للفلسندي ص ٥٢ - ٥٣، ٩٣ - ٩٤.

ينتسبون إلى أمهم «قبيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة»، ولهذا كانوا يدعون «أبناء قبلة»، مما يدل على أن هذه المرأة إما كانت تتمتع بشهرة عريضة، دفعتهم إلى الإلتساب إليها^(٧٣).

وعلى أى حال، فلقد أقام الأوس والخزرج فى المدينة، وربما لم يكونوا فى أول الأمر بسلكون من القوة وكثرة العدد، بحيث يخشى اليهود بأسهم، هذا ويبدو أن اليهود قد عملوا على الإفادة من خبراتهم التى اكتسبوها منذ فترة طويلة، فى مجال الزراعة والتجارة فى مواطنهم القديمة فى اليمن، ومن ثم سمحوا لهم بالإقامة فى مجاوراتهم، إلا أن وجود الثروة والسلطان فى أيدي اليهود جعل الأوس والخزرج يعيشون حياة قاسية، ومن ثم فقد كان الواحد منهم، إما أن يعمل فى مزارع يهود، وإما أن يستغل خبرته السابقة فى الزراعة، فيعمل فى أرض لا تنتج الكثير من الغلات، لأنها فى غالب الأحيان إنما كانت أرض موات تركها اليهود، وفى كلا الحالتين فقد كان القوم غير ميسر عليهم فى الرزق^(٧٤).

وما أن يمضى حين من الدهر، حتى استطاع أصحابنا من أوس وخزرج أن يكونوا أصحاب مال وعدد، حتى أن يهود بنى قريظة والضمير أحسوا أنهم لو تركهم على حالهم هذا، فقد يشكلون فى وقت قريب خطراً، قد يهدد مصالح يهود فى المدينة، وربما قد يهدد القوم أنفسهم، ومن ثم فقد «تنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذى بينهم، فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم خائفين أن تجلبهم يهود، حتى نجح منهم مالك بن العجلان، من بنى سالم بن عوف بن الخزرج، فكان سبياً فى أن يسود الحيان، الأوس والخزرج»^(٧٥).

(٧٣) ابن حزم ٣٣٢/١، اللسان ٥٨٠/١١، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٤٠٤، المعارف ص ٤٩، خلاصة الوفا ص ١٦٤، التبيين والاشراف للمسعودي ص ١٧٤، ياقوت ٨٥/٥، وفاء الوفا ١٢٤/١، جواد على ١٣٣/٤.

(٧٤) تاريخ ابن خلدون ٢٨٦/٢ - ٢٨٧، الأغاني ٦٩/١٩، خلاصة الوفا ص ١٦٥، وفاء الوفا ١٢٥/١، على حافظ - المرحح السابق ص ١٥.

(٧٥) المسعودي، وفاء الوفا بأحبار دار المصطفى ١٢٥/١ - ١٢٦، الدرر الثمينة ص ٢٢٦ - ٣٢٧، الأعلام النفيسة لاس رسته ص ٦٣، أحمد إبراهيم الشريف المرحح السابق ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

ومن ثم فقد أصبح للحيين - الأوس والخزرج - كيان سياسى فى يثرب، يفوق ما كان لليهود فيها، ومن أسف أن القوم مالبروا أن أصيبوا بلعنة الصراع القبلى، وتحولت المنافسات التى كانت بينهم وبين يهود، إلى مشاحنات بينهم وبين بعضهم البعض الآخر، أدت فى النهاية إلى قيام الحروب بين الحيين العربيين، لعبت فيها العوامل السيامية والتنافس على الزعامة فى يثرب دورا كبيرا، هذا فضلا عن العوامل الاقتصادية التى تتلخص فى رغبة كل من الفريقين فى الاستيلاء على ما عند يهود، ثم حدث أن احتل الأوس بقاعا أخصب وأغنى من تلك التى احتلها الخزرج، فى الوقت الذى كان الخزرج يتمتعون فيه بمركز الصدارة، لأن نصرة العرب، إنما جاءت على يد رجل خزرجى - هو مالك بن العجلان-.

وهكذا كان الخزرج ينفثون على الأوس مكائهم الاقتصادية، بينما كان الآخرون ينفثون على الأولين، مكائهم السياسية، حدث هذا فى وقت كانت فيه سياسة اليهود مع القبائل العربية إنما تقوم على الإيقاع بينها، وإثارة الأحقاد بين المتخاصمين منهم، كدسا جنحوا إلى النسيان وتعاهدوا على الصلح والأمان، ومن ثم فقد عملت يهود على إذكاء روح التحاسد والتباغض التى بدأت تظهر فى سماء العلاقات بين الحيين العربيين الشقيقين، حتى يشعلوا نارا، إن لم تقض على الأوس والخزرج معا، فعلى الأقل تشغل كل فريق بالآخر، وتنتهز يهود الفرصة لاستعداد لجولة قادمة، أو على الأقل الحفاظ على أمانهم عليه.

وحققت يهود نجحا بعيد المدى فيما تريد، ودقت طبول الحرب بين الفريقين، تناوب قيها الأوس والخزرج النصر والهزيمة، وكان من أهمها ما عرف بحرب سمير، وحرب كعب بن عمرو المازنى^(٧٦)، وحرب حاطب بن قيس^(٧٧)، فضلا عن يوم السرارة^(٧٨) ويوم فارع^(٧٩)، ويوم الفجار الأول

(٧٦) ابن الأثير ١/٦٦٠ - ٦٦٢، وفاء الرقا ١/١٥٢، أيام العرب فى الجاهلية ص ٦٩ - ٧١.

(٧٧) ابن الأثير ١/٦٧١ - ٦٧٢.

(٧٨) ابن الأثير ١/٦٦٢ - ٦٦٥.

(٧٩) ابن الأثير ١/٦٦٨ - ٦٧١.

والثاني (٨٠)، وحرب الحصين بن الأسلت (٨١)، ثم حرب بعات، وكان أولها حرب سمير، وآخرها حرب بعات قبل الهجرة بخمس سنوات (٨٢)، أى عام (٦١٧م).

وأما يوم سمير، فقد كان - طبقا لرواية الاخباريين - كأغلب أيام العرب لسبب غير خطير، ذلك أن رجلا من بنى ذبيان يقال له «كعب الثعلبي» نزل ضيفا على مالك بن العجلان، ثم خرج إلى سوق بنى قينقاع، فرأى رجلا من «غطفان» معه فرس، وهو يقول «لأأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب» فقال كعب مالك بن العجلان، فسمعه «سمير» الأوسى فشتمه ثم قتله بعد مدة فى حديث طويل، وخاف الحيان أن تشب الحرب، إلا أن الخزرج أبو إلا دبة الصريح، ولج الأمر بينهم حتى أدى إلى المحاربة، فاجتمعوا واقتتلوا قتالا شديدا على مقربة من «قباء»، فانتصر الأوس، وانتهى الأمر إلى أن يحتكموا إلى «المنذر بن حرام» الخزرجى، جد حسان بن ثابت، الذى حكم بأن تدفع الأوس دية الصريح، وانتهت الحرب، وإن افترق القوم وقد ثبت البغضاء فى نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم (٨٣).

وأما «يوم بعات»، فقد كان آخر الحروب التى نشبت بين الأوس والخزرج، وقبل هجرة المصطفى - ﷺ - بخمس سنوات، وتروى المصادر العربية أن الحروب السابقة بين الأوس والخزرج، إنما كانت فى غالبيتها للخزرج، ومن ثم فقد رأى الأوس محالفة بنى قريظة، فأرسلت إليهم الخزرج «لكن فعلتم فأذنوا بحرب»،

(٨٠) ابن الأثير ١/٦٧٦، ٦٧٨ - ٦٨٠.

(٨١) ابن الأثير ١/٦٦٥ - ٦٦٦.

(٨٢) وفاء الوفا ١/١٥٢، ١٥٥، ابن الأثير ١/٦٥٥ - ٦٨٤، الأغاني ٣/١٩ - ٤٢، اسرائيل ولفسون: المرجع السابق ص ٦٨.

(٨٣) ابن الأثير ١/٦٥٨ - ٦٦٢، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص ٣٢٣، المفضليات ص ١٢٥، البدء والتاريخ ٣/١٣٠، الاشتقاق ١/٢٦٦، الأعلام النفسية ص ٦٤، وفاء الوفا ١/١٥٢، الأغاني ٢/١٦١ - ١٦٤، أيام العرب فى الجاهلية ص ٦٢ - ٦٨، جرجى زبدان: المرجع السابق ص ٣٦١ - ٣٦٢، قارن: تاريخ الجاهلية ١٢٣ - ١٢٤.

فتفرقوا وأرسلوا إلى الخزرج «إنا لانحالفهم ولاندخل بينكم»، ومع ذلك فقد استمر كل فريق يستميل إليه يهود، فضلا عن قبائل عربية أخرى، ولعب اليهود أخطر الأدوار في إشعال نار الحرب بين الحيين المريرين، وبالتالي عودة السيادة لهم في يثرب من جديد.

وهكذا جدد بنو قريظة والتنشير تحالفهم مع الأوس، ثم ضموا إليهم قبائل أخرى من اليهود واستعدوا للحرب، وخشى الخزرج أن تنزل بهم هزيمة، فراسلوا حلفاءهم من بنى أشجع وبنى جهينة، وراسل الأوس حلفاءهم من بنى مزينة، وأخيرا نشبت الحرب بين الفريقين عند «بعاث» - حصن بنى قريظة - وانهمز الأوس في اليوم الأول، غير أن «عمر بن النعمان» قائد الخزرج، سرعان ما قتل، وانهز الأوس الفرصة، فمالوا على الخزرج ميله رجل واحد، يقتلون رجالهم ويحرقون منازلهم وتخيّلهم، بعد أن كانت يهود قد نهبت ما استطاعت من أموالهم، ولم ينقذ الخزرج من الكارثة، إلا خشية الأوس من أن يستعيد اليهود مركزهم السابق في يثرب، فيضطروا لمواجهة منفردين بعد القضاء على الخزرج، وفعلا فلقد بدت نيات اليهود واضحة في تحطيم الخزرج وإذلالهم، بخاصة وأنهم أصحاب اليد الطولى في القضاء على نفوذ اليهود في المدينة، ومن ثم فقد فضلت الأوس الاكتفاء بالقضاء على روح التسلط في الخزرج، وصاح واحد منهم «يامعشر الأوس: أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، ألقواهم خير من جوار الثعالب».

ويروى أن السيدة عائشة - رضی الله عنها - قتلت عن هذا اليوم «كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ، وقد افترق ملوهم وقتلت سرواتهم وجرحوا، قدمه الله لرسول الله ﷺ في دخولهم الإسلام» ذلك لأن يوم بعاث قد أضعف بطون يثرب كلها وأوجد فيها ميلا إلى الإتحاد كما أضعف كذلك روح العداوة والحقد في نفوس البطون اليثربية، حتى أخذ الناس يتصرفون لأعمالهم ويتذوقون لذة الراحة وهناءة العيش وصفاء البال وكانوا كلما هم أحدهم أن يصب زيتا حارا على نار العداوة الكامنة في القلوب ليزيد في ضرارها،

ويذكر من أرواحها... حتى كثر من المؤمنين وفوزوا بالثبوت من الملوك فكشف به، حتى لا يدل السيوف من أعمادها، وجاء الإسلام وانفذت الكلمة، واجتمع الأوس والخزرج على نصرته الإسلام وأهله، وكفى الله المؤمنين شر القتال، وأصبح القوم بنعمة الله اخواناً (٨٤).

(٥) فضائل المدينة:

بدأت «يثرب» بالهجرة النبوية الشريفة (١هـ / ٦٢٢م) عهداً جديداً، وباسم جديد، بدأت العصر الإسلامي، وباسم «المدينة المنورة»، أو مدينة الرسول ﷺ، وأصبحت عاصمة الإسلام، ومقر رسول الله ﷺ - حياً وميتاً - ومقر الخلفاء الراشدين الثلاثة (أبي بكر وعمر وعثمان) من بعده.

هذا وقد رويت أحاديث كثيرة في فضائل المدينة المنورة، روى البخاري في صحيحه (باب حرم المدينة) بسنده عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: المدينة حرم من كذا إلى كذا، لا يقطع شجرها، ولا يحدث فيها حدث من أحدث حدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين (٨٥).

وروى البخاري في صحيحه بسنده عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: حرم ما بين لابتي المدينة - على لساني (٨٦).

(٨٤) المسهودي: خلاصة الوفا من ١٧٧ - ١٧٨، البكري ٢٥٩/١ - ٢٦٠، باقوت ٤٥١/١، تاريخ ابن خلدون ٢٨٩/٢ - ٢٩٠، ابن الأثير ٦٨٠/١ - ٦٨٤، تاريخ المبروش ٦٠٤/١، شرح ديوان حسان بن ثابت من ٢٧٨، ابن هشام ١٨٣/٢، صحيح البخاري ١٠٨/٥، إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق من ٦٢ - ٧٠، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق من ٢٣٦، محمد أحمد جاد للولي وآخرون: أيام العرب في الجاهلية من ٧٣ - ٨٤، إبراهيم العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر من ٤١ - ٤٣، وكذا المسهودي: وفاء الوفا ٢١٨/١ - ٢٢٠ (بيروت ١٩٧١)، الأغاني ١٥٤/١٥ - ١٥٧، ١٦/١٦، ١٩/١٩ - ٩٤، ١٠١، ١٠٦ (ط الساسي)، الروض الأنف ١٤/١ - ١٥، مصحح الأمثال للميداني ٢٦٨/٢ - ٢٧٠، الانتفاق من ٢٦٦، الصحاح للجوهري ١٤٨/١، لسان العرب ٢٥٦/١، ٢٥٦/٣ - ٢٧٩، ٨٠، الصحاح للجوهري ١٤٨/١، لسان العرب ٢٥٦/١، ٢٥٦/٣ - ٢٧٩، ٨٠، صحب الأعشى ٣١٩/١، تاريخ أهر الفداء ١٠٧/١.

(٨٥) صحيح البخاري ٢٥/٣.

(٨٦) صحيح البخاري ٢٦/٣.

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن علي رضى الله عنه قال: ما عندنا شيء إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة عن النبى ﷺ وآله: المدينة حرم ما بين عانس إلى كذا من أحدث فيها حدثا، أو أرى محدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل (٨٧).

وروى البخارى فى صحيحه (باب فضل المدينة، وأنها تنفى الناس) عن يحيى بن سعيد قال: سمعت أبا الحباب سعيد بن يسار يقول: سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يشرب، وهى المدينة، تنفى الناس، كما ينفى خبث الحديد (٨٨).

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول: لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ماذعرتها، قال رسول الله ﷺ: ما بين لايتها حرام (٨٩).

وروى البخارى فى صحيحه (باب من رغب عن المدينة) بسنده عن عبد الله ابن الزبير عن سفيان بن أبي زهير رضى الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تفتح اليمن فيأتى قوم ييسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح العراق، فيأتى قوم ييسون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون (٩٠).

وروى البخارى فى صحيحه (باب الإيمان يأزر إلى المدينة) بسنده عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: أن الإيمان ليأزر إلى المدينة، كما تأزر الحية إلى جحرها (٩١).

وروى البخارى فى صحيحه (باب اثم من كاد أهل المدينة) بسنده عن عائشة قالت: سمعت سعدا رضى الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: لا يكيد أهل

(٨٧) صحيح البخارى ٢٦/٣.

(٨٨) صحيح البخارى ٢٦/٣.

(٨٩) صحيح البخارى ٢٦/٣ - ٢٧.

(٩٠) صحيح البخارى ٢٧/٣.

(٩١) صحيح البخارى ٢٧/٣.

المدينة أحد، إلا انعام، كما ينماع الملح في الماء (٩٢).

وروى البخارى فى صحيحه (باب لا يدخل الدجال المدينة) بسنده عن أبى بكره رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب، على كل باب ملكان (٩٣).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال» (٩٤).

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ليس من بلد، الا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب، إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق» (٩٥).

وروى البخارى فى صحيحه «باب المدينة تنفى الخبث» بسنده عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ، فبايعه على الإسلام، فجاء من الغد محموا، فقال أقلنى، فأبى ثلاث مرار، فقال: المدينة كالكبير تنفى خبثها، وينصح طيبها» (٩٦).

وروى مسلم فى صحيحه بسنده عن عباد بن تميم عن عمه عبد الله بن زيد بن عاصم، أن رسول الله ﷺ قال: إن إبراهيم حرم مكة، ودعا لأهلها وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإنى دعوت فى صاعها ومدنها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة» (٩٧).

وعن رافع بن خديج قال: قال رسول الله ﷺ: إن إبراهيم حرم مكة، وإنى

(٩٢) صحيح البخارى ٢٧/٣.

(٩٣) صحيح البخارى ٢٨/٣.

(٩٤) صحيح البخارى ٢٨/٣.

(٩٥) صحيح البخارى ٢٨/٣.

(٩٦) صحيح البخارى ٢٩/٣.

(٩٧) صحيح مسلم ١٣٤/٩ - ١٣٥.

أحرم ما بين لابتيها - يعنى المدينة (٩٨).

وعن جابر قال: قال النبي ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنى حرمت المدينة، ما بين لابتيها، لا يقطع عضاهها، ولا يصاد صيدها» (٩٩).

وحدثنا ابن نمير، حدثنا أبي، حدثنا عثمان بن حكيم، حدثنا عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أحرم ما بين لابتي المدينة، أن يقطع عضاهها، أو يقتل صيدها، وقال: «المدينة خير لهم، لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبة عنها، إلا أهدل الله فيها، من هو حير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها، إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة» (١٠٠).

وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «ثم ذكر مثل حديث ابن نمير، رزاد في الحديث: ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء، إلا أذابه الله في النار، ذوب الرصاص، أو ذرب الملح في الماء» (١٠١).

وحدثنا حامد بن عمر، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عاصم قال: قلت لأنس بن مالك، أحرم رسول الله ﷺ المدينة؟ قال: نعم، ما بين كذا إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثا قال: ثم قال لى هذه شديدة، من أحدث فيها حدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، قال: فقال ابن أنس: أو أوى محدثاه (١٠٢).

وروى مسلم فى صحيحه عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه قال: خطبنا على بن أبى طالب فقال: من زعم أن عندنا شيئا نقرؤه، إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة، قال: صحيفة معلقة فى قراب سيفه، فقد كذب، فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، وفيها قال النبي ﷺ: المدينة حرم ما بين غير إلى ثور،

(٩٨) صحيح مسلم ١٣٦/٩.

(٩٩) صحيح مسلم ١٣٦/٩.

(١٠٠) صحيح مسلم ١٣٦/٩.

(١٠١) صحيح مسلم ١٣٧/٩ - ١٣٨.

(١٠٢) صحيح مسلم ١٤٠/٩ - ١٤١.

فمن أحدث فيها حدثا، أو آوى محدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا، وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو اتقى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا، (١٠٣).

وعن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: حرم رسول الله ﷺ، ما بين لابتي المدينة، قال أبو هريرة: فلو وجدت الظباء ما بين لابتيها ماذعرتها، وجعلتني عشر ميلا (حوالي ١٩ كيلا) حول المدينة حمى (١٠٤).

وعنه ﷺ أنه قال: وإن إبراهيم حرم مكة فجعلها حرما، وإن حرمت المدينة، حراما ما بين مأزميها، أن لا يهراق، فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا تخط فيها شجرة، إلا لعلف، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين، والذي نفسى بيده ما من المدينة شعب ولا نقب، إلا عليه ملكان يحرسانها، (١٠٥).

وعن سهل بن حنيف قال: أهوى رسول الله ﷺ: بيده إلى المدينة فقال: إنها حرم آمن، (١٠٦).

وحدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم - يعني ابن اسماعيل - عن عمر بن نبيه، أخبرني دينار القراظ قال: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: قال رسول الله ﷺ: من أرد أهل المدينة بسوء، أذابه الله كما يذوب الملح في الماء (١٠٧).

(١٠٣) صحيح مسلم ١٤٢/٩ - ١٤٤.

(١٠٤) صحيح مسلم ١٤٥/٩.

(١٠٥) صحيح مسلم ١٤٧/٩ - ١٤٨.

(١٠٦) صحيح مسلم ١٥٠/٩.

(١٠٧) صحيح مسلم ١٥٧/٩.

(٦) المسجد النبوي:

هذا وقد شرفت المدينة بمسجد سيدنا رسول الله ﷺ - ثاني الحرمين الشريفين، روى البخاري في صحيحه (باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة) بسنده عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى، (١٠٨).

وعن أبي عبد الله الأغر عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال. صلاة في مسجدي هذا، خير من ألف صلاة. فيما سواه، إلا المسجد الحرام، (١٠٩).

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: صلاة في مسجدي هذا، أفضل من ألف صلاة، فيما سواه، إلا المسجد الحرام (١١٠).

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة، فيما سواه، إلا المسجد الحرام (١١١).

وعن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ: لا تشد الرحال، إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى، (١١٢).

(٧) الروضة الشريفة:

هناك في مسجد سيدنا رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، الروضة الشريفة، روى البخاري في صحيحه (باب فضل ما بين القبر والمنير) بسنده عن عبد الله بن أبي بكر، عن عباد بن تميم عن عبد الله بن زيد المازني، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال، ما بين بيتي ومنبري، روضة من رياض الجنة، (١١٣).

(١٠٨) صحيح البخاري ٧٦/٢

(١٠٩) صحيح البخاري ٧٦/٢..

(١١٠) صحيح مسلم ١٦٣/٩.

(١١١) صحيح مسلم ١٦٥/٩.

(١١٢) صحيح مسلم ١٦٧/٩ - ١٦٨.

(١١٣) صحيح البخاري ٧٧/٢.

وعن حفص بن عاصم عن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال:
ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي» (١١٤).

وعن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما بين بيتي
ومنبري، روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي» (١١٥).

وعن عباد بن نعيم عن عبد الله بن ريد الأنصاري، أنه سمع رسول الله ﷺ
يقول: ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة» (١١٦).

هذا وقد اختلف العلماء في المراد بقوله ﷺ «ما بين بيتي (١١٧) ومنبري روضة
من رياض الجنة» (١١٨)، وفي رواية أنه قال: «ما بين هذه البيوت يعني بيوته - إلى
منبري، روضة من رياض الجنة، والمنبر على ترعة من ترع الجنة»، وفي حديث
آخر: «منبري على ترعة من ترع الجنة، هل هو على الحقيقة أم المجاز؟

والرأى عند الامام مالك (٩٠- ٩٧ أو ١٧٩ هـ / ٧٠٨ - ٧٧٩ م) أنه
الأول - أي على الحقيقة - فقال: «إنها روضة من رياض الجنة تنقل إليها،
وليس كسائر الأرض تذهب وتفنى»، ووافقه على ذلك جماعة من العلماء:
وصححه «ابن الحاج»، وقال ابن أبي حمزة: ويحتمل أن تكون تلك البقعة نفسها
الآن من الجنة، كما أن «الحجر الأسود» منها، وتعود روضة فيها، وقال الداودي:

(١١٤) صحيح البخارى ٧٢/٢.

(١١٥) صحيح مسلم ١٦٣/٩.

(١١٦) صحيح مسلم ١٦١/٩.

(١١٧) جاء في الشفا: قال الطبري: فيه معنيان، أحدهما أن المراد بالبيت بيت مكناه على الظاهر -
مع أنه روى ما بينه «بين حجرتي ومنبري»، والثاني: أن البيت هنا هو القبر - وهو قول زيد بن
أسلم في هذا الحديث - كما روى «بين قري ومنبري»، قال الطبري: وإذا كان قبره في بيته،
فنفقت معاني الروايات، ولم يكن بسبب خلاف، لأن قبره في حجرته - وهو بيت -، وقوله
«منبري على حوضي»، قيل يحتمل أنه منبره بعينه الذي كان في الدنيا، وهو أزهره، والثاني أن
يكون له هناك منبر، والثالث: أن قصد منبره، وللحضور عنده ملازمة الأعمال الصالحة، يورد
الحوس، ويوجب الشرب منه قاله لباجي (القاضي عياض: الشفا ٩١/٢ - ٩٢).

(١١٨) رواه الإمام أحمد والشيخان والنسائي عن عبد الله بن يزيد المازني، ورواه الترمذي عن أبي
هريرة، ومثل هذا اللفظ عن أبي هريرة وأبي سعيد - أي في اللوط - وفي نسخة صحيحه زاد -
أبو سعيد الحدري: «ومنبري على حوضي» (الملا على القاري شرح الشفا ١٤٦/٢).

كما جاء في الشفاء - أن تلك البقعة قد ينقلها الله تعالى، فتكون في الجنة بعينها (١١٩).

على ان هناك وجهها آخر للنظر يذهب أصحابه إلى أن ذلك على الجواز - وليس على الحقيقة - قال الحافظ «ابن حجر العسقلاني» (٧٧٣ - ٨٥٢هـ) محصل ما أول به العلماء ذلك، أن تلك البقعة كروضة من رياض الجنة، في نزول الرحمة، وحصول السعادة، بما يحصل فيها من ملازمة خلق الذكر، لاسيما في عهده ﷺ، فيكون مجازاً، أو أن العبادة فيها تؤدي إلى الجنة، فيكون مجازاً أيضاً.

وقال «ابن عبد البر» (٣٦٣ - ٤٦٣هـ / ٩٧٣ - ١٠٧٠م): لما كان ﷺ، يجلس في ذلك الموضع ويجلس الناس اليه للتعلم، شبهه بالروضة، لكرام ما يجتنب منه، وأضافها إلى الجنة، كقوله ﷺ «الجنة تحت ظلال السيوف» - أي أنه عمل يدخل الجنة -.

هذا وقد ذهب «ابن حزم» (٦٧٤ - ٤٥٦هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٤م) أيضاً إلى أن الروضة إنما هي من الجنة على سبيل الجواز، إذ لو كانت حقيقة، لكانت - كما وصف الله تعالى الجنة - «إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى» (١٢٠).

هذا وقد رجح الحافظ ابن حجر الرأي الأول في موضع من «فتح الباري»، وأن تلك البقعة نفسها، (الروضة الشريف، ومساحتها ١٩/٢٢م) إنما هي روضة حقيقية من رياض الجنة، كما أن الحجر الأسود من الجنة، فيكون الموضع المذكور - أي الروضة الشريف - روضة من رياض الجنة الآن ويعود روضة في الجنة، كما كان، ويكون للعامل بالعمل فيه روضة من رياض الجنة، وذلك لعلو مكانته ﷺ، وليكون بينه وبين الأبرة الإبراهيمية في هذا شبه، وهو أنه لما خص الخليل - عليه الصلاة والسلام - بالحجر الأسود من الجنة، خص الحبيب المصطفى ﷺ بالروضة من الجنة.

هذا فضلاً عن أن المخبر بأن الروضة من الجنة، هو المخبر بأن الحجر والمقام

(١١٩) بُدِّرَ محمد بيومي مهران: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين - الجزء الثاني - السيرة النبوية

الشريفة - الجزء الثاني - ص ١٢٨ - ١٤١ - بيروت ١٩٩٠

(١٢٠) سورة طه: آية ١١٨.

منها، هذا ولا ينافى كون الروضة من الجنة حقيقة، حصول الجوع والعري فيها، لاتصافها بصفة دار الدنيا، كما أن الحجر الأسود ومقام إبراهيم من الجنة، لكنهما نزلا في هذه الدار والكعبة المشرفة، اتصافا بصفاتها، فلا يلزم من انتفاء الجوع والعري عمن حل في الجنة، انتفاؤها فيما نقل منها، وإلا لنفى بذلك كون الحجر المقام من الجنة حقيقة، ولا قاتل به.

هذا وقد اختلف العلماء أيضاً في تحديد الروضة الشريفة، فذهب فريق إلى أنها ماسامت (أى ما قابلت ووازت) كلا من طرفى المنبر والحجرة، فتؤخذ مستوية فيدخل فيها محاذاة الحجرة من جهة الشمال، وإن لم يسمت المنبر، ومجازاة طرف المنبر من جهة القبلة، وإن لم يسمت الحجرة لتقدمه من جهة القبلة، فتكون الروضة مربعة، وهى الأروقة الثلاثة: رواق المصلى الشريف، والرواق بعده إلى صف اسطوانة الوفود، وهى التى خلفت أسطوانة الحرس، وذلك هو سقف مقدم المسجد فى زمنه ﷺ ويدخل فى حيثئذ موقف الصف الأول مما يلي الحجرة، وجميع المصلى الشريف، وهذا هو الأولى بالإعتماد، وظاهر ما عليه غالب العلماء وعامة الناس، كما فى المنح، وقد رجحه العلامة «السمهودى» (٨٤٤ - ٩١١هـ / ١٤٤٠ - ١٥٠٥م) (١٢١) فى الرفاء وخلاصته، وتبعه جمع ممن بعده من أئمتنا وغيرهم.

وخلاصة حد «الروضة الشريفة» الآن - كما جاء فى النزهة على هذا القول الراجح - الأساطين المرخمة بالرخام الأبيض والأحمر، المذبة إلى حد النصف منها، ودليل هذا القول، قوله ﷺ «ما بين بيتى ومنبرى، روضة من رياض الجنة».

على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب أصحابه إلى أن الروضة الشريفة إنما هى: ماسامت الحجرة الشريفة، والقبر الشريف المنيف فقط، فتؤخذ غير مستوية، فتكون متسعة من جهة الحجرة، ضيقة من جهة المنبر، فتكون منحرفة الاطلاع،

(١٢١) أنظر عن ترجمة السمهودى - المصرى الحنبلى، نزيل المدينة المنورة، وعالمها ومفتيها، ومدرستها ومزورها (شذرات الذهب ٥٠٨ - ٥١، السحارى الضوء اللامع فى أحبار أهل القرن التاسع ٢٤٥/٥، مقدمة وفاء الوفا ٤/١-٥).

لتقدم المنبر الشريف في جهة القبلة، وتؤخر الحجرة الشريفة في جهة الشام فتكون كشكل مثلث ينطبق ضلعا، على قدر امتداد المنبر السوى الشريف، وهو خمسة أشبار - كما حره السمهودي - ودليل هذا القول: التمسك بظاهر لفظ البنية الحقيقية من الحديث، وحيث يخرج عنها الصف الأول مما يلي الحجرة، فلا يكون من الروضة الشريفة.

وهنالك وجه ثالث للنظر يذهب أصحابه إلى أن الروضة الشريفة إنما تعم جميع المسجد الذي كان موجوداً على أيام النبي ﷺ، وهو الذي جزم به السمعاني وغيره، ونقله الريمي عن الخطيب بن جملة، واستدل له بقوله ﷺ «ما بين بيتي»، وهو مفرد مضاف يفيد العموم في سائر بيوته ﷺ، ويفسر هذا - وإن لم يستدل به - رواية صحيحة للإمام أحمد بن حنبل (١٦٤هـ/٧٨٠م - ٢٤١هـ/٨٥٥م) في «زوائد المسند» جاء فيها «ما بين هذه البيوت» - يعني بيوته ﷺ - «إلى منبري».

ويقول «الشنقيطي»: وأنا أميل إلى رأي الإمام مالك والزمن المراغي في تحديد الروضة الشريفة، لأدلة مسها:

أولاً: ما ذكره في حمل الخصوص في قوله «قبري» على العموم في قوله «بيتي».

وثانياً: ما رواه الإمام أحمد - رحمه الله - «سأبت أبا البيوت إلى منبري، روضة من رياض الجنة».

وثالثاً: حديث: «رقوائم منبري على ترعة من ترع الجنة»، الذي يفهم إن ما كان شمال المنبر الشريف من الأرض هو ترعة من ترع الجنة وإلى الشمال الغربي من ذلك في نهاية المسجد حيث باب الرحمة كان يقع آخر بيت من بيوت رسول الله ﷺ.

وهناك وجه رابع للنظر يصحب أصحابه إلى أن الروضة الشريفة إنما تعم جميع المسجد النبوي الشريف، في زمنه ﷺ، وبعد زمنه.

هذا وقد يجمع بين الروايات السابقة بأن الروضة الشريفة إنما تطلق على أماكن متفاوتة في الفضل ، فأفضلها ما بين القبر والمنبر، ثم بقية المسجد في زمنه ﷺ ، ثم ما زيد عليه بعده، ثم ما كان خارجاً إلى المصلى .

وعلى أية حال، فلقد وضع العثمانيون علامات للروضة الشريفة، بجعل أساطينها بيضاء - كما هو المشاهد الآن، وفي عام ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م حصل تقشر في رخام بعض أساطين الروضة الشريفة، فقامت المملكة العربية السعودية بترميمها برخام أبيض أيضاً وقد أظهر ذلك أنانقتها.

وأما «القبّة الخضراء» فهي أصلاً من بناء سلطان مصر «الملك الأشرف أبو النصر قايتباي» (١٤١٠ - ١٤٩٦م)، وفي عام ١٢٣٣هـ (١٨١٧م) أمر السلطان العثماني «محمود خان الثاني» (١٧٨٤ - ١٨٣٩م) بترميمها - وفي رواية بهدمها من قواعدها، وبنائها على قواعد متينة ثم طلاؤها باللون الأخضر، الذي جعلها تسمى «بالقبّة الخضراء» - بعد أن كانت خضراء - منذ بناها «قايتباي» بناء محكماً، وقد أخذ لها الجبس الأبيض من مصر - وقد تم ذلك في عام ٨٩٢هـ (١٤٨٦/١٤٨٧م)، وكتب على طرازها من الناحية الغربية «أنشأ هذه القبّة الشريفة العالية، المعترف بالتقصير الراجي عفوره القدير، قايتباي».

ولعل من الأهمية بسكان الإشارة إلى «الحجرة الشريفة» وكانت تسمى قديماً «المقصورة»، قال صاحب مرآة الحرمين: وفي زاوية المسجد الجنوبية الشرقية -جزء فصل من المسجد بسور من النحاس الأصفر، طول كل من ضلعيه - الجنوبي والشمالى - ١٦م، وكل من ضلعيه - الشرقي والغربي ١٥م، ويقال له «المقصورة الشريفة».

وبناء المقصورة الحالي من آثار الملك «الأشرف قايتباي» من سورها الخارجي المعروف «بالشباك» إلى قبته التي فوق الداخلية، إلى دائرها الخمس، إلى القبّة الداخلية، المبنية بحجر أبيض وأسود، الكائنة فوق الحجرة النبوية، التي فيها القبور الثلاثة الشريفة: قبر سيد الأنام محمد ﷺ، وقبرا صاحبيه وخليفته: أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق، رضى الله عنهما، ومن ثم فقد مضى على هذه البناءات المؤلف منها ما يسمى «بالمقصورة» أو «الحجرة الشريفة» ما ينيف على أربعة قرون.

هذا وفي شمال الدائر المحمس - في داخل الشباك - حجرة السيدة فاطمة عليها السلام، أو قبرها، ويحلفه محراب يقال له «محراب فاطمة» (١٢٢).

ولعلنا نختم هذا الحديث عن «المسجد البوى الشريف» إلى أنه انما كان مصدراً لاهتمام كتاب العالم كله، وذكره المؤرخون والأدباء والمحدثون والرحالة والجغرافيون من جزيرة العرب، ومن أرض الكنانة، ومن العراق والشام والمغرب والأندلس، ومن إيران وتركيا والهند، ومن فرنسا وانجلترا وهولندا وألمانيا وإيطاليا.

ومن ثم فقد رأينا موسوعة «مصادر تاريخ الجزيرة العربية»، إنما تخصص له في جزئها الأول بحثاً خاصاً، كتبه الأستاذ «رشيد بورويبة» بعنوان «مسجد المدينة في حقائق الكتب الثمينة»، وقدم لنا فيه قرابة تسعين كتاباً، جمعت بين كتب المحدثين وأصحاب السير، من حيث أننا نجد، بجانب مواليد الجزيرة العربية، مصريين وشاميين، وعراقيين وفرنسا، وأتراكا وهنودا، ومغاربة وأندلسيين وانجليزيين وفرنسيين وألمانيين وإيطاليين وغيرهم.

(١٢٢) أنظر: الدكتور محمد علوي المالكي: الذخائر الحمديّة ص ٧٧-٨٧ السمهردى: وفاء الوفا بأحسام دار المصطفى ٤٢٦/٢، على الملا القاري: شرح الشفا ١٦٣/٢ - ١٦٥، القاضى عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٩١/٢ - ٩٢، عبد الحميد قدسي: الذخائر القديمة، ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين ص ٢٤٠ - ٢٤٥، محمود الشرفقارى المدينة المنورة ١٩٦ - ٢٠٣، غالى محمد الأمين الشقيلى: كتاب الدار الثمين فى معالم دار الرسول الأمين، ٤٤ - المدرحة ١٩٨٨ ص ٢٤ - ٢٧، لبيب البنتونى: الرحلة للحجازية ص ٢٤٨ - ٢٥٠، ابراهيم اس على السيسى: المدينة بين الماضى والحاضر، محمد صبرى أبو علم باشا: الروصة الشريفة، الرين المراضى تحقيق العصرة فى معالم دار الهجرة، على حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ابن السجار: أخبار المدينة، أحمد بن عبد الحميد العباسى عمدة الأخبار فى مدينة المختار، عبد القدوس الأصارى آثار المدينة المنورة ص ٨١ - ١٧٦ - المدينة المنورة ١٩٧٣ م.

تخوت ٩/٤، تقويم البلدان ص ٩٥، حواد على ١٤٢/٤.

(٣) الطائف:

تقع الطائف على مسبعة حوالي ١٢٠ كيلو مترا إلى الجنوب الشرقي من مكة، على جبل غزوان، أبرد مكان في الحجاز، وتتميز على مكة المكرمة بأنها ذات جو طيب في الصيف، وبأنها كثيرة الشجر والثمر، وأكثرها ثمارها الزبيب والرمان والموز والأعشاب^(١) وتصل كمية المطر السنوية إلى ٢٠٠ ملليمتر، وتزيد أحيانا إلى ٤٥٠ ملليمتر، ويزيد من أهميتها انخفاض درجة الحرارة وبالتالي قلة البحر.

وتاريخ الطائف ما يزال غامضاً، وإن عشر الباحثون على كتابات مدونة على الصخور المحيطة بالمدينة، وفي مواضع ليست بعيدة عنها، بعضها بالنبطية، وبعضها بالشمودية، وبعضها الثالث بعربية القرآن الكريم، كما عشر على كتابات تشبه اليونانية، وأخرى تشبه الخط الكوفي، وإن كانت جميعها لم تدرس حتى الآن^(٢).

ويذهب الاخباريون إلى أن اسمها القديم «وج» نسبة إلى «وج» أخو «أجاء» الذي سمي به أحد جبلي طيء، وهما من العماليق، وإنما سميت بالطائف بحائطها المطيف بها، وقد أقامه رجل دعوه «الدمون» حتى لا يصل إليهم أحد من العرب، ثم حاولوا بعد ذلك إعطاء صفة مقدسة، ربما بتأثير من بنى تقيف سكان الطائف، فزعموا بأنها من دعوات إبراهيم الخليل، وأنها أرض ذات شجر كانت حول الكعبة، ثم انتقلت من مكانها بدعوة إبراهيم، فطافت حول البيت، ثم استقرت في مكانها، فسميت الطائف، وزعم آخرون أن جبيل قد اقتطفها من فلسطين، وسار بها إلى مكة فطاف بها حول البيت، ثم أنزلها حول الطائف^(٣)... إلى غير ذلك من أساطير لا تقدم نفعاً، ولا تفيد علماً.

هذا وهناك من يزعم أن أول من سكن الطائف إنما هم العماليق، ثم غلبهم

(١) ياقوت ٩/٤، تقويم البلدان ص ٩٥، جواد على ١٤٢/٤.

(٢) جواد على ١٤٣/٤، القزويني: آثار البلاد ص ٩٨.

وكذا: Osman R. Rostem, Rock Inscriptions in The Hijaz, P. 11.

(٣) ياقوت ٩/٤، ١٢، البكري، ٨٨٦/٣، تاج العروس ١٨٤/١، المقدسي ١٠٩/٢، تقويم البلدان

٤٩٩/٣ وما بعدها

عليها بنو عدوان من قيس بن عيلان، ثم بنو عامر بن صعصعة، ثم أخذتها منهم ثقيف^(٤)، وزعم آخرون أن الذين سكنوا الطائف بعد العماليق إنما هم قوم لمود قبل ارتحالهم إلى وادي القرى، ومن ثم فقد ربط أصحاب هذه الرواية نسب ثقيف بالشمرديين الذين سبواهم إلى جد أعلى هو «قسي بن منبه»، الذي يجعله بعضهم من «إباد»، بينما يجعله البعض الآخر من «هوزان». وزعم فريق ثالث أنه كان بالطائف قوم من يهود، طردوا من اليمن ومن يشرب، فجعأوا إلى الطائف، وسكنوا فيها، ودفعوا الجزية لسادتها ومنهم اتباع معاوية بن أبي سفيان أمواله بالطائف^(٥).

ويختلف أهل الطائف عن أهل مكة وعن الأعراب، من حيث ميلهم إلى الزراعة وللإشتغال بها، وعنايتهم بغرس الأشجار المثمرة التي كانوا دائمى السعى إلى تحسين أنواعها وجلب أنواع جديدة منها، كما كان لهم خبرة ومهارة بالأمور العسكرية، الأمر الذى ظهر واضحاً إبان محاصرة الرسول (ﷺ) لمدينتهم وتحصنهم بسورها، هذا إلى جانب ميل إلى الحرف اليدوية كالدباغة والنجارة والحدادة، وهى أمور مستهجنة فى نظر العربى^(٦)، وقال الهمداني عن الطائف^(٧):
مدينة قديمة جاهلية، وهى بلد الدباغ يذبغ بها الأهب الطائفية المعروفة.

هذا وقد عاش أهل الطائف فى مستوى أرفع من عامة أهل الحجاز، بل حتى حظ فقراء الطائف كان أفضل من حظ غيرهم من فقراء الحجاز.

وقد ذهب المفسرون إلى أن كلمة القريتين التى جاءت فى سورة الزخرف فى

(٤) المعارف ص ٢٩١، تاج العروس ١١٠/٢، اللسان ٣٩٧/٢، الأغاني ٧٤/٤، أنساب الأشراف ص ٢٥، الاشتقاق ص ١٨٣، باسوت ٩/٢ - ١١، ابن خلدون ٢٤١/٢، نهاية الأرب للفنقى ص ١٩٨، ٢٠٠، وكذا: EI, 4, p. 734. وكذا: J.A.Montgomery op.cit. p. 137

(٥) ابن سعد ٣١٢/١، أنساب الأشراف ٣٦٦/١، تاريخ الطبرى ٨٢/٣ - ٨٥، ابن الأثير ٢٦٦/٢ - ٢٦٨، ابن كثير ٣٤٥/٤ - ٣٥٢، ابن خلدون ٥٠/٢ - ٥١، السيرة الحلبية ١٣١/٣، واطر: محمد يوسى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٣٢٣/٢ - ٤٧٧ (بيروت ١٩٩٠).

(٦) البلاذرى: فخر البلدان ص ٦٨.

(٧) الإكليل ١٨/١٢٠.

قول الله تعالى: وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (٨) أن المراد: مكة والطائف (٩).

وكان لشراة الطائف حصون يدافعون بها عن أنفسهم وأموالهم، كما كان لهم علم بالحرب، وقد جمعوا عندهم - بجانب الحصون والأسوار - معظم وسائل المقاومة المعروفة وقت ذلك، مثل أوتاد الحديد التي تحمي بالنار، لتلقى على الجنود المختفين بالدبابات، هذا إلى جانب أنهم قد تعلموا من أهل اليمن - ومن مدينة جرش (٦١٠) بالذات - صناعة العرادات والمنجنيق والدبابات (١١).

هذا وكان أغنياء الطائف - شأنهم في ذلك شأن أغنياء مكة وغيرهم من أغنياء العرب - إما كانوا أصحاب ربا، ومن ثم فحين أسلموا، اشترط عليهم سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ: أن لا يرابوا، ولا يشربوا الخمر، ولا يزنوا، وكتب لهم كتاباً (١٢).

وكان لأهل الطائف تجارة مع اليمن، وإن كنا لانسمع عن قوافل كبيرة كقوافل أهل مكة، كانت تتاجر مع بلاد الشام أو العراق، وربما كانوا يساهمون مع تجار مكة في تجارتهم مع هذه البلاد، خاصة، وأن أثرياء قريش كانوا يستثمرون أموالهم في الطائف، وأنهم قد اشتروا بعض المياه (الآبار) وبنوا لهم منازل بالطائف للإقامة بها صيفاً، فضلاً عن إسهامهم مع كبار القوم في تقيف في أعمال تجارية رابحة، وحاولوا - جاهدين - ربط الطائف بمكة (١٣).

(٨) سورة الزخرف: آية ٣١.

(٩) أنظر تفسير ابن كثير ١٩١/٤ - ١٩٢، تفسير النسفي ١١٧/٤، تفسير الطبري ٣١٨٦/٢٥،

تفسير الطبرسي ٤٦/٥، تفسير الزمخشري ٣٥٠/٢، البلاذري، أنساب الأشراف ٣٦٦/١.

(١٠) حرش وثقع على مسعدة ٣٠ كيلاً جنوب أبها، وعلى مسعدة ٢٠ كيلاً من خميس مشيط، بالمسعدة - وليست حرش الأردن.

(١١) المجيق: آلة من آلات الحصار، ترمى بها الحجارة وغيرها من القذائف، وأما الدبابة: فآلة تتخذ لقب الحصون يدخل فيها الجنود، ويصرون في أصل حائط الحصن حتى يتقوه، وكانت في أبسط مظاهرها في تلك المهدود تتخذ من الخشب ليحتمى بها الجنود، وهم يتقون الحصون (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٢٤/٢).

(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٦٧، السيرة الحلبية ٢٤٠/٣ - ٢٤٤.

(١٣) البلاذري فتوح البلدان ص ٦٨ وما بعدها.

على أن أهل الطائف من ناحية أخرى، إنما كانوا يحاولون أن يأخذوا مكانة قريش التجارية، وقد نجحوا إلى حد ما يوم استولى الفرس على اليمن، فكانت قوافل كسرى التجارية، ولطائف ملوك المناذرة في الحيرة، تذهب إلى اليمن وتعود منها، عن طريق الطائف، غير أن أثرياء قريش سرعان ما نجحوا في بسط سلطانهم على الطائف، عن طريق إقراض سادتها الأموال، وشراء الأرضين هناك، حتى جعلوا من الطائف - آخر الأمر - بمثابة التابع لقريش (١٤).

وأما أهم معبودات الطائف في الجاهلية فقد كانت «اللات» (١٥)، وهي من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب، وقد انتقلت إلى الحجاز - فيما يبدو - من الأنياب، والقبائل العربية الشمالية، وتروى المصادر العربية أنها كانت صخرة مربعة، بنت عليها «تقيف» في مدينة الطائف بيتاً تضاهي به الكعبة المشرفة، وكانت العرب تعظم بيت اللات، بل أن «تقيفاً» إنما كانت تخص اللات، بما كانت تخص به قريش «العزى»، فكان الواحد منهم إذا قدم من سفر، توجه إلى بيت اللات، فتتقرب إليه، وشكر اللات على عودته سالماً، ثم يذهب إلى بيته، هذا

(١٤) البلاذري، فتوح البلدان ص ٦٨، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الرابع - بيروت ١٩٧٠ ص ١٥٢ - ١٥٣.

ومن عجب أن تبرز الطائف على مكة في عصر الأمويين - فعندما أراد معاوية بن أبي سفيان التخلص من النفوذ القرشي، استبدل العصبية القرشية بالعصبية النقفية، كما برزت تقيف يروا .. شديداً في عهد بني مروان الأمويين وخاصة في عهد عبد الملك بن مروان وولده الوليد (أحمد إبراهيم الشريف: الحجار قبيل ظهور الإسلام ص ٣١ - ٣٢).

(١٥) كانت «اللات» كبيرة آلهة الصفويين، وأهم الآلهة عندهم، وقد عرفها اللحيانيون كذلك، فكان من أسمائهم «تيم اللات»، كما تمجد لها الأنياب، وعدوها أم الآلهة، ومن ثم فقد ذهب «روبرنس سميت» إلى أنها كانت الآلهة الأم في الشتاء، وأنها بمثابة «أرتيمس» عند القرمطانيين، كما أطلق «ابيجانيوس» على مصدرها في الشتاء «معد الأم العفراء» (أنظر: جواد علي، ٢٣٢/٦، موسكاتي الحضارات القديمة ص ٣٥٨ - ٣٥٩، ونييه ديسو: العرب في سورية قبل الإسلام ص ١١١، ١١٥).

W.Caskel, Lihyan Und Lihyansch, Kohn, 1954, p.1 46. وكذا

J.Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927, p. 33.

A. Grohmann, Arabien, 1963, p. 82.

W.R. Smith, op. cit, p. 33 - 34.

فضلاً عن أن القوم إنما كانوا يعتقدون أنه لا يجوز أن تقطع أشجار من حماها، ولا يصاد عنده، ولا يراق دم آدمي فيه (١٦).

وتذهب المصادر العربية إلى أن «عمراً بن لحي» هو الذي أدخل «اللات» على العرب، وطبقاً لرواية الاخباريين، فقد كان «اللات» رجلاً من ثقيف، يلبث له السوق للذبح على صخرة اللات، فلما مات أشاع «عمرو بن لحي» أنه لم يمت، وإنما دخل في الصخرة، ثم أمر بعبادته، وأن ينوا عليها بتيناً يسمى «اللات» (١٧). على أن رواية أخرى إنما تذهب إلى أن «عمراً بن لحي» هو الذي كان يلبث السوق، ويطعم الحاج، وذهبت رواية ثالثة إلى أن يهودياً كان هو الذي يلبث السوق (١٨).

وأياً ما كان الأمر، فمن المعروف أن «عمراً بن لحي» هذا، إنما هو أول من اتبع هواه، ونشر عبادة الأصنام بين العرب، روى الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤هـ / ٧٨٠م - ٢٤١هـ / ٨٥٥م) بسنده عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجر قصبته، وهو أول من سيب السوائب».

ويقول الحافظ «ابن كثير»: والمقصود أن عمراً بن لحي - لعنه الله - كان

(١٦) ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ١٦، ١٩، ٢٧، ٤٢، باقوت: معجم البلدان ٤/٥، ابن حبيب: المحير ص ٣١٥، محمد ميروك نافع: المرجع السابق ص ١٦٥ - ١٦٦، محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام - القاهرة ١٩٣٦ ص ١١٩، تفسير البحر المحيط ٦٠/٨، تفسير ابن كثير ٢٥٣/٤.

(١٧) ابن كثير: البداية والنهاية ١٧١/٢، الأزرقي: أخبار مكة ١/١ - ١٢٥ - ١٢٦، الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٢٨١/٢، معجم البلدان ٤/٥، الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٣٤٦/١ (القاهرة ١٩٢٤م).

Alfred Guillaume, *Islame*, (Penguin Books), 1964, p. 7-8.

(١٨) تفسير البيضاوي ٤٣٠/٢، تفسير الخازن ١٩٤/٤، تفسير روح المعاني ٤٧/٢٧، تاج العروس ٥٨٠/١، الأزرقي: أخبار مكة ١/١، اللسان ٣٨٨/٢، ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ١٦.

وفى صحيح البخاري (١٧٦/٦) عن ابن عباس رضی الله عنهما: اللات رجلا يلبث سوق الحجاج.

قد ابتدع لهم أشياء في الدين، غير بها دين الخليل - عليه الصلاة والسلام -
فاتبعه العرب في ذلك، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً (١٩).

هذا وكانت تحت صخرة اللات حفرة يقال لها «غيب»، تحفظ فيها
الهدايا والندور والأموال التي كانت تقدم للصنم، ولما أسلمت «نقيف» بعث
سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ﷺ، المغيرة بن شعبه - وهو من نقيف -
فهدمها وحرقها بالنار، ثم أخذ الأموال التي كانت في «الغيب» وسلمها إلى أبي
سفيان بن حرب، إمتثالاً لأمر المصطفى ﷺ (٢٠).

ولعل من الجدير بالإشارة أنه كان «لللات» حمى، وحرم في جوار الطائف،
يقصده حجيج مكة، وسواها، ويقدمون لها الذبائح، وقد حرم قطع الأشجار
والصيد والقتل في مثل هذا المكان فإن الحيوان إنما قد استمد من تلك البقعة
مناعة الحرم (٢١).

وتذهب المصادر العربية إلى أن قريشاً إنما كانت - قبل الإسلام - تطوف
بالكعبة المشرفة، وتقول: «واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرائق

(١٩) ابن كثير: البداية والنهاية ١٨٨/٢ - ١٩٠، الفاسي: المقدم الثمين ١٣٦/١ (القاهرة
١٩٥٩)، شفاء الغرام ٢١/٢، ٤٦-٤٧ (القاهرة ١٩٥٦)، المسعودي: مروج الذهب ٢٩/٢
- ٣٠ (بيروت ١٩٧٣)، الديار بكرى: تاريخ الخميس من ١٢٤ (القاهرة ١٣٠٢ هـ)، تاريخ
اليعقوبي ٢٥٤/١ (بيروت ١٩٦٠)، ابن فريد: الاشتقاق ٤٧٤/٢ (القاهرة ١٩٥٨)، ابن
هشام: سيرة النبي ﷺ ٨٤/١ - ٨٥، الأزرقى: أخبار مكة ٨٨/٢، ١١٨ (بيروت ١٩٦٩)،
فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣٩٨/٦ - ٤٠٠، صحيح البخاري ١٨٤/٤، ٥٤/٦ -
٥٥، محمد بيومي مهران: الحضارة العربية من ٢٢٥ - ٣٢٧، ٣٥٧ - ٣٦٣ (اسكندرية
١٩٨٨).

(٢٠) تاريخ الطبري ٩٩/٣، تاريخ ابن خلدون ٥١/٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٨٣/٢ -
٢٨٤، ابن هشام ٣٢٦/٢، بلوغ الأرب ٢٠٣/٢ - ٢٠٤، معجم البلدان ١٨٥/٤، ٥/٥،
ابن الكلبي: كتاب الأصنام من ١٧، ابن حبيب: المجرب من ٣١٥، تفسير القطراني من ٦٢٦٩،
تفسير ابن كثير ٤٣٢/٧ (دار الشعب - القاهرة ١٩٧١).

J.Wellhausen, op.cit, p. 31.

وكذا

(21) P.H.Hitti, A History of The Arabs, 1960, p. 99.

J.Wellhausen, op.c cit, p. 32.

وكذا

الغلا، وأن شفاعتھن لترجى، وكانوا يقولون: بنات اللہ، ومن يشفعن إليه (٢٢٢).

والى هذا يشير القرآن الكريم فى قول اللہ تعالى: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة (٢٣) الثالثة الأخرى، ألكم الذکر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى، إن هى إلا أسماء سميتوهن أنتم وآباؤكم ما أنزل اللہ بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى» (٢٤).

وفى تفسير ابن عباس: وأخرج سعيد بن منصور والفاكهى عن مجاهد قال: كانت اللات رجلا فى الجاهلية على صخرة بالطائف، وكان له غم، فكان يأخذ من رسلها (٢٥)، ويأخذ من زيب الطائف والأقط، فيجعل منه حبا، ويطعم من يمر من الناس، فلما مات عبده، وقالوا: هو اللات (٢٦).

وكان يقرأ «اللات» مشددا (٢٧)، وهذا التفسير ظاهر على قراءة تشديد «التاء»، وهى قراءة ابن عباس، وذكر ابن الجزرى أنها قراءة «رويس» (٢٨).

(٢٢) مستنير موسكاتى: الحضارات السامية القديمة - ترجمة وزاد عليه السيد بمقرب بكر - القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٦٠، الألوسى: بلوغ الأرب ٢٠٣/٢.

(٢٣) روى البخارى فى صحيحه (ومناة الثالثة الأخرى)، حدثنا الحميدى حدثنا سفيان الزهرى: سمعت عمرو، قلت لعائشة رضى اللہ عنها، فقالت: لما كان من أهل مناة الطاغية التى بالمشلل، لا يظنون بين الصفا والمروة، فأنزل اللہ تعالى «ان الصفا والمروة من شعائر اللہ، قطاف رسول اللہ ﷺ والمسلمون، قال سفيان: مناة بالمشلل من قده» (صحيح البخارى ١٧٦/٦ - ١١٧٧).

(٢٤) سورة النجم: آية ١٩ - ٢٣، وأنظر تفسير القرطبى ٩٩/١٧ - ١٠٣، تفسير البيضاوى ٤٣٠/٢، تفسير الكشاف ٣٠/٤ - ٣١، تفسير النسفى ١٩٦/٤ - ١٩٧، السيوطى: تفسير الدر المنثور فى التفسير بالأمثور ١٢٦/٦ - ١٢٧، فى ظلال القرآن ٦/٣٤٠٧ - ٣٤١٠، تفسير الطبرسى ٤٤/٢٧ - ٥١، تفسير روح المعانى ٥٤/٢٧ - ٥٨، تفسير الطبرى ٥٨/٢٧ - ٦٢، تفسير أبى السعود ١١٢/٥ - ١١٣، تفسير ابن كثير ٣٩٢/٤ - ٣٩٥ (بيروت ١٩٨٦).

(٢٥) رسلها: يعنى لبنها (انظر: النهاية فى غريب الحديث - مادة رسل).

(٢٦) عبد العزيز بن عبد اللہ الحميدى: تفسير ابن عباس ومردياته فى التفسير من كتب السنة ٨٤٢ - ٨٤٢/٢ (جامعة أم القرى - بمكة المكرمة).

(٢٧) الدر المنثور فى التفسير بالأمثور ١٢٦/٦.

(٢٨) الش فى القراءات المشر ٣٧٩/٢.

هذا وقد أمر رسول الله (ﷺ) أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة - وهو من ثقيف - بهدم (اللات)، فلما دخل المغيرة عليها بضرها بالمعول، وخرجت نساء ثقيف حاسرات يبكين عليها، ثم أخذ المغيرة مالها وحليها بعد أن كسرها.

والقصة - كما تزورها كتب السيرة - أن ثقيفاً إنما كان لها موقف غير كريم من سيدنا رسول الله (ﷺ) حين خرج إليهم في أخريات شوال من عام ١٠ من المبعث (٦٢٠م) على قدميه في صحراء موحشة قاسية، ليس معه أحد إلا مولاه زيد - في بعض الروايات - فردوه جميعاً رداً منكراً، وأغلظوا له الجواب - وتجاهلوا أنه ابن عبد المطلب سيد العرب - إن لم يؤمنوا أنه رسول الله ونبيه -.

ثم شاركت «ثقيف» في غزوة حنين وأوطاس - ضد المسلمين - ولكنها سرعان ما رجعت إلى الطائف منهزمة، فدخلت حصونها، وغلقت أبوابها، بعد أن تزودت بكل ما تستطيع من مؤنة وسلاح، وأخذت أهمتها لحصار طويل الأمد - إن أراد النبي أن يحاصرهم - وكان رجال ثقيف ذوى خبرة بقتال الحصون، ومن ثم فقد أجمعوا أمرهم على الدفاع عن حصونهم بكل قوة - مهما طال الحصار -

وطال أمد الحصار - والذي بدأ في شوال من عام ٨ هـ (فبراير ٦٢٠م) - إلى بضعة وعشرين ليلة، حاول المسلمون إبانها، إخراج ثقيف (٢٩) من حصونها فلم يفلحوا، فطلبوا منهم المبارزة فأبوا، فميروهم بالجبن والفرار فلم يأبهوا بهم.

وهنا - وقد طال الحصار - رأى النبي - ﷺ - أن لا فائدة من الحصار وأن ثقيف قد انكسرت شوكتها، واستشار أصحابه، فقال أحدهم: نعلب في حجر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرنا، وأمر الرسول (ﷺ) بالرحيل، وقيل له:

(٢٩) من أحرار ثقيف في الجاهلية أن قبيلة «خثعم» عزت بني ثقيف في الطائف، غير أن ثقيفاً - بقيادة عيلان بن سلمة - انتصرت عليهم، ومن أيامهم كذلك «يوم وج»، وفيه هزمت ثقيف بني عامر بن ربيعة، بعون من حلفائهم «بنو نصر بن معاوية» (تاريخ ابن خلدون ٣٠٩/٢ - ٣١٠، الأعلى ٤٤/١٢ - ٤٥ ط الساسي)، وانظر: السكري: معجم ما استمعتم ٧٧/١ - ٧٩، عمر رضا كحالة، معجم قتال العرب القديمة والحديثة ١٤٧/١ - ١٥١)

يارسول الله، أدع علي ثقيف، فقال: اللهم اهد ثقيف، وآت بهم» (٣٠).

وهذا ما حدث، فلقد أتى وفد ثقيف (٣١) في عام الوفود - العام التاسع الهجري - وأخذوا يحثونهم إلى رسول الله - ﷺ - وهو يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا، وهدموا «اللات»، وأقاموا مسجد الطائف في مكانها. وهكذا انتهت أسطورة مسبودتهم (اللات) التي كان يهدون لها الهدى، ويظفون حولها ويسمونها «الربة»، ويضاهون بها الكعبة، بيت الله الحرام في مكة، وكان مدنتها «آل أبي العاص بن أبي يسار بن مالك الثقفي» (٣٢).

هذا وتشير الأبحاث الحديثة إلى أن منطقة الطائف إنما كانت تزخر بعدد كبير من السدود القديمة، أمكن حتى الآن معرفة خمسة عشر سدا، سجل منها تسعة سدود فقط (سد عين العقرب - سد ثلبة - سد السلمقى - سد سيبد - سد العمير - سد صعب - سد عرضة - سد القصيبة - سد السلامة) (٣٣).

(٣٠) أنظر عن غزوة الطائف (زاد المعاد ٣/٤٩٥ - ٤٩٨، صحيح البخارى ١٩٨/٥ - ١٩٩، صحيح مسلم ١٢٣/١٢، تاريخ اليعقوبى ٦٢/٢ - ٦٣، تاريخ الطبرى ٨٢/٣ - ٨٥، ابن الأثير الكامل فى التاريخ ٢٦٦/٢ - ٢٦٨، الندوى: السيرة النبوىة ص ٣٠٦ - ٣٠٧، محمد محمد أبو شهة ٣٨٦/٢ - ٣٨٩، ابن كثير: السيرة النبوية ٦٥٢/٣ - ٦٦٤، أبو زهرة: حاتم السبىن ١٠٥٥/٣ - ١٠٥٧، الصادق عرجون ٤٠٢/٤ - ٤١٦، سيرة ابن هشام ٣٥٧/٤ - ٣٦٢، محمد يرمى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٢٣/٢ - ٤٢٧).

(٣١) أنظر عن ثقيف وفروعها (عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة - الجزء الأول - بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ص ١٤٧ - ١٥١).

(٣٢) أنظر عن وفد ثقيف للسى ﷺ، وإسلامهم (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢٨٣/٢ - ٢٨٤، زاد المعاد ٥٩٥/٣ - ٦٠٢، سيرة ابن هشام ٣٩٧/٤ - ٤٠١، أبو زهرة: حاتم النبىين ١١٠٤/٣ - ١١٠٩، ابن كثير: السيرة النبوية ٥٣/٤ - ٦٣، أبو شهبة ٤٢٩/٢ - ٤٣٥، الندوى: السيرة النبوية ص ٣٣٠، تاريخ الطبرى ٩٦/٣ - ١٠٠، محمد يرمى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٩١/٢، صفى الدين الماركفورى: الرحيق المختوم ص ٥٠٣ - ٥٠٥ (مكة المكرمة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م).

(٣٣) أنظر أيضا (سد درويش، سد اللصب، سد سداد - سد أم المقررة - سد داما، وهو الوحيد الذى يبعد حوالى ١٤٠ كيلا جنوب غرب الطائف فى وادى داما)، وأنظر عن هذه السدود (مجيد خان، على معنى سدود أترية فى منطقة الطائف - مجلة أطلال - العدد السادس ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ص ١٢٥ - ١٣٤).

وكذا Shirley Kay, Some Ancient Dams of The Hejaz, in PSAS 1978, 68- 73, Pis 1-15, p. 74- 80.

هذاء، ورغم عدم تحابيد فترات إنشاء هذه السدود، لعدم توافر الأمانة الأثرية، عدا بعض الكتابات الكوفية المبكرة، ومبعلها غير مؤرخ، فإن المصادر العربية المبكرة إنما تؤكد على أن منطقتي الطائف وخيبر، إنما كانتا حافظتين بالششاط الزراعي، وقد تنافست قبليتا قريش وتقيف في استغلال الأراضي الزراعية، الأمر الذي استمر حتى بعد البعثة المحمدية، وخاصة على أيام الأمويين.

وقد تميز بناء هذه السدود أحياناً بالتمقيد، وأحياناً بالبساطة، هذا فضلاً عن أن ضخامة البناء إنما تدل على توفر العنصر البشري والمادى في المنطقة، وتشابه هذه السدود في استقامة واجهاتها، مما يلي حجز المياه والسلالم المبنية على الواجهات الأخرى على طول ارتفاعها، بحيث تكون قاعدة السد أعرض بكثير من قمته، وقد استمرت هذه الطريقة في السدود التي عثر عليها على جانبي «طريق حج الكوفة - مكة» التي بنيت على طول المحطات والمنازل المختلفة (٣٤).

وعلى أية حالة، فمن المعروف أن الطائف مدينة قديمة، كما أنها من أشهر مناطق الزراعة في الحجاز، وخاصة على جانبي «وادي وج»، وفي أكتافها من الكروم والتخيل والموز، وسائر الفواكه (٣٥).

(٣٤) سعد عبد العزيز الراشد، الآثار الإسلامية في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من ١٢٥ - ١٩٩ (الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين - الجزء الثاني - رمانى ١٩٨٤)، وانظر: R.Raikes, Selected Studies on Hydrological Aspects of Taif Dams, (unpublished Study Conducted for The Ministry of Agriculture, Kingdom of Saudi Arabia, 1969).

(٣٥) في الواقع أن الطائف إنما هي أحد مناطق الثروة في بلاد العرب، فـ«ثلاثاً فيك الذهب، فوجوا أصناف متعددة، وأما زبيبتها» يعتبر «الثلج» من رندار البصرة أشجار النخلة في الطائف فقد اشتهرت بربوة الحنظل، وكان أحد «الثلج» يورد من «البحر» قرب قرية إلى وسيل الله - عثة - فلما انتقل - عثة - إلى الرفيق الثماني، رأى «البحر» وأمر «البحر» من الله - رضي الله عنه - أمير الطائف بأن يؤدي منو الثمن بالثلج «كانوا يؤدي إلى النبي» - (محمد محمود محمدين: الزراعة والري في الحجاز في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين من ٣٢٥، أبو يوسف كتاب المراج من ٤٥).

٤: تيماء:

تقع تيماء على مبعدة ١٠٤ كيلا إلى الشمال من العلا، وعلى مبعدة ٤٧٤ كيلا من المدينة المنورة، ١٣٧٤ كيلا من الرياض، على الطريق التجارى بين جنوب بلاد العرب وشمالها، وقد بدأت تيماء تظهر فى التاريخ على الأقل منذ أيام الملك الآشورى «تجلات بلاسر» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) الذى تدلنا حولياته التى عثر عليها فى «كالح» (وهى نمرود الحالية، وتقع على مبعدة ٣٠ كيلا جنوبى نينوى، ٣٥ كيلا جنوب شرقى الموصل) - أنه أخذ منها الجزية، كما أخذها من زيبسى (زيبية) ملكة دومة الجندل، ومن «شمسى»، فضلا عن الجالية السبئية فى ديدان^(١) هذا وقد جاء ذكر «تيماء» فى التوراة^(٢) - كما فى أسفار أيوب^(٣) وأشعيا^(٤) وأرميا^(٥) وحبقوق^(٦) وعويديا^(٧) وعاموس^(٨).

وتيماء فى الروايات العربية، بلد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى، على طريق حجاج الشام ودمشق، والأبلىق الفرد حصن السمؤال بين عادي اليهودى^(٩) مشرف عليها من ناحية الغرب^(١٠)، وهو مربع الشكل تقريبا، وفى وسطه بئر، وله دعائم من الخارج، ويشبه فى تصميمه وتنفيذه حصن كعب بن

(1) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 7.

وكلنا A.I.Olmstead, History of Assyria, p. 189.

وكلنا ANET, p. 280 وكلنا A.Musil, op,cit, p. 288.

(٢) أنظر تاريخ كتابة أسفار التوراة، كتابنا اسرائيل ١٨/٣ - ٩٦.

(٣) أيوب ٦: ١٩.

(٤) أشعيا ١٤/٢١.

(٥) أرميا ٤٩: ٧.

(٦) حبقوق ٣: ٣.

(٧) عويديا ١: ٩.

(٨) عاموس ١: ١٢ وانظر قاموس الكتاب المقدس ٢٩٦/١ ومابعدها.

(٩) هناك من يذهب إلى أن الرجل إسحاق كان عربيا غسانيا (المغرب من ٣٤٩، الاشتقاق ٤٣٦/٢)

وهذا يتماشى مع العثرة السياسية التى حكم فيها الفساسة، وعاصرها السمؤال فقد كان الفساسة هم المسيطرون على الطريق التجارى من الشمال صوب الجنوب، ولايمعد أن يكون السمؤال ممن لهم سلطة فى هذه الناحية مستمدة من صلته بالفساسة (عبد الرحمن الأنصار: مجلة النارة ٨٢/١).

(١٠) ياقوت ٦٧/١، البكرى ١/٢٢٠ - ٢٣٠، اللسان ٧٢/١٢، تقويم البلدان ص ٨٦، دائرة

المعارف الإسلامية ١٣٠/٦.

الأشوري، هي المدينة المنورة (١١١)، وإن كان هناك من ذهب؛ إلى أن الحسمس ربما كان من بقايا فخر نبونيد، أو من بقايا كسور رجاء، أو من بقايا أبنية شيرة من نزل هذا المكان (١٢).

هذا وتشير كتابات الملك الأشوري «منحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) إلى أن أحد أبواب العاصمة الآشورية «نينوى» - وتقع الآن تحت تلى قوينجق والنبي يونس، على الضفة الشرقية لنهر الدجلة، على فم رافد صغير يدعى «الخسر» (الخورصر)، على مسعدة ٤٠ كيلا من التقاء الدجلة بالزاب الأعلى قبالة الموصل (١٣) - كان يسمى «باب الصحرا» حيث يمر منه «رجال سومو - ابل رجاء تيماء» (١٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن اسم «تيماء» (١٥) إنما قد ورد في الكتابات المسامرية التي ترجع إلى عهد آخر ملوك بابل «نبونيد» (٥٥٥ - ٥٣٩ ق.م) وأهم هذه الكتابات هي:

١- حوليات نبونيد - كورش: وقد نشر هذا النص «بنجس» (T.G. pinches) لأول مرة في عام ١٨٨٢م، ثم أعاد نشره «سدني سمث» في عام ١٩٢٤م، ويتحدث النص عن أعمال «نبونيد» طبقا لنظام الحوليات وقد أشار إلى إقامة «نبونيد» في «تيماء» منذ عام حكمه السابق، وذكر أسماء تيماء بصيغة «ت - ما ا» (Te - Ma - A)، «ت - ما» (Te - Ma).

٢- قصيدة نبونيد: (Account of Nabonidus): وقد نشرها - لأول مرة - «سدني سمث» في عام ١٩٢٤، وهي عبارة عن نص مكتوب على لوح طيني (١١) عبد الرحمن الأنصاري: لغات عن بعض المدن القديمة في شمال غرب الجزيرة العربية. مجلة الدارة ٨٢/١ (الرياض ١٩٧٥).

(١٢) حواء على ٥٢٩/٦

(١٣) أرتغر عن العواصم الآشورية (مجلس يرمي مؤران. تاريخ العراق القديم ص ٣٢٦ - ٣٣٣ الإسكندرية ١٩٦٠)

(١٤) ص: جي أنور رشيا. العلاقات بين رادي الراندين وبعاء س ٣٨٧ (الجزيرة العربية قبل الإسلام - الرياض ١٩٨٤).

(١٥) أنظر عن تيماء: حامد إبراهيم أبو ذرك: مقدمة عن آثار تيماء الرياض ١٩٨٦ م

بالمتحف البريطاني، وقد أصابه تلف، غير أن دراسات «لاندرجرجر» (Landsberger) و«بارو» (Bauer) قد سدت النقص الموجود فيه، وقد تحدث النص - وكتبه خصوم الملك - عن حملة نبونيد، وقتله لأمرها، فضلا عن ذبح ماشيتها وماشية سكان مجاوراتها، ثم تجميله للمدينة وبنائه قصرا على غرار قصر بابل، وتحصينه تيماء وتسويرها، وجاء إسم تيماء في هذا النص في صيغة «ت - ما - آ» .

هذا إلى جانب مجموعة أخرى من الكتابات كاللوح الطيني الذي نشره «دوتي» في عام ١٩٢٠م، ومؤرخ بالعام العاشر من حكم نبونيد، وجاء فيه أن المؤونة كانت تنقل بالجمال من معبد في مدينة الوركاء - وتقع شرق الفرات، على مبعده ٦٠ كيلا من مدينة السماوة، ١٢٨ كيلا شمال غرب أور - إلى الملك نبونيد في أرض تيماء^(١٦).

٣- كتابة بابلية على مسلتين من الحجر: عشر عليها الأثرى الانجليزي «رايس» (D.S.Rice) في أثناء تفتياته في أطلال الجامع الكبير في «حران» أو «حاران» - وتقع على نهر بلخ، على مبعده ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات، وإلى الغرب من تل حلفاء، وعلى مبعده ٤٤٨ كيلا شمال شرق دمشق - في عام ١٩٥٦م، وقد نشر الباحث الانجليزي (C.J.Gadd) النص المسامري الأصلي، وترجمته مع دراسة مفصلة ظهرت عام ١٩٥٨م، وقد تحدث النص عن حملة نبونيد إلى تيماء، وإقامته هناك لمدة عشر سنوات تنقل فيها بين «دادنو» (ديدان = العلا) و«باداكو» (فدك) و«خيبر» (خيبر) و«باديخو» (البديع) و«يتريو» (يثر) = المدينة المنورة)، وقد اعتمد «جاد» في تحديد موقع «بديع» (البديع) على «ياقوت الحموي»، وأنها بين فدك و«خيبر»، غير أن «حمد الجاسر» إنما يرى أن «بديع» تعرف الآن باسم «الحويط»، وأنها في شرق حرة خيبر، وأن تيماء ورد في الكتابة بصيغة «ت - ما (أ) (Te - ma - a)» .

ولا ريب في أن ذلك كله إنما يدل على إهتمام ملوك بلاد الرافدين بتيماء،

(١٦) صبي أور رشيد: المرجع السابق ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

بل أن الملك «نبونيد» إنما قد أقام له قصرا في تيماء، عاش فيه حينما من الدهر،
قارب سنوات عشر، حتى أصبحت تيماء أثناءها، وكأنها قد غدت خليفة
لبابل (١٧).

وأما «تيماء» في الكتابات الأرامية، فلقد جاء اسمها في أقدم كتابة أرامية،
ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، وذلك على الوجه الأمامي لمسلة تيماء
المشهور، وقد نشر هذا النص «كوك» (Cooke)، مع ترجمة له باللغة الإنجليزية،
هذا فضلا عن ترجمة عربية لها، ذم بها الدكتور محمود الغزل (١٨).

وهناك كتابة أرامية أخرى - ترجع إلى النصف الثاني من القرن الأول قبل
الميلاد - وقد عثر عليها في الكهف الرابع في «قمران» - على مقربة من البحر
الميت - وقد نقشت على قطعة من الرق، نشرها «ميليك» (J.T.Milik) في عام
١٩٥٦، وقد تحدث هذا النص الأرامي عن إقامة «نبونيد» في تيماء، ولكنه جعلها
سبع سنوات - على عكس نص جامع حران الذي جعلها عشر سنوات - وربما
قد تأثر هذا النص بنص سفر دانيال الذي جعل الملك «نبوخذنصر» (٦٠٥ -
٥٦٢ ق.م) يقضى سبع سنوات مع حيوانات الصحراء، ونظرا للنزعة والصبغة
اليهودية لهذا النص، فلقد رأينا كثيرا من العلماء الأجانب - من ألمان وفرنسيين
واسرائيليين وسوفيت - يهتمون به، خاصة «جفرياخو» و«بوروز» و«باردتكه» و
«أموسين» و«ديون - سومير» و«ماير».

وأخيرا، فلقد عثر في مدينة «الحضر» على كتابة أرامية، تؤرخ بالعام الثالث
قبل الميلاد، وتحدث عن قيام قبيلة «بنوتيمو» وقبيلة «بنو بلعقب» ببناء معبد
للآله «نرجول» في مدينة الحضر.

(١٧) صبحى أنور رشيد: المرجع السابق ص ٣٨٨.

A.Musil, Northern Nejd, p. 224.

وكنا

S.Smith, op.cit p. 53 - 88.

وكنا

P.K.Hitti, op. cit, p. 39

وكنا

C.J.Gadd, The Harran Inscriptions of Nabonidus, AS, 8, 1958, p. 8.

(١٨) سحى أنور رشيد: المرجع السابق ص ٣٨٩.

وأما الكتابات النبطية، فلقد عثر في الحجر (مدائن صالح) على كتابة نبطية تحمل اسم «تيماء» (١٩).

وأما عن علاقة تيماء بمصر، فلقد كانت تيماء، واحدة من مراكز الحضارة في شبه الجزيرة العربية، التي تعكس آثارها التأثير المصري، حيث قامت بدور هام على طرق تجارية استراتيجية (٢٠)، وهي الطرق التجارية - والتي نتحدثنا عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب - بين مكة المكرمة وبلاد الشام، وبين مصر وجنوب الجزيرة العربية، وبين مصر وابل، ومن المحتمل كثيراً أن هذا الطريق التجاري هو نفسه الذي يخترق المدينة في الوقت الحاضر.

وفي عصر الملك «نبونيد» (٥٥٥ - ٥٣٩ ق.م) - وكان قد اتخذها مقراً له، كما أشرنا آنفاً - كانت قد أصبحت نقطة ارتكاز للقوات العسكرية القائمة على حماية الإمبراطورية البابلية الحديثة من أعدائها، هذا فضلاً عن أن موقعها إنما كان عاملاً مهماً للإتصال الطبيعي بمصر.

هذا وقد دعت الحاجة إلى قيام تحالف عسكري بين مصر وابل ضد فارس، في نفس الوقت الذي كانت بابل جد حريصة على استمرار قبضتها القوية على تيماء، تدعيماً لقوتها في المنطقة - وخاصة في مواجهة مصر - هذا فضلاً عن اتخاذ تيماء كنقطة ارتكاز عسكري متقدمة للدفاع عن حدودها.

ولاريب في أن آثار تيماء إنما تؤكد هذه الإتصالات، فضلاً عن التأثير المصري في تيماء، وأول هذا التأثير قصيدة نبونيد (Account of Nabonid - us) - وقد أشرنا إليها من قبل - والجديد هنا أن القصيدة تسجل استقبال نبونيد لوفد الصلح الذي بعث به إليها ملك مصر «أحمس الثاني» (أمازيس ٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م) - من الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٤ - ٥٢٥ ق.م)، وقد نجح هذا الوفد في إعادة العلاقات الودية بين الدولتين،

(١٩) صبحي أنور رشيد: المرجع السابق ص ٣٨٩.

(٢٠) أنظر: (محمود عمر محمد سليم: التأثير المصري في آثار تيماء - رسالة المشرق - مركز الدراسات الشرقية - بكلية الآداب - جامعة القاهرة - العدد الأول يناير ١٩٩٣ ص ١١١ -

(١٢٣).

بعد عدة قرون من الحروب (٢١).

هذا وقد أدت عودة العلاقات الودية بين مصر وبابل إلى كثرة تردد المصريين على تيماء - حيث يقيم العاهل البابلي نبونيد - الأمر الذي أدى بدوره إلى ظهور أسماء مصرية في آثار تيماء، ومن ذلك ماورد على الوجه المكتوب بالأرامية على مسلة تيماء (٢٢)، حيث نقرأ عن قيام الكاهن «سلم شزب» (Salm-She-zeb) بن «بت - أوزيري» (Pet-Osiri) بإدخال عبادة صنم جديد إلى تيماء هو «سلم هجم» فضلاً عن تشييد معبد له، ويذهب «كوك» إلى أن والد الكاهن التيمى إنما يحمل إسماً مشتقاً من المعبود المصرى (أوزير) (٢٣) وهو الإسم «بت - أوزيري» وهو اسم مصرى شائع فى مصر الفرعونية Pi-di - Wsir (٢٤)، وأما إسم الكاهن نفسه فهو إسم آشورى أو بابلى (٢٥).

وهناك من تيماء أيضاً كتلة حجرية مكعبة عشر عليها بين بقايا «قصر الحمراء» (٢٦) - ويقع عند الطرف الشمالى الغربى لسلسلة المرتفعات الطبيعية بالمنطقة - عليها مشهدان على جانبيين مختلفين يضممان ثور بين قرنية قرص الشمس، ويمثل المشهد الأول نقش عليه رأس ثور، يحمل بين قرنيه قرص

(٢١) نفس المرجع السابق ص ١١١ - ١١٣، صبحى أنور رشيد: دراسة تحليلية للتأثير البابلى فى آثار تيماء - سومر - العدد ٢٩ - بغداد ١٩٧٣ ص ١٠٧ - ١١٤.
(٢٢) مسلة تيماء أو حجر تيماء على الأصح: كشف فى عام ١٩٧٩م، وهو محفوظ الآن بمتحف اللوفر بباريس، وهو من الحجر الرملى (١١٠ × ٤٣ × ١٢ سم) ونهايته العلوية مقوسة، ويرجع إلى عصر نبونيد (محمود عمر: المرجع السابق ص ١٢٠ - ١٢١).
(٢٣) أنظر عن أوزير (محمد بيومى مهران: الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى - الإسكندرية ١٩٨٩ ص ٣٤٩ - ٣٦٧).

(24) H.Ranke, Die Aegyptischen Personennamen, Band, I, Gleuckstadt, 1955, p. 123.

(٢٥) صبحى أنور رشيد- المرجع السابق ص ١٢٨.

(٢٦) أنظر عن قصر الحمراء (جات بودن، ميلر، وكريستوفرالينز: دراسات تحليلية - برنامج حصر المعالم الأثرية فى موقع تيماء القديمة - التنقيبات الأولية فى تيماء ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م - الأطلال - الرياض ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م ص ٨٩ - ٩١، حامد إبراهيم أو بودرك: المرجع السابق ص ٣٧ - ٥٢.

الشمس، وقد وضعت رأسه على مذبح يتكرر، من ثلاثة كثر حجوية، يعلوها
 كتبتان أحريان تحت يمان بالرأس، ويقف إلى يسار المشهد رجل يرفع يده ليمنى
 متعبدا، وفي الجانب الآخر من المشهد - حامل قربان أو مبخرة وفوق مائدة
 القربان نجمة عشرية يعلوها القمر، وإلى أقصى اليسار - أعلى الرجل - قرص
 شمس مجنح، له جناحان مستطيلان، ونقش ريش الجناحين بشيء من التجديد،
 بالإضافة إلى ريش الذيل، الذي شكل أنصاف دوائر، وحول المشهد إطار يحيط به
 زخارف دائرية.

وعلى الجانب الشرقى من المسلة، يوجد المشهد الثاني، هو يشبه المشهد الأول
 إلى حد ما، ويعلوه إطار عليه زخارف في شكل زهرة اللوتس وفي النصف الأسفل
 من هذا النحت ثور يتجه إلى اليسار، حمل بين قرنيه قرص الشمس، وأمامه سيدة
 برداء طويل، تقوم بتقديم طعام للثور، وأعلى الثور قرص مجنح، أجنحته أكثر
 طولاً، ويظهر ريشه أكثر تفصيلاً، هذا وقد نقش الذيل بنفس الشكل الذي كان
 عليه في الجانب السابق، وعلى جانبيه يتدلى ذراعان، وهناك، إلى أعلى قرص
 الشمس، وعلى الجانب الأيمن للمشاهد، توجد نجمة ثمانية.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أنه قد تكرر ظهور الشمس المجنحة على ما يسمى
 باللوح الحجري المنقوش (٢٧)، وكذا على الواجهة الثانية لمسلة تيماء، والتي
 قسمت إلى قسمين، فصار بينهما خط مستقيم، حيث يضم المشهد العلوي
 قرصاً مجنحاً أسفله، رسم لشخص رأسه وجسده مغطيان تماماً، وبمسك
 بصولجان، وإلى أسفل شخص يقف إلى يسار رأس ثور وضعت على مائدة قربانين
 أو مذبح.

ويخلص الدكتور محمود عمر إلى أن المشاهد السابقة إنما قد كررت أمورا،

(٢٧) اللوح الحجري المنقوش: طوله ١٠٢ سم، وعرضه ٤٥ سم، ومسكه ١٦ سم، وقد نقشت عليها
 عشرة سطور بالأرامية السارة، يعلوها مشهد لقرص الشمس المجنح، وبعده نجمة ثمانية وتسر
 كامل، ومن جناحي الشمس الجناح ساقان في شكل شريطين متوسمين من أسفل. كما رسم:
 عطايان، وريش الذيل مسم على شكل حزمة من الخطوط الرأسية (أنظر: حامد أبو ترك المرجع
 السابق ص ٥٩، لوحة ٤٩).

منها (أولاً) ظهور الثور ثلاث مرات، ومنها مرتان فيهما قرنيه بين قرص الشمس، ومنها (ثانياً) أن الشمس المجنحة ظهرت في المشاهد الأربعة ومنها (الثالثاً) تظهر النجوم والقمر في ثلاثة مشاهد، ومنها (رابعاً) ظهرت في المشهد الأول زخارف في شكل قرص الشمس، ومنها (خامساً) ظهرت في المشهد الثاني زخارف في شكل زهرة اللوتس. وهذا التكرار تعبير عن تأثير مصري واضح، سواء في الفن أو في العقيدة فالثور قد احتل مكانة بين الحيوانات المقدسة في مصر القديمة، فقدس نوع منه باسم «أبيس» لكونه ممثلاً للخصوبة والقوة، ومن ثم فقد كان يرمز بالثور إلى قوة الملك وحكمه، وقد ظهر الملك «نعرمر» على أحد وجهي لوحته المشهورة (لوحه نعرمر) - وقد كشف عنها عام ١٨٩٧م في معبد حور في «نخن» (البصيلية - مركز ادفو - محافظة أسوان)، وموجود الآن بالمتحف المصري بالقاهرة - برقم ٣٠٥٥ (٢٨) - في شكل ثور يدمر بقرنيه حصناً، وأسفله عدوه، هذا فضلاً عن أن ظهور الشمس بين قرني الثور، إنما هو تعبير عن العلاقة بين الثور المقدس وإله رع، وصلته بالسماء، وهذا تمثيل مصري قديم (٢٩). هذا وقد رمز للمعبود «بوخيس» بالثور، حيث قدمه أهالي مدينة أرمنت - وتقع على مبعده ١٥ كيلاً جنوبي الأقصر، وقد أصبحت منذ أيام الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ - ١١٨٤ ق.م) مقر لعبادة العجل المقدس بوخيس (٣٠) - وقد أدمج بوخيس مع معبود أرمنت الرئيسي «مونتو» (٣١)، وارتبط بوخيس ارتباطاً وثيقاً بعبادة رع، ومن ثم فقد رمز لآله بالثور، وبين قرنيه قرص الشمس. وتلك كلها مشاهد إنما تؤكد أصالة إتياء مشاهد تيماء إلى العقائد المصرية القديمة (٣٢).

(٢٨) أنظر عن لوحه نعرمر (محمد بيومي مهران: مصر ٢٨٤/١ (لوحه ١٨)، مصر ٢٦/٢ - ٢٧).

(٢٩):

R.Maciver and A.Mace, El-Amrah and Abydos, 1899- 1919, p
1. 17, 91

(٣٠) أنظر عن «بوخيس» (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة ٤٠٢/٢ - ٣٠٣ - الإسكندرية ١٩٨٩).

(٣١) أنظر عن «مونتو» (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثاني - الإسكندرية ١٩٨٩ ص ٣٨٧ - ٣٨٨).

(٣٢) محمود عمر: المرجع السابق ص ١١٢ - ١١٤.

«إذا وقد عبد العجل «أيس» لقوته الجسدية، فضلا عن قوة أخصابه، وكان مركز عبادته في «منف» (٣٣) العاصمة المصرية التليدة، وقد عثر على جبانة ضخمة مخصصة له في سفارة، حيث عثر على تماثيل من البرونز للعجل «أيس»، أحدهما تمثله، وهو يحمل قرص الشمس بين قرنيه، وتتقدمه الحية المقدسة (٣٤).

وهناك في المتحف المصرى بالقاهرة تمثال (برقم JE, 38574) للبقرة المقدسة التى ترمز للإلهة «حتحور» (٣٥)، وبين قرنيها قرص الشمس، وتتقدمه الحية المقدسة، وفى المقدمة الملك تحوتمس الثالث (٣٦) (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) وهناك تمثال آخر للبقرة المقدسة الإلهة «حتحور»، وبين قرنيها قرص الشمس، تعلوه ريشتان، وفى المقدمة الملك «بسماتيك الثالث» (٥٢٦ - ٥٢٥ ق.م) تضىف عليه حمايتها (٣٧).

هذا فضلا عن أن ظهور النجوم والقمر مع الشمس فى مشاهد تيماء، إنما هو أيضا تأثير مصرى، حيث يقرن الثور بالشمس، ومن ثم بالسماء ولهذا فلا بد وأن تترن به المظاهر المتصلة بها من شمس ونجوم (٣٨).

(٣٣) أنظر عن «منف» (محمود بيومى مهران: مصر - الجزء الثانى الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٧٨ - ٨٢.

(٣٤) محسود عمر: المرجع السابق ص ١١٥.

وكدًا، H.S. Smith, A Visit to Ancient Egypt, Warminster, 1974, p. 15, 22 - 82.

(٣٥) أنظر عن «حتحور» (محمد بيومى: الحضارة المصرية القديمة الجزء الثانى ص ٤٠٤ - ٤٠٨).

(٣٦) M. Saleh and H. Souroulian, Official Catalogue The Egyptian Museum Cairo, Mainz, 1987 - 1988, p. 138.

(٣٧) M. Saleh and H. Souroulian, op.cit, p. 251.

(٣٨) ضياء أبو عازى: رع فى الدولة القديمة - القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٢٢.

وقد استمر الفنان المصري بشكل مشاهد فنية تضم الثور المقدس كاتجاه فني يمثل جانبا من عقائد مصر القديمة، وقد ظهرت تأثيراته في تيماء في المشاهد الأنفة الذكر، بل لقد استمرت هذه المشاهد حتى أيام بطليموس الخامس (٢٠٥ - ١٨٠ ق.م) طبقا للوحة (رقم ٥٤٣١٣ JE) بالمتحف المصري بالقاهرة، وقد نقش عليها بطليموس الخامس أمام ثور، فوق رأسه قرص الشمس، تعلوه ريشتان طوليتان تكسوان القرص، وهما رمز دمج أو امتزاج أمون رع.

ومن البدهى أن قرص الشمس المجنحة الذى ظهر في تيماء إنما هو جزء من العقيدة المصرية، نراه يتقدم مداخل كثير من المقابر، فضلا عن المعابد المصرية، هذا ونرى الشمس المجنحة تبرز أعلى اللوحة (رقم 36335 JE) بالمتحف المصري بالقاهرة، وقد نقش عليها بطليموس الخامس أمام ثور، فوق رأسه قرص الشمس، تعلوه ريشتان طوليتان تكسوان القرص، وهما رمز دمج أو امتزاج أمون رع.

ومن البدهى أن قرص الشمس المجنحة الذى ظهر في تيماء إنما هو جزء من العقيدة المصرية، نراه يتقدم مداخل كثير من المقابر، فضلا عن المعابد المصرية، هذا ونرى الشمس المجنحة تبرز أعلى اللوحة (رقم 36335 JE) بالمتحف المصري، وتؤرخ بعصر الملك أحمس الأول (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م) وقد أظهر الفنان فيها قدرته في أسيابه وانسجام وتناسق الشمس وأجنحتها كما كان فنان تيماء مؤثقا في محاكاته الفن المصري من هذه اللوحة.

ولعل من التأثيرات الواضحة أيضا في فن تيماء أن القدام اليسرى إنما تبرز إلى الأمام في مشاهد الأشخاص، هذا فضلا عن اختيار الفن التيمائي زهرة اللوتس في تزينه لأحد مشاهده، أضف إلى ذلك أنه قد عثر في تيماء على أربع كسرات صغيرة من أربع أوان فخارية نقش عليها علامة المدينة أو القرية «نوت» NW.T بالمصرية القديمة.

هذا وقد عثر الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم بكر في حفائره في «تل بسطة» - شرقى مدينة الزقازيق - على ثلاثة أختام تحمل نفس العلامة، وتمائل تماما تلك التي عثر عليها في تيماء.

وهناك تمثال نحت الجزء الأعلى منه، والذي يبدأ من أعلى حزام المنتصف حتى نهاية الإزار، طبقاً للطابع المصري، وكان إزار صاحب التمثال ملامعاً لجسده، وتبرز القدم اليسرى للتمثال كجزء من الشكل العام لهذا التمثال الذي نحت بأسلوب فنّي مصري قديم، هذا فضلاً عن مجموعة من الجموع من القاشاني الأخضر، وكل هذه الآثار إنما تؤكد أن أهل تيماء قد تأثروا بعبادة الشمس - وربما بعبادة رع بالتحديد - وأنهم كانوا على اتصال بمصر، الأمر الذي ظهر واضحاً في آثارهم - كما رأينا آنفاً.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هناك على مقربة من تيماء بقايا معبد عشر فيه على نقش، محفوظ الآن بمتحف اللوفر، ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد، نقرأ فيه بلغة آرامية، أن كاهنا قد أتى بصنم جديد (صلم هجم)، وبني له معبداً وبنى له كاهنا، كما صورته في زى آشوري، مما دفع البعض إلى أن يذهب إلى أن قدوم هذا الإله إنما كان على أيام نبونيد (٢٩).

هذا وقد عثر (Euting) على آثار معبد قديم، وعلى كتابة آرامية، تعود إلى فترة كانت المدينة فيها تحت السيطرة الفارسية، وإن أشارت الكتابة إلى ازدهار المدينة وقت ذاك (٤٠)، هذا فضلاً عن أن (جوسين وسافينيكا) قد عثرا كذلك على «تل» هناك، فيه بقايا معبد ومجموعة من قبور القوم (٤١).

وفي عام ١٨٨٣م، عثر «هوبر» في تيماء على مسلتها المشهورة، والتي كتبت على وجه واحد بالخط الآرامي، وعلى الجانب الأيسر نقش عليه رسمان، وربما كان الملك وكاهن، يتجه بعض الباحثين إلى أن الملك هنا إنما هو نبونيد، اعتماداً على المقارنة بين هذه المسلة ومسلة حوران، وعلى أي حال، فمن المتفق عليه الآن أن هذه المسلة إنما ترجع إلى القرن الخامس ق.م (٤٢).

(39) J.A. Montgomery, op.cit, p. 67.

وكتبا S.Smith, op-cit, p. 79 - 80

وكتبا G.A. Cooke, op-cit, p. 195 - 6.

(٤٠) جواد على ٥٢٨/٦ هـ، وكتبا EI, 4, p 622.

(٤١) جواد على ٥٢٩ / ٤.

A.J.Jausen and R.Savignac, Mission Archeologique en Arabie, II, p 133, 163. (Paris, 1914).

(٤٢) عبد الرحمن الأنصاري - المرجع السابق ص ١٢.

(٥) دومة الجندل:

وتسمى دومة الجندل الآن «بالجوف»، وكانه يطلق عليها في العصور الآشورية «أدوماتو»، وفي التوراة «دومة»، وفي جغرافية بطليموس "Adomatho" (Doumatha) (١)، وأما في المصادر العربية فهي «دومة الجندل» نسبة إلى دوما (أو دومان أو دما أو دوما) بن اسماعيل بن إبراهيم الحليل عليهما السلام (٢)، وعلى أى حال فقد نسبت إلى الجندل لأن حصنها مبنى بالجندل وهو الصخر، وهي في رأى «السكوني» حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طىء، كانت به بنو كنانة من كلب (٣)، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك نصا مصريا يرجع إلى القرن الثامن عشر ق.م، جاء فيه ذكر منطقة «دوماتو» وأميرها «اتح»، وحاول البعض تقرب الاسم إلى إمارة أو مملكة أدوم في شرق الأردن، غير أن الأكثر احتمالا فقربها إلى «دومة» (الجندل) ذات الموقع التجارى المتميز، لاسيما وقد ذكرها الآشوريون باسم «أدوماتو»، وقد اتصلت بمصر في فترة من تاريخها (٤).

ودومة أو دومة الجندل، واحة آدم الكبيرة، وتقع على مبعده ٤٠٠ كيلو مترا إلى الشرق من البتراء عاصمة الأنباط (٥)، على حافة النفود الكبير ومن ثم فقد كانت ذات أهمية كبيرة في التاريخ القديم، إذ كانت تعتبر بمثابة قلعة الجزيرة العربية الشمالية في وجه المهاجمين من الشمال والشمال الشرقي وإذا ماسقطت دومة الجندل تساقطت بالتالى باقى المدن المجاورة (٦).

(1) W.F.Albright, JRAS, 1925, p. 293.

F.Hommel, op.cit, p. 581, 594.

وكذا

(٢) ياقوت ٤٨٦/٢ - ٤٨٧، البكرت ٥٦٥ / ٢، وتلك رواية اسرائيلية في الواقع، حيث تذهب نفوس التوراة إلى أن سلالة إسماعيل إنما كانت تسكن في المنطقة الواقعة إلى شمال البحر الأحمر، وتمتد من حدود مصر حتى دومة الجندل (تكوين ٢١: ٢١، أوبس موسى: شمال الحجاز ص ٦٧).

(٣) ياقوت ٤٨٧/٢، قارن: الكرى ٥٦٤/٢ - ٥٦٥.

(٤) عبد العزيز صالح: شبه الجزيرة العربية في المصادر المصرية القديمة ص ٢٠٣، وانظر: B.Maisien, RTJE, 1946, p. 33.

(٥) ألبس موسى: شمال الحجاز ص ٨٢

(٦) عبد الرحمن الأنصاري: المرجع السابق ص ٨٢.

ونقرأ في حوليات العاهل الآشوري «مجلات بلاسر الثالث» التي عثر عليها في «كالح» عن جزية من «زيبى» ملكة بلاد العرب، التي يرى «ألويس موسل» أن مقرها إنما كان في «دومة الجندل»^(٧)، كما نقرأ كذلك في نقوش الملك «اسرحدون» (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) أن أباه «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) قد أخضع أدومائو (أدمو Adumu) حوالي عام ٦٨٨ ق.م، وأخذ أصنامها إلى عاصمته، والأمر كذلك بالنسبة إلى الأميرة «تاربي» (تبوؤة Tabua)، وكانت ملكة دومة الجندل «تلخونو» (تلخوخو) قد امتد سلطانها حتى حدود بابل، ثم وقفت بجانب الثوار البابليين ضد «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م)، ومن ثم فإن العاهل البابلي ما ان انتهى من القضاء على الثورة، حتى اتجه إلى دومة الجندل وفرض الحصار عليها^(٨). وهناك ما يشير إلى أن خلافاً قد حدث بين الملكة وبين حزائيل - سيد قبيلة فيدار - الذي تولى قيادة الجيوش ضد سنحريب، مما أدى إلى استسلام وفرار حزائيل إلى البادية، فضلاً عن أسر الأميرة تبؤة وأخذها إلى بابل، تمهيداً لإعدادها لتكون ملكة على قومها، تعمل بأمر آشور، وتنفذ سياسة ملوكها فيما يختص بالأعراب^(٩)، غير أن آمال الآشوريين في الملكة الجديدة قد خابت، فما أن يتم تعيينها ملكة على دومة الجندل حتى تفشل في مهمتها، ولعل السبب في ذلك إنما يرجع إلى العداء الدفين بين العرب والآشوريين، والذي ما كان في استطاعة تبؤة القضاء عليه^(١٠).

(7) A.T.Olmstead, op.cit, p. 189.

وكنة A.Musil, Arabia Deserta, p. 477.

(8) D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, II, 518

وكنة P.K.Hitti, op.cit, p. 38, وكنة ANET, p. 290

وكنة A.Musil, op.cit, p. 48.

(9) British Museum Tablets, K, 3087, 3405

وكنة P.K.Hitti, op.cit, p. 38

(10) A.L. Oppenheim, in ANET, p. 291.

وكنة D.J.Wiseman, The Vassal - Treaties of Esarhaddon, London, 1958, p. 4.

وعلى أى حال، فيبدو أن دومة الجندل كانت فى هذه الفترة مركزاً دينياً هاماً للقبائل العربية، كما أن هذه المنطقة قد عرفت فى هذه الفترة حكم الملكات اللاتى كن يجمعن بين السلطتين الدينية والزمنية، ولعل أشهرهن زبيبة (يزى) وشمسى وتلخونو وتبؤة^(١١).

وفى العهد البابلى خضعت دومة الجندل للملك نبونيد، وكما أشرنا من قبل، فلقد جرد الملك البابلى فى العام الثالث من حكمه حملة على المدينة واحتلها^(١٢).

هذا وتشير المراجع العربية إلى أن دومة الجندل إنما كانت مدينة محصنة بسور، فى داخله حصن منيع، يقال له «مارد»، نسبة البعض - طبقاً للروايات التقليدية - إلى سليمان عليه السلام، ونسبة آخرون إلى «أكيد بن عبد الملك السكونى»، وهو يهودى على رأى، وعربى من كندة على رأى آخر، وعلى أى حال، فإن الحصن على ما يدر قد بنى قبل القرن الثالث الميلادى، لأسباب منها صلة السكونيين بكندة، ومنها أن الحصن يشتمل فى بعض أجزائه على نقوش نبطية - والأنباط كما نعرف قد انتهت دولتهم فى عام ١٠٦ م - ومع ذلك فالحصن ليس من عمل فرد واحد، ولا من فترة واحدة، وإنما من فترات متعاقبة، لعل آخرها منذ نصف قرن فقط^(١٣).

وهناك فى المصادر العربية ما يشير إلى أن سكان دومة الجندل إنما كانوا أصحاب نخل وزرع، يسقون على النواضح، وزرعهم الشعير، وكان فى بلدهم سوق يبدأ فى أول يوم من شهر ربيع الأول، وينتهى فى النصف منه، هذا وقد

(١١) عبد الرحمن الأنصارى: المرجع السابق من ٨٢.

وكنّا N.Abbot, Per- Islamic Arab Queens, in AJSL, 58, 1941 (12) CAH, 4, p. 194.

وكنّا P.R.Dougherty, op.cit, p. 107

وكنّا C.J. Gadd, op.cit. p. 35.

(١٣) عبد الرحمن الأنصارى: المرجع السابق من ٨٤، بالقوت ٤٨٧/٢، حواد على ٢٣٦/٤ -

سكن دومة قبل الاسلام قبائل كلب وجديلة وطى، كما كان يتنازع السلطان فيها «الأكيدر» و«قناة الكلبي» الذى كان يتولى الأمر فيها، حين تكون الغلبة من نصيب الغساسنة، مما يدل على التنافس بين كندة وبنى غسان على الطريق التجارى^(١٤)، وكانت مبيعة العرب فى دومة إلقاء الحجارة، وذلك أنه ربما اتفقوا فى السلمة الرهط، فلا يجدون بدا من أن يشتركوا وهم كارهون، وربما اتفقوا فألقوا الحجارة جميعاً إذا كانوا عدداً على أمر بينهم، فوكروا صاحب السلمة إذا طابقوا عليه^(١٥).

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة إلى أنه فى شعبان من عام ٦هـ (نوفمبر ٦٢٧م) أرسل سيدنا رسول الله - ﷺ - عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - إلى «بنى كلب»^(١٦) فى «دومة الجندل» (الجوف الحالية بالملكة العربية السعودية) على رأس سبعمائة من الصحابة.

وطبقاً لرواية «أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى» (١٦٨ - ٢٣٠هـ/٧٨٤ - ٨٤٥م) والمعروف «بكتاب الواقدي»، فان سيدنا رسول الله - ﷺ - قال له: «أغز باسم الله، وفى سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، ولا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً» ويعنه إلى «بنى كلب» بدومة الجندل، وقال له: «إن استجابوا لك، فتزوج ابنة ملكهم، فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم «الأصبغ بن عمرو» الكلبي - وكان نصرانياً - وكان رأسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية، وتزوج عبد الرحمن بن عوف «تماضر بنت الإصبغ»، وقدم بها إلى المدينة المنورة^(١٧).

(١٤) عبد الرحمن الأنصارى، المرجع السابق ص ٨٤، تاج العروس ٥١٨/٣، ٢٩٧/٨، المحبر ص ٢٦٣ - ٢٦٤، التاريخ الكبير لابن عساکر ٨٩/١، وما بعدها، نسب قريش ص ٢٧٦، جواد على ٢٢/٤ - ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤٠.

(١٥) أبو جعفر محمد بن حبيب: كتاب المحبر - حيدر أباد الدكن ١٩٤٢ - ص ٢٦٤.

(١٦) هم بنو كلب بن وبرة من قضاة من القحطانية، كانوا يزلون دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام. وكانوا يعيدون «وداء» ثم دخلوا النصرانية فالإسلام (معجم قبائل العرب ٩٩١/٣ - ٩٩٢، صبح الأعشى ٣١٦/١، الاشتقاق ص ٤١٣، ٣١٤، الأغاني ١١١/١٧ - ١١٢، ١١٥، ١٢/١٩، ١٢٠/٢٠ - ١٢٣).

(١٧) طبقات ابن سعد ٦٤/٢، محمد حرمي مهراڤ. السيرة النبوية الشريفة ٢٢٨/٢ - ٢٢٩.

وفي أثناء غزوة تبوك (رجب ٩هـ = سبتمبر - أكتوبر ٦٣٠هـ) (١٨)،
تخلف «أكيدر بن عبد الملك» - وكان نصرانياً - صاحب دومة، عن سيدنا
رسول الله - ﷺ - ومن ثم فقد ندب له النبي - ﷺ - خالد بن الوليد (١٩) -
رضي الله عنه - (ت ٢١هـ)، في كتيبة من جنده، في رجب عام ٩هـ .

وطبقاً لرواية ابن هشام فقد قال له رسول الله ﷺ: إنك ستجده يصيد البقر،
فخرج خالد، حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين - وفي ليلة مقمرة صائفة
وهو على سطح له، ومعه امرأته، فبانت البقر تنك بقرونها القصر فقالت امرأته:
هل رأيت مثل هذا قط، قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذا، قال: لا لأحد،
فأمر بقرمه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته - فيهم أخ له يقال له حسان
- فركب وخرجوا معه بمطاردهم، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله - ﷺ،
فأخذته، وقتلت أخاه، وانهزم فرسانه.

وعاد خالد بن الوليد إلى معسكر المسلمين، ومعه «أكيدر» قد نزع عنه
قبازة، وكان من ديباج مخصص بالذهب، وعندما رأى النبي - ﷺ - أصحابه
يلمسون القباء بأيديهم ويتمجبون، قال ﷺ: «أتمجبون من هذا فوالذي نفسي
بيده، لتناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن منه» .

ثم أطلق سراح صاحب دومة الجندل، بعد أن صالحه - فيما يرى ابن سعد
علي الفي بعير، وثمانمائة رأس من الماشية، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، ثم
كتب له رسول الله - ﷺ، كتاب أمان، وإن ذهبت آراء إلى أن رسول الله - ﷺ،
قد عرض عليه السلام فأسلم، وأصبح أميراً على قومه

هذا وقد عاد «خالد بن الوليد» إلى «دومة الجندل» مرة أخرى في عام

(١٨) أنظر الآراء المختلفة في التأريخ لغزوة تبوك (محمد بيومي مهران: لاسيرة النبوية الشريفة ٤٦١/٢ - ٤٦٢).

(١٩) أنظر عن خالد بن الوليد (أسد الغابة الأثير ١٠٩/٢ - ١١٣، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة ٤١٣/١ - ٤١٥، ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤٠٥/١ - ٤١٥، ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤٠٥/١ - ٤١٠، ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/٢٤ - ٢، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٢/١).

١٢هـ، على أثر نقض «الأكيدر» للمعاهدة التي بينه وبين سيدنا رسول الله
- (٢٠) - .

ولعل أهم معبودات أهل دومة الجندل، إنما كان المعبود «ود» (٢١)، ويذهب
الآخباريون إلى أن «عمرا بن لحي» إنما هو الذي نشر عبادة «ود» هذا في تهامة
وفي وادي القرى وفي دومة الجندل، وأن سدنته إنما كانوا من بني الفرافصة بن
الأحوص من كلب، وأن القوم قد استمروا يتعبدون له حتى كسره «خالد بن
الواليد» - بأمر من المصطفى - عندما تغلب على «بنى عبد ود»، وعلى
«بنى عامر الأجدرة»، وعلى «الأكيدر بن عبد الملك» صاحب دومة الجندل (٢٢)،

(٢٠) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١١٩/٢ - ١٢٠ (ط دار التحريم - القاهرة ١٩٦٨)، الواقدي:
كتاب المغازي ١٠٢٥/٣ - ١٠٣١، أبو زهرة: خاتم النبیین ١٠٨٥/٣ - ١٠٨٦، ابن كثير:
السيرة النبوية ٣٠/٤ - ٣٢، سيرة ابن هشام ٢٨٧/٤ - ٢٨٨، زاد المعاد ٥٢٨/٣ - ٥٢٩، ابن
الأثير: الكامل في التاريخ ٢٨١/٢، أبو شهبة: السيرة النبوية ٤٠٨/٢ - ٤٠٩، تاريخ الطبري
٥٦٤/٢ - ١٠٨/٣، ١٠٩، حمد الجاسر: في شمال غرب الجزيرة ص ١٠٢ - ١٣٢ (الرياض
١٩٧٠م)، محمد يوسى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٧٧/٢ - ٤٧٨، محمد الطيب التجار،
القول المبين في سيرة سيد المرسلين - الرياض ١٩٨٢.
(٢١) أنظر عن «ود» (محمد يوسى مهران: الحضارة العربية القديمة ص ٢٨٥ - ٢٨٦ (الاسكندرية
١٩٨٨)، الديانة العربية القديمة ص ٤٤ (الاسكندرية ١٩٧٩).
(٢٢) اس حبيب - المحصر ص ٣١٦، اس الكلى: كتاب الأصنام ص ٥١ - ٥٥، معجم باقوت
الحموي ٣٦٧/٥.

(٦) الحجر (مدائن صالح):

تقع الحجر (مدائن صالح) على مبعدة ٢٤ كيلا إلى الشمال من مدينة العلا الحالية، وعلى مبعدة ٣٩٤ كيلا من المدينة المنورة، على الطريق التجاري العظيم الذي يربط جنوب بلاد العرب بسورية، وتتكون من عدة جبال رملية متناثرة، ومن ثم فقد سهل على سكانها أن ينحتوا فيها مقابر لهم، إنتشرت في معظم هذه الجبال^(١)، هذا وقد ورد اسم «الحجر» بصيغة «حجرا» في نقوشين على الأقل، من النقوش النبطية المحفورة على واجهات المقابر في مدائن صالح، كما وردت بصيغة «الحجرو» قريباً من إسمها العربي «الحجرة» في مقبرة رقوقش^(٢).

هذا وقد جاء ذكر المدينة في جغرافية بطليموس^(٣)، كما ذكرها «إصطيفانوس البيزنطي»^(٤)، والحجر - فيما يرى البعض - هي «أجرا Egra» التي ذكرها «سترابو» في حديثه عن حملة «إليوس جالليوس» على اليمن في عام ٢٤ ق.م، وربما كان لها ميناء يعرف بـ «فرضة الحجر» ومن الممكن، بل من المحتمل أن تكون هذه الفرضة معروفة بنفس الاسم الذي عرفته به الحجر^(٥) - كما أن ميناء مدين كانت تعرف كذلك باسم مدين - وأن ميناء الحجر هذه ربما كانت هي بعينها الميناء التي تعرف اليوم باسم الوجه^(٦).

وتشير الكتابات التي وجدت في مدائن صالح إلى أن المدينة ربما كان قد أنشأها المعينون، كما تشير مقابرها التي جمعت في نحتها عناصر فنية مختلفة -

(١) عبد الرحمن الأنصاري: المرجع السابق ص ٨١.

(2) Jaussen and Savignac, op.cit, I, p. 157, 177, 201.

(3) Ptolemy, VI, 7, 29.

(4) Stephanus Byzantus, I, 260.

A.Grohmann, Arabien, p. 44.

وكذا

(٥) يذهب بعض الباحثين إلى أن الحجر إنما هي مدائن صالح، بينما يذهب آخرون إلى أن مدائن صالح هي العلا، لا الحجر، يفرق آخرون بين موضع مدائن صالح والعلا (جواد على ٥٥/٣،

وكذا A.Grohmann, op.cit, p. 4, 15, 39, 40.

(٦) أنويس موسل: شمال الحجار ص ١٠٦.

فرعونية وأغريقية ورومانية وعربية - إلى أنها تشبه إلى حد كبير ما هو موجود في البتراء، ولعل هذا سببه أنهما ذات حضارة واحدة، وإن كانت مقابر مدائن صالح إنما تتميز بوجود شواهد عليها، مكتوبة بالخط الأرامي النبطي^(٧)، كما أن هناك في جبل أثلب معبداً يذكرنا بمعابد البتراء، فضلاً عن معبد آخر صغير يقع على مبعده ١٥٠ م إلى الجنوب من الجبل الأنف الذكر^(٨)، وأخيراً فلعل من الأهمية بسكان الإشارة إلى أن هناك من يرى في الموقع النبطي «إرم» الذي اكتشف على مبعده ٤٠ كيلاً إلى الشرق من العقبة، «إرم» المذكورة في القرآن الكريم^(٩).

ويشير «بليني» في التاريخ الطبيعي (٦: ١٥٦) أن عاصمة اللحيانيين هي «حجرا» (Hagra)، وأن مركزهم الرئيسي هو واحة ديدان على مبعده ٢٤ كيلو متراً إلى الجنوب من الحجر - وأن اللحيانيين إنما كانوا يسكنون بكل تأكيد في واحة الحجر، كما كانوا يسكنون كذلك في ديدان، ومن هذا يمكن أن نستنتج أن «حجرا» عاصمة اللحيانيين، هي بعينها الحجر^(١٠)، بنفس الاسم (الحجر) عرفت عند الأنباط.

وأما المصادر العربية فتذهب إلى أن الحجر، إنما هي ديار ثمود، ناحية الشام عند وادي القرى^(١١)، وهم قوم سيدنا صالح عليه السلام، وقد ورد ذكرها

(٧) عبد الرحمن الأنصاري، المرجع السابق ص ٨١.

(٨) جواد على ٥٦٣، وكنا A.Musil, Arabia Petrae, p. 133, 146.

(٩) أنظر: سورة الفجر: آية ٨-٩، وأنظر: تفسير البيضاوي ٥٥٧/٢، تفسير الطبري ١٧٥/٣٠ - ١٨٠ (طبعة الحلبي ١٩٤٥)، التفسير الكبير للفخر الرازي ١٦٦/٣٠-١٦٩، تفسير القرطبي

٤٤/٢٠ - ٤٧ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠)، وأنظر P.K.Hitti, op.cit, p. 73.

(١٠) الويس موسل: شمال الحجاز ص ١٠٧.

(١١) تاريخ الطبري ٢٢٦/١، البكري ٤٢٦/٢، ياقوت ٢٢٠/٢، ٢٢١، ابن بطوطة ص ٢٥٩، الضر ص ٣٨٤، المعارف ص ١٤، نهاية الأرب ص ١٩٩ - ٢٠٠، اللسان ١٧٠/٤، الويس موسل: المرجع السابق ص ١٠٨ - ١٠٩، ابن الأثير ٨٩/١، تاريخ الخميس ص ٨٤، قصص الأسياء ص ٥٨ - ٥٩، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣٠/١، تفسير ابن كثير ١٧١/٤، تفسير النسفي ٢٧٧/٢، تفسير روح المعاني ١٦٢/٨، ٧٦/٤، ١٢٤/٣٠، تفسير المنار ٥٠١/٨، ١٢٠/١٢، تفسير الطبري ٥٢٤/١٢، ٥٢٨، ٤٩/١٤ - ٥٠، تفسير البيضاوي ٥٤٥/١، تفسير القرطبي ٤٨/٢٠، ٤٦/١٠، تفسير الجلالين (نسخة علي هامش البيضاوي) ٥٤٥/١.

فى القرآن الكرىم (١٢)، وفى الحدىث الشرىف.

وعلى أى حال، فان المدىنة قد أخذت تفقد مكانها بالتدرىج، حتى إذا ما كان القرن العاشر المىلادى أصبحت خرائب لا يسكنها أحد، هذا وقد عشر فى هذه الخرائب - التى تقع بىن جىل وقصر البىن وسكة حدىد الحجاز القدىمة - على آثار حصن قدىم، وبقايا أبراج وأعمدة ومزولة شمسىة، فضلا عن نقود ترجع إلى أيام الحارث الرابع النبلى (٩ ق.م - ٤٠م) (١٣).

هذا ومعرفتنا عن الإستقرار السكانى المبكر فى الحجر (مدائن صالح) محدودة وقلىلة، ورغم وجود مجموعة من التوارىخ على الآثار النبلىة الثابته فى المواقع، فىما بىن عامى (١ ق.م، ٧٥م)، ومع ذلك فمن شبه المؤكد أن بىدایة الإستقرار إنما ترجع - على وجه الیقىن - إلى تارىخ أسبق بكثىر من أقدم تارىخ مكتوب، ومن ثم فلىس هناك من سبىل إلى تحدىد البىدایة الحقیقة للإستقرار، إلا عن طریق الحفائر الأثرىة (١٤).

غىر أن هناك ما ىشىر إلى استقرار معىنى فى الحجر، بىدلىل وجود نقوش معىنىة - ثلاثة على أحجار القلعة العثمانىة، وثنتان على واجهة أحد الآبار المجاورة - وإن كان من المحتمل أن هذه النقوش المعىنىة قد أتت من مكان بعىد، خارج حدود المنطقه، على أن هناك دلىلا ىمكن الاطمئنان إلىه إلى حد ما، وأعنى به مجموعة الخربشات اللحىانىة المكتوبة على مدرجات جىل «أثلب» (Ithlib) على الواجهة الشرقىة لموقع الحجر (١٥).

(١٢) سورة الحجر: آیه ٨٠ - ٨٤، وانظر: تفسىر القرطبى ١٠ / ٤٥ - ٤٦، تفسىر روح المعانى ١٤ / ٧٥ - ٧٧.

(١٣) اللسان ١٧٠ / ٤.

(١٤) جواد على ٥٦١٣ وكذا A.Grohmann, op.cit, p. 66.

وكذا C.M.Doughty, op.cit, p. 113.

وكذا A.J.Jaussin and R.Savignac, Mission Aracheologikue en Arabie, I, p. 316.

(١٥) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد عزال وحفرى كنىج: مواقع أثرىة وصور من حضارة العرب فى المملكة العربىة السعدوىة - الرىاص ١٩٨٤ ص ١٧ - ١٨.

هذا ويذهب «ونيت» إلى وجود استقرار سكاني «معيني - لحياني» سبق الإزدهار النبطي في الموقع، على أن «جر وهمان» إنما يميل إلى تأييد فكرة الأصل المعيني، ويذهب «كاسل» إلى وجود نقوش لحيانية مبكرة، وأخرى متأخرة، وإن اختلف تأريخه لها عن «ونيت» هذا وذكر «بليني» أن الحجر (Hrga) (مدائن صالح) كانت المدينة الملكية لما أسماهم (Lacates) وضابقتها «موسل» باللحيانيين، ويؤيد «موسل» الرأي القائل بأن اللحيانيين قد أقاموا فعلاً في الحجر (مدائن صالح)، فضلاً عن «العلاء» (ديدان)، وأن الأنباط في تحركهم من الشمال للإستقرار في الحجر، كان اللحيانيون يحكمونهم منذ البداية^(١٦).

هذا وربما يشير الظهور المفاجئ للمقابر الكثيفة والمؤرخة في الحجر من العام الأول قبل الميلاد، إلى أن الإستقرار السكاني قد بدأ من قبل في المنطقة، هذا فضلاً عن أن «إلويس موسل» إنما يذهب إلى أن الحجر إنما كانت مركزاً عربياً للأنباط أثناء حملة «إليوس جالليوس» في عام ٢٥ أو ٢٤ ق.م، كما أن بعثة جامعة لندن عام ١٩٦٨م قد عثرت على فحار نبطي في الموقع يرجع إلى هذا التاريخ^(١٧).

هذا وقد نحتت مقابر الحجر النبطية داخل الصخور الرملية الملساء، ذات اللون الأحمر والبنّي، في شكل حجرات ضخمة، نحتت في جوانبها فتحات الدفن العميقة لدفن الجثث ذاتها، كذلك توجد أيضاً فتحات غير عميقة لوضع الأشياء

(١٦) نفس المرجع السابق ص ١٨ - ١٩.

وانظر:

F.V.Winnett and W.L. Reed, Ancient Records From North Arabia Toronto 1970, p. 130

A.Grohman, Arabien, Munich, 1963, p. 44.

W.Caskel, Lihan und Lihyanicsh, p. 23- 31.

A.Musil, The Northern, Hejaz, New York, 1926, p. 306.

(١٧) نفس المرجع السابق ص ١٩ - ٢٠.

P.J.Parr, G. L Harding and J.E.Dayton, Preliminary Survey, وانظر:

BIA. IO. 1971, p. 23.

الجنائزية التي ترافق المتوفى، يتقدم هذه الحجرات فى الواجهة مدخل مستطيل نسبياً فى بعض المقابر.

ومع أن هذا النوع من المقابر المنحوتة فى الصخر شائع فى منطقة الشرق الأدنى القديم - وقد رأيناه فى العلا - غير أن الإبتكار الفنى الذى يلفت الإنتباه فى مقابر الحجر (مدائن صالح) وبعض المواقع الأثرية فى المنطقة الشمالية الغربية (البدع) من المملكة العربية السعودية، إنما يكمن فى الزخرفة المعمارية لواجهات هذه المقابر، فقد صممت واجهات المقابر النبطية فى تناسق فنى بديع، وأخذت تكويناتها الزخرفية المعمارية أشكالاً هندسية دقيقة، أبرزها الفنان العربى النبطى فى شكل تماثلى رائع.

ويبرز هذا الأسلوب الفنى التماثلى فى كل الوحدات الزخرفية - العمودية والأفقية - على واجهات المقابر النبطية بصفة عامة على النحو التالى: إذا بدأنا بالمدخل المستطيل الذى يؤدى إلى داخل المقبرة، نجد يحاط على كلا جانبيه بواجهة عمودية مسطحة، ناتئة من الحائط الأمامى فى بروز طفيف (Pilasters) تقوم على قاعدة، ويعلوها تاج نبطى بارز بشكل واضح ثم يتكرر هذا التماثل، لهذه الواجهات العمودية المسطحة بنفس الوصف مرة ثانية على جانبي الواجهة.

ونأتى بعد ذلك إلى الجزء الأعلى الذى يتسج هذا الجزء العمودى من الواجهة، حيث نجد التماثل الأفقى يتمثل فى تقسيمه أفقياً إلى أجزاء مستوية متوازية، تختلف مقاييسها بواسطة كرائيش أكثر بروزاً - ويشبه الكرائيش التى استخدمت فى العمارة المصرية فى العصر البطلمى (٣٢٣ - ٣١ ق.م).

وفى نهاية الجزء الأعلى من الواجهة نجد أن هذا الكورنيش المصرى البارز قد توج فى معظم الواجهات بزخرفة الشرافات (Grenellated) التى نظمت أيضاً فى أسلوب فنى متماثل، وربما يرجع هذا الأسلوب فى أصله إلى الزخارف المعمارية الآشورية فى بلاد النهرين، غير أنه فى غياب إطار تاريخى يربط مملكة الأنباط بالآشوريين مباشرة، يذهب البعض إلى أن الصلات بالفن الأخمينى (Achaemenid Art) فى غرب إيران، ربما تكون أصلاً لهذا الأسلوب المعمارى الفنى.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن الفنان النبطي إنما قد أخذ عن الفن الإغريقي أجملاً ما فيه من عناصر معمارية، وهي فكر الإفريز الدوري، والواجهة المثثة وتفصيلها، وقد سادت هذه العناصر في عمارة منطقة شرق البحر المتوسط طوال العصر الهلنستي، هذا فضلاً عن وجود بعض التأثيرات المصرية، حيث طبق الفنان النبطي أبرز عناصر معماري في واجهة المبنى المصري القديم، وهو الكورنيش الأعلى، فتوج به بعض مقابر الحجر (مدائن صالح).

بقيت الإشارة إلى أن هناك نساء يرجع إلى عام ٢٦٧م، وجد على جدار قصر البنت في مدائن صالح، يؤكد أن الأنباط ظلوا يعيشون هناك إلى هذا التاريخ، يمارسون الدفن في مقابرهم، ويكتبون بالخط النبطي الذي عرف في كل مكان في المنطقة، وبقي يستخدم حتى القرن الرابع الميلادي.

على أن «ونيت» لا يميل إلى تأريخ النقوش الشمودية التي وجدت في الحجر، إلى ما بعد عام ٣٠٠م، كما أنه ليس هناك من دليل على أن الحجر وقعت مباشرة تحت الاحتلال الروماني، مع أن هناك معبداً في «روافة» أو عوافة - بناء الشموديون وأهدوه للإمبراطور «ماركوس أوريليوس» و«لوكيوس أوريليوس فيروس» (١٦١ - ١٨٠م) ويؤرخ فيما بين عامي ١٦٦، ١٦٩م، عليه نقوش نبطية ويونانية، هذا فضلاً عن رسومات منقوشة وكتابات يونانية لأعضاء قافلة جمال رومانية بيزنطية، يبدو أنها مرت من الطريق في هذا الأقليم^(١٨).

(١٨) عبد الرحمن الأنصاري وأحمد غزال وجفري كح: مواقع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية - الرياض ١٩٨٤ ص ٤١ - ٤٦

(٧) العلا (ديدان):

تقع العلا فى وادى القبرى، جنوب شرق حرة العويرض، بين سلسلة من الجبال فى الشرق والغرب، وعلى مبعده ٣٧٠ كيلا من المدينة المنورة، ١٢٧٠ كيلا من الرياض، ٢٤ كيلا من الحجر.

ويقصد بالموقع الأثرى للেলা منطقة التلال الواطئة التى تعرف باسم «الخريبة»، وتقع إلى الشمال من مدينة العلا، حيث توجد بقايا السطحية للجدران، وتنتثر كسرات الأواني الفخارية فى أماكنها الأصلية، وقد حدد «جوسين» و«سافيناك» بقايا جدران المعبد وأجزاء من أعمال نحتية، وهى بقايا أثرية يمكن التعرف عليها فى هذا الجزء من الموقع لوجودها على السطح، هذا وتوجد سلسلة من المقابر المنحوتة فى المنحدرات الصخرية الخلفية، يحمل كثير منها نقوشا ديدانية ولحيانية ومعينية وغيرها، وتمتد هذه الآثار على مدى كيلو متر بطول المنطقة، تطل على تلال الخريبة الواطئة نحو الجنوب فى اتجاه العلا.

وتقع المقابر والنقوش المعينية فى أقصى الجنوب، بينما مايقع منها بعيد إلى الشمال بالقرب من الخريبة مقابر ونقوش لحيانية، وتمثل النقوش اللحيانية الثقافة الأصلية للمنطقة، فهى بلغتها المحلية، وكتابتها مميزة نوعا ما عن الكتابات الجنوبية، رغم أنها مشتقة منها، أما الثقافة المعينية فقد وردت إلى واحة العلا من العربية الجنوبية^(١).

ومن أسف أن كثيرا جدا من النقوش الموجودة على المنحدرات الصخرية إنما انتزعت من أماكنها، واستخدمت فى بناء المنازل فى مدينة العلا نفسها.

وكانت مدينة العلا تسمى قديما «ددن» أو «ديدان» - كما جاء فى التوراة^(٢) وبعض النصوص الآشورية - وأما كلمة «ددان» فهو اسم المكان على

(١) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ٧-٨.

ادظر: A.Janssen and F.Savignac, Mission Archeologique en Arabic, Paris 1914, II, p. 57 - 63.

(٢) تكرر، ٧/١٠، ٣/٢٥، ارميا، ٢٣/٢٥، ٨/٤٩.

رأى، وإن كان هناك من حاول الربط بين هذا الأسم، وبين إسم الآله «دد» الذى كان معبوداً عند الساميين الشماليين^(٣).

هذا وكانت مدينة العلا واحة مزدهرة قبل وأثناء القرن السادس قبل الميلاد، وإن كان تاريخها قبل ذلك يحيطه الغموض، ويذهب «ألويس موسيل» إلى أن «ديدان» إما كانت هدفاً للسبئيين فى جنوب بلاد العرب فى العصور المبكرة، وإن ذهب «رنيث» إلى عدم وجود أدلة من النقوش توحى بالوجود السبئى فى ديدان، وإن أشار - بشئ من التردد - إلى وجود علاقة بين السبئيين والديدانين تعتمد على الأصول المشتركة بينهما، هذا وقد لفت «بار» الإلتباه إلى حقيقة أن بعض الملتقطات السطحية من الفخار، والتي جمعت من «ديدان» إنما من نفس الأسلوب الذى جاء من المواقع الأدمية فى جنوب الأردن، وترجع إلى القرن السابع، بل وحتى بداية القرن السادس قبل الميلاد، ومن ثم فهو يفترض وجود علاقة بين الشعبين - الديدانى والأدمى - بناء على الأصول المشتركة بينهما فى شمال الجزيرة العربية^(٤).

وتاريخ المدينة يبدأ بحكومة ملكية ديدانية وطنية، أعقبها حكم الملوك اللحيانيين، أثناء الفترة الفارسية أو الهلينستية، استمر حتى بداية القرن الثانى قبل الميلاد، ومع أن آراء الباحثين ليست إجماعية حول تفسير هذا التاريخ، فالتقوس والأدلة الأثرية التى جاءت من «ديدان» حتى الآن تدعم هذا الرأى، وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى امتداد منطقة النفوذ اللحيانى إلى ما بعد حدود ديدان، حتى أن «بلىنى» قد وصف خليج العقبة بالخليج اللحيانى^(٥).

(٣) عبد الرحمن الأنصارى - مجلة الدارة - العدد الأول - مارس ١٩٧٥ ص ٧٩.

(٤) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ٨.

A.Musil, op.cit, p. 294.

وكنا

F.V.Winnett and W.L.Reed, op.cit, p. 113.

P.J.Parr, Archaeological Sources for The Early History of The North West Arabia, I, 1979, Part, I, p. 42.

(٥) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ٨-٩.

A.Musil, The Northern Hejaz, New York, 1926, p. 305

وكنا

هذا وقد عثر «جوسين وسافينيالك» في عام ١٩٠٩م على بقايا تماثيل الأشخاص نحتت جيداً من الحجر في الخريبة (ديدان)، وأعمال نحتية أخرى كانت في أماكنها ونشرت، وفي البداية ربط «جوسين» و«سافينيالك» هذه التماثيل بمعبد لحياني نشر له رسماً تخطيطياً، كما نسباً كذلك إلى نفس المعبد، ذلك الحوض الكبير الذي يقف الآن وسط أنقاض الخريبة ويعرف باسم «محلبة الناقة» (قطره الداخلي ٣.٧٠م، وعمقه ١٢.٥م)، وقد نالت دراسة هذا المعبد اهتمام كثير من الباحثين^(٦).

هذا وقد عثر أيضاً على أربع قواعد لتماثيل، ثلاثة منها كانت في أماكنها الأصلية أو قريبة جداً منها، وقد أقيمت هذه القواعد لحمل التماثيل التي وجدت مقلوبة على الأرض، وقد نفذت هذه الأعمال النحتية في أساليب فنية مختلفة، نحت أحدها - بصفة خاصة - في دقة واتقان، وتؤرخ هذه الأعمال الفنية - فيما يرى «بار» - فيما بين القرنين الثالث والأول قبل الميلاد^(٧).

هذا ويؤرخ فخار العلاء (الخريبة) بالفترات الديدانية والليمانية، وقد أشار «بار» إلى عدم وجود أواني فخارية نبطية أو هلنستية متأخرة أو رومانية، الأمر الذي يشير - رغم استمرار العلاء كمناطق سكنية إلى فترة متأخرة - فإن العلاء (ديدان) سرعان ما تدهورت أهميتها، مع ظهور «الحجر» (مدائن صالح) كموقع رئيسي.

هذا وقد تركز عدد كبير من النقوش والمقابر المعينية عند نهاية الطرف الجنوبي للمنحدر الصخري، شرقي الخريبة، وحيث ينحني التكوين الصخري نحو الشرق، هذا وقد أثارت هذه النقوش والمقابر جدلاً في كل رأي حول التطور التاريخي لمدينة العلاء (ديدان)، فذهب فريق من الباحثين إلى أن الوجود المعيني القادم من الجنوب العربي يمثل سيطرة قام بها تجار من معين لمدينة العلاء، على أن وجهها آخر للنظر يذهب إلى أن الوجود المعيني في ديدان، لم يكن إلا جزءاً من شكل

(٦) أنظر:

P.J.Parr, G.L.Harding and J. E. Dayton, Preliminary Survey in N.W. Arabia, 1968, BIA, 8-9, 1970, p. 193- 242.

(٧) عبد الرحمن الأصمري وأحمد غزال وجفري كنج، المرحع السابق ص ١٠.

P.J.Parr, op.ciot, p. 42.

وكذا

عام للعلاقات التجارية بين البلدين، حيث كانت هناك مستوطنات معينة أخرى، استقرت في أماكن متعددة، ولم يكن لها سلفات سياسية قوية، وإنما كانت تجتمعاً للتجار المقيمين تحت رئاسة «كبير» (Kabir)، أو رئيس مسئول خارج الوطن العربي، مثل التجمع التجاري الذي قام في الجزيرة اليونانية (ديلوس)، وكان يتبع «تمنع» عاصمة قتيان^(٨).

وعلى أية حال، فمن اللافت للنظر في المقابر المعينية في العلا (ديدان) هو صور المخلوقات التي أخذت شكل الأسد، وهي منحوتة على واجهات المنحدرات الصخرية فوق المقابر المنحوتة في الصخر أيضاً، والمقابر التي لم تعلقها صور الأسود، ربما كانت هي معينية أيضاً، بحكم وجودها داخل هذه المجموعة من النقوش المعينية المتمركزة في هذه المنطقة الخاصة. ويذهب العلماء إلى أن هذه النحت الأسيدي، ليست إلا تقليداً لأسد الماء الذي وجده «جوسين وسافينياك» في الخريبة، والأسود المنحوتة في الصخر كانت شائعة في آسيا الصغرى وحوض الفرات الأعلى في الألف الأولى قبل الميلاد، ويبدو أن الأسد الذي وجد في الخريبة إنما كان مستورداً. أو نحت محلياً، ولكن بشكل أكثر دقة وفنية^(٩).

ولعل من الجدير بالإشارة أن العلا (ديدان) إنما ظلت - إلى أن أخذت الحجر مكانها - مدينة تجارية، عملت بتجارة الطيوب التي أنتجها ممالك جنوب بلاد العرب، ونقلتها عبر الصحراء بواسطة الجمال، إلى الشمال حيث يتزايد الطلب عليها، مما أعطى المدينة شخصية عالمية.

هذا وتشير الأدلة الأدبية المتاحة إلى أن القوة اللحيانية في العلا (ديدان) قد أتت إلى نهايتها حوالي نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، غير أن «ونيت» إنما يذهب إلى أن اللحيانيين إنما فقدوا سلطانهم منذ أيام «مسعود» - وقد سعى نفسه ملك لحيان، واستخدم الكتابة النبطية - ولكنه لا يراه ملكاً نبطياً وفي نفس الوقت يستبعد أن يستخدم ملك لحيانى كتابة أجنبية خاصة بالأنباط ثم يذهب

(٨) عبد الرحمن الأنصاري وأحمد غزال وجفري كنج: المرجع السابق ص ١٠ - ١٣.

وكذا Winnett and Reed, Ancient Records, 7, p. 117 - 118.

(٩) عبد الرحمن الأنصاري وأحمد غزال وجفري كنج: المرجع السابق ص ١٣.

إلى أن مسعوداً لم يكن سوى مجرد مغامر، تأثر بالثقافة النبطية وأن أحداث مسعود قد أنهت المملكة اللحيانية في القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد، وأن الأنباط مدوا نفوذهم تدريجياً إلى الجنوب على حساب أحداث مسعود.

على أن هارنر كاسل، إنما يذهب إلى أن مملكة لحيان بعد سقوطها على يد مسعود، إنما استطاعت - بعد فترة نبطية فاصلة امتدت من العام التاسع قبل الميلاد، وحتى عام ٣٥م - أن تنهض من جديد، وتستأنف حياتها مرة أخرى، الأمر الذي تعارضه جمهرة العلماء^(١٠).

(١٠) نفس المرجع السابق ص ٦٥ - ١٦.

W.Caskel, op.cit, p.40 - 43.

F.V.Winnett and W.L.Reed, op.cit, p. 130.

الفصل الثانى فى جنوب الجزيرة العربية (١) فى دولة معين

(١) قرناو :

كانت قرناو عاصمة دولة معين، وتقع على مرتفع حصين تحيط به الأسوار والأبراج، على مسبعة ٧ كيلا إلى الشرق من قرية «الحرم» - مركز الحكومة الحالية فى الجوف - وقد عرفت قرناو كذلك باسم «معين»، كما عرفها الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان باسم (Karna - Karana - Carna)، وهى عند الأخباريين «معين»، وهى واحدة من أبية «التبابعة»، وأنها حصن بنى فى نفس الوقت مع «براقش»، وبعد «سلحين»، وهو حصن بنى، فيما يزعمون، فى ثمانين عاماً.

وأما أهم آثار «قرناو» فمعبد «رصاص» الذى يقع خارج أسوار المدينة، فضلاً عن آثار سكنى فى مواضع متفرقة من المدينة، التى يرى البعض أنها ظلت مأهولة بالسكان حتى القرن الثانى عشر الميلادى، ثم بدأت الظروف تتغير، فأخذ سكان المدينة يتناقصون شيئاً فشيئاً حتى تحولت آخر الأمر إلى خراب.

(٢) براقش :

وهى المركز الدينى الهام فى دولة معين، وتسمى «بطليل» و «بائل»، وقد بقيت حتى أيام الهمداني (٢٨٠ - ٣٣٤هـ) فوصف آثارها وخرابها، وهى نفسها مدينة (Athiula - Athrula) آخر موضع وصلت إليه حملة القائد الرومانى «إليوس جالليوس» على اليمن، عام ٢٤ ق.م، وأما سبب التحريف فى اسمها، فهو - فيما يرى البعض - صموية لغوية أو بالأحرى لفظية، ولعل إسم المدينة «بائل» قد أصبح فى العربية الفصحى «وثلة»، فقد ذكرها «الفيروز أبادى» فى القاموس إسماً لقرية، وقال من ناحية أخرى «وذو وثلة قيل» يعنى أقبال اليمن.

وعلى أية حال، فمدينة «براقش» - عند الأخباريين - جند قديمة، كان يسكنها عد ظهور الإسلام «بنو الأوير من بلحارث بن كعب، ومراد»، وأما سبب

تسميتها «براقش» فموضع خلاف عندهم، فهناك رواية تذهب إلى أنها سميت كذلك نسبة إلى «كلبة» عرفت ببراقش، على أن رواية أخرى إنما تنسبها إلى امرأة تدعى «براقش» رعمرو أنها زوج لقمان بن عاد، على أن هناك رواية ثالثة تذهب إلى نسبتها إلى أميرة تدعى «براقش» أسند إليها والدها تصريف أمور الدولة أثناء غيابه في واحدة من غزواته، فما كان منها إلا أن أهتلت الفرصة، فبنت مدينتي براقش ومعين، تخليداً لذكراها، غير أن ذلك إنما أغضب والدها الملك، ومن ثم فقد أمر بهدم المدينة، وهكذا يحاول الإخباريون تفسير الأحداث ببساطة تدعو إلى العجب، غير أن الأمر الذي لاشك فيه أن المثل المشهور «على نفسها جنت براقش» إنما كان سبباً في هذه التفسيرات المتضاربة.

(٣) نشق :

وهي مدينة البيضاء، وقد استولى السبيون عليها أيام «يدع إل بين» في عصر مكاربة سبأ، ويذهب بعض الباحثين إلى أنها هي نفسها المدينة التي ذكرها الكتاب القدامى الأغارقة والرومان باسم (Mesca - Mescus)، وهي عند «سترابو» (Aska) التي استولى عليها «إليوس جالليوس» عام ٢٤ ق.م.

(٤) نشان :

تقع مدينة «نشان» (نشن) في مكان «الحربة السوداء» الحالية، وقد اكتشف هناك ما يشير إلى أن المدينة إنما كانت مركزاً صناعياً هاماً.

(٥) لوق :

يذهب «جلازر» إلى أن «لوق» إنما هي مدينة (Labecia) التي ذكرها «بلييني» (٣٢ - ٧٩ م) من بين الأماكن التي استولى عليها «إليوس جالليوس»، على أن «فون فيسمان» إنما يذهب إلى أنها «لبة» (Labbah) ^(١).

(١) انظر : محمد يوسى مهراڤ : تاريخ العرب القديم ص ٢٣١ - ٢٣٣ ، الهمداني : الإكليل ١٣٨/٨ ، ١٠٤ - ١٠٥ ، معجم باقرت ٣٦٤/١ ، ٢٣٥/٣ ، ١٦٠/٥ ، القاموس المحيط ٢٧٢/٢ ، البكري ٢٣٧/١ - ٢٣٨ ، وكذا :

(٢) في دولة حضرموت

(١) شبوه :

لا ريب في أن مدينة «شبوه» العاصمة، إنما هي أهم مدن حضرموت، وقد ذكرها الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان تحت إسم (Sabota, Sabotha) وهي عند «مونتجمري» (Sabtah)، وعند «هوجارث» (Sawa)، وقد ذكرها «الهمداني» من بين حصون حضرموت ومحافدها، وذهب «ياقوت» إلى أنها من حصون اليمن في جبل ريمة، وقال «ابن الحائك» : شبوه مدينة لحمير، وأحد جبلي الثلج بها، والثاني لأهل مأرب، هذا وقد خلط بعض المستشرقين بينها وبين «شيام» التي على مقربة من صنعاء.

هذا ويرجع السبق في اكتشاف آثار شبوه إلى «جون فليبي» والتي من أهمها المعابد والقصور؛ فضلاً عن بقايا السدود التي كانت مقامه على وادي شبوه لحصر مياه الأمطار، فضلاً عن الإفادة منها في إرواء المناطق الخصبة، وما يزال يشاهد في وادي «أنصاص»، وفي خرائب شبوه، بقايا سدود وقنوات للإفادة من المياه عند الحاجة إليها. على أن شبوه إنما كانت تشتهر كذلك بأنها أرض اللبان والمر، وقد كانا يصدران من ميناء «قنا».

(٢) ميفعة :

وكانت عاصمة «حضرموت» قبل شبوه، وهي نفسها مدينة (Mapharitis) التي أشار إليها صاحب كتاب «الطواف حول البحر الأثيري»، وهي عند «بظليموس الجغرافي» (Maiph - Metropolis).

-
- = - R. H. Sanger, The Arabian Peninsula, Cornell, 1954, P. 237.
 - H. Von Wissmann and M. Hofner, Beitrage Zur Historischen Geographie des Vorislamischen Sudarabien, Wiesbaden, 1953, P. 14 16, 32.
 - Le Museon, 1964, 3 - 4, P. 435 وكتابنا Handlbuch, I, P. 70, 82 - 83.
 - A. Grohman, Arabien, Munchen, 1963.

وهناك الكثير من النصوص التي تتحدث عن نسويز «ميفعة» بالحجارة
وبالصخر المقعد وبالخشب، فضلاً عن الأبراج التي أقيمت حول السور لصد
الغزاة، ومنها نص يشير إلى أن «هيل بن شجب» قد بنى سور المدينة وأبوابها، كما
أقام فيها بيوتاً ومعابد، وأن ولده «صدق يد» قد زاد في أسوارها وأحكم بناءها،
على أن الخراب سرعان ما حل بها في القرن الرابع الميلادي، ثم حل مكانها
موضع عرف باسم «عيزان» (Sessani Adrumetronum).

(٣) قنا :

كانت مدينة «قنا» هي ميناء حضرموت الرئيسي، حيث كان يجمع اللبان
والبخور، ثم يصدر منها برأ وبحراً، وأما موقع قنا فهو إلى الشرق من حضرموت،
وقد ذهب نفر من الباحثين إلى أنه في مكان «حصن الغراب الحالي»، وقد كان
يعرف قديماً باسم «عرمويت».

هذا وقد عثر «جيمس ولستد» في «حصن الغراب» عام ١٨٣٤م على نقش
(CIH, 728) جاء فيه أن «صيد أبرد بن مشن» كان مسئولاً عن «بدش» و «قنا»،
وأن ذلك قد كتب على «عرموية» (عрмаوية - حصن ماوية)، فأما قنا فهو لإسم
الميناء المشهور، وأما الحصن الباقي أثره حتى اليوم فهو «حصن ماوية»، وأما
«بدش» (باداش) فما زال معروفاً حتى اليوم بشئ من التحريف، حيث يعيش قوم
رعاة يعرفون باسم «مشايخ باداس»، ومن ثم فإن «حصن غراب» إنما هو
«عرمويت»، وهو حصن مدينة قنا.

(٤) مذاب :

اشتهرت مدينة «مذب» أو «مذاب» بمبعتها المكرس لعبادة إله القمر «سين»،
وتقع بقاياها اليوم في «الحريضة»، وقد قامت ثلاث رحلات أو ربيات (كاتون
طومسون، أ. جادرز، ف. شترك) في عام ١٩٣٧م برحلة إلى حضرموت، وهناك
في وادي عمد، مقابل الحريضة، كشف عن معبد إله القمر «سين»، كما
كشف عن بعض القبور والأواني الفخارية والخزفية التي ترجع إلى القرن السابع،

وربما القرن الخامس قبل الميلاد، هذا فضلاً عن العثور على عدد من الكتابات التي تبين أن بعضها كتابات سبئية.

على أن البعثة الأثرية لم تتوصل إلى تاريخ محدد لبناء معبد إله القمر «سين»، وإن كانت بعض واجهات المعبد إنما تعود إلى الفترة بين أواسط القرن الخامس، وحتى القرن الرابع قبل الميلاد، فضلاً عن أن بعض أجزاء المعبد إنما ترجع إلى العهد السلوقي، وأخيراً فإن هناك من يذهب إلى أن «مذاب» ومعبيها إنما يعودان إلى الفترة فيما بين القرن الخامس والثالث قبل الميلاد.

وهناك في حضرموت عدة أماكن قديمة (حضرمية وسبئية) ينسبها القوم إلى عاد وثمود، فمثلاً هناك قرية «سنا» التي يزعم القوم أن بها قبر «هود» عليه السلام، وهناك في «غيبون» خرائب يظنها القوم من آثار عاد، بينما يرى الأثاريون أنها بقايا مدينة حميرية، وهناك على مقربة من «تريم» خرائب قديمة، لعلها في أغلب الظن، من آثار معبد قديم، هذا فضلاً عن مواقع أثرية أخرى، مثل حصن «عر» و حدة الغصن والمكنون وثوبة وغيرها من الأماكن التي أقيمت عليها الحصون والحاميات العسكرية^(١).

(١) محمد يومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٤٢ - ٢٤٥، وكذا:

- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 86, 91, 108.
- C. Forster, The Historical Geography of Arabia, II, P.186.
- G. Caton Thompson, The Tombs nad Moon Temple of Hureidha, Oxford, 1944, P. 15F.
- W. Vincent, The Periplus of the Erythrean Sea, II, P. 301.
- D. G. Hogarth, The Penetration of Arabia, London, 1922, P. 149, 151, 221.
- Le Museon, 1947, 1 - 2, P. 71, 1961, 1 - 2, P. 194.
- Pliny, 6, 28, 32, Ptolemy, 6, 7, 38 وكذا J. B. Philby, Op. cit., P. 80F.
- J. A. Montgomery, Arabia and The Bible, Philadelphia, 1934, P. 42.

(٣) فى دولة قتيان

(١) تمنع :

لاريب فى أن «تمنع» (تمنا - تمنة) العاصمة إنما هى أهم مدن قتيان، وقد عرفها الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان باسم (Thumna-Thomna-Tomna) ويذهب «أولييرى» إلى أن المدينة التى جاءت فى جغرافية بطليموس تحت اسم (Thouma) إنما هى «تمنة»، وقد وصف «بلينى» مدينة (Thomna) بأنها من أكبر المدن فى بلاد العرب الجنوبية، وأن بها ٦٥ معبدًا، وأن المسافة بينها وبين مدينة «غزة» ٧٠٩٦ كيلا نقطها الإبل فى حوالى ٦٥ يوماً، وأن هذه المدينة ليست سوى «تمنة» عاصمة قتيان.

وتقع تمنه فى وادى بيجان فى منطقة تدل آثار الرى فيها، على أنها كانت خصبة كثيرة المياه والبساتين، وقد أثبتت أعمال الحفر التى قامت بها البعثة الأمريكية تحت رياسة «وندل فيلبس» أن موقع «تمنة» القديم إنما هو فى مكان خرائب كحلان (هجر كحلان الحالية)، وأن المدينة قد خربت بسبب حريق هائل، ربما أتى على المدينة كلها، وأن هذا الحريق ربما كان بأيدى السبعيين إبان الحروب التى أتسع أوارها بينهم وبين القتيانيين.

هذا وقد أثبتت الحفريات أيضاً أن «تمنة» قد جددت عدة مرات، وأن مقابرها كثيراً ما انتهكت حرمتها، سواء أكان ذلك فى الأيام الغابرة أو فى العصر الحديث، وأخيراً فقد كشفت الحفريات فى منطقة تمنع عن شبكة كاملة من السدود تتصل بها قنوات وصهاريج لتوفير مياه الرى لرقعة واسعة من البلاد.

(٢) حريب :

وقد ورد ذكر مدينة حريب عند الهمداني، كما اشتهرت المدينة بالنقود التى

ضربت فيها، وحملت اسمها، كما أنها كانت عاصمة دولة قتيان في آخريات أيامها (١).

(٤) في دولة سبأ وحمير

(١) صرواح :

كانت صرواح عاصمة سبأ في العصر الأول (عصر المكاربة ٨٠٠ - ٦٥٠ ق.م.)، ومقر الإله «المروقة»، وواحدة من أهم المدن السبئية لعدة قرون بعد ذلك، ونفع الآن في موضع «الخريبة» و«صرواح الخريبة» فيما بين صنعاء ومأرب، وقد تردد ذكرها في أشعار العرب، ويصفها الهمداني بأنها لا يقارن بها شيء من المحافد المختلفة، كما جمع الكثير من الشعر الجاهلي والإسلامي الذي ورد فيه اسمها، وفي هذا كله دلالة على أهمية تلك المدينة القديمة، وعلى تأثيرها في نفوس القوم هناك، تأثيراً لم يستطع الزمن أن يمحوه بالرغم من أقول نجمها قبل الإسلام.

ويذهب الأخباريون إلى أن صرواح حصن باليمن، وأن الجن قد بنته للملكة «بلقيس» ملكة سبأ، بناء على أمر من سيدنا سليمان عليه السلام، ولاريب في أن هذا نوع من الأساطير التي لعب الخيال فيها دوراً كبيراً، فضلاً عن جهل فاضح بالتاريخ، إلى جانب أثر الإسرائيليات في إرجاع أي أثر لا يعرفون صاحبه إلى سليمان وإلى جن سليمان.

(١) جواد علي: المرجع السابق ٢٢٢/٢ - ٢٢١، محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ص ٢٥٩ - ٢٦١، وكذا:

- De Lacy D. D. O'Leary, Arabia before Muhammad, London, 1927, P. 97.
- W. Phillips, Qataban and Sheba, P. 58, 64, 119, 166.
- Pliny, 2, P. 453, 6, P. 32, Ptolemy, VI, 7, 37.
- C. F. Hill, Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia nad Persid, P. IXXIV, 75, Pl. XI, 21.

هذا وتوجد المناطق الأثرية فى صرّواح فى ثلاثة مناطق متقاربة، واحدة منها هى منطقة البناء (مكان السد القديم)، والثانية هى منطقة القصر - وهى قرية حديثة البناء استخدم القوم فى تشييد بعض منازلها، أحجاراً من المعابد القديمة، وأما الثالثة، فهى منطقة «الخزية» ذات الآثار الهامة.

على أن أهم آثار صرّواح إنما هو المعبد الكبير - معبد الموقاة، إله القمر - والذى استدارت إحدى ناحيتيه، فجعلت منه بناء نصف يضى الشكل، ولا يمكن معرفة التصميم الأصلي للبناء الذى يبلغ ارتفاع جدرانها أكثر من عشرة أمتار، إلا بعد عمل الحفائر حوله وتنظيف داخله، لأنه قد استخدم خلال قرون طويلة كحصن فى العصور الوسطى، وفتحوا فيه بعض المداخل، كما سدوا بعض أبوابه القديمة، واستخدموا كثيراً من الأحجار الكبيرة فى تلك الترميمات.

هذا وقد زار أستاذنا الدكتور أحمد فخرى - يرحمه الله - أنقاض معبد الموقاة، وصوّر عدداً كبيراً من النقوش التى ترجم بعضها الأستاذ «ريكامانز»، وعلى أية حال، فهناك إلى جانب معبد الموقاة، توجد عدة مبانٍ أخرى، نقشت بعض أعمدتها بالكتابات، مثل دار بلقيس، ومعبد يفعان، الذى نال حظوة كبيرة لدى المكارية^(١).

(٢) - مأرب:

كانت «مأرب» عاصمة سبأ فى العصر الثانى (عصر ملوك سبأ ٦٥٠ - ١١٥ ق.م.)، وهى نفس المدينة التى جاءت فى الآداب اليونانية والرومانية تحت اسم «مريابا» (Mariaba). ويرى بعض الباحثين أن كلمة «مأرب» مأخوذة من «يارب»

(١) الهسلى: صفة جزيرة العرب - القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٣١، ٢٤٢، ٣٦٥، الإكليل ٤٥/٨

٧٥، ٢٢/١٠، ٢٤، ٢٦، ٣٩، ١١٠، أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم

ص ١٥٩ - ١٦٢، محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم ص ٢٨٥ - ٢٨٦، ياقوت

٤٠٢/٥، ديتلف نلسن: التاريخ العربى القديم ص ٢١ - ٢٢.

- G. Ryckmans, The Publication of The Inscriptions, III, Cairo, 1951.

و «يرب» اللتين وردتا في التوراة، أو أنها كلمة آرامية الأصل مركبة من كلمتين ماء و «راب» أى الماء الكثير أو النيل الكبير. هذا وقد توهم «ياقوت الحموى» - وتابعه كثيرون - أن سأها مأرب، على أن الصحيح غير ذلك، فسبأ إسم البلاد والأمة، ولم تكن مدينة أبداً، كما توهموا أنها اسم لقصر كان للأزد باليمن، أو أنها إسم لكل ملك كان يلي سبأ، كما أن «تبعا» إسم لكل من ولى اليمن والشحر وحضرموت.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن الإهتمام بمأرب وآثارها إنما بدأ منذ القرن الماضى، ففي ١٢ يوليو ١٨٤٣م، تمكن الصيدلى الفرنسى «جوزيف توما أرنو» من السفر من صنعاء إلى مأرب، فزار خرائب صرواح، وفحص بقايا أسوار فى مأرب، فضلاً عن معبد الموقاة الذى تقوم آثاره خارج مأرب ويطلق عليه القوم هناك اسم «محرم بلقيس»، كما نقل ٦٥ نقشاً سبئياً من هناك، وقد قام «فرزنا» القنصل الفرنسى فى جدة بنشرها عام ١٨٤٥م.

وفيما بين عامى ١٨٨٧، ١٨٨٨م، قام «إدوارد جلازر» برحلته الثالثة إلى اليمن، زار فيها مأرب ورسم تخطيطاً لآثار القنوت والسدود القديمة هناك، كما قدم وصفاً لآثار المناطق التى زارها.

وفى عام ١٩٤٧م قام أستاذنا الدكتور أحمد فخرى برحلته إلى اليمن، حيث زار مناطق صرواح ومأرب وماحولهما، وقد جمع حوالى ١٢٠ نقشاً جديداً، كما أخذ مجموعة صور «فوتوغرافية» عن سد مأرب والمعابد المختلفة، وقد نشر نتائج رحلته هذه فى بضع مقالات، وفى كتاب صدر عام ١٩٥٢م فى ثلاثة أجزاء باللغة الإنجليزية، ثم قام برحلته الثانية عام ١٩٤٨م، والثالثة عام ١٩٥٩م، وفيهما زار مأرب ونقل نقوشاً جديد- كما زار منطقة المساجد، حيث يوجد معبد كبير شيده «يدع إيل ذريح» الذى شيده كذلك معبد فى صرواح، وآخر فى مأرب، ثم توالى الاكتشافات بعد ذلك، ومايزال العلماء يحشون ويتقبون عن آثار اليمن العظيمة.

هذا وتقع مأرب على مبعده ١٠٠ كيلاً إلى الشرق من العاصمة الحالية

«صنعاء»، وعلى ارتفاع ٣٩٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتقوم بلدة مأرب الحالية فوق جزء مرتفع من كوم أقرى كبير، هو خرائب المدينة ذات الشهرة الذائعة الصيت فى التاريخ، وقد قدم لنا «أرنو» تخطيطاً للمدينة القديمة، وذكر أنها مستديرة، وبها ثمانية أبواب، غير أن وصف «أرنو» إنما يحتاج إلى تعديل، فالمدينة مستطيلة - وليست دائرية - وأركانها مستديرة، وربما لم يكن فى أسوارها إلا أربعة أبواب فقط، بوابة فى وسط كل سور.

على أن هناك من يرى أن مأرب - شأنها فى ذلك شأن صرواح - إنما كانت فى الأصل مدينة ذات بابين فقط، ويدور أن هناك أماكن كثيرة مكسورة فى الجدران، اعتبرها «أرنو» أبواباً، وسماها بالأسماء التى كان يطلقها عليها الأهالى فى أيامه، أما الباب الرئيسى فى المدينة فكان فى السور الغربى، وهو الذى يسمى الآن باب المدينة، يمازالت بقاياها موجودة، وعلى كل من جانبه آثار برج من الحجر، وفى السور البحرى باب آخر، وهو الذى يستخدمه أهالى مأرب عند الخروج لدفن موتاهم، فى الجبانة الواقعة فى الناحية البحرية من الخرائب، ولهذا أسموه باسمها، أى باب الجنة.

ومدينة مأرب - شأنها فى ذلك شأن أغلب المدن الكبرى فى اليمن القديم - مدينة مسورة بسور قوى حصين له أبراج، تمكن القوم من الدفاع عن مدينتهم، وأن السور - طبقاً لما جاء فى النقوش - قد بنى من حجر البلق، وهو حجر صلد قد من الصخر، فوقه صحخور من جرانيت، ومن أسف أننا لانعرف حتى الآن من النقوش التى تم الكشف عنها فى مدينة مأرب، اسم الملك الذى أسسها وربما كانت بعض أجزاء السور الحالى من السور القديم الذى بناه مكاربة سبأ القدامى، ونعرف من نقوش كثيرة أن واحداً منهم (ابن سمه على بنوف) قد بنى حائطاً حول مأرب، كما نعرف من نقوشى (جلازر ٤١٨، ٤١٩) أن «كرب إيل وتار» (من القرن السابع قبل الميلاد) قد أضاف بعض الأجزاء إلى سور مأرب، كما بنى بوابتين وبعض الأبراج

عذا ويذهب الأخباريون إلى أن مؤسس مأرب إنما هو «سبأ بن يشجب بن يسرب بن قحطان»، ويرى الهمدانى فى الإكليل أنه كان بمأرب ثلاثة قصور

(سلحين والهجر والقشيب)، وأهم تلك القصور هو قصر «سلحين» الذي تردد ذكره كثيراً في كتب الأدب العربي، على أنه قصر الملكة بلقيس، وكثيراً ما أشاروا إلى أعمدته القائمة وقالوا إنها تحمل العرش، وأن قواعدها تحت الأرض مثل ارتفاعها فوقها، وهي ٢٩ ذراعاً، وأما خارج بلاد العرب، فقد جاء اسم قصر سلحين في ألقاب السيادة التي اتخذها ملوك أكسوم في نقوشهم، ومنها لقب الملك «عيزانا» الذي اعتلى العرش حوالي عام ٣٢٥ م.

ورغم أن هناك من يذهب إلى أن قصر سلحين إنما كان في الخراب الواسعة في غربي المدينة، فمن الصعب علينا - اعتماداً على أقوال الشعراء ومبالغاتهم الكتاب العرب - تحديد هذا القصر الذي يسميه الكتاب العرب «قصر بلقيس»، وذلك لأن اليمنيين إنما اعتادوا أن يطلقوا اسم «بلقيس» على كثير من المعابد في «صرواح»، كما اعتادوا كذلك أن يطلقوا اسم «بلقيس» على معبد يعد عن خرائب مأرب، بل إن اسم بلقيس إنما كان يطلق أيضاً على آثار أخرى بعيدة عن منطقة أرض سبأ، مثل ماجاء في «معجم ياقوت» من أن عرش بلقيس اسم لمكان على مسيرة يوم من «ذمار»، حيث تقوم فيه ستة أعمدة من الرخام، ومن المرجح أنه يشير هنا إلى أحد المعابد التي كانت في مدينة ظفار، عاصمة الحميريين.

وهناك على مبعدة ٤ كيلاً جنوب شرق مأرب، تقع خرائب معبد الإله الموقاة (المقة) رب أوام، والمعروف هناك بحرم أو محرم بلقيس، ويرى بعض الباحثين أن هذا المعبد - مثله في ذلك مثل معبد الموقاة في صرواح، ومعبد المساجد في بلاد مراد (على مبعدة ١٧ كيلاً من مأرب) - إنما قد تم بناؤه في القرن الثامن قبل الميلاد.

وعلى أية حال، فطبقاً لأقدم نقوش الجدار للمعبد، فإن «يدع إيل ذريح» بن «سمة على»، ثاني مكاربة سبأ، هو الذي بنى سور هذا المعبد المسمى «معبد أوام»، وأنه قد كرسه لإله القمر الموقاة، هذا ويسجل نقش آخر في الناحية الغربية من السور أن «إيل شريح» بن «سمة على ذريح» ملك سبأ (حكّم حوالي عام ٧٥٠

ق.م) و «يشع أمر بين» بن «يكرب ملك وقار» (حكيم حوالى عام ٥٢٠ ق.م)، قد
أتما بناء المعبد، هذا وهناك نقوش أخرى من عصور أحدث للملك قاموا بأعمال
خاصة فى ذلك المعبد.

على أن النقوش التى كشفت عنها البعثة الأمريكية فى عام ١٩٥٢م، على
مقربة من باب المعبد، إنما ترجع إلى عصور متأخرة، وبعضها يرجع إلى القرنين
الثالث والرابع بعد الميلاد، أى أن معبد الإله الموقاة، رب أوام هذا، إنما ظل يؤدى
وظيفته فى عبادة الموقاة فى مأرب قرابة ألف عام.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه، أن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن بقايا
المعابد التى عثر عليها فى روديسيا وأوغندة فى أفريقيا، إنما هى من المعابد المتأثرة
بطرز معبد أوام (محرم بلقيس)، فإن بين هذه المعابد جميعاً شبيهاً كبيراً فى طراز
البناء، وفى المساحة، وفى الأبعاد كذلك.

وهناك على مسبعة ١٤٠٠ متراً، إلى الشمال الغربى من محرم بلقيس، وفى
المنطقة المعروفة باسم «العماييد»، نرى خمسة أعمدة قائمة، ارتفاع الواحد منها
خمس أمتار عن سطح الأرض، ومقاييس كل منها ٨٢ × ٦٣ سم، وقد أحاطت
بها الخرائب من كل جانب، وطبقاً لما جاء فى حجر مكتوب رآه «أرنو» فى عام
١٨٤٣م، نعرف أن اسم معبد العماييد هو «باران» وأنه طبقاً لما جاء فى نقش
(جلازير ٤٧٩)، فإن المعبد قد شيد للإله «الموقاة» وإن كانت الأعمدة الباقية -
وكذا ما حولها من نقوش - لاتساعدنا على معرفة اسم الملك الذى قام ببناء
المعبد، أو حتى تحديد عصره بوجه عام، وليس أمامنا سوى الانتظار حتى تجرى
حفرات جديدة، قد تعرف منها ما هو فى ضمير الغيب الآن.

ولعل من الأهمية بمكان أن نتحدث الآن عن أهم آثار مأرب - من الناحية
الاقتصادية - وأعنى به «سد مأرب» المشهور^(١).

(١) أحمد فعري : المرجع السابق، ص ١٤٦ - ١٧٥، محمد بيومى مهراڤ : تاريخ العرب القديم
ص ٢٩٦ - ٣٠٠، جواد على ٤٣/٨ - ٤٤، ياقوت ١٨١/٣، ١٠٠/٤، ١٩١، ٣٤/٥،
٣٨، سعد زغلول عبد الحميد : فى تاريخ العرب قبل الإسلام - بيروت ١٩٧٥م ص ٣٨٢ -
٣٨٣، الإكليل ٤٥/٨، صفة جزيرة العرب ص ٣٢ وما بعدها.

(٣) سد مأرب :

كان خصب أرض سبأ مضرب الأمثال عند العرب، وكان أهلها ينعمون بخيرات واديهم، وبما ندره التجارة التي كانوا يسيطرون عليها من أموال، وكان هناك على مقربة من مدينة مأرب فتحة لتنظيم تصريف المياه التي كانت تسيل في القناة اليمنى - إحدى القناتين اللتين كانتا تخرجان من سد مأرب - وما زالت بقايا جدرانها المشيدة بالحجر، ترى حتى الآن في الجهة الجنوبية من المدينة، وهي الباب الرئيسي في السور الذي كان يواحه معبد أوام (محرم بلقيس)، وطبقاً لنقش على الجدار الشمالي لذلك الأثر، فإن المكرب «ذمار على وثار» (من القرن السابع قبل الميلاد) هو الذي بنى هذه الفتحة أمام هيكل الإله «عشر». غير أن ولده «سمة على ينوف» هو الذي ينسب إليه أنه صاحب ومنفذ أكبر مشروع للرى عرفه بلاد العرب، وذلك على الرغم من أن أهل مأرب كانوا ذوى خبرة بشئون الرى، إلا أن سدودهم إنما كانت بدائية، حتى جاء «سمة على ينوف» وأحدث تطوراً خطيراً في وسائل الرى، وذلك حين شيد «سد رجب» للسيطرة على مياه الأمطار، والإفادة من السيول، وهكذا بدأ المشروع العظيم، والذي عرف في التاريخ باسم «سد مأرب»، ثم نما على مر الأيام، حتى اكتمل في نهاية القرن الثالث الميلادى على أيام «شمر بهر عش»، فنظم وسائل الرى، وأضاف مساحات كثيرة إلى الأرض الصالحة للإنتاج، وهكذا يعتبر عهد «سمة على ينوف» من أهم العهود بالنسبة إلى سد مأرب، بل إن أقدم ما لدينا من وثائق عن سد مأرب إنما ترجع إلى عهد هذا المكرب، والتي ترجع إلى حوالى عام ٧٥٠ ق.م، وربما عام ٧٠٠ ق.م. على

- = - A. Fakhry, An Archaeological Journey to Yemen, 3 Vols, Cairo, 1952.
- H. Von. Wissman and M. Hofner, Op. cit., P. 27 - 28.
- R. L. Bowen and W. F. Albright Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore, 1958, P. 215 F.
- P. K. Hitti, Op. cit., P. 54 و كذا W. Phillips, Op. cit., P. 256F.
- Ency. of Islam, III, P. 282 و كذا Pliny, II, P. 467.

أن هناك ما يشير إلى أن ملوك آخرين قد أضافوا أجزاء أخرى إلى السد، فضلاً عن تقوية أجزائه القديمة، ومن أهمهم «كرب إيل بين بن يشع أمر» و «ذمار على ذريح» و «يدع إيل ونار»، وقبل هؤلاء جميعاً «يشع أمر بين» الذي سار على سنة أبيه «سمه على ينوف» فى الاهتمام بتحسين وسائل الري فى البلاد، فعمل على إدخال بعض التحسينات على «سد رحب»، وإنشاء فررع له، منها فتح فجوة فى منطقة صخرية، حتى تصل المياه إلى أرض «يسرن»، هذا إلى جانب تلبية سد رحب وتقويته، هذا فضلاً عن إقامة «سد هباز»، وهو أكبر من سد رحب، كما أقام سده الجبار المعروف باسم «سد حبايض» الذى مكن كثيراً من الأرضين من الإفادة بأكثر كمية من المياه التى كانت من قبل عبثاً، فلا تفيد زرعاً أو ضرعاً.

ولعل هذا كله هو الذى دفع بعض الباحثين إلى اعتبار «سمه بن ينوف» وولده «يشع أمر بين»، المؤسسين الأصليين لسد مأرب، والذى يعتبر أكمل عمل هندسى عرفته شبه الجزيرة العربية فى تاريخها القديم.

هذا وكان القوم يهدفون من وراء إقامة سد مأرب هذا إلى تحقيق أمرين، الواحد : السيطرة على مياه السيول المتدفقة، فلا تخرب ما يعترضها، إذا ما جاءت فجأة، وبكثرة غير عادية، والآخر : تخزين تلك المياه ورفع مستواها أمام السد، وعدم صرف شئ منها، إلا بالمقدار اللازم، وبذلك يضمّنون وى وادى مأرب، الذى يرتفع عن مستوى المياه السائلة بخمسة أمتار، فضلاً عن توفير كميات المياه اللازمة للرى، حتى يحين موعد مجى سيول أخرى من المناطق الممطرة فى شرق اليمن، ذلك لأن منطقة مأرب إنما هى من المناطق الجافة قليلة الأمطار، ولا يزرع أهلها اليوم - أى بعد تخريب السد - غير مساحات ضئيلة، على مقربة من مجرى المياه فى وادى ذنة، وتضيق أكثر مياه السيول هباءً فى الوقت الحاضر، ولا يمكن استخدامها فى زراعة أراضي الوادى المرتفعة.

وعلى أية حال، ففكرة السد تتلخص فى أن مياه السيول القادمة من شرق اليمن كانت تتجمع فى شبه بحيرة كبيرة مستديرة ومرتفعة من جهة الغرب والشمال والجنوب، ومنخفضة من جهة الشرق، حيث تسير جميعها شرقاً فى

مجرى سيل واحد يطلق عليه اسم أكبرها (ذنة) وتدخل جميعها في واد كبير في جبل «بلق» فنقسمه إلى قسمين - بلق الأيسر، وبلق الأيمن - بينهما فتحة تدعى «الضبيقة»، اختيرت لتشبيد السد، ومن ثم فقد بنوا جداراً قوياً يعترض الوادى ويوقف مياه السيل المتدفقة، وجعلوا في الناحيتين فتحتين، إحداهما إلى أقصى اليمين، ثم استغلوا الجبل المرتفع في هذا الغرض، فلم يبنوا إلا جداراً ضخماً واحداً ليكون صدغاً ثانياً للبوابة، وأما البوابة التي في الناحية اليسرى (الجهة الجنوبية) فهي أكبر وأعظم، وتنقسم إلى قسمين، وبنوا لها جدارين كبيرين يسيان بمسافة غير قليلة، ثم ينتهيان بحوض كبير مبنى بالحجر، نرى في واجهاته المختلفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لرى ناحية من نواحي الوادى الفسيح.

ويطلق الأهالى على البوابة اليمنى «مربط الدم» وكانت تروى الناحية اليمنى التى مازلت بقايا كثيرة من قراها ظاهرة حتى اليوم، وكلها على يمين وادى زنة، ويبدو أن صخرة الجبل تكون إحدى جانبي هذه الفتحة، أما الناحية الأخرى فمشيدة من الحجر، وربما كانت في صدغى تلك الفتحة المكان الذى كانوا يزلقون فيه كتل الأخشاب لتصريف الكميات اللازمة من المياه، وتسير بعد ذلك فى قناة عادية، ويبدو أنه كان هناك بروزاً مثلاً فى ذلك الجدار الحجرى، وقد كان ذلك البروز داخلاً فى جدار السد الكبير، وهو الجدار الذى تهدم وسبب ذلك الخراب.

وأما البوابة اليسرى فكان لها عينان، ووراءها قناة مبنية الجوانب، طولها أكثر من كيلومتر، تنتهى بحوض كبير تتفرع منه عدة قنوات، كما يبدو أنهم سدوا الناحية الجنوبية بجدار يرتكز على صخرة الجبل، ثم جعلوا فى مكان مرتفع من الجدار أربع فتحات، وذلك لتصريف الكميات الزائدة من المياه، حتى لا يرتفع منسوب المياه أمام السد إلى حد قد يؤثر على الفتحات أو يتعارض مع النظام المقرر لها، وتخرج تلك المياه الزائدة إلى الخارج وتنزل إلى باطن الوادى، ثم رأوا فى وقت ما أنه لا حاجة للعينين فسدوا واحدة منها، واكتفوا بالأخرى.

وكان يخرج من الحوض المبنى بالحجر في آخر القناة الكبرى قنوات متعددة، تبلغ فتحات بعضها حوالي ثلاثة أمتار، وكلها مبنية بالحجر، وكانت مثل البوابتين الكبيرتين تغلق بوضع كتل من الخشب تنزلق في فتحتين في جاسي كل بوابة.

هذا وتدل دراسة المباني التي مازالت قائمة عند البوابتين على أنه قد استخدمت في بناء السد والحواجز حجارة اقتطعت من الصخور وعولجت بمهارة وحذق حتى توضع بعضها فوق بعض، وتثبت وتماسك وكأنها قطعة صلبة واحدة، وقد وجد أن بعض الأحجار قد ربطت بعضها ببعض بقطع من قضبان أسطوانية من المعدن المكون من الرصاص والنحاس ليكون البناء قوياً، وليكون في إمكانه الوقوف أمام ضغط الماء وخطر وقوع الزلازل، أما المادة التي استعملت لربط الأحجار ببعضها فهي من الجبس الممتاز، وقد تصلب هذا الجبس الذي طليت به واجهات السد كذلك، حتى صار كأصلب أنواع الأسمنت.

هذا وقد تعرض السد عدة مرات للتصدع إبان الفترة فيما بين بنائه في حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وبين آخر مرة أصلح فيها السد في عام ٥٤٣ م، أي خلال مايقرب من ١٢٠٠ سنة، وربما أكثر من ذلك، على رأى من يرون أن السد ظل يؤدي واجبه حتى عام ٥٧٥ م^(١).

-
- (١) أحمد فخوى : المرجع السابق ص ١٧٠ - ١٨٧، محمد يرمى مهران : الحضارة العربية القديمة من ٢٤٨ - ٢٦٤، دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الأول ص ٢١١ - ٢٥٢، جواد علي ٢٨٠/٢ - ٢٨٢، ٢١٠/٧ - ٢١١، ٢٨٣/٣ - ٤٩١،
- Le Museon, 1953, 66, P. 340 1964, 3 - 4, P. 490 - 94 J. B. Philby, Op. cit., P. 118 F.
- A. James, Sabaeen Inscriptions from Mabram Bilqis, 1961, P. 176, 300, 390 F.
- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 38, 113 F.
- A. Grohmann , Op. cit., P. 23 - 28 ، BASOR, 137, 1955, P. 38.
- Ency. of Islam, III, P. 290 ، Handbuch, I, P. 93, 106.

نق (رجمة) : (نجران؟) :

كانت رجمت (رجمة) مقر إمارة «مهامر» التي انتحل أمراؤها لقب «ملك» ، ربما جاءت أهميتها لوقوعها على طريق القوافل التي تصل معين والعريفة الجنوبية من ناحية، ومصر من ناحية أخرى، ويذهب بعض الباحثين إلى أن «رجمت» تقع الآن في أرض نجران، أو في مجاوراتها من ناحية الشمال، وربما كانت واحدة من مدن الشمال، وأن نجران نفسها لم تكن في الأصل مدينة معينة، وإنما هي أرض تضم عدة مدن، ومنها رجمت التي تحول اسمها بمرور الزمن إلى «نجران»، وأن هناك الكثير من الأمثلة على ذلك في العربية الجنوبية.

هذا ويذهب «موردنمان» إلى أن رجمت ربما كانت «رعمة» في التوراة، وهو الابن الرابع لكوش، ثم يذهب بعد ذلك إلى أن المراد «بكوش» هنا، العربية الجنوبية، وأن من أولاد كوش : سبأ وديدان، وأن نجران رعمة قد ذكروا في سفر حزقيال، ويدهى أن «موردنمان» لم يفعل سوى أن ردد ماجاء في توراة يهود، من ادعاء كذوب، يسلب أغلب العرب ساميتهم، فالعربية الجنوبية وبابل وأشور وكنعان وبيوس ومصر وغيرها من الشعوب العربية، إنما هم جميعاً - في نظر توراة يهود - حاميون.

وعلى أية حال، فلقد جاء ذكر نجران في نقش النمارة (شرقي جبل الدرود في سورية)، والمؤرخ في ٧ ديسمبر عام ٣٢٨ م، ويمثل أقدم كتابة باللغة العربية، ويخط نبطي، وقد جاء فيه «وجا بزجي في حبيج نجران مدينة شمرة أي «وجاء بنجاح إلى حصار نجران عاصمة شمرة» (شمرة بهرعش).

وفي نجران حدثت قصة أصحاب الأخدود التي جاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة البروج، وقد زارها «جون فليبي»، وعشر هناك على خرائب أثرية قديمة في بلدة «رجمت» ذهب إلى أنها هي آثار الأخدود الذي احتفروه ذو نواس.

وعلى أية حال، فلقد أصبحت نجران على أيام الاحتلال الحبشي لليمن

مركزاً رئيسياً لنشر المسيحية واستمرت كذلك حتى ظهور الإسلام، وقد حدثتنا كتب السيرة النبوية الشريفة عن وفد نصارى نجران في عام الوفود (١).

(٥) ظفار :

كانت ظفار عاصمة الحميريين، وقد دعت في التوراة «سفار»، وعند الأغارقة والرومان «سيفار» و «سفار» (Saphar)، وهي مدينة داخلية، تقع على مسبعة ١٦٠ كيلاً إلى الشمال الشرقي من «الحاء»، وقد احتلت على أيام الحميريين مكانة مأرب، عاصمة سبأ، و «قرنار» عاصمة معين، وما تزال آثارها ماثلة للعيان على قمة تل مستدير بجوار بلدة «يرم» الحديثة. وكان «نيبور» أول من أشار إلى آثار هذه البلدة القديمة عن طريق نقوش قديمة، عثر عليها عندما أمّ اليمن، لأول مرة، في عام ١٧٦٣م، ثم كتب عنها في عام ١٧٧٢م (٢).

(٦) صنعاء :

لا نعرف على وجه اليقين من هو مؤسس مدينة صنعاء، ولا تاريخ تأسيسها، وإن كان اسمها قد بدأ يتردد في النصوص منذ أيام «الشرح يحصب» و «شمر ذى ريدان»، كما يشير إلى ذلك نقشي (جام ٥٧٧) و (ريكمانز ٥٣٥)، وقد ذكرت تحت اسم «صنعوه» (صنعاء).

هذا وتشير الكتابة (CIH 429) إلى أن قصر غندان (عمدان) - بجانب قصر

(١) محمد يتيوي مهتران: تاريخ العرب القديم ص ٣٢٣ - ٣٢٤، ٢٢٤ - ٢٢٤٩، ٣٥٠ - دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢٥٥/١ - ٣٦٦، تكوين ٦/١٠ - ٢٠، جزئيات ٢٢/٢٧، جواد على ٥٠٧/٢ - ٥٠٩، حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ص ١٦٥ - ١٦٦، قاموس الكتاب المقدس ٤٠٦/١، وكنا :

- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 9 - 11.

- J. B. Philby, Arabian Highland, N. J., 1952, P. 237 F, 257.

(٢) تكوين ٣٠/١٠،

- Pliny, VI, P. 104 وكنا، EI, II, P. 310, III, P. 292.

- Le Museon, 1964, 3 - 4, P. 429, 438 وكنا، ZDMG, 31, 1877, P. 69.

- Carsten Niebuhr, Description de L'Arabie, Copenagen, 1773.

مدنيين - إنما كانوا تمصيرين للملوك، ولعل في هذا إشارة إلى أن الشرح بحسب إنما كان أقيم في كلا القصرين (أى في صنعاء ومأرب)، كما يشير إلى أن الهمداني وابن الكلبي، ربما كانا على صواب فيما ذهبوا إليه من أن الشرح بحسب هو الذى بنى قصر غمدان، وأن «شعر أوتر» هو الذى بنى سور صنعاء، وإن كانت هناك رواية إلى أنه من بناء سليمان، عليه السلام، وعلى أية حال، فكأننا نبال على أن قصر غمدان من القصور المسيحية القديمة: وأن صنعاء مأرب تطاير بين مدن اليمن منذ تلك الفترة، وأن مكائنها قد زادت على مر الأيام، حتى سارت خاصة اليمن، ومقر الحكام حتى الآن.

ويدهى أن هذا لا يتفق وروايات المؤرخين من أنها كانت تدعى «أزال»، وأن «وهز» القائد الفارسي، هو الذى أطلق عليها اسم «صنعاء»، حين قال إبان دخولها (حوالى عام ٥٧٥م) «صنعة صنعة»، يريد أن الحبشة قد أحكمت صنعها، أو أن التسمية إنما كانت نسبة إلى بانيتها «صنعاء بن أزال بن عبير بن عابر بن شالح» على رواية، و«غمدان بن سام بن نوح»، على رواية أخرى، فكانت تعرف نارة «بأزال»، ونارة «بصنعاء»، بل إن بعض الأخباريين لم يقف عند هذا الحد، فزعم أنها واحدة من مدن النار الأربع (أنطاكية والبطانة وقسطنطينية وصنعاء)، فى مقابل مدن الجنة الأربع (مكة والمدينة وإيليا ودمشق).

هذا، وعلى أيام الاحتلال الحبشى لليمن (٥٢٥ - ٥٧٥م) بدأ أبرهة الحبشى فى إنشاء الكنائس فى أنحاء مختلفة من اليمن، لعل أهمها: مأرب ونجران وصنعاء، وفى صنعاء بالذات بنى كنيسة المشهورة «القليس» بغية أن يصرف الحجيج من مكة إلى صنعاء، فيكسب من ذلك فوائد مادية وسياسية وأدبية، وبالتالي فقد كان ذلك سبباً فى حملته المشهورة على مكة المكرمة فى العام المعروف بعام الفيل.

ورغم مبالغة الأخباريين فى وصف كنيسة القليس (وهى محرفة عن كلمة أكليسيا بمعنى كنيسة) وأنه كتب إلى النجاشى يقول له «إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنتته حتى أصرف إليها حج العرب»، فالذى لاشك أن القليس إنما كانت كنيسة كبيرة ضخمة، وأن العصر

نفسه كان عصر بناء الكنائس الضخمة، ومثال ذلك : كنيسة أيا صوفيا في القسطنطينية، وكنيسة المهد في بيت لحم.

وتذهب الروايات العربية إلى أن «القليس» إنما بنيت بجوار قصر غمدان، وبحجارة من قصر بلقيس، وأن أبرهة قد استعمل في بنائها السخرة، فضلاً عن القسوة الشديدة التي كانت تصل إلى حد قطع يد العامل، إن نهارون أو تكاسل في عمله، وهكذا استذل أبرهة أهل اليمن في بناء كنيسته هذه وجشمهم فيها أقسى أنواع السخرة، حتى أنهم كانوا ينقلون أدوات البناء، كالرخام والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس، وكان من موضع هذه الكنيسة على فرامخ.

وعندما تحررت اليمن من الحكم الحبشي على يد «سيف بن ذي يزن» (معديكرب بن أبي مرة) ظلت صنعاء عاصمة لليمن، ولكنها سرعان ما وقعت تحت نير الحكم الفارسي - بعد مقتل سيف بن ذي يزن - وإن كان الفرس في أغلب الأمر، إنما كان نفوذهم مقصوراً على العاصمة صنعاء ومجاراتها، وظل الأمر كذلك حتى دخل الوالي الفارسي «بازان» في الإسلام، في عام ٦٢٨م (٦ هـ)، فاعتنقت صنعاء، ثم بقية أرض اليمن، الإسلام، وبالتالي فقد قضى على اليهودية والنصرانية والوثنية، فضلاً عن الحكم الأجنبي - حبشياً كان أم فارسياً - (١).

(١) محمد بيرومي مهران : تاريخ العرب القديم ص ٣١٧ - ٣١٨، ٣٧٩ - ٣٨٢، ٣٨٨ - ٣٩٠، ياقوت ٤٢٦/٣، ٣٩٤/٤ - ٣٩٦، تاريخ الطبري ١٣٠/٢، ٦٥٦ - ٦٥٧، الأزرقى ١٣٨/١ - ١٣٩، ابن الأثير ٤٤٢/١، ٢١٤٣/٢ - ٢١٥، البكري ٨٤٣/٣، السري ١٨٢/١ - ١٨٣، وكذا :

- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 19.

- A. James, Op. cit., P. 390 وكذا P. K. Hitti, Op. cit, P. 57.

- H. Scott, in The High Yemen, London, 1947, P. 212.

الفصل الثالث فى شرق أجزيرة العربية

(١) دلمون :

كانت دلمون عاصمة البحرين، وقد تحدثت عنها النصوص السومرية، كما فى قصة العاروفان، وقد دعمتها أرض العبور، حيث تشرق الشمس، وهناك سكن أبو وأبيل وزيو سدرا بطل القصة، ودلمون فى الأساطير السومرية هى مركز الخلود، وهى جنة الخلد، و أرض دلمون مكان طاهر، أرض دلمون مكان مقدس.

هذا وقد اشتهرت دلمون بأنها مركز هام فى التجارة الدولية وقت ذلك بين مراكز الحضارة السومرية (فى جنوب العراق القديم) وبين بلاد نهر السند فى باكستان الحالية، ومن ثم فعندما برزت نتائج التنقيبات عن «دلمون» فى جزيرة البعيرين، تأكدت مجدداً تلك الأهمية البارزة التى أولتها كتابات السومريين القدامى لهذه المنطقة.

هذا رقا. اختلف العلماء حول مرفق «دلمون» السومرية هذه، فذهب فريق إلى أنها فى الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس (أى الجزء الشرقى من ساءيل الخليج العربى)، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أنها منطقة وادى السند، بينما يذهب وجه ثالث للنظر إلى أنها سهول العراق الكائنة إلى جنوب بابل، بل إن هناك وجهاً رابعاً للنظر يذهب إلى أنها فى القسم الشرقى من شبه جزيرة العرب، فى المنطقة فيما بين «مجان» و «بيت نسانو».

على أن جمهرة المؤرخين إنما يتفقون - أو يكادون - على أن موقع دلمون، إنما هو جزيرة البحرين الحالية، أو جزيرة البحرين والساحل المقابل لها^(١).

(١) محمد يومى مهران : قصة العاروفان بين الآثار والكتب المعتمدة - الرياض ١٩٦٦ ص ٢٨٧

- ٣٩٠، جرن الدر : الأحجار تتكلم ص ٣٠

- J. Finegan, Light from The ancient Past, Princeton, 1969, P.

(٦) جرشا :

جرها - أو جرعاء كما يقول الهمداني - سوق لبني تميم في الإحساء، ومنذ حوالي قرن مضى رأى «شبرنجر» أن (Gerrha) إنما هي «الجرعاء»، وقد كانت قائمة على مقربة من ميناء العقير الحالي، وربما تقع - فيما ترى إليزابيث مونرو - تحت أنقاض مدينة من العصور الوسطى تسمى «تاج» (Thaj) هي الآن فيما وراء «جيرة» (Jubair) - وربما الأصح الجبيل - وكانت تعرف قديماً باسم «عينان»، والتي كانت تقع على بحيرة أو خليج.

على أن دائرة المعارف البريطانية، إنما تتفق مع «جون فليبي»، على أن «جرها» هي العقير نفسها، وأن هذا الاسم الجديد (العقير) قد احتفظ في بنيتها بالاسم القديم «جرها»، ذلك لأن هناك ثمة تقارب بين اسمي الجرعاء والعقير، والتي تسمى محلياً «عجيز»، وهي قريبة من منطقة «جرعة»، وأما الدكتور سليمان حزين، فالرأى عنده أن جرها هي «القطيف»، وإن كان هناك من يرى أن جرها إنما تقع على مبعدة ٢٤ كيلاً شمال شرق العقير، وقد حدد «سترايو» الجرعاء على مبعدة ٩٦ كيلاً داخل اليابسة، بينما رأى «بليبي» أنها تقع على الساحل.

وجرها - على أية حال - مسيناء تجاري، يقع على طريقين من طرق القوافل، الأول : طريق مأرب - جرها (مأرب - نجران - الفاو - الأفلاج - اليمامة - الهفوف - جرها)، وأما الطريق الثاني فهو طريق : جرها - البتراء

-
- = - P. B. Cornwall, on the Location of Dilmun, in BASOR, 103, 1946, P. 3 - 11.
 - S. N. Kramer, Dilmun, The Land of The Living, BASOR, 96, 1944, P. 18 - 28.
 - F. Hommel, Groundris, I, P. 250.
 - S. N. Kramer, The Indus Civilization and Dilman, The Sumerian Paradise Land Expedition, Philadelphia, 1964, P. 45.

(جرها - الهفوف - مكان الرياض الحالي - بريدة - حائل - نيماء - البتراء)^(١).

(٣) مجان :

اختلف العلماء في تحديد موقع مجان هذه، فذهب فريق إلى أنها من الأقسام الشرقية من شبه الجزيرة العربية، وذهب فريق آخر إلى أنها جرها (جرعاء) على ساحل الاحساء، على أن فريقاً ثالثاً إنما يذهب إلى أنها تقع على مقربة من ساحل الخليج العربي في موضع «مجيمنة» جنوب «بيرين»، وذهب فريق رابع إلى أنها على مقربة من الساحل عند مصب وادي شعبة، وهي البقعة التي نشأت فيها مملكة مجان القديمة.

وهناك بحوث أثرية و«آريخية»، يرى البعض أنها تؤكد وجود دلائل واضحة على قيام عمران مدني، وحضارة مزدهرة، في تلك المنطقة، اعتمدت على نشاط تجاري في البر والبحر، بين بلاد السند، وسواحل إيران الجنوبية، وبين بلاد العرب الجنوبية، وبلاد الرافدين.

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٢٨١، اليزابيث مونرو : الجزيرة العربية بين البخور والبترول ص ٣٥ - ٣٦، محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم ص ١٣٥، بيتر كورنول : البحث عن ماضي جزيرة العرب - للقاهرة ١٩٥٣م ص ٢٨، أحمد صابون : دراسة تاريخية لمشكلة تحديد موقعي ماجان وملوخا، وانظر فيصل عبد الله : الخليج العربي ووادى الهندوس في الأدبيات والحلويات السامرية - ١٩٩٠ ص ١٢

- S. A. Huzayyin, Arabia and The Far East, Cairo, 1942, P. 142.
- A. Sprenger, Die Alte Geographie Arabien, Berlin, 1875, P. 135.
- G. Bibby, Looking for Dilmun, London, 1970, P. 250.
- E. Herzfeld, The Persian Empire, 1968, P. 63.
- E. F. Weidner, Das Reich Sargon Von A K Kad, AFO, 16, 1952, P. 52.
- K. Jartiz, Tilmud - Magan - Meluhba, JNES, 27, 1968, P. 209.

وكلا :

- L. Caetani, Studi della Historia Orientale, I, P. 64, 80, 243.

على أن هناك وجهاً خامساً للنظر يذهب إلى أن مجان إنما هي منطقة «عمان» - أي الطرف الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، على أن هناك من يرى أنها الساحل الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، والذي يمتد شمالاً حتى جنوب بلاد الرافدين، ومن يرى أنها واقعة على شواطئ عمان، ومن يرى أنها تقع على جانبي خليج عمان، ومن يرى أنها شبه جزيرة «مسندم» التي تمتد إلى شبه جزيرة قطر.

هذا ويرى البعض أنها «مدين»، وكانت في الألف الخامسة قبل الميلاد، كثيفة الأشجار، وكان السومريون والأكديون فيما بعد يأخذون منها الأخشاب والذهب والنحاس.

وأخيراً فلقد حاول بعض المؤرخين أن يحدد موقعها بخط طول ٥٥ شرقاً، وخط عرض ٢٤ شمالاً، وبحوالي ٧٢٠ كيلاً إلى الشمال الغربي من «مسقط»، وأن كلمة «مجان» إنما تتكون من الكلمة السومرية (Ma)، بمعنى ميناء أو أرض السفن، وذلك بسبب شهرة أهلها في ركوب السفن، فضلاً عن أن هناك نصاً يرجع إلى أيام «دوجي» (أحد ملوك أور حوالي عام ٢٤٥٠ ق.م.) يتحدثنا عن صناع السفن من مجان، وأن النصوص المسمارية قد وصفتها بأنها «جبل النحاس»، كما أطلقت عليها النصوص السومرية «أرض الدُولوريت»، ومن ثم فإن الإشارة إلى مجان على أنها «جبل النحاس» تدفعنا إلى أن ندخل في دائرتها منطقة «الجبل الأخضر» في عمان، حيث يوجد النحاس، وهكذا يبدو واضحاً أن لدينا من القرائن القوية التي تقرتنا من وضع مجان كمرادف صحيح لعمان، لأن كل ما ذكر آنفاً إنما هو موجود في عمان (١).

(١) عبد الحميد زاهد : الشرق الخالد - القاهرة ١٩٦٦م ص ١٢٣، محمد يومي مهراڤ : تاريخ العرب القديم ص ٢١٦ - ٢١٧

- R. A. Cheesman, In Unkonwn Arabia, London, 1925, P. 266.
- De Lacy O'Leary, Op - cit., P. 47 J. B. Philby, The Empty Quarter, 1933, P. 119 F.
- W. F. Leemans, Foreign Trade in The Old Babylonian Period, Leiden, 1960, P. 21.
- A. Musil, Northrn Nejd, New York, 1928, P. 307.

الفصل الرابع المدن الكبرى في الممالك والإمارات العربية في العراق والشام (١) تدمر

١- موقع تدمر الجغرافي وأهميته :

تقع مدينة «تدمر» - عاصمة مملكة تدمر - على مبعدة ١٠٠ كيلا جنوب شرق حمص، وعلى مبعدة ١٥٠ كيلا شمال شرق دمشق، في منتصف المسافة تقريباً بين دمشق والفرات^(١)، ومن ثم فقد كانت موقفاً هاماً على الطريق التجاري بين العراق والشام، بل كانت نقطة التقاء التجارة القادمة من أسواق العراق، وما يتصل بها من أسواق في إيران والهند والخليج والعربية الشرقية، وبين تلك التي على البحر المتوسط، وبخاصة في الشام ومصر، فضلاً عن اتصالها بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال أفريقية والعربية الجنوبية والهند، وهكذا أصبحت «تدمر» ملتقى جميع القوافل، وبخاصة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد، وعام ٢٧٣م، ومن ثم فقد وجد في نقوشها عبارة «زعيم القافلة» و«زعيم السوق»، باعتبار أن المشار إليه من زعماء المواطنين^(٢).

وكان هذا الموقع الجغرافي الهام، سبباً في مكانة تدمر التجارية، ويقول صاحب كتاب «أسواق العرب»: «وحمل أهل تدمر في القديم إلى مصر، وجنوب أوروبا، صادرات بلاد العرب والعراق والهند، وكانت النقاش التي يحملها التدمريون من بلاد الشرق أئمن ما يتغالى به الملوك القياصرة»^(٣).

ويقول الدكتور إسرائيل ليفنسون عن مملكة تدمر: قبلة التجار في الهند والفرس والعراق وسورية وفلسطين ومصر وأوروبا، وكانت روما - التي خضع لنيروها أغلب

(1) EB, 17, p. 161.

(٢) جواد على ٨١/٣، قارن: مروج الذهب ٢٤٤/٢ - ٢٤٥.

وانظر: P.K.Hitti, op.cit, p. 73.

وكذا: G.A.Cooke, op- cit, p. 274 - 279.

(٣) سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الحاهلية والإسلام - دمشق ١٣٧٩هـ - ص ١٧.

العالم القديم - تهاب قبائل تدمر، وتتوحد إليها، وتقدم إليها الهدايا، وتوفد إليها الوفود - قبل أن تحتلها - وقد عرفت تدمر كيف تستثمر - في ظروف مناسبة - الدولتين - الفارسية والرومية - لمصلحتها التجارية^(٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى الطريق التي تقع إلى أقصى الشمال في شبه الجزيرة العربية، وكانت هذه الطريق تشكل في الواقع امتدادا صحراويا، لطريق تجارية تبدأ من «الرمادي» - وتقع على نهر الفرات شمال غربي بغداد - وتسير بمحاذاة النهر، حتى مدينة «ماري»^(٥) (Mari)، ثم تمتد غربا إلى «تدمر»، ومن تدمر، تمتد غربا بميل طفيف إلى الشمال الغربي، إلى «حمص»، ومن هناك تتفرع إلى عدة فروع، تصل بين حمص من جهة، والموانئ الفينيقية ودمشق وفلسطين من الناحية الأخرى.

وفي الواقع، فإن الطريق إنما كان حلقة الوصل فيها هي مدينة تدمر، هذه الواحة الغنية بالنخيل التي تقع في وسط الصحراء.

وأما بقية الطريق الواقعة إلى شرقي تدمر، أو غربيها، فكانت - رغم قصرها - فهي لا تزيد عن ٤٨٠ كيلا - معرضة لغارات القبائل البدوية المتنقلة بالمنطقة المحيطة بها، ومع ذلك، فلقد احتفظت هذه الطريق القديمة بأهميتها، كما احتفظت بالأهمية ذاتها للطرق الأخرى، التي شقت بعد ذلك، واتخذت من تدمر نقطة ارتكاز لها في الوصل بين طرفي الصحراء عند حدود كل من وأدى الرافدين وسورية،

(٤) اسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية - القاهرة ١٩٢٧ ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٥) ماري: كلمة سومرية من جهة الاشتقاق، شبيهة باسم البلاد «أمورو» و«مارتو» أي بلاد الغرب، وهي الآن «تل الحريري»، جنوب مصب نهر الحايور، على مقربة من «دير الرزة»، على مسعدة ميل واحد غربي الفرات، قرب بلدة «أبو كمال» (البوكمال) - قرب الحدود العراقية السورية - ، وقد أصبحت ماري والبلاد المحيطة بها خلال القرن العشرين قبل الميلاد أمورية، سكانا وحكومة وحضارة - وقد كشف «أندرية بارو» عام ١٩٢٣م حوالي ٢٠ ألف لوحة فخارية مكتوبة بالخط المسماري في قصر الملك «زمرى ولیم» ومحفوفة الآن بمتحف اللوفر بباريس، وقد بدأ نشرها وظهر منها حتى الآن ١٦ جزءا (أنظر: محمد بيومي مهران: بلاد الشام ص ٥٠).

وكذا: M.Unger, Unger's Bible Dictionary, 1970, p. 46.

W.F.Leemans, Foreign Trade in The Old Babylonian Period Leiden 1960, p. 102.

وأهمها «طريق دقلديانوس»^(٦) (Strata Diocletiana) التي بُنيت في عصر
الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م)، بين دمشق في الجنوب الغربي، والرصافة
«سرجيوبوليس = Sergiopolis» في الشمال الشرقي، على مقربة من الفرات -
بعد تدمير تدمر عام ٢٧٣م -.

وأهمية هذا الطريق - إلى جانب صفته التجارية - فله صفة سياسية، فالمنطقة
كانت نقطتها - كما أشرنا آنفاً - قبائل بدوية متنقلة، تسبب كثيراً من القلق على
الحدود السورية، أو حدود وادي الرافدين، ومن ثم فقد كان موقع تدمر كنقطة
تأمين للطريق، وبالتالي فإن إقرار الأمور، إنما هو أمر وارد لكلا القوتين - الفارسية
والرومية - في شرقي الصحراء أوفى غربيها.

وهكذا انتهى الأمر دائماً بتأمين الطريق لهذا الهدف السياسي، وتبع ذلك
ازدهار النشاط التجاري عليه، هذا وقد كشف عن بقايا عدد من الحصون التي
أقامها الرومان في أماكن عديدة، على طول هذا الطريق^(٧).

٢ - اسم المدينة وتطورها التاريخ:

اسم «تدمر» اسم «سامي»، يرجع ظهوره للمرة الأولى إلى أيام الملك الأشوري
«تجلات بلاسر» الأول (١١١٦ - ١٠٩٠ ق.م) في صورة «تدمر أمورو»^(٨)، وأما
اسم «تدمر» فهو النطق الآرامي لكلمة «تتمر» العربية، ومعناها المدينة التي يكثر فيها

(٦) كان قد أنشئ في عهد الامبراطور «تراجان» (Trajanus - ٩٨-١١٧م) طريق

يصل فيما بين مدينتي العقبة وتدمر، ويمر بالبتراء، وولاية عمان، وفيلالفا (عمان)، و«بصرى»،

ثم ينتهي عند «تدمر» (أنظر الجزء الأول من تاريخ العرب ص ٢٧٧).

(٧) لعنق عبد الرهاب: العرب في المصور القديمة ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

R.Dussaud. La Penetration des Arabes en syrie avant L'Islam,
Paris, 1935. p. 80 - 81.

G.Roux, Incient Iraq, 1966, p. 29.

(8) D.D Luckenbill, op,cit I, 287, 308

E.Dhorme, Palmyra dans Les Assyriens, R.B, 1924, p. 106. وكذا

وكتا EB, 17, p. 161 وكذا EI, 3, p. 1020.

التدمير والتخريب^(٩). وإن كنا على غير يقين من اشتقاق كلمة تدمر، ربما كان لها صلة بكلمة «تدمورتا» (Tadmort) السريانية، ربما ما يسمى بـ «١٠».

وقد ورد اسم تدمر في المصادر اليهودية؛ فكتاب الحوليات العبراني يسجل في التوراة، أن سليمان قد بنى مدينة تدمر في البرية^(١١)، والأمر كذلك بالنسبة للمؤرخ اليهودي «يوسف بن متي»^(١٢)، وليس من شك في أن وجهة النظر اليهودية هذه خاطئة، ذلك لأن المدينة - كما أشرنا آنفاً - إنما ذكرت في الوثائق الآشورية قبل أن يولد سليمان نفسه، وبفترة تسبق مادون في التوراة بشأنها، بأكثر من سبعة قرون^(١٣).

ومن هنا فقد رأى العلماء أن الرواية التي تذهب إلى أن سليمان هو الذي بنى تدمر، إما أنها أرادت تعظيم شأن مملكة سليمان كمعادة الروايات اليهودية - وكان مكانة النبي الكريم لا تأتي إلا ببناء المدن واتساع مملكته، وليست برسالته السماوية - ومن ثم فقد نسبت إليه بناء هذه المدينة، التي تقع في منطقة بعيدة عن حدود دولة إسرائيل^(١٤)، وإما أن هناك خطأ وقع فيه كتاب الحوليات العبراني حين خلط بين «ثامار» التي أسسها الملك سليمان، وهي موضع جاء ذكره في سفر حزقيال^(١٥)، ويقع إلى جنوب الشرقي من «يهودا»؛ وإن كنا لاندرى موقعه الآن على وجه التحديد^(١٦)، وربما كانت التسمية التي اكتسبتها «تدمر» على أيام كتبة الأسفار العبرانيين هي السبب في نسبة بنائها إلى النبي الكريم؛ فإذن، ثم فقد ذهب هؤلاء الكتبة إلى أن المدينة التي بناها سليمان، ليست هي «ثامار»، وإنما «تدمر» والتي

(٩) حسن ظاظا: المرجع السابق ص ١١٥.

(١٠) فيليب متي: المرجع السابق ص ٤٢٣.

(١١) ملوك أول ٩: ١٨، أخبار أيام سل ٨: ٤.

(١٢) F Hommel, ZDMG, XIIV, 547 وكذا EI, III, p. 1020.

E.Dhorme, op.cit. p. 106.

وكذا

(١٣) أشر عن تاريخ: «كتابة أسفار التوراة كتابنا» (إسرائيل) ١٨/٣ - ١٨/٦، وأطر طبعة ١٩٦٩م

(١٤) «تدمر» على ٧٧/٣، فيليب متي: المرجع السابق ص ٤٢٢.

وكذا EB.P. 4886 وكذا J.Hastings, op.cit. p. 889.

(١٥) حزقيال ٤٧: ١٩.

(١٦) حراد على ٧٧/٣، قاموس الكتاب المقدس ٢٨٢/١.

كانت مدينة عامرة بسكانها، وذات شهرة في مجاراتها فيما بين عامي ٣٠٠ - ٢٠٠ ق.م (١٧).

وأما الاسم اليوناني للمدينة فهو «بالميرا» Palmyra وهي ترجمة لكلمة «تاما» العبرية، وتعني مدينة النخيل، وإن كان هناك من يرى أن كلمة (Palmyra) من كلمة (Paima) بمعنى النخل حتى الآن في بعض اللغات الأوروبية، وأن الاسكندر المقدوني هو الذي أطلق عليها اسم "Palmyra" بعد أن استولى عليها بسبب ما اكتشفها من غابات النخيل، ومن ثم فقد عرفت عند اليونان واللاتين بهذا الاسم، وهو رأى ما يزال يعد في مرحلة التخمين ويحتاج إلى ما يدعمه من أدلة وبراهين (١٨).

وهناك ما يشير إلى وجود نفوذ سلوقي في تدمر، وربما كانت من نصيب السلوقيين بعد وفاة الاسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ ق.م.، وتقسيم امبراطوريته بين قواده، وعلى أي حال، فهناك حصن سلوقي في المدينة، وربما أقيم في عام ٢٨٠ ق.م، كواحد من سلسلة الحصون التي أقامها القوم في المناطق الاستراتيجية التي خضعت لهم (١٩).

أما الروايات العربية فلاتفيد علماء ولا تصلح أن تكون دليلاً، فهي روايات متأخرة دخلت إلى المسلمين من أهل الكتاب، فأخذوها بغير تحقيق ولا تدقيق (٢٠)، فضلاً عن أن ضخامة آثار المدينة وعظمتها، ربما أدهشتهم ومن ثم فقد نسبوا بناءها إلى الجن بأمر من سليمان عليه السلام (٢١)، على أن «ياقوت الحموي» إنما (١٧) جواد على ٧٨/٣.

F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 344.

وكذا

J.Hastings, op.cit, p. 889.

(١٨) عباس العقاد: الثقافة العربية لسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٢٢، وكذا EI, III, p. 1020.

(١٩) جواد على ٨٥/٣.

وكذا Freya Sterk, Rome on The Euphrates, 1967, . 242.

(٢٠) جواد على ٨٧/٣.

(٢١) فيليب حتى المرجع السابق ص ٤٢٣، بلوغ الأرب ٢٠٩/١ - ٢١٠، ياقوت ١٧/٢ - ١٩.

البكري ٣٠٦/٢ - ٣٠٧، صحيح الأخبار ٧-٦/٢، قارن: مروج الذهب ٢٤٤/٢ - ٢٤٥.

يستبعد نسبة تدمير إلي سليمان، مدعياً ذلك بأن أهلها إنما يزعمون أنها ترجع إلي ما قبل عهد سليمان، لفترة تقارب مائتينا وبينه، وأن الناس إذا ساروا بناء عجيبا جهلوا بانيه، أضافوه إلي سليمان وإلي الجن (٢٢).

ومع ذلك هناك من يقدم لنا أبحاثا من شعر «التابغة الديراني»، يذهب فيه إلي أن المدينة من بناء جن سليمان، وفات أصحاب هذا الزعم هذا الزعم أن التابغة لم يكن عالما من علماء التاريخ والآثار، حتى يكون شعره حجة في بناء مدينة يرجع ظهورها في التاريخ إلي أواخر القرن الثاني عشر، أو الحادي عشر قبل الميلاد، ثم من أدرانا أن هذا الشعر للتابغة الديراني حقا، فإن من نسبوا شعره إلي آدم وهابيل وقابيل، وإلي الجن وإليس، أليسوا بقادرين علي وضع شعر علي لسان التابغة الديراني (٢٣)، وأما قصة بناء المدينة بأمر من امرأة تدعى «تدمر بنت حسان بن أدنية»، فليست إلا من هذا النوع من الكتابات التي ملأ الاخباريون بها صفحات كتبهم (٢٤).

ولعل «بلييني» (٢٤/٢٣ - ٧٩م) أول الكتاب الكلاسيكيين الذين أشاروا إلي تدمر، فوصفها بأنها مدينة شهيرة ذات مرقع ممتاز، وأرض خصبة وأن بها عيونا وينابيع، وتحيط بحداثتها الرمال، وأنها تقع بين الإمبراطورية الرومانية والفارسية، ومن ثم فقد اضطرت أهلها - ضمنا لاستقلالهم - أن يقفوا موقف الحياد بين هاتين القوتين المتصارعتين، ثم تابع «بلييني» من جاء بعده من الكتاب، مما يدل علي أن شهرة المدينة كانت في ازدياد (٢٥).

وأما أقدم كتابة عثر عليها في المدينة، فإنما ترجع إلي شهر نوفمبر من السنة التاسعة قبل الميلاد (٢٦)، وإن كان عثر في مدينة «دورا» - وتقع في مكانها

(٢٢) ياقوت ١٧/٢، قارن: الأخبار الطوال ص ٢٠.

(٢٣) جواد علي ٧٩/٣، صحيح الأخبار ٦/٢، بلوغ الأرب ٢٠٩/١ - ٢١٠، المشرق، العدد ١١، عام ١٨٩٨م ص ٤٩٦، ياقوت ١٧/٢.

(٢٤) البكري ٣٠٧/١، ياقوت ١٧/٢.

(25) W. Wright, an Accoun of Palmyra and Zenibia With Travels and Adventures in Bashan and The Desert, p. 110

وكتا EB, p. 4386 وكتا Fliny, V, XXI, 83.

(٢٦) - ياد علي ٨١/٣، حسن ظاظا: المرجع السابق ص ١١٥

وكتا G.A. Cooke. op- cit, p. 141

الصالحية الحالية - على الفرات الأوسط تجاه ندمر، على نقش يعتبر من أقدم النقوش التدمرية التي كشف عنها حتى الآن - ويرجع إلى عام ٢٣ ق.م (٢٧)، وفي هذا الوقت كانت تدمر مركزا تجاريا خصبًا بين دولتي الروم والفرس، ومع ذلك فإن أكثر مانعرفه عنها إنما يرجع إلى ما بعد الميلاد، حيث لدينا نصوص ترجع إلى عام ٢٧١ م. (٢٨)

(٣) سكان تدمر:

لا ريب أن أهل تدمر، إنما كانوا عربيا - شأنهم في ذلك شأن الأنباط في البتراء - بدليل وجود بعض المصطلحات والكلمات العربية الأصلية في كتاباتهم، كما أن أسماء الأصنام عندهم عربية، والأمر كذلك بالنسبة إلى أسماء الأعلام، ومن ثم فقد رأى بعض العلماء أنهم من القبائل العربية التي أخذت تستولي على المنطقة الخصبة في شرق الأردن، عقب انهيار الدولة البابلية الحديثة، وسقوط بابل تحت السيادة الفارسية في عام ٥٣٩ ق.م، ثم أخذت تستعمل الآرامية - وهي لغة الكتابة والثقافة في غرب الفرات وقت ذلك - لغة لها، ومع هذا فإن لغتهم هذه، ليست إلا لهجة من اللهجات الآرامية العربية، وأنها لا تختلف كثيرا عن لغة الأنباط، وعن الآرامية المصرية (٢٩).

ومع ذلك فإن اللهجة الآرامية التدمرية لها مميزات بررت أن يختصها بعض الباحثين بدراسة لغوية متفصلة، ومن أشهر هذه الدراسات كتابات المستشرق الفرنسي «كانتينيو» (٣٠)، وقد طور التدمريون الكتابة الآرامية وعندهم انتقلت إلى

(27) CAX, IX, p. 559

(٢٨) حسن ظاظا: المرجع السابق ص ١١٥.

(٢٩) محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

وكتنا P.K.Hitti, op.cit, p. 76.

وكتنا R.Ghirshman,Iran, 1945, p. 131 - 132.

وكتنا A.T.Olmstead, History of The Peresian Empire, Chicago, 1970, p. 50-51.

(٣٠) حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ص ١١٥.

J.Cantineau, Grammaire du Plamyrenien Epigraphique, Le Caire, 1935

السمرتيان في الرها، فظهر منبها العنقا السمرتياني الفسديم المسرف باسم «الخط السرخجيلي» الذي ظهر بعد الإنشقاق المذهبي بين سرمان الرها في عام ٤٨٩م، ثم ظهر لهجة غربية تسمى اليهقوية، وشرقية تسمى النسطورية^(٣١).

وأما الثقافة التدمرية، فكانت مزيجا من الثقافات العربية والآرامية واليونانية واللاتينية، ذلك لأن تدمر - كما كانت البتراء من قبل - قد نمت في ظل حضارة الآراميين، واتخذت لغتهم، فضلا عن المبادئ الأساسية في تفكيرهم الثقافي والديني، هذا في الوقت الذي أخذت فيه كذلك كثيرا عن دنيا اليونان والرومان^(٣٢).

هذا، وقد قامت كذلك في تدمر جالية يهودية، منذ وقت لانستطيع تحديده على وجه اليقين، فربما كان ذلك قبل سقوط القدس في أيدي الرومان على أيام الامبراطور «فسباسيان» (٦٩ - ٩٧م)، ثم عمل هؤلاء اليهود بالتجارة وربما نشطوا في تهويد بعض السكان، وأن فريقا من هؤلاء اليهود، ربما رجعوا إلى القدس قبل تدميرها - المشار إليه آنفا - على يد «تيتوس» في عام ٧٠م^(٣٣).

(٤) تدمر والروم:

وعلى أي حال، فلقد بدأت تدمر تزداد قوة وشهرة منذ النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، بسبب الأهمية التجارية والدبلوماسية لموقعها بين امبراطوريتي الفرس والروم المتنافستين، ثم ساعد موقعها الجغرافي على إبحم تمكن أي من الفريقين المتنازعين من سهولة الاستيلاء عليها^(٣٤)، وقد جاول «أمارك أنطونيوس» عام ٤١ ق.م، الاستيلاء على خزائن المدينة ففشل، وإن أصابها منه ضرر كبير^(٣٥)، غير أن مدينة مهمة كتدمر، لها مال وثروة، وليس لها جيش قوى ضخم، ولا مجال

(٣١) حسن ظانًا: المرجع السابق ص ١١٥ - ١٢١.

(٣٢) موسكاتي: المرجع السابق ص ٢٠٣.

(٣٣) جواد على ٨٤/٣، وكلا. UJE, 8, 381.

(٣٤) فيليب متي: المرجع السابق ص ٤٢٣.

(٣٥) EB, 17, p. 162 وكلا W.Wright, op cit, p. 110.

لتكوين هذا الجيش فيها، لا يمكن أن تبقى في مأمن ومنجاة من مظالم الغزاة، ولو كانت في بقعة منعزلة، أو في بادية بعيدة^(٣٦).

ومن هنا، فإن تدمير - على الأرجح - قد اعترفت بنوع من السيادة عليها للرومان، منذ أوائل العصور المسيحية، ودلينا على ذلك المراسيم الإمبراطورية التي ترجع إلى عهد «تيسيريوس»^(٣٧)، والتي تتعلق بالرسوم الجمركية، وقد عثر في تدمير على قوائم ترجع إلى عام ١٧م، وتبين بعض الرسوم على البضائع وأثمانها باليونانية والتدميرية^(٣٨)، هذا ويدور أن تدمير قد أصبحت على أيام «فسباسيان» تحت الإشراف الروماني، وأن كان هذا لا يعنى الخضوع لروما، أو أن للإشراف على الشؤون الدينية بالمدينة كان بأيدي الرومان، وإنما كان هناك إشراف رومي عام على المدينة، بدليل أن الروم قد سمحوا للمدينة بحق الاحتفاظ بحاميتها Militia في خارج تدمير^(٣٩).

وقد بذل «تراجان» (٩٨-١١٧م) جهده لضم تدمير إلى المقاطعة العربية، التي أنشأها في عام ١٠٦م، واتخذ من «بصرى» مقراً لها، وفي عام ١٣٠م، زار «هديان» (١١٧ - ١٢٨م) تدمير وجعلها تابعة لروما، ثم منحها لقب «هدريانا بالميرا» (Hadriana Palmyra) و«هدريانوبوليس» (Hadrianopolis)، كما أصبحت المدن التابعة لتدمير، تابعة لروما^(٤٠)، وفي الواقع لقد نالت تدمير عناية كبيرة من «هدريان»، حتى قيل أنه «الموسس الثاني» لها، فاهتم بحماية الطرق البرية التي توصلها إلى نهر الفرات، والتي كانت شرياناً هاماً للتجارة العالمية وقت ذلك، ثم كانت العلاقة الطيبة بين الفرس والروم في عهده سبباً في رخاء تدمير، فوصلت الحاميات الرومية إلى شواطئ الفرات الغربية، وأقام التجار في مدينة

(٣٦) جواد على ٨٤/٣.

(٣٧) بدأ السيد المسيح عليه السلام، وكان قد ناهز الثلاثين من عمره يشرب بدعوته في يهوذا في عهد هذا الإمبراطور، وكان قد ولد على أيام ملته أول قيصرية روما «أغسطس» (٢٧ ق.م - ١٤م)، ويرى بعض الباحثين أنه ولد فيما بين عامي ٦، ٢ ق.م، بينما يرى آخرون أنه ولد في عام ٤م ورفع إلى السماء عام ٢٧م وربما، في ٢٣ مارس ٢٩م (أنظر: ه.ح. ويلز موجز تاريخ العالم من ١٧٢، ٤١٦، فليب متى: المرجع السابق من ص ٣١١ - ٣١٢، ٣٦٣).

(38) G.A. Cooke, op.cit, p. 313 - 332.

(٣٩) جواد على ٨٦/٣، وكذا J.Starcky, Palmyre, p. 27.

(٤٠) فليب متى: المرجع السابق من ص ٤٣٥، وهذا EB, 17p. 162.

(Voologasia)، كما بنوا لهم معبدا هناك^(٤١)، ولدينا كتابة ترجع إلى عام ١٣٧م، أصدرها مجلس شيوخ المدينة لتنظيم التجارة وتثبيت الضرائب، وكيفية جبايتها^(٤٢).

وفي أوائل القرن الثالث الميلادي منح «سبتميوس سيفيروس» (١٩٣ - ٢١١م) تدمر حقوق المستعمرة، واستمرت كذلك حتى على أيام «كراكلا» (٢١١ - ٢١٧م)، وهكذا اكتسبت تدمر حق الملكية والإعفاء من الخراج، فضلا عن الحرية التامة في إدارة شؤونها، وبدأ كبار القوم يضيفون إلى أسمائهم العربية أو الآرامية، أسماء رومية، بل وقد أضافت إحدى الأسر اسم «سبتميوس» أمام اسمها السامي، مما يدل على نوالها حق الرعاية في عهد «سيفيروس»، وربما كان ذلك بسبب الخدمات التي قدمتها في الصراع ضد الفرس، إلا أن ذلك لا يعني أن تدمر، إنما أصبحت مقاطعة رومية تماما، وإنما كانت حكومة شبه مستقلة، تدير شؤونها الإدارية بنفسها، ولكنها تخضع لإشراف روما عليها^(٤٣).

وانتهزت تدمر فرصة انشغال روما بغزوات الجرمان التي كانت تهدد دولتهم في أوروبا الغربية، وأخذت توسع رقعتها، وإن ظلت وفية للروم، وهكذا أصبحت دولة تدمر تشمل عددا من المدن الصغيرة التابعة لها، مثل «دورا» و«الرصافة»^(٤٤)، وقد استخدمت «دورا» كمعقل لحماية تجارة تدمر الناشئة، وقد وجدت فيها بقايا أبنية ذات زخارف نفرة تمثل جنودا تدمريين، وأما «الرصافة» فقد اُبعثت في كتابة أثرية

(٤١) جواد على ٨٧/٣.

وكنا M.Rostoutzeff, Caravan Cities, p. 144.

وكنا F.Stark, op.cit, p. 253.

وكنا Mommsen, Provinces of The Roman Empire, 2, p. 236.

(٤٢) جواد على ٨٧/٣، الشرق، الجزء ١٢، عام ١٨٩٨، ص ٥٣٨.

وكنا EB, 17 p. 162.

وكنا W.Wright, op.cit, p. III.

وكنا G.A. Cooke, op.cit, p. 322.

(٤٣) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٤٣٥ - ٤٣٦.

وكنا G.A. Cooke, op.cit, p. 250 - 312.

وكنا CAH, XI, p. 139, XII, p. 18.

(٤٤) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٢٤٩.

أشورية تعود إلى أخريات القرن التاسع قبل الميلاد باسم «رصاصا Rasappa»، وهي نفس المدينة التي جاءت في التوراة^(٤٥) تحت اسم «رصف» بمعنى «الجمر المتوهج» وهدمها «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) في أوائل القرن السابع ق.م، وقد عرفت فيما بعد باسم «سرجيوس بولس» نسبة إلى قديسها المحلي «سرجيوس» الذي استشهد في عهد «دقلديانوس» (٢٨٤ - ٣٠٥ م)^(٤٦).

(٤٥) ملوك ثان: ١٩: ١٢، أشعيا ٢٧: ١٢.

(٤٦) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٤٣٦، وكذا EB, 17, 162.

(٧) الجابية - جلق

كانت العاصمة السياسية للفلسنة - في أول الأمر - مخيماً متنقلاً، ثم استقرت بعد ذلك في «الجابية» في منطقة الجولان جنوب غربي دمشق، كما كانت في بعض الوقت في «جلق» في جنوب حوران^(١) - والتي ربما كانت «الكسوة» الحالية، على مبعده ١٦ كيلاً جنوبي دمشق - وأما ديارهم، فكانت - طبقاً لبعض الروايات العربية - في اليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها، وأن منهم من نزل الأردن من أرض الشام^(٢)، وعلى أي حال فلقد امتدت دولتهم حتى شملت الجولان وحوران والبلقاء، وأحياناً فينيقيا، فضلاً عن أعراب سورية وفلسطين^(٣).

وعلى أي حال، فليس هناك من دليل على أن الفلسنة، قد ملكوا المدن الكبيرة في الشام كدمر وبصرى ودمشق، إذ أن هذه كانت محصنة، تتمركز فيها الحامية البيزنطية، ولكنهم كانوا يعتمدون على الصحراء، إذا داهمهم الخطر، فكانت تغنيهم عن المدن المحصنة، ومن ثم فقد كانت معظم حروبهم تدور على أطراف البادية، وإليها التجأوا عندما خلعوا سلطان الإمبراطور وناروا عليه في عهد «النعمان بن المنذر»، ولهذا فقد كان الروم يقيمون عمالاً صغاراً بجانب ملوك غسان، حفاظاً على التوازن السياسي، وإبقاءً لسلطان الدولة في الأوقات العصيبة، طبقاً لسياسة «فرق تسد»^(٤).

(١) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٤٤٩، باقوت ٩١/٢، ١٥٥، البكري ٣٥/٢، ٣٩٠، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ١٨٨ - ١٨٩، بلاشيسر: المرجع السابق ص ٥٩، دائرة المعارف الإسلامية، مادة جابية ومادة جلق، عبد اللطيف الطيباوي: المرجع السابق ص ١٢، محمد سروك نافع: المرجع السابق ص ١١٦.

وكتا R.Dussaud, Topographie Historique de La Syrie Antique et Me-dievale, p. 317 - 18, 332 - 3.

وكتا Leone Caetani, Anndai Dell'Islam; II, p. 928.

(٢) للمردى، مروج الذهب ٨٥/٢.

(٣) عبد اللطيف الطيباوي: المرجع السابق ص ١٢.

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٢.

(٣) الحيرة

كان العرب منذ قديم الزمان يهاجرون إلى تخوم شبه الجزيرة العربية الشرقية، حتى إذا ما وصلوا إلى وادي الفرات أقاموا في ربوعه، وفي أوائل القرن الثالث الميلادي، وإبان الاضطرابات التي أعقبت سقوط الأسرة البارثية وقيام الأسرة الساسانية في حوالي عام ٢٢٦ م، تحت زعامة «أردشير بن بابك بن ساسان» وفدت طلائع عربية جديدة من قبائل تنوخ اليمنية، وسكنت في المنطقة الخصبة الواقعة إلى الغرب من الفرات، وما أن يمضي حين من الدهر حتى تحولت الخيام إلى مدينة عرفت «بالحيرة»، تحولت بمرور الأيام إلى إمارة الحيرة - وادي نهر الفرات عند منعطفه نحو دجلة، واقتربه منه على مبهلة خمسين كيلو مترا - التي أصبحت بمثابة حصن للممالك الفارسية حيال العرب الرحل^(١).

على أن هناك من يرجع بتاريخ المدينة إلى أيام الملك البابلي «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) - طبقا لرواية سبق لنا مناقشتها في هذه الدراسة^(٢) - بينما يرى آخرون أن مؤسس الحيرة إنما هو «الأردوان» ملك الأنباط^(٣)، بينما يذهب فريق ثالث إلى أنها من بناء «تبع أب كرب»^(٤)، وأخيرا هناك من يرى أنها مدينة بارثية^(٥).

وليس هناك من شك في أن «الحيرة» مدينة قديمة، وأن كنا لانعرف تاريخها على وجه التحقيق، ولعل أقدم ما وصلنا عنها إنما هي كتابة ترجع إلى عام ١٣٢ م، ذكرت فيها المدينة تحت اسم «حيرتا»، فإذا كانت «حيرتا» هذه، إنما هي «الحيرة» حقا، فإن أقدم ما نعرفه عنها إنما يرجع إلى عام ١٣٢ م^(٦)، ولعل مما تجدر ملاحظته

(١) آرثر كريستس: المرجع السابق ص ٨٢.

(٢) أنظر: تاريخ الطبري ٥٥٨/١ - ٥٦٠، ياقوت ٣٢٩/٢.

(٣) ياقوت ٣٢٩/٢.

(٤) ياقوت ٣٢٩/٢ - ٣٣٠، البكري ٤٧٨/٣ - ٤٧٩.

(٥) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٣١٨.

وكتنا A.Musil, The Middle Euphates, p. 102.

(٦) جراد على ١٥٧/٣، وكتنا CIS, II, p. 156, III, p. 3073.

هنا أن الحفريات لم تقدم لنا شيئا يمكن الاعتماد عليه فيما يتصل بموقع المدينة وتاريخها، وأن كل ما وصلنا لا يعدو نقوشا من الجبرس مما تكسى به الجدران، فضلا عن مجموعة من الجرار وآثار صغيرة، بعضها يرجع إلى ما قبل الإسلام، وبعضها الآخر إلى العصر الإسلامي^(٧).

وقد اختلف المؤرخون في تفسير اسم «الحيرة» ومصدر اشتقاقه، فهناك رواية تذهب إلى أن «تبان أسعد أب كرب» كان قد خرج من اليمن يريد الأنبار، فلما انتهى إلى موضع الحيرة ليلا تخير، فأقام مكانه، ومن ثم فقد سمي ذلك الموضع «الحيرة»^(٨)، وتذهب رواية أخرى إلى أن «تبعنا الأكبر» قد ترك ضعاف جنوده في ذلك الموقع، وقال لهم «حيروا به» أي أقيموا به^(٩). هذا ويذهب العلماء المحدثون إلى أن كلمة «الحيرة» إنما هي كلمة «أرامية» وأنها «حرتا» (حرتوا) السريانية الأصل، بمعنى «الخيم أو المعسكر»، وأنها تقابل «العسكر» عند المسلمين، و«حاصير» عند العبرانيين^(١٠).

على أن هناك من يرى أن الحيرة الآرامية، والحير العربي، إنما هما من أصل سامي واحد، ذلك أن الخيم والمعسكر والحمى، إنما هي ألفاظ يدل أصلها على معنى واحد^(١١)، ويميل أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم إلى هذا الرأي، معتمدا في ذلك على وصف «اليعقوبي» على خطط «سر من رأى» والحير الذي أقيم بها،

(٧) جواد على ١٦٠/٣. وكذا D.Talbot Rice, The Oxford Excavation at Hira, in ARS. Islamica I, Part I, p. 51.

(٨) ابن الأثير ٢٧٦/١ - ٢٧٧، تاريخ الطبري ٥٦٦/١ - ٥٦٧، ملوك حمير وأقبال اليمن ص ١٣٢، باقوت الحكري ٣٢٩/٢، جواد على ١٦٢/٣.

(٩) البكري ٤٧٨/٢، باقوت الحموي: معجم البلدان ٣٢٩/٢.

(١٠) روجيس بلاشير: المرجع السابق ص ٨٥.

وكذا A.Musil, Palmyrena, p. 289.

وكذا F.Altheim, Geschichte der Hunnen, I, 1959, p. 130.

G.Rothstien, Die Dynastie der Lakhmiden, in Hira, Berlin, 1899, p. 12.

وكذا EI, II, p. 314.

وكذا ZDMG, 32, p. 753.

(١١) يوسف رزق الله غنيم: الحيرة المدينة والمملكة العربية ص ١١

وجمل حظيرة للوحش من الطباء والحمير الوحشى والأيايل والأرانب والأنعام (١٢).
وتقع الحيرة قريبا من مدينة بابل القديمة، وعلى مبعدة ٥ كيلا إلى الجنوب
من الكوفة (١٣)، وفى نهاية طريق يحتاز شبه الجزيرة العربية، ومن ثم فقد غدت
بحكم موقعها الجغرافى هذا، مركزا هاما جدا للقوافل لم يسع السامانيون إهماله،
ومن ثم فما تكاد نقيم فيه سلاسل عرية حتى يضموها تحت حمايتهم (١٤).

هذا وقد اشتهرت المدينة باسم «حيرة النعمان» عند المؤرخين العرب، و«الحيرة
مدينة العرب» عند المؤرخين السريان، و«حيرته» فى المجتمع الكسى الذى عقد فى
عام ٤١٠ م، كما سميت كذلك باسم «حيرة النعمان التى فى بلاد الفرس» (١٥)
فى تاريخ يوحنا الأفسوسى - من القرن السادس الميلادى - وأما «التلمود» فقد
أطلق عليها إسم «حيرت دى طيبة» أى «معسكر العرب وحيرة العرب» (١٦)، وقد
أطنبت المؤلفات العربية فى وصف هوائها النقى، وصفاء جوها، وعضوية مائها، حتى
قيل «يوم ليلة بالحيرة خير من دواء سنة»، وقيل «إنها منزل يرى مرىء صحيح
من الأدواء والأسقام» وأن هوائها وترابها أصبح من الكوفة، ولعل كل هذه
الأوصاف ربما كانت السبب فى أن تقول العرب «لبينة ليلة بالحيرة أنفع من تناول
شربه»، بل أن حمزة الأصفهاني «ليزعم أنه لم يمض بالحيرة بسبب هوائها النقى
أحد من الملوك إلا قابوس بن المنذر» (١٧).

(١٢) عبد العزيز سالم، المرجع السابق من ٣٢٠، كتاب البلدان من ٢٦٣.

(13) P.K. Hitti, op.cit, p. 81.

(١٤) ريجيس بلاشير: المرجع السابق من ٥٨.

(١٥) جواد على ١٥٦/٣.

كما: ZDMG, 43, p. 388.

وكما A.Musil, op.cit, p. 20

وكنا Johan of Ephesus, 10, 13, 352.

وكنا J.obermeyer, Die Landschaft Babylonien, p. 234.

وكنا F.Altheim and R.Stiehl, op-cit, p. 275, II, p. 225.

(١٦) جواد على ١٥٦/٣ - ١٥٧.

(١٧) حمزة الأصفهاني: المرجع السابق من ٧٥، البكرى ٤٧٩/٢، الميدانى ١٣٧/٢ - ١٣٩، حواد

على ١٥٨/٣.

هذا وقد وكان لعرب الحيرة لهجة من اللسان العربي يتحدثون بها في حياتهم العادية، وأما في الكتابة فقد كانوا يستعملون السريانية، ولعلمهم في هذا يشبهون الأنباط والتدمريين الذين كانوا يتكلمون العربية ويكتبون بالآرامية، هذا وهناك من يذهب إلى أن دخول النصرانية إلى اليمن إنما كان بجهود رجال الكنيسة السورية في الحيرة، فضلا عن انتقال الكتابة من الحيرة إلى الحجاز، وعلى أى حال، فقد أصبحت الحيرة في القرن السادس الميلادي، وعلى أثر اتساع نفوذ سلالة اللخمييين نقطة التقاء للتيارات الإيرانية والآرامية على حدود المحيط العربي الفاصلة، حتى لقد ظهرت المدينة بمظهر العاصمة الفكرية^(١٩).

(١٨) أنظر: المزهري ٣٤٩/٢، صبح الأعشى ١٠/٣، مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٩، الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب ص ٢ وما بعدها، كتاب المصاحف للمجستاني ٤/١ - ٥، الأعلام النفسية لابن رسته ص ١٩٢، ٢١٧ (طبعة ليدن ١٨٩٢م) قارن: المعارف ص ٢٤٧ وما بعدها، ثم انظر:

F.Altheim and R.Stiehl, op.cit, I, p. 198.

P.K.Hitti, op.cit, p. 84.

(١٩) رجيس بلاشير: المرجع السابق ص ٦٢.

(٤) الحضرة

الحضرة: إمارة عربية، نفع في وادي «الشرارة»^(١)، على مسعدة ١١٥ جنوب غربي الموصل، وقد اشتهرت هذه الإمارة العربية في معظم كتب التاريخ، بأنها فرثية، وذلك لأن معظم قوتها، وصيتها الواسع، إنما عرف إبان حقبة التسلط الفرثي على العراق، أي على أيام «الفرس الفرثيين» (١٣٥ ق.م - ٢٢٦ م)^(٢).

هذا وقد اختلف الباحثون في أصل تسميتها، فذهب فريق إلى أنها من أصل آرامي، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب أصحابه إلى أنها من أصل عبراني آرامي، وهناك وجه ثالث للنظر يذهب إلى أنها من أصل عربي، وأنها بمعنى «الحيرة» أي «المسكرة».

وأياً ما كان الأمر، فلقد عرفت «الحضرة» في الكتابات اليونانية باسم «أترا» (Atrai, Atra) وفي اللاتينية باسم «هترا» (Hatra)، بينما عرفت في كتابات الحضرة نفسها باسم «حطراء»^(٣).

هذا وقد عثرت مديرية الآثار العراقية على نص (رقم ٧٩) جاء فيه إسم المدينة - ولأول مرة - باسم «حطراء»، على نحو ما ينطق به في الآرامية، كما وردت كذلك في جملة «وبالخطوط العائدة إلى العرب»، وهي جملة ذات دلالة تشير إلى العرب، فضلاً عن ورودهم في هذه المنطقة، كما ذكرت في النص أيضاً «عربايا» (عربوا)، هذا وتسمية الاقليم باسم «عربايا» شأن كبير لأنه نسبة إلى العرب، وفي هذا الاقليم تقع مدينة الحضرة^(٤).

هذا وكانت الحضرة من مدن الصحراء الشهيرة، ومن ثم فقد كانت، شأنها في

(١) الشرارة: واد بين سنجار وتكريت، كان في القديهم منازل لبكر بن وائل ويسم بمدينة «الحضرة» ثم يصب في دجلة أسفل تكريت (تاريخ الطبري ٥٠١/٢).

(٢) مؤيد سعيد: العراق في التاريخ ص. ٢٥٨.

(٣) جواد علي: المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦٠٩/٢.

وكتا، F.Althein and R. Rthl, Die Araber in der Slten Welt, I, Berlin, 1964, p. 274 - 275, II, 1968, p. 225.

(٤) حواد علي ٦١٠/٢ - ٦١١، وكذا: مجلة سومر: العدد ١٧ لعام ١٩٦١م ص ١٢، ١٥، ١٧، العدد ٢١ لعام ١٩٦٥ ص ٢٢.

ذلك شأن البتراء وتدمر، كما كانت قصتها - نموا واضطرابا، وتدهورا ودمارا - لاختلف كثيرا عن قصص مدن الصحراء الأخرى، فلقد جهد سكانها كثيرا في مقاومة السلطتين الرومية والفارسية، أمدا طويلا، ولكن الروم والفرس نجحوا آخر الأمر في تدمير هذه المدن جميعا، الواحدة تلو الأخرى، وكان من نصيب الحضرة أن يدمرها الفرس الساسانيون (٢٢٦ - ٦٣٧ م) في عام ٢٤١ م، بعد أن حاصرها «ساير» عاما كاملا، من نيسان ٢٤٠ م إلى نيسان ٢٤١ م.^(٥)

هذا ويذهب «هرتسفلد» إلى أن القبائل العربية إنما هي التي أسست مدينة الحضرة، إبان القرن الأول قبل الميلاد، حصنا منيعا، أقام سادتها فيه، مستغلين فرصة الخلاف الذي كان قائما بين الروم والفرس، بذكاء وحكمة، وقد حصلوا على أموال الفريقيين المتنافسين، وذلك رغبة من كلا الفريقين في أن يستغل موقع الحضرة - الإقتصادي والسياسي والعسكري - لمصلحته الخاصة.

وهكذا بدأت الحضرة تنمو، وسرعان ما ازدادت المدينة توسعا وبهاء وعمرا، حتى صارت مدينة كبيرة ذات شأن، سكنتها كذلك جاليات أجنبية، تولت الوساطة في البيع والشراء، ونقل تجارة آسيا إلى تجار أوروبا، وتجارة أوروبا وحاصلاتها إلى تجار آسيا.^(٦)

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه قد عثر في الحضرة عام ١٩٤١ م على كتابات آرامية، تؤكد وجهة النظر القائلة بأن من أسسوا المدينة إنما هم قبائل عربية، وذلك بسبب ورود أسماء عربية - بجانب أسماء إيرانية وأرامية، بل أن نسبة الأسماء العربية هنا - في الحضرة - إنما تزيد كثيراً على نسبة الأسماء العربية في الكتابات

(٥) مؤيد سعيد: المراق خلال عصور الاحتلال - كتاب المراق في التاريخ من ٢٥٨ (بغداد ١٩٨٣)، أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ط السادسة - دمشق من ٢١٩.

(6) E.Herzfeld, Hatra, in ZDM, 98, 1914, p. 663.

وكتا Die Araber, p. 275 - 276

وكتا U.Kalirstedt, Aratabanss, III, 67.

وكتا Th. Noldeke, Geschichte der Perser und Araber, 1878, p. 33

F.Altheim, Die Krise der Althen Welt, I, 1943, p. 132, 206

التدمرية، وقد كتبت بلغة آرامية، وكل ذلك إنما يدل على وجود جالية عربية في الحضر (٧).

هذا وقد لقب رئيس معبد الحضر الكبير باسم «سادن العرب»، كما لقب ملوك الحضر أنفسهم بلقب «ملوك العرب» (٨).

بقيت الإشارة إلى أن اطلال مدينة الحضر، إنما تتكون الآن من سور خارجي، وسور داخلي دائري، به حوالى مائتى برج، وأربع بوابات، ويقع فى وسط المدينة حتى المعابد، يحيط به سور كبير من الحجر المستطيل الشكل، ويضم فى داخله قرابة أحد عشر معبدا، لعل من أهمها معبد مبنى من الحجارة المتهدمة للاله «أشور بل»، وهو أحد المعابد التى شيدها كبير الكهنة «نسرورمريا» الذى انحدرت منه الأسرة العربية، الحاكمة فى «الحضر» - على مبعدة ١١٥ كيلا جنوب غربى الموصل -.

هذا ويرجع تاريخ هذه الأبنية - التى ماتزال اطلالها باقية، بما فى ذلك الأسوار والأبراج والقصور والمعابد - إلى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد، وإلى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد.

وأما تاريخ تأسيس مدينة الحضر نفسها، فأغلب الظن - فيما يرجح الباحثون - أنها كانت قرية - وربما مدينة صغيرة - لسكنى عرب البادية فى الفترة فيما بين أخشريات أيام الآشوريين (٩)، وحتى أخشريات العصر الفرسى (١٣٥ ق.م - ٢٢٦ م) (١٠).

(٧) حواد على ٦١٠/٢٢ وكنا F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 276.

(٨) محمد يومى مهران: تاريخ العرب القديم من ٤٩٨، فيليب حتى المرجع السابق من ٨١.

(٩) أنظر نهاية الامبراطورية الآشورية، وسقوط آخر معاقلها فى عام ٦٠٩ ق.م، على يد «سوخد نصر»

البابلى (محمد يومى مهران: العراق القديم من ٤١٩ - ٤٣٢ - الإسكندرية ١٩٩٠)

وكنا M.Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 273 - 274

وكنا C.J. Gadd, The Fall of Nineveh, London, 1923.

(١٠) أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ - دمشق من ٢٩٧ - ٢٩٨، مجلة سومر، العدد ٢٦

لعام ١٩٨٠ من ٢١٠ وما بعدها

(٥) الرها

الرها: هي إديسا عند الروم - أورفا الحالية، إسم لمدينة وإمارة عربية، تقع على مبعده ٢٢ كيلا شمالي حران (حاران)، في جنوب شرق تركيا، قريبا من الحدود السورية، وماتزال معارفنا عنها من ناحية صلتها بالعرب ضئيلة، وقد ازدهرت قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وقد ظهرت حينئذ عدة مدن في تلك المنطقة، مثل «تبنى» و«نصيبين» و«سنجارا» (سنجارا - Singara) (١).

هذا وقد أدخل «بلييني» الأكبر (٢٤/٢٣ - ٧٩م) الرها - فضلا عن «كاليرهو» Callirhoe في جملة المدن العربية، هذا وقد عرفت الرها في السريانية باسم «أورهه» (Orrhae - Orhai) (٢).

وهي في تاريخ بلييني الأكبر (Orroei)، من جملة الأرضين الداخلة في العربية، ثم هي من المدن التي جردها «سلوقس الأول» (ت ٢٨٠ ق.م)، وقد عرفت كذلك باسم «أنطوخية» نسبة إلى «أنطيوخس الرابع» (١٧٥ - ١٦٣ ق.م) (٣).

هذا وقد قامت في القرن قبل الميلاد في هذه المقاطعة (مقاطعة Orroei - Os - rhoene) إمارة أو مملكة صغيرة، اعتبر الكتاب اليونان والرومان ملوكها من العرب، كما عدوا سكانها من العرب أيضا

ويذهب «يروكويوس» - المؤرخ البيزنطي، المتوفى حوالي عام ٥٦٢م - إلى أن هذه المقاطعة، إنما دعت (Osroes) نسبة إلى ملك يدعى Oseroes، كان يحكم هذه الأرض في الأيام الغابرة، وكان حليفا للفرس (٤).

(١) جواد علي ٦١٩ / ٢، مجلة سومر: المجلد الثامن، ١ / ٢٨ لعام ١٩٥٢م.

(٢) المشرق - السنة ١٥ - ٢٠١ / ٣ وما بعدها (عام ١٩٥٢)، وكذا.

Ency., III, p. 993.

(٣) جواد علي ٦١٩ / ٢، وكذا:

Pliny, V, XX, 85, VI, 25, 129, VI, IX, 25, II, p. 285, 355, 437.

وكتا: Ency, III, p. 993, Hill, p. XGIV.

(4) M. Rostovzeff, The Social and Economic History of The Hellenistic World, Oxford, 1941, II, p. 842.

وقد عثر في «حولية الرها» (Edessenc Chronicle) - والمؤرخة بحوالي عام ٥٤٠م - وكذا في حولية أخرى ترجع إلى عام ٧٧٥م، وعلى نقود ضربت في الرها - عثر على أسماء ملوك الرها مرتبة زمنياً، وتشير دراسة أسمائهم إلى أن من بينها أسماء عربية نبطية، مثل «معنو» (معن) و«بكر» (بكر)، و«عبدو» (عبد)، و«سهر» أو «سحر»، أي «سهر» أو «سحر» وغيرهم^(٥).

هذا ويذهب العلماء إلى أن سكان الرها وحكامها، إنما كانوا عربياً، اعتماداً على عدة أمور، منها (أولاً) أن أسماء ملوك الرها - ولاسيما الملوك الأولين منهم - أسماء عربية، ومنها (ثانياً) نص «بليني» على أن كورة Osrboene إنما هي كورة عربية، ومنها (ثالثاً) أن الوضع السياسي العام في «ميزوبوتاميا» (Mesopotamia) في القرن الثاني قبل الميلاد، وفيما بعده، إنما يشير إلى أن القبائل العربية قد توغلت في هذه المنطقة^(٦).

ولعل من الجدير بالإشارة أن الاخباريين إنما ينسبون بناء الرها إلى رجل دعوة: «الزهاء بن البلندي بن مالك بن دعر» أو إلى «الزهاء بن سبتد بن مالك بن دعر بن حجر بن جزيلة بن لحم»^(٧).

وبروي «ياقوت الحموي» - عن يحيى بن جرير النصراني - أن اسم الرها في الرومية «أذاسا» وقد بنيت المدينة في السنة السادسة من موت الإسكندر، بناها الملك «سلوقس»^(٨)، وأن المسلمين قد انتزعوها من أيدي الروم في عام ٦٣٩م^(٩).

وأما معبودات الرها، فهما: عزيزوس (Azizus = Azizos) و«مونيموس» (Monimos)، وهما معبودان عربيان، الأول اسمه «عزيز» والآخر «منعم»، وقد وردا في الكتابات اليونانية التي عثر عليها في «الكورة العربية» (Provincia Arabia) -

(5) Procopius, I, XVII, 24.

(٦) رينه ديمو: العرب في سورية قبل الإسلام، ص ١١.

(٧) جواد على ١٢ / ٦٢٠، وكذا:

F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., I, p. 312.

(٨) ياقوت ١٤ / ٣٤٠، البكر ١١ / ٤٢٥، الاصطخرى: كتاب المسالك والممالك، ص ٧٦ (ط ليدن

١٩٢٧)، ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص ١٥٤ (بيروت ١٩٦٣).

(٩) معجم البلدان ١٤ / ٣٤٠.

وإن إضافتهما بعض الكتاب إلى السريان الوثنيين، وعلى أية حال، فهناك كذلك المعبودات «بعل» و«نبو»^(١٠).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أهمية الرها في الأدب السرياني، ذلك أن اللغة السريانية نفسها، إنما هي لهجة آرامية، نشأت في إقليم الرها، وقد بدأت لغة الرها الأرامية هذه تسمى «السريانية» بعد انتشار المسيحية - تمييزاً لها عن الأراميات الوثنية أو اليهودية - لاسيما أن لفظ «أرامي» كان قد اتخذ في أذهان العامة من القوم في هذا الإقليم مدلولاً يشبه لفظ «جاهلي» عند المسلمين - أي أنه ما يزال لا يؤمن، وإنما يعبد الأصنام -^(١١).

هذا ومن المعروف أن مملكة أو إمارة الرها (١٣٢ ق.م - ٢١٦ م)، إنما قامت في عام ١٣٢ قبل الميلاد، على يد الملك «أريو» (١٧٣٢ - ١٢٧ ق.م) - بمعنى الأسد - ثم جاء من بعده في الفترة (١٢٧ - ٦٩ ق.م) ستة ملوك هم (عبدو بن مزعور - إيرادشت - بكرو الثاني - أيجر الأول - معنو، ثم أيجر الأول - مرة ثانية) وحكم في الفترة (٦٨ ق.م - ٢١٦ م) ١٧ ملكاً.

(10) Ency., III, p. 996.

(١١) جواد على ١٢ / ٦٢١، وكلا:

Hill, op. cit., p. XGV

Mordtmann, Mythologische Miscellen, in ZDMG, 32, 1978, p. 664.

٦ - إمارة حمص

يشبه تاريخ «حمص» (Emesa = Homesa = Hemesa) - من بعض الوجوه - تاريخ مدينة تدمر، فقد حكمتها أسرة عربية، كما ازدهر تاريخها في الحقبة التي ازدهرت فيها حكومات المدن الأخرى، التي ظهرت على أثر الضعف الذي حل بالسلوقيين.

وتقع حمص في السهل الخصب الذي يرويه نهر العاصي (الأورنت = Or- notes)، وعلى مبعده ميل منه، هذا وقد عرفت حمص عند اليونان والرومان باسم "Emesa"، وفي أيام «بومبى» (١٠٦ - ٤٨ ق. م) كانت مدينة «الريستن» (Arethusa) - وتقع على نهر الميماس (العاصي حالياً) في مجازات حمص - كانت مقر أسرة عربية حاكمة^(١)، وفي هذه المدينة ولد القيصر «الأجابالوس» (Elagabalus) (٢١٨ - ٢٢٢ م).

هذا وقد بلغت حمص أوج ازدهارها على أيام «سبتيموس سيفيروس» (١٩٣ - ٢١١ م) وفي أيام «الأجابالوس» (٢١٨ - ٢٢٢ م) و«سيفيروس الإسكندر» (٢٢٢ - ٢٣٥ م)^(٢)، كما كانت أسقفية على أيام البيزنطيين^(٣).

هذا ويذهب العلماء إلى أن ملوك حمص إنما ينتمون إلى أصول عربية، وذلك اعتماداً على أن الأسماء إنما تحمل طابعاً عربياً خالصاً، وهي أسماء إنما ترد في نصوص صنفوية، وفي نصوص عربية أخرى، مما يدل على عروبة ملوك حمص^(٤).

(١) جواد على ٦٢٢ / ٢، باقوت: معجم البلدان ٤ / ٢٤٩، وكنا:

Ency., II, p. 309.

(٢) اعتمادنا في التاريخ للأباطرة على (ادوارد جيرون. اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد على أبو ريدة، القاهرة ١٩٦٩، الجزء الأول، ص ٦٦٧ - ٦٧٤).

(٣) جواد على ٦٢٢ / ٢.

(٤) رينيه ديسو: العرب في سوريا قبل الإسلام، ص ١١، وكنا:

R. Dussaud, Les Arabes en Syrie avant L'Islam, Paris, 1907, p.

10.

وكنا:

F. Althcim and R. Stiehl, op. cit., III, 1968, p. 126.

٨ - مديسن

كان أهل مدين قوما عربيا يسكنون مدينتهم «مدين»، وهي قرية من أرض معان من أطرف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط، وكأنت أرض مدين تمتد من خليج العقبة إلى مؤاب وطور سيناء، ويفهم من أسفار التوراة أن مواطن المدنسة إنما تقع إلى الشرق من العبرانيين، والظاهر أنهم توغلوا في المناطق الجنوبية لفلسطين، وسرعان ما اتخذوا لهم هناك مواطن جديدة، عاشوا فيها أمدا طويلا، حيث يرد ذكرهم في الأخبار المتأخرة.

هذا وقد ذكر بطليموس الجغرافي موضعا يقال له «مودينا» (modiana) على ساحل البحر الأحمر يرى العلماء أنه موضع «مدين»، وهو يتفق وحدود أرض مدين في الكتب العربية، ويذهب المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى» (٣٧ - ٩٨ م) أو (١٠٠ م) أن موسى عليه السلام، قد فر إلى المدينة (modiana) المواجهة للبحر الأحمر، وهذا كله إنما يشير إلى أن مدينة «مدين» إنما كانت معروفة بصفة عامة في أوائل التاريخ المسيحي.

هذا ويذكر «يوسبيوس» (٢٦٤ - ٣٤٩ م) مدينة «مديم» (madiam) ويقول إنها سميت باسم أحد أولاد ابراهيم عليه السلام، من زوجته قطورة، وهي تقع وراء المقاطعة العربية (Arabia) في الجنوب، في بادية العرب الرحل (Sardcems) إلى الشرق من البحر الأحمر، وهكذا فإن «يوسبيوس» - وكذا «سلن جيروم» (٣٤٥ - ٤٢٠ م) - إنما يضعان مدينة «مدين» فيما وراء حدود المقاطعة العربية التي كانت حدودها الثابتة من ناحية الجنوب تطابق تماما الحدود الشمالية لبلاد العرب السعودية، عند السفح الجنوبي لجبل الشراة.

ويذهب «ألويس موسل» إلى أن أرض مدين يجب أن تكون إلى الشرق والجنوب الشرقي من موقع مدينة العقبة الحالية، المعروفة قديما باسم «إيلات»، فهناك كان يمر أهم طريق من طرق النقل التجاري، وكانت تحرس هذه الطرق حاميات من أهل الجنوب من بلاد العرب، وكان المركز الرئيسي لهذه الحاميات في العلا (ديدان) وفي معان (معون)^(١).

(١) محمد بيومي مهراڤ: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢٩٧/١ - ٣٠١ (بيروت ١٩٨٨)، ألويس موسل: شمال الحجاز ترجمة عبد المحسن الحسيني - الاسكندرية ١٩٥٢ ص ٦٩ - ٨٤
ptolemy, Geography, II, 7,27 وكذلك Josephus, Archaeologia, II, 257
Encyclopaedia of Islām III, p.104 .
A. musil, the Noithern of Hegas, n.y, 1926, P.287.

الباب الثاني
العراق القديم

الفصل الأول المدن والمراكز الأثرية فيما قبل العصر التاريخي

تقديم :

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن العراق القديم (ميزوبوتاميا^(١)) إنما قد مرّ - شأنه في ذلك شأن غيره من بلاد الشرق الأدنى القديم - بالعصور الحجرية المختلفة، فهناك العصر: الحجري القديم، وأشهر مواقعه: بردة بالكه: على مبعده $\frac{1}{4}$ ٢ كيلا شمال شرق جمجمال، فضلاً عن «كهف هزارمرد» على مقربة من السليمانية، و «كهف شايندر» جنوب غرب بحيرة أرومية.

وهناك العصر الحجري الوسيط، وأهم مواقعه: «كهف شايندر» (طB)، وقرية «زاوى سمن» على مبعده ٤ كيلا من كهف شايندر، وهناك «كريم شاهر» على مقربة من «كركوك» (أرابخا القديمة) و «ملفعات» فيما بين الموصل وأربيل، ثم موقع «جرد شاي».

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قرية «زاوى سمن» رغم أنها تمثل استقراراً، بل إنها إنما تعد من أقدم مناطق الإستقرار في العراق القديم، وتؤرخ بحوالي الألف التاسعة قبل الميلاد، ويشير إنتاجها الحضارى إلى الإيحاء نحو الزراعة والإستقرار، وهى أهم سمات العصر الحجري الأوسط، ومن ثم فهى تمثل هذا

(١) ميزوبوتاميا: (mesopotamia) لفظ إغريقي ترجمه المؤرخون العرب بمعنى «بلاد ما بين النهرين» أو «بين النهرين»، ورغم دقة الترجمة، فإنها قاصرة غير شاملة، ذلك لأن حضارة العراق القديم لم تكن مقصورة على ما بين النهرين، وإنما امتدت إلى ما حول السهول أيضاً، بل إن طائفة من أقدم المواقع الأثرية كالعبيد، وأرهدو، وأور، وماري، قامت غرب الفرات، وليس فيما بينه وبين دجلة، كما قامت إشنونا وتل أسمر ونوزي شرق الدجلة، وقد فطن الأفاقة أنفسهم إلى قصور لفظ «ميزوبوتاميا» فأضاف إليه بعض «بارابوتاميا» (Parapotamia)، أى ما وراء النهرين وما حولهما، وهنا يحسن القول «بلاد النهرين»، هذا إلى أن تعبير «بلاد الرافدين» أو «حضارة الرافدين» لا يؤدي المعنى كاملاً ذلك لأن روافد النهر إما تختلف عن تعبير النهر ذاته، كما هو معروف (عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول - مصر والعراق - القاهرة، ص ٢٧١).

العصر. وأما بقية مواقع هذا العصر فقد تميز بالمناجل الحادة المصنوعة من الظران، مما يرجح استخدامها في زراعة برية، هذا ويؤرخ موقع «ملفعات» بنهاية الألف السادسة قبل الميلاد، وقد كشف فيها عن بقايا حيطان حجرية غير منتظمة الشكل لمساكن بيشاوية^(١).

وأما العصر الحجري الحديث وأهم مواقعها:

أولاً: في شمال العراق:

(١) تل الصوان: ويقع على الضفة الشرقية للدجلة، قريباً من سامراء، وعلى مبعده ١١٠ كيلاً شمالي بغداد، وقد كشفت الحفريات في أسفل مباني الطبقة (أ) عن جبانة ضخمة تضم أكثر من ١٣٠ قبراً، حفرت أسفل أرضيات الحجرات فوق الأرض البكر مباشرة، وزودت جميعها تقريباً بالكثير من الآنية المرمية المتعددة الأشكال والأحجام من الجرار والأكواب والأطباق، فضلاً عن مجموعة كبيرة من التماثيل الصغيرة الجيدة الصنع، والتي في معظمها لآلهة الأمومة التي تمثل هنا غالباً واقفة.

هذا وقد تميز موقع تل الصوان بالعثور على بعض القطع النحاسية الصغيرة، وإن لم تكن إنتاجاً محلياً، كما تشير مباني تل الصوان إلى تقدم ملحوظ في تشييد المباني، فقد شيّدت من قطع الآجر الكبيرة المستطيلة الشكل وطلبت الجدران من الداخل باللبن، ودفن القوم موتاهم أسفل أرضيات المنازل، كما عملوا على

(1) J. mellaart, Earliest Civilizations of the East, London, 1974 P. 19 - 21.

J. mellaart, in CAH, I, Part, I, Cambridge, 1970, P. 254 - 256.

R. S. Solecki, in Sumer, 8, 1952, P. 127 - 130, 137, 9, 1953, P. 230 - 231, 13, 1957, P. 59 - 60, 14, 1958, P. 106 - 107.

وانظر: محمد ييومي مهران: مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء العاشر، تاريخ العراق القديم، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٥ - ٨.

محصين الموقع، وذلك بحفرة ذات أضلاع ثلاثية، شيد بداخلها حائط ضخيم مزود بركانز، وهي مثال فريد للتحصين في بلاد النهرين في هذا التاريخ المبكر^(١).

(٢) تل حسونة: يقع تل حسونة على مبعدة ٣٥ كيلا جنوبي الموصل، ٨ كيلا شرقي قرية الشورة، وهو موقع صغير (٢٠٠ × ١٥٠ متراً) ويرتفع عن السهل المجاور بنحو سبعة أمتار، ويعد أقدم المواقع الحضارية في صميم السهل الميزوبوتامي، ويعبر عن انتقال مركز الثقل الحضارى من المنطقة الشرقية، وقد كشف في تل حسونة عن ١٧ طبقة أثرية، أقدمها تلك التي تعلو الأرض البكر مباشرة، وتمثل حضارة حسونة، وأما أحدثها فهو الطبقة (XV) من عصر حضارة العبيد، وعلى أية حال اتل حسونة إنما يمثل قرية مستقرة في العصر الحجري الحديث، وإن لم يعثر فيها على أى معدن، ولكنهم توصلوا إلى الزراعة، وخاصة القمح، كما استأنسوا بعض الحيوانات كالأغنام والماعز والخنازير، وبنو مساكنهم من الطمي، وتمثل الطبقة الرابعة معالم واضحة للأقسام التي يتكون منها المنزل، والذي يتكون غالباً من بعض الحجرات التي كانت تتجمع حول أو إلى جانب فناء مكشوف يقع فيه غالباً فرن وحرار لتخزين الطعام وصوامع الغلال.

وقد دفن القوم موتاهم أسفل أرضيات المنازل، وقد عثر بين موقدين من المرحلة الأولى في الطبقة (Ia) على هيكل عظمي لإنسان، وبجواره جرة كبيرة، ربما احتوت طعامه أو شرابه، كما وجد قرب رأسه فأسان من الظران، الأمر الذي قد يشير إلى اعتقاد المقوم في حياة أخرى^(٢).

(١) محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٦ - ١٩، وانظر Sumer, 21, 1965, P. 18 - 21, 24, 1968, p. 58, 26, 1970, Pigs, 39 - 42, 27, 1971, P. 5, 28, 29, 1973, P. 6 - 9.

(٢) محمد بيومي مهران - المرجع السابق، ص ١٤ - ٢٠، طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ١/ ٦٠ (بغداد ١٩٥٥).

S. Lloyd and F. Safar, Tell-Hassuna, JNES, 4, 1945, P. 272 - 286.

(٣) تل حلف: ويقع في مرتفع يطل على نهر الخابور، قرب قرية رأس العين، على مقربة من الحدود السورية التركية، وعلى مبعده ١٤٠ كيلاً شمال غربي نينوى، ويتميز بتوصله إلى استخدام النحاس، حوالى منتصف الألف الخامسة قبل الميلاد، وتشغل حضارة حلف الفترة من أخريات الألف السادسة، وحتى أخريات الألف الخامسة قبل الميلاد، وقد انتشرت هذه الحضارة في الشمال خاصة، وفي مساحات واسعة تمتد من الزاب الأعلى وسفوح جبال زاغروس شرقاً، إلى ما وراء الفرات غرباً، وإلى الحدود التركية وسفوح جبال طوروس شمالاً، وامتدت جنوباً، وجنوب شرق إلى سامراء، وإلى تل الصوان وإقليم مندلى. وتتميز حضارة حلف باستخدام النحاس، ومظاهر حضارية جديدة في العمارة والفخار والنحت على الحجر، وكانوا يدفنون موتاهم في أرضية المساكن، حيث يرقد الميت على جنبه الأيمن، وفي وضع مقرفص، بينما تتجه رأسه نحو الغرب، كما احتوت مقابرهم على بعض أمتعة المتوفى الشخصية، كالأنية الحجرية والأواني الفخارية والأكواب وحيات العقود المرمرية وغيرها^(١).

(٤) جرمو: تقع جرمو على مبعده ٣٥ كيلاً شرقي كركوك، على حافة وادٍ عميق في سهل جمجمال في لواء كركوك (فوق وادى طوق جاي، أحد روافد دجلة)، أي خارج السهل الميزوبوتامي شرقاً، وتبلغ مساحة قرية جرمو، ما بين ثلاثة وأربعة أفدنة، وقد كشف فيها عن ١٦ طبقة أثرية متتالية؛ يؤرخ أقدمها بحوالى عام ٦٧٥٠ ق.م، وإن ذهب «كول» إلى أنها ترجع إلى ما بين ٧٠٠٠، ٦٠٠٠ ق.م، وتضم ما بين ٢٠، ٢٥ منزلاً، ويقدر سكانها بحوالى ١٥٠٠ فرداً، وإن قدرها «طه باقر» بحوالى ٥٠٠ بيتاً، تضم حوالى ٣٠٠ فرداً.

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٠ - ٢٣، وكذا:

J. Mellaart, op.cit.; P. 276 - 278.

وكذا:

Sumer, 22, 1966, P. 56, 25, 1969, P. 134, 27, 1971, P. 20 - 31, 29, 1973, P. 10 - 14

وكذا:

A. parrot, Sumer, London, 1960, P. 43F.

وقد ذهب البعض إلى أن «جرمو» إنما تمثل أقدم قرية زراعية في العراق القديم، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أن «تل حسونة» تمثل أول موقع زراعي، وأن «جرمو» لا تمدو أن تكون مجرد قرية متخلفة، ترجع إلى أخريات العصور الحجرية أو ما بعدها، وعلى أية حال، فلقد كشفت الحفريات عن معرفتها للزراعة والاستقرار، واستئناس الماعز والكلاب، وربما الأغنام والخنازير، وقد بنى القوم مساكنهم من كتل طينية أقيمت في بعض الأحيان على أسس من حجر، وكان المنزل يتكون من عدد من الحجرات الصغيرة، عثر فيها على موافد، احتوى كثير منها على بعض الأواني، وعلى أنواع من الرحى البسيطة قوامها حجران بسيطان، وأطباق فخارية استعملت لفرك الحبوب، وأحياناً للعجن، فضلاً عن المحارث البسيطة، والمناجل المكونة من أسنان الصوان، والأدوات الصوانية، كما عرف القوم الغزل والحياكة، كما تشير إلى ذلك أفراس المغازل الفخارية.

وقد شاع في جرمو استخدام الأسلحة القزمية، التي صنع بعضها من حجر الأوبسديون (الزجاج البركاني)، كما تزين القوم بالأساور والأقراص المثقوبة والخواتم، كما نسب إليهم صناعة تماثيل طينية بدائية لحيوانات ورجال ونساء جالسات ذوات أرداف غلاظ، فضلاً عن تماثيل صغيرة لآلهة الأمومة، كما كشفت الحفريات على ما يشبه عضو الذكر، مما دفع إلى الظن بقيام لون من عبادة الجنس والرمز للخصوبة، فضلاً عن وجود لون من ألوان التفكير الديني نشأ بقيام عبادة الشمس التي قدست على هيئة معبودة^(١).

(٥) سامراء: تقع سامراء على الضفة اليسرى لنهر الدجلة، وعلى مسبعة ١٠٠ كيلا شمالي بغداد، وقد عثر بها على الفخار المزين بالأشكال الحيوانية

(١) محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم ص ١١ - ١٤، رشيد الناضوري: جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ١ / ١٣١ - ١٣٢، وكنا:

P. Mortensen, in Sumer, 18, 1962, P. 74 - 76.

J. Mellaart, op. cit., P. 257 - 259. وكنا:

S. Cole, The Neolithic Revolution, London, 1961, P. 48. وكنا:

والخطوط المتموجة، وقد أطلق عليه «فخار سامراء»، والذي كان يظن أنه يمثل
عصراً حضارياً مستقلاً، غير أنه الآن إنما يعتبر ضمن عصر حضارة حسونة.

بقيت الإشارة إلى أنه قد بنى الخليفة العباسي «المتصم» (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م) عاصمته «سامراء» في نفس الموقع في عام ٢٢١ هـ، ثم انتقل إليها من بغداد، بجيشه وكبار رجال دولته، ثم ظل الخلفاء العباسيون يقيمون في سامراء حتى نهاية عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) ثم عادوا بعد ذلك إلى بغداد، وحتى نهاية الدولة العباسية في عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م^(١).

ثانياً: في جنوب العراق:

(١) أريدو: تقع «أريدو» (أبو شهرين الحالية) في أقصى جنوب السهل الميزوبوتامي، وعلى مسافة ٢٥ كيلاً جنوب غرب مدينة أور، وعلى مسافة ٢٤٠ كيلاً شمال الخليج العربي، وطبقاً للتقاليد السومرية، فإن أريدو إنما هي أول المدن الخمس قبل الطوفان، وأول مقر للملكية، كما أن هناك من يرجح أنها كانت ميناء على إحدى البحيرات الواسعة، وكان لها اتصال بالخليج العربي عن طريق عدد من البحيرات، ومن ثم فقد احترق أهلها الصيد، وقدموه كقربان للمعبود، كما أن كثيراً من مساكنها إنما كانت أكواخاً من بوص، كما كان بعضها من آجر، وأما المباني الدينية فكانت بقايا - كما في أول الطبقات - أربعة حيطان من آجر، شيدت فوق كتيب من رمل، لعله أول تعبير عن المنصة المرتفعة التي يعلوها المعبد (الزاقورة)، والتي سوف تصبح مظهر العبادة في العراق القديم منذ أيام العبيد وما بعدها.

وأما فخارها فيتنتمي إلى عصور أربع حضارات (أريدو - الحاج محمد -

(١) صالح أحمد العلي: العراق في التاريخ ص ٣٨٢، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ١٢ / ٣٨٠ -

٣٨٢ (القاهرة ١٩٦٤)، محمد بيومي مهراڤ: المرجع السابق، ص ١٨، وكذا:

S. Liloyd and F. Safar, op. cit., P. 262 - 266 278 - 286.

العبيد - الوركاء)، وأن أشكاله السائدة إنما هي الأكواب والسلاطين، وأحياناً الأطباق الكبيرة، وقد تعددت ألوانها وزينت بتصميمات هندسية تكثر فيها الخطوط المستقيمة والمتعرجة والمثلثات والقطع، بينما يندر وجود الأشكال الطبيعية الحية^(١).

(٢) الوركاء: (أوروك)، وتقع في منطقة صحراوية شرقي الفرات، في منتصف المسافة بين بغداد والبصرة تقريباً، وعلى مقربة من المدينة العربية «السمارة» (٦٠ كيلاً) ومبعدة ١٢٨ كيلاً شمال غربي أور، واسمها في الأكادية «أوروك»، وفي التوراة التي نسبت بناءها إلى «نمرود» دعيت «أرك»، وقد نسبت إليها حضارة انتشرت في عدة مواقع أثرية في جنوب العراق مثل أريدو ولجش وتل العقير (٨٠ كيلاً جنوبي بغداد)، كما انتشرت في مراحلها المبكرة في شمال العراق في ثبة جاورا، ونيوى، وتل جراى رش بمنطقة سنجار، وهي على أية حال، الحضارة التالية لحضارة العبيد في العراق القديم، وتعتبر ملحمة جلجاميش الوركاء الموطن الأصلي لجلجاميش، وهو أحد ملوك أسرة الوركاء الأولى.

هذا ويعدّ الفخار أهم إنتاج الوركاء المبكر، وهو من أنواع مختلفة شكلاً ولوناً، كما تميزت هذه المرحلة المبكرة بإنتاج عدد أوفر من الأدوات النحاسية في جنوب العراق، على أن القسم الشمالي من حضارة الوركاء إنما قد تفوق بدرجة كبيرة في إنتاج المصنوعات المعدنية التي لم تقتصر على النحاس، وإنما تضمنت أيضاً الذهب والأحجار الكريمة وشبه الكريمة وغيرها، والتي استخدمت في أدوات الزينة، كما يرجع إلى تلك المرحلة أقدم ما عثر عليه من طبقات طينية لأختام الطبع في الجنوب، وإن لم تعبر عن أى مدلول كتابي.

وفي المرحلة الثانية من حضارة الوركاء بدأ التوصل إلى بداية التعبير الكتابي،

(١) محمد بيومي مهراڤ: المرجع السابق، ص ٢٨ - ٢٩، وكذا:

S. N. Kramer, The Delyge, in ANET, 1966, p. 43.

وكذا: M.Mallowan, CAH, I, Part, I, Cambridge, 1971, P. 331 - 341.

A. Jowad, in Sumer, 30, 1974, p. وكذا: A. Parrot, op. cit., p. 52.

31 - 33.

الذي انفرد بتقديمه جنوب العراق، مما أدى بالتالي إلى بداية العصر التاريخي، كما شهدت هذه المرحلة تطورات هامة في مجال العمارة الدينية، التي تميزت بالمعابد الضخمة، التي أقيمت فوق مساطب صناعية من عدة طبقات هي أصل «الزاقورات».

هذا وقد بدأ المجتمع الزراعي منذ أواخر عصر الوركاء (أو منذ بواكير العصر الكتاني الجديد) يصيغ بصيغة مدنية، فنشأت البلدان أو المدن الصغيرة، التي تطورت عن القرى الكبيرة، وامتازت عما يحيط بها من أرضين زراعية، وقرى عادية، باتساع عمراتها اتساعاً نسبياً، وبأهمية معبدها، وقصور حكامها، وكفاية صناعاتها وفنانيها، واتساع مجالات الإنتاج وفرص التشجيع فيها، وإن ظل ذلك كله في حدود نسبية^(١).

(٣) جمدة نصر: وتقع على مقربة من «كيش»، بين بابل وبغداد، حيث عثر على نماذج لحضارة جمدة نصر في الوركاء والعقير وتل أسمر وأور وشورباك وتل العبيد وتولياس، وتتميز بتطور فن البناء والنحت والكتابة، فضلاً عن أن الشطر الثاني منها إنما هو أقرب إلى العصر التاريخي منه إلى عهد ما قبل الأسرات، كما أن العمارة الدينية إنما تتمثل في «المعبد الأبيض» الذي أقيم للمعبود «آن» (أنو) إله السجاء، فوق تل صناعي يرتفع نحو ١٢ متراً عن مستوى السهل الممتد حوله.

هذا ويتميز فخار جمدة نصر بأنه مصنوع على عجلة الفخار، وهو جيد الإحراق والصفل، ومن أحجام مختلفة، كما قدم عصر جمدة نصر كثيراً من نماذج النحت على الحجر، مثل «الإناء النذرى» و«صلابة الأسود»، وهي من حجر الجرانيت الأسود، كما تميزت حضارة جمدة نصر بازدياد مجالات الصلوات

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٣٨ - ٤٢، وكذا:

S. Lloyd, in Sumer, 4, 1948, P. 44 - 49.

وكذا:

A. M. Mallowan, وكذا: B. Abu - AL-Soof, in Sumer, 29, 1973.

op. cit., p. 355 - 361.

الخارجية، والتي امتدت حتى مصر وبلاد الهند، والتي بدأت مع مصر منذ عصر التأسيس وأثناءه، وقد أشار كثير من الباحثين إلى هذه الصلات، اعتماداً على مجموعة الأوراني الفخارية ذات الصنابير المائلة، وكذا ذات الأذان المثلثة في المستجدة والبدارى - بمحافظة أسيوط - هذا فضلاً عن الأختام الإسطوانية الأربعة التي عثر عليها في «جزرة» بمحافظة الجيزة، وفي نجع الدير بمحافظة سوهاج، والتي تنتمي إلى حضارة الوركاء وجمدة نصر في العراق القديم^(١).

(٤) سيبار: وهي أبوجبة الحالية، على مقربة من الفرات، وعلى مسافة ٣٢ كيلاً جنوب غربى بغداد، وطبقاً للثقافة السومرية، فإن «سيبار» كانت واحدة من المدن الخمس فيما قبل الطوفان، هذا وكانت «سيبار» في أكد، مع الإرساء في سومر، المركزين الأساسيين لعبادة إله الشمس (وهو «أنتو» في السومرية، وشمش في الأكديّة) وزوجه «إيا» منذ أقدم العصور، وهناك من يرجح - بسبب صورة إله الشمس التي تعلو المسلة التي نقش عليها شريعة حمورابى - أن هذه النسخة إنما هي نسخة مدينة سيبار (سبر)، وهو المكان المفضل عند حمورابى، والتي ربما كان يقيم بها^(٢).

(٥) الحاج محمد: وتقع على ضفاف الفرات، على مسافة ١٨ كيلاً جنوب غرب الوركاء، وتتميز حضارة الحاج محمد بأدواتها الفخارية العميقة ذات الجوانب المقوسة، وقد زينت بخطوط مائلة وتمرّجة ومربعة وتمثل تطوراً لفخار حضارة أريدو، وقد لون بنفس ألوانه، وإن تأثر بفخار حلف أكثر من فخار أريدو، كما يبدو واضحاً في أوانى «رأس العمياء»^(٣).

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ٤٣ - ٤٩، عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص

٣٧٩ - ٣٨٢، وكذا: H. Frankfort, in CAH, Part, 2, p. 81 - 88, 101.

وكذا: I. E. S. Edwards, CAH, I, Part, 2, p. 42 - 42. وكذا:

H. Kantor, in JNES, Xi, p. 239 F.

(٢) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ١٠٠ - ١٠١، ٢٣٩، وكذا:

S. N. Kramer, The Sumerians, 1970, p. 328 - 331.

(3) M. Mallowan, op. cit., p. 341 - 342, 366 - 367.

(٦) العبيد: وتقع على مبعده بضعة كيلو مترات إلى الغرب من الناصرة، ٦ كيلوا من أور، وتتميز حضارة العبيد بانتشارها في جنوب العراق وشماله، وهي أول حضارة تنتشر في الشمال والجنوب - رغم كونها جنوبية الأصل - وقد ظهر إنتاجها في كثير من المجالات، مثل صناعة الأواني الفخارية الملونة والمزينة. هذا وقد كشف في شمال الجزيرة شرق العربية عن أكثر من ثلاثين موقعاً ينتمى إلى حضارة العبيد، مما جعل البعض يفترض وجود علاقة بين سكان شرق شبه الجزيرة العربية وسكان جنوب العراق، وأن مجموعات بشرية قد هاجرت من شرق بلاد العرب إلى السهل الفيضي القريب منهم، هذا إلى أن الفترة التي بدأت تتكون فيها المدن في العراق، قد توافقت زمنياً مع اختفاء حضارة العبيد في الجزيرة العربية، مما يحمل على الظن بأن هجرة كبيرة نزحت إلى العراق في نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، وهذا يتفق مع ما افترضه العلماء من أن تدفق السكان على سهول العراق إنما كان حاسماً في قيام المراكز المدنية هناك^(١).

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٣٠ - ٣٨، وكذا:

A. H. Masry, Prehistory in Northeastern Arabia, Miami, 1974, p.

1 - 20.

وكذا: A. Parrot, op. cit., p. 54 - 55. وكتنا: M. Mallowan, op. cit., p. 335 - 337, 352, 398.

الفصل الثانى

المدن والمراكز الأثرية منذ العصر السومرى وحتى

قيام الدولة البابلية الأولى

أولاً: العصر السومرى

تقديم :

لعل من الجدير بالإشارة إلى أن المدينة السومرية إنما كانت تتكون من مدينة (وهى «أور - Ur» فى السومرية، و«ألر - Alu» فى الأكديّة) ومجاورتها من الأرضين التى قام سكان المدينة بزراعتها، وأحياناً كانت حكومة المدينة تضم أكثر من مدينة، فضلاً عن عدد من القرى التى كانت تتبع المدينة الرئيسية، مثل حكومة مدينة لجش، التى كانت تضم أرض «جرسو» و«لجش» و«نينا».

هذا وكانت المدينة السومرية تتكون من قسمين، الأول: وهو المدينة الخاصة التى أطلق عليها فى الأكديّة (لبى ألى Libli Ali) أو «قاهلتى ألى» (Qabalti) (Ali)، وهى مصطلحات تدل على القسم القديم للمدينة فحسب، وتمثل فى هذا الجزء الأقسام المسورة التى تحتوى على المعابد والقصر ومكاتب الموظفين وبيوت المواطنين، وأما القسم الثانى فهو «الضاحية» وتقرأ فى السومرية «أور- بار - را» (Ur - Bar - Ra) بمعنى «خارج المدينة» أى «الضاحية» التى تتجمع فيها البيوت والمزارع وحظائر الماشية.

هذا وتقع المدينة الرئيسية فى وسط حكومة المدينة، ويتوسطها معبد إله المدينة الرئيسى، والذى كان يمثل نواة الحياة السياسية والاجتماعية، كما كان صاحب الأرضين فى المدينة، ويجواره معابد المعبودات الأخرى، ذات الصلة بمعبود المدينة، وكانت لها أملاكها الخاصة، الأمر الذى يشير إلى أن معظم أراضي حكومات المدن إنما كانت فى مطلع العصر التاريخى ملكاً للإله، أسوة بما كان عليه الحال

في عصور ما قبل التاريخ، وخاصة في مرحلة ما قبل الكلتية^(١)، وأما أهم مدن العصر السومري فهي:

(١) لجش: وهي الحجة الحالية، على مبعده ٢٠ كيلا شمال شرق «تللو»، وقامت فيها أول أسرة حاكمة في الفترة (٢٥٢٠ - ٢٣٧١ ق.م)، ولم ترد هذه الأسرة في قائمة الملوك السومرية، غير أن الحفريات الحديثة قد كشفت عما خلفه ملوكها من تسجيلات كتابية عن تاريخها في عصر الأسرات السومرية المبكرة، هذا وقد بدأت «لجش» تاريخها مع فجر الحضارة السومرية، وظلت طوال تاريخها مدينة سومرية، حتى انتهت في فترة لا بعد كثيراً عن قيام الأسرة البابلية الأولى (حوالي عام ١٨٩٤ قبل الميلاد)، وقد ظلت منذ ذلك التاريخ مهجورة يخيم عليها النسيان، حتى شغلها «البارثيون» في القرن الثاني الميلادي.

وكان «أورنانشه» (Urmanshe) أول ملك ارتقى عرش لجش، وإن أشارت النقوش إلى إثنين سبقاه إلى العرش، غير أنهما لم يتجاوزا مرتبة الحكام المحليين، وعلى أية حال، فلقد كان «أكورجال» وولده «إيانالوم» من أعظم ملوك لجش، بعد «أورنانشه».

وأما أسرة لجش الثانية (٢٢٣٠ - ٢١١٣ ق.م) فقد غاصرت أخريات أيام الجوتيين، وقد حقق حكامها الوطنيون كياناً مستقلاً لمدينتهم، غير أن استعمالهم لقب «إيشاج»، بدلاً من لقب «ملك»، مما يوحي بلون من ألوان التبعية، وبأن لجش لم تمارس استقلالاً فعلياً، حتى عهد «جوديا» - وربما مارست لونا من ألوان الإستقلال الذاتي النسبي، وعلى أية حال، فإن أسرة لجش الثانية هذه لم ترد في قائمة الملوك السومرية، أسوة بأسرة لجش الأولى، وإن كان «جوديا» - أشهر ملوكها - إنما تزين تماثيله بعض المتاحف العالمية، كالمتحف العراقي والمتحف

(١) محمد بيومي مهران - المرجع السابق، ص ٩٤ - ١٠٣، وكذا:

H. Frankfort, Before Philosophy, 1954, p. 201 - 204.

T Jacobson, JNES, II, 1943, p. 165 - 169, 172, Sumer. 25, وكذا:

1969, p. 104 - 106.

البريطاني ومتحف اللوفر، فضلاً عن إقامته لمعبد لجش الرئيسي، وتزويده باحتياجاته^(١).

(٢) أورما: وهي «تل جرخة» الحالية، وتقع على مبعده ٣٠ كيلاً شمال غرب لجش، وطبقاً للوحة العقيان، فلقد قام «إياناتوم» ملك لجش بحملة على مدينة «أورما» على أيام ملكها «أرش» فأوقع بها هزيمة منكرة، وذلك بسبب الخلاف على الحدود بينهما، غير أن «أورما» في عهد ملكها «الرجال زاحيزي» نجحت في القيام بهجوم خاطف على لجش، فاضرمت النار فيها، ونهبت ثرواتها، واستولت على معابدها وحطمت أصنامها، ثم سرعان ما أسس «الرجال زاحيزي» دولة كبيرة، وإن كان عمرها قصيراً، لم يتجاوز ربع القرن، طبقاً لقائمة الملوك السومرية، وإن كان هناك من جعلها ٢٩ عاماً (٢٤٠٠ - ٢٣٧١ ق.م)، ومن جعلها ٢٤ عاماً (٢٣٤٠ - ٢٣١٦ ق.م)، وأياً كان الصحيح من هذه الأرقام، فإن «الرجال زاحيزي» قد نقل عاصمته من «أورما» إلى «الوركاء» واعتبر نفسه ملكاً على سومر (الرجال كالاما)^(٢).

(٣) نيبور: تقع نيبور - وهي نقر الحالية - على مبعده ١٦٠ كيلاً جنوبي بغداد، وفي منتصف المسافة تقريباً بين «كيش» و «شورباك»، وتعتبر نيبور من أهم المراكز الثقافية السومرية في العراق القديم، ورغم أنها لم تكن أبداً مقراً لأية سلطة سياسية، فقد كانت أكبر مدينة مقدسة عند القوم، وربما أكبر مركز ديني في بابل، كما أن إنليل، معبود المدينة إنما كان رئيس مجمع الآلهة البابلي، هذا وقد أمدتنا الحفريات التي أجراها عدد من المعاهد الأمريكية منذ عام ١٨٨٩م، بالآف

(١) محمد يومي مهران: المرجع السابق، ص ١٠٣ - ١٠٦، ١٦٣ - ١٦٧، وكذا:

J. Bottero, The Near East, 1967, p. 120 - 124

S. N. Kramer, op. cit., P. 303 - وكذا:

G. Roux, Ancient Iraq, (Penguin Books), 1980, p. 125

(٢) محمد يومي مهران: المرجع السابق، ص ١٠٦ - ١٠٨، ١١٢ - ١١٤، وكذا:

S. N. Kramer, op. cit., p. 310

G. Roux, op. cit., p. 137 - 139
- 313, 323 - 324

اللوحات المكتوبة والجذاذات التي صنفت في الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد، والتي تدل بوضوح على مدى انتشار الثقافة السومرية، كما تغطي مراحل تاريخ المدينة حتى العصر الفرقي .

هذا وقد كشفت حفريات جامعة بنسلفانيا الأمريكية في نيبور عن واحدة أخرى من روايات قصة الطرفان دونت على كسرة من الفخار غير المحترق، ذهب «هيلبرخت» أنها لم تدون إلا بعد عام ٢١٠٠ قبل الميلاد^(١).

(٤) كيش: وتمثلها الآن مجموعة من التلال، على مبعده ١٦ كيلاً شرقي بابل، وعلى مقربة من «أكد» عاصمة سرجون الأول، وأشهرها تل الأجير، وتل أنجارها، وتقدم لنا «كيش» صورة عن التنظيم السياسي المبكر لحكومة المدينة السومرية، والذي يشهد مرحلة هامة في تاريخ الفكر الإنساني، فهو يشهد بتواجد «التفكير الديمقراطي» في بداية العصر التاريخي، وانتخاب الحاكم الذي يرأس حكومة المدينة، بناء على قرارات الجمعية العمومية، والتي كانت تضم جميع الرجال الأحرار في المدينة، وربما اشترك النساء فيها أيضاً، وكان من حقها إصدار القرارات الهامة - خاصة قرارات الحرب - وأن تمنح السلطة العليا في البلاد (الملكية) لواحد من أعضائها.

هذا وتشير قصة الصراع بين لجش وأرمأ، على أيام أسرة لجش الأولى (٢٥٢٠ - ٢٣٧١ ق.م) على موارد المياه ومنطقة الحدود، على أن «كيش» إنما

(١) ليو أوبنهايم: بلاد ما بين النهرين ص ٥٠٠ - ٥٠١، محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٥٩، ٨٠، وكنا: T. Jacobsen, AS, II, p. 58 - 59، وكنا:

A. Poebel, in PBS, V, 1914

S. N. Kramer, The Deluge, ANET, 1966, p. 277، وكنا: KFTS, p. 277، وكنا: 42 - 44

وكنا:

J. P. Peters, Nippur, in Excavations on the Euphrates, 2 Vols, 1897.

كانت تمارس سلطانا واضحاً على «سومر» في عهد مليكها «مسلیم» الذي دانت له لجش وغيرها من المدن في جنوب العراق^(١).

ثانياً: في العهد الأكدي

(٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق.م.)

(١) أكد: هي المدينة التي أسسها «سرجون الأكدي» (٢٣٧٠ - ٢٣١٥ ق.م.) لتكون عاصمة لدولته، وإن لم ينتقل إليها، إلا بعد أن فرض نفوذه على البلاد، في أعقاب انتصاره على «لوجال زاخيزي» ملك الوركاء (على مبعده ٦٠ كيلا من مدينة السماوة، ١٢٨ كيلا شمال غربي مدينة أور)، ثم القضاء على مقاومة المدن السومرية المناوئة.

وكانت تسمى في الأكديّة «أكد» أو «أكادو» (Akkadu)، وفي السومرية «أجاد» أو «أجادة» (Agade)، وهو الإسم القديم للمدينة، وقد جاء اسم «أكد» في سفر التكوين (١٠ / ١٠). وتقع «أكد» على مقربة من «كيش» في جنوب العراق، في مكان غير محدد بعينه على وجه اليقين حتى الآن، وإن رأى «أندريه بارو» أنها ربما كانت قرية «الدير»، وتقع على مقربة من ناحية اليوسفية، وعلى مبعده ١٨ كيلا غربي بغداد، فيما يرى آخرون، وقد ظلت «أكد» عاصمة للدولة التي عرفت باسم (الدولة الأكديّة ٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق.م.) حتى قضى عليها الجوتيون، ثم حكموا البلاد في أعقابها.

هذا وتعرف منطقة (Mat Akkadi)، والممتدة حول مدينة «أكد» باسم عاصمتها، ومنطقة أكد هي الجزء الشمالي من أرض بابل، وسومر هي الجزء الجنوبي، وفي العصر الكلداني (العصر البابلي الأخير) أطلق إسم «أكد» على بلاد أكد وسومر معاً.

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٩، ١٠٥، وكذا: Jacobsen, JNES,

C. J. Gadd, op. cit., p. 118, II, 1943, p. 165 - 166, 172

وكذا: T. Jacobsen, Sumer, 25, 1969, p. 103 - 104.

وعلى أية حال، فإن تجمع العناصر السامية إنما كان في جنوب العراق، وذلك لجاورة هذه المنطقة لمنطقة الفرات الأوسط التي وفدت إليها الهجرات السامية منذ مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، ومن ثم فقد أطلق على هذه المنطقة - ونفسم بابل وكيش وأكد - «أرض أكده»، بينما أطلق على القسم الجنوبي - ويمتد من نيبور شمالاً، وحتى أريدو جنوباً - «أرض سومر».

واللغة الأكديّة إسم جامع أطلقه البابليون على لفهم البابلية، وعلى لغة إخوانهم الآشوريين كذلك، كما أن العلماء المحدثين إنما يطلقون إسم «اللغة الأكديّة» على اللهجات البابلية والآشورية المختلفة، فإذا أرادوا التمييز قالوا: البابلية القديمة والآشورية الوسطى، واللغة الأكديّة القديمة هي لغة دولة أكد الأولى (٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق.م) خاصة (١).

ثالثاً: في عهد أسرة أور الثالثة

(٢١١٣ - ٢٠٠٦ ق.م)

(١) أور: كشف عنها «تايلور» (J. E. Taylor) - القنصل البريطاني في البصرة - عام ١٨٥٤م، والذي كان يعمل لحساب المتحف البريطاني في لندن، وذلك في مكان «تل المقير» - وتقع على مبعده ١٩٠ كيلاً إلى الشمال من مدينة «البصرة» الحالية، ١٦ كيلاً شرقي نهر الفرات حالياً في منتصف المسافة تقريباً بين بغداد والخليج العربي، وتدل الحفريات على أن «أور» إنما كانت في بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، مدينة عظيمة يسكنها كثير من الأغنياء الذين ابتوا لأنفسهم منازل من الآجر المحروق.

هذا وقد أوضحت الحفائر البريطانية أيضاً في «أور» فيما بين عام ١٩٢٢،

(١) محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٨٧، ٩٢١، ١٢٤، سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٢٥١، فاضل عبد الواحد: السومريون والأكديون، ص ٧٤، وكذا:

E. Weidner, in AFO, 16, 1952, P. 1 - 24.

S. N. Kramer, in ANET, 1969, p. 43.

وكذا:

وانظر: أندريه بارو: المرجع السابق، ص ٣٣١.

١٩٣٤م، فضلاً عن الوثائق المسماة التي اكتشفت في مواقع أخرى، على أن أور، إنما كانت تعيش في أوفر درجات الرخاء في الفترة ٢٠٠٦ - ١٩٥٠ ق.م)، عندما دمرها العيلاميون.

وهناك ما يشير إلى أن «أور - نامو»، مؤسس أسرة أور الثالثة (٢١١٣ - ٢٠٠٦ ق.م) إنما كان شديد الاهتمام بعاصمته «أور» ذات الهيئة البيضاوية، فأعيد تسمير هذه المدينة التي كانت تطل على الفرات بميناء ذي أرصفة واسعة، وقد حماها الماء من ثلاث جهات، وبلغت مساحتها نيفاً ونصف ميل طولاً، وربع ميل عرضاً، والتي امتدت حولها ضواحيها، وشغلت معها مساحة قدرها نحو أربعة أميال طولاً، وميل ونصف الميل عرضاً، وقد أطل سور المدينة من داخله على مساحة متسعة (مساحتها ٤٠٠ × ٢٠٠ ياردة) قامت فيها معابد الآلهة الكبرى «نانا» (ننار) وزوجه «نينجال» وحاشيتهما، هذا ونظراً لأهمية سور المدينة فقد سمي «أور - نامو» العام الذي أقام فيه السور باسم «العام الذي بنى فيه سور أور». هذا وقد أهتم بأور الملك «شولجي» (٢٠٩٥ - ٢٠٤٨ ق.م) وقد وصفها بأنها «المدينة التي على شاطئ البحر»، ويمثل «إيبى - سين» (٢٠٢٩ - ٢٠٠٦ ق.م) آخر الأسرات السومرية في التاريخ، وإن ظلت «أور» محتفظة بأهميتها إلى القرن السابع قبل الميلاد، ولكن تراكم الرمل في مصب الفرات قضى نهائياً على المدينة، وإن ظلت مسكونة حتى العصر الفارسي.

هذا وكانت «أور» مركز عبادة إله القمر «سين» وزوجة «نينجال» (ننجل) وولدهما «نسكو»، وزوجة «سدرننا»، ثم انتقلت عبادة هذا المعبودات إلى «حران» - وتقع على نهر بلخ، على مبعده ٩٦ كيلاً من اتصاله بالفرات، وإلى الغرب من تل حلفا - ثم انتشرت عبادة إله القمر من أور إلى كل أرجاء بابل، ومن حران إلى سورية وفينيقيا.

بقيت الإشارة إلى أي مدينة «أور» التي ذكرت التوراة أن إبراهيم عليه السلام

قد قدم منها، هناك من يرى أن «أور» هذه ليست في بابل، ولا تقع على الخليج العربي، وإنما هي من إقليم العراق الأعلى في منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات (١).

رابعاً: إيسين ولارسا

(١) إيسين: وتعد كبرى عراصم الأموريين، وهي الآن «إيشان بحريات»، جنوب عفك الحالية، على مبعدة ٣٠ كيلاً جنوب «نيبور» (نفر)، وقد اصطنع ملوك أسرة إيسين (٢٠١٧ - ١٧٩٤ ق.م) لقب «ملوك سومر وأكد»، كما اصطنعوا الصفات الإلهية، وقاموا بأعمال عمرانية في أنحاء البلاد، كما رموا كثيراً مما خرب على أثر سقوط أسرة أور الثالثة في عام ٢٠٠٦ ق.م، هذا فضلاً عن تأثرهم كثيراً بالثقافة السومرية - رغم أنهم من أصل أموري سامي - ومن ثم فقد استخدموا اللغة السومرية في تدوين مكاتباتهم الرسمية، وعلى أية حال، فلقد حكم في هذه الأسرة ١٥ ملكاً، كان أولهم «إيشي أرا» (٢٠١٧ - ١٩٨٥ ق.م)، وآخرهم «دمق إيليشو» (١٨١٦ - ١٧٩٤ ق.م)، وإن كان من أشهرهم «لبت عشتار» (١٩٣٤ - ١٩٢٤ ق.م) صاحب التشريعات المشهورة، وترجع إلى عام (١٩٢٤ ق.م)، ولم يبق منها سوى ٣٨ مادة، باللغة السومرية، حفظت لنا في

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ١ / ٦١ - ٧٢، تاريخ العراق القديم، ص ١٦٩ - ١٩٠، موسكاتي: المرجع السابق، ص ٢٥٥، تكوين ١١ / ٢٨، ٣١، ٧ / ١٥، وكذا:

W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 42 - 44.

W. F. Albright, The Biblical Period, from Abraham to Ezra, وكذا: 1963, p. 4.

E. Dhorme, Langues ecrites semitiques, Paris, 1930, p. 54 - وكذا: 60, 83 - 86.

وكذا:

L. Woolley, Excavations at un, 1963, p. 11 F, ur of the chaldees, 1929.

J. Finegan, Light from the Ancient Past, I, 1969, p. 70 - 74. وكذا:

سبعة ألواح، عشر على ستة منها في نيبور، ومحفوطة الآن بمتحف الجامعة في لندن، والسابعة في متحف اللوفر، ومصدرها غير معروف^(١).

(٢) لارسا: وهي تل سنكرة الحالية، على مبعدة ٣٠ كيلا شمال غرب الناصرية، ٤٨ كيلا شمال شرق الديوانية، وقد قامت فيها أسرة لارسا (٢٠٢٥ - ١٧٦٣ ق.م)، حكم فيها ١٤ ملكاً، كان أولهم «نابلائوم» (٢٠٢٥ - ٢٠٠٥ ق.م)، وآخرهم «ريم سن» (١٨٢٢ - ١٧٦٣ ق.م)، الذي قضى عليه «حمورابي» ملك بابل في عام ١٧٦٣ ق.م، وبذا انتهت أسرة لارسا إلى الأبد^(٢).

خامساً: مملكة أشنونا

(١) أشنونا: ومكانها الآن «تل أسمر» الحالية، وتقع بين نهر دجلة وجبال زاغروس، وعلى مبعدة ١٦ كيلا شرق نهر ديبالي، وتقع أراضيها الآن ضمن محافظتي بغداد وديالي، وقد كان يتبع مملكة أشنونا هذه عدة مدن، يمثلها الآن: تل حرمل وخفاجي وتل الصنباي وشجالي، وكان تل حرمل - ويقع على مبعدة ٩ كيلا شرقي بغداد - يمثل ضاحية من ضواحي أشنونا تسمى «شادوبم»، ومركزاً إدارياً لمملكة أشنونا بعد استقلالها في آخريات أسرة أور الثالثة، وقد عثر فيها على مجموعة من الألواح تتضمن نصوصاً تمثل نواحي المعرفة، فضلاً عن قانون لا تعرف مشرعه، ونسبه «طه باقر» و«جوتزة» إلى ملك دعواه «بلالاما»، ثم عدل الأخير عن رأيه هذا، واكتفى بنسبة التشريع إلى مدينة أشنونا، بقيت منه ٦١ مادة، عالجت أهم جوانب الحياة في عصرها.

(١) محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٩٣ - ٢٠٢، وكذا:

S. N. Kramer, ANET, 1966, p. 159 - 161

وكذا: G. Raux, op. cit., p. 171-174 وكذا: CAH, I, Part, 2, 1971, p. 1000

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٠٢ - ٢٠٤، ن. ديلاهورت: بلاد ما بين النهرين من

٤٢ - ٤٤، عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤٥٤، وكذا:

C. J. Gadd, op. cit., p. 636 - 637

هذا وقد كان لأشئونا - حتى سقوطها في أيدي حمورابي البابلي عام ١٧٦١ ق.م - دور كبير في عصرها، ربما بسبب تراثها الذي كان نتيجة امتلاكها أرضين خصبة، تغذيها شبكة من القنوات وفروع الأنهار، فضلاً عن موقعها الجغرافي المتوسط، الأمر الذي كان له كبير الأثر في تجارتها^(١).

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٠٥ - ٢١٠، رضا جواد الهاشمي، حضارة العراق ١٢ / ٧٥ - ٧٦، وكذا:

Taha Baqir, Tell - Harnal, Sumer, II, 1946, p. 23 - 30, IV, 1948, p. 137 - 138, 153 - 173.

وكذا:

A. Gactze, in ANET, 1966, p. 161 - 163, Sumer, 4, 1948, p. 63 - 102.

G. Roux, op. cit., p. 173 - 175

وكذا:

A. Pohl, Orientalia, 8, 1949, p. 124 - 128

الفصل الثالث المدن والمراكز الأثرية منذ قيام الدولة البابلية وحتى قيام الدولة الآشورية (١) بابل: كبرى عواصم العراق القديم

بابل: مدينة قديمة تقع على نهر الفرات، على مبعده ٩٠ كيلاً جنوبي بغداد، ويقع على أطلالها حالياً: تل بابل والقصر وعمران بن علي والمركس، فضلاً عن عدة قرى أخرى مثل: عنابة وكويرش وجمجمة واندسار، هذا ورغم أن التنقيبات في بابل لم تتقدم بسبب ارتفاع مستوى المياه الجوفية إلى أكثر من طبقة العصر البابلي القديم، غير أنه يجوز أن نفترض أن المدينة كانت قبل وصول الأموريين - أو الساميين الغربيين - إليها، مجرد بلدة عادية، عرفها السومريون باسم «كدنجيرا»، فأحالتها الأموريون إلى حاضرة كبيرة، وأحسنوا استغلال موقعها التجاري والزراعي في أضيق منطقة خصبة، يتقارب فيها نهرا دجلة والفرات.

ثم أطلق الأموريون عليها اسم «بابل»، وهو أسم ليس هناك ما يمكن تأكيده عن معناه، وإن كان الشائع هو ترجمته بمعنى «باب إله» أى «باب الإله»، ويذهب أصحاب هذه الترجمة إلى أنها قرية مما تدل عليه التسمية السومرية «كدنجيرا» التي أستمرت تستخدم إلى جانبها، مع مترادفات أخرى مستحدثة^(١).

وأما معنى اسم بابل في التوراة، فيقدمه لنا سفر التكوين في قصة - أوقل أسطورة طريفة - تقولك إن الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - قد رأى سلالة الناجين من الطوفان ينون برجاً بغية الوصول إليه - سبحانه وتعالى - في علياء سمائه، وكانوا يحسبون السماء أشبه بلوح زجاجي، يعلو على الأرض بضع مئات من الأمتار، فخشى شرمهم، واحتاط لنفسه، فهبط الأرض، وبلبل ألسنتهم، ففترقوا

(١) محمد بيومي مهران: بلاد الشام من ٦٦ - ٧٦، عبد العزيز صالح، المرجع السابق ص ٤٥٨،

قاموس الكتاب المقدس ١٥٢/١.

وكذا - M.F.Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 115 - 118.

شذر مذر، ومن ثم فقد كفروا عن بينان المدينة، لذلك دعى أسمها «بابل» لأن الرب هناك بلبل ألسنتهم، ومن هناك بددهم الرب على وجه الأرض كلها^(١).

وعلى أية حال، فإن «برج بابل» هذا، ربما كان هو «زاقورة بابل»، وقد شاهده الكتاب الأغارقة، بعد أن خرب، وطبقاً لرواية «هيرودوت» (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م) فقد كان يتكون من ثماني طبقات^(٢) يمكن الوصول إليها عن طريق درج خارجي، وبذهب «ديودور الصقلي» (٨٠ - ٣٠ ق.م) و«سترابو» (٦٣ - ٢١ ق.م) إلى أن برج بابل إنما كان على شكل هرم مربع القاعدة، وهو على أية حال، إنما يشكل جزءاً من معبد «مردوك» - معبود بابل - ويدعى في النصوص المسمارية «اي - تمين - إن - كي» (E-Temen-an-ti) بمعنى «البيت الذي أسسه السماء والأرض»، ويتكون من صحن كبير في داخله، وعلى مقربة من النهر «زاقورة» (Ziqquratu) (برج بابل، والتي يبلغ ارتفاعها ٩٠ متراً ومساحة قاعدتها ٩١×٩١ متراً مربعاً)، وقد هدم برج بابل في عام ٤٧٩ ق.م، على يد الملك الفارسي «أكزركسيس الأول» (٤٨٤ - ٤٦٥ ق.م)^(٣).

هذا ورغم أن هناك من يرجح أن بابل قد أنشأها الأكديون، غير أن ذلك أمراً لم يثبت بعد، وعلى أية حال، فلقد ذكرت منذ العصر الأكدي، غير أن دورها السياسي لم يبرز إلا في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، بعد أن اختارها الأموريون الساميون عاصمة لهم (أسرة بابل الأولى)، وإن كتاب العهد القديم (التوراة) والمؤرخون الإغريق لم يتطرقوا إلى ذكرها، إلا منذ عهد «نبوخذ نصر الثاني»

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢٩٠/٣، نكوبن ١/١١-٩

وكذا: M.Gray, Near Eastern Mythology, London, 1969, p. 104 - 105.

(٢) يفترض أن الزاقورة من سبع طبقات، وليس ثمان، تملؤها غرفة الإله، وكان يتم ارتقاء الزاقورة عن طريق ثلاثة سلالم متعامدة، فثنان منها تلاصق الضلع الجنوبية للزاقورة، والثالث عمودي عليها (مؤيد سعيد: حضارة العراق ١٨٠/٣، موسكاتي: المرجع السابق: ص ٢٦٠ - ٢٦١).

(٣) هنري عسودي: معجم الحضارات السامية - بيروت ١٩٨٨ ص ١٩٢ - ١٩٣، مؤيد سعيد: المرجع السابق ص ١٧٩، محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم ص ٢١٦.

(٦٠٥-٥٦٢ ق.م)، وكانت وقت ذلك في أوج عظمتها، وإلى هذا الملك الكلداني تنسب «حدائق بابل المعلقة» لزوجه المبدية «إميش» - والتي دعته المصادر الكلاسيكية «أموهين» - في الرواية الشمالية الشرقية من القلمة الجنوبية - فيما يرى العلماء الألمان - فضلا عن قصره الكبير، والمكون من ١٧٢ غرفة وزاقورة من اللين - كما سنشير فيما بعد - .

وتشير النصوص القديمة إلى أنه كان في بابل ٥٣ معبداً رئيسياً، ٣٦٠ محراباً ثانوياً، أشهرها دونما أي ريب، إنما كان «معبد مردوك»، كما كان للمدينة ثمانية أبواب رئيسية، أحدها باب «عشتار» إلهة الخصب، ويقع في الجهة الشمالية، يليه رواق طوله ٣٠ متراً، يفضى إلى صالة الاحتفالات ومعبد مردوك. (مردوخ)^(١).

وليس هناك من ريب في أن اختيار الآموريين مدينة «بابل» عاصمة لدولتهم، إنما كان اختياراً موفقاً، لأسباب كثيرة، منها أنها تقع وسط العراق بصفة عامة، فضلا عن وقوعها وسط المناطق التي يتركز فيها العمران والسكان، هذا إلى جانب منعتها الطبيعية، ومنها طريقة الري الفعالة للأرضين الصالحة للزراعة في بابل ومجاواتها، ومنها أنها تقع على الفرات، وهو نهر صالح للملاحة، الأمر الذي عاد بفائدة كبيرة على التجارة والملاحة في آن واحد.

وقد أدى ذلك كله إلى ازدهار المدينة في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، خاصة على أيام أسرة بابل الأولى (١٨٩٤ - ١٥٩٥ ق.م) التي شهدت فيها البلاد نهضة تاريخية شاملة، سبب توحيد البلاد، ومركزية الحكومة، وعنايتها بنشر الأمن والعدل.

وقد أثبتت الحفريات أنه كانت توجد منذ ذلك العهد قواعد لتخطيط مدينة

(١) أنسويه بارو: المرجع السابق ص ٢٣٤، مؤيد سعيد: المرجع السابق ص ١٧٦ - ١٧٩، محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم ص ٢١٥ - ٢١٦. وكنا M.F.Unger, op.cit, p. 115 - 116.

بابل، وقد اتبعت هذه القواعد حتى نهاية عصر الإمبراطورية البابلية الحديثة، ولعل أهم ما يميز هذا التخطيط أن الطرق الكبيرة كانت موازية جميعها للطريق المقدس، وتتقاطع متعامدة مع الطرق الأخرى، في حين أن بيوت المدن السومرية القديمة إنما كانت مجمعة دونما أى نظام، كما لم يكن للطرق إتجاه ثابت^(١).

وكان معبد «مردوك» (Marduk) في بابل - ويدعى «إسجتل» (E.Sag-il) بمعين البيت العالى الرأسى - مركزاً تشعب منه علوم الدين والسحر، وفي الواقع قلقد ارتبط «مردوك» ببابل، حتى أن النبى العبرانى «إرميا» (٦٢٦ - ٥٨٠ ق.م) إنما يقول عند سقوط بابل في أيدي الفرس في عام ٥٣٩ ق.م، «قولوا: أخذت بابل، خزى بابل (لقب مردوك بمعنى السيد أو البعل)، إنسحق مردوخ، مما يشير إلى أن مردوك إنما قد شارك بابل مصيرها التمس.

وتصف لنا مقدمة قانون حمورابى كيف أصبح مردوك صاحب المكانة العليا في امبراطورية بيل، وذلك حين قرر «أنو» و«إنليل» السيادة لمردوك على الناس، ثم جعلاً لمدينة بابل السيادة فى العالم، وأقاما لمردوك فيها ملكاً دائماً، له أسس راسخة رسوخ السماء والأرض، وقد أسبغا عليه من الصفات ماجعل الآلهة الأخرى، مجرد جوانب من شخصه، فمثلاً أصبح «نرجل» هو مردوك إله الحرب، و«إنليل» هو مردوك إله السيادة والفصل فى الأمور، و«نبر» هو مردوك إله الحظ، و«سين» هو مردوك منير الليل، و«شمش» هو مردوك إله العدل، و«أدد» هو مردوك إله المطر، وهكذا - كما تركزت فى عشتار الإلهات جميعاً - استوعب مردوك فى ذاته الآلهة جميعاً.

وأما زوجة مردوك فهى «زريانتيم» أو «صربانتيم» (Sarpanitum) بمعنى «الفضية، أو«اللامعة كالفضة»، فقد ارتبطت مكانتها أيضاً بمدينة بابل، كما ظلاً

(١) محمد عبد القادر: الساميون فى العصور القديمة ص ٩٦ - ١٠٧، برؤيد سعيد: العراق فى التاريخ ص ١٠١ - ١٠٢، محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٢١٧ - ٢١٨.

مبجلين على أيام الآشوريين والكلدانيين والفرس والسلوقيين (١).

هذا وقد اهتم «حمراربي» (١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق.م) بإعادة تخطيط عاصمته بابل، على نحو لم يسبق له مثيل، حتى أنظفأت أمام بهائها وفخامتها كل العواصم الأخرى فى غربى آسيا، وأصبحت فى كل منطقة الشرق الأدنى القديم حديث الأم والشعوب، وموضع إعجابهم، بل تسربت عظمتها إلى الأساطير.

وظلت بابل العاصمة - بعد الأسرة البابلية الأولى (١٨٩٤ - ١٥٩٥ ق.م) - على أيام الكاشيين (أسرة بابل الثالثة ١٥٩٥ - ١١٥٧ ق.م)، وعلى أيام أسرة بابل الرابعة (أسرة إيسين الثانية ١١٥٦ - ١٠٢٥ ق.م).

وقد وقعت بابل فى أيدي الحيثيين على أيام ملكهم «مورسيليس الأول» (١٦٢٠ - ١٥٩٠ ق.م)، ثم حاولوا التوسع جنوبا، ولكن وقفت فى سبيل ذلك دولة البحر الناشئة وكسرت شوكتهم، ثم سرعان ما عاد «مورسيليس» إلى عاصمته «بوغازكوى»، وقد حمل معه تمثالى الإله مردوك وزوجته اللذين تركهما عند مدينة «عانة» على الفرات، وترك بابل فريسة سهلة للكاشيين الذين سرعان ما احتلوا فى عام ١٥٩٥ ق.م.

وفى عام ١١٦٠ قبل الميلاد، إحتل العيلاميون - بقيادة ملكهم شترك نخنته - بابل ولدة سنوات، ثم طردهم زعيم وطنى من مدينة إيسين، يدعى «مردوك - كابت - أهيشو» (١١٥٦ - ١١٣٨ ق.م) وحكم لمدة ثلاث سنوات (١١٥٩ - ١١٥٧ ق.م)، ثم جاءت بعد ذلك عدة أسر بابلية (١٠٢٤ - ٥٣٩ ق.م) لاشك

(١) محمد بيومى مهراڤ: المرجع السابق ص ٢٣٥ - ٢٢٨، موسكاتى: المرجع السابق: ص ٢٦٠-٢٦٣ لرميا ١/٥٠ - ٤٦.

وكذا S.Lloyd, Foundation in The Dust, (Penguin Boots, 1955, p. 214 - 215)

وكذا A.Heidel, The Balylonian Genesis, Chicago, 1915, p. 60.

وكذا E.Dhorme, op.cit. p. 139 - 156. 168 - 170.

في أن أشهرها الأسرة الكلدانية (٦٢٦ - ٥٣٩ ق.م.) (١).

وفي عهد أشهر ملوك الأسرة الكلدانية «نبوخذ نصر الثاني» (٦٠٥-٥٦٢ ق.م.) نشطت حركة العمران في بابل، كما لم تنشط من قبل، وبلغ محيط عمراتها ١٨ كيلا، وروى المؤرخون الأغارقة أن أسوارها كانت دائرية، وقد أحاطت بها أربعة خطوط دفاعية ضخمة.

ولعل من أهم مباني «نبوخذ نصر» في بابل قصره الجنوبي (قلعة نبوخذ نصر)، وهو قصر كبير تكاد مساحته تبلغ ٥٢ ألف متر مربع، وقد توسط الجدار الشمالي للمدينة، وبنى داخل حصن كبير، على عادة القصور الملكية هناك، ومدخله من الشرق من الساحلة الكبيرة المكشوفة، الواقعة بين القصر وشارع الموكب، وفي القصر أكثر من ١٧٢ غرفة، فضلا عن عدة بيوت سكنية للحاشية وخدم القصر، ويطل جناح الملكة غربا على نهر الفرات، ويعزله عن النهر بناء كبير، يبلغ طوله حوالي ٢٥٠ م وسمك جداره ٢٥ مترا، وفي وسطه ساحة مستطيلة تحوى على بقايا غرف كثيرة، ويعتقد - أنه إن كانت هناك حقا حدائق معلقة في بابل - فلا بد أن تكون في هذا البناء، مما يتيح إنشاء حديقة مدرجة على النهر.

وأما قصة حدائق بابل المعلقة هذه، فتذهب المصادر الكلاسيكية إلى أن الملك البابلي «نبوخذ نصر» الثاني (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م.) قد تزوج من ابنة الملك الميدي «كي أخسار» (كياكسارس) والتي دعوها «أموهين» (أريتان أو أميتان) ومن عجب أن يذهب المؤرخون اليونان والرومان إلى أن «نبوخذ نصر» قد شيد لزوجه

(١) محمد بيومي مهراڤ: المرجع السابق ص ٢٢١-٢٨٨-٢٨٩، ٢١٣-٢١٤، ليو أوبنهايم: المرجع السابق ص ٤٤٨ - ٤٤٩.

وكذا O.R.Gurney, The Hittites, و G.Roux, op- cit, p. 225 - 226
1969, p. 23 - 24.

وكذا J.J.Finterlstein, in RA, LXIII, 1969, p. ٦٤.

الميدية «الحدائق المعلقة في بابل» كى تذكرها بيشتها الجبلية بل إن أمر الحدائق المعلقة هذه إنما قد ذكرتها المراجع القديمة والحديثة، رغم عدم وجود أى دليل تأريخى عليها، حتى أن الآثاريين الألمان ظنوا فى بداية هذا القرن العشرين أنهم اكتشفوا تلك الحدائق، عند عثورهم على بشر عميقة فى منطقة من القصر الجنوبي غطيت بغرف ثلاثية، ظنوا أنها حوت جهازاً يسحب الماء إلى هذه الحدائق المعلقة، ثم أظهرت حفريات هيئة الآثار العراقية أن هذه المنطقة بالذات عبارة عن حجرات خزن تحت الأرض ذات عقود قوية، هذا وقد روت المصادر الكلاسيكية أن الملك «نيبوخذنصر» قد زود قصره ببرندات (بالكونات) زرع فيها شتى الأشجار التى جلبها من أقطار شتى، وربما كانت هذه «الثبالكونات» التى وضعت بها الأشجار هى التى أسماها الكتاب الكلاسيكيون «الحدائق المعلقة»^(١).

وأياً ما كان الأمر، فلقد ظلت بابل مزدهرة على أيام الدولة الكلدانية، وإن تعرضت مكانتها السياسية لهزة عندما تركها «نبونيد» (٥٥٦-٥٣٩ ق.م) واتخذ من «تيماء»، ولدة عشر سنوات، عاصمة له، حتى غدت وكأنها خليفة لبابل^(٢).

غير أن الخطر الأكبر إنما تعرضت له بابل إنما كان عندما قاد «كيروش» ملك فارس (٥٥٨ - ٥٣٠ ق.م) معركة فى «أوبيس» على الدجلة، على مقربة من المدائن، وأحرق أهل «أكد» بالنار، وبهذه الطريقة الهمجية من العرب البيغض، أفقد «كيروش الثانى» خصومة شجاعتهم، وفى ١١ أكتوبر عام ٥٣٩ ق.م، نجح كيروش فى الاستيلاء على «سيبار»، وفى ١٢ أو ١٣ أكتوبر عام ٥٣٩ ق.م، دخل «جويرياس» بابل، ومعه قوات كيروش، دون معركة، وفى ٢٩

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٤٢٨ - ٤٢٩، ٤٥٠ - ٤٥١، سعيد الأحمد - العراق فى التاريخ ص ١٦٥ - ١٦٩، مؤيد سعيد: حضارة العراق ١٧٨/٢، عبد العزيز صالح: المرجع السابق ص ٥٥٥ - ٥٥٦.

(2) G.Roux, op.cit, p. 35

وكدنا C.J.Gadd, op.cit و A.Musil, Nothem Nejd, N.Y, 1928, p. 225

وكدنا R.P.Douglerty, Nobonidus and Belshazzar, New Haven, 1932, p. 106.

أكتوبر، بدأ الكتاب يؤرخون باسم العاهل الفاسي «كيروش ملك العالم»، وفي نفس اليوم دخل بابل نفسها، وسرعان ما خضعت له بلاد النهرين، ثم اعترفت سورية وفلسطين بالغازي الجديد^(١).

١- كوثر: وقد ذكرت في التوراة، حيث يروي سفر الملوك الثاني وعزرا، أن «سرجون الثاني» (٧٢٢٠ - ٧٠٥ ق.م) قد أتى بقوم من بابل وكوث وسفروايم، وتقع كوثر: في مكان تل إبراهيم، على مبعده ٢٤ كيلا شمال شرق بابل، وقد عثر على اسمها على أثر من عهد «نبوخذنصر» الثاني، كما أتى من مدرسة الملك «أشوربانيبال» (٦٦٨ - ٦٢٧ ق.م) على ألواح كتب بها تاريخ الخليقة حسب التقاليد البابلية كما ذكرت أيضا مع بابل وبورسيبا - وهي برس نمرود، على مبعده ١٦ كيلا جنوبي بابل - ومعبودها نرجل^(٢).

٢- سفر وايم وهما بلدتان على ضفتي الفرات، وعلى مبعده ٢٥ كيلا جنوب غرب بغداد، هذا ويذهب «رسام» أنها أبو حبة الحالية، بينما يذهب آخرون إلى أنهما «شومورية» شرقي بحيرة حمص، وكانتا مركزا هاما لعبادة «شمش» وعشتار وأنونيت^(٣).

٢- الدولة الكاشية (أسرة بابل الثالثة):

١- «دوركوريجالزو» ينسب تأسيس مدينة «دوركوريجالزو» إلى الملك الكاشي «كوزيجالزو الثاني» (١٣٤٥ - ١٣٢٤ ق.م)، وتقع في مكان «عقرقوف» الحالية، على مبعده ٣٢ كيلا غربي بغداد، ومن المعروف أن الكاشيين إنما بدأوا حكمهم من بابل، ولكنهم في منتصف عهدهم، أسسوا مدينة «دوركوريجالزو» (بمعنى مدينة أو حصن كوريجالزو).

وقد أتام «كوزيجالزو» في عاصمته الجديدة قصراً يشبه قصر «زمرى ليم»
(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٤٦٤ - ٤٦٨، مؤيد سعيد: المرجع السابق ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

وكذا A.L.Oppenheim, ANET, p. 315- 316 وكذا G.Roux, op.cit, p. 357
358

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٧٩٥/٢، ملوك ثان ٢٤/١٧، ٣٠.

(٣) قاموس انكتاب المقدس ٤٦٩/١، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٩٤٩/٢.

حاكم «مارى» (تل الحريرى) ورغم أن مابقى من هذا القصر قد لا يكفي لإعطاء صورة كاملة عنه، ولكنه يشير إلى أنه كان يتكون من عدة أجنحة متلاصقة، لكل منها مساحة كبيرة فى الوسط، وقد تتجاوز مساحة القصر بضعة مئات من الأمتار فى كل ضلع من أضلاعها، ومن أهم ما عثر عليه فى القصر هو الجزء المتبقى فى الزاوية الشمالية حيث الممرات المسقوفة الطويلة التى تحيط بالساحة، والتى يحمل سقفها ركائز مربعة، كما تشير بقايا الغرف إلى وجود قاعات طويلة وعريضة، يبلغ طول المتبقى منها ٤٠ متراً، مما يشير إلى أنها كانت قاعات استقبال، وربما كانت إحدى قاعات العرش، أما فى الزاوية الشرقية من البناء فقد عثر على ثلاث ممرات طويلة متوازية، تخرق أرضها قنوات مياه، وعلى جانبي الممر «كوى» مرتفعة عن الأرض ذات سقف معقوفة، كما كانت للممرات معقوفة السقف أيضاً، وربما كان ذلك لخزن الرقم الطينية فى جو رطب يناسب الغرض.

وأما زاقورة عقرقوف (دور كوريجالزو) فكانت تتكون من خمس طبقات من اللبن، تغطيها من الخارج طبقة من الحجر، ومساحتها (٦٧,٦ × ٦٩م) وتبدأ سلالمها الجانبية مع نهاية الضلع الجانبى، ثم تدور بزاوية قائمة حول جسم الزاقورة لترتقى إلى السلم الجانبى، وهناك سلم فى الوسط يتلقى بالسلم الجانبى فى مركز الضلع، وقد شيدت أمام سلم الزاقورة الوسطى مصطبة من اللبن مساحتها (٣٥ × ٣٥م) تحيط بها مساحات عديدة لمعبد لم يكتمل اكتشافه كله بعد، وهذه المساحات متصلة ببعضها وتحيط بكل مساحة مجموعة من الغرف المستطيلة.

هذا وقد استمرت «دور كوريجالزو» عاصمة للكاشيين، حتى سقطت - هى وبابل وأريس - فى يد العاهل العيلامى «شترك نختته» فى عام ١١٦٠ ق.م^(١).

(١) مؤيد سعيد : المرجع السابق ص ١٥٤-١٥٦-١٦٥.

وكلا N.Kramer, ANET, p. 57-59 و G.Roux, op.cit, p. 229 - 230
T.BAQIR, Excavationa at Aqar Quf, Iraq, 1944, and Iraq, 8,
1946,p. 73 - 92.

وأظفر: محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم ص ٣٠٥ - ٣٠٧ (١٩٩٠).

الفصل الرابع

الدولة الآشورية (٢١٠٠ - ٦٠٩ ق.م)

تقديم: لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن كلمة «أشور» إنما تعنى فى الواقع، الإقليم الذى سكنه هؤلاء القوم، والمعروف باسم آشور، كما تعنى المدينة التى تحمل هذا الإسم، والمعبود الذى كان يعبد هناك، وربما كانت هذه التسمية - أى آشور - نسبة إلى أول عواصم القوم، وهى مدينة «أشور»، ومن ثم فقد أطلق إسم آشور على الإله القومى للآشوريين، وظلت هذه التسمية حتى القرون الأخيرة من الألف الأولى قبل الميلاد، أى حتى بعد زوال كيان الآشوريين السياسى.

وأما معنى كلمة «أشور» فغامض، فقد يكون من معانى الصغية «أشور» (الرحمن)، وربما كان اللفظ سومرى الأصل، وعلى أية حال، فقد وردت كلمة «أشور» فى المصادر الأرامية والعربية تحت إسم «أثور»، وأما فى المصادر المسمارية فقد عرفت بلاد الآشوريين باسم «مات آشور» أى بلاد الآشوريين، كما وردت كلمة «أشور» فى هذه المصادر من القرن الثالث عشر قبل الميلاد تحت إسم «أش شور»، كما وردت فى صورة «آ - شو - ار» وأما فى المصادر المصرية، فلقد ذكرت، لأول مرة باسم «أسور» على أيام «تحتشمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م)، كما ذكر اسم «أشور» فى التوراة على أنه من أبناء «سام بن نوح»، كما ذكره الجغرافى «بطليموس»، فى كتابه «جغرافية بطليموس» فى عام ١٥٠ م.

وأما أصل الآشوريون فهم من شعبة سامية هاجرت من شبه الجزيرة العربية - الموطن الأصلى للساميين - وتشير لغة الآشوريين إلى أصولها السامية، وقد تحدث القوم بلهجة من لهجات اللغة الأكديّة، واستخدموا الخط المسمارى، وقد تميزت العواصم الآشورية بعدم الثبات، ومن ثم فهناك ستة عواصم آشورية هى: آشور وكالحوه كار - نوكلتى - نورتا و«دورشاروكين» و«نيتوى وحران (حاران)»^(١).

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٣٢٣ - ٣٢٦، اندرية بارو: المرجع السابق ص ١٧-١٨، عبد العزيز صالح، المرجع ص ٤٩٨ - ٤٩٩، طه باقر: المرجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٧، عامر سليمان: العراق فى التاريخ ص ١١٩ - ١٢٠.

وكنة 167, 182, 167 - G.Roux, op- cit, p. 177 وكنة M.F.Unger, op.cit, p. 100-101

وكنة J.Laessoe, People of Ancient Assyria, London, 1963, p. 37.

(١) آشور: كانت مدينة آشور هي أولى عواصم الآشوريين، وقد أقيمت فوق ربوة صخرية، تحف بها مياه نهر دجلة التي أصبحت حماية طبيعية لها، ربما منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، وتعرف خرائبها اليوم باسم «القلعة» أو «قلعة شرقا»، وتقع على بعد ٩٦ كيلا جنوبي مدينة الموصل الحالية، وقد استمرت مدينة آشور مركزا سياسيا للبلاد على مدى فترة طويلة من التاريخ العراقي القديم.

هذا وقد عثر في خرائبها على أسس لمعابد بعض المعبودات، مثل آشور وأنو وأدد، وكان «أنور» هو الإله القومي للآشوريين، وكبير معبوداتهم حتى نهاية - إمبراطوريتهم، وفي النسخة الآشورية من قصيدة الخلق، التي عثر عليها في مدينة آشور، تجده يحل محل المعبود البابلي «مردوك»، لأن القوم أرادوا أن يكون معبودهم - وليس معبود البابليين - هو خالق الكون، وهكذا كان الدين عونا نلسياة، وصدى لمطامح الملوك والشعوب والمدن.

وهكذا كان معبد آشور في مدينة آشور - ويدعى إشرا (E.Shar - Ra) يقيم فيه مع زوجه «نليل» ملكة إشرا - أشهر معابد المدينة، وقد بنى على أيام الملك «شمشئ أداد» الأول (١٨١٣ - ١٧٨١ ق.م)، ويعتبر من النماذج الأساسية في تفسير عمارة المعابد الآشورية، ودليلا لطرز المعابد الآشورية في العصر الأحدث، وقد جمع بين الطرز المعروفة في جنوب العراق، والتي بنيت على هيئة بيوت ذات فناء في الوسط، ومنها معبد «شوسن» في تل أسمر، وبين الطرز التي عرفت في فجر الأمرات ذات الغرف المقدسة الطويلة، هذا وكان للمعبود آشور معبد آخر خارج المدينة يسمى «أكيتو» (Akitu).

وهذا وقد عثر في آشور كذلك على تماثيل لبعض الملوك، فضلا عن عدد من المسلات، وقد وجد على أحدهم إسم «سمورامات» (سميرايس) زوج الملك «شمشئ أداد» الخامس (٨٢٣ - ٨١١ ق.م) والتي أصبحت وصية على العرش سنوات خمس، بل إن هناك من الآثار التي وجدت في آشور - وترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد - من ذلك النوع السومري، هذا وقد عثرت البعثة الألمانية في حفرياتها في مدينة آشور في الفترة (١٩٠٣ - ١٩١٤م) على لوحات تشريعية نسخت على الطين (Clay Tablets)، وليس على لوحة حجرية (Steld)، وإن ردها

البحر إلى ما قبل عهده بزمن طويل، وربما إلى أواسط الألف الثانية قبل الميلاد، وربما إلى ما بين عامي ١٤٥٠ - ١٢٥٠ ق.م، ومن ثم فهي تمرد إلى العهد الآشوري الوسيط^(١).

(٢) كالح: كانت مدينة «كالح» (Kalah) (كالحو - كالخو) ، والمعروف حاليا باسم «نمرود» (Numrud) ، هي العاصمة الآشورية الثانية، وتقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة، عند ملتقاها بنهر الزاب الأعلى، وعلى مبعده ٣٠ كيلا جنوبي «نينوى»، وعلى مبعده ٣٥ كيلا جنوب شرقي الموصل.

هذا وقد أسس «كالح» الملك «شلمنصر الأول» (١٢٧٤ - ١٢٤٥ ق.م)، وسكنها البابليون الذين قام بتهجيرهم «توكلتي نينورتا» الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨ ق.م)، وإن كانت التوراة قد نسبت تأسيسها إلى من دعت «نمرود»، هذا وقد شيد فيها الملك «أشور ناصربال» الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م) قصراً، ثم اتخذها عاصمة للملكة.

هذا وقد قام بالحفر فيها «سير أوستن ليارد» (Sir A.H.Layard) في الفترة (١٨٤٥ - ١٨٥١ م) وكذا «مالوان» (M.Mailouan) في عام ١٩٤٩ م، وكشفت الحفريات عن مبد للاله «نينورتا» يتكىء على زاقورة مربعة (طول ضلعها ٥١ م، وارتفاعها ٤٥ م)، كما عثر على مسلة نقش عليها اسم «أشور ناصربال الثاني»، هذه فضلا عن قصر يعده الآثاريون أول القصور الكبيرة لمملكة آشور الجديدة، وبه كثير من النقوش التي تصف لنا عمال «أشور ناصربال الثاني»، وتصف البناء وظروف تشييده، وحفر قناة لرى المنطقة.

وهناك قصر «أدادنيرارى الثالث» (٨١٠ - ٧٨٣ ق.م) - إلى الجنوب من قصر «أشور ناصربال الثاني» - وقد سكنه أيضا «تجمات بلاسر» الثالث (٨٤٥ - ٧٢٧ ق.م)، وإلى الجنوب منه قصر «إسرحدون» (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م)، وغير ذلك من المباني السكنية والدينية، هذا وقد دمرت المدينة على أيدي الميديين في عام ٦١٢ قبل الميلاد.

(١) محمد يومية مهراڤ: المرجع السابق ص ٣٢٦ - ٣٢٧، أمده: بارو: المرجع السابق ص ٢٣٣، هنرى عبودي: المرجع السابق ص ٩٠ - ٩١.

وكذا: J.Laessoe, op.cit, p. 18, 37F, 42, 79F و K.Funger, op.cit, p. 101 - 103

هذا وقد كشفت «أوستن ليارد» في عام ١٨٤٦م في قصر «شلمنصر الثالث» (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) في مدينة «كالح» عن «المسلة السوداء» (Black Obelisk) ، والمحفوفة الآن في المتحف البريطاني، وتحدث عن انتصارات الملك، وقد تمثل على وجهها الثاني من أعلى حاملي الجزية الإسرائيليين وموظفيهم في ملابس مشغولة، ذات أكمام قصيرة، وعمامة تشبه غطاء الرأس.

هذا وتسجل حوليات «أشورناصرپال الثاني» الكثير من المعابد التي أنشأها في عاصمته «كالح» فهناك معابد للأرباب : إنليل ونيورتا وأداد، وشالا (Shala) وجولا (Guld) وسين ونابو وعشتار وسبتي (Sibitti) و«أشتار - كتموري» (Ashtar - Kitmuri) وغير ذلك من المعابد التي كرس للمعبودات الكبار.

وعلى أية حالة، فإن الآثار المكتشفة في «كالح» (نمرود) إنما تعد من أروع الآثار الآشورية، وتعكس المدى الذي وصله الفن والعمارة في القرن التاسع قبل الميلاد، وقد كشف - بجانب القصور والمعابد والأسوار والبوابات - عن مئات من ألواح الجدران التي كانت تغلف جدران قاعات القصور الداخلية وهي منحوتة نحتاً بارزاً دقيقاً بمناظر مختلفة من الحياة اليومية والملكية والمعارك العسكرية، وقد لون بعضها بألوان زاهية ظلت تحتفظ بها إلى يوم الناس هذا.

هذا وقد زينت مداخل القصور والقاعات الرئيسية بتمائيل ضخمة لحيوانات مركبة، عرفت «بالشيران المجنحة» تعبّر عن قوة الآشوريين وصلابة قوادهم وحكمتهم، فضلاً عن إشعار الزائر، ولأول وهلة، بقوة الدولة وملكها، كما كشف في «نمرود» عن أعداد كبيرة من النصوص المسامرية، وعلى مجموعة من القطع العاجية، أبرزها تلك التي تمثل قناعاً لرأس فتاة، عرفت عند الباحثين باسم «مونليزه النمرود» أو «فتاة البش»، حيث عثر عليها في أحد آبار المدينة^(١).

(١) تكوين ١١/١٠-١٢، أندريه بارو: المرجع السابق ص ٣٤٣، لير أوبنهايم: بلاد آشور ص ٢٨١، هنري عهودي المرجع السابق ٧٠٤ - ٧٠٧، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

وكنّا J.Laessoe, op.cit.p.99,103- 106 وكنّا J.Finegan, op.cit, p. 264 - 265

M.E.L.Mallowan, Twenty- - Five Years of Mesopotmain Discovery, London 1956, p. 50 - 64.

(٣) كار- توكلتى - نورتا: أسس هذه المدينة الملك «توكلتى نورتا» الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨ ق.م)، واتخذها عاصمة لدولته، وأضفى عليها اسمه «كار - توكلتى - نورتا»، وإن كان هناك من يذهب إلى أن مؤسسها هو «أشور - نادين - إبلى» (١٢٠٧ - ١٢٠٤ ق.م) وإن نسبت إلى أبيه، وعلى أية حال فهي تقع على مسافة ٣ كيلاً من مدينة أشور، على الضفة اليسرى لنهر دجلة، وهي «تكل أكبر» الحالية.

هذا وقد شيد بها «أشور - نادين - إبلى» قصراً في عاصمته بقيت منه أطلال طفيفة، يفهم منها أنهم زخرفوا بعض جدرانه بقطع من القاشاني المزخرف، فضلاً عن لوحات مرسومة، اقتبسوا عناصرها من عالم الحيوان والنبات ومن الخطوط الهندسية، وقد نجحوا في تحقيق التناسب والحيوية فيها إلى حد معقول، وصورا فيها الملك يقاتل بعربته الحربية، منفرداً حيناً، ومشاركاً في الحرب إلى جوار حوده، حيناً آخر^(١).

(٤) دورشاروكين: كانت «دورشاروكين» (Dur - Sharrukin) هي العاصمة الآشورية الرابعة، وقد أسسها «سرجون الثاني» (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) في عام ٧١٧ ق.م، وأتم بناءها في سنوات سبع (٧١٣ - ٧٠٦ ق.م)، وتقع أطلالها الآن أو على مقربة من «خورسباد» (Khorsabad) الحالية (وكلمة «خورسباد» محرفة من «خسروا أبادة») جنوب الزاب الأعلى، وعلى مسافة ١٦ كيلاً شمال شرق الموصل، ٢٤ كيلاً شمال شرق نينوى.

هذا وقد بنيت هذه المدينة على هيئة مربع طول ضلعه ١٧٦٠ متراً، وكان يؤدي إلى المدينة طريق مبلط عرضه ١٢ متراً، ويحيط بالمدينة سور وأبراج، يزيد عددها عن ١٥٠ برجاً، وكان للمدينة سبعة أبواب محصنة، ويحيط سورها

· وكذا M.F.Unger, op.cit, p. 161 - 162.

M.E.L.Mallow, Nimrud and its Remains, 2 Vols, London, 1966.

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٣٢٨، عبد العزيز صالح: المرجع السابق ص ٥٠١ -

٥٠٢، جورج رو: العراق القديم ص ٦١٤

وكذا W.Bachmann, MDOG, 53, p. 41 - 57.

وكذا W.Andrde, Das Wiedcrertandene - Assur, p. 121 - 125.

الداخلي، بمعقل كائن في قسمها الشمالي، اشتمل على القصر الملكي ومعبد الإله «بنو» وبيوت فخمة خصصت لكبار الموظفين مثل «سن - آح - آصر» (Sin-ah - usur) وهو الوزير، شقيق الملك، هذا وقد زينت أبواب المدينة بشيران مجنحة لها رؤوس بشرية، تعتبر عند الآشوريين بمثابة الملاك الحارس الذي يقى المدينة من الشرور والمخاطر، كما كانت شوارع المدينة مستقيمة ومتعامدة.

ولم يبق من المدينة الآن غير أطلال قصر «سرجون الثاني» وبعض الأقسام المجاورة له، وتدل الآثار التي عثر عليها بقصر سرجون هذا، على مدى ما وصل إليه فن البناء والنحت وسبك المعادن وصناعة الزجاج، كما عثر بالقصر على عدد كبير من التماثيل البارزة والشيران المجنحة، ونماذج من الزخارف المنقوشة تمثل ثيراناً وأسوداً، كما عثر في المخازن على أدوات وآلات من الحديد تبلغ زنتها ٢٠٠ طناً.

هذا وقد تم إكتشاف المدينة في عام ١٨٤٣ م، وقد ظن - في بادئ الأمر - أنها أنقاض «نينوى» ولكن تبين بعد ذلك أنها «دور - شاروكين» (حصن سرجون) وأجريت الحفائر تحت إشراف القنصل الفرنسي «بوتا» الذي أرسل إكتشافاته إلى فرنسا عام ١٨٤٧ م، حيث شكلت الجناح الآشوري في متحف اللوفر بباريس، ثم قام «فيكتور بلاس» و«توماس» بإتمام التنقيبات في الفترة (١٨٥٢ - ١٨٥٥ م)، ثم جدد المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو الحفريات في الفترة (١٩٢٨ - ١٩٣٥ م)، وكشفت الحفريات عن قصر سرجون الضخم، والذي يحتوي على أكثر من مائتي غرفة، وثلاثين فناء، فضلاً عن أجنحة خاصة، وستة معابد، وزاقورة من سبب طبقات، وقد دهنت بألوان مختلفة، وتتصل ببعضها بسلم حلزوني، وأكبر الظن أن سرجون قد استخدم الآلاف من أسرى الحرب والمئات من الفنانين والحرفيين الذين أسهموا في بناء المدينة.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن «سرجون الثاني» لم يستقر في عاصمة واحدة، فقد اتخذ في أول أيام حكمه مدينة أشور عاصمة له، ثم انتقل منها إلى «كالح» (نسرود)، وفي منتصف أيام حكمه اتخذ «نينوى» عاصمة له، وأخيراً وفي السنة التاسعة من الحكم، حوالي عام ٧١٣ ق.م، (وربما في عام ٧١٧ ق.م) بدأ في بناء عاصمته الجديدة «دو - شاروكين» (مدينة أو حصن سرجون)، وقد استمر بناء المدينة سبع سنين (٧١٣ - ٧٠٦ ق.م)، (وربما عشرين سنين)، ولكنه لم

يتمتع بها طويلا فلقد مات في العام التالي (٧٠٥ ق.م) وقد ترك بعض أجزائها غير كاملة.

هذا ولم يكتف خلفاؤه بهجرها والإنتقال إلى «نينوى»، وإنما شوهوا كثيرا من منحوتاتها، ونقلوا بعضها إلى قصورهم فطمست معالمها، وإن كان هناك من يذهب إلى أنها ظلت مقراً للحاكم (ربما حاكم المنطقة) قرابة قرن من الزمان، وعلى أية حال، فلقد ظل اسمها في ذاكرة الأجيال المتأخرة، فلقد عرف العرب اسم «سرجون» وشوه الساسانيون اسم المدينة وأطلقوا عليها اسم «خسرو - أباده» أو مدينة خسرو، ومن هنا جاء اسمها الحالي محرفاً إلى «خرمباد أورخورمباد»^(١).

(٥) نينوى: كانت «نينوى» (Nineveh) العاصمة الآشورية الخامسة، وتقع الآن تحت تلى «قوينجق» و«النبى يونس»^(٢)، على الضفة الشرقية لنهر دجلة، على قم رافد صغير يدعى «الخسر» (الخوسر)، على مبعده ٤٠ كيلا من التقاء الدجلة بالزاب الأعلى، قبالة الموصل، وكان العيرانيون يسمون اسم «نينوى» ليشمل كل المنطقة حول التقاء الزاب الأعلى بالدجلة.

هذا وقد اتخذ «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) «نينوى» عاصمة له، وإن لم تعمر طويلا حيث سقطت في أيدي الميديين في عام ٦١٢ ق.م، وبعد ذلك تم نهبها في صورة كاملة، وإن كان هناك من يرى أن المدينة قد سقطت في أغسطس من عام ٦١٣ ق.م، بعد معركة دموية بدأت في يونية ٦١٣ ق.م.

وهناك ما يشير إلى أن «سنحريب» قد أهتم بها كثيرا، ومن ثم فقد عمل على توصيل المياه العذبة إليها، وهكذا قام بتنفيذ مشروع رى مازال آثاره باقية حتى يوم الناس هذا، فلقد أتى بالمياه العذبة إلى نينوى من مكان قريب من نهر «الكومل» - على مبعده ٨٠ كيلا من نينوى - أو «الجومل» (Gomel) من مجرى جبلى فى

(١) طه باقر: المرجع السابق ص ١٩١ - ١٩٢، محمد بيومى مهران المرجع السابق ص ٣٢٩ - ٣٣٠، ٤٠٠، أندريه بارو: المرجع السابق ص ٣٤٠، ليو أونهايم: المرجع السابق ص ٤٨٦، هنرى عبودي، المرجع السابق ص ٤٠١ - ٤٠٢.

وكذا G.Roux, op.cit, p. 291 - 292.

(٢) من المعروف - دينيا وتاريخيا - أن سيدنا يونس عليه السلام، إنما أرسل إلى أهل نينوى، أنظر: سيرة ابن هشام ٢٢٦/٢، وانظر القصة بالتفصيل: محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الرابع - فى العراق - بيروت ١٩٨٨ ص ١٧٥ - ١٩٢.

«بافيان»، وذلك عن طريق قناة شيدت بحجر الكلس، ونظر لمرورها في مناطق فيها الوديان وفيها المرتفعات، فقد شيدت لها قناطر على بعض الوديان، بلغ طول إحدهما ٣٠٠ ياردة، وعرضها ٢٤ ياردة، وقد نحت عند صدر القناة - عند القرية المعروفة الآن باسم «خنس» - على وجه صخرة شاهقة صورة كبيرة للمعبودات، وقد سجل عليها موجزا بأخبار تشييد المشروع، وقد كشف المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو في عام ١٩٢٣ م عن المشروع.

هذا وقد ظلت «نينوى» مجهولة حتى كشفت عنها الحفريات التي بدأت منذ عام ١٨٤٧ م، حيث عثر في هذا العام على أطلال معبد سنحريب، والذي كان يحتوي على أكثر من ألفي نقش، وحوالي ثمانين غرفة، من بينها مكتبة الملك الأشوري «أشوربانيبال» (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م) والتي احتوت الآف اللوحات المسمارية، ثم عادت التنقيبات مرة أخرى في عام ١٨٥٢ م، حيث عثر على قصر الملك «أشوربانيبال»، والذي زينه بنقوش تمثل المعارك التي دارت بينه وبين العرب، والتي يبدو منها أن عرب الشمال إنما كانوا رجالا متوسطي الطول، يرتدون ملابس صيفية، بينما تركوا رؤوسهم عارية، وشعورهم تتدلى على أكتافهم، كما كانوا ملتحين بلحي مديبة قصيرة، وتصورهم المناظر وهم يركبون الجمال، وعلى الجمل الواحد منها رجلان، الواحد لقيادة البعير، والآخر لضرب القوس.

هذا وقد كشف أيضا في نينوى عن عدة معابد، وعلى رأس من البرونز، ربما تمثل الملك سرجون الأكدي، كما عثر في «تل النبي يونس»، على قصر يرجع إلى أيام الملك «إسرحدون» (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) (١).

(٦) حران: كانت «حران» (Harra) هي العاصمة السادسة والأخيرة للآشوريين، وتقع على نهر «بلخ»، على مبعده ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات، وإلى

(١) محمد بيومي مهرانك تاريخ العراق القديم ص ٢٣٠ - ٢٣١، ٢٧٦، ٤٠١، ٤٢٦، طه باقر: المرجع السابق ص ١٩٢، عامر سليمان: العراق في التاريخ ص ١٥٥ - ١٥٧، ليو أرنهام: المرجع السابق ص ٥٠١، تكوين ٨/١٠ - ١٢، يونان ٢/١، ٢٠٢/٣

A.H.Layard, Nineveh and its Remains, London, 1849

وكنة 343 - 344 G.Roux, op.cit, p. 114 - 115 وكنة J.Laessoe, op.cit, p. 392 وكنة B.Meissner, in Oslamica, II, 1926, p. 795- 796, M.F. Unger, op.cit

الغرب من «تل حلفاء» وعلى مبعده ٤٤٨ كيلاً شمال شرق دمشق.

وقد أصبحت «حوران» عاصمةً للآشوريين بعد سقوط «نينوى» في عام ٦١٢ ق.م، على أيدي البابليين والميديين، وس ثم فقد اضطر الملك الآشوري «أشور أوياط» الثاني (٦١١ - ٦٠٩ ق.م) أن يتخذ من «حوران» عاصمة له، غير أن «نبوخذنصر» الثاني (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) نجح في أن يستولي عليها، وأن يقضى على الجيش الآشوري في عام ٦٠٩ ق.م (وربما في عام ٦٠٨ ق.م). وأن يقضى بالتالي على الدولة الآشورية نهائياً.

هذا وقد تردد اسم «حوران» في التوراة باعتبارها موطناً لأقرباء إبراهيم الخليل وولده، وقد تزوج منها إسحاق ويعقود، عليهم السلام، وأن يوسف الصديق عليه السلام قد ولد هناك، كما كانت أحد مراكز عادة إله القمر، الذي عبد في «أور» تحت اسم «ننار» (Nannar) بمعنى «المنير» ورمز إليه أحياناً بالهلال، ثم انتقل منها إلى «حوران»، تحت اسم «تارج»، ثم انتقلت عبادة إله القمر من حوران إلى سورية وفيتيقيا^(١).

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/٦٢، ٧١، ٩٨١/٢، تاريخ العراق القديم من ٣٣١ - ٤٣٩، تكوين ١/٢٤ - ١/٢٩، ٦٦ - ١/٣٥، ٣٥ - ١/٣٠، ٢٦.

وكنّا M.Noth, The History of Isrdel, London, 1965, p. 273

وكنّا M.F.Unger, op.cit, p. 455 وكنّا G.Roux, op.cit, p. 347

L.Woolley, Aberaham, Recent Discoveries and Hebrew origins, London, 1965, p. 27 117

L.Woolley, The Beginings of Civilization, N.Y, 1956, p. 492 - 514.

الفصل الخامس

المدن والمراكز الأثرية منذ العصر الإخميني وحتى الفتح الاسلامي

١- الإخمينيون (٥٢٩ - ٣٣١ ق.م)

بابل: دخل «كيروس الثاني» (٥٥٨٠ - ٥٣٠ ق.م) مدينة بابل في ٢٩ أكتوبر من عام ٥٣٩ ق.م، وسرعان ما خضعت له بلاد النهرين، وبدأ الكتاب يورخون باسم المعاهل الفارسي «كيروش ملك العالم» وعين «جوبرياس» الخائن جاكما (ستراب - Satrap) من قبل الفرس، وهنا انتهت سيادة العناصر السامية في العراق القديم، وبدأت سيادة العناصر «الهندو - أوربية»، ولمدة تقرب من اثني عشر قرنا (٥٣٩ ق.م - ٦٣٧ م)، بدأت بالفرس الإخمينيين (٥٣٩ - ٣٣١ ق.م) ثم الإغريق - بما في ذلك عصر الاسكندر الأكبر والسلوقيين (٣٣١ - ١٣٥ ق.م) ثم الفرس الفرثيون أو البارثيون (١٣٥ ق.م - ٢٢٦ م)، ثم الفرس الساسانيون (٢٢٦ - ٦٣٧ م).

هذا وقد ظلت «بابل» إبان عهد الإخمينيين عاصمة للعراق القديم، غير أنها لم تكن عاصمة سياسية، وإنما إدارية، منذ ولي «جوبرياس» واليا عليها من قبل الفرس، وربما كانت كذلك على أيام الإسكندر الأكبر منذ انتصاره على «دار الثالث» - آخر ملوك الإخمينيين - عام ٣٣١ ق.م، عند «كوليلة» - وهي تل كومل على مبعده ٣٥ كيلا شرقي الموصل، وعلى مقربة من نهر الزاب الأعلى - والتي عرفت بمعركة «أربيلو»، وحتى وفاته في بابل في ١٣ يونيو عام ٣٢٣ ق.م

٢- السلوقيون (٣١٢ - ١٣٥ ق.م)

سلوقية: ورث «سلوقس الأول» (نيكاتور ٣١٢ - ٣٠٥ ق.م) - أحد قواد الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) المناطق الشرقية من الأرضين التي غزاها الإسكندر، ثم أعلن نفسه في عام ٣١٢ ق.م (وربما في ٣١١ ق.م) ملكا في «بابل» مؤسس أسرة جديدة ظلت تحكم العراق حتى عام ١٣٥ ق.م، غير أنه لم يجعل من بابل عاصمة له، وإنما أسس عاصمة جديدة على نهر دجلة هي «سلوقية» (تل عمر)، على مبعده ٩٠ كيلا شمالي بابل، في مقابل «طيسفون»

(Ctesiphon)، وربما فى موقع «أوبا» (Upa) أثناء العصر البابلى، وقد احتفظت «سلوقية» بطابعها الهلينى حتى زوالها، رغم أن معظم سكانها إنما كانوا من البابليين، الذين أدخلوا إليها تقاليدهم وعاداتهم.

هذا وقد بدأ سلوقس فى بناء عاصمته «سلوقية» فى عام ٣٠٧ ق.م، ثم أصبحت العاصمة السلوقية الرسمية على أيام «أنطيوخس» الأول (٢٨١ - ٢٦١ ق.م) فى عام ٢٧٤ ق.م، حيث أصدر أوامره إلى السكان بالانتقال إليها، ويقدر بعض الباحثين عددهم بحوالى ٦٠٠ ألف شخص، من بينهم عدد كبير من سكان بابل ممن هجروا إليها، وفى نفس الوقت صدرت التعليمات بإعادة بناء «الإيزاكلا» لتكون قفرا وحيدا ومركزا دينيا للبابليين.

هذا وقد تم تخطيط «سلوقية» على النمط الإغريقى، فشقت شوارع مستقيمة، تتقاطع بزوايا قائمة، ثم سرعان ما أصبحت سلوقية من أوسع وأغنى مدن العراق القديم، كما أصبحت مقرا لجالية أجنبية - شأنها فى ذلك شأن غيرها من المدن الإغريقية فى الشرق القديم - ومن ثم كما أنشأوا «الأجورا» (وهى سوق المدينة، حيث تجرى عمليات البيع والشراء، وتتعقد الاجتماعات العامة، وتسمى عند الرومان «الفوروم» (Forum) وعند اليونان (Agora) وربما تشبه الساحة أو «الرحبة» أو «البلحاء» عند العرب، خاصة فى تونس). هذا وقد كشفت الحفريات فى سلوقية عن مبان مكشوفة، تحيط بهما ممرات من جنوبها الأربعة، وربما قد أحيطت هذه البيانات بأعمدة، كما عثر أيضا على شارع ذى أعمدة، فضلا عن مبنى لحفظ سجلات معبد «أبولو» يتكون من وحدتين، كل واحدة منهما تحتوى على سبع غرف، بها أعمدة فى الوسط، وأبواب على الأضلاع القصيرة، وأما القصر فكان يتكون من عدد من المباني المتشابهة، تتألف الواحدة منها من غرف تحيط بساحة مكشوفة، وكذا قاعات (megaron) مفتوحة من الجانب الجنوبي، يمكن الوصول إليها عن طريق سقيفة تحتوى على عمودين فى مدخلها، وهكذا يعكس قصر سلوقية - وكذا قصر نمر - اندماج فكرتين معماريتين - إغريقية وبابلية - فالقاعدة (megaron) إغريقية، والساحة المكشوفة بابلية.

وعلى أية حال، فإن سلوقس نيكاتور، سرعان ما يؤسس مدينة أخرى تحمل
نفس الاسم (سلوقية) في عام ٣٠٠ ق.م، على نهر العاصي، وعلى مسافة ٢٤
كيلوا من ساحل البحر المتوسط، دعاها «أنطاكية» نسبة إلى أبيه «أنطيوخس»،
وجعلها مقر إقامته المفضل ثم سرعان ما أصبحت عاصمة الدولة السلوقية، ومن
ثم فقد أصبحت الدولة السلوقية سورية أكثر منها عراقية، وبالتالي فقد انتقل المركز
السياسي والحضاري والاقتصادي لغربي آسيا من ضفاف الفرات إلى ساحل البحر
المتوسط^(١).

٣- البارثيون أو الفرثيون (١٣٥ ق.م - ٢٢٦ م)

١- بابل: خلف البارثيون أو الفرثيون السلوقيين في حكم العراق القديم،
وأكبر الظن أن مركزهم كان في بابل، وقد اهتموا بالسيطرة على الطرق المؤدية
إلى شمال العراق والحواسر الآشورية القديمة، فأقاموا حيناً من الدهر في آشور،
حيث أقاموا فيها قصراً كبيراً، قلده الملوك الساسانيون في بناء قصرهم في المدائن
فيما بعد.

هذا وقد تدهورت بابل كثيراً على أيام البارثيين، حتى أن الامبراطور الروماني
«تراجان» (٩٨ - ١١٧ م) عندما احتل بابل في عام ١١٥ م، وجدها خالية من
سكانها الذين هربوا منها، الأمر الذي تكرر على أيام الامبراطور الروماني
«سبتيميوس سينبروس» (١٩٣ - ٢١١ م) عندما دخلها بجيوشه، ورغم أن
الفرثيين ظلوا فترة يسيطرون على المنطقة - بما فيها مدينة بابل - غير أن
الضعف سرعان ما أصابها بسبب الحروب المستمرة مع الرومان، مما أدى إلى قيام
الثورات الداخلية، وبالتالي سقوط دولتهم على أيدي الساسانيين في عام ٢٢٦ م،
وفي نفس الوقت قامت دولة عربية هي الحضرة، والتي كانت عاصمتها مدينة

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ١١٢٧ (الإسكندرية ١٩٧٨)، المغرب القديم من ١٩٣

(الإسكندرية ١٩٩٠)، واتق الصالحى: حضارة العراق ٣/ ١٨٧ - ١٩٦.

C. Hopkins, Topography and History of Seleucia on the Tigris, 1973.

C. Hopkins, A bird's eye view of Opis and Seleucid, Antiquity, XIII, 1939, p. 440 - 448.

L. Waterman, Preliminary Report on The Excavations at tell uman, 1933.

الحضر، وقد أسهم الساسانيون في القضاء على بابل وتدميرها نهائياً، قبل أن ينتهى القرن الخامس الميلادى^(١).

٤- السامانيون (٢٢٦ - ٦٣٧م)

(١) المدائن: وتقع على بعد ٢٥٠ كيلا جنوب شرق بغداد، وقد عرفت عند الرومان باسم «طيسفون» (Ctesiphon)، وفي نقش (شرف الدين ٤٢) - وربما يرجع إلى عهد سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢م)، وأثناء حصار «أذنيه» ملك تدمر، (حوالى عام ٢٦٥م) للمدينة - دعيت «قط واصف»، وظلت عاصمة الدولة الساسانية طوال عهدها (٢٢٦ - ٦٣٧م)، منذ أن استولى عليها الملك «أردشير بابل»، وقتل آخر ملوك الفريثين «أرطبان الخامس» فى عام ٢٢٦م، هذا وقد اتبع فى تخطيط «طيسفون» نفس التخطيط شبه الدائرى، الذى كان سائداً وقت ذلك، وكانت من قبل قرية عسكرية صغيرة، فى مقابل سلوقية على الدجلة، وتشير آثار الفترة اللاحقة أن المدينة كانت دائرية الشكل تقريبا، وأن هناك علاقة واضحة بين التخطيط الدائرى لمدينة «طيسفون» وبين المعسكر الحربى الآشورى، والذى يظهر على المنحوتات الآشورية على شكل دائرى ولعل هذا إنما يفسر لنا التخطيط الدائرى لمدينة «طيسفون» التى أقامها الفريثيون فى الأصل بمشابهة معسكر لجنودهم، وكان لهذا النوع من التخطيط عدة فوائد منها: سهولة الدفاع عن مدينتهم المدورة، ولأنها بالتالى إنما تحتوى على أسوار أقل من أسوار الشكل المستطيل بحوالى ١١٪ وتلك فائدة اقتصادية دونما ريب.

ولعل الهدف من توسيع «طيسفون» وجعلها مدينة هامة، ثم إحدى عواصم الفريثيين، إنما يرجع إلى أمرين، الواحد دفاعى، وذلك لتكون فى مواجهة سلوقية، المدينة الهامة والمحصنة التى أعلنت الثورة لسنوات سبع، ثم استسلمت تلقائياً، والآخر منافسة سلوقية فى تجارتها النهرية بل إن الفريثيين لم يكتفوا بذلك، وإنما قام «ولجش الأول» (٥١ - ٨٠م) بتأسيس «ولجاشية» على مقربة من سلوقية لتنافسها فى أهميتها، وإن كان موقع «ولجاشية» لم يحدد حتى الآن على وجه اليقين هذا وقد شكلت «طيسفون» (المدائن) أهم مدن العراق فى العصر الساسانى (٢٢٦ - ٦٣٧م) ولعل من أهم مبانئها إنما كان «إيوان كسرى» (طاق

(١) مريد سعيد: العراق فى التاريخ، ص ٢٥٤ - ٢٥٩.

كسرى - أو القصر الأبيض)، وقد نسب بناؤه إلى كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م)، أو كسرى أبرويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م)، وذلك لاحتماله على عناصر معمارية مختلفة تشبه تلك التي سادت إبان القرن السادس الميلادي في العمارة البيزنطية، وإن ذهب فريق من العلماء إلى أن بناءه من عصر «أردشير» أو عصر «سابور الأول» (٢٤١ - ٢٧٢ م) استناداً على بعض من إشارات تاريخية من مصادر مكتوبة، وأن كسرى أنوشروان إنما قد جدد وأضف إليه.

وأياً ما كان الأمر فإن «إيوان كسرى» هذا، إنما يواجه الشرق، وأن ارتفاعه ٣٥ متراً، وعرض فتحته ٢٥ متراً، وامتداده الطولي ٥٠ متراً، وقد بنيت أسسه من الآجر والجص، ورسفت بشكل عمودي - على طراز بعض جدران أبيه أنوشور، وأراده أصحابه قوياً متيناً، ومن ثم فقد زيد في سمك الجدران، حتى تتحمل القبو، الذي كان يرتفع حوالي المتر، وقد يصل إلى أربعة، ولم تزين جدرانه بكوات أو حنيات - كما في غيره من القصور - إعتقاداً من المعمارين أن الشكل السبط هو الأصلح إنشائياً، كما وضعوا بعضاً من خشب في داخل الواجهة لزيادة قوة الجدران، كما احتوى جداره الخلفي على دعائم خشبية، ومن المعروف أن استعمال الخشب في تقوية الجدران، إنما كان من التقاليد المعمارية في العراق، الأمر الذي شاع في العمائر العربية الإسلامية.

هذا وكان لجدار الإيوان الخلفي مدخل يقع على المحور الطولي، ويفضي إلى مجموعة من الغرف الصغيرة المتصلة ببعضها عبر فتحات الأبواب، ثم منها إلى قاعة واسعة مغلقة بعرض الإيوان، يبدو - كما تشير الدلائل الأثرية - أنها سقفت بقبو، وهناك إلى جانبي الإيوان، غرفة على كل جانب أصغر من القاعة المغلقة الخلفية، يفصلها عن الإيوان دهليز ضيق، وقد أثبتت الحفريات أن القصر أو الإيوان إنما كان يتكون من وحدتين معماريتين، تتكون كل منهما من ثلاثة غرف واسعة تمتد على محور واحد، وتكون الوسطى في كل منهما أوسع، وقد شكلت القاعة الوسطى في الوحدة الأمامية الإيوان المفتوح نحو الشرق، الأمر الذي يشير إلى مبدأ التقسيم الثلاثي للعباني في عمارة العراق القديم، وكان للغرف الصغيرة بين الوجدتين - وقد بنيت على محور مغاير - أهمية خاصة، ذلك لأنها تفصل بينهما، كما أنها إنما تكون حلقة الوصل بين القاعات الكبيرة.

هذا وتشير بعض المصادر إلى أن بعضاً من جدران الإيوان الداخلية إنما كانت مختلفة بألواح من المرمر الملون، والمنقولة من كنيسة في أنطاكية، وأن بعضاً آخر إنما قد احتوى على مشاهد حرية عملت بالفسيفساء تمثل حصار كسرى لتلك المدينة، وأكبر الظن أن أسرى أنطاكية قد أُجبروا على عملها، وتتكون قطع الفسيفساء - كما تشير الحفريات - من أحجار ملونة ومذهبه كانت تشكل وحدات فنية زخرفية معينة، اتصفت بها جدران الإيوان، وطبقاً لما جاء في بعض المصادر، فقد عملت الأرضيات من ألواح مرمرية سميكة، ثم غطيت بسجاد، نقشت عليها مناظر أشجار وحدائق وقنوات مياه، ويرى أن كسرى عندما كان يستقبل زائرية إنما كان يجلس على وسادة ذهبية، وضعت فوق عرشه عن نهاية الإيوان، وأنه كان يرتدى ملابس مزخرفة ذات نسيج ذهبي، وكان يضع فوق رأسه تاجاً عظيماً من الذهب والفضة، وقد طعم باللؤلؤ والأحجار الكريمة، وأن وزن هذا التاج إنما كان يقدر بأكثر من ٩٠ كيلو جرام، ومن ثم فقد كان يعلق في السقف بسلاسل طويلة من ذهب.

هذا وقد ظلت طيسفون (المدائن) - كما أشرنا آنفاً - أهم مدن العراق طوال العهد الساساني، وحتى الاستيلاء عليها عام ١٦ هـ بيد المسلمين بعد حصاد دام شهرين، وقد تعرضت أثناء العصر الساساني لعدة غزوات، وكما حدث في عام ١١٦ م على أيدي «تراجسان» (٩٨ - ١١٧ م)، وفي عام ١٩٧ م على أيام «سبتميموس سفيروس» (١٩٣ - ٢١١ م)، وفي عام ٦٢٨ م، على أيام «هرقل» (٦١٠ - ٦٤١) - وأما الاسم «المدائن» فكان يعنى مدينتي «طيسفون» و «سلوقية» الواقعتين على ضفتي نهر الدجلة المتقابلتين.

بقيت الإشارة إلى مدينتين أخريين ترجعان إلى العهد الساساني، وهما:

١- كوخة: تشير المصادر العربية إلى مدينة سميت «وه - أردشير» (Weh-Ardashir) والتي أسسها الملك «أردشير» (٢٢٦ - ٢٤٠ م) وأطلق عليها اسم «كوخدة» (Coche) أو «سلوقية» الجديدة، ويذهب الإمام الطبري (٢٤٤-٣١٠ هـ) إلى أن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص إنما قد بقي فيها بعد انتصاره في «القادسية» (١٥ هـ) وقبل عبوره نهر الدجلة، وأن اسمها كان «بهرسير»، وقد أثبتت الحفريات أنها شيدت فوق مقبرة ترجع إلى العصر الفرثي،

وأن سورها وبعض جدرانها وأسلوب تخطيطها إنما يرجع إلى عصر «أردشير الأول»، وأنها كانت مدورة الشكل، وشوارعها غير منتظمة، وبها ساحات تطل عليها مجموعة من الحوانيت والمخازن، مما يشير إلى أهميتها التجارية، كما أن بها «إيوانا» مما يشير إلى العمارة العراقية التي تمثلت في الحضر.

٢- مدينة كسرى أنطاكية: هناك ما يشير إلى أن كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م) عندما استولى على أنطاكية في عام ٥٤٠م، بنى مدينة جديدة على مقربة من «طيفسون» لسكنى أسراه، وقد أسماه «مدينة كسرى أنطاكية»، وقد شيدت على طراز مدينة أنطاكية، وطبقا لرواية الإمام الطبري، (٢٢٤ - ٣١٠هـ / ٨٣٩ - ٩٢٣م) فلقد شيدت بيوت السكان طبقا للتخطيط السوري، وكان بالمدينة ساحة لسباق الخيل، وموافق عامة لا توجد في المدن الشرقية عادة، وقد أطلق عليها الكتاب العرب اسم «الرومية»، وماتزال آثارها باقية، على مقربة من «طيفسون»، وتسمى «بستان كسرى»، وتقع على مسعدة حوالي ٢٠ كيلا، جنوب شرق إيوان كسرى، وقد كشفت الحفريات عن سورها الضخم، ذي الأبراج المستطيلة، هذا وتجدر الإشارة إلى أن مدينة «أنطاكية» نفسها، إنما قد اشتملت على أبراج مربعة ومن ثم فإن تحصينات المدينة إنما قد اتبعت التخطيط الروماني المتأخر، وربما البيزنطي. ويستدل من الحفريات في «بستان كسرى» على أن للمدينة سورا، ربما كان مستطيلا، أو مريعا، طبقا للتخطيط الروماني كذلك.

وهناك أيضا «أسبانير» أو «أسفابور»، وطبقا لما جاء في المصادر العربية، فلقد كان بها «إيوان»، فضلا عن أنها إحدى المدائن السبع، التي سميت بها «المدائن»^(١).

(١) فرج بصره حى: نبذة تاريخية عن طيفسون - بغداد ١٩٦٤، وائق الصالحى: حضارة العراق ٢٤٥/٣-٢٤٩، ٣٥٩ - صالح أحمد العلى، المدائن في المصادر العربية، سומר ١٩٦٧ من ٤٧ - ٦٥، طارق مظفر، المدائن سומר ١٩٧١/٢٧ من ١٢٩ - ١٤٢.

وكتنا J.Fiey, 'Topography of Al-Mada' in Sumer, 23, p. 3 - 38.
وكتنا Antonio Invernizzi, Ten Years Research in THE Al-Mada'in
Area, Seleucia and Ctesiphon, Sumer, 32, 1967, p 167 - 175.

الفصل السادس العواصم الإسلامية

١- البصرة:

هي أول مدينة إسلامية أسست في العراق، أسسها القائد العربي «عتبة بن غزوان» في عام ١٦ هـ / ٦٣٧ م^(١)، على أيام الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه وأرضاه (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م)، وذلك لأن المقام لم يطب للعرب في المدائن، قاعدة الفرس، لعدم تعودهم على حياة المدن الكبيرة، كما أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أراد أن لا يحصل بينه وبين المسلمين بحر، إذ أراد أن يمدهم بالجنود، ومن ثم فقد شرع العرب في بناء البصرة، ثم الكوفة.

وكانت البصرة - وتقع - إلى مبعده ٢٢ كيلا من «الأبله على الخليج العربي» - في بادئ أمرها أشبه بالقرية منها بالمدينة فأنشئ بها أولا المسجد، ثم دار الإمارة بجواره، وحولها خطط، لكل قبيلة منها حطة ومسجد ومقبرة، وقد بنيت في البداية بالقصب ثم الطين، ثم بالأجر والحجارة.

وكانت مقابلة البصرة في أوائل سني تأسيسها أقل عددا من مقابلة الكوفة، ومواردها قليلة، وقد أنشئت في بقعة بعيدة عن الأنهار، فكان الماء فيها قليلا مجأ، وبمرور الأيام تم علاج هذه الأمور، فحفرت لها ترع تصلها بشط العرب وبالبطيحة، وتزود أهلها بالماء العذب، وبأسباب المواصلات، ثم إن قيام مقاتلتها بفتح أقاليم شرقي وجنوبي شرق الهضبة الإيرانية جلب لها موارد كبيرة في جباية

(١) اختلف المؤرخون في تحديد تمصير البصرة، فمن يجعله في عام ١٤ هـ (ابن الأثير ٣١٩/٢، البلاذري: فتوح البلدان ص ٣١٤، المسعودي: مروج الذهب ٣١٩/٢)، ومن يجعله عام ١٥ هـ (المقدس: أحسن التقاد م ص ١١٧) ومن يجعله عام ١٦ هـ (المسعودي: مروج الذهب ٣٢٠/٢، تاريخ بن خلدون ١٠٣/٢)، ولعل سبب هذا الاختلاف إنما يرجع إلى نزول «عتبة بن غزوان» بها عام ١٤ هـ، وإقامة المسلمين في ثكنات من القصب، ثم بناء المدينة من اللبن والأحجار بعد ذلك، هذا وذهب «جرجي زيدان» (التمدن الإسلامي ١٦١/١) إلى أن البصرة كانت خمسة أقسام، نزل في كل منها قبيلة من العرب الفاتحين (أحمد الشامي: الخلفاء الراشدون ص ١٧٤).

هذه الأقاليم، هذا فضلا عن أن قرب البصرة من البحر، إلى جانب صلتها الوثيقة
بخرسان والسند، إنما قد ساعد كثيرا على ازدهار تجارتها.

وهكذا لم يمض على تأسيس البصرة عقداك من الزمان، حتى أصبحت
واحدة من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي، وخاصة في التجارة بين الهند
والصين، ومن ثم فقد حلت محل «الأبله» على الخليج العربي، ثم سرعان ما
أصبحت مقصد القوافل، ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى
مفاوز الصحراء الكبرى.

ولعل ما تجدر الإشارة إليه أن معظم سكان البصرة، إنما كانوا من ربيعة
ومضر، ثم سرعان ما رقدت إليها جاليات من الهند والسند والصين، كما تردد
عليها كثير من العرب للتجارة، الأمر الذي أدى إلى ظهور حياة أديبة جديدة فيها،
فضلا عن تأثر الحركة الإسلامية بالفلسفة اليونانية القديمة^(١).

٢ - الكوفة:

أدرك الصحابي الجليل «سعد بن أبي وقاص» رضى الله عنه، أن المدائن -
العاظمة الفارسية - لم تكن ملائمة لاتخاذها - بعد أن فتحها في عام ١٦ هـ،
بعد حصار دام شهرين - مقرأً له، ومقاما لجيوش الإسلام وذلك لأن المدائن عدداً
كبيراً من أنصار الفرس ومؤيديهم، ولأن أهلها قد تعودوا حياة الترف، هذا فضلا
عن انفصالها عن الصحراء بأرضين قد غطيت بالمزارع وأشجار النخيل والترع، هذا
إلى أن مناخها رطب، كما أنها في منطقة موبوءة بالملازما

ومن ثم فقد كتب سعد إلى الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» رضى الله
عنه بكل هذا، وسرعان ما جاءه الرد بالبحث عن مكان آخر له ولجيته، على أن
يكون على طرف الريف، وعلى ألا يفصله عن بلاد العرب حاجز مائي، وعلى أن
يكون مناخه جافاً، ملائماً لرعى الإبل.

وهكذا بحث سعد الصحابييين الجليلين «سلمان الفارسي» و «حذيفة بن
اليحمان» رضى الله عنهما - بأمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - برتادان له
«وضعا تتوافر فيه الشروط التي أشار إليها الخليفة، وتند وقع بإختيارهما على مكان

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٥١٧/١، صالح أحمد العلى: العراق في التاريخ ص ٣٣٤ -

غربي الفرات، ويقع على مبعدة ٤٠ كيلا جنوبي بغداد، ٥ كيلا شمال الحيرة. وأقر الخليفة هذا الإختيار، ونزال «سعد بن أبي وقاص» بجنده في مكان الكوفة، في المحرم عام ١٧ هـ - يناير ٦٣٨ م، بعد أن خلف في المدائن بعض المسلمين الذين رغبوا في البقاء بها، وكان معظمهم من «عبر» وعسكر المسلمون من جنود العرب - وعددهم أربعون ألفا - في الخيام أولا، ثم بنوا بيوتها من القصب، وسرعان ما أنت عليها النار، فأمر الخليفة الراشد أن تبنى الدور باللبن، فاخترت «أبو الهياج بن مالك الأسدي» شوارعها وأزقتها، ثم اختار القوم موقعا وسطا لبناء الجامع، وخصص له رقعة واسعة تكفي لاجتماع خمسين ألفا، وأحاطوه بسياج من القصب، وأقاموا في طرفه الجنوبي الغربي المشجه نحو الكعبة المشرفة، مظلة مقامة على أعمدة من خشب، وقد سقت بالقصب، لتقى المصلين حر الصيف، وبلل الأمطار، ثم أبدلوا القصب بالطين.

وأقام القوم - بجوار الجامع من ناحية الظلة - بيتا للوالي، وآخر لحفظ السجلات والحسابات، وقد سموه الأول «دار الإمارة»، والثاني «الديوان»، وقد شيدت هذه المباني بالطين والقصب، وظلت كذلك حتى عهد معاوية بن أبي سفيان (٤٠ - ٦٠ هـ / ٦٦٠ - ٦٨٠ م) فأعاد واليه «زياد» بناءها بالطابوق، وجعل سوارى المسجد من الحجارة.

هذا وقد أحيطت هذه المباني (الجامع ودار الإمارة والديوان) من كافة أطرافها بمساحة واسعة عرضها ٥٠ مترا، تخرج منها عدة سكك، عرض كل منها ٥٠ ذراعا (حوالي ٣٥ مترا)، وتتشعب من كل سكة طرق فرعية، عرض كل منها حوالي ١٧ مترا.

ومن المعروف أن المسلمين إنما كانوا يبداون في بناء المدن بالمسجد، إتباعا لسنة سيدنا ومولانا محمد رسول الله (ﷺ)، عندما بدأ ببناء المسجد النبوي الشريف، عندما هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة في عام ٦٢٢ م، ذلك لأن المسجد، إنما كان المقر الرسمي للدولة، فيه تقام الصلوات، التي تربط المسلم بالله، رب العالمين وتنقى الإنسان من أدران الأرض، ودسائس الحياة الدنيا، ومنه تصدر القوانين، وفيه تناقش الأمور، ومنه تذاع البلاغات، وفيه يفصل في الخصومات، وفيه تقام حلقات الدرس حيث يتعلم المسلمون أمور دينهم.

وعلى أية حال، فلقد كان الجامع ودار الإمارة وبيت الديوان، هي الأبنية

العامّة الوحيدة في المدينة، وهي أبنية بسيطة في عمارتها، متوسطة في موقعها، تربطها السكك بكل أرجاء المدينة وأطرافها، ومن ثم فقد أصبحت هذه المنطقة قلب المدينة، وأكبر مركز حيوي بها.

وسرعان ما ازدادت أهمية الكوفة حتى أصبحت من أعظم مراكز العلم والحسبة والحرب في البلاد الإسلامية، وغدت الكوفة، قصبة العراق الأعلى، فكانت الكوفة يمين من قبله الولاة على الباب وأذربيجان وهمدان والري وأصبهان والموصل وقرقيسيا، وكان أكثر من نزل الكوفة من عرب اليمن.

ولما ولي سيدنا الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وكرم الله وجهه في الجنته - للخلافة (٣٥ - ٤٠ هـ / ٦٥٦ - ٦٦١ م)، اتخذ الكوفة حاضرة لخلافته، لأن بها شيعته وأنصاره، ثم لخصوبة أرضها وكثرة خيراتها، ووقوعها في مكان متوسط، سهل الإتصال بأجزاء الدولة الإسلامية، هذا إلى أن الإمام علي إنما كان يستعد لحرب معاوية بن أبي سفيان، بعد أن امتنع عن البيعة، بل وحشد جنده لحرب الإمام^(١) عليه السلام.

وكانت الكوفة أيضا حاضرة الخلافة على أيام خامس الراشدين، الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب، (١٧ رمضان ٤٠ هـ - ربيع الأول ٤١ هـ)، والدليل على أن الإمام الحسن بن علي، هو خامس الراشدين، فلقد روى الأئمة: أحمد بن حنبل وأبو يعلى وابن حبان، من طريق سفينة مولى سيدنا رسول الله (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال: الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم تكون ملكا، وإنما كملت الثلاثون سنة بخلافة الإمام الحسن بن علي، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت سيدنا رسول الله (ﷺ)، فإنه توفي في ربيع الأول، سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة^(٢).

(١) حسن إبراهيم: المرحع السابق ٥١٧٠١ - ٥١٩، صالح أحمد العلي: العراق في التاريخ ص ٣٣٠ -

٣٣٣، محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ١٩١٢ - ٢٠ (بيروت ١٩٩٠ م).

(٢) أنظر: محمد بيومي مهران: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين - الجزء السابع - الإمام الحسن بن علي - بيروت ١٩٩٠ ص ٤٣ - ٦٦.

٣- واسط:

في أواسط العصر الأموي (٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م) شهد العراق تأسيس ثالث مدنه الإسلامية - بعد الكوفة والبصرة - وذلك حين طلب الحجاج بن يوسف الثقفي (٦٦٠ - ٧١٤م) - والي العراق، في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٥-٧٠٥م) من الخليفة، السماح له بتأسيس مدينة جديدة تتوسط العراق، على الضفة الغربية للدرجلة.

وهكذا بدأ بناء المدينة الجديدة، وأمر الحجاج أن تتوسط دار الإمارة المكان المختار، وأن يكون المسجد الجامع ملاصقا لها، وأن يكون بينهما وبين خطط الناس خلاء، وأن يكون المسجد مربعا (طول ضلعه ٢٠٠ ذراعا)، وكذلك دار الإمارة (طول ضلعها ٤٠٠ ذراعا)، والتي يجب أن تكون هي القلب الذي تتقاطع عندها الشوارع الرئيسية الأربعة، وأما خطط الناس فكانت مهيبة من جهة - أي أن يكون أهل كل مهنة في مكان - وقبلية من جهة أخرى، وهكذا كان لأهل الشام والبصرة والكوفة مكان خاص لكل منهم، وقسمت المدينة أربعة أرباع، ثم سورت بخندق وسورين، على رأي، وسورين وخندق، على رأي آخر، وكانت أبواب السورين تغلق ليلا، ولا يسمح لغير أهل واسط بالمبيت فيها.

وعلى أية حال، فلقد احتفظت «واسط» بمركزها الإداري في العهد الأموي، ثم أخذت في التوسع في العصر العباسي، ومن ثم فقد امتد البناء خارج السور في الجهة الغربية حتى الجانب الشرقي منه، مما أدى إلى بناء جسر يربط بين الجانبين، وازدهرت الحياة الاقتصادية والعلمية في واسط، حتى دخلتها جيوش «هولاكو» (١٢١٧-١٢٦٥م) في عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، ثم جيوش «تيمورلنك» (١٣٣٦-١٤٠٥م) بعد ذلك بقرن ونصف، فعالت كل منهما فسادا وقتلا وحرقا وهدما وتخريبا في المدينة، ثم كان تغيير نهر الدجلة مجراه بمثابة الفصل الأخير في حياة «واسط»^(١).

٤- بغداد:

عندما استولى أبو العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ / ٧٥٠-٧٥٤م) على الكوفة، شيد في طرفها الغربي مدينة سماها «الهاشمية»، وانتقل إليها مع حاشيته

(١) صالح أحمد العلي: المرجع السابق ص ٢٣٦ - ٢٣٨.

وأنصاره، ثم سرعان ما قرر الإتياد عن الكوفة، فنقل مقامه إلى مدينة شيدها قرب «ابن هبيرة» - على مبدعة ٤٨ كيلا شمال شرقي الكوفة، وسماها أيضا «الهاشمية»، غير أن القوم ظلوا يطلقون عليها الإسم القيم (مدينة ابن هبيرة)، فلم يرضه ذلك، وربما كانت هناك أسباب أخرى زادت من استيائه من عاصمته الجديدة، ومن ثم فقد انتقل إلى «الأنبار» وشيد على مقربة منها مدينة سماها كذلك - وللمرة الثالثة - «الهاشمية»، فأقام فيها، حتى توفي في عام ١٣٦هـ، كما أقام بها كذلك خليفته «أبو جعفر المنصور» (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥م) في أول ولايته للخلافة.

غير أن المنصور سرعان ما أدرك أن الهاشمية (نسبة إلى هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ) وكذا بني العباس) أو «هاشمية الأنبار» لا تصلح مقرا للخلافة، ومن ثم فقد أخذ يبحث عن مكان آخر، يقع وسط أرضين خصبة، يرويها ماء دجلة، والجداول التي تأخذ مياهها من الفرات، وفي مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته، وتتوافر فيه سبل المعيشة، وفي مكان وسط العراق، حيث العواصم القديمة الكبرى - مثل «أكد» عاصمة سرجون الأكدي، و«بابل» العاصمة العتيدة للآموريين والكلدانيين، بل والإخمينيين، فضلا عن الإسكندر المقدوني، و«سلوقية» عاصمة السلوقيين، و«طيفسون» عاصمة الفريثيين والساسانيين - ، وفي أطراف هذه المنطقة كانت الحيرة عاصمة المناذرة، والكوفة المركز الرئيسي الأول للعرب المسلمين -.

وهكذا بعث المنصور روادا يختارون له مكانا لحاضرته الجديدة، فدلوه على مكان يقع على مقربة من «بارما» جنوبي الموصل، فخرج إليها في جمع من رجاله بلاطه وبيات فيه، ولما أصبح سأل رجاله عنه، فذكروا له طيب هواؤه وجودة غذائه، فقال: ولكن لا مرفق فيه للرعية، ودلهم على مكان تجلب إليها المون من البر والبحر، كان قد مر به، فعاد إليه وأقام فيه يوما وليلة، وكان الوقت صيفا، فأعجبه هواؤه، ووجد فيه ما يفي بفرضه، ثم حبه إليه أهل النواحي المجاورة، وهكذا اختار المنصور موقع عاصمته الجديدة في رقعة مرتفعة من الأرض على الجانب الغربي لنهر دجلة، عند مصب نهر الرافيل فيه.

وهكذا اختار المنصور موقع «بغداد» في منطقة بها بضغ قرى، ودير للنصارى،

وجسر على دجلة وسوق تقام في بعض أيام الأسبوع، فالأرضين التي حول المنطقة المختارة سهلة فسيحة، فيها مزارع تسقيها نرع تخرج من مياه نهر «الرفيل» الواسع الذي يأخذ ماءه من الفرات، ومن نهر «دجيل» الذي يأخذ ماءه من دجلة، هذا إلى أن الأرضيين المزروعة كانت واسعة تنتج محاصيل زراعية بمقادير كبيرة، هذا فضلا عن أرضين منبسطة تقابلها في شرق دجلة، تروى مزارعها عدة أنها ونرع أكبرها «بوق».

وبدأ المنصور في بناء عاصمته الجديدة في عام ١٤٥ هـ، وتم بناؤها في عام ١٤٧ هـ، وأطلق عليها إسم «مدينة السلام»، غير أن الناس إنما كانوا يسمونها في الغالب «مدينة المنصور» - نسبة للخليفة المنصور الذي شيدها - كما أطلقوا عليها، وعلى ما شملته من مبان، عند توسعها «بغداد»، وهو الإسم الذي كان يطلق على المنطقة منذ أيام البابليين، و«بغداد» - فيما يرى البعض - مكونة من كلمتين، «باغ» وهي بالفارسية بمعنى «بستان»، و«داد» وهو إسم لرجل كان يملك هناك بستانا، على أن هناك من يرى أن «بغ» إسم صنم، و«داد» وهو إسم لرجل كان يملك هناك بستانا، وهناك من يرى أن «بغ» إسم صنم، و«داد» بمعنى أعطى أو منح، روى أن كسرى أقطع هذه الناحية عبدا من المشرق من عبدة الأصنام، فقال العبد: بغ دادى، أى أن الصنم أعطاني، وروى الإمام النسائي أن رجلا قدم على «عبد العزيز بن أبي رواد»، فقال له: من أين أتيت؟ فقال: من بغداد، فقال: لا تقل بغداد، فإن «بغ» صنم، و«داد» أعطى، ولكن قل: «مدينة السلام».

وأيا ما كان الأمر، فإن المنصور جعل مدينته مدورة، وأحاطها بخندق وسورين، بينهما فسحة واسعة، وكان السور الداخلى أعرض سمكا، وأعلى ارتفاعا، وأحكم بناء، وعليه شرفات كالأبراج، كما جعل للمدينة أبوابا أربعة (باب الشام وباب الكوفة وباب البصرة وباب خراسان)، وفوق كل باب قبة، وحصن كل مدخل بباب ضخمة من حديد يمكن إقفاله، ورسم في داخلها سكاكا مستقيمة تمتد إلى رحبة واسعة في وسط المدينة المدورة.

هذا وقد شيد الخليفة في وسط الرحبة قصرا كبيرا مربع الشكل (طول كل ضلع منه ٢٤٠ مترا)، وبنى في طرف القصر «إيوانا» ضخما، تعلوه قبة سامقة

الإرتفاع، خضراء اللون، ترى من مسافات بعيدة، وجعل سقفه من الساج، وزخرفه بماء الذهب، ومن فقد سمي «قصر الذهب» - حيث كان مقام الخليفة ومقر عمله - ثم بنى شرق القصر جامعاً واسعاً مربع الشكل (طول كل ضلع فيه ١٢٠ متراً).

وظلت بغداد عاصمة الخلافة العباسية، حتى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢م)، فبنى عاصمته «سامراء» (سر من رأى) - على بعدة حوالي ١٠٠ كيلاً شمالى بغداد، على الضفة اليسرى للديجلة - وذلك فى عام ٢٢١هـ، ثم انتقل إليها مع جيشه وكبار رجال دولته، غير أن بغداد لم تتأثر كثيراً بانتقالهم، وإنما ظلت عامرة مزدهرة، وظل الخلفاء العباسيون يقيمون فى «سامراء» قرابة السبعين عاماً، حتى نهاية عهد «المعتضد» (٢٧٩ - ٢٨٩هـ)، ثم عادوا بعدها إلى بغداد، فبقوا بها حتى نهاية الدولة العباسية فى عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م على أيدي المغول، بقيادة «هولاكو».

وسرعان ما سارع الخراب إلى «سامراء»، ولم يبق فيها إلا قبر مولانا الإمام على الهادى (الإمام العاشر)، والسرداب الذى اختفى فيه محمد المنتظر - الإمام الثانى عشر عند الإمامية الإثنى عشرية - هذا فضلاً عن قبور الخلفاء العباسيين؛ الوثائق المتروكل والمتنصر والمعتز والمهدى والمعتمد .

هذا وقد ذكر لنا «ياقوت الحموى» سبعة عشر قصراً، بناها «المعتصم» و«المتوكل» (٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٧ - ٨٦١م) فى «سامراء»، وقد أصبحت هذه القصور نموذجاً للقصور التى بنيت فيما بعد فى البلاد الواقعة فى بخارى شرقاً، وقرطبة غرباً^(١).

(١) تاريخ الطبرى ٢٣٠/٩ - ٢٤١، الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد ٢١١/١ - ٨٢. ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١١٢ - ١١٧، اليعقوبى: كتاب البلدان ص ٢٣٩ - ٢٥٤، صالح أحمد العلى: المرجع السابق ص ٣٧٣ - ٣٨٦، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٣٦٠/٢ - ٣٨٢. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٥٥٧/٥ - ٥٦٠، ٥٧٣ - ٥٧٥، ابن كثير: البداية والنهاية ٩٦/١٠ - ١٠٣، محمد الخضرى: تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية ص ٧٧ - ٧٩، عبد العزيز سالم: العصر العباسى الأول ص ٦٣ - ٦٥.

وكنّا - LeStrange, (Guy), Baghdad During The Abbasid Caliphate, Oxford, 1924, p. 9-18. !

الباب الثالث
بلاد الشام

الفصل الأول فلسطين

القدس الشريف:

تقع القدس على خط عرض $31^{\circ} 46' 45''$ شمال خط الاستواء، وعلى خط طول $35^{\circ} 13' 25''$ شرق جريتش، وعلى مبعده 24 كيلاً إلى الغرب من البحر الميت، و53 كيلاً إلى الشرق من البحر الأبيض المتوسط، وثمانية كيلو مترات إلى الشمال الشرقي من «بيت لحم»^(١)، وهي هضبة غير متسوية تماماً، يتراوح ارتفاعها بين 2130، 2469 قدماً، وجوها قارى صحراوي إلى حد كبير، فالحرارة فيها قد تتجاوز 30° صيفاً، وقد تنزل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاءً، كما أن التفاوت في الحرارة كبير بين الليل والنهار، ومطرها شتوي متوسط، ورطوبتها متوسطة أيضاً، ويندر بها الثلج وليس بها أنهار، وإنما تحيط بها عيون كثيرة تتفاوت في غزارة الماء وصلاحيته للشرب وتندفع من بعض هذه العيون جداول مؤقتة عند هطول الأمطار، وكانت المدينة إلى عهد ليس بعيد تعتمد أساساً على جميع مياه الأمطار في صهاريج وآبار أعدت لهذا الغرض^(٢).

وأعلى مرتفعات المدينة يوجد في حافاتها الشرقية والجنوبية الغربية والشمالية ومن ثم فقد اعتبرت منذ القدم موقماً استراتيجياً قوياً جداً، واشتهرت بأنها لا تظهر عند الزحف عليها من بعيد، بينما تستطيع حاميتها أن تكشف تحركات المهاجمين لها، وهم ما يزالون على مسافة طويلة^(٣).

وهذا وقد اشتهرت المدينة بعدة جبال، أولها: جبل الزيتون (جبل الطور) ويقع إلى الشرق من القدس، مواجهاً لأسوار الحرم الشريف (المسجد الأقصى)، ويفصله عنه واد عميق سريع الانحدار، هو وادي «قدرون» ويسميه التلمود «جبل المسح» أي جبل التتويج، لأن القوم إنما كانوا يستخدمون زيتونة المقدس في تتويج

(1) M.F.Unger, op.cit., p. 576.

(2) حسن ظاظا، القدس، الإسكندرية، 1970، ص 11.

(3) نفس المرجع السابق ص 11 - 12. وانظر محمد بيومي مهران: إسرائيل 1947 - 1966 (الإسكندرية 1978) وانظر ضيمة 1969 ص 731 - 770.

ملوكهم من بنى إسرائيل، وعليه كانت تحرق بقرة حمراء قرباناً ليهوه رب إسرائيل، ثم يستخدمون رمادها في تطهير الهيكل، وإعادة تكريسه إذا دنس، وهي عادة وثنية كانت منتشرة في هذه المنطقة قبل نزول الديانات السماوية.

وأما ثاني الجبال فهو «جبل بطن الهراء»، وهو امتداد جبل الزيتون في الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس عنها «وادي سلوان» الذي يتصل في هذه النقطة نفسها بوادي قدرون، ويسميه اليهود «الجبل الفاضح» (هارها مشحيت)، ويزعمون أن سليمان قد أقام عليه المعابد الوثنية لساته الأجنبيات وأنه المقصود في رواية التوراة في سفر الملوك الأول (١٩ : ١-٨)، وأما ثالث الجبال، فهو «جبل صهيون» والذي سماه داود بعد أن احتل المدينة «جبل داود» ويقع في الجنوب الغربي للقدس القديمة، وهناك «جبل موريا» أو «جبل بيت المقدس»، ويقوم عليه مسجد الصخرة والمسجد الأقصى.

ثم هناك «جبل أكر» حيث توجد كنيسة القيامة، ثم جبل رأس المشارف (سكوبوس)، والذي يسميه التلمود «جبل المراقبين» ويقع شمال شرقي المدينة وهو امتداد لجبل الزيتون من الشمال الشرقي إلى الشمال، ويفصل بينهما منخفض يسمى «عقبة العمران» ثم هناك «جبل رأس أبو عمار» ويقع إلى الغرب من قرية «بتير» وهناك «جبل السناسين»، ويقع إلى الجنوب الغربي من «وادي فوكين» ثم «جبل النبي صموئيل» ويقع شمال غربي المدينة، على بعد قريب من غربي قرية «بيت حنينا»، وشمال قرية «بيت أكسا»

هذا، ويبدو أن هناك جبلا كان في قديم الزمان، يقوم بين جبل سكوبولس وبين هضبة الحرم الشريف (جبل موريا)، ذكره «يوسف بن متى» في كتابه «حرب اليهود الجزء الأول - الباب الخامس»، وسماه «بيزيتا» (أي بيت الزيتون أو «منبت الزيتون»)، ولما تولى أجريبا الأول، (٤١ - ٤٤ م) من أسرة هيرودس الكبير فردم ما بين الجبلين - جبل موريا، وجبل بيزيتا - ومد أسوار المدينة إلى ما وراء هذا الجبل الأخير، بحيث أصبح حياً من أحياء القدس كان يسمى «المدينة الجديدة» (٤).

(٤) حسن ظاهراً المرجع السابق، ص ١٢ - ١٥ عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة

١٩٧٤، ص ١٣ - ١٥

هذا ومحاط القدس بعدة تلال، لعل أهمها «تل الفول» ويقع على مبعدة ستة كيلو مترات إلى الشمال من القدس، حيث كانت مدينة جبعة القديمة، والتي كشف «وليم أولبرايت» فيها عن بقايا قلعة شازل، فيما بين ١٩٢٢، ١٩٣٣م، والتي لم يبق منها في الواقع إلا جزء صغير، يتكون من برج في أحد الأركان وجزء من الاستحكام المسقوف المجاور له^(٥)، ثم هناك تل الكابوس على مبعدة ثمانية كيلو مترات إلى الشمال الشرقي من المدينة المقدسة، وتل النصبه على مبعدة اثنين من الكيلو مترات جنوبي «البيرة» في قضاء القدس، وهناك كانت تقع مدينة المصفاة الكنعانية - حيث نودي يشازل ملكا على إسرائيل^(٦) ثم هناك «تل القرين» ويقع شمال شرق المدينة بين «وداي الصوينت» شمالا، وقارة جنوباً، وتل صرعة (تل صروع بالعبرية)، ويقع غربي جبال القدس، حيث توجد قرية تسمى باسمه، وإلى الشرق من قرية «دير رافات»، وإلى غرب «عرطوف» وأخيراً فهناك «تل شلتا» (تل شيلات) ويقع في جبال القدس غربي قرية «بلعين» وعلى مقربة من قرية «شلتا»^(٧).

وأما الوديان المحيطة بمدينة القدس، فأهمها وادي قدرون: وهو اسم جدول الماء الذي يجري في قاعه عندما يسقط المطر، وقد اشتهر باسم «يهو شافط»، وطوله نحو كيلو مترين، ويفصل السور الشرقي للقدس عن جبل الزيتون ويعتقد كثير من الطوائف اليهودية والمسيحية أن الحشر يوم القيامة إنما سوف يكون في هذا الوادي، اعتماداً على روايتين في التوراة، تقول الأولى: «احمل كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهو شافط، لأنني هناك أجلس لأحاكم جميع الأمم من كل ناحية»^(٨).

(5) W.F.Albright, The Archaeology of Palastine, (penguin Books), 1949, p. 120 - 121.

(٦) صموئيل أول ١١:١٠ - ١١:١١. ٢٧.

(٧) عبد الحميد زايد، المرجع السابق ص ١٥.

(٨) يوتيل ٢:٣، ١١٣ حسن ظاظا، المرجع السابق ص ١٥ - ١٦.

وهناك وادى سلوان: ويمتد على طول جنوب القدس، حتى الطرف الجنوبي الشرقي من جبل صهيون، وقد أطلق عليه العرب إسم «حقل الدماء»، وكان يسمى قبل مجئ العبرانيين «وادى هنم» نسبة إلى قبيلة «هنم» (بتشديد النون) وقد جاءت كلمة الوادى فى بعض اللغات السامية القديمة تحت اسم «جى» فكان يقال «جيهنم» - أى هذا الوادى - وكانت قبيلة «هنم» تقدم الضحايا البشرية لإلهها «مولك» بذبحها وإلقائها فى النار، ومن هذه الصورة أطلق اسم «جهنم» على مكان العذاب فى الآخرة، للشبه القائم بينها.

ثم هناك وادى الجبانة أو «التيروبيون»، ويفصل جبال صهيون عن غرب القدس، حيث ينتهى وادى سلوان، وكان يسمى فى الجزء الجنوبي الغربى من القدس «وادى الزبالة» أو «وادى الدمن» أو «وادى القمامات»، وهناك كذلك وادى الأرواح (رفائيم، أو العفاريت)، ويدور حول غرب جبل صهيون، وأقصى الجنوب، هذا إلى جانب مجموعة أخرى من الوديان، مثل وادى زيتا ووادى التامرة ووادى النار ووادى مكلك والوادى الكبير^(٩).

(٢) مكانة القدس الدينية:

تحتل القدس مكانة دينية فريدة بين مدن العالم، القديم منها والحديث، فهى المدينة الوحيدة فى العالم أجمع، التى يجمع أصحاب الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - على قدسيتها، ومن ثم فقد كانت وما تزال - وستظل أبداً إن شاء الله - رمزاً للبشرية المتدينة على اختلاف مللها ونحلها ومذاهبها، وهكذا رأينا اليهود يقدسونها، لأن لهم فيها «كبريات دينية وسياسية، ففيها كان هيكلهم المشهور، كما أنها كانت عاصمة لدولتهم حيناً من الدهر.

ويقدسها المسيحيون لأنها موطن المسيح ومبعث هدايته، ومن ثم فقد اتخذوا عادة الحج إليها كما يفعل اليهود، وربما الأرجح لأن المسيح، عليه السلام - طبقاً لرواية إنجيل لوقا - قد حج إليها فى صباه مع أبويه (مريم العذراء ويوسف خضيبها)، ولما كان فى الثانية عشرة من عمره، بقى فيها حيناً من الدهر يتعلم...^(١٠) ثم زاد الحجيج من المسيحيين إلى القدس، بعد أن بنت

(٩) عبد الحميد ريد، المرجع السابق، ص ١٥-١٧ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٥-١٧.

(١٠) لوقا، ٢: ٤١-٥٢.

«هيلانة» أم الإمبراطور الروماني قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧م) - الذي لم يعترف بالمسيحية كما يئانه فحسب، بل إنه هو نفسه قد اعتنق المسيحية في عام ٣١٢م، على رأى جماعة من المؤرخين، وإن رأى جماعة أخرى أنه بقى وثنياً طوال حياته، ولم يتقبل النصرانية إلا على فراش المرض - بنت فى عام ٣٢٦ هـ كنيسة القيامة، فسمى إليها الحجيج من كل حدب وصوب، لأنهم يعتقدون أن جثمانه الطاهر دفن فى مكان هذه الكنيسة، ثم رفع إلى السماء^(١١).

ويقدسها المسلمون^(١٢) لأن الله تعالى شاءت إرادته أن يخصها بالعديد من الأنبياء ابتداءً من أبيهم إبراهيم، وحتى عيسى ابن مريم، عليهم السلام - ولأن فيها أولى القبلتين^(١٣)، وثالث الحرمين الشريفين^(١٤)، ولأن بها مسرى جدهنا النبى الأعظم مولانا وسيدنا رسول الله - ﷺ - وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ﴾^(١٥).

(١١) عمر كمال توفيق، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية ١٩٦٧، ص ٣٩، فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٣٨٧، ثم قارن Eusebius, BK, I.Ch. 4; Sozomenus, BK, IK, IX, Ch. 9, 2

(١٢) انظر التفصيلات: محمد بيومى مهران، القدس حتى عصر داود، مؤتمر قسم التاريخ بجامعة الإسكندرية عن القدس - التاريخ والحضارة فى الفترة (٢-٥ نوفمبر ١٩٩٦م).

(١٣) انظر: سورة البقرة: آية: ١٤٢ - ١٤٤ ك وكذا: تفسير الطبرى ١٢٩/٣ - ١٨٤ تفسير ابن كثير ٣٧٢/١ - ٣٨٠ تفسير القرطبي، ص ٥٣١ - ٥٥٠ تفسير المنار ٧/٢، ١٢-١٣ صحیح البخارى ٢٥/٦ - ٢٧، (دار الشعب ١٣٧٨هـ)، صحیح مسلم ١٦٠/٢ - ١٦٢، (دار الشعب القاهرة ١٩٧٠)، مسند الإمام أحمد ٢٤٦/٥ - ٢٤٧، (القاهرة، طبعة الحلبي)، الهيئى، مجمع الزوائد ١١٢/٢ السيوطى، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١٤٣/١، ١٤٧، ابن كثير، السيرة النبوية ٣٧٢/٢ - ٣٧٧، ابن هشام، سيرة النبى ﷺ، ٥٥٠، طبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥.

(١٤) أنظر: صحیح مسلم، ٤١/٢، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٢)، الزركشى، كتاب إعلام المساجد، ص ٢٨٧، عبد اللطيف مشتهرى، المسجد الأقصى، القاهرة ١٩٦٩، ص ٣٣ - ٣٧.

(١٥) سورة الإسراء، آية. ١١ وانظر: تفسير ابن كثير ١٣١/٥ - ١٢٧، تفسير القرطبي، ص ٢٨١٩ - ٢٨٢٨، عبد الله محمود شحاتة، تفسير سورة الإسراء، ص ٢١ - ٤٧، (القاهرة ١٩٧٥)، ابن هشام، سيرة النبى ﷺ، ٣٩٦/١ - ٤٠٣، ابن كثير، السيرة النبوية ٩٣/١ - ١٠٨، صحیح البخارى ٦٩/٥، ١٠٤/٦، صحیح مسلم ٣٧٧/١ - ٤٠٢، فتح البارى بشرح صحیح =

ويروى أبو الدرداء - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ - قال: «فضلت الصلاة فى المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفى مسجدى بألف صلاة، وفى مسجد بيت المقدس بخمسة صلاة»^(١٦)، وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا^(١٧).

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - قال: «البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء ما فيه موضع شبر، إلا قد صلى فيه نبي، أو قام ملك»^(١٨).

(٣) أسماء مدينة القدس:

عرفت مدينة القدس الشريف بأسماء كثيرة، غير أن الاشتقاق الأصلى لاسم المدينة غير مؤكدة على وجه التحقيق، وإن كان من الواضح أنه من أصل سامى، وأقدم النقوش التى ورد فيها اسم المدينة المقدسة، هو نقش مصرى يرجع إلى أحرىات القرن التاسع عشر قبل الميلاد^(١٩)، على رأى، حيث ذكرت تحت اسم «أورساليوم» Ursalimum^(٢٠)، وإلى أيام الأسرة الثالثة عشرة المصرية (١٧٨٦ - ١٦٥٠ ق.م)^(٢١) فيما عرف بنصوص اللعنة تحت اسم «أوشاميم» Aushamum، على رأى آخر^(٢٢).

= البخارى ١٥٩١٧ - ١١٧٢، محمد النزالى، فقه السيرة، ص ١٣٤ - ١٤٧، (القاهرة ١٩٦٥)، محمد محمد أبو شهبة، السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، ٤٢١/١ - ٤٤٥، عماد الدين خليل، دراسة فى السيرة، ص ١١٠ - ١٢٤ وانظر عن «الإسراء» (محمد بيومى مهران، السيرة النبوية الشريفة - الجزء الأول ص ٢٥٣ - ٢٤٨، بيروت ١٩٩٠).

(١٦) - أبو اليمن مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الجزء الأول، ص ٢٢٩، محمد محمود الفحام، المسلمون واسترداد بيت المقدس، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٢.

(١٧) صحيح البخارى ٧٦١/٢ - ٧٧، (دار الشعب، القاهرة ١٣٧٨ هـ)، تفسير القرطبي، ص ٣٨٢٧ - ٣٨٢٨، (القاهرة ١٩٧٠).

(١٨) مجير الدين الحنبلى، المرجع السابق، ص ٢١١.

(١٩) هناك من يرى أن النقش إنما يرجع إلى أيام سنوسرت الثالث (١٩٧٨ - ١٨٤٠ ق.م) أو بعده بقليل وربما قبله بقليل.

(20) M.F.Ungcr, op.cit., p. 576.

(٢١) نظر: محمد بيومى مهران، «حركات التحرير فى مصر القديمة»، ص ١٠٤، ١١٦.

(٢٢) أحمد فخري، «مصر الفرعونية»، ص ٢٣٥، وكنا:

J.A.Wilson, ANET, 1966, p. 329; W.Ward, Egypt and The East Mediterranean, in The Second Millennium B.C. Orientalia, Vol. 30, Rome, 1961, p. 32.

ونقرأ فى رسائل العمارنة من عهد الملكين «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) وولده إختاتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) فى رسالة من «عبد خيبا» أمير القدس - وكانت تدعى، على مايدرو، أوروسالم - من قبل فرعون، يقول فيها «لأبى ولأبى وضمانى فى هذا المكان، بلى يد الملك القوية وضعتى فى بيت أبائى»^(٢٣). وبقيت المدينة كذلك تحت الحكم المصرى، وإن استقل بها «اليبوسيون» بعد فترة الضعف التى انتابت الإمبراطورية المصرية، وسموها «يبوس»^(٢٤)، حتى جاء داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م)، وأخذها منهم، وأطلق عليها اسم «مدينة داود»^(٢٥)، وربما لأن اسمها القديم، إنما كان غريباً على آذان العبريين، وربما لأن فيه تخليداً للاهوت أجنبى. وربما - وهو الأرجح - لأن داود إنما أراد أن يخلد اسمه بإطلاقه على المدينة القديمة، أو حتى على جزء منها، ذلك لأن اليهود أطلقوا على المدينة كذلك اسم «بيرووشاليم» أو «أوروشالم»، بإضافة لاحقة عبرية، كى تصبح عبرية النطق.

وأياً ماكان الأمر، وسواء أكان داود قد أطلق عليه المدينة اسماً عبرياً أو أنه أراد أن يخلد اسمه، فهو فى ذلك إنما كان مقلداً لغيره من الحكام الذين كانوا - ومايزالون - يطلقون أسماء جديدة على أماكن قديمة، كما أن الاسم الجديد الذى أطلقه داود على المدينة (مدينة داود) لم يحل محل الاسم القديم، ويفسر بعض العلماء ذلك على أنها حالة من حالات كثيرة فى التاريخ القديم والحديث أخفقت فيها الأسماء الجديدة التى فرضتها السلطات الحاكمة فى القضاء على الأسماء القديمة التى لها جذور عميقة فى الوجدان الشعبى^(٢٦).

وعلى أى حال، فلقد دعت المدينة فى النقوش الآشورية باسم «أورساليوم»^(٢٧) Ursalumum، وفى النقوش اليونانية الرومانية تحت اسم «هيروسوليام» Hiero-soiyma، هذا وقد أطلق على المدينة أسماء أخرى كثيرة - شأنها فى ذلك

(23) S.A.B.Mercer, op.cit., II, L. 286 - 289; W.F.Albright, ANET, p. 487 - 489.

(٢٤) قضاة ١٩: ١٠ - ١١.

(٢٥) صموئيل ثان ٩: ٥.

(26) S.Yeivin, JNES, 7, 1947, p. 40.

(27) M.F. Unger, op.cit.p. 576.

شأن غيرها من المدن الهامة في تاريخ العالم - ومن الأسماء التي أطلقتها التوراة اسم «أريئيل» (إشعيا ٢٩: ١) ومدينة العدل (إشعيا ١: ٢٦) والمدينة (مزمو ٧٢ : ١٦) ومدينة الله (مزمو ١٨: ١) ومدينة الحق (زكريا ٨: ٤) ومدينة القدس (إشعيا ٢: ٨؛ نحميا ١١: ١) وجبل القدس (إشعيا ٢٧: ١) والمدينة المقدسة (متى ٤: ٥)، وأما أسماؤها العربية فهي بيت المقدس والقدس الشريف، أما الاسم الغالب فهو «القدس»، والذي يبدو أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها.

هذا ولم يذكر المؤرخ اليوناني «هيرودوت» (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م) في تاريخه إسم «أورشليم» ولكنه ذكر مدينة كبيرة في الجزء الفلسطيني من الشام، وسماها «قديس» مرتين في الجزء الثاني والثالث من تاريخه، ويقول المستشرق اليهودي الفرنسي «سالون مولك» في كتابه «فلسطين» أن هذا الاسم على الأرجح هو «القدس»، محرراً في اليونانية عن النطق الآرامي «قديشتا» (٢٨).

وأما معنى أورشليم فقد اختلف فيه، وأرجح الآراء من الناحية العلمية أنها مركبة من «أور» بمعنى موضع أو مدينة، ومن «شالم» وهو إله وثني لسكان فلسطين الأصليين، هو إله السلام، فالمدينة إذن كانت مكرمة لإله السلام، حتى وصل العبرانيون، وهناك من يقول أن كلمة «أور» معبها «الميراث»، فتكون أورشليم، بمعنى «ميراث السلام»، أما أحبار اليهود فيدعون أن «سام بن نوح» قد سماها «شلم» أى السلام، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام، قد سماها «يراه» وهي بمعنى الخوف باللغة العبرية، فقرر الله أن يسميها بالإسمين جميعاً (يراه - شلم) أى (أورشليم) بمعنى الخوف والسلام، وبنوا على هذه التخريجات الفلولوجورية عقائد رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب، وقيل أيضاً أن (يرو) يمكن أن تكون في اللغات السامية بمعنى «إله» ويكون اسم المدينة بكل بساطة «إله السلام» (٢٩).

وأياً ما كان الأمر، فما أن يأتي الرومان وتحدث منبحة هادريان (١١٧ - ١٣٨ م) الرهيبة في عام ١٣٥ م، حتى تكن ختاماً نهائياً لليهود في فلسطين سياسياً وسكانياً، ثم يغير الرومان إسم المدينة إلى «إيليا كايثولينا».

(٢٨) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٨، قاموس الكتاب المقدس، ١٣٩/١.

(٢٩) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٩.

أو «إيليا» فقط، وأصبح لفظ أورشليم لفظاً تاريخياً، يطلق فقط على المدينة التي كانت في هذا المكان على عهد الملوك والأنبياء من بني إسرائيل، وظلت المدينة تسمى «إيليا» ولا يسكنها اليهود حتى القرن السابع الميلادي.

وفي العام الخامس عشر من هجرة المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - يفتح المسلمون المدينة المقدسة، ويعيدون إليها اسمها، وإن اشترط أهلها ألا تسلم مدينتهم إلا للخليفة نفسه، وأن يمنحهم الأمان لدينهم وكنائسهم، ويقبل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضی الله عنه (١٣ - ٢٢هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤م) ذلك، ويأتي إلى القدس في عام ١٥هـ / ٦٣٦م فيدخل المدينة التي يسلمها له البطريرك اليوناني «صفر نيوس» ويمتخ أهلها النصارى الأمان في دينهم وأسوأهم وأعراضهم، لا يضار أحد منهم بسبب دينه، ولا يكره على شيء في أمره، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود^(٣٠)، وبينما كان الخليفة الراشد في كنيسة القيامة مع البطريرك أدركته الصلاة، فطلب إليه أن يصلي بها فرفض حتى لا يتبعه المسلمون إذ يرون أن عمله سنة مستحبة، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كنيستهم وخالفوا عهد الأمان، واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة، وإنما صلى في مكان قريب، عند الصخرة المقدسة، وخط المسجد الذي عرف باسمه^(٣١).

(٣٠) هناك رواية أخرى تذهب إلى أن الفاروق عمر بن الخطاب رفض الموافقة على استمرار القرار الروماني القديم بمنع اليهود من النزول بالمدينة، معتذراً بأن القرآن الكريم قد حدد ما لأهل الكتاب وما عليهم، وليس فيه شيء يسمح بهذا، ولكنه تمهد لفساد القدس بالأدخال أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن في حاراتهم (حسن طاطا، المرجع السابق، ص ٣٠).

(٣١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٦٠٧/٣ - ٦١٣، (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨)، الواقدي، فتوح البلدان، ٢٦٢، ٢٤٤، ٣٥٧، ٣٦٧، محمد الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية ٥/٣ - ٧، (القاهرة ١٩٧٠هـ)؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ١/١٨٨، (القاهرة ١٩٦٧)، محمد حسين هيكل، الفاروق عمر ٢٤٦/١ - ٢٦٣، (القاهرة ١٩٦٢)؛ علي محمد علي، ملف وثائق القضية الفلسطينية، ٤/١ - ١٢، (القاهرة ١٩٧٠)؛ حسن طاطا، المرجع السابق، ص ٣٠؛ عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٧٣ - ١٧٥.

الفصل الثاني المسجد الأقصى

المسجد الأقصى أو بيت المقدس، موطن العديد من الأنبياء والمرسلين، ابتداءً من أبيهم إبراهيم وحتى عيسى ابن مريم عليهم السلام، وثاني مسجد وضع في الأرض بعد الكعبة البيت الحرام^(١) وأولى القبلتين^(٢)، وثالث الحرمين الشريفين^(٣)، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾^(٤)، وليس هناك من شك في أن هذا الإسراء أو هذه الرحلة المباركة من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في القدس الشريف إنما هي رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد ﷺ رسول الله وخاتم النبيين، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أريد بهذه الرحلة المباركة إعلان ورياسة النبي الخاتم محمد ﷺ لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً، ولهذا فقد جمعوا له هناك كلهم فأهمهم في محلهم ودارهم، فدل هذا على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن ثم فقد كانت رحلة الإسراء ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آماداً وأفاقاً أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القرية التي تتكشف عنها للنظرة الأولى^(٥).

(١) صحيح البخارى ١٧٧ / ٤، صحيح مسلم ١ / ٣٧٠، ١٥٣ / ٢ - ١٥٤، مستد الإمام أحمد ١٥

١٥٠، ١٦٧، تفسير القرطبي ص ١٢٧٩، تفسير المنار ٤ / ٦ - ٧.

(٢) انظر: سورة البقرة: آية ١٤٢ - ١٤٤، صحيح البخارى ٦ / ٢٥ - ٢٧، صحيح مسلم ١٢ / ١٦٠ -

١٦٢، مستد الإمام ١٥ / ٢٤٦ - ٢٤٧، مجمع الزوائد للهيثمى ١٢ / ١٣.

(٣) انظر: صحيح مسلم ١ / ٥٤١ (القاهرة ١٩٨١)، الزركشى: إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص

٢٨٧.

(٤) سورة الإسراء: آية ١ وانظر: تفسير القرطبي ص ٢٨١٩ - ٢٨٢٨، تفسير ابن كثير ١٣ / ٥ -

٤١، فتح البارى ٧ / ١٥٩ - ١٧٣، صحيح البخارى ٥ / ٦٦ - ٦٩.

(٥) فى ظلال القرآن ٤ / ٢٢١٢، تفسير ابن كثير ٣ / ٥.

ولعل سائلاً يتساءل: من هذا الذي نال شرف بناء المسجد الأقصى؟

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والنسائي (واللفظ له) بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن سليمان بن داود عليهما السلام، لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلالاً ثلاثة، سأل الله عز وجل حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله ملكاً لا يتبغى لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه، أن يخرج من خطيبته كيوم ولدته أمه^(١).

وروى البخاري ومسلم عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول، قال المسجد الحرام، قلت ثم أى، قال المسجد الأقصى، قلت كم كان بينهما، قال أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعده فصله، فإن الفضل فيه^(٢)، وفى رواية عن أبي ذر أيضاً قال: قلت يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول، قال المسجد ثم قلت أى، قال المسجد الأقصى، قلت كم بينهما، قال أربعون سنة، ثم حينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد^(٣). وفى رواية البخارى: ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله هذا وقد أثار هذان الحديثان الشريفان جدلاً بين العلماء، على أساس أن إبراهيم عليه السلام وهو باني البيت الحرام، وأن سليمان عليه السلام هو باني المسجد الأقصى، وبينهما ما يقرب من ألف عام^(٤)، ومن ثم فقد ذهب أبو جعفر الطحاوى بأن الوضع غير البناء، والسؤال عن مدة ما بين وضعهما، لا عن مدة ما بين بانيهما، فيحتمل أن يكون واضح المسجد الأقصى بعض الأنبياء قبل داود وسليمان، ثم بنياه بعد

(١) من النسائي ٤٣ / ٢، سنن ابن ماجه ١ / ٤٥١، انظر: جامع الأصول ج ٩ حديث ٦٣٠٧،

صحيح الجامع الصغير: حديث ٢٠٨٦، البداية والنهاية ٢ / ٢٦، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٨

(٢) صحيح البخارى ٤ / ١٧٧، صحيح مسلم ٣ / ٥.

(٣) صحيح مسلم ١٢ / ١٥٣ - ١٥٤ (القاهرة ١٩٨١ / ٢ / ٥)، وانظر طبعة بيروت ٢ / ٥ مسد الإمام

أحمد ١٥٠ / ١٥٠، تفسير الطبرى ١٧ / ٢٢، تفسير ابن كثير ٢ / ٦٣، تفسير القرطبي ص

١٣٧٩، تفسير المنار ٤ / ٦ - ٧.

(٤) الواقع أن الفترة بين وفاة إبراهيم وولادة سليمان عليهما السلام، لا تصل أبداً إلى ألف عام،

فإبراهيم عاش فى الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق. م) وسليمان عاش فى الفترة (٩٧٣ -

٩٢٢ ق. م).

ذلك^(١)، ولعل قريباً من هذا ما ذهب إليه ابن الجوزي والقرطبي بأنه ليس المراد أن إبراهيم عليه السلام هو الذي أسس بناء الكعبة المشرفة^(٢)، ولا أن سليمان عليه السلام بنى بناء بيت المقدس، وإنما هما جدداً ما كان قد أسسه غيرهما^(٣)، كما ذهب برهان الدين الزركشي إلى أن سليمان عليه السلام، إما كان له من المسجد الأقصى تجديده لتأسيسه^(٤) على أن الأستاذ رشيد رضا يذهب إلى أن هذا التفسير ضعيف لأنه سماه بيتاً، ولو جعل المكان مسجداً ولم يبن فيه لما سمي بيتاً، بل مسجد أو قبلة، ثم إن ذلك مسمى على القول بأن إبراهيم هو الذي بنى أول مسجد للعبادة في أرض بيت المقدس، وذلك معقول، وإن لم يكن عندنا نص صريح^(٥).

هذا ويذهب ابن قيم الجوزية إلى أن الذي أسس بيت المقدس إنما هو يعقوب عليه السلام، وأن سليمان كان مجدداً له، وإلى هذا ذهب ابن كثير أيضاً، حيث يقول: وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى^(٦)، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرقه الله، وهذا متجه ويشهد له ما

(١) صحيح مسلم ١٥٣ / ٢ (هامش / ٢).

(٢) الرأي عندى أن الكعبة المشرفة ترجع في بنائها إلى إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، دون غيرهما من العالمين ويرى ابن كثير وغيره من العلماء أنه لم يجرى في خبر صحيح عن المعصوم ﷺ أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء موضحه من لدن آدم إلى زمن إبراهيم (ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٦٣، ٢ / ٢٩٨، تفسير المنار ١ / ٤٦٦ - ٤٦٧، الكشاف ١ / ٤٤٦، تفسير الطبري ٣ / ٧٠، محمد يوسى مهران: دراسات تاريخية في القرآن الكريم ١ / ١٨٣ - ١٨٥).

(٣) فتح الباري ١ / ٤٠٨، تفسير القرطبي ٤ / ١٣٨.

(٤) الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٢٠.

(٥) تفسير المنار ٧ / ٤ (القاهرة ١٩٧٣).

(٦) يذهب أهل الكتاب، كما جاء في المهد القديم، إلى أن داود عليه السلام، كان أول من فكر في بناء المسجد الأقصى، بل وقد اشترى مكانه من رجل يوسى يدعى أرزان (أروبا أو أرونة) كان قد اتخذ جرباً أو بيتراً، وكان قد عرض على داود أن يأخذ المكان بلا مقابل، فرفض داود واشتراه منه، بحمصين شاقلاً من الفضة، وتذهب الرواية إلى أن داود قد منع من بناء البيت، لأن ذلك سيكون من نصيب ولده سليمان، ولكنها قد سجلت معارضة داود الفعالة لولده سليمان في إقامة البيت، وذلك بتجهيز المراد اللازمة للنساء، فضلاً عن كميات الذهب والفضة والحاس

ذكرناه من الحديث (يعنى حديث أبي ذر المشهور) فعلى هذا يكون بناء يعقوب، وهو إسرائيل عليه السلام، بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء^(١) كما ذهب إلى نفس الرأي الزركشى فى إعلام الساحد^(٢)، والحميرى فى الروض المعطار^(٣)، وأخيراً فلنشد ربط البعض بناء المسجد الأقصى، كما ربطوا بناء المسجد الحرام من قبل، بالملائكة، وربطه آخرون بآدم عليه السلام، بل إن فريقاً رابعاً ربطه بسام بن نوح عليه السلام^(٤)، وجاء فى تفسير القرطبي أن آدم هو الذى بنى المسجد الأقصى، بعد بناؤه للبيت العتيق بأربعين عاماً، وأن يعقوب قد أقام قواعده وجدده فقط، بعد أن رفع جده إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت العتيق^(٥).

ويذهب الدكتور عويد المطرفى إلى أن أقرب الروايات إلى المعقول أن الذى بنى المسجد الأقصى تأسيساً، إنما هو سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، بعد فراغه من بناء الكعبة المشرفة، ورجوعه إلى مستقره بالشام^(٦)، كما استظهر ذلك أبو حيان فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِن أَوَّل بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٧)، من أن إبراهيم عليه السلام، كما وضع الكعبة، وضع بيت المقدس^(٨).

وفى الواقع فإن كثيراً من المفسرين والمؤرخين إنما يذهبون إلى أن سليمان عليه السلام هو الذى بنى بيت المقدس، ففى تفسير أبي السعود أن سليمان لما أتم

=/= والجديد وغيرها (مسؤول ثان ١٦ / ٢٤ - ٢٥، أخبار أيام ثان ٢٢ / ١ - ١٩، محمد بيومى مهران: إسرائيل ١٢ / ٨٤٣ - ٨٤٤، تاريخ ابن خلدون ١٢ / ١١٦ - ١١٧) ثم قارن: تفسير ابن كثير ١٤ / ٥٨ (ط بيروت ١٩٨٦).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٦٣، ٢ / ٢٩٨.

(٢) الزركشى: المرجع السابق، ص ٣٠.

(٣) الحميرى: الروض المعطار فى حبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥، ص ٥٥٦.

(٤) سجير الدين الحنبلى: الأسس الجليل بتاريخ القدس والخليل الجف ١٢٨٨هـ، الجزء الأول، ص ٨، فتح البارى ١٦ / ٤٠٩، الزركشى: المرجع السابق، ص ٣٠.

(٥) تفسير القرطبي ٤ / ١٣٨، فتح البارى ١٦ / ٤٠٨ - ٤٠٩.

(٦) عويد المطرفى: المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٧) سورة آل عمران: آية ٩٦.

(٨) تفسير الحر المحيط ٣ / ٦.

بناء بيت المقدس تجهز للحج، وهناك في مكة كان يذبح كل يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة، وخمسة آلاف بقرة، وعشرين ألف شاه^(١)، ويقول الحافظ السهيلي: وبيت المقدس بناه سليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام قد ابتداءً مناه فأكماله ابنه سليمان عليه السلام، واسمه إيلياء، وتفسيره العربية: بيت الله^(٢)، ذكره البكري، وفي الصحيح أنه وضع للناس بعد البيت الحرام بأربعين سنة، وهذا يدل على أنه قد كان بنى أيضاً في زمن إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان عليه السلام^(٣)، ويقول الطبري في التاريخ: وأصاب بنى إسرائيل في زمان داود طاعون جارف، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس يدعون الله ويسألونه كشف ذلك البلاء عنهم، فاستجيب لهم، فاتخذوا ذلك الموضع مسجداً، وكان ذلك فيما قيل، لإحدى عشرة سنة مضت من ملكه، وتوفى قبل أن يستتم بناءه، فأوصى إلى سليمان باستتمامه، وقتل القائد الذي قتل أخاه (يعنى يوآب الذي قتل أبشالوم) فلما دفنه سليمان نفذ لأمره في القائد وقتله واستتم بناء المسجد، ثم يتحدث الإمام الطبري بعد ذلك عن التعداد الذي قام به داود في بنى إسرائيل، والبلايا التي حاقت بالقوم بسببه، من قبل، وأن داود استغفر ربه وطلب العفو عن بنى إسرائيل، فاستجاب الله لهم ورفع عنهم الموت، فرأى داود الملائكة سالين سيوفهم ينمذونها، يرتقون في سلم من ذهب على الصخرة إلى السماء، فقال داود: هذا مكان ينبغي أن يبنى فيه مسجد، فأراد داود أن يأخذ في بنائه، فأوحى الله إليه أن هذا بيت مقدس، وأنت قد صبغت يديك في الدماء، فلتس بيانة، ولكن ابن لك أملكه بعدك أسميه سليمان أسلمه من الدماء، فلما ملك سليمان بناء وشرفه^(٤): ويتفق ابن الأثير في روايته مع الطبري تماماً^(٥).

(١) تفسير أبي السعود ٦٦ / ٢٧٨، وانظر تاريخ ابن خلدون ١٢ / ١١٣.

(٢) فارن: (محمد بيومي مهران: إسرائيل، الجزء الثاني، ص ١١٥٥ - ١١٥٨، الإسكندرية ١٩٧٩).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢ / ٣٥٤، هامش ١١.

(٤) تاريخ الطبري ١ / ٤٨٤ - ٤٨٥، ثم قارن: صموئيل ثان ٧ / ١ - ١٧، ٢٤ / ١٦ - ٢٤.

(٥) لتكامل لابن الأثير ١ / ١٢٧ - ١٢٨.

ويقول المسعودي: وابتدأ سليمان بينان بيت المقدس، وهو المسجد الأقصى، الذي يارك الله عز وجل حوله^(١)، ويقول اليعقوبي: وابتدأ سليمان في بيت المقدس وقال: إن الله أمر أبي داود أن يبنى بيتاً، وإن داود شغل بالحروب، فأوحى الله إليه أن ابنك سليمان يبنى البيت باسمي، فأرسل سليمان في حمل خشب الصنوبر وخشب السرو، ثم بنى بيت المقدس بالحجارة، فأحكمه ولبسه الخشب من الداخل، وجعل الخشب منقوشاً، وجعل له هيكلًا مذهباً، وفيه آلة الذهب ثم أصعد تابوت السكينة فجعله في الهيكل، وكان في التابوت اللوحان اللذان وضعهما موسى^(٢)، ويقول ابن خلدون: ولأربع سنين من ملكه (أى سليمان) شرع في بناء بيت المقدس بعهد أبيه إليه بذلك، وقد تم بناء الهيكل في سبع سنين^(٣).

هذا وقد أشرنا من قبل إلى الحديث الشريف الذي يقول فيه سيدنا رسول الله ﷺ: «إن سليمان عليه الصلاة والسلام لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خللاً ثلاثاً، سأل الله عز وجل حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله عز وجل ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه^(٤)»، وعن رافع بن عمير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل لداود عليه الصلاة والسلام ابن لى بيتاً في الأرض، فبنى داود بيتاً لنفسه قبل البيت الذي أمر به فأوحى الله إليه يا داود نصبت بيتك قبل بيتي، قال يارب هكذا قضيت من ملك استأثر، ثم أخذ في بناء المسجد فلما تم السور فسقط ثلاثاً فشكا ذلك إلى الله عز وجل، فقال يا داود إنك لا تصلح أن تبنى لى بيتاً قال ولم يارب، قال لما جرى على يديك من الدماء، قال يارب أو ما كان ذلك في هواك ومحبتك، قال بلى ولكنهم عبادى وأنا أرحمهم، فشق ذلك عليه فأوحى الله إليه لا تحزن فإنى سأقضى بناءه على يدي ابنك سليمان، فلما مات داود أخذ سليمان في بنائه، ولما تم قرب القرابين وذبح الذبائح وجمع بنى إسرائيل، فأوحى

(١) مروج الذهب للمسعودي ١ / ٧٠، وانظر ١ / ٦٩.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ١ / ٥٨.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢ / ١١١ - ١١٣، ثم قارن ملوك أول ١ / ٦ - ٢٥ / ٢٥.

(٤) سنن السنن ٢ / ٤٣، سنن ابن ماجة ١ / ٤٥١، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٨.

الله إليه قد رأى سرورك بينان بيتي، فملني أعطك، قال أسالك ثلاث: خصال، حكماً يصادف حكمك، وملكاً لا ينفي لأحد من بعدى، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، قال رسول الله ﷺ: أما الثتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة^(١).

وانطلاقاً من كل هذا، فإنني أميل، حدساً عن غير يقين، إلى أن إبراهيم عليه السلام، هو الذى وضع الأسس للمسجد الأقصى، على أساس أن رواية مسلم إنما تتحدث عن أول مسجد، وليس أول بيت، وهى العقبة التى احتج بها صاحب تفسير المنار، وعلى أساس ما جاء فى الأحاديث الشريفة من أن سليمان هو الذى بنى المقدس، وعلى أساس ما ذهب إليه جمع كبير من المؤرخين من أن سليمان قد بنى المسجد الأقصى بعهد أبيه إليه بذلك، وعلى أساس أن إبراهيم عليه السلام، طبقاً لرواية العهد القديم^(٢)، إنما قد زار القدس، وأنه قد أقام المحاريب لله فى فلسطين، وخاصة فى شكيم وبيت إيل وبلوطات ممرا، ومن ثم فليس هناك ما يمنع من أن يكون أبو الأنبياء قد فعل الشيء نفسه فى القدس، هذا فضلاً عن أنه إذا ما كان صحيحاً ما ذهبنا إليه فى هذه الدراسة وغيرها من أن إبراهيم عليه السلام كان يعيش فى الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م) وأنه قد بنى الكعبة البيت الحرام حوالى عام ١٨٢٤ قبل الميلاد^(٣)، ومن ثم فإن بناءه أو وضعه لأسس المسجد الأقصى بعد ذلك بأربعين عاماً، أى حوالى عام ١٧٨٤ قبل الميلاد، يكون أمراً مقبولاً، وأن ذلك قد تم قبل أن يولد حفيده يعقوب عليه السلام بأربع سنوات ذلك لأنه طبقاً لما جاء فى هذه الدراسة، وكما أشار العهد القديم^(٤)، فإن الخليل عليه السلام قد رزق بولده إسحاق عليه السلام، وقد أكمل المائة من عمره (بعد أن رزق بإسماعيل وهو فى السادسة والثمانين من عمره) وقد عاش إسحاق ١٨٠ عاماً، ومن ثم فهو كان يعيش فى الفترة (١٨٤٠ - ١٦٦٠ ق.م)، وأن يعقوب كان يعيش فى الفترة (١٧٨٠ - ١٦٢٣ ق.م).

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٨ (ط بيروت ١٩٨٦).

(٢) تكوين ١٢/ ٦ - ١٤، ١٤، ١٩ - ٢٠.

(٣) انظر عن بناء الكعبة المشرفة (محمد يوسى مهراڤ: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١٨٣ -

١٩٧) نضاض العربية القديمة ص ٤٨٥ - ٥١٢.

(٤) تكوين ١٧/ ١٧، ٢٥، ٢٦، ٣٥، ٢٨، ٤٧، ٢٨، ٩.

على أساس أنه ولد لأبيه إسحاق، وهو في الستين من عمره، وأنه عاش ١٤٧ سنة، وأن بني إسرائيل قد دخلوا مصر حوالي عام ١٦٥٠ قبل الميلاد، حين كان يعقوب في الثلاثين بعد المائة من عمره^(١)، وأما سليمان فهو الذي بدأ بناء المسجد الأقصى، الذي وضع إبراهيم أسسه، في عام حكمه الرابع، حوالي عام ٩٥٧ قبل الميلاد^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا بإيجاز إلى رواية العهد القديم عن بناء المسجد الأقصى، والذي تدعوه بيت الرب، حيث تذهب إلى أن مكان البيت إنما كان على جبل المريا في بيدر أرונה اليبوسى، فاشتره منه داود ومعه بقر للقرابين يخمسين شاقلاً من الفضة^(٣)، هذا وتشير الرواية بوضوح إلى أن داود عليه السلام إنما كان أول من فكر في إقامة بيت للرب، إلا أن فكرته هذه لم تجد قبولاً حسناً من رب إسرائيل، الذي كان يدخر هذا العمل لولده سليمان^(٤)، ومع ذلك فإن داود عليه السلام، قبل أن يتقل إلى جوار ربه، راضياً مرضياً عنه، أراد أن يسجل معارفته الفعالة لولده سليمان في إقامة بيت الرب، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء، وكان قومه في عصره ما يزالون في بداوة بدائية، يندر فيهم من يعرف أصول حرقه أو صناعة أو علم من علوم الدنيا، وسنرى أن الاعتماد على الفينيقيين كان الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل الرب، ونقرأ في التوراة أن داود قد أمر بجميع الأجانب الذين في أرض إسرائيل فاتخذ نحاسين لنحت حجارة مرعبة لبناء بيت الله، وهياً داود حديداً كثيراً للمسامير لمصاريع الأبواب والأوصال، ونحاساً كثيراً بلازون، وخشب أرز لم يحدد له عدده،

(١) انظر: محمد يوسى مهران: إسرائيل / ١ - ٨٠ - ٨٢، دراسات تاريخية من القرآن الكريم / ١ - ١٩٤ - ١٩٥.

(٢) انظر: محمد يوسى مهران: إسرائيل / ٢ - ٨٤٠ - ٨٦٠.

(٣) من عجب أن بعض الروايات العربية التي تنسب إلى أبي بن كعب تذهب إلى أن صاحب المكان غلام إسرائيلي، وليس يوسيا كنعانياً، وأن داود أراد أن يقتضيه منه، فهاء ربه عن ذلك، ومن ثم فقد اشتره بتسعة قناطير من الذهب (السمهودى)؛ وقاء الوفا بأخبار دار المصطفى / ١ - ٣٤٣ ط القاهرة ١٣٢٠ هـ) والتمن جد مثلاً فيه، بل إن رواية التوراة جعلت لثمنه هو والبقر، خمسين شاقلاً من الفضة صموئيل لان ٢٤ / ٢٤.

(٤) صموئيل ثان ١ / ٧ - ١٧، ٢٤ / ٢٦ - ٢٤، ملوك جول ٢ / ٢٢؛ وانظر: تفسير ابن كثير / ١ - ٥٨، تاريخ يعقوبى / ١ - ٥٨، تاريخ ابن خلدون / ١ - ١١١، ابن الأثير / ١ - ١٢٧ - ١٢٨.

هذا فضلاً عن كميات كبيرة من الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب^(١).

وهكذا، وفي ربيع السنة الرابعة من عهد سليمان (حوالي عام ٩٥٧ ق.م) وضع الحجر الأساسى لبناء بيت المقدس الذى استمر العمل فيه قائماً على قدم وساق سبعة أعوام، ثم واصل مهرة الصناعة والفعلة العمل ثلاثة عشر عاماً بعد ذلك ليثيدوا صرحاً أكبر يسكن فيه سليمان ونساؤه^(٢).

هذا ولم يقدم لنا موقع المعبد أى دليل الاعتماد عليه لتحقيق تصميمه، ومن هنا فإن أية محاولة فى هذه المجال لا تزيد عن كونها مجرد اجتهاد^(٣)، غير أن المعلومات التى يوفرها سفر حزقيال (٤٠ - ٤٤) للمعبد الجديد، ربما تجعل فى الإمكان استعادة تخطيطه، كما يمكن قول شئ عن شكله الخارجى وتنظيمه الداخلى^(٤)، ومن ناحية أخرى فإن المعلومات التى جاءت فى سفر الملوك الأولى (١/٦ - ٣٨) إنما تشير بوضوح إلى التأثير المصرى والعراقى، رغم الإشادة المستمرة بالمساعدة الفينيقية وبضخامة الإنفاق^(٥).

ونقرأ فى التوراة أن سليمان عليه السلام، إنما أقام حفلاً كبيراً بمناسبة الانتهاء من بناء المسجد الأقصى، دعا إليه شيوخ إسرائيل وكل رؤوس الأسباط لإصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود، وأن الجميع، وعلى رأسهم سليمان، قد اجتمعوا أمام التابوت يذبحون من الفنم والبقر ما لا يحصى ولا يعد من الكثرة، وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه فى محراب البيت، فى قدس الأقداس، وهنا ملأ الغمام بيت الرب، حتى أن ادتهنة، ما كانوا بقادرين على أداء الطقوس الدينية، ويعلن سليمان أن الرب إنما يسكن فى الضباب^(٦)، ونقرأ فى سفر الملوك

(١) أخبار أيام أول ٢/٢٢ - ١٦، أخبار أيام ثان ١٧/٢ - ١٨.

(٢) ملوك أول ١/٦ - ٢، ٣٧، ٣٨، ٢/٧، وانظر: تاريخ ابن خلدون ١١٢/٢ - ١١٣.

(3) J. L. Myres, Reconstructing Solomon's Temple and other Buildings and works of Art, PEQ, 80, 1948, p. 14 F.

P. L., Garlier, Reconstructing Solomon's Temple, BA, 1951, P. 2 F.

(4) O. Eissfeldt, op. cit., p. 598.

(٥) اندريه إيمار وحانين أو يوايه: المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(٦) ملوك أول ١/٨ - ١٣.

الأول (٨ / ٢٢ - ٥٣) دعوات سليمان الحارة إلى الله تعالى، ثم ينهض من أمام المذبح، ويدها مبسوطتان إلى السماء، ليعلم أمام خراف بين إسرائيل الضالة وليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله، وليس آخر، فليكن قلبكم كاملاً لدى الرب إلهنا، إذ تسبرونه في فرائضه، ويحفظون وصاياه^(١)، ثم يشكر الرب على أنعمه، التي أسبغها عليه وعلى بيت أبيه من قبل، سائلاً إياه سبحانه وتعالى أن يجيب دعوات بني إسرائيل حين يدعونه في هذا البيت، وأن يغفر لهم خطاياهم^(٢)، ثم تنتهي الاحتفالات بتقديم الذبائح لرب إسرائيل، والتي بلغت عدداً كبيراً جداً، وصل إلى «تشرين وعشرين ألفاً من البقر، ومن الغنم مئة ألف وعشرين ألف، فذبح الملك وجميع بني إسرائيل بيت الرب»^(٣).

وعلى أية حال، فإن المسجد الذي بناه سليمان إنما قد دمر تماماً أثناء غزو «نبوخذ نصر» للقدس عام ٥٨٧ ق.م ونهب الفزاة القدس وأشعلوا فيها النيران وأحرقوا القصر الملكي والمسجد، وهكذا ضاع كل أثر للمسجد، ومعه البقية الباقية من التابوت الذي كفت الروايات عن ذكره بعد نقله لمعبد سليمان^(٤)، ولم يستطع القوم إعادة البناء إلا عام ٥١٥ ق.م.، على أيام الملك الفارسي «دارا الأول»^(٥)، ثم دمر المعبد الثاني هذا عام ٧٠ م على يد القائد الروماني تيتوس، وأضرمت النيران في المدينة، وهدم المعبد وضارعت آثاره تماماً، حتى أن الناس قد

(١) ملوك أول / ٨ - ٦٠ - ٦١.

(٢) ملوك أول / ٨ - ٢٥ - ٣٤.

(٣) ملوك أول / ٨ - ٦٢ - ٦٥، وانظر: تاريخ ابن خلدون / ٢ / ١١٣.

(٤) محمد بيومي مهران: إسرائيل / ٢ - ٩٩٧ - ١٠٠٤، وكذا:

K. M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, p. 291.

M. Noth, the History of Israel, London, 1965, p. 287. وكذا:

(٥) محمد بيومي مهران: إسرائيل / ٢ - ١٠٣٦ - ١٠٤٩، وكذا: عزرا / ٣ / ٧، ١٥ / ٦، قاموس

الكتاب المقدس / ٢ - ١٠١٤، وكذا:

C. Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969,

M. Noth, op. cit., S. A. Cook, op. cit., p. 409، وكذا: p. 54 - 55

p. 314.

نسوا فيما بعد، إذا كان هذا المعبد على التل الشرقي أو الغربي من المدينة المقدسة^(١).

وفي عام ١٣٥ م استولى الروم على القدس، ثم أمر الإمبراطور هادريان (١١٧ - ١٣٨ م) بتدمير المدينة تماماً وبني فوقها مدينة جديدة باسم «إيليا كابتولينا» (Aelia Capitolina) وأبدل المعبد القديم بمعبد آخر كرس للإله الوثني «جوبيتر كابتولينس» (Jupiter Capitolinus) ثم قام الرومان بمذبحة نهائية ختمت مصير اليهود في فلسطين، كدولة وكنومية، وانتهت بذلك علاقة اليهود بفلسطين سياسياً وسكانياً ودينياً^(٢).

(١) محمد يومي مهران: إسرائيل ١٢ / ١١٥٠ - ١٥٥، وكنا:

C. Roth, op. cit., p. 103 - 107

W. Keller, the Bible as History, 1967, p. 388. وكنا:

(٢) محمد يومي مهران: إسرائيل ١٢ / ١١٥٥ - ١١٥٨، وكنا:

H. Strathmann, P JB, 23, 1927. p. 92 F

وكنا:

A. Schulten, ZDPV, 56, 1933, p. 180 F

وكنا:

M. Noth, op. cit., p. 453 - 454.

(٢) السامرة:

كان «عمري» ملك إسرائيل (٨٧٦ - ٨٦٩ ق.م) يحكم من «ترزه» (ترصه)، ولكنه في عام حكمه السادس اشترى تلاً في قلب الهضبة السامرية ممن يدعى «شامر» بوزنتين من فضة، وأقام عليه عاصمته الجديدة وسماها «السامرة» - وهي بسيطة الحالية على مبعده ١٠ كيلاً شمال غرب شكيم - نسبة إلى «شامر» صاحب التل، وإن كان هناك من يرى أن الاسم بمعنى «مركز المراقبة» أو «جبل المراقبة أو الحراسة».

هذا وقد قامت عدة هيئات علمية بحفريات في السامرة، أثبتت أن موقع المدينة إنما قد كشف عن خبرة من اختاره بالاعتبارات الاستراتيجية، فالسامرة تقع على تل متعزل يقرب ارتفاعه من ٠٠٣ قدم، ويرتفع تدريجياً من وادٍ متسع حصب، وتحيط به شبه دائرة من الجبال العالية، كما أن هناك ينبوعاً محلياً يجعل المكان مثالياً في حالة الدفاع.

هذا فضلاً عن أن السامرة إنما كانت تقع على الطريق الرئيسي من الشمال إلى الجنوب، وفي حماية من أى هجوم يقع عليها من ناحية يهوذا - الدويلة اليهودية الأخرى المعادية لها - وعلى اتصال بسهل فينيقيا، في وقت كان فيه عمري راغباً في إقامة علاقات مع مدن فينيقيا، حتى أنه زوج ولده «أخاب» من «إيزابيل» ابنة أمير صور، كما كانت أيضاً على اتصال بالجزء الغربي من دولته، حيث تقع أغنى أراضيها، هذا إلى جانب أن السامر إنما كانت - شأنها في ذلك شأن أورشليم عاصمة يهوذا - تتحكم في الطريق الرئيسي، من الشمال إلى الجنوب، على امتداد خط تقسيم المياه، وأخيراً فهناك ممرات صالحة بدرجة مقبولة تؤدي إلى الأردن من ناحية الشرق، وأخرى تؤدي إلى الساحل والبحر المتوسط من ناحية الغرب.

هذا وقد تم تخطيط السامرة على أن تكون الحى الملكي - وهي سنة جديدة في تخطيط المدن الفلسطينية، وجد لها مثيل دون شك في تخطيط أورشليم على أيام سليمان عليه السلام، غير أن الدليل الأول والمؤكد على ذلك إنما جاء إلينا من السامرة - ويبدو أن الحى الملكي في مدينة عمري هذه، إنما كان منطقة يمكن الدفاع عنها بسهولة، ذلك لأنها إنما قد أحيطت في المرحلة الثانية على

الأقل بسور قوى، كما أن تخطيط الحى لا يجعل منه مركزاً لتجمعات مدنية، بقدر ما يجعل منه منطقة ملكية مقصورة على الملك وحاشيته.

وعلى أية حال، فقد ظلت السامرة عاصمة لدولة إسرائيل، حتى سقطت فى أيدى الآشوريين فى أخريات عام ٧٢٢ ق.م، ونقرأ فى حوليات العاهل الآشورى «سرجون الثانى» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) قوله «فى بداية حكمى، وفى السنة الأولى حاصرت السامرة واستوليت عليها، ونفيت من أهلها ٢٧, ٢٩٠ مواطناً، واستوليت على خمسين عربة من السلاح الملكى، ثم ملأتها بسكان أكثر مما كان بها، فأحلت بها مواطنين جددًا من بلاد كنت قد استوليت عليها، وعينت حاكماً عليها، وفرضت عليها الجزية والضرائب، كما يفعل الآشوريون. وهكذا سقطت السامرة فى أوائل السنة الأولى من عهد «سرجون الثانى»، وأن ذلك ربما قد حدث بعد فترة ما من ديسمبر عام ٧٢٢ ق.م، بل إن هناك من يذهب إلى أنها سقطت فى عام ٧١٥ ق.م، ومن يذهب إلى أنها سقطت فى عام ٧١١ ق.م.

وأياً ما كان الأمر، فإن الآشوريين قد أعادوا تنظيم مملكة السامرة، على أساس أنها إقليم آشورى، يخضع لإمرة حاكم آشورى، وعززوا الحاميات العسكرية الآشورية بجنود مستوطنين، أتواهم من بلاد بعيدة، حدث لها ما حدث لفلسطين من غزو آشورى، غير أن هؤلاء المستوطنين الجدد سرعان ما تزاوجوا مع السكان الأصليين، وهجروا عاداتهم وتقاليدهم إلى حد ما، ثم سرعان ما ظهر جنس جديد، عرف فى التاريخ اليهودى باسم «السامريين» نسبة إلى السامرة هذه، وهو جنس قريب الشبه بجيراته «اليهوديين». دما وثقافة، وإن اختلفوا عنهم فى ميولهم السياسية.

وهكذا بدأت السامرة تفقد أهميتها شيئاً فشيئاً، غير أن «هيرودوس» (٣٧ - ٤ ق.م) حاكم اليهودية من قبل الرومان، إنما بدأ يهتم بالسامرة، بل وجعلها مقره المحبب، ومن ثم فقد زينها بالأبنية وأعاد تسميتها باسم «سيماطية» (Sebaste) أى «مدينة أغسطس» تكريماً لأوغسطس قيصر (٢٧ ق.م - ١٤ م)، ذلك لأن كلمة «سيباستوس» (Sebastos) اليونانية، تعنى «أوغسطس» (Aguustus) فى اللاتينية^(١).

(١) محمد يوسى مهراڤ. إسرائيل ١٩٠٠/٢ - ١٩٠٣، ٩٤٥، ٩٤٨ - ٩٤٤، ١١٤٤، ملوك أول
٢٣/١٦ - ٢٤، ملوك ثان ٢٤/١٧.

المتفحمة المتخلفة عن الحريق في التاريخ عن طريق الكربون المشع، وقد نتج عنها التقويم الزمني (٢١٠ ± ٧٨٠٠ ق.م) وإن كان العلماء لا يعتمدون هذا التاريخ بصفة نهائية.

هذا وقد كشف في أريحا عن فخار مزين برسوم، ربما يمكن تأريخه بأواسط الألف الخامسة قبل الميلاد، وهو على أية حال يعتبر أقدم فخار في فلسطين، وطبقا لرواية التوراة، فلقد كانت أريحا أول المدن الكنعانية التي انجحت صوبها أنظار يهود - بقيادة يوشع بن نون - وأول مدينة وقعت تحت أيديهم^(١).

هذا وكان أول من قام بالحفر في أريحا: إيرنت ميللين، و كارل فترزجره في الفترة (١٩٠٧ - ١٩٠٩ م) ثم جون جارستانج، في الفترة (١٩٣٠ - ١٩٣٦ م) ثم مس كاتلين كنيون، منذ عام ١٩٥٢ م^(٢).

(٤) أشدود:

أشدود إحدى مدن الفلسطينيين (برست - بلستي) الخمس، والتي سمح الفرعون «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) لهم بالإقامة فيها بعد هزيمتهم - مع شعوب البحر - هزيمة منكرة في معركتين، الواحدة برية، والأخرى بحرية، وتقع أشدود - وهي أشدود الحالية - على مسافة ٢٥ كيلا شمال شرق غزة، وفي منتصف المسافة تقريبا بين غزة و يافا.

وأما بقية المدن الخمس فهي «عقرون»، على مسافة ١٨ كيلا جنوب يافا

(١) رشيد الناضوري: جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا - بيروت ١٩٦٨ ص ١١٧ - ١١٩، ١٤٠، ١٤١ - قاموس الكتاب المقدس ٥٩/١.

K.M.Kenyon, op.cit, p. 31-41.

وكنا

K.M.Kenyon, in PEQ, 1952, p. 62 - 82, 1953, p. 18 - 95, 1954, p. 45 - 63, 1955, p. 108-177, 1956, p. 67- 82.

(2) E.Sellin and C.Watzinger, Jericho, 1931.

J. and J B.E. Garstang, The Story of Jericho, 1940.

K.M.Kenyon, Archdeology in The Holy Land, London, 1970, p. 13 - 43.

K.M.Kenyon in PEQ, 1952- 82, p. 62 - 82, 1953, p. 18 - 95, 1954, p. 45- 63, 1955, p. 108 - 117, 1956, p. 67 - 82.

وأما «جت» فأغلب الظن أنها «تل عراق النشبية»، الحالي، على مبعده ١٠ كيلا غرب بيت جبرين، و«عسقلان» (أشقلون)، على مبعده ١٠ كيلا شمال غزة، وأخيرا مدينة «غزة» المشهورة، والتي كانت تمثل النخم الجنوبي لكنعان^(١).

(٥) أفيق:

تقع أفيق الآن في مكان «تل الخيصر» الحديثة، قرب رأس العين عند منبع نهر العوجة، وعلى مبعده ١٥ كيلا شرقي حيفا، وقد عرفت فيما بعد «أنتياتريس»، وفيها كانت أولى المعارك الكبرى بين الفلسطينيين والإسرائيليين، والتي انتصر فيها الفلسطينيون ودمروا معبد شيلوه، وأخذوا تابوت العهد، وكانت هزيمة بني إسرائيل مروعة، حتى أن النبي إرميا يقول - بعد أربعة قرون من حدوث المعركة - «إن معبد شيلوه الذي كان مقر التابوت قد دمر، وأنه حتى عصره (٦٢٦ - ٥٨٠ ق.م) كان يمكن رؤية خرائب المعبد»^(٢).

(٦) أدام المدينة:

وتقع الآن في مكان «تل الدامية»، على مبعده ١/٢ كيلا جنوبي اتصال نهر يسيق بالأردن، وطبقا لرواية التوراة في يشوع (١٦/٣) عبر يشوع الأردن ببني إسرائيل «حيث قامت المياه المنحدرة من فوق، وقامت ندا واحدا، بعيدا جدا عن أدام المدينة»، وإن كان هناك من يذهب إلى وجود جرف من الحجر الجيري، يكون عند الزلزال شقا في النهر يسده تماما لفترة من الوقت، الأمر الذي يمنع تدفق الأردن لمدة تزيد عن عشرين ساعة، وقد حدث ذلك في عام ١٩٣٧م^(٣).

(٧) قرصة:

تقع قرصة (قرزة) في مكان «تل الفارعة» الحالية، على مبعده ١١ كيلا

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢. ٥٧٨. ٥٩٣ - ٥٩٤.

(٢) إرميا ١٢/٧ - ١٤. ٩. ٦/٢٦.

W.F.Albright, Archaeology and The Religion of Israel, Balti-: وكتنا: more, 1963, p. 103, F, 202.

(3) J.Garstang, Joshud, Judges, The Foundations of Bilile History, 1931, p. 136F.

وكتنا: J.Finegan, op.cit, p. 155.

شمال شرق شكيم، وكنا، «يربعام الأول» (٩٢٢ - ٩٠١ ق.م) قد اتخذها عاصمة له، بدلاً من «فتوئيل» (تلول الذهب) - بعد انفصال إسرائيل عن يهوذا في أعقاب موت سليمان عليه السلام - ثم ظلت «ترصة» عاصمة لإسرائيل، حتى السنة السادسة من حكم «عمري» (حوالي عام ٧٨٠ ق.م)^(١).

(٨) تعنك:

تعنك (تاعاناخ - تاعاناقا) مدينة هامة، تقع على مبعدة ٨ كيلاً، جنوب شرق مجدو، على الطرق الجنوبي من سهل يزرعيل.

(٩) بئر سبع:

مدينة تقع في صحراء النقب جنوبي فلسطين، وينسب تأسيسها إلى الكنعانيين، وطبقاً لرواية التوراة فهي تكون الحد الجنوبي لمملكة إسرائيل، حيث كانت تمتد في أقصى اتساع لها من دان إلى بئر سبع، كما جاء في أسفار القضاة (١/٢٠) و صموئيل أول (٢٠/٣)، وأخبار أيام أول (٢/٢١).

(١٠) بيت إيل:

اسم عبري معناه «بيت الله»، ومكانها الآن «برج بيتين» على مقربة من بيتين الحالية، على مبعدة ١٦ كيلاً شمالي أورشليم القدس، وطبقاً لرواية التوراة، فقد كان اسمها «لوز»، ثم سماها بمقرب «بيت إيل»، وقد بقي فيها تابوت العهد حيناً من الدهر، وبعد إنقسام المملكة أقام فيها «يربعام الأول» أحد «المجلىن الذهبيين»، والثاني في دان، والأرجح أن هذا السبب هو الذي حمل النبي هوشع على أن يسميها «بيت أون»، أي بيت الأصنام (تكوين ١٩/٢٨، هوشع ٥/١٠، ٨).

(١١) بيت شان:

وتقع الآن في «تل للحصن» في مجازرات «بيسان»، على مبعدة ٨ كيلاً

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٧٥٥/٢، ٨٩٣.

وكلنا M.F.Unger, H.Kee and L.Toomlis, BA, 1957, p. 82 - 105
op.cit, p. 843, 1102.

غربي نهر الأردن، وقد عثر فيها على كثير من الآثار المصرية، وخاصة من عهد الدولة الحديثة، (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق م) كما كانت على أيام سليمان عليه السلام إحدى المدن التي أقام فيها حضائر الخيل، شأنها في ذلك شأن مجدو وحاصور وتعنك وأورشليم^(١).

(١٢) بيت لحم:

وتقع على مسعدة ٨ كيلا جنوبي القدس، وكانت مدفن راحيل أم يوسف عليه السلام، وهي مسقط رأس داود عليه السلام، ومدفن آل يؤاب، وفيها ولد المسيح عليه السلام، لأن أمه مريم العذراء، والمولودة في الناصرة، إنما كانت هناك للإكتتاب، فحان وقت ولادتها هناك، وقد بنت الإمبراطورة «هيلانة» حوالي عام ٣٣٠ م كنيسة هناك، فوق المغارة التي يظن أن المسيح قد ولد فيها - وهي أقدم كنيسة في العالم - كما ذهب إلى ذلك كثير من الباحثين، من أمثال المؤرخ أوسيبوس، والفديس جيروم (٢٤٥ - ٤٢٠ م). غير أن القصة - كما جاءت في إنجيل لوقا (٧/٢) - إنما تشير صراحة إلى أنه ولد في المذود، كما أن القرآن الكريم إنما يشير إلى أنه ولد عند جذع نخلة (مريم: آية ٢٣)، ومن ثم فالصحيح أنه عليه السلام ولد عند جذع نخلة، ربما عند بيت لحم، وليس في مغارة^(٢). قال تعالى: «فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة، قالت: يا ليتنين مت قبل هذا، وكنت نسيا منسيا»^(٣).

(١) قاموس الكتاب المقدس ٣٠٢/١، وكذا: J.W.Crowfoot, in PEQ, 1940, p. 143 - 147

W.F.Albright, The Archaeology of Palestine, London, 1949, p. 124.

(٢) محمد يوسفي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الثالث - في بلاد الشام - بيروت ١٩٨٨ ص ٢٨٥ - ٣٠٦ تكهن ١٩/٣٥، صموئيل أول ١٢/١٧، متى ١٢-١/٢، لوقا ٤/٢-٣٥، قاموس الكتاب المقدس ٢٠٥/١ - ٢٠٦، صموئيل ثان ٣٢/٢ وكذا: M.F.Unger, op.cit, p. 140 - 141

(٣) سورة مريم: آية ٢٣، وانظر: تفسير ابن كثير ١٨٧/٣ - ١٨٩، تفسير القرطبي ص ٤١٢٨ - ٤١٣٧، في ظلال القرآن ٢٣٠٤/٤ - ٢٣٠٨، صورة التفاضل ٢/٤١٢، تفسير الطبري ١١٦/٧٦-٧٧، التفسير الكبير ٢٠٧/٢١ - ٢٠٨، تفسير النسفي ٣١/٣ - ٣٥.

(١٣) جبع:

تقع جبع على مبعدة ٣ كيلا شرقي الرامة، وقد أصبحت منذ عهد «بعشا» (٨٧٧-٩٠٠) حداً ثابتاً بين دويلتي إسرائيل (إسرائيل ويهوذا)، ومن ثم نرى على أيام «يوشيا» (٦٤٠ - ٦٠٩ ق.م) ملك يهوذا، أن جبع ماتزال مدينة الحدود الشمالية، حيث نقرأ في التوراة عن حدود يهوذا أنها «من جبع إلى يشر سيع» (ملوك ثان ٨/٢٣)^(١).

(١٤) جبعون:

تعرف جبعون الآن باسم «الجيب»، وتقع على مبعدة ١٢ كيلا شمال غرب القدس، وقد بدأت فيها جامعة بنسلفانيا والمدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية، حفريات منذ عام ١٩٥٦م، وهناك في الجنوب الشرقي من قرية الجيب نبع ماء يتصل بخزان صناعي، سمي في التوراة «بركة جبعون»، وطبقاً لرواية التوراة، فقلقد حدثت في بركة جبعون قصة وقوف الشمس عن المغيب، والتحرر على وادي أيلون من أجل يشوع^(٢).

(١٥) جازر:

وهي تل الجزر الحالية، على مبعدة ٢٨ كيلا شمال غرب القدس، ٨ كيلا شرقي عقرون، ٢٦ كيلا جنوب شرق حيفا، ونقرأ في التوراة أن فرعون قد أخذ جازر وأعطاهامهراً لابنته امرأة سليمان ومن ثم فقد أصبحت الأميرة المصرية السيدة الأولى في مملكة سليمان، أو الزوجة الرئيسية، كما كانوا يسمونها، على أن المؤرخين إنما يتشككون كثيراً في قصة التوراة هذه، وذلك لأننا لانتقى بما يؤكدنا من الجانب المصري، وأما الشك من الناحية التاريخية، فإنه - حتى وإن حصر في حدود ضيقة نسبياً - إلا أنه يكفي للتشكيك في أي الفراعين هو المقصود هنا، هذا وقد قام جدل طويل حول الفرعون الذي صاهر سليمان، عليه

(١) محمد يوسى مهران: إسرائيل ٨٩٧/٢ - ٨٩٨، وكنا - M.Noth, op.cit, p. 235 - 236.

(٢) يشوع ١٢/١٠-١٤، صموئيل ثان ١٣/٢، وكنا J.Finegan, op.cit, p. 160.
J.B.Pritchard, BA, 19, 1956, p. - 75, UMB, 21, 1957, p. 3 - 26,
1958, p. 12 - 24.

السلام، وأعطاه مدينة جازر، مهراً لابنته، فمن قاتل إنه «بسوسينس الثاني»، ومن قاتل إنه شيشنق الأول، هذا إلى أن اسم «تجنيس» لا استطاع مطابقته على نظير له بالهيريوغليفية، وغازر، على أية حال، هي القلعة الكنعانية القديمة، وواحدة من أهم المراكز التجارية في الشرق الأدنى القديم^(١).

(١٦) حبرون:

تقع حبرون على مبعدة ٣٠ كيلا جنوب غرب القدس، ١٩ كيلا جنوب غرب بيت لحم، وحبرون هي الآن «مدينة الخليل»، وفيها قبر إبراهيم الخليل والسيدة سارة وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وقد أقيمت كنيسة في عصر «جستينان» (٥٢٧ - ٥٦٥ م)، وفي ذلك المكان يقوم اليوم مسجد كبير، هو «الحرم الإبراهيمي» وحبرون تعتبر من أقدم مدن العالم التي ما تزال أهلة بالسكان^(٢).

(١٧) حاصور:

تقع حاصور - وهي تل القدح الحالية - على مبعدة ٥ كيلا جنوب غرب بحيرة الحولة، وقد كشفت الحفائر فيها عن بقايا لمباني سليمان عليه السلام، لم تشر إليها التوراة، فضلا عن حظائر الخيل، وهي على أية حال، مدينة كنعانية هامة^(٣).

(١٨) دان:

تقع دان - وهي تل القاضي الحالية - على مبعدة ٤ كيلا غرب بانياس، عند سفح جبل حرمون، حيث منابع الأردن، وهي تكون الحد الشمالي لإسرائيل، كما تكون «بشر سبع» الحد الجنوبي، وذلك طبقا لرواية التوراة عن أقصى ما وصلت إليه مملكة إسرائيل على أيام دارد وسليمان، عليهما السلام^(٤).

(١) كنا 601، 401، M.F.Unger, op.cit, p. 401، وكنا A.Gardiner, Egypt of THE Pharaohs, p. 329

وكنا O.Eissfeldt, op.cit, p. 595، وكنا C.Roth, op.cit, p. 21

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٢٨٦/١ - ٢٨٧، وكنا M.F.Unger, op.cit, p. 465- 466

(٣) ملوك أول ١٥/٩، وكنا O.Eissfeldt, op.cit, p. 595

(٤) قضاة ١/٢٠، مسموئيل أول ٢٠/٣، قاموس الكتاب المقدس ٣٥٧/١ - ٣٥٧، وكنا محمد

بيومي مهران: اسرائيل ٧١٨/٢، ٨٠٨، وكنا M.F.Unger, op.cit, p. 236

(١٩) الناصرة:

إسم عبرى، ربما بمعنى القضييب أو الحارسة أو المحروسة أو المحبوسة، وقد ذكرت في أناجيل: متى (٢٣/٢) ولوقا (٢٦/١) وهي مدينة في الجليل (مرقس ١١/١) - أى في الجزء الشمالي من فلسطين - وهي تقوم على جبل مرتفع يمكن أن نرى منه جبل الشيخ والكرمل وطابور ومرج ابن عامر.

وتقع على مسبعة.حوالى ٢٣. كيلا.غربي.بحيرة طبرية، وحوالى ٣١. كيلا شرقي عكا، وحوالى ١٣٦ كيلا شمالي القدس.

وفي الناصرة ولد يوسف ومريم (لوقا ٣٩/٢) وفيها ظهر الملاك لمريم يبشرها بأنها ستكون أم المسيح (لوقا ٢٦/١-٣٣)، وعاش أكثر عمره فيها، ومن ثم فقد لقب «يسوع الناصري» (متى ١١/٢١، مرقس ١٤/١).

هذا وقد سمي أتباع المسيح عليه السلام «بالنصارى»، وهو إسم أطلقه عليهم اليهود، نسبة إلى «الناصرة» - بلد المسيح عليه السلام - وربما كان للكلمة صلة «بالنصرين»، وهي فرقة يهودية قديمة منتصرة.

وبهذا المعنى وردت الكلمة في القرآن الكريم^(١)، ومن فقد أصبحت «النصرانية». علما على ديانة المسيح عند المسلمين^(٢)، وهنا حاول بعض علماء اللغة تفسير الكلمة على أنها نسبة للناصرة التي ينتسب إليها السيد المسيح عليه السلام^(٣)، بينما ذهب آخرون إلى أنها نسبة إلى قرية يقال لها «نصران»، وهكذا قيل نصراني، وجمعه نصارى^(٤).

(١) أنظر: سورة البقرة: آية ١١٣، ١٢٠، ١٣٥، ١٤٠، المائة: آية ١٤، ١٨، ٥١، ٦٩، ٨٣، التوبة: آية ٣٠، الحج: آية ١٧، وأنظر: تفسير الطبري ١٤٣/٢ - ١٤٥، ١٥٠/١٠ - ١٥٤، ٣٩٥ - ٤٠٣، ٤٩٨، ٥٠٦، تفسير ابن كثير ٥٢٨/٢ - ٥٣٠، ٦١٣ - ٦٢٣، تفسير الكشاف ٦٠٢/١ - ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٧، ٦٣٨، تفسير القطراني ص ٢١١٧ - ٢١١٨، ٢٢١٣، ٢٢٤٣ - ٢٢٤٤، ٢٢٥٢ - ٢٢٥٥، تفسير روح المعاني ٢٠٠/٦ - ٢٠٦، ٢١٧ - ٥ تفسير المنار ٢٥٢/٦ - ٢٦٤، ٣٥٠ - ٣٥٤، ٣٩٤ - ٣٩٦، تفسير أبي السعود ٣٥/٢ - ٣٦، ٤٦ - ٤٧.

(٢) جواد على ٥٨٣/٦.

(٣) اللسان ٦٨/٦، جواد على ٥٨٣/٦.

(4) J.Hastings, Dictionary of The Bible, Edinburgh, 1936, p. 192.

وهناك من يرى أنهم سموه «نصارى» أو «أحداهم» «نصران» لنصرة بعضهم البعض، وتناصرهم فيما بينهم، بينما يذهب آخرون إلى أن السبب في التسمية أنهم نزلوا أرضاً يقال لها «ناصر»، ويسمى أصحابها الناصريون بينما يسمى عيسى الناصرى (أنظر تفسير الطبرى ١٤٣/٢ - ١٤٥، تفسير القرطبي ص ٣٦٩، تفسير النسفى ٥٢/١).

(٢٠) يابيش جلعاد:

تقع على جبال جلعاد، على مبعده ١٦ كيلا جنوب شرق «بيت شان» (بيسان)، ويظن أنها «تل أبوخرز» شمال وادى ييش (أنظر: قضاة ٨/٢١، صموئيل أول ١١، عدد ١٤).

(٢١) يافا:

إسم كنعانى معناه «جمال» وتقع على شاطئ البحر المتوسط، على مبعده ٥٦ كيلا شمال غرب القدس، وهى من أقدم مدن العالم، وقد تعرضت للإحتلال على مر العصور، وأحتلها المصريون والفلسطينيون من شعوب البحر، والآشوريون والأغارقة والمكاييون والرومان وغيرهم.

(٢٢) شعليم - أوسعليتيم:

مدينة فلسطينية سكنها الأموريون، وربما هى الآن «سليط» على مبعده ٥ كيلا شمال غربى عجلون، وقد جاء عنها فى التوراة «وحصر الأموريون بنى دان فى الجبل لانه لم يدعوهم ينزلون إلى الوادى، فعزم الأموريون على السكن فى جبل حارس فى أيلون، وفى شعليم، وقويت يد بيت يوسف فكانوا تحت الجزية وكان تخم الأموريين من عقبه عقرريم من سالع فصأحمدا» (أنظر: قضاة ٣٤/١-٣٦، قاموس الكتاب المقدس ٥١١/١).

(٢٣) لخيش:

لخيش: أو لآخيش أو لاكيش: وكان يظن أنها «تل الحصى» (تل الحسى) على مبعده ٢٥ كيلا إلى الشمال الشرقى من غزة ١٦ كيلا إلى الجنوب الغربى من مدينة جبرين، ويرجح الآن أنها «تل الدور» على مبعده ٨ كيلا غرب بيت جبرين (أنظر: W.M.F.Petrie, Tell el - Hesy (Lachish), London, 1891. وكنزنا M.F.Albright, in ZAW, 6, 1929, p. 3).

الفصل الثاني

لبنان

المدن الفينيقية

تقديم:

تمد فينيقيا واحدة من أصغر دويلات العالم القديم، وهي تشغل من الناحية الجغرافية شريطا ساحليا ضيقا كان يمتد من جبل الاقرع (كاسيوس) شمالا، إلى جبل الكرمل جنوبا، ومن أرواد (وتسمى خرائبها اليوم طرطوس شمال عمريت) إلى عكا (عكو بمعنى الرمال الحارة) ولا يزيد طوله على ٢٢٠ كيلا، كما لا يزيد عرضه على ٥٦ كيلا، وهو غنى بالخلجان، وبه عدد من الثغور، ورتفع إلى جانبيه من ناحية الشرق جبال شامخة تغطيها الغابات من أشجار الأرز والصنوبر والسرو، وتفصل الخلجان الرؤوس البارزة في البحر عن بعضها البعض.

وتظهر بالقرب من الشاطئ بعض الجزر التي كان لها كذلك شأن في تاريخ هذه البقعة، ذلك لأنها كانت عامرة بالقرى والمدائن، شأنها في ذلك شأن الساحل نفسه، بل إن أهميتها تفوق الساحل في أحيان كثيرة^(١).

وعلى أية حالة، فلقد كان الفينيقيون محصورين في شريط من الأرض على شيء كثير من الضيق، ذلك لأن جبال لبنان لا تبعد عن البحر أكثر من ٥٠ كيلا، بل يقترب الجبل من البحر في بعض المواضع فيصير على بعد ما بين ١٩، ٢٤ كيلا، وفي بعض المواضع يلاصق الجبل البحر.

هذا فضلا عن أن هذا الشريط الضيق من الأرض مقسم طولاً إلى عدة أقسام منفصلة بعضها عن بعض بامتدادات جبلية ناتئة من جبال لبنان، ورواصلة إلى ساحل البحر، وهذا الامتداد الفاصل حاجز حقيقي تنشأ عنه أقاليم مختلفة، ثم أكثر هذه الامتدادات الناتئة عند الجبل تنتهي عند البحر بانحدار عمودي لا يدع مكانا لطريق يوصل بين جانبيها، وهكذا كان الحال قديما، أو كان ما وجد على أكثر تقدير، طريق ضيق منحوت في جنب التواء.

(١) نجيب ميخائيل - مصر والشرق الأدنى القديم - الجزء الثالث - سورية - الإسكندرية ١٩٦٦، ص

ولعل من خير الأمثلة على ذلك، رأس الكلب، وهو رأس يقع شمال بيروت (وهي بمرورنا في رسائل العمارنة، بمعنى الأبار)، ويوجد قرب قمته آثار طريق ضيق، وفي أسفله الطريق الذى سلكه الفاتحون المصريون والاشوريون والروم؛ وكل منهم قد ترك على الطريق نقوشا تخلد ذكره. وكان البحر أسهل طريق للمواصلات بين كل بلد وآخر، وهذا الإنقسام انما كان أحد الاسباب التى جعلت فينيقيا لاتصلح أن تكون دولة حقيقية، فصارت عبارة عن دويلات صغيرة، يسود بعضها البعض الآخر، طبقا للزمان والظروف السياسية والاقتصادية.

هذا وتعتبر فينيقيا بمثابة ممر ضيق بين أفريقيا وآسيا، لأن صحراء سورية الكبرى الواقعة وراء جبال لبنان إقليم لا يمكن اجتيازه عمليا، وعكس ذلك من ناحية فلسطين فى الجنوب، إذ تتصل فينيقيا بشبه جزيرة سيناء ثم إلى داخل مصر نفسها، أما فى الشمال فالإتصال ممكن بأعالى وادى دجلة والفرات.

ومن هذا الوضع ندرك كيف كانت فينيقيا غير قادرة على أن تبقى منعزلة محايدة إزاء المنافسات التى مجاذبت العالم القديم، وكان عليها أن تصطلى بها، أو أن تتحاز إلى فريق منها، وكان ضمها ضرورة من الضرورات التى تخرص على تأمينها كل إمبراطورية كبيرة، لعظم الموارد التى تنتج من تجارتها، ولمنفعة الأسطول الذى يجده الفاتح بها.

وكان انحيازها إلى فريق من الفريقين المتحاربين ذا فائدة حربية أيضا، فهى لمن ملكها باب مفتوح على أفريقية وعلى آسيا على السواء؛ وهى تفر يحتوى من وراءه به، ويتخذ فى نفس الوقت قاعدة لما يقدر من الغزو والتوسع^(٢).

وهكذا تأثر الفينيقيون إلى أبعد الحدود بالبيئة التى عاشوا بها، واستجابوا لها استجابة كاملة، فشكلت تاريخهم وحياتهم الإجتماعية والإقتصادية والسياسية، ذلك لأن الوطن الفينيقي الممتد على سواحل الشام على صورة شريط ضيق يقع بين البحر من الغرب، والصحراء من الشرق، أصبح بمثابة قطرة يعبرها الغزاة الآسيويون القادمون من منطقة الجزيرة قبل نزولهم إلى وادى النيل، كما تعبرها القوات المصرية القادمة من الوادى تتعقب الغزاة، وهم فى طريق فرارهم بعد دفعهم عن حدود مصر.

(٢) ج. كوتندو: الحضارة الفينيقية - ترجمة د. محمد عبد الهادى شمعة، ومراجعة د. طه حسين - القاهرة - ص ٢٨ - ٢٩، ٣٤.

وكانت الجيوش المصرية تطرق بلادهم باستمرار، محاصريهم وتذك قلاعهم،
وتملهم أسرى إلى مصر يسخرهم فرعون في الأعمال التي يريد، وقد سجلت
الأثار المصرية والوثائق المصرية هذه الحصلة الوثيقة بين فينيقيا ومصر، وما كادت
الشعوب السامية النازلة في وادي الدجلة والفرات تفيق وتتطلع إلى السيادة على
الشرق الأدنى حتى اجتهدت صوب فلسطين، وكانت جيوشها الغازية تطرق هذه
الفتطرة الساحلية، وتعمل بها مثل ما فعله المصريون من قبل.

وهكذا أصبح الوطن الكنعاني الفينيقي في مهب التيارات العالمية، بين قوى
عالمية كبرى، قامت في وادي النيل، وفي وادي الدجلة والفرات، وفي آسيا
الصغرى، وترتب على هذا الوضع نتائج بعيدة الأثر، إذ لم يستطع الكنعانيون أن
يقيموا دولة موحدة، تدمد هذه التيارات وتضع حدا لهذا النفوذ الاجنبي^(٣).

وهكذا حددت خصائص المنطقة الجغرافية مصيرها التاريخي، فتركز طرق
المواصلات الأساسية بين ثلاث قارات في هذا القطاع الضيق من الأرض إنما
كان يعني أنه قدر لهذا القطاع أن يكون مسرحا لسلسلة من الهجرات والغزوات،
دون أية فرصة دائمة لإنشاء نظم سياسية قوية، فقد كانت فينيقيا أرض تجارب
للمطامع والمنافسات التجارية والحربية للدول الكبرى والتي كانت تقع بينها،
وكانت الشعوب المهاجرة تندفق عليها مرة بعد أخرى، لأنها كانت منطقة جذابة
في حد ذاتها لخصبها، ويمكن دخولها من كل جانب، وكانت مفتوحة أمام
مصر وأرض الرافدين وآسيا الصغرى والبحر المتوسط، فضلا عن الصحراء التي جاء
منها البدو الساميون^(٤).

وانطلاقا من كل هذا، وتخريجا عليه، لم يستطع الفينيقيون، بل لم يستطع
السوريون جميعا، أن يشكلوا وحدة سياسية واحدة، كمصر، وإنما وحدات صغيرة
تعيش في مدن محصنة ذات أسوار عالية، وأبراج كبيرة، يلجأ إليها السكان وقت
الخطر، ويحتمون بأسوارها، ويتخذونها وقت السلم أسواقا لتجاريتهم.

على أن قيام هذه المدن المحصنة، وإن كان أحسن وسيلة للتجا إليها الفينيقيون

(٣) حسن محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم - القاهرة من ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٤) مستير ميسكاتي: الحصار السامية القديمة - ترجمه زواد عليه السيد بمقرب بكر، القاهرة
١٩٦٨ من ١٢٢.

لصد غارات الدول المجاورة أو غارات البدو المجاورين، إلا أن تقسيم البلاد إلى مدن صفرى يحارب بعضها البعض الآخر، ولا يسود بينها أى نوع من الاستقرار، جعلها تقع فريسة سهلة لمدوان القرى المجاورة، وخاصة الكبرى منها.

هذا ونظراً لأن الفينيقيين لا يميلون بطبيعتهم إلى النواحي السياسية، بقدر اعتمادهم بالشعون الاقتصادية، فإنهم إنما كانوا يفضلون الامان، والاستقرار السياسى، حتى يتمكنوا من تسويق تجارتهم والنجاح فى المجالات التجارية بصفة عامة (٥).

وقد أدت هذه الأوضاع مجتمعة إلى ظهور ما يسمى بدويلات المدن حيث كان لكل مدينة حكومتها الخاصة بها، وعلى رأسها حاكم بالوراثة، قد يتقل الملك منه إلى أسرة أخرى، أو تنتزع الإمارة وتسلب، نتيجة ثورة من عناصر تصبغ لها الغلبة، ولم يكن سلطان الأمير أو الحاكم أو الملك استبدادياً مطلقاً، ذلك لأن التجارة تتطلب المغامرة وألواناً من النشاط لا يتفق وهذا اللون من الحكم.

وكانت تقوم، إلى جانب الحاكم، هيئة من الشرعيين، كما كانت تعقد أحياناً مؤتمرات من المدن الكبرى للتداول فى الشعون العامة المشتركة، وكانت طرابلس مقر الاجتماع العام للمدن الثلاث الرئيسية. وكان للدين نصيبه فى الإدارة، فهو يحدد سلطة الحاكم، وللكهنة نفوذ يلى نفوذ الحاكم، أما الموارد المالية فتعتمد على التجارة، وإن كنا لاندى على وجه التحقيق، أكان بيت المال يعتمد على المكوس أو على الاحتكار أو على الأمرين معاً (٦).

وهكذا انتظم الفينيقيون فى جماعات صغيرة يرأس كل منها ملك، ويستقرون حول مدن محصنة تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها، وكانت هذه المدن هى العواصم التى يلجأ إليها أهل المناطق الزراعية، ويحتمون داخل أسوارها وقت الخطر.

على أن النزاع كثيراً ما كان يحدث بين هذه المدن، وكانت أكثرها تفوقاً

(٥) فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رائق - بيروت ١٩٥٨ ص ٨٨، محمد بيومى مهران: تاريخ مصر الفرعونية والشرق الأدنى القديم - القاهرة ١٩٨٥ ص ١٨٣، حسن محمود: المرجع السابق ص ٣٨٩.
(٦) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٥٠ - ٥١.

تلك التي كانت وسائلها الدفاعية أكثر فاعلية، هذا إلى أن بعضاً من تلك المدن إنما كان يشغل موقعين، الواحد: على الساحل، والآخر: يمثل جزراً صغيرة في مواجهته يلجأ إليها النجوم عند اشتداد الخطر، وقد أدى هذا الوضع إلى أن يهيا لكل مدينة مرفأين، أحدهما شمالي، والآخر جنوبي، فتلجأ السفن لهذا المرفأ وذلك بحسب الفصول واتجاه الريح، ومثال ذلك صيدا وصور، فكانت المسافة بينهما ملاحه يوم واحد^(٧).

وبدهى أن المدن المنيعه كانت أقدر من غيرها على البقاء والإزدهار، كما أن هذه المدن الفينيقيه المتفرقة بسبب مظاهر الطبيعة لم تترك الأمر هكذا، وإنما حاولت جاهده وإيجاد نوع من الترابط يؤلف بينها، ويجمع كلمتها، وبخاصة في وقت الأخطار الخارجية، ومن ثم فقد عمدت إلى إنشاء تحالف قوى بين عدة مدن، بزعمه أوفرها قرية، تحالف كان دائماً يمليه الخطر المشترك، وأحياناً المصالح المشتركة.

وكانت مدينة «أوجاريت» في القرن السادس عشر قبل الميلاد، و«جيبيل» في القرن الرابع عشر، و«صور» بعد هذا القرن الأخير، ثم «طرابلس» في القرن الخامس قبل الميلاد، تتزعم هذه الاحلاف^(٨).

ولعل من أخطر هذه المحالفات، ذلك الحلف المشهور الذي قضى عليه فرعون العظيم تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) في «مجدو» حوالي عام ١٤٦٨ ق.م، وقد تجمع هذا الحلف، الذي كان يتزعمه أمير قادش^(٩)، عند مدينة «مجدو» (وهي تل المنسلّم الحالية غربى بحيرة طبرية، وعلى مبعده ٣٢ كيلاً جنوب شرقى حيفا) حيث جمع هذا الامير حوله «ثلاثمائة وثلاثين أميراً،

(٧) كوتنتو: المرجع السابق ص ٢٩، محمد أبو الحسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم - الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١٥٩.

(٨) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٩٢.

(٩) قادش: وتقع مكان تل نسي مند، على الشاطئ الايسر لنهر العاصى عند اتصاله بنهر الموقادبة، وعلى مبعده ٧ كيلاً جنوبى بحيرة حمص، وإن رأى البعض أنها «قادش» التي تقع شمال فلسطين، على مبعده ٧ كيلاً شمال بحيرة الحولة. انظر:

J.H.Breasted, The Battle of Kadesh p. 13

وكنا

A H.Gardiner, Onom, I,P. 137 - 141.

كل منهم معه جيشه الخاص، لكي يوقفوا تقدم فرعون عند «مجدو»، وبدهى أن عدد الأمراء (٣٣٠ أميراً) إنما يشير بوضوح إلى أن سورية وفلسطين وفينيقيا، إنما كانت مجزأة بصورة غريبة، فهؤلاء الأمراء لم يكونوا في الواقع إلا زعماء لدويلات صغيرة جدا، كما كانوا على درجة من الاستقلال، تحول دون تكوين جيش موحد، بحال من الأحوال.

هذا ويبدو واضحا من رسائل العمارنة، من عصر الملك أمنحتب الثالث (١٤٠٥-١٣٦٧ ق.م) وأمنحتب الرابع (إخناتون ١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) أن القوم لم يفقدوا العمل المشترك بينهم فحسب، وإنما حاول الملوك الفينيقيون جميعا الحصول على الفوائد من سيدهم المصري، بعضهم على حساب بعض، وكان معظم هؤلاء الملوك يوجهون رسائلهم بصفة شخصية^(١١)، ولعل السبب في ذلك طغيان إحدى المدن، أو حتى إحدى الوحدات، على جاراتها التي تتزعمهن، الأمر الذي كان يؤدي أحيانا إلى خروجها عليها، والإنضمام إلى أعدائها، كما حدث حين ثارت صيدا وباليتروس وعكا ضد صور، وأعلنت خضوعها لأشور، بل ووجهت جميعا ضدها أسطولا يستهدف تدميرها فباء بالهزيمة.

وانطلاقا من كل هذا نستطيع أن نقرر أن نوعاً من الإتحاد قام بين الولايات الفينيقية أحيانا، تزعمته صور، وفينيقيا في أوج مجدها، وأما حين دانت بالسيادة لأشور وفارس إنحلت عرى الرابطة التي ألفت بين الولايات^(١٢).

وأما أهم المدن الفينيقية من الناحيتين السياسية والدينية فكانت مدن: جبيل، وكانت مركزا مقدسا للعبادة، ثم «صيدا» وقد لقيت «بالمدينة الأم في كنعان»، ثم «صور»، وكان لها إلى جانب ازدهارها التجاري دور عظيم في تأسيس العقائد

(١٠) أنظر عن معركة مجدو، والمراجع الخاصة بها (محمد بيومي مهران: مصر - الكتاب الثالث - الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٠٣ - ٢١٥) وأنظر عن رسائل العمارنة (محمد بيومي مهران: إخناتون: عصره ودعوته - الإسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٣٣ - ٢٤٥) وكذا.

J.A.Kundtzom, Die El-Amarna Tafeln, 2 Vols., Leizzig, 1908, 1915.

S.A.B.Mercer, The Tell-El-Amarna Tablets, Toronto, 1939.

(١١) فيلبي حتى: المرجع السابق ص ٩٢.

(١٢) شجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٥٠.

في الدين الفينيقي، ثم «أوجاريت»، وكانت مع انضمامها في بعض الأوقات إلى «بيروت» تعيش بسبب بعدها عيشة أكثر استقلالاً من مدن فينيقيا الوسطى (١٣).

وكانت تتوسط هذه الثغور والمدن الكبيرة، قرى أقل شأنًا، تنتشر بينها، ولها شهرتها الخاصة في بعض نواحي الصناعة والفنون.

وقد تحكمت الطبيعة في تحديد مواقع هذه المدن، إذ كان العامل في اختيارها وقوعها على نهر، أو على مقربة من جبل يسهل معه الدفاع عنها، وكانت بعض هذه المدن تقام على البر، وعلى جزر متناثرة قريبة من الساحل، ويتعارن البر والجزيرة في حماية المدينة والدفاع عنها، ولنشر الآن إلى بعض هذه المدن:

(١) أوجاريت:

كان موقع أوجاريت أهلاً بالسكان قبل ابتداء التاريخ يزمن طويل، ودليل ذلك أن الاستاذ «شيفر» كشف على مبعدة ٧ كيلاً شمالي أوجاريت على الشاطئ الأيمن لنهر العرب عن آثار عمران من العصر الحجري القديم، مع أدوات شيليه، أو أدوات من العصر الشيلبي الأول (١٤).

ويشير تاريخ الأبحاث الأثرية إلى أنه في أبريل من عام ١٩٢٨ م، وعلى مقربة من ميناء البيضاء (الميناء الأبيض) على مبعدة ١٦ كيلاً إلى الشمال من ميناء اللاذقية، كان أحد الفلاحين يحث حقله فاصطدم حد الحراث بشيء صلب في باطن الأرض، فنظر الرجل فرأى جزءاً من قبر خرب، وأخطرت الآثار في بيروت، وعلم أن مخلفات أثرية مختلفة كشفت من قبل، وبدأت الحفائر في بداية عام ١٩٢٩ م، واكتشف الباحثون أن تلا يمد نحو نصف ميل عن الشاطئ ويقوم بين فرعي نهر الغد اللذين يلتقيان بعد ذلك ويصبان في البحر، أن هذا التل يغطي بقايا مدينة قديمة، واسمه العربي «رأس الشمرة» (ربما لكثرة ما ينمو عليه من نبات الشمر = الشمار).

ثم لم يلبث علماء الآثار أن اكتشفوا أن هذا التل إنما يغطي خرائب «أوجاريت»، وهي مدينة قديمة ذكرتها وثائق مصر وأرض الرفدين والحيثيين،

(١٣) ج. كوتننو: المرجع السابق، ص ٣٣.

(١٤) ج. كوتننو: المرجع السابق، ص ٤٤.

وباستمرار الحفائر كشفت قبور وأوان فخارية وتمائيل صغيرة وحلى وعظام حيرانية، ثم ألواح عليها نقوش مسمارية، وكانت التوفيق عظيما إلى حد دعا إلى تنظيم بعثة للحفر عاما بعد عام تحت إدارة الأثرى الفرنسى «شيفر»، وقد توقف العمل عام ١٩٢٩ م لإندلاع الحرب العالمية الثانية، ولكنه استؤنف مرة أخرى عام ١٩٥٠ م.

هذا وقد كشف فى رأس الشمرة عن نصوص مكتوبة بلغات عدة: الأكديّة والمصريّة والحيتية والحرورية ثم لغات أخرى كانت مجهولة حتى ذلك الوقت، ومن ثم نشأت مشكلة حل رموز هذه اللغة، وقد تم ذلك فى خلال عام واحد، وعلى يد ثلاثة علماء عملوا مستقلين هم: «هانز باور» الألماني، و«ادوارد دورم» و«شارل فيرولو» الفرنسيين، وقد شغل ثالثهم بنشر النصوص وترجمتها وشرحها منذ عام ١٩٢٩ م.

وقد كشفت فى رأس الشمرة عدة مئات من الألواح والكسر، أحدثت ثورة فى معلوماتنا عن الأدب الكنعانى، والمجموعة الأساسية فيها هى مجموعة الملاحم وشعر الاساطير، وإن وصلت إلينا للأسف فى حالة بعيدة عن الكمال، ولهذا كانت فى ترجمتها عدة فجوات، هذا إلى أن ترتيب الألواح ليس أكيدا فى كثير من الأحيان، وكذا ترتيب الأحداث فى دورات الملاحم.

وفى عام ١٩٥٢ م كشفت وثائق ملوك أوجاريت (وهى تشمل على رسائلهم إلى ملوك الحيتيين وغيرهم من الدول، ولا بد أن هذه الوثائق كتبت كلها قبل تخريب المدينة حوالى عام ١٢٥٠ ق.م (وإن كان رأى المسائد أن المدينة خربت حوالى عام ١٢٠٠ ق.م، على يد شعوب البحر الذين جاءوا من سواحل الأناضول وجزر بحر ايجه، وأغارو على الشرق الأدنى القديم) (١٥) وقرجع هذه الوثائق إلى مابين عامى ١٥٠٠، ١٤٠٠ ق.م، على وجه التقريب (١٦)

وعلى أية حال، ففى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد حدث زلزال فى المنطقة أعقبه طغيان البحر، فخربت أوجاريت، ولكنها مع ذلك نهضت من

(١٥) انظر عن شعوب البحر وغزورهم لمصر وإسراطورتها فى غربى آسيا (مجمد بيومى مهران: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، الإسكندرية ١٩٦٩: رسالة دكتوراه).

(١٦) سبتيموسكالى. المرجع السابق، ص ١١٧ - ١١٨، ٢٧٢.

جديد، ثم مالبت أن وقعت سريعا في قبضة الحيثيين في عهد أحد ملوكها ويدعى «نقمان»، وأصبح هذا تابعا لملك الحيثيين «شويلوليوما» (١٣٧٥ - ١٣٣٥ ق.م)، وعند قيام رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م)، ثانى ملوك الأسرة التاسعة عشرة المصرية، بمحاولة إسترداد الإمبراطورية المصرية فى غرب آسيا، وحدثت بينه وبين ملك الحيثيين «مواتيل» وحلفائه من ملوك وأمرأء سورية وفينيقيا معركة «قادش» انضمت أوجاريت لهؤلاء الأحلاف، راغبة أو كارهة، بحكم تبعيتها للحيثيين^(١٧)

وانتهت معركة قادش (حوالى عام ١٢٨٥ ق.م) بنصر شبه مؤزر للفرعون، وإن اضطر الفرعون حوالى عام ١٢٨٢ ق.م إلى أن يخرج مرة أخرى إلى غربى آسيا، للقضاء على الثورات التى قامت فيها بتحريض من الحيثيين، وأن يلتقى مرة ثانية بالحيثيين فى «توب»، حيث أوقع بهم هزيمة ثانية، فضلا عن تلقين ملوكها درسا قاسيا أجبرهم على احترام مصر، وعدم التدخل فى أمر ولايتها الأسيوية^(١٨).

وفى حوالى عام ١٢٦٩ ق.م، أبرمت معاهدة تحالف بين مصر وحثى^(١٩)،

(١٧) انظر عن معركة قادش (محمد بيومى مهران: مصر: الكتاب الثالث، الإسكندرية ١٩٨٨، ص ٣٥٢ - ٣٥٦، وكذا:

A. H. Gardiner, The Kadsh Inscriptions of Ramsess, II, Oxford, 1960, p. 5 - 10.

H. goedick, JEA, 52, 1966, p. 72 - 80.

A. Burn, JEA, 7, 1921, p. 194 - 196.

A. Gotze, LDZ, 32, 1929, p. 832 - 840.

J. Kuentz, BIFAO, 55, 1928, p. 14 F.

(١٨) انظر (محمد بيومى مهران: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ٩٠ - ٩٥، وكذا:

K. A. Kitchen, JEA, 50, 1964, p. 68 - 70.

G. Gaballa, JEA, 55, 1969, p. 82 - 88.

(١٩) انظر عن معاهدة التحالف بين مصر وحثى (محمد بيومى مهران: مصر، الكتاب الثالث، ص ٣٥٦ - ٣٦٠، وكذا:

S. Langdon and A. H. Gardiner, JEA, 6, 1920, p. 179 - 205.

M. B Rowton, JCS, 13, 1959, p. 1 F.

وظل سكان أوجاريت كما كانوا من قبل، وزادت عليهم عناصر جديدة (من أهل مكينى ييلاد اليونان ومن قبرص) لعبت دورا كبيرا فيما بعد، وانتعشت أوجاريت للمرة الأخيرة حيث أنها خربت حوالى عام ١٧٧٤ ق.م، أثناء غزو شعوب البحر لمصر وامبراطوريتها الآسيوية، بعد أن أسقطت دولة الحيثيين، ولكن رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) نأى ملوك الأسرة العشرين، كتب لها نجتحا بعيد المدى فى هزيمة شعوب البحر فى موقعتين، الواحدة برية، والأخرى بحرية، ومن ثم فقد نجح فى القضاء على الأخطار التى هددت مملكته الآسيوية، فضلا عن مصر نفسها^(٢٠).

وأخيرا فيمكن القول بأن أوجاريت يحكم موقعها، إنما كانت أكثر تأثر بقبرص والحيثيين، فضلا عن الحوريين، أكثر من تأثرها بمصر^(٢١).

(٢) أرواد (أرادوس) :

قامت أرواد فى شمال فينيقيا على إحدى الجزر، وتقابلها على الشاطئ أرواد الداخلية، وقد وصف «إسترابو» هذه الجزيرة التى قامت عليها أرواد بأنها كانت (فى العصر اليونانى الرومانى) مغطاة بالمباني بارتفاعات شاهقة ذات طوابق متعددة.

وكانت تسمى أرواد فى العصر الهلينستى «أنتارادس» (Antaradus) وقد أطلق عليها الصليبيون (Tortosa) وهى اليوم «طرطوس» شمالى عمريت، حيث لا تزال تشاهد بعض الأثار الفينيقية الهامة، وهى معبد وعدة قبور.

هذا وكان أهل أرواد يتجمعون فى جزيرتهم الصخرية - أكما يفعل الأمريكان الآن فى جزيرة منهاتن فى نيويورك - فى ناطحات سحاب مصغرة، وقد ظهرت مراعتهم فى ضمان التزود بالمياه لأجل جزيرتهم، وكانت تخزن مياه المطر الآتية من سطوح المنازل فى صهاريج، وتضاف إليها مياه ينبوع تحت البحر، يحصلون

(٢٠) انظر عن غزوات شعوب البحر (محمد بيومى مهران: حركات التحريم فى مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٦، ص ٢٥٧ - ٢٦٤، مصر ١٣ / ص ٣٧٣ - ٣٨٥، وكنا:

H. Nelson, JNES; 2, 1943, p. 45 F.

W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Historical Records of Ramses, III, Chicago, 1936, p. 35 - 55.

عليها بوضع قمع ضخيم مقلوب على الينبوع، بحيث يتصل القمع بأنبوب جلدى، وربما كان هذا أقدم مسجله التاريخ من وجود نبع مياه عذب تحت البحر (٢٢).

هذا وعلى الرغم من صغر مساحة أرواد، فقد سجل التاريخ أنها كانت تسيطر على كثير من المدن المجاورة، مثل «سيميرا» و«مارثوس»، على أننا لانعرف الكثير عن تفاصيل تخطيطها، وربما كانت جباناتها، وكذا ضواحيها، تمتد إلى الأرض الرئيسية، وقد اشتهر أهل أرواد بأنهم ملاحون مهرة، وكانت لهم فرق كبيرة فى الأسطول الفينيقي، وقد رسم على ظهر عملتهم الأولى «سفينة» وهى شعار المدينة (٢٣).

هذا وقد تعرضت أرواد، شأنها فى ذلك شأن غيرها من المدن الفينيقية الرئيسية، لكثير من أطماع الشعوب المجاورة، وانتهى أمرها بأن دمرها أقوام البحر، كما تشير إلى ذلك مظاهر التخریب التى ترجع إلى القرن الثانى عشر، وإن عادت مرة أخرى إلى الحياة، حيث قاست الكثير من غزوات الآشوريين المتكررة. (٣) جيبيل:

تقع جيبيل على مبة ٤٠ كيلا إلى الشمال من مدينة بيروت، العاصمة اللبنانية الحالية، ويرجع تخطيطها إلى عصر البرونز، وتقع المدينة على صقع جيبيل، ومنها طريق يتصل بالمينا، وأمل جيبيل يعتبرون مدينتهم أقدم مدن العالم قاطبة، وقد بناها الإله «إيل»، فيما تزعم أساطيرهم، هذا وقد كشفت الحفائر فى جيبيل عن آثار ترجع إلى عصر Chalcolithic وربما كانت هناك مخلفات ترجع إلى عصور أقدم، كما أن جيبيل ربما كانت كذلك من المراكز الهامة والقديمة لعبادة الإلهة «عشتار» (٢٤).

وعلى أى حال، فلقد ظلت هذه المدينة إلى آخر أيامها القصبة الدينية

(٢١) محمد أبو الحسن عصفور: المدن الفينيقية، بيروت ١٩٨١، ص ٢٧.

(٢٢) فيلپ حتى: المرجع السابق، وكذا:

Strabo, XVI, 2, 13.

(٢٣) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٤٧.

(٢٤) نفس المرجع السابق، ص ٢٤٧.

لفينيقيا، وكان البردى من أهم سلعها التجارية، ومن ثم فقد اشتق اليونان، فيما يرى هول ديورانت، من اسمها اسم الكتاب في لغتهم بيلوس (Biblo)، ومن هذه الكلمة نفسها استقت كلمة (Bible) اسما للكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) (٢٥).

وكان إسم المدينة عند المصريين القدامى يكتب حتى الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ ق م) «كبن»، ولعله تحريف للإسم الفينيقى «جبيل»، ثم أصبح بعد ذلك يكتب «كبين» (Kepen) بالياء الثقيلة، ثم أطلق اليونان عليها اسم «بيلوس»، ثم أصبحت في العربية «جبيل».

هنا وقد أقام المصريون علاقات مع جبيل منذ عصور ما قبل التاريخ، وتشير دراسة الخشب الموجود في مقابر الأسرة الأولى إلى أنه وارد من سورية ولبنان، وأنهم عملوا على إحضار خشب الأرز من هنا، كما يشير إلى ذلك «حجر بالرموه»، منذ عهد «منفرو» مؤسس الأسرة الرابعة، كما سنشير إلى ذلك بالتفصيل في فصل العلاقات الخارجية.

وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى أن «جبيل» إنما كانت آهلة بالسكان منذ أقدم العصور، وكانت بحكم موقعها ذات مركز تجارى هام، فنشأت بينها وبين جاراتها علاقات وثيقة، ويذهب كثير من الباحثين إلى أن جبيل إنما قد خضعت للنفوذ المصرى فى أغلب عهودها.

(٤) صيدا:

كانت صيدا شقيقة صور، بل لعل صيدا إنما كانت فى فترة ما ملكة المدائن الفينيقية وتقع صيدا على مبعده ٤٥ كيلا إلى الجنوب من بيروت، ٤٠ كيلا شمالي صور (أى فى مكان وسط تقريبا بين بيروت وصور) فى سهل ساحلى شديد الخصوبة، وافر المياه، ولكنه ضيق ينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر، يصل اتساعه إلى مايقرب من ميلين (٢٦).

(٢٥) ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثانى، ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٦١، ص ٣١٣ - ٣١٤.

(٢٦) انظرا.

F. C. Eislen, a Study in Oriental history, New York, 1907, p. 1.
Dictionnaire de la Bible, Pub. Vigouroux, T. V, Paris, 1928, p. 1704.

هذا وقد أنشئت المدينة، في بادية أمرها، على رأس جبل، لإختره القوم، في أكبر الظن، بسبب المرفأ الممتاز الذي يتألف من سلسلة من الجزر الصغرى المتصلة بعضها ببعض الآخر بأرصفة صناعية، وكان هذا المرفأ يقع إلى جهة الشمال، وكان هناك، من ناحية الجنوب، مرفأ آخر يسمى «المرفأ المصرى» وهو أكبر من الشمالى، وإن كان أقل منه أمنا، كما كان هناك، من ناحية البر، سور لحماية المدينة، وأما قلعة صيدا الحالية، وتسمى «قلعة البحر»، فترجع إلى أيام الحروب الصليبية، وتقع على أكبر الجزر التي قامت عليها المدينة^(٢٧).

هذا ويذهب «الأب هنرى لامانس» إلى أن مدينة صيدا القديمة إنما كانت جزيرة^(٢٨)، وهو أمر، فيما يرى أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم، نستبعده اليوم، ذلك لأن كل الآثار القديمة التي تم العثور عليها إنما كشف عنها في البر^(٢٩).

وتقوم المدينة الحديثة في نفس مكان صيدا القديمة على وجه التقريب، أي على قلعة البر الذي أقيمت عليه قلعة البر الصليبية، مع ملاحظة أن المدينة الحديثة امتدت في فترة لاحقة للإمبرداد الإسلامى نحو الشمالى الشرقى بحذاء الساحل، وأصبحت لا تتعمق كثيرا فى الداخل^(٣٠).

هذا وقد اشتق إسم «صيدا» من الصيد، أى صيد السمك، واليهما ينتسب الإله الفينيقي الوثنى «صيدون»، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أنها كانت محلة صغيرة لصائدى الأسماك، على النحو الذى كانت عليه قرية «راقودة» (راكوتيس) التي أقيمت عليها مدينة الإسكندرية، وقد أشار «هومير» إلى أن السمك فى صيدون أوفر من الرمال، كذلك قسر «جستان» فى القرن الأول لإسم صيدا بكثرة السمك فيها، على أساس أن الفينيقين كانوا يسمون السمك

(٢٧) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ٩١، وكذا:

Poidebard et Lauffray, Sidon, Amenagements Antiques du Port de Saida, Beyrouth, 1951, p. 84.

(٢٨) هنرى لامانس: السواحل اللبنانية، مجلة الشرق، السنة السابعة، العدد ٢٠، ص ٩٤٨.

(٢٩) السيد عبد العزيز سالم: دراسة فى تاريخ صيدا فى العصر الإسلامى، بيروت ١٩٧٠، ص ١٠.

(٣٠) نفس المرجع السابق، ص ١٠، وكذا:

D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, p. 28.

Schwarz, Encyclopaedia of Islam, p. 422.

«صيدون»، كما أشار الإدريسي إلى عين في صيدا كان ينشأ فيها في الربيع سمكيات على طول الأصبع، منها ذكور وإناث، وأن لها أيد وأرجل صفار، وعلى أية حال، فمازالت صيدا حتى اليوم تشتهر بأسمائها ومازال القوم يعتبرون صيد الأسماك من أهم حرفهم، بل إن ميناءها الحالي، ما يزال في نظر البعض، لا يعدو أن يكون مرسى لزوارق السفن^(٣١).

هذا وقد عرفت صيدا في الآشورية باسم «صيدونا»، وفي اللاتينية «صيدون» أو «صيدونيا» وفي رسائل تل العمارنة المصرية «صيدونو»، وفي العبرية «صيدون» أو حتى «زيدون»، وعند الصليبيين «ساجيتا»^(٣٢).

وأما في العربية فقد عرفت باسم «صيدا»، وكذا باسم «أريل»، يقول ياقوت الحموي في معجمه «أريل إسم لمدينة صيداء التي بالساحل من أرض الشام، ولعلها سميت «أريل» عند العرب من الربا أى كثرة الشجر، وقد أشار ابن فضل الله العمري إلى أن كورتها كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهار»^(٣٣).

هذا وتنسب التوراة مدينة «صيدا» إلى صيدون الابن الأكبر لكنعان بن حام بن نوح، ومن ثم فهي تربط بين تأسيس صيدا وبين الكنعانيين الذين عرفوا باسم الصيدونيين^(٣٤)، وهكذا تنسب التوراة «الكنعانيين - الفينيقيين»، كما أشرنا من قبل، إلى الحاميين، وليس إلى الساميين، مع أنهم يتكلمون لغة سامية، بل هم أنفسهم ساميون، والأمر كذلك بالنسبة إلى المصريين الذين جعلهم التوراة

(٣١) عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٧ - ١٨، منير الخوري: صيدا عبر حقب التاريخ، بيروت ١٩٦٦، ص ٢٤، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأماق، نس ١٥، وكذا:

F. C. Eislen, op. cit., p. 11.

(٣٢) أنيس فريجه: أسماء المدن والقرى اللبنانية، بيروت ١٩٥٦، ص ٢٠٣، منير الخوري: المرجع السابق، ص ٢٤، وكذا:

F. C. Eislen, op. cit., p. 10.

(٣٣) معجم ياقوت ١/ ١٤٠، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١١١/٤، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٦.

(٣٤) تكوين ١٠/ ١٥، أخبار أيام أول ١٣/ ١، يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام ١١/ ١١، وكذا:

Schulim Ochser, The Jewish Encyclopaedia, N. Y., 1903, Article, Sidon.

حاميين، تقول التوراة^(٣٥) في سفر التكوين «بنوحام: كوش ومصرام وقوط وكنعان»،^(٣٦) والمصريون ساميون، ما في ذلك من ريب، وكذا الكنعانيون الفينيقيون.

وهكذا تعمد العبرانيون في توراتهم، إقصاء الكنعانيين - الفينيقيين عن الإلتساب إلى سام بن نوح، لأسباب سياسية ودينية، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم مايتهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية، وقد أرجح الإصحاح العاشر من سفر التكوين نسب الفينيقيين والسبثيين إلى «حام» جد الكوشيين، ذى البشرة السوداء، مع أنهم «أى الفينيقيين والسبثيين» من الساميين، وقد يكون ذلك بسبب وجود جليات فينيقية وسبئية في أفريقية، فعذ كتبه التوراة هولاء من الحاميين.^(٣٧)

ومن عجب أن يأخذ مؤرخو العرب وجغرافيوهم بالتفسير التوراتي لنسب الفينيقيين، ومن ثم فقد أجمعوا على نسبة الصيدونيين إلى «صيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام بن نوح»^(٣٨).

هذا ويذهب «ايوستاكيوس» إلى أن صيدون القديمة من بناء «يلوم»، وأنها سميت باسم ابنته «صيد»، ولكن الكتاب الإغريق أجروا تعديلا على هذه الأسطورة، فإبدلوا «صيد» بـ «صيدوس بن ايجيبتوس» الذى بنى صيدون وسماه باسم «صيدوس»، ويذهب «فردريك كارل ايسلين» إلى أن هذا التفسير الأخير إنما يشبه إلى حد ما تفسير التوراة، وأنه يربط المدينة واسمها باسم «صيدون»، ويعترض وهو على حق في هذا، على الأخذ بهذا التفسير الخيالي^(٣٩).

(٣٥) انظر: عن التوراة، ومدى الشك الذى يحيط بوثاقه بها وصحة (محمد يوسى مهراڤ: اسرائيل، الكتاب الثالث، الإسكندرية ١٩٧٩، ص ١، ٣٧٩).

(٣٦) تكوين ١٠ / ١٥.

(٣٧) حواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٦٨، الجزء الأول، ص ٢٢٤، وكذا: R. Nicholson, A Literary History of The Arabs, Cambridge, 1935, p. XV.

(٣٨) انظر: معجم باقوت ٣ / ٤٣٧، القلقشندى: المرجع السابق، ١١١ / ٤، ابن شعاد: الأعلام الحظيرة فى ذكر أمراء دمشق والجزيرة، دمشق ١٩٥٦، ص ١٨.

(39) F. C. Eislén, op. cit., p. 9.

ومن ثم فإن «إسليين» إنما يرجح أن صيدون القديمة سميت باسم إله يحمل هذا الإسم، ومنه اشتقت التسمية الصليبية «ساجيتا» أو «ساجيت» ، وإن كان يميل إلى ربط إسم «ساجيتا» باللفظة اللاتينية Sagitta بمعنى السهم بدليل أن السهم كان شعار مدينة صيدا في العهد الصليبي، وكانت العملات التي سكّت في صيدا في ذلك العهد تحمل هذا الشعار^(٤٠).

ويذهب الأستاذ أنيس فريحة إلى أن يكون «صيد» هو الجذر الذي استقت منه صيدون، وصيدا، كان لها ساميا قديما يمثل الصيد، ويعلل تسمية أهل صيدا للمزار الواقع في الجنوب الشرقي منها، وإلى أن يسميه الأهالي «مزار النبي صيدون»، بأنه مكان هيكل فينيقي قديم للإله السامي «صيد إله الصيد»^(٤١).

ويعتقد أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم أن إسم «صيدا» مشتق من الجذر السامي صيد، ويقصد به صيد السمك، وهو الحرفة الرئيسية لسكان هذه المدينة منذ نشأتها، ولا نستبعد تمجيد الأهالي لهذه الحرفة فأطلقوا على مدينتهم إسمها، بحيث أصبح إسم صيدون يعني مدينة صيد الأسماك، ولعل هذا التمجيد كانت له علاقة بالفكر الديني القديم عند سكان صيدون، أو لعله كان يرتبط بالبطوطية التي كان من مظاهرها أن يتسمى بها الأفراد تعبير عن تفاؤلهم بها، كما كان يفعل العربي في العصر الجاهلي عندما كانوا يتفاءلون بالطير كالحمامة مثلا، ومن المعروف أن كثيراً من الأسماء السامية القديمة للمواضع أو للقبائل كانت ذات صلات وثيقة بأسماء الآلهة، وليس ضرورياً أن تكون حرفة الصيد التي كان يمارسها القوم كانت مقصورة على صيد السمك، فمن المعروف أن أهل صيدا احترقوا أيضاً صيد نوع من القواقع أو الأصداف كانوا يستخرجون منها الأصباغ الإرجوانية المشهورة، وكانت هذه الحرفة من أسباب ازدهار التجارة الفينيقية^(٤٢).

(٤٠) عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٨ - ١٩، وكذا:

F. C Eissen, op. cit., p. 14.

(٤١) أنيس فريحة: المرجع السابق، ص ٢٠٣ - ٢٠٤، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٩

(٤٢) عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٩، تاريخ العرب في العصر الجاهلي، بيروت ١٩٧٠، ص

٤٠٨، وانظر: محمد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، بيروت ١٩٦٩،

ص ٣٥٩.

(٥) صور :

تقع «صور» (أى الصخرة) على مبعده ٤٠ كيلا جنوب صيدا، وتعتبر أعظم المدن الفينيقية جميعا، دونما ريب، وطبقا لرواية «هيرودوت» (عن كهنة ملقارت)، فلقد أنشئت صور قبل قدم هيرودوت إليها، حوالي ٤٥٠ ق.م، بألفين وثلاثمائة سنة، ومن ثم تكون قد ظهرت إلى الوجود، حوالي عام ٢٧٥٠ ق.م. (٤٣).

هذا وقد بنيت، فى الأصل، على جزيرة تبعد عدة أميال من البر، وقد كانت، فيما يرى استرابو^(٤٤)، «مبنية بنفس الشكل الذى بنيت به أرادوس»، هذا وقد كانت الجزيرة متصلة بالبر بسد طوله نصف ميل، بناه الإسكندر المقدونى (٣٥٦ - ٣٢٢ ق.م) أثناء حصاره لها عام ٣٢٢ ق.م، والذى دام سبعة أشهر من البر والبحر^(٤٥).

هذا وقد بدأت المدينة تاريخها، فى بادىء الأمر، كحصن، إلا أن ميناءها الآمن، وسلامتها من الغزو، سرعان ماجملاها حاضرة البلاد الفينيقية كلها، ومأوى لخليط من التجار والعبيد قدموا إليها من جميع بلاد البحر المتوسط^(٤٦)، وهكذا ما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد، حتى كانت صور مدينة غنية فى عهد ملكها «حيرام» - ٩٨٠ - ٩٣٦ ق.م) الذى عاصر الملك النبى سيدنا سليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م)^(٤٧)، وفى أيام زكريا (حوالى عام ٥٢٠

(٤٣) قاموس الكتاب المقدس ١٢ / ٥٥٩، (بيروت ١٩٦٧)، وكذا:

Herodotus, II, 44.

(44) Strabo, XVI, 2, 23.

(٤٥) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ٢٥٤، وكذا:

Arrian, II, 18 - 24.

Diodorus, XVII, 41 - 46.

(٤٦) ول ديورانت: المرجع السابق، ص ٣١٤.

(٤٧) يتفق المؤرخون على أن سليمان عليه السلام قد حكم فى القرن العاشر قبل الميلاد، ولكنه

يختلفون فى تحديد هذه الفترة من هذا القرن العاشر، فهناك من يراها فى الفترة (٩٧٤ - ٩٢٠

ق.م) (فضلو حورامى: المرجع السابق، ص ٣٤)، ومن يراها فى الفترة ٩٧٣ - ٩٣٦

ق.م) (حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، ص ٨٤)، ومن يراها فى الفترة ٩٦٣ - ٩٢٣ ق.م (فيلب

حتى: المرجع السابق، ص ٢٠٥) ومن يراها فى الفترة ٩٦١ - ٩٢٣ ق.م (موسكاتى: المرجع

=/

ق.م) (٤٨) كانت الفضة التي تجمعت فيها كأنها التراب، وكان الذهب كأنه «وحل الطرقات» (٤٩)، ويقول عنها «استرابو» أن بيوتها من طبقات كثيرة، بل إنها أكثر طبقات من بيوت روما» (٥٠)، غير أن هذا الرخاء إنما كان قائما في ذلك العصر، وفي جميع العصور، على التجارة والفنى، وليس على الأراضى والفتح (٥١).

وعلى أية حال، فلقد ظلت صور، نتيجة ثرائها، فضلا عن بسالة أهلها، مستقلة حتى أيام الإسكندر الأكبر والذي رأى في استقلالها تحديا لعظمته وعبقريته الحربية، ومن ثم فقد أخضعها، كما أشرنا آنفا، عام ٣٣٢ ق.م، ثم قضى عليها نهائيا إزدهار مدينة الإسكندرية العظيمة (٥٢).

وأخيرا، فلعل من الجدير بالإشارة أن الحفائر التي أجريت تحت سطح البحر، فضلا عن الخرائط الجوية، قد أثبتت أن حاجز الماء الذي كان يحمى مدينة صور، إنما يقع اليوم تحت سطح البحر بنحو ٥٠ قدما، وكان طوله ٧٥٠ مترا، وعرضه ثمانية أمتار، وكانت تشرف عليه أسوار المدينة العالية وأبراجها الشامخة، وقد بنيت هذه الحصون في عهد ملك صور «حيرام» (٩٨٠-٩٢٦ ق.م)، وبذلك أصبحت صور من أعظم موانئ حوض البحر الأبيض الشرقى (٥٣).

السابق، ص ١٤٣، وكذا:

E. W. Heaton, The Old Testament Prophets, 1969, p. 172.

(٢٨) لاوب في أن زكريا هذا، إنما هو غير زكريا الذي جاء في التوراة الكريمة، والد النبي يحيى عليهما السلام، واللذين عاصر السيد المسيح عليه السلام (أنظر عن زكريا القرآن: سورة آل عمران: آية ٣٣ - ٥٩، مريم: آية ٢ - ١٥)، وأما زكريا المذكور هنا فهو صاحب سفر زكريا، وهو السفر قبل الأخير في العهد القديم، وقد عاش في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس ق.م على الأرجح (محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل، ص ٥٩). (٤٩) ول ديورانت: المرجع السابق، ص ٣١٤.

(50) Strabo, XV, 2, 23.

(٥١) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ٩١.

(٥٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٤، ول ديورانت: المرجع السابق، ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٥٣) فيلب حتى المرجع السابق، ص ٩١، حسن أحمد محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم، ص ٣٩٠، وكذا:

A. Poidebard, un Grand port disparu: Tyr, Paris, 1939, p. 25 -

26.

(٦) بيروت:

بيروت: عاصمة لبنان الحالية، وإحدى مدن البحر المتوسط الهامة، وهي مدينة قديمة كانت مركزاً هاماً للتجارة الفينيقية، وقد جاء ذكرها في رسائل العمارنة (من القرن الرابع عشر قبل الميلاد)، عدة مرات.

وقد وصفها «ربعدى» - أمير جبيل - بأنها، هي وصور، أعداء الفرعون، رغم أن ربعدى كان قد ذهب إلى بيروت لمساعدة أميرها «خامونيرى» (لهونيرى - Ammuniru)، ولقد حلف معه.

هذا وقد ازدهرت بيروت على أيام السلوقيين والرومان والبيزنطيين، وقد فتحها العرب في عام ٦٣٥ م، على أيام الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م) - رضوان الله عليه - ثم احتلها الصليبيون في ١١١٠ م، وأصبحت جزءاً من مملكة «بيت المقدس» اللاتينية، حتى عام ١٢٩١ (١).

(٧) سميريا:

سميريا مدينة فينيقية، جاء ذكرها عدة مرات في «رسائل العمارنة»، ففي أول رسائل «ربعدى» - أمير جبيل - إلى إخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م) نراه وقد وجد نفسه في مشكلة بسبب هجوم شعب «ساجاز» (Sagaz) لمدينة «سيميريا» وبما أن مدينته «جبيل» كانت على مقربة من «سيميريا»، فإنه قد أصبح في خطر. وفي رسالة من إخناتون - داعية التوحيد - نعرف أن «سيميريا» استولى «عزيرو» - أمير أمور - عليها، ومن ثم فإن الفرعون إنما يصرّ على أن يعيد «عزيرو» المدينة.

وفي رسالة ثالثة من «ربعدى» نراه يوجه اتهاماً إلى «خايب» (هايب) - والذي ربما كان أخو عزيرو - فيقول: «أما بالنسبة لخايب، فلقد جعل والده

(١) محمد بيومى مهراڤ: إخناتون، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٥٩ - ٢٦٢، وكنا:

S. A. B. Mercer, The Tell - El-Amarna Tablets, I, Toronto, 1939, No. 136 - 137.

المدن أكثر عداوة لمدينة «جيبيل»: انظر: لقد وضع هايب (Haibi) يده على
«سيميريا»^(١).

(1) S. A. B. Mercet, op. cit., I, 1939, Nos, 132, 159 - 160.

وانظر عن رسائل العمارة (محمد بيومي مهران: إختارات، ص ٢٣٣ - ٢٤٥)

الفصل الثالث سورية الإمارات الأرامية

(١) في شمال سورية:

توغل الأراميون في شمال سورية، مكونين عدداً من الولايات الصغيرة والتي منها:

١- جرجوم: وعاصمتها «مقاش»، وهي مرعش الحالية.

٢- سمأل: في كليكيا، وعاصمتها «سنجلى».

٣- خاتينا: وعاصمتها «كوتالوا».

٤- ياغان: وعاصمتها «أرياد».

٥- يمشد: وعاصمتها «حلب» (حلبو).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه الولايات إنما قد تعرضت للضغط الآشوري عدة مرات، حدث ذلك على أيام «أشور ناصر بال الثاني» (٨٨٤ - ٨٥٨ ق.م) الذي قام بحملة مظفرة على «خاتينا» وأجبر ملكها على الخضوع ودفع الجزية^(١)، ولكن سرعان ما انتهزت خاتينا - بالاتفاق مع قرقيش وجرجوم وسمأل وبيت أدني - فرصة وفاته، وانتقال العرش الآشوري إلى «سلمنصر الثالث»، فقامت بالثورة ضد آشور، إلا أن المعاهل الآشوري الجديد تمكن في عام ٨٥٨ ق.م من القضاء على الثورة واجبار العصاة على دفع الجزية^(٢) ثم كتب له آخر الأمر - وفي عام ٨٣٢ ق.م - نجحاً بعيد المدى في القضاء نهائياً على الثورة، وتوليه أحد الموالين له عرش «خاتينا»، وسرعان ما إختفت خاتينا من النقوش وضمعت الولاية جداً، واقتصرت على العمق لانطاكية، وأصبحت تسمى «أونقي»^(٣).

(1) E. G. Kraeling, op. cit., p. 66.

(2) Ibid., p. 68 - 71.

(3) Ibid., p. 71 - 72.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد، عادت آشور الهجوم، ففي عام ٧٤٠ ق.م وبعد حصار دام سنوات ثلاث، وقعت في يد «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق. م) مدينة «أرفدة»، وتدل النقوش المكتشفة في «سوجين» - وتقع على مسبعة ٢٥ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من حلب - على أنها كانت مركز المعارضة ضد آشور^(١).

وكانت دويلة «سمأل» آخر الولايات الأمورية التي ظلت تكافح من أجل استقلالها حتى القرن الثامن ق. م، حين نجح «شلمنصر الخامس» (٧٢٧ - ٧٢٢ ق. م) في القضاء على استقلالها وضمها إلى إمبراطوريته الواسعة ثم أقام «إسراحدون» (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) شاهداً كبيراً عند مدخل المدينة مجد فيها حكمه، وعلى أي حال، فإن ما وجد في «سمأل» من بقايا أثرية لهلاك بالنار، وانقطاع كل ذكر لها في مصادرتنا، يدلان، فيما يبدو، على أنها لقيت نهاية فاجعة قبل مرور زمن طويل^(٢).

(٢) في وسط وجنوب سورية:

١ - حران (حاران):

هي عاصمة دويلة آرام النهرين، والتي تسمى في التوزاة^(٣) «فدان آرام» أو نهرين في السهول المنبسطة بين الجزيرة والشام، وكان مركزها مدينة «حران» التي أصبحت من مراكز الحضارة الآرامية^(٤)، وفي هذا الإقليم تقع كذلك مدينتا «نصيبين» و«الرها» اللتين اشتهرتا كمركزين للثقافة والآداب السريانية^(٥).

وتعتبر دويلة آرام النهرين أقدم الإمارات الآرامية في سورية وشرق الأردن، وأما اصطلاح «أرام النهرين» فقد ظهر - فيما يرى كرييلنج - في القرن الثالث عشر

(١) موسكاتي: المرجع السابق، ص ١٧٨. وكذا:

H. Schmokel, op. cit., p. 262.

(٢) موسكاتي: المرجع السابق، ص ١٧٩، وكذا:

A. Dupont-Sommer, op. cit., p. 68.

(٣) تكوين ٢٤: ١٦.

(٤) فليب حتى: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٥) قاموس الكتاب المقدس ١/ ٤٣

ق. م، غير أن رواية التوراة^(١)، إنما ترجع به إلى عصر الآباء الأول - عصر إبراهيم وناحور وإسحاق ويعقوب - هذا فضلاً عن أن الإصطلاح إنما استعمل في رسائل العمارة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد^(٢)، وأما النهران فكان المراد بهما من قبل الدجلة والفرات، ولكن الراجح الآن - كما أشرنا من قبل - أنهما الفرات ورافده الخابور - حيث تقع منطقة حاران التي استقر الأراميون فيها في عصر الآباء الأوائل، ومن هنا بدأت القوة الأرامية في الإنتشار، وقد دعا العبرانيون هذه المنطقة «أرام التي في عبر النهر» واستمرت هذه الدولية حتى القرن التاسع قبل الميلاد^(٣).

وكان الأراميون في فدان أرام قد اتخذوا من «حاران» - وتقع على نهر بلخ على مبعده ٦٩ كيلاً - من اتصاله بنهر الفرات، إلى الغرب من تل حلقا، وعلى مبعده ٤٤٨ كيلاً إلى الشمال الشرقي من دمشق - وكانت المدينة مركزاً تجارياً على طريق القوافل التي تصل نينوى وأشور وبابل بدمشق وصور والمدن المصرية وقد اتخذت القمر إليها لها تحت اسم «تارح»^(٤)، ثم اتخذها الآشوريون مركزاً لهم بعد سقوط نينوى في عام ٦١٢ ق. م، تحت أيدي البابليين والميديين ولكن «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق. م) إستطاع الإستيلاء عليها في عام ٦٠٩ ق. م، والقضاء على بقية الجيش الآشوري، قبل وصول مجذبات ملك مصر «نخاو» الثاني (٦١٠ - ٥٩٥ ق. م) لإنقاذه^(٥).

٢- دمشق:

تقع دمشق - على مبعده ١٠٤ كيلاً شرقي البحر المتوسط، ٢١٢ كيلاً

(١) تكوين ٢٤: ١٠، ٢٨: ٢، ٥: ٢٩، ٤: ٥.

(2) Samuel A. B. Mercer, The Tell-Amarna Tablets, Toronto, 1939, Vol. 2, p. 898.

(3) E. G. Kraeling, op. cit., p. 21.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢٨١. وكذا

M. F. Unger, op. cit., p. 455.

(5) M. F. Unger, op. cit., p. 455.

وكذا.

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, o. 357 - 358.

شمال شرق القدس - في وسط غوطه يستقيها نهر «بردى»، وهي مركز هام لطرق التجارة، وهي من أقدم مدن الشام، وقد ذكرت على أيام سيدنا إبراهيم عليه السلام (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م)^(١)، وكانت على أيام داود عليه السلام (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م)^(٢) موطناً وعاصمة للأراميين.

هذا وقد تأسست «دويلة آرام دمشق» في أخريات القرن الحادى عشر قبل الميلاد، على رأى^(٣)، وأخريات القرن العاشر على رأى آخر^(٤)، فكانت معاصرة على وجه التقريب لتأسيس مملكة العبرانيين - طبقاً للرأى الأول، وهذا ما نرجحه ونميل إلى الأخذ به - ثم سرعان ما تطورت حتى غدت دولة كبرى - بالنسبة إلى جيرانها - تمتد إلى الفرات من جهة، وإلى اليرموك من جهة أخرى، وكانت متاخمة لأرض الآشوريين فى الشمال، ولأرض العبرانيين فى الجنوب، وكانت سورية الداخلىة شرقى جبل لبنان، وسورية الشمالية وباشان، تحت سلطاتها فى حوالى عام ١٠٠٠ ق.م، وظل ملوكها يسيطرون على اثنتى عشرة أمة صغيرة من حولهم أفلحوا فى مقاومة ما كان يبذله الآشوريون من جهود لإخضاع سورية لحكمهم^(٥).

وأما علاقة آرام دمشق بالعبرانيين، فكل دارس للتوراة على معرفة بها وهي - على أى حال - قد بدأت أيام «شائل» (١٠٢٠ - ١٠٠٠ ق.م)، وإن كان «داود» (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م) هو الذى استطاع الإستيلاء على المدينة

(١) انظر عن عصر إبراهيم عليه السلام (محمد بيومى مهرانك إسرائيل، ط ثلاثة، ج١، ١٩٩٩، ص ٧٥ - ٨٤).

(٢) انظر عن عصر داود عليه السلام (محمد بيومى مهران: إسرائيل ج٢ - ط ثلاثة، ١٩٩٩، ص ٦٤٣).

(٣) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٤) مراد كامل: المرجع السابق، ص ٤.

(٥) مجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ٣٢ - ٣٣، فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١٨١، مراد كامل، المرجع السابق، ص ٤، أدى شهر: تاريخ كلد وآشور، بيروت، ١٩١٢ - الجزء الأول، ص ٦٦، وكذا:

R. H. Pfeiffer, Introduction to the Old Testament, N. Y., 1941, p. 687 JNES, 7, p. 70.

العريقة^(١)، هذا وقد روث التوراة بالتفصيل قصة الصراع بين الأراميين والإسرائيليين على أيام «أخاب» (٨٦٩ - ٨٥٠ ق. م)، الأمر الذي وصل إلى أن يحاصر الأراميون «السامرة» عاصمة إسرائيل نفسها، وإن استطاع أخاب أن يصفو آخر الأمر حدود إسرائيل الشمالية، وأن يشترك في حلف ضد الآشوريين يقوده عدوه القديم ملك دمشق، وأن يشارك معه في حرب ضد آشور في موقعة قرقر في عام ٨٥٣ ق. م^(٢)، الأمر الذي سوف تناقشه بالتفصيل في مكانه من هذه الدراسة.

على أن العلاقات بين الأراميين والإسرائيليين لم تكن كلها حربية، وإنما كانت هناك صلات تجارية، وعلى أي حال، فلقد بقيت دويلة (أرام دمشق) تقاوم جيروت الآشوريين - على الرغم من أن طول منافستها مع جيرانها من الأراميين والمدو العبرانيين قد أزهقها كثيراً - إلى أن استطاع (تجلات بلاسر الثالث) (٧٤٥ - ٧٢٧ ق. م)، أن يستولى عليها في عام ٧٢٢ ق. م، وأن يقتل ملكها (رصين) وأن يجعلها ولاية آشورية، ذلك أن العاهل الآشوري كان - وقت طلب أحاز ملك يهوذا للتجدة ولإنقاذه من قوات دمشق والسامرة - في شمال سورية، وربما كان مع جيشه في مكان ما في مجاورات دمشق، ومن ثم فلم يكن في حاجة إلى توسلات (أحاز) اليهودي ليقوم بحملاته ضد سورية وفلسطين، وهكذا استطاع العاهل الآشوري أن يجتاح في عدة حملات إلى الغرب دمشق، بعد حصار دام عامين، وسقوط دمشق حان الوقت للآشوريين أن يضموا سورية بأكملها، وانتهت قوة الأراميين السياسية وأصبحت السيادة على الدويلات الأرامية لآشور^(٣).

(١) صموئيل ثان ٨: ٥ - ٦، أخبار أيام أول ١٨: ٥ - ٦، قاموس الكتاب المقدس ١١ / ٣٧٥، نجيب

ميخائيل: المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) ملوك أول ٢٠: ١ - ٤٢، ٢٢: ٢ - ٣٨، وكذا:

A. Dupont-Sommer, op. cit., p. 35.

A. Lods, op. cit., p. 378.

E. G. Kraeling, op. cit., p. 73, 75.

(٣) ملوك ثان ١٦: ٥ - ١٠، بولس عباد المرجع السابق، ص ١٤، وكذا:

M. Noth, op. cit., p. 259 F.

=/=

وعلى أية حال، فلقد خضعت دمشق للبابليين بعد ذلك في عام ٦١٢ ق. م، والفرس في عام ٥٣٩ ق. م، واليونان في عام ٣٣٣ ق. م، والأنباط في عام ٨٥ ق. م، والرومان في عام ٦٦ ق. م، والساسانيون عام ٦١٤ م، وفتحها العرب عام ٦٣٥ م، غير أن أطول فترة خضعت فيها دمشق، إنما كان ذلك للمصريين على أيام الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق. م).

هذا وقد أصبحت دمشق عاصمة الخلافة الأموية (٤١ - ٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م)، وكان أهم أعمالهم فيها بناء مسجدها الكبير (المسجد الأموي)، وكان أول من اختطه الصحابي الجليل «أبو عبيدة بن الجراح»، حين فتح دمشق (١٣ هـ / ٦٣٥ م) ثم بناه «الوليد بن عبد الملك» (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) في الفترة (٨٨ - ٩٦ هـ) - في مكان كنيمة - وقد تأتى في بنائه، حتى قيل إنه أنفق على عمارته خراج دولته لمدة سبع سنين^(١).

(٣) صوبة:

صوبة: عاصمة مملكة آرام صوبة القوية، وتقع عاصمتها (صوبة) في مكان «صوبة» في مكان بلدة «عنجر» في البقاع جنوبي «زحلة»^(٢)، وإن كنا للأسف - لانعرف شيئاً حتى الآن عن ملوكها الأوائل، فيما قبل عهد «حدد عزرة» وأما مدى اتساعها فقد وصل في عهد ازدهارها إلى حدود حماة في الشمال الغربي^(٣).

وقد وصلت «صوبة» إلى ذروة قوتها في عهد «شاؤل» ملك اسرائيل، والذي كانت العداوة بين الدويلات الآرامية واسرائيل في أيامه على أشدها، ومع ذلك فإن التوراة لم توضح لنا علاقة شاؤل بالدويلات الآرامية، مما دفع «كريلنج» إلى

=/= وكذا.

E. G. Kraepling, op. cit., p. 118 - 119.

- (١) المسعودي: مروج الذهب ١٢ / ١٥٢، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ١١ / ٥٢٥ - ٥٢٧ هنري عبودي: معجم الحضارات السامية، ص ٣٧٥ - ٣٧٧.
(٢) أحمد فخري: المرجع السابق، ص ١٠٣.
(٣) قاموس الكتاب المقدس ١١ / ٤٣.

القول بأن علاقة صوبة بالعبرانيين في عهد شاول كانت مبهمة^(١)، كما ذهب «ديبون - سومير» بأن ملوك الأراميين لهذه المنطقة لم يذكروا لأنهم كانوا تابعين لصوبة^(٢).

وعلى أى حال، فلقد استمرت صوبة في عفوان قوتها حتى السنوات الأولى من أيام داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م.)، الذي نجح في أن يضمها إليه مؤقتاً، إذ استمر الصراع بين الأراميين والعبرانيين على أيام داود - كما كان على أيام سلفه شاول - وهكذا قامت حروب بين داود و«حدد عزرة» ملك صوبة، ساهمت فيها - إلى جانب حدد عزرة - معظم الولايات التابعة لصوبة، كما اشترك فيها أراميو ما بين النهرين.

هذا وكانت العلاقات بين العمونيين وداود عندما بدأت تسوء إلى الدرجة التي تهدد بدق طبول الحرب بينهما، طلبوا معونة جيرانهم الأراميين في أرام بيت رحوب، وأرام صوبة ومعكة وطوب، وأتى هؤلاء بحشد كامل من الرجال لمساعدة «ربة» عاصمة عمون، ضد الهجوم الإسرائيلي الذي أمر به داود تحت قيادة يوباب، ونجح يوباب في هزيمة هؤلاء الأراميين، ويعلم «حدد عزرة» ملك صوبة بذلك، ويشترك في حرب مع الإسرائيليين - بقيادة داود - ولكنه ينهزم فيها، ثم سرعان ما بدأت صوبة في الإضمحلال وأخذت دمشق مكانها بالتدريج، حتى صارت أعظم الإمارات الأرامية^(٣).

(١) بولس عباد: المرجع السابق، ص ١٠، وكذا:

E. G. Kraeling, op. cit., p. 40.

(2) A. Dupont-Sommer, op. cit., p. 26.

(٣) . موثيل نان: ٦:١٠ - ١٤، وكذا:

M. Noth, op. cit., p. 194 - 195.

(٤) قادش:

هناك أكثر من قادش في بلاد الشام - وقد تحدثنا عن ذلك من قبل -
ونعني هنا قادش: التي تقع في مكان «تل نبي مند» على الشاطئ الأيسر لنهر
الأورنت (العاصي) داخل الزاوية التي تكونت ناحية الغرب من اتصاله بنهر
الموقادية، على بعدة بضعة كيلو مترات، جنوبي النهاية الجنوبية لبحيرة حمص.

وفي قادش هذه حدثت واحدة من أهم المعارك الحربية في التاريخ القديم،
وأعني بها معركة قادش بين ملك الحيثيين «مواتيلا» والفرعون رعمسيس الثاني،
حوالي عام ١٢٨٥ ق.م، وقد كتب فيها النصر للفرعون بعد أن تعرض لكمين
كاد أن يقضى عليه وعلى جيوشه، ولكنه استطاع بفضل مهارته النادرة أن يحول
الهيزيمة إلى نصر، وإن كانت النتائج السياسية للمعركة لم تكن في مستوى النصر
العسكري^(٥).

(٥) قرقيش:

مدينة هامة في شمال سورية تقع غربي الفرات عند فريضة في النهر، شمال
مكان التقائه بساجور، وعلى بعدة ١٠٠ كيلا شمال شرق حلب، وقد كتبت
في قائمة تخوتمس الثالث «كاركمشا»، ثم حدث تغيير في الهجاء، فتغيرت إلى
«قرقيشا» في سيرة «أمون ام حاب»، وفي عهد أمنحتب الثالث (١٤٠٥ -
١٣٦٧ ق.م).

ولعل أول من وصل إلى قرقيش إنما كان تخوتمس الأول (١٥٢٨ -
١٥١٠ ق.م)، حيث مرق بجيشه من مصر عبر الشام في سرعة غربية، ودون
مقاومة كبيرة، حتى بلغ أرض «نهرين»، وحيث أقيمت لوحة تذكارية عند
إنهاء الفرات، عند قرقيش.

(١) محمد بيومي مهران: مصر ٣٥٢/٣ - ٣٥٦ (الاسكندرية ١٩٨٨).

A. Burn, JEA, 7, 1921, p. 194 - 195.

وكذا

J.H. Breasted, The Battle of Kadesh, Chicago, 1930, p. 13 - 15.

H. Goedicke, JEA, 52, 1966, p. 72 - 97.

غير أن حفيده العظيم «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٢٦ ق.م) إنما عبر الفرات، ودخل في أرض الميثان وأقام لوحة نصره على الجاب الشرقي للفرات، وذلك في حملته الثامنة (حوالي عام ١٤٥٧ ق.م)، ونقرأ في لوحة نيته (نباتا) أن جلالته قد أمر بضع السفن في «جبيل»، وأن تنقل برا إلى قرقميش على عربات تجرها الثيران، وهكذا فلكن كان الطريق من جبيل يمر عبر قطنه وتوينب وقرقميش، فإن معنى هذا أن قوات الفرعون قد قطعت ٤٠٠ كيلا، كما أن استخدام عربات تجرها الثيران من دوات الأربع عجالات، ظاهرة غير متوقعة تماما، ولعلها أقدم المرات التي استخدمت فيها السفن الحربية في التاريخ القديم، لعبور جيش كبير على نهر واسع كالفرات.

وقد خضعت قرقميش لآشور على أيام «ناصربال» (٨٨٥ - ٨٦٠ ق.م) ثم استولى عليها الأكديون على أيام «نبرخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م).^(١)

J.H.Breastec, ARE, II, 1906, p. 34 - 35.

(١) وكذا

A.Gardiner, Onom., I, 1947, p. 132,

J.A.Wilson, ANET, 1966, p. 234, The Culture of Ancient Egypt, 1964, p. 180 - 181.

R.O. Faulstich, JEA, 32, 1946, p. 39F.

(أ) ماري:

لاريب في أن مدينة «ماري»^(١) ذات الموقع الهام في حوض الفرات الأوسط، أهم مركز لتجمع العناصر السامية العربية في وادي الفرات، ولم تفقد هذه الأهمية الا بعد سقوط مملكة ماري في أواسط القرن الثامن. عشري قبل الميلاد، وقد سادتها دائماً هذه العناصر السامية الغربية وأن خضعت في كثير من الاحيان لنفوذ حكام السهل الميزوبوتامي المجاور.

هذا وقد قامت مملكة ماري في حوالي عام ١٨٢٠ ق.م، ولم تستمر أكثر من متين عاماً، حيث انتهت على يد حمورابي البابلي حوالي عام ١٧٦٠ ق.م، وحكم في هذه الفترة أربعة من ملوك ماري هم: (١) ياجيد ليم (١٨٢٠ - ١٨١٠ ق.م) - (٢) ياخذون ليم (١٨١٠ - ١٨٩٦ ق.م) - (٣) سومو يامام (١٧٩٦ - ١٧٩٢ ق.م) (٤) ياسماخ أدد الأشوري (١٧٩٢ - ١٧٨٢ ق.م)، ثم الملك «زمرى ليم» (١٧٨٢ - ١٧٦٠ ق.م)^(٢).

(١) ماري: كلمة سومرية من جهة الاشتقاق، شبيهة باسم البلاد «أمورو» و«مارتو» أي بلاد الغرب، وهي الآن «تل الحريري» جنوب مصب نهر الخابور، بالقرب من «دير الرز» على مسبعة ميل واحد غربى الفرات، قرب بلدة «أبو كمال» (البيوكمال) قرب الحدود العراقية السورية، وقد أصبحت ماري وبلاد المحيط بها خلال القرن العشرين قبل الميلاد أمورية في سكانها وحضارتها وحكوماتها (انظر: قاموس الكتاب المقدس ١/١١٩)، وكذا

M.Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 46.

W.F.Leemans, Foreign Trade in The Old Babylonian Period, Leiden, 1960, p. 102.

هذا وقد اكتشف «أندريه بارو» في عام ١٩٣٣ م حوالي عشرين ألف لوحة فخارية مكتوبة بالخط المسماري في قصر الملك «زمرى ليم» آخر ملوك ماري، وهي محفوظة الآن بمتحف اللوفر في باريس، وتقسّم إلى قسمين، الأول: مصوص اقتصادية وإدارية، والثاني رسائل متبادلة بين ملوك ماري وأبياعهم وحلفائهم وقد نشرت هذه الوثائق تحت عنوان Archives Royales de Mari وقد ظهر منها حتى الآن ١٦ جزءاً، وقد شارك في هذا العمل العلمي الضخم كثير من الأستاذة المتخصصين.

(2) W.W.Hallo and W.K. Simpson, The Ancient Near East, USA 1971, p. 99.

L.Oppenheim, The Archives of The Palace of Mari, JNES, 11, 1925, p. 130.

على أن هناك من يذهب إلى أن «زمرى ليم» إنما قد حكم عامين آخرين تحت السيادة البابلية التي عمل على التسخلف منها، الأمر الذي دعا «حمورابي»^(٣) إلى تدمير «مارى» تدميرا نهائيا، ونهب معبد عشتار والقصر الملكي، واضرام النيران في المدينة التي لم تقم لها بعد ذلك قائمة^(٤).

هذا وكانت مملكة «زمرى ليم» تتكون أساسا من وادي الفرات الأوسط، فيما بين مصب نهر بلخ شمالا، و«توتول» (خيت الحالية) جنوبا. وقد عمل «زمرى ليم» على ضم معظم أملاك «شمسي أدد» الأشوري في الغرب، والتي امتدت حتى الثنية الكبرى للفرات غربا، وشملت الجزء الأكبر من «ميزوبوتاميا العليا». وحوض الخابور وبلخ حتى ثنية الفرات، وربما امتد نفوذه إلى إقليم «ايداماراز» الذي يتاخم أعالي الفرات، كما تشير إلى ذلك نصوص «مارى»^(٥).

ويذهب بعض الباحثين إلى أن نجاح «زمرى ليم» في توسيع ملكه ومجال نفوذه، حتى غدت مملكة «مارى» في عهده من القوى الكبرى في الشرق الأدنى القديم، إنما يرجع إلى أنه كان رجل حرب^(٦)، كثير التنقل والحركة، وغالبا ما كان في معسكر جنده خارج عاصمته «مارى»^(٧). فضلا عن حشده لأعداد ضخمة من العناصر السامية الغربية وخاصة الخائين الذين اعتمد عليهم «زمرى

J.R. Kupper, Les Nomades en Mesopotamie au Temps Les Rois de Mari, 1957, p. 33.

(٣) اختلف العلماء في تاريخ عصر حمورابي، ومن ثم فقد قدموا لنا التواريخ التالية: (١٨٤٨ - ١٨٠٦ ق.م.)، (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م.)، (١٧٩١ - ١٧٤٩ ق.م.)، (١٧٤٢ - ١٦٨٦ ق.م.)، (١٦٨٦ ق.م.)، (١٧٣٠-١٦٨٥ ق.م.)، (١٧٢٤-١٦٨٢ ق.م.) (أنظر: محمد عبد القادر: الساميون في العصور القديمة ص ٢٥).

(4) J.R. Kupper, in BA, 41, p. 153 - 154.

(5) J.R.Kupper, Archives Royal de Mari, Vil.VI, Paris, 954, No 76.

J.R. Kupper, Northern Mesopotami and Syria, in CAH, II, Part, ١, 1973, p. 9.

(6) Ibid. p. 9.

(٧) محمد عبد اللطيف، مجلات «مارى».

ليم، بصفة أساسية في تكوين قواته المقاتلة، وقد أسفرت هذه الجهود عن مكانة متميزة لمملكة ماري في عهد «زمرى ليم» كقوى ضاربة كبرى في الشرق الأدنى القديم، حتى قضى عليها «حمورابي» في عام ١٧٦٠ قبل الميلاد^(١).

بقيت الإشارة إلى أن الاكتشافات التي قام بها الفرنسيون في ماري في الفترة (١٩٣٣ - ١٩٣٩) والفترة (١٩٥١ - ١٩٥٥) أظهرت أنه كان بهذه المنطقة حضارة تنقسم إلى عصرين، الواحد: سابق لعصر سرجون الأول الاكدي، وهو يمثل حضارة سومرية، والاخر: أموري في الألف الثاني قبل الميلاد.
(٩) مجدو:

مجدو: تل المتسلم الحالية، وتقع إلى الغرب قليلا من بحيرة طبرية، وعلى مبعده ٣٢ كيلا، جنوبي شرق حيفا، في المنطقة الجنوبية من سلسلة الجبال التي تنتهي بجبل الكرمل في الشمال.

وقد حدثت في مجدو أولى معارك جبار الحروب الفرعون تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) ضد أمراء الشام في عام ١٤٦٨ ق.م، وكتب له فيها نجحا بعيد المدى، وانتصاراً ساحقاً، هذا وفي «مجدو» أحد الثكنات العسكرية الخاصة لفصائل المعجلات الحربية، التي أقامها سليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م) وطبقاً لما جاء في سفر الملوك الأول (١٩/٩، ١٦/١٠) فقد كشف في «مجدو» إسطبلات للخيول، وحظائر للعربات، مع بعضها، وكانت تلك التي في «مجدو» تسع ١٥ عربة، ٤٥٠ حصاناً^(٢).

(١) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد ص ٧٣ - ٧٤. محمد بيومي مهران: بو إسرائيل ١٢ / ٦٨١ - ٦٨٢ (الطبعة الرابعة عام ١٩٩٩ م).

(2) W.F.Albright, From Stone Age to Christianity, p. 227, Y.Yadin, New Light on Solomon's Megido, BA, 23, 1960, p. 62 F. C.Watzinger, Denk Maler Palastine, I, 1933, p 67G, Fig. 80 - 81.

الفصل الرابع شرق الأردن المملكة الأردنية الهاشمية (١) الادميون

١- البتراء:

كانت البتراء - عاصمة مملكة أدوم - تعرف باسم «سلع»، ثم تغير اسمها إلى «البتراء»، وهي واحدة من أشهر مدن العالم القديم، وقد أصبحت عاصمة للأنباط - بعد أدوم - وتقع إلى الشرق من وادي عربة في منتصف المسافة تقريبا بين رأس خليج العقبة والبحر الميت، أو على مبعده ٨٠ كيلا إلى الجنوب من البحر الميت^(١)، والبتراء - على أي حال - كلمة يونانية تعني «الصخر»^(٢) ولعلها ترجمة للكلمة العبرية «سلع» التي جاءت في التوراة^(٣)، كما تعنى كذلك «الشق في الصخر» وربما كانت التسمية العبرية أكثر دقة، لأن مدخل البتراء يتسم بوجود أخدود عميق بين جبلين، يعرف اليوم باسم «السيق»، ولعله لفظ نبطي متوارث، حرفة الناس عن «الشق» في السبئية القديمة^(٤)، وأيما ما كان الامر فلقد عرف العرب هذه التسمية كذلك، وقد ذكر «ياقوت الحموي» (١١٧٨-١٢٢٨م) بأن سلع حصن بوادي موسى عليه السلام، بمقرب بيت المقدس^(٥).

وأما الإسم العربي للبتراء فهو «الرقيم» وربما كان هو إسم ثان للبتراء، كان الإغريق يعرفونها به، وهو Arke فحرفه العرب إلى الرقيم، وربما أرادوا بالرقيم «خزانة فرعون» بالذات، وأما اسمها الحديث فوادي موسى^(٦). ونقرأ في التوراة أن «أمصيا» (٨٠٠ - ٧٨٣ ق.م) قد خلف أباه «يهواش»

(١) قاموس الكتاب المقدس ٤٤٥/١ - ٤٤٦، جواد على ٥١/٣

(2) Pliny, 2.p. 447.

(٣) اشعيا ١٠: ١٦، ٤٤: ١١.

(٤) لانكستر هاردنج: آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى، عمان ١٩٦٥ ص ١١٧.

(٥) ياقوت - معجم البلدان ٢: ٦/٣ (بيروت ١١٥٥).

(٦) جرجري زيدان: المرحع السابق ص ٧٣، ياقوت ٣٤٦/٥.

(٨٢٧-١٠٠ ق.م) على عرش يهوذا، وأنه حاول أن يسترد أدوم وسلع وقد نجح في الاستيلاء على الأخيرة، ومن ثم فقد أطلق عليها إسم «يقتثيل» بمعنى الخاضع لله^(٧).

وعلى أى حال، فلقد استمرت البتراء مدينة هامة حتى سقطت في أيدي الرومان في عام ١٠٥ م أو (١٠٦م)، وسرعان ما أخذت أهميتها تنضاء شيئا فشيئا، حتى أصبحت في ذمة التاريخ^(٨)، إلى أن كشف عنها «برخاردت» (١٨٦٣ - ١٩٣٨م) في عام ١٨١٢^(٩).

٢- بصرة:

ومكانها الآن «بصيرة» الحديثة، على مبعدة ٢٢ كيلا إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت.

٣- تيمان:

على مقربة من البتراء. وتيمان: إسم عبري، بمعنى «اليميني أو الجنوبي»، ونذهب التوراة إلى أنه إسم بكر «إيفاز بن عيسو»، والإقليم الذي تسكنه، شمالي أدوم، ويدعى أبناء الشرق، أو «تيمان»، وقد اشتهر أهله بالحكمة «تكوين ١١/٣٦، ١٥، ٣٤، إرميا ٧/٤٩، حزقيال ١٣/٢٥».

٤- عصيون جابر:

كان يظن من قبل، أن «عصيون جابر» انما تقع عند «عين الغديان» في قمر وادي العربة، ثم اكتشفها «نلسون جلوك» في موقع تل الخليفة، على مبعدة ٥٠٠ قدم من ساحل البحر على الطرف الشمالي لخليج العقبة بالقرب من ميناء «إيلات»^(١٠).

(٧) ملوك ثان ١٤: ١-٧.

وكذا F.Altheim and Rstiehl, op.cit., p. 283.

وكذا A.B.W. Kennedy, Petra, Its History and Monuments, London, 1925, p. 78.

A.Lods, Israel, From its Beginnings to the middle of the eighth century, London, 1962, p. 385 - 386.

(٨) ويليب حتى: المرجع السابق من ٣٤٢ - ٣٢٤، مكابيون أول ٢٦: ٥ - ٢٨.

(٩) J.L. Burckhardt, Travels in Syria and The Holy Land, London, 1822, p. 418 - 434.

(١٠) قدموس: الكتاب المقدس ١٧١/١، حواد على ٦٣٧/١، موسكاني: المرجع السابق ص ٢٨٠. وكذا: J Finegan, op.cit. p. 181.

هذا وقد عرفت بلاد أدوم في اليونانية باسم «أدوميا» وأما «برية أدوم» فهي الواقعة جنوب البحر الميت، وقد انتهت حياة الأدوميين في القرن الثاني قبل الميلاد، وذلك حين استولى «برحما المكابي» (١٣٥ - ١٠٤ ق.م) على حبرون وغيرها من المدن التي كان الأدوميون قد استولوا عليها، ثم أجبروهم بعد ذلك على الختان واعتناق اليهودية، في عام ١٢٦ ق.م رغبة منه في إزالة الفوارق الدينية بينهم وبين اليهود، وحيا في نشر اليهودية بينهم^(١١).

(٢) المزابيون

١- ديون:

في عام ١٩٥٠ / ١٩٥١، قامت المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في أورشليم بحفائر في «ديون» - عاصمة مؤاب - أبت بتتائج كثيرة، وكشفت عن عدد من المباني والفخار الذي يرجع إلى عصر البرونز المبكر، وحتى العصر العربي المبكر، ولكنها في الغالب لم تكشف شيئا يتصل بعصر البرونز المتأخر، وعلى أي حال فلقد كشف عن عدد من اللوحات الصغيرة التي يمكن أن تؤرخ - مثلها في ذلك مثل الحجر المزابي - بالقرن التاسع قبل الميلاد^(١٢).

هذا وقد كشفت آثار كثيرة في «مملكة مؤاب»، لعل أشهرها ما كان في مدن: ربة مؤاب، وكرك وماديا ومعين وأم رصاص.

(٣) العمونيون

١- ربة عمون (عمان):

كانت «ربة عمون» - أو «ربة» - عاصمة مملكة العمونيين، قد سميت في العصر الاغريقي «فيلاذلفيا»، نسبة إلى ملك مصر «بطليموس الثاني فيلاذلفيوس» (٢٨٤ - ٢٤٦ ق.م)، وهي في موقع تشغله حاليا عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية «عمان»، حيث يوجد في اسمها جزء من إسم العمونيين^(١٣).

Nelson Glusck, The Other Side of The Jordan, New Haven, 1945, p. 50 - 133.

(١١) إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ١٠٥.

(١٢) M. Noth, op cit., p 157 - 158.

هذا وقد استطاع العمونيون أن يكونوا دولة مستقرة منطلحة منذ فترة مبكرة،
ومن ثم فقد كانوا يحكمون بملك قبل أن تبرز فكرة الملكية في اسرائيل (١٤)،
هذا ويدل التحالف الذي أقاموه مع جيرانهم الشماليين في عام ٨٥٣ ق.م، -
حيث اشترك ملك عمون في حلف يضم اثني عشر ملكا على رأسهم بنحدد
ملك دمشق، ضد شمانصر الثالث (١٥)، - يدل هذا التحالف على أنهم كانوا
أقرباء.

(١٣) صموئيل ثان ١٠ - ١٢

(14) S.A. Cook, *op.cit.* p. 363

ر.كنا 6 - M.Noah, *op.cit.*, p. 245

ر.كنا 27 - J.A.Montgomery, *op.cit.*, p. 27

٤- مملكة الأموريين في شرق الأردن

(١) مملكة سيحون

١- حشبون:

وتعرف «حشبون» الآن باسم «حسيان»، وهي مدينة خربة قائمة على تل منعزل بين أرنون ويوق، وتقع حشبون على مبعدة ١٣ كيلا شمال «مادبا» وهي عاصمة «مملكة سيحون»، والتي تقع بجانب نهر الأردن، وتمتد حدودها من أرنون (وادي مؤاب) إلى «يوق»^(١) (وادي الزرقاء)، ومن الأردن إلى الصحراء^(٢)، وكانت «حشبون»^(٣) عاصمة لها.

٢- باشان:

كانت المملكة الثانية «هي مملكة عوج - ملك باشان»^(٤)، وتمتد من «يوق»، وحتى جبل حرمون (جبل الشيخ)^(٥)، وقد هزم العبرانيون هذين الملكين (سيحون وعوج) واحتلوا أرضهما^(٦)، وذلك عندما كان بنو إسرائيل يتجولون هنا وهناك في شرق الأردن، دون أن يستطيعوا العبور إلى غربه، محتكين بكل القبائل

(١) يوق: هو نهر الزرقاء الذي ينبع إلى الغرب من عمان، ثم يسيل شرقاً ثم شمالاً، ماراً بمدينة «الزرقاء» التي حملت اسمه، ثم يصب في الأردن عند نقطة تقع على مبعدة ٧٠ كيلا إلى الشمال من الحجر الميت (قاموس الكتاب المقدس ١٠٥١/٢).

(٢) قضاة ٢٢/١١.

(٣) حشبون: وتعرف الآن باسم «حسيان»، وهي مدينة خربة قائمة على تل منعزل بين أرنون ويوق، وتقع على مبعدة ١٣ كيلا شمال «مادبا» (قاموس الكتاب المقدس ٣٠٧/١ - ٣٠٨).

(٤) باشان: منطقة في شرق الأردن بين جبلي حرمون وحمامد، وسميت باشان نسبة إلى حل هالك، وتشمل حوران والجولان واللجاة، ويحدها شمالاً أراضي دمشق، وشرقاً بادية سورية، وجنوباً أرض جلعاد، وغرباً غور الأردن، ويحترق جانبها الشرقي جبل الدرروز، وهو جبل باشان القديم (قاموس الكتاب المقدس ١٠٥٩/١). M.Unger, op.cit., p. 127.

(٥) تشيئة ٤/٣، ٩، وأنظر: M.F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 45 - 46.

(٦) قضاة ١٩/١١ - ٢٣، قاموس الكتاب المقدس ١١٩/١، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٤٩١/١ - ٤٩٢. وانظر طبعة ١٩٩٩ م.

الساکمة هناك، والرافضة أبدا استقبالهم، وأخيرا نجحوا في تخدی «سیحون» فی «باهص»^(٧)، كما نجحوا كذلك فی تخدی «عرج» ملك باشان فی «أذرعى»^(٨)، وبذلك تمكنوا من الوصول إلى الأردن فی مقابل «أريحا»^(٩).

(٧) باهص: وتقع على مبعده كيلو ونصف جنوبى زرقاه معين، ١٩ كيلا شرقى البحر الميت، وقيل انها قرية «أم المواليد» أو «خربة اسكندر» (قاموس الكتاب المقدس ١٠٤٩/٢).

(٨) اذرعى: وتسمى الان «درعة» وتقع فى وادى زبداء، على مبعده ٤٧ كيلا شرقى الطرف الجنوبى لمحيرة طبرية، وعلى الحدود بين سورية والأردن (قاموس الكتاب المقدس ٤٢١).

(٩) عدد ٢١/٢١ - ٣٥، ثنية ٢٦/٢ - ١١/٣.

الباب الرابع
السودان والمغرب القديم

الفصل الأول

السودان (النوبة العليا)

تقديم :

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن السودان - أو بلاد النوبة - إنما عرفت بعدة أسماء ربما لأن بلاد النوبة لم تكن محددة تماماً، فناريخها عبارة عن سجل واسع لتحركات الجيوش، ومن ثم فلم تصل النوبة إلى أن تستقل بنفسها، ومع أن سكانها الحاليين لهم جنسية مميزة. فهم يرتبطون ارتباطاً وثيقاً عن طريق الدم والأسلوب الواحد في الحياة، غير أن الوطن النوبي مقسم بين الشمال والجنوب، فالنوبة السفلى تمتد فيما بين الجندل الأول، وبلدة ادندان، وهي جزء من مصر، وأما النوبة العليا، فتمتد فيما بين أدندان ودنقلة، وهي جزء من السودان.

هذا فضلاً عن أن التريبيين أنفسهم إنما يختلفون في لغتهم - حتى يوم الناس هذا - ومن ثم فإن الحدود اللغوية لا تتفق مع الحدود الجغرافية للنوبة العليا والسفلى، فبينما يتحدث سكان المنطقة فيما بين أسوان والسبوع حتى اليوم، باللهجة المعروفة باسم «كنوز»، يتحدث سكان المنطقة فيما بين كورسكو، وحتى الجندل الثالث «المحسى»، وفي نفس الوقت يتحدث سكان الجنوب «دنقلى»، وإن كانت هذه اللهجة ليست إلا شكلاً آخر للكنوز، وربما أمكن القول أن الدناقلة والكنوز إنما تكون لغتهما مجمعة متشابهة، بينما تكون لغة السكوت والمحس والفدهجة مجموعة ثانية متشابهة.

وعلى أية حال، فاللغة النوبية - وهي تنتمي إلى نوع خاص من اللسان الأفريقي - لا تكتب، ومن ثم فهي تعتمد على اللغة العربية في الكتابة، فالعربية إذن لغة الكتابة في جميع أنحاء النوبة^(١).

(١) ووالتر امري: مصر وبلاد النوبة ص ١٠ - ١١، وكذا J.A. Hamilton, The Egyptian Sudan, London, 1965.

هذا وتصف «مرى»^(٢) اللغة النوبية بأنها لا تتفق في مفرداتها اتفاقاً كبيراً، مع أية لغة أخرى، بل أن كثيراً جداً من أصول الكلمات النوبية ليس له نظير في جميع اللغات التي قورنت بها، وأما اللغات التي تشابه اللغة النوبية في مفرداتها، فأكثرها، دونما ريب، لغات حامية، هذا فضلاً عن أن الصبغة الحامية هي الغالبة على اللغة النوبية، سواء من ناحية المفردات أو النحو والصرف، غير أن هناك اختلافاً كبيراً بينها وبين اللغات الحامية في «النظام الصوتي» (phonetic System)، وإن كان له نظير في اللغات النيلية في جنوب السودان كلغة الباري. وهكذا يذهب العلماء على أن اللغة النوبية إنما تشتمل على عناصر حامية، وأخرى غير حامية، ولعل مصدر هذا العنصر الغريب إنما هو بعض الشعوب الجنوبية، ومن ثم يذهب البعض إلى أن اللغة النوبية إنما هي لغة حامية، بها مؤثرات أجنبية، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أنها لغة نيلية جنوبية مثل «لغة الباري»، ثم تعرضت لمؤثرات حامية على مدى العصور.

هذا وقد تأثرت اللغة النوبية كذلك بلغات أخرى، كالمصرية القديمة والحبشية والعربية، ومن ثم فقد دخلتها مفردات من الحبشة عن طريق مروى، وقبل ذلك وبعده، مفردات اللغة المصرية القديمة، كما استعارت اللغة النوبية كلمات عربية بما يقرب من ثلث مفرداتها^(٣).

وأما أهم الأسماء التي أطلقت على بلاد النوبة (السودان) :

- ١- تا - سیتی ٢- تا - نحسیو ٣- خنت - حن - نَفر ٤- كوش
٥- النوبة ٦- الأثيوبيون ٧- دود يكاشينوس ٨- بلاد السودان

(2) G.W.Murry, English - Nubian Dictionary, London, 1923, p.X.p. 168.

(٣) محمد عوض محمد: السودان الشمالي - سكانه وقائمه - القاهرة ١٩٥١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧، ووالتر امرى: المرجع السابق ص ١١.

(٤) أنظر عن أسماء النوبة القديمة (محمد بيومي مهران. تاريخ السودان القديم ص ١١١) - (١٢٤).

٩- أرض الزرع^(٤).

وأما أهم سكان النوبة القدامى:

١- النجاشي - أو المدجاويو ٢- ولوات ٤- ستار ٥- إرنث ٦- يام^(٥).

وأما سكان النوبة الحاليين:

١- الكنوز ٢- العليقات ٣- الفديجة ٤- الكشاف ٥- السكوت

٦- المحسى ٧- الدناقلة^(٦).

ولتحدث الآن عن المدن الكبرى في السودان - أو النوبة العليا، ولنبدأ

بالعاصمة «نابا» (نبتة):

(١) نابا:

قامت مدينة «نابا» - أو نبتة - على أنقاض مدينة أو مستعمرة مصرية تنسب في بدايتها إلى عهد «تختمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م)، على مقربة من الصخرة الضخمة المعروفة باسم «جبل البرقل» (Gebel Barkal) أو «الجبل المقدس» (Holy Mountain) - أو كما يسمى في المصرية القديمة «جو- وعب» أو «دو- واعب» - حيث اعتبرته النصوص المصرية القديمة جيلا طاهرا، وعرشا مقدما لأمن طيبة، والصخرة، على أية حال، ليست شديدة الارتفاع، ولكنها تلفت النظر بتفردها في وسط السهل، على مبعده ميل من نهر النيل^(٧).

وتقع «نابا» (Napata) عند خط عرض ٢٥° ١٨'، وخط طول ٤٦° ٣١'، على

(٥) أنظر عن أسماء النوبة القديمة (محمد بيومي مهراڤ: تاريخ السودان القديم ص ١٢٥ - ١٢٦).

(٦) أنظر عن سكان النوبة الحاليين (محمد بيومي مهراڤ: تاريخ السودان القديم ص ١٣٦ - ١٤٢).

(7) A.J.Arkell, op.cit, p. 112.

وكتا A.H.Gardiner, op.cit, p. 335.

R.O.Faulkner, A Concise Dictionary of Middle Egyptian, Oxford, 1972, p. 57, 320.

وكتا B.G.Trigger, op.cit, p. 140.

(8) R.Engelbuch, Index of Egyptian Sudanese Sites from The Cairo Museum, Cairo, 1931, p. 27.

الضفة الشرقية للنيل^(٨)، وعلى مسافة قصيرة إلى الشمال من الجندل الرابع، عند سفح جبل برقل (بركل)، جنوبي «كريمة» (Kareima)، وعلى مبعده ١٠٣٥ كيلا جنوبي وادي حلفا، وفي مقابل مدينة «مروى» الحديثة عبر النيل تقريبا (وهي ليست مروى القديمة التي تشغل قرية البحراوية - على مبعده ٢٣٠ كيلا شمالي الخرطوم - جزءا منها)، وعلى الضفة الأخرى للنيل تقع أهرام «نورى» (٣٥ كيلا شمالي الجندل الثالث) ومجموعة أهرام جبل البرقل.

وكان اختيار «نباتا» (نبتة) كعاصمة للدولة (مملكة نباتا) اختيارا موقفا، يقوم على أساس جغرافى سليم، فهناك يتمتع السهل الزراعى نسبيا، ويسهل الإتصال ببقية أنحاء السودان القديم، فمدينة نبتة تتصل بالجنوب عن طريق النيل، فضلا عن الطريق البرى الذى يبدأ عند «أبردوم»، ويخترق صحراء «بيوضة» حتى يصل إلى «شندى» - على مبعده ٢١٣ كيلا شمالي الخرطوم - ويربطها بالشمال نهر النيل والطريق البرى المحاذى لـ ، هذا فضلا عن وجود صناعة الحديد قريبا منها، كما أنها فى منطقة متشعبة بالحضارة المصرية، وبعبدة عن مكان الغزو، بحيث نستطيع أن نتطور دون أن نتعرض للغزو، وكانت على أيام «توت عنخ أمون» (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) بمثابة الحد الجنوبي لإمارة «نائب الملك فى كوش»، هذا وملتقى فى عهد الرعامسة بمخلفات فى هذه المنطقة وإشارات كثيرة فى النصوص المصرية، التى تختفى تماما فى عهد الأسرتين الخادية والعشرين والثانية والعشرين.

ومع ذلك فلنا أن نؤكد أن الثقافة المصرية ظلت قائمة هناك فى حالة ركود، مصحوبة بالعاطفة المتأججة نحو «أمون رع»، رب طيبة، حيث اعتنق القوم هناك فى نباتا ديانتته منذ زمن طويل، حتى غدت مركزاً لعبادة أمون فى السودان، الذى قدس هناك بصفته «سيد القطرين»، «القائم على جبل نبتة المقدس»، وبنى له معبد ضخم فى حوض جبل البرقل، زين على الطريقة المصرية، حتى أن المناظر التى كانت تزين الجدران هناك، لا تختلف فى شئ عن تلك التى تزين جدران معابد أمون فى مصر نفسها^(٩).

(9) D.Dunham and M.F.L. Macadam, Names and Relationships of The Royal Family of Napata, J.EA, 35, 1949, p. 139 - 149.

ولعل أول ذكر لمدينة «ناباتا» في التاريخ المصرى - كمدينة محصنة تقع فى أقصى الجنوب - إنما كان على أيام «أمنحيب الثانى» (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م.)، وسرعان ما ازدادت بالمعابد والقصور، ولكنها لم تبلغ ذروة مجدها إلا فى القرن الثامن قبل الميلاد، عند أصبحت عاصمة لمملكة كوش، التى استقل بها أبناؤها عن مصر، وظلت كذلك حتى نقلت العاصمة منها إلى «مروى» - على مبعده ٢١٣ كيلا شمالى الخرطوم - وذلك فى عام ٥٩١ قبل الميلاد، وأصبحت نبتة عاصمة دينية فحسب، وظل الملوك يدفنون فى مقابر «نورى» حتى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد^(١٠).

وهكذا قامت دولة فى ناباتا عرفت عند المؤرخ المصرى «مانيتو» (٣٢٣ - ٢٤٥ ق.م.) باسم «الأسرة الخامسة والعشرين»، وقد سجل لها أسماء ثلاثة من الملوك هم: سبكون (شيكو) و «سبكوس» (شبتكو) و «تراكوس» (طهرقا)^(١١). هذا ولم يدون «مانيتو» إسم أول وأشهر ملك من هذه الأسرة (بغنى)، هذا فضلا عن اختياره للملك «سبكون» كمؤسس للأسرة، إنما يعتمد على أسس قوية، ذلك لأنه أول ملوك الأسرة، ولذى حكم دولة تمتد من وراء الجندل الرابع وحتى شمال الدلتا^(١٢)، وعلى أية حال، فإن الآثار إنما تقدم لنا ملوكا آخرين ينسبون

H.Kees, Ancient Egypten, London, 1961, p. 240

رَكنَا

A.H.Gardiner, op.cit, p. 335.

وَكَنَا

D.M.Dixon, The Origin of The Kingdom of Kush (Napata - Meroe), JEA, 50, 1964, p. 121 - 132.

وَكَنَا W.B.Emery, Nubian Treasure, 1948, p. 24.

J.Leclant, Sur La Nuhle Ancienne, Quelques Publications Recentes exter Revue Hisotrique, 489, 1949, p. 163 - 178.

(١٠) محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ٧٧ - ٧٨، جان لكلان: المرجع السابق ص ٢٨٨،

G.A.Wainwright, The Date of The Meroe, JEA, 38, 1952, p. 65 - 77.

(11) W.G.Waddell, Menetho, With an English Translation, London, 1940, p. 167 - 169.

(12) J.Leclant et J.Yoyotte, Notes d'histoire de Civilisation Ethiopiennes, BIFAO, 51, 1952, p. 9.

إلى هذه الأسرة هم: الأارا - كاشتا - بعنخي - نانوت أماني، وزاد بعض آخر: أتلاترسا - سنك أماني سكن - أنل أماني - إسبنا (JEA, 35, 1949, p. 149).
 وأيا ما كان الأمر، فلقد قامت في نباتا - أثناء غياب السيادة المصرية هناك - أسرة يرتب جمهرة المؤرخين ملوكها: كالتالي: (١) الأارا (٢) كاشتا (٣) بعنخي (٧٥٠ - ٧٣٠ ق.م) (٤) شبكو (٧٠٠ - ٦٩٥ ق.م) (٥) شبتكور (٦٩٥ - ٦٩٠ ق.م) (٦) طهرقا (٦٨٩ - ٦٦٤ ق.م) (٧) نانوت أماني (٦٦٤ - ٦٥٦ ق.م).

(٢) مروى:

تقع مدينة «مروى» - وتدعى حاليا البحراوية - شمالي شندى، وعلى مبعده ٢١٣ كيلا شمالي الخرطوم، وعلى مبعده ١٠٨٣ كيلا جنوبي وادى حلفا (بطريق النهر)، ٨٦٦ كيلا (بطريق حلفا - أبو حمد) - فى المنطقة التى تطابق تقريبا سهل «البطانة» الحالى، والذى يقع بين نهر العطبرة والنيل الأزرق، وهو عبارة عن لسان هضبي عريض منبسط ممتد من الهضبة الحبشية فى اتجاه الشمال الشرقى، ويقع فوق كتوز ٥٠٠ م، ويحتوى على عدة نقاط مرتفعة، يصل أعلاها إلى ٨٦٠ م، بالقرب من قلعة النحل، جنوب غربى القضايف (١٣).

هذا وقد انتقلت العاصمة من «نباتا» إلى «مروى» فى عام ٥٩١ ق.م، وأما سبب انتقال العاصمة من «نباتا» إلى «مروى»، فلقد ذهب البعض إلى أنها على أيام «يسماتيك الثانى» (٥٩٥ - ٥٨٩ ق.م) من الأسرة السادسة والعشرين، ربما فكرت أسرة ملوك نباتا فى استعادة نفوذها فى مصر، ذلك النفوذ الذى كان قد ضاع عقب فرار «نانوت أماني» من طيبة، ومن ثم فقد اضطر «يسماتيك الثانى» تلافيا للخطر، أن يرسل حملة إلى الجنوب، وصلت إلى «دنقلة» على الأقل، ونجحت إلى أبعد الحدود فى سحق الجيوش النوبية فى أرضها، وقد سجلت نتائج هذه الحملة على لوحتين عشر عليهما فى الكرنك وتانيس، ولا ريب فى أن هذه الحملة إنما كانت سببا فى نقل العاصمة من نباتا إلى مروى. فى عام ٥٩١ ق.م،

(١٣) حودة حنين حودة: العالم العربى - دراسة فى الجغرافية الاقليمية - الاسكندرية ١٩٨٦ ص ٦٣١، محمد رياض، وكوثر عبد الرسول: أفريقيا - بيروت ١٩٧٣ ص ٣٩٧.

على أيام الملك إسبكتا، ٥٩٣ - ٥٦٨ ق.م، (١٤).

على أن هناك سببا آخر لنقل العاصمة إلى مروى، يستند إلى عوامل مناخية واقتصادية، فالسهوب حول مدينة مروى أفسح منها حول مدينة نباتا، التي تحاصرها الصحراء، ومن ثم فقد قامت حول مروى الزراعة وتربية الماشية، حيث يسقط المطر صيفاً، وقد حفرت أحواض ضخمة للرى حول المواقع الرئيسية، ومن المؤكد أن التجارة كانت نشطة، ذلك لأن مروى إما كانت تتمتع بموقع ممتاز على الطريق بين البحر الأحمر وأعالى النيل وتشاد، هذا فضلاً عن توفر الأشجار التي يمكن الاستفادة منها في صهر الحديد الموجود في الصخور الرملية الموجودة في المنطقة، وتشير أكوام نفايات الحديد حول مروى إلى ضخامة إنتاجه، وإن كانت الاتجاهات الحديثة - كما أشرنا من قبل - لا نقر وصف مروى بأنها «برمنجهام أفريقيا» لأنه وصف ينطوي على تبشير من المبالغة (١٥).

وأما من الناحية الدينية فليست هناك في «وثائق التتويج» ما يشير إلى أن مروى بها معبداً للاله آمون، ولكنها - في نهاية القرن الأول قبل الميلاد - حظيت بأحد

(١٤) محمد بيومي مهران: مصر ٦٥٤/٢، جان للكلان: المرجع السابق ص ٢٨٨، محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ١٧٣ - ١٧٤.

وكدنا W.B.Emery, Egypt in Nubia, 1965.

S.Sauneron et J. Yoyotte, La Campagne Nubienne de psammétique, II et sa Signification Historique, BIFAO, 50, 1952, p. 10

H.S.K.Bakry, Psammetichus, II, and His Newly-found Stela at Shellae, Oriens Antiques, 6, 1967, p. 225 224.

وكدنا A.H.Gardiner, op.cit, p. 359

وكدنا Herodotus, II, 161.

(١٥) أنظر G.A.Wainwringy, SNR, 26, 1945, p. 5 - 36.

وكدنا A.H.Sayce, LAAA, 4, 1911, p. 55.

وكدنا A.J.Arkell CA, 7, 1966, p. 45 F.

وكدنا B.G.Trigger, JAHS, II, 1969, p. 23 - 50.

وكدنا H.Amborns, op.cit, p. 71 - 95.

وكدنا R.F.Tylecote, op.cit, p. 67 - 72.

هذه المعابد، وأقيمت لوحة أمامه عليها نقش طويل بالخط المروى، تشير إلى أن أقدم الأسماء التي وردت بهذا المعبد، انما ترجع إلى عهد الملك «إمنى خبلى» (Amanithabale) (٦٥ - ٤١ ق.م)، والملكة «إمنى - شختى» (Amanishathate) (٤١ - ١٢ ق.م)، وربما أصبح هذا المعبد فى الفترة الأخيرة المعبد الرئيسى بالمملكة.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه ابتداء من هذه الفترة بنيت معابد متشابهة لآمون رع، وإن كانت صغيرة الحجم، وذلك فى «مروى» وغيرها، وقد قام معبد آمون فى مروى، بدور معبد آمون فى نباتا، (فى جبل البرقل) ومن المؤكد أن معبد مروى إنما كان منافسا خطيرا، لنظيره فى نباتا، ينازعه الصدارة فى ميدانه، بل إنه فى النهاية يز معابد آمون جميعا، واحتل مكانها.

هذا وقد عاصرت دولة مروى حكم الفرس والبطالمة والرومان فى مصر، وفى عام ٥٢٤/٥٢٥ ق.م، ظهر الخطر الفارسى فى مروى، ونحن نعرف جواب الملك المروى على رسل الملك الفارسى «قمبيز» (٥٢٥ - ٥٢٢ ق.م) فلقد تناول قوسا كبيرا، وأغرق فى نزعته، وناوله إياهم، قاتلا «إذا استطعتم أن تنزعوا فى أقواس كهذه، فاقدموا على قتالنا» وعادت البعثة، وقيل أن «قمبيز» عجز عن علاج تلك لقوس، ومع ذلك، فلقد أسرع قمبيز إلى نباتا، على رأس جيش ضخم، عبر كتيبان الصحراء، ومنطقة «بطن الحجر» (وتمتد من وادى جلفا جنوبا على مدى ١٤٤ كيلا)، قفتكت العواصف بجيشه، وفشلت الحملة فشلا ذريعا، ومع ذلك، فقد اعتبر الفرس أهل كوش فى عداد الشعوب الخاضعة لهم - كما أشارت إلى ذلك لوحة من سوسة - ومن المؤكد أن جزءا صغيرا من المملكة قد خضع للفرس، وأن فصائل كوشية قد انخرطت فى جيوش «دارا الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) و«أكزر كسيس الأول» (٤٨٦ - ٤٦٥ ق.م) (١٦).

(١٦) محمد بيومى مهران: مصر ٦٦٧/٣ - ٦٦٨، جان لكان، المرجع السابق ص ٢٨٨، أحمد

محمد على الحاكم وآخرون: حضارة نباتا ومروى - تاريخ أفريقيا العام - الجزء الثانى ص ٣٢٥.

وكتنا A.Rowe, ASAE, 38, 1938, p. 172 - 193

وكتنا Herodotus, III, 17 - 21, 114.

وكتنا P.Montet, Kemi, 8, 1946, p. 39 - 40.

(٣) الخرطوم:

الخرطوم: عاصمة السودان الحالية، وقد أنشأها المصريون في عام ١٨٢٢م، على أيام «محمد علي باشا» (١٨٠٥ - ١٨٤٩م) على الضفة اليسرى للنيل الأزرق عند التقائه بالنيل الأبيض، وقد خربت عام ١٨٨٥م على أيام الثورة المهديّة (١٨٨١ - ١٨٩٩م) بقيادة زعيمها «محمد أحمد المهدي» (١٨٤٤ - ١٨٨٥م) ثم أعيد تعميرها بعد الثورة، هذا وتتكون العاصمة من الخرطوم، وخرطوم بحرى، وأم درمان، ومن ثم فقد عرفت باسم «العاصمة الثلاثة» ويربطها جسران، الواحد على النيل الأبيض، والآخر على النيل الأزرق، ولكل من المدن الثلاث وظائف مميزة، ففي الخرطوم مركز الحكم والتجارة الحديثة، وفي أم درمان التجارة التقليدية والحرف اليدوية، وفي خرطوم بحرى الورش والصناعة. هذا وقد قام «أركل» في الفترة (١٩٤٤ - ١٩٥٠م) بحفائر في الخرطوم وفي منطقة شيناب، على مبعده ٤٨ كيلا شمالى أم درمان، حيث عثر على آثار تنتمي إلى العصر الحجري الحديث، وفي القرن السادس الميلادى قامت في منطقة الخرطوم مملكة «علوة» المسيحية، وعاصمتها «سوبا» امتدت في كبوشية إلى جنوب الخرطوم (١٧).

(٤) البحراوية :

البحراوية - أو «البقراوية» - وتقع على ضفة النيل الشرقية على مبعده ٢٣٠ كيلا شمالى الخرطوم، وبها أكبر مجموعة من آثار مروى، وهى مجموعتان، شمالية وعدد أهراماتها ٤٣ هرما، وجنوبية وعدد أهراماتها ٥٠ هرما، وهناك مجموعة ثالثة تقع غرب المجموعتين السابقتين وترجع إلى عصر متأخر عنهما، ربما إلى القرن الثانى أو الثالث الميلادى وإن كانت فى حالة سيئة جدا، وهناك فى البحراوية

G.A.Wainwright, The Date of The Rise of Meroe, JEA, 38, وكذا = 1952, p. 75 - 77.

J.Perrot, Une Statue de Darius Decouverte a Suse, J.A, 1972 p. وكذا = 235 - 266.

(١٧) أنظر: A.J.Arkell, Shaheinab, Oxford, 1953, p. 105 وكذا L.P.Kirwan, in SNR, XX, Part, 2, 1937, p. 290.

معبد للإله «أمون رع» يرجع إلى حوالي عام ٣٠٠ ق.م، ومازال صرحه قائماً، وبعض نقوشه محفوظة، ولعل أهم ما فيه المرش الحجري الذي كان يجلس عليه الكاهن الذي كان يتلقى وحى أمون، فيجيب على أسئلة السائلين، فضلاً عن قصر لأحد الملوك، وعلى مقربة منهما بركة ماء، كانت درجاتها مزينة بالتمائيل

(٥) إيكن:

هي المحطة التجارية في الدولة القديمة والوسطى، وتقع جنوبي بوهن، وعلى بعد ٤٠ كيلاً شمالي حصن سمنا، ٢٠ كيلاً شمالي «أورونارتى»، وبها حصن طوله ٩٠٠ متراً، ويحيط بمدينة على الضفة الغربية أمام جزيرة «مايانرتى» عند قمة الجندل الثاني، ومن المعروف أن «إيكن» هي حصن «مرجيسا» (مركيسا) (١٨).

وعلى أية حال، فإن حصن «مرجيسا» (مرجيسيا) إنما يشبه كثيراً حصن بوهن في الشكل والحجم، لأنه - فيما يرى إمري - من نفس عمل المهندس العسكري، وهو على أية حال، حصن مستطيل الشكل، وله جدار واحد من ناحية النهر، أما الناحيتان الشمالية الغربية والجنوبية، فيحيمهما جداران، يليهما خندق جاف، كما أن البوابتين موجودتان في الناحيتين الشمالية والجنوبية من الحصن، وتتصلان ببعضهما بطريق يخترق المدينة ويصل القلعة بالنهر؛ وهناك تحت الجدار الشرقي طريق مغطى ذو باب مائي، وقد كان البناء محمياً بجدران واقية من طرفي الحصن.

وهناك في السور الثاني، وفي زاويته الشمالية الغربية، بقايا معبد صغير، بناه «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق.م) وربما أضاف إليه «أمنتحت الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م)، هذا وتمثل الخرائب القائمة بقايا حجرة متوسطة على جوانب ثلاثة، منها أربع حجرات أخرى توحى بأنها هيكل وحجرات إضافية، وقد

(١٨) انظر

J. Vercoutter, Excavations at Mirgissa, I, 1964, Jush, XII, p. 62)

بطن الهيكل بالحجر، أما بقايا المعبد فقد بنى باللبن (١٩).

(٦) الكسرو:

تقع الكرو - جبانة ملوك نباتا- على الجانب الغربى للنيل، جنوبى كريمة، وعلى مبعده ١٦ كيلا جنوبى جبل البرقل، وقد كشف فيها عن أهرام أربعة من ملوك الأسرة الخامسة والعشرين (يعنجى - شبكو - شبكو - تانوت أمانى)، وقد بدأ الدفن فيها منذ عام ٨٦٠ ق. م، حيث دفن فيها ستة عشر سلفاً للملك اى، (يعنجى)، وكانت أقدم المقابر فيها تتكون من حفرة تعلوها كومة طينية مستديرة وترقد الجثة بانحناء على جانبها الأيمن، والرأس فى الشمال، وبعد ذلك غطيت الكوة بالحجر ثم تطورت إلى جزء يعلو سطح الأرض مبنى بالحجر مستطيل الشكل، ينتهى أخيراً إلى شكل الهرم الكوشى، بينما أصبحت المقابر أكثر إتقاناً، وأخذت شكلاً مصرياً، فتغير توجه الدفنة من شمال جنوبى إلى شرقى غربى، ومع ذلك فقد تخلفت عادة نوبية هى وضع السرير فى المقبرة، بوضع فيه الميت على هيئة النائم، وكانت هذه الطريقة منتشرة فى النوبة العليا والسفلى منذ أقدم العصور، وبقيت حتى العصر المسيحى، غير أن الطبقة الحاكمة منذ عصر الملك كاشتا، أصبحت مصرية الدفن والفن والعمارة والديانة والثقافة والجنس، إذ نتجت روابط وثيقة بزواج أجيال من المستوطنين المصريين بأهالى المنطقة (٢٠).

ولاريب فى أن مقبرة يعنجى إنما كانت - من الناحية التاريخية - أهم مقابر

(١٩) محمد بيومى مهران: مصر ٢٠٤٠، والتر امرى: المرجع السابق، ص ١٥٢ - ١٥٤، جيمس

بيكى: الآثار المصرية فى وادى النيل ١٧٥ / ٤، وكندا:

J. Vercoutter, Excavations at Mirgissa, I, Kush, XII, 1964, p. 57

- 62.

T. Save-Soderbergh, op. cit., p. 76.

وكندا:

B. G. Trigger, op. cit., p. 72.

وكندا:

J. Vercoutter, Mirgissa, Paris, 1970, p. 187.

وكندا:

(٢٠) سليم حسن: مصر القديمة ١٠ / ٤٥٢ - ٤٦٦، والتر امرى: المرجع السابق، ص ٢١٧ -

٢١٨، وكندا:

D. Dunham, El-Kurru, Boston, 1955.

الكرو، غير أن الهيكل وكل مبنى الهرم قد تهدم، وكان مدخل الهرم خلف الهيكل، ويؤدي إلى نفق محفور في الصخر، فيه تسع عشرة درجة تؤدي إلى باب معقود، جزؤه الأسفل محفور في الصخر، وجزؤه الأعلى، وكذا العقد، مبنيان بكتل الحجر، وطول حجرة الدفن ٥,٠٥ م، وعرضها ٣,١٥ سم، وكان سقفها من الطراز المكربل المتراجع Corbelled، وفي منتصفها تقريباً «صفة» مرتفعة من صخرة الحجر نفسها، وقد نحت في كل ركن منها ثقباً لوضع سرير خشبي - طبقاً لعادة القوم - وأكبر الظن أن هذه «الصفة» إنما كانت أشبه بقاعدة يضعون فوقها التابوت الذي كان يوضع فوق السرير الخشبي - كما نشاهد في النقوش المصرية والمناظر الملونة - وبعبارة أخرى، فقد كانت هذه القاعدة الحجرية هي التي تتحمل ثقل وزن المومياء وتابوتها.

وقد أثبتت حفائر «رايزنر» عام ١٩١٨ م، أن حجرة الدفن قد نهبت، غير أن ما عثر عليه بعد ذلك، إنما يدل على فخامة الأثاث الجنائزى الذى كان مع المومياء، حيث عثر على كثير من أوراق الذهب، وعلى قطع من المرمر، وعلى حلقات اللازورد والفيانس Faience المتعدد الألوان الذى ظل مستخدماً فى تطعيم بعض أشياء المقبرة، فضلاً عن ألوان من المرمر والفخار، وأخرى من البرونز والفضة، كما عثر على تماثيل جيدة الصنع، وعلى كثير من تماثيل «الأوشيتى»، على منضدة فخمة من البرونز، وبعض الأثاث التى كانت تستخدم لتقديم الشراب (٢١).

وهناك جباتان فى الكور، الواحدة فى الجنوب عند قرية «زوما» على الضفة الشرقية للنيل، والأخرى عند «تنقاسى»، على الضفة الغربية للنيل أمام «زوما» (٢٢).

(٢١) أحمد فخري، الأهرامات المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٤٨ - ٣٥٠، وانظر:

J. A. Arkell, op. cit., p. 115 - 121.

B. G. Trigger, op. cit., p. 141 - 143.

وكذا:

D. Dunham and O. Bates, Royal Cemeteries of Kush, I, El-Kurru, 1950, p. 2 f.

(٢٢) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٣٥١. وانظر:

L. Kirwan, Kush, V, 1957, p. 37 F.

P. L. Shinnie, Kush, II, 1954, p. 66 F.

وأما مقبرة «شبتكو» فقد كانت كأسلافه في «الكرو»، حيث دفن هو وخيوله في هرم (رقم ١٨ حسب تقسيم راينز)، وقد عثر فيها على تماثيل صغيرة، من ذلك النوع الذي يعرف باسم «انجاريين» (الأوشيتي) يحمل اسم «شبتكو»، كما عثر في حجرة الدفن على قطع من الأبنوس المطعم بالعاج، وعليها صورة تقليدية لبعض الأجانب (موجودة بمتحف بوسطن برقم ٢١٣٠٨، ٢٤١٠١٨، وفي متحف الخرطوم برقم ١٥٧٥)، وهناك قطعة من الفيانس (بمتحف الخرطوم برقم ٢٧٤٩) تحمل اسم «شبتكو» عثر عليها في الغرفة الغربية بمعبد «كاوا» (A)، وهو المعبد الذي بناه الملك توت عنخ آمون (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) من الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥-١٣٠٨ ق.م)، وأضاف إليه «طهرقا»، مما يشير إلى أن «شبتكو» قد ترك أثراً في كاوا - وهي الكوة الحالية، على الضفة الشرقية للنيل، وعلى بعد ٤ كيلا جنوبي دنقلة الحديثة، ٣٢ كيلا جنوبي أرقو (٢٥).

هذا ولم يعثر حتى الآن على مقبرة واحدة من مقابر الخيول لأصحاب المقابر المبكرة في جبانة الكرو، وأرجح الآراء أن «بمنخي» (بي) (٧٤٧-٧١٦ ق.م) إنما كان أول من دفن خيوله في الجبانة من ملوك الأسرة النبتوية، وأن دفن الخيول في الجبانة إنما ظهر فجأة في الجيل السادس، وربما السابع، من أصحاب هذه الجبانة.

والمعروف أن الآثاريين لم يعثروا حتى الآن على مدافن للخيول في مصر (٢٦)،

- =/=
- p. 117, VII, 184, 192, 1196, 273, 334 - 335. وكذا:
- A. Fakhry, Baharia Oasis, II, Cairo, 1942, p. 73 - 80. وكذا:
- A. J. Arkell, A History of The Sudan, from The Earliest Times to 1821, London, 1955, p. 117, 125 - 126
- (٢٥) محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق، ص ١٥٥، سليم حسن، مصر القديمة ١١٠ / ٤٦٠، وكذا:
- P. M, 7, p. 197. وكذا:
- S. Wenig, Africa in Antiquity, II, p. 51. وكذا:
- A. J. Arkell, op. cit., p. 127. وكذا:
- M. F. Laming Macadam, The Temples of Kawa, Oxford, 1949, I, p. 12. وكذا:

(٢٦) حرف الحصان في وادي النيل، وفي العراق القديم، فرما قبل عصر الهكسوس ويذهب «إمرى» إلى أنه، ذلك إنما كان منذ الدولة الوسطى حيث عثر عام ١٩٦٢م على هياكل خيول في منطقة «و»، دامت في الدولة الوسطى، وإن ذهب البعض إلى أنها ترجع إلى أيام الدولة الحديثة، كما

حتى يمكن القول أن بعنخى إنما قد نقل هذه العادة إلى النوبة - بعد أن استولى على مصر - بصفته أول ملك تنسب إليه مقابل خيول، وقد عرف عنه حبه للخيول - كما تشير إلى ذلك لوحة نصر، فضلاً عن النص الذي يوجه فيه الملوم للمدعو «نمرات» أمير الأشمونييين، عندما وجد الخيول تكاد تهلك (٢٧) جوعاً، ومن ثم فلا يمكن القول أن حب الخيل ظهر فجأة عند «بعنخى» أو أنه ورثه من أسلافه، وربما كان ذلك صفة شخصية في الرجل.

(٧) أورو - نارتي:

يقع حصن «أورو - نارتي» على مبعده ٢٠ كيلاً شمالي سمنة وقمة، ٥٠ كيلاً جنوبي وادي حلفا، وقد أقيم هذا الحصن في جزيرة «أورو - نارتي» (Uronarti) وسمى «القلعة التي تصد الإينو» أو التي تطرد القبائل، ويقع الآن عند قرية الملك الحالية.

وهناك لوحة عشر عليها في المنطقة عام ١٨٩٩م، تسجل أن «سنوسرت الثالث» هو الذي قام ببناء هذا الحصن، وإن كان بناؤه يشير إلى أنه قد صمم وبدئ في بنائه في عهد «سنوسرت الأول»، ويشبه تصميم الحصن بصفة عامة، مثلاً يميل إلى البطول، ذا ذيل طويل، مكوناً من جدار ضخم يصل إلى الجزء الشمالي من الجزيرة، ويشير وضع الأبراج في الناحية الغربية إلى أن خطر الهجوم إنما كان من هذه الجهة، وأما السور الخارجى الذى يحيط بالسور المثلث الصغير، ففيه الأبراج المربعة العادية وفي الركن الجنوبي حائط مستطيل تبرز من جوانبه

=/=

عشر «بتري» على دفنات اختلطت فيها هياكل الخيول مع الحمير مع الأدبيين في «تل المعجول» بجنوب فلسطين، غير أنه لم يعثر في مصر على أية دفن لحصان واحد، أو حتى لمظام من حصان، والأمر كذلك بالنسبة إلى المقوش التي ترجع إلى عصر الهكسوس - محمد بيومى مهران: حركات التحرير في مصر القديمة، ص ١٤١ - ١٤٢، عبد العزيز صالح، وكذا:

T. T. Save Soderbergh, op. cit., p. 59.

W. C. Hayes, op. cit., p.

وكذا:

(27) Urk., III, p. 3.

A. H. Grdiner, op. cit., p. 338.

وكذا:

أبراج مربعة، والمدخل الأساسى على شكل بوابة منزل ضخمة توجد فى وسط الجدار الجنوبى .

هذا وتنقسم المدينة الصغيرة إلى قسمين بطريق يؤدي بطريقة غير مباشرة إلى سلم طويل ينزل إلى بوابة مائية خارج الحصن، على الضفة الشرقية للجزيرة (٢٧).

(٨) النقعة:

تقع النقعة - أو النجعة - فى سهل البطانة، جنوبى شدى، وإلى الشمال قليلاً من الجندل السادس، وعلى بعد ١١٢ كيلاً شمالى الخرطوم، وقد وصلت إليها حدود مصر على أيام «أمنحوب الثانى» (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م) حيث بنى هناك معبدًا، كما وجد له تمثال جاث يحمل أنيتين على يديه، وإن كان من المحتمل كثيراً أن النفوذ المصرى قد وصل إلى أبعد من ذلك، هذا وقد عثر أيضاً بالنقعة على بناء فخم باسم الملكة «شاناكدختى» (١٧٠ - ١٦٠ ق.م) وجدت به نقوش مكتوبة بالهبروغليفيه المروية، وهى من أقدم ما عرف (٢٨).

(٩) بوهن:

تقع بوهن إلى الجنوب قليلاً من وادى حلفا - عبر النهر - وكانت منذ «الدولة الوسطى» (٢٠٥٢ - ١٧٨٦ ق.م) أحد مراكز السيادة المصرية فى السودان، ومركز نائب الملك فى كوش، وفى عام ١٩٦١ / ١٩٦٢م عثر فيها على مستوطنة ترجع إلى أيام الدولة القديمة (٣٢٠٠ - ٢٢٨٠ ق.م)، ألحقت بها مجموعة من أفران صهر النحاس، كما أن بها أكبر حطون النوبة فى الدولة الوسطى، وكانت المدينة تتكون من المساكن وتكنات الجيش ومصانع وقصر

(٢٧) والتر امري: المرجع السابق، ص ١٤٩ - ١٥٢، وكذا:

D. Dunham, Second Caract Forts, II, Uronarti, Shalok, Mirgisi, Boston,

W. C. Hayes, CAH, I, Part, 2, 1971, p. 507, 1967.

وكذا:

(٢٨) محمد بيومى مهران: مصر ١٣ / ٢٦٢، ج. لكلا: تاريخ أفريقيا، ص ٢٩١، وكذا:

B. G. Haycock, The kingship of Kush in the Sudan, 1954, p. 461 - 480.

الحاكم، وقد أظهرت الحفائر تخطيطاً للمدينة مستطيلة، ذات طرق معبدة، ونظام للصرف والمجارى، ومن ناحية النيل وجدت بوابتان كبيرتان فى الجدران، توصلان إلى رصيف حجري لرسو سفن الجزى والمحاصيل التجارية من النوبة، وبوابة ثالثة محصنة فى الجانب الغربى المواجه للصحراء، وقد احتلها الكوشيون على أيام الهكسوس ودمروا بعضاً منها، ثم أصلحها الملك «أحمس الأول» (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق. م) بعد طرد الهكسوس، وجعلها المدينة الرئيسية فى النوبة، وقد بنت «حتشبسوت» (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق. م) فيها معبداً، على أساسات معبد الدولة الوسطى، وقد أعاد «تخوتمس الأول» جدران حصون بوهن ودم السور السفلى والخندق، وغطاهما بطريق معبد من اللبن، يلتف حول البناء كله، ثم حفر خندقاً (٦ × ٢ م) على شكلٍ محيط طوله ميل، ومن ورائه شيدت الجدران التى شملت المدينة الجديدة (ارتفاعها ١٢ م وسمكها ٥ م) وتدخلها أبراج مستطيلة فى الواجهة الخارجية (٢٩).

ويمثل حصن بوهن - أكبر حصون النوبة العليا فى الدولة الوسطى - أفضل تلك الحصون التى قاومت البلى، وصمدت للزمن، فقد كانت تلك القلعة الجبارة تتكون من سلسلة مُعقدة من تحصينات داخل تحصينات مبنية على شكل مستطيل (١٧٢ × ١٦٠ م)، وتتكون نظامها الدفاعى من سور من الآجر (سمكها ٨، ٤ م، وارتفاعه ١٠ م)، وله أبراج على مسافات منتظمة، وفى أسفل هذا السور الرئيسى متراس مرصوص بالآجر، تحميه سلسلة معازل مستديرة، بها صفوف مزدوجة من فتحات الرمى (المزاغل)، ويحيط بالقلعة كلها خندق جاف محفور فى الأرض الصخرية الصلدة بعمق ٦، ٥ م، وعرض الخندق ٤، ٨ م، وقد تمت تعلية حافته البعيدة عن القلعة بسور من الآجر.

(٢٩) محمد يرمى مهران : مصر ٢٥٧ / ٢، وكذا:

W. B. Emery, Preliminary Reports on The Excavations at The Egypt Exploration Society at Buhen, Kush, VIII, 1960, 1961, X, 1962.

J. Vercoutter, Kush, 4, 1965, p. 77 - 78.

G. Reisner, JEA, 6, 1920, p. 29.

وكذا:

وقد ظلت هذه القلعة تؤدى دورها - كما سنرى - حتى أخريات الأسرة العشرين (١١٨٤ - ١٠٨٧ ق.م)، بل إن الحفريات قد أظهرت بقايا مستعمرة صغيرة من العصر المروى والمسيحي، فوق الجزء الجنوبي لمدينة من الدولة الحديثة^(٣٠). (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م)

هذا وقد بدأ «أحمس الأول» (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م) - كما أشرنا آنفاً - فى إصلاح قلعة بوهن التى كانت قد تعرضت للتخريب والنهب فى عصر الانتقال الثانى، وجعل منها المدينة الرئيسية فى مناطق النوبة التى استردها المصريون، هذا وملتقى هنا فى عهد أحمس الأول بالوالى المقبل، نائب الملك «تورى» قائد بوهن، والذى كان اسمه الحقيقى «أحمس» (عجموزة) وأن كلمة «تورى» ليست سوى «كنية» له، كما نلتقى كذلك حوالى هذه الفترة فى مدينة الكاب - على مبعده ١٩ كيلا شمالى إدفو، فى مقابل البصيلية عبر النهر - بلقب مبهم، هو «أول ابن للملك فى الكاب»، وإن كان من العسير علينا أن نربط بين هذا اللقب، وبين تعاقب ولاية النوبة فيما بعد، ولعل مما يشجع على هذا الرأى ما نشهده بعد قرنين فيما يتصل بمدينة «نخن» (البصيلية) - مقابل الكاب عبر النهر - من أنها تعرف بتقطة البدء الشمالية لإداراتهم^(٣١).

(٣٠) جيمس بيكى: المرجع السابق، ص ١٧٣ - ١٧٤، والنزاعرى: المرجع السابق، ص ١٠٤ - ١٠٦، تاريخ أفريقيا العام ١٩٢٨، ٢٥٢، ٢٥٩، محمد بيومى بهران: مصر ١٩٤٤، ١٣ / ٢٥٧.

وكدًا: J. Vercouter, Kush, 4, 1956, p. 77 - 78.

W. B. Emery, Egypt Exploration Society, Preliminary Report on The Excavations at Buhen, 1962, Kush, II, 1963, p. 116 - 120.

وكدًا: W. B. Emery, Kush, 8, 1960, p. 7 - 8.

A. W. Lawrence, Ancient Egyptian Fortifications, JEA, 51, 1965, p. 69 F.

(٣١) جيمس بيكى: المرجع السابق، ص ٢٩٨ - ٢٩٩، محمد بيومى بهران: المرجع السابق، ص ٢٠٨، وكدًا:

T. Save-Soderbergh, Aegypten und Nubia, Lund, 1941, p. 141 - 142.

هذا وقد عثر فى «فرس» على قطع حجرية لمعبد بناه الفرعون هناك، كما
تنسب إليه الترميمات التى تمت فى معبد حصن بوهن من عصر حتشبسوت، إلى
جانب لوحة كبيرة مائززال فى فناء معبد بوهن هذا، سجل عليها الحاكم «حى»
انتصارات الفرعون (٣٢).

هذا وهناك لإكتشافات الحديثة فى عام ١٩٦٢م فى بوهن، التى تشير -
كما أشرنا من قبل - إلى وجود مستعمرة مصرية هناك على أيام الدولة القديمة،
كان من أهم صناعاتها هناك تشغبل النحاس، كما تشير إلى ذلك أفران الصهر،
وبقايا خام النحاس هناك، الأمر الذى يدل على وجود خام النحاس هناك فى مكان
ما من تلك المنطقة، وأنه من نوع متفوق على غيره من الأماكن الأخرى فى مصر
والسودان، وتدل الدراسة العلمية لعينات من نحاس بوهن فى المدرسة الملكية
للتعدين فى لندن، فضلاً عن معلوماتنا عن علم التعدين، أن رواسب النحاس التى
ظهرت فى مصر، وفى التوبة السفلى، إنما ترجع وجود مصدر لخام النحاس فى
بوهن، وقد عثر «والتر امرى» على كميات من نحاس غير مصهور على مقربة من
ثلاثة أفراد لصهر النحاس فى بوهن، وأنها تقع على الضفة الشرقية للنيل، ومن
الناحية الكيميائية، فإن أبرز الملامح المميزة لخام نحاس بوهن أن به نسبة عالية من
الذهب (٣٣).

=/=

- A. H. Gardiner, op. cit., p. 170. وكذا:
T. G. H. James, op. cit., p. 298 - 299. وكذا:
W. B. Emery, Kush, 7, 1959, p. 7 - 14, 8, 1960, p. 7 - 10. وكذا:
ASAE, 10, p. 193 F. وكذا:
J. H. Breasted, op. cit., II, p. 8 - 9. وكذا:
J. Vercoutter, Kush, 4, 1956, p. 77 - 78. وكذا:
(٣٢) والتر امرى: المرجع السابق، ص ١٩٥، جيمس بيكى: المرجع السابق، ص ١٥٢ - ١٥٣،
تاريخ أفريقيا، ص ٢٧٠، وكذا:

- B. G. Trigger, op. cit., p. 110.
(33) W. B. Emery, Kush, II, 1963, p. 116 - 120.
El-Sayed El-Gayar, JEA, 65, 1989, p. 31 - 32.

وقد عثر على دليل أفضل يقدمه لنا «معبد أحمس في بوهن» حيث يحمل المدخل الباقي منه اسم «أحمس»، واسم أمه «إيمح حوتب»، فضلاً عن نص نذرى أضيق توتير، (Tjuroy) حاكم بوهن، وإن لم يبق لنا شيئاً من آثار في منطقة القلعة التي ترجع إلى أيامه. وجه اليقين، وأكبر الظن أن الفرعون لم يعد، أو لم يكن بقادر على أن يمد فتوحاته إلى تيسرب بعيداً عن بوهن، بأكثر من ١٩٠ كيلاً، حيث وجدت آثار تحمل اسمه واسم زوجته (٢٤).

(١٠) بعصة : (Basa)

تقع في وادي اليهود، رابها نجا كبير محاط بتمائيل أسود حجرية، وتتميز بأن تخطيطها كان دقيقاً، يتفق وتضاريس الأرض التي كانت منقطعة وقت ذلك بالأعشاب والأشجار (٣٥).

(١١) بناجه = بناقا = وادي بناقا:

يقع على مبعده ٤٠ كيلاً جنوبي شندی، وهناك ما يشير إلى أنه كان مركزاً هاماً للقوافل، حيث عثر على خزانات للمياه، كما عثر على إطلال معبدین، كما أظهرت الحفائر أخيراً مبنى ضخماً، ربما كان قصرأ، وآخر في شكل خلية النحل، ربما كان صومعة كبيرة للجلال، كما يشير موقع المدينة إلى أنها ربما كانت مقراً لسبكني «الكندكات» (الملكات الحاكمات)، كما كان ميناء نهرياً.

(١٢) جبل البرقل:

جبل البرقل أو البركل: يقع على الشاطئ الشرقي للنيل، على مدى بضعة أميال من كريمة، ويقابله على الضفة الغربية للنيل مدينة «أبانا» (نبته) ويسمى

(34) G. A. Reisner, JEA, 6, 1920, p. 29.

J. Vercoutter, Kush, 4, 1956, p. 77 - 78.

T. G. H. Jamer, op. cit., p. 289.

A. H. Gardiner, op. cit., p. 170.

B. G. Trigger, op. cit., p. 107 - 108.

J. Vercoutter, Excavations at Sai, 1955 - 1957, in Kush, 6, 1958,

p. 114 - 169.

(٣٥) أحمد محمد الحاكم: تاريخ أفريقيا، ص (٢١٩).

جبل البرقل فى المصرىة القديمة «الجبل المقدس» (جو - وعب = دو - واعب) فقد اعتبرته نصوص الدولة الحديثة جبلاً طاهراً، وعرشاً لآمون رع، وقد أقيم فيه معبد آمون الكبير، حيث وضعت نواته الأولى على أيام الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م.)، ثم قام «بعنخى» بإعادة بنائه وتوسيع قاعانه، ليكون على غرار معابد آمون الكبرى فى شمال الوادى ثم أقيمت على جانبيه المدخل ستة تماثيل جرانيتية المكباش - رمز آمون المقدس - وهى تحتضن تماثيل صغيرة للملك «أمنحب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) نقلها «بعنخى» من صولب إلى نبتة، وتكرر البوابات الضخمة التى تصل بين قاعات المعبد المتعددة، قبل الوصول إلى قدس الأقداس، حيث كان يقوم تمثال المعبود آمون، الذى لم يبق منه سوى قاعدته الحجرية التى كانت تحمل التمثال.

ونظراً لأن القوم قد اعتادوا إقامة النصب الحجرية التى تدون عليها الأحداث الهامة فى المعابد، بغية تخليد أصحابها، ومن ثم فقد عثر فى معبد آمون على عدة ألواح، منها لوح بعنخى (لوح النصر) ولوح «تانونت أمانى» (لوح الحلم)، ولوح الملك «حور سيوقف»، ولوح الملكة «سخمخ» (٣٦).

هذا وقد شيد «تخونمس الثالث» لوحة فى برقل تسجل أن حدوده الجنوبية وصلت إلى «قرون الأرض» the Horn of the Earth، وهى منطقة جنوبية الجندل الرابع، مازلنا نجهل مكانها (٣٧).

(36) PM, VII, p. 215 F G. A. Reisner, ZAS, 66, 1931, p. 89 - 100 Urk, III, p. 1 J. H. Breasted, ARE, IV, Parag. 796 - 883, E. Drioton et J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, p. 537.

(٣٧) محمد بيومى مهران ٧٣/٣، سليم حسن. مصر القديمة ١٤ / ٤٧٠ - ٤٩٨ وكذا :

A. J. Arkell, op.cit, p. 88- 89.

R.A.Camions, Kush, 12, 1964, p. 85.

B.G.Trigger, op.cit, p. 72.

G.A.Reisner, SNR, 12, 1929, p. 143 - 161.

E.A.W.Budge, op.cit, p. 59, 135.

W.M.F.Petrie, A History of Egypt, II, p. 99, 126-128, 137, 140.

J.H.Breasted, ARE, II, P. 249-257.

=

وهناك في «كلابشة» في النوبة السفلى، كان يشاهد تمثال للفرعون على مقربة من المرسى النودى إلى معبد أغسطس، موحيا بأن الفرعون قد شيد جزءا من المعبد القديم، وربما شيد كذلك معبدا في «قورته»، وعلى أية حال، فهناك - حتى منتصف القرن الماضى - كانت توجد في قورته بوابة نقش عليها اسمه، كما أنه نحت في الصخر معبدا في «الليسية» - على مبعده كيلومتر من أهريم، خصصه لعبادة «حور» و «ددو» و «ستوسرت الثالث» وهو معبد صغير جداً، مكون من حجرة واحدة، بها كوة صغيرة، وقد زينت واجهته بعدة نقوش، فضلاً عن لوح يؤرخ بناء المعبد بالعام الثالث والأربعين، من حكم الفرعون، وقد منحته مصر لإيطاليا، وهو الآن مقام في المتحف المصرى فى تورين، وهناك فى «ميعام» - وهى عنيبة على مبعده ٢٢٤ كيلا جنوبى سد أسوان - لوحة من العام الخمسين من الحكم، يظهر الفرعون فيها أمام «حور ميعام» والالهة «ساتيس»، وهناك فى قصر أهريم أربع مقصورات منحوتة فى الصخر، ثنتان منها ترجع إلى عصر تحتمس الثالث، وإن كانتا فى الأصل من عهد آخر، أحدهما للحاكم «نحى»، والثانية ترجع إلى عصر «حشيسوت».

هذا وقد عثر فى «فرس» على قطع حجرية لمعبد بناه الفرعون هناك، كما تنسب إليه الترميمات التى تمت فى معبد حصن بوهن هذا سجل عليها الحاكم «نحى» انتصارات الفرعون (٣٨).

L.D.III. Pls. 7, 26-28, 37-38, 45, 65	=	ركنا
(٢٨) محمد بيومى مهران ٧٣/٢، سليم حسن: مصر القديمة ٤٧٠/٤-٤٩٨، وكنا		
A. J. Arckell, op.cit, p. 88- 89.		ركنا
R.A.Camions, Kush, 12, 1964, p. 85.		ركنا
B.G.Trigger, op.cit, p. 72.		ركنا
G.A.Reisener, SNR, 12, 1929, p. 143 - 161.		ركنا
E.A.W.Budge, op.cit, p. 59, 135.		ركنا
W.M.F.Petrie, A History of Egypt, II, p. 99, 126-128, 137, 140.		ركنا
J.H.Breasted, ARE, II, P. 249-257.		ركنا
L.D.III. Pls. 7, 26-28, 37-38, 45, 6		ركنا

هذا وربما كان «سيتى الأول» هو الذى أسس معبد آمون فى جبل البرقل -
ويسمى فى المصرية «الجبل المقدس» (جو - وعب = دو - واعب)، حيث
اعتبرته نصوص الدولة الحديثة جبلاً طاهراً، وعرشاً لآمون طيبة - ويقع هذا الجبل
على الضفة الشرقية للنيل، على مدى بضعة أميال من «كريمة»، ويقابله على
الضفة الغربية للنيل مدينة «بناتا» (٣٩).

وهناك فى معبد آمون الكبير (ب ٥٠٠) فى جبل البرقل، قاعدة من
الجرانيت، الأشهب، ما تزال قائمة فى مكانها، كانت مخصصة لحمل تماثيل
الإله آمون، داخل مقصورته الذهبية، وتحمل القاعدة إسم الملك طهراقا ولقبه
بحجم كبير (طهراقا، نفرتم، خورع) وسط نقش يمثل وادى النيل عبارة عن
صورتين لإله النيل، الواحدة: تمثل نيل الشمال، والأخرى: تمثل نيل الجنوب،
يقومان بشد حمل، لعقد رمز الرحدة، وهو يمثل الرنتين والقصبه الهوائية، وكانت
النوبة على أيام الرعامسة تتكون من قسمين، الواحد: النوبة السفلى أو «اواوات»،
وتمتد من جنوب «أبو» (يب - اليفانتين - جزيرة أسوان)، وحتى سمنا، عند
الجنبدل الثانى، وعاصمتها «عنية» (ميمام) - على مبعده ٢٢٤ كيلا جنوبى سد
أسوان - والآخر: النوبة العليا أو «كوش» (كاش)، وعاصمتها «عمارة غرب» -
على مبعده ١٨٠ كيلا جنوبى وادى حلفا - كما كانت مصر قد نجحت فى
توطيد سلطانتها تماما فى النوبة منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة (٤٠).

(٣٩) محمد بيومى مهران: مصر ٢٧٠/٣، ٢٨٢/٣ نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق من
٢٧٢، وكذا:

A.J.Arkel, op-cit, p. 112.

B.G.Trigger, op.cit, p. 111, 126, 129.

J.Vercoutter, op.cit,p. 77 - 79.

W.B.Emery, op.cit, p. 95.

H.W.Fariman, JEA, 24, 1938, p. 151 - 156, 25, 1939, p. 139-
144, 34, 1948, p. 1-11.

(٤٠) محمد بيومى مهران: مصر ٢٦٩/٣ - ٢٧٠.

A.J.Arkel, op.cit. وكذا

B.G.Trigger, op.cit, p. 111. وكذا

هذا وقد عثر في جبل البرقل على لوحة بفتحى (Puya = Py = بي) الأولى، والتي تسمى «لوحة النصر»، ومحفوظة الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة (برقم ٤٨٨٦٢)، وقد غطيت اللوحة بالنقوش الهيروغليفية من جوانبها الأربعة، وهى من الجرانيت الرمادى، وجزؤها الأعلى مستدير، وارتفاعها ١٨٠ سم وعرضها ١٨٤ سم، وسمكها ٤٣ سم، وقد كشف عنها - مع أربع لوحات أخرى - ضابط مصرى غير معروف فى عام ١٨٦٢م، كان يعمل فى الجيش المصرى فى السودان على أيام الوالى «سعيد باشا» (١٨٥٤ - ١٨٦٣م).

ويرجع تاريخ لوحة البرقل إلى العام الحادى والعشرين من حكم الملك «بعنخى» (٧٤٧ - ٧١٦ ق.م)، وقد مثل على قمته قرص الشمس غير المنح، يخرج منه صلان، وأسفله المعبود «آمون» قاعدا، وتقف خلفه «موت» ربة «أشروس»، وأمامها بقف «بعنخى» وقد وضع فى منطقته خنجرا، ويرتدى قميصا يصل إلى ركبتيه، وتتقدم امرأة إلى الملك «بعنخى» رافعة يدها اليمنى، وأكبر الظن أنها زوج «نمرات» الذى مثل واضعا الصل على جبينه، ويقود بيده اليسرى جوادا، وتقبض يده اليسرى على صنابه، وقد مثل على قمة اللوحة ثلاثة ملوك آخرون يقبلون الأرض أمام بعنخى.

هذا وقد قام مكتشف اللوحة - الضابط المصرى غير المعروف - بنقل نقوشها، ثم أرسل منها نسخة إلى «أوجست فرديناند فرانسوا مارييت» (١٨٢١ - ١٨٨١م) مدير مصلحة الآثار المصرية (١٨٥٨ - ١٨٨١م) فى القاهرة، والذى سرعان ما أدرك أهمية اللوحة، ومن ثم فقد أمر بإرسالها إلى القاهرة فوراً لتكون فى ملكية الحكومة المصرية، وهكذا أقلعت سفينة من مدينة «مروى» إلى القاهرة، حاملة اللوحة، فوصلتها فى عام ١٨٦٢م ثم عكف «مارييت» على ترجمة النسخة التى أرسلت إليه فى عام ١٨٦٣م، ثم أعلن عن هذا الكشف إلى الأكاديمية الفرنسية للفنون والآداب^(٤١).

(41) Letter de M. Auguste Mariette au Comte de Rougé sur une Stele Trouvée a Gebel Barkal in Comptes Rendus, Tom., VII, p. 119, F.

هذا وقد أرسل «ماريت» نسخة من النقش إلى «دي روجيه» مع رسالة لخص فيها النتيجة التاريخية التي اعتقد أنه يمكن استخلاصها من فحص سريع، ثم طلب منه أن يقوم بترجمة كاملة لهذا النقش^(٤٢)، وقد حاول «دي روجيه» ترجمة النص - طبقاً لنسخة الضابط المصري - وإن عاقته بعض الصعوبات التي استلزمت ضرورة اطلاعه على النص الأصلي، الذي كان على درجة كبيرة من الصعوبة، ثم نشر الترجمة في مقال عام ١٨٦٣ م^(٤٣).

ومنذ ذلك الحين، بدأ علماء المصريات في إعادة ترجمة اللوحة وتحليلها قام بذلك «كوك» في عام ١٨٧٣ م^(٤٤)، «جريفث»^(٤٥)، ثم «برستد» عام ١٩٠٧ م^(٤٦)، وكذلك «بُدج» في نفس العام^(٤٧).

وفي عام ١٩٣٥ م قام «سير ألن هندرسون جاردينر» (١٨٧٩ - ١٩٦٣ م) بترجمة وتنقيح بعض فقرات نص هذه اللوحة^(٤٨)، وفي عام ١٩٥٦ م قام العالم المصري الدكتور «سليم حسن» (١٨٩١ - ١٩٦١) بترجمة اللوحة إلى اللغة العربية^(٤٩)، وفي عام ١٩٧٩ م قدم «أنتون سبلنجر» تحليلاً عسكرياً للوحة^(٥٠) كما عني بنفس الجوانب العسكرية «ديتركلير» فنشر عنها دراسة

(42) RA, Part, I, 1863, p. 413.

(43) De Rouge, L'Inscription Historique de Roi Piankhi-Meriamoun, in RA, Part, 2, 1863, p. 94F, With a Plate.

(44) S.Cook, The Inscription of Piankhi-Meriamon, King of Egypt in The Eighth Century B.C. London, 1873, p. 79 - 104.

(45) F.L. Griffith, Egyptian Literature (in Specimen Pages of a Library of The World's best Literature) p. 5274-5295.

(46) J.H.Breasted, ARE, IV, Chicago, 1907, Parag. 796 - 883, p. 406 - 444.

(47) E.A.W. Budge, The Egyptian Sudan, Its History and Monuments, II, London, 1907, p. 11- 26.

(48) A.H.Gardiner, in JEA, 21, 1935, p. 219-223.

(٤٩) سليم حسن: مصر القديمة ١٠١١ - ٣٤

(50) A.Spalingner, The Military Background of The Campaign of Piye (Piankly), SAK, Band, 7, 1979, p. 273 - 301.

عام ١٩٨١م (٥١).

هذا وقد أكمل «نيكولاس جريمال» جهود السابقين بأن ضمن ترجمته بعض القطع الناقصة من اللوحة، والتي عثر عليها «الوكيانوف» عام ١٩٢٦م، ثم قدم لنا بعد ذلك دراسة وافية عن اللوحة، مع ترجمة كاملة للنص الهيروغليفي (٥٢).

وعلى أية حال، فلارهب في أن لوحة جبل البرقل هذه إنما هي مصدر تاريخي وجغرافي لهذه الفترة، فهي تحمل واحدا من أطول النصوص، وأكثرها تفصيلا، فهو يحتوى على ١٥٩ سطرا من الخط الهيروغليفي يصف احتفالات الملك بعنخى، واستعداداته ومراحل حروبه مع الليبيين المتمصرين الذين يسيطرون على وسط وشمال مصر.

هذا وقد تحدثت اللوحة عن أغلب مدن مصر - سواء أكانت في الصعيد أو الدلتا - فهي مثلا تقدم لنا ١٩ مدينة محصنة على امتداد ٢٦٦ كيلا، على طول نهر النيل، من مصر الوسطى وحتى الدلتا - أى بمعدل مدينة لكل ١٤ كيلا (٥٣).

وهناك لوحة بعنخى الثانية، وهي محفوظة الآن بمتحف الخرطوم (رقم ١٨٥١)، وقد عثر عليها «جورج أندرو راينز» (١٨٦٧-١٩٤٢م) عام ١٩٢٠م في جبل البرقل أيضا، وذلك في فاعة العمد (B 501) (عرضها ١٢٣ سم، وطولها ١٣٠ سم)، وإن كان هناك ما يشير إلى أنها كانت أعلى من ذلك، لأن الجزء الأسفل منها قد كسر، ولم يعثر عليه للآن، وأكبر الظن أنها قد نصبت أولا أمام البوابة الثانية، قبل بناء القاعة (B 501).

(51) Dieter Kessler, Zu den Feldzogen des Tefnachte, Namlot und Piye in Mittelagypten, SAK, Band, 9, 1981, p. 227 - 250.

(52) G.N.C. Grimal, La Stele Triomphale de Pi, au Meusee du Caire (JE 48862 et 47086-47089), Etudes sur La Propagande Oyalegyptienne, David O'connor, New Kinkdom and Third Intermediate Period, 1552-664 B.C., in AESH, p. 232.

(53) BIFAO, 105, 1981.

هذا ويتوج قمة اللوحة قرص الشمس المنحج الذي يكتنفه صلان، وقد مثل الإله آمون برأس كيش قاعدا على العرش، وقد مد يده اليسرى إلى الملك مقدا له تاج مصر السفلى، وفي يده اليمنى لباس رأس مزود بصل، وتقف خلفه المعودة «موت»، وخلفها ولدهما «خونسو» وفي مواجهة آمون تقف شخصية صغيرة تمثل نباتا، على رأسه تاج كوش، ويقدم قلادتان منهما واحدة صدرية إلى آمون، وقد اشتملت اللوحة على ٣٠ سطرا.

ويذهب «رايزنر»^(٥٤) - الذي نشر اللوحة - إلى أن اسم الملك الذي وجد مطموما، داخل الخرطوش الوحيد في اللوحة، يمكن قراءته - على وجه اليقين - «بعنخي»، وأما تاريخ اللوحة فيرجع إلى فترة ما قبل استيلائه على مصر، ومن ثم فهي تتحدث عن أهداف بعنخي من استيلائه على مصر، فضلا عن أنه اعتبر نفسه مصدر السلطات، وصاحب الحق في تعيين الملوك.

هذا وتصف هذه اللوحة النظام الفيدرالي لإمبراطورية كوش، مع إعلان سيادة آمون، ويقول بعنخي: «لقد منحني آمون نباتا السيادة على كل الناس، فمن أقول له: أنت ملك، يصبح ملكا، ومن أقول له: أنت لست بملك، لا يصبح ملكا، لقد منحني آمون طيبة السيادة على مصر، فمن أقول له: تتوج ملكا، يتوج ملكا، ومن أقول له: لا تتوج ملكا، لا يتوج ملكا، إن الآلهة تتوج الملوك، كما أن الناس يتوجون الملوك، أما أنا فقد توجني آمون»^(٥٥).

هذا وقد عثر في جبل برقل - مع لوحى بعنخي - على لوح ضخم محفوظ الآن بالمتحف المصرى برقم ٤٨٨٦٣) يحمل اسم وصورة الملك «تانتوت أمان»، عرف عند الآثاريين باسم «لوح الحلم»^(٥٦)، وقد سجلت عليه نفس الأحداث

(54) G.A.Resner, Inscribed Monuments from Gebel Barkal, The Sandstone Stela of Piankhy, No. 26, in ZAS, 66, 1931, p. 89 - 100, and Plate BV.

(٥٥) ج. لكان: تاريخ أفريقيا ص ٢٨٢، سليم حسن: مصر القديمة ٦٨/١١ - ٧١، عادل سيد مصطفى. دراسة تاريخية وحصارية للأسرة الرابعة والعشرين في مصر الفرعونية - الاسكندرية ١٩٩٠ ص ١٧-١٨.

(56) J.H. Breasted, ARE, IV, p. 469 - 473.

=

التي سجلتها الرقم الإسطوانية المسمارية⁽⁵⁷⁾، ولكننا نجد أنه من الصعوبة بمكان أن نلتقى بتناقض أشد مما نلتقى به عند عرض الإثنتين، فكلماتهما عن قصة النصر، ولكن المنتصر في الواحدة «أشوربانيبال» وفي الأخرى «تاتوت أمون»، والذي يروى أن «تاتوت أمون» رأى في السنة الأولى من حكمه حلما جاء فيه، أن نعبانيين كان أحدهما على يمينته، والآخر عن يساره، وقد فسر له الحكم على الوجه التالي:

«مصر العليا تخصك فخذ لنفسك مصر السفلى، رتنا الصل والعقاب ظهرتا على رأسك، أعطيت لك الأرض طولا وعرضا، وسوف لا يشترك معك أحد فيها».

«وعندئذ اعتلى تاتوت أمون عرش حور في هذه السنة، وخرج من «خميمس» (مكان في وسط مستنقعات الدلتا حيث أمضى حور طموخته) وتقدم إلى نبتة دون أن يعترضه أحد، وأقام هناك عيدا كبيرا لآمون رع، ثم قدم ولاءً مماثلا لخنوم في إليفانتين، ولآمون رع في طيبة، وقوبل بالترحاب في كل مكان في طريقه إلى منف بفرح كبير، وكذا عند وصوله إلى العاصمة الشمالية⁽⁵⁸⁾.

(١٣) دنقله المعجوز:

نقع دنقله المعجوز (دنقلة القديمة) على الضفة الغربية للنيل، قريبا من كريمة في مقابل «مروعا» عبر النهر (وهي غير دنقلة الحديثة أو دنقلة العرضي)، وقد قامت بها مملكة في القرن السادس الميلادي، امتدت رقعتها من الجندل الثاني وحتى «مروي» القديمة (البحرارية الحالية) - على مبعده ٢١٣ كيلا شمالي الخرطوم - وكانت دنقلة هي العاصمة، وسميت هذه المملكة في عصر لاحق «مكوريا» (Makuria) وهي «المقرة» في العربية، وقد كشفت بعثة الآثار البولندية منذ عام ١٩٦٤م عن أربع كنائس وعن القصر الملكي في دنقلة المعجوز، كما

وكتا H.Schafer, Urk, III, p. 57 - 77.

وكتا PM, 7, p. 218 - 218.

وكتا A.J.Arkell, op.cit, p. 134 F.

(57) A.L.Oppenheim, ANET, 1966, p. 293

(58) A.H.Gardiner, op.cit, p. 348.

عشر على أقدم كنيسة بنيت بالطوب اللبن، وقد وجد بها - غير الكاتدرائية -
خمسة صحنون، وهي تتركز على ٦٠ عمودا من الجرانيت.

وفى القرن السادس الميلادى أصبح فى النوبة ثلاثة ممالك (مملكة النوبة
الشمالية، وعاصمتها فرس، ومملكة النوبة الوسطى وعاصمتها المقر، والنوبة
الجنوبية وعاصمتها سوبا). وفى عهد الملك «مرقوريوس» الذى تولى الحكم عام
٦٩٧ م توحدت الممالك الثلاثة، واتخذت من دنقلة عاصمة لها (٥٩).

(١٤) صاى = صاى:

صاى = صاى: هى «شعاع القديمة» وتقع على مبعده ١٩٠ كيلا جنوبى بوهرن،
وقد عشر فيها على آثار شيلية وأشولية، وعلى تمثال للملك «أحمس الأول»
(١٥٧٥-١٥٥٠ ق.م) مما يشير إلى وصوله إليها عندما استرجع النوبة بعد طرد
الهكسوس، كما عشر على لوحة بها الألقاب الملكية الكاملة للملك «أمنحنب
الأول» (١٥٥٠ - ١٥٢٨ ق.م) وكذا تمثالين ولوحين صغيرين عليهما اسمه،
كما بنى بها «تخونمس الأول» (١٥٢٨ - ١٥١٠ ق.م) حصنا، وبنى «تخونمس
الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) معبدا (٦٠).

هذا وقد عشر على تمثال، رأسه محفوظ الآن بمتحف الخرطوم برقم
(٢٨٢٨) يحمل إسم «أحدس»، فضلا عن كتلة حجرية تحمل لإسم زوجه
«أحمس نفرتارى»، هذا ويفترض أن أمنس الأول بنى أول معابد الدولة الحديثة
فى «صاى» (صاى - شعاع القديمة)، ومع ذلك فربما كانت هذه القطع الأثرية
من معبد يرجع إلى تاريخ متأخر، بناء أحد خلفاء أحمس.

(٥٩) ميخالوفيسكى: تاريخ أفريقيا من ٣٣٦، وكلائ، M.Martens, CAMAP, VII, 1973, p. 263 - 271, K.Michalowski, Polish Excavations at Old Dongola, Kush, XIV, p. 189 - 299.

(٦٠) محمد يوسى مهران: مصر، J.Vercouter, Excavations at Sai, Kush, Vi, p. 144 - 169, T.Save-Soderbrgh, Aegypten und Nubia, 1941, p. 145- 146.

(١٥) سدحجا:

سدحجا (صادنقة): تقع على مبعدة ٢٠ كيلا شمالي صولب، ١٠٩ كيلا شمالي الجندل الثالث، ٢٤٥ كيلا جنوبي وادي حلفاء، وقد شيد فيها «أمنحوب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) لزوجه الملكة «تي» أجمل معابد السودان، وما تزال بقاياها - رغم تدهورها - تشير الإنتباه، ولا بد أنه كان عند بنائه يضارع معابد الأقصر العظيمة، وكان الطريق الموصل من النيل إلى المعبد تحده من جانبيه تماثيل جرانيتية لكباش وأسدين يعتبران من الكنوز الفنية في المتحف البريطاني، وقد عثر عليها في «برقل» حيث نقلها ملوك الأسرة الخامسة والعشرين.

(١٦) سرس:

تقع سرس (Saras) شمالي سمنة وقمة، وبها حصن كان يسمى «قارع البلاد» ويعرف الآن باسم «شالفاك» (Shelfak) ويشبه حصن «أورو - نارتى» في الشكل، وإن كان أصغر منه حجما، هذا ويحيط بالمدينة سور يتكون من جدارين، تعلوهما أبراج، وجدار طويل يمتد إلى مسافة بعيدة نحو الشمال الشرقي، وقد كانت واجهة هذا الجدار الطويل المواجهة للصحراء هي الأكثر تحصينا - كما هو الحال في حصن «أورو - نارتى» - ويمتد من الشمال والجنوب جداران آخران صغيران، أما البوابة العظيمة فتقع في الواجهة الغربية^(١).

(١٧) سرة:

وتقع «سرة» - أوسيرا - (تخ نخت القديمة) - على مبعدة ١٥ كيلا شمالي وادي حلفاء.

وكان «جحوثى» - حنب - ويحمل لقب «با أتيس» حاكم «تخوت» - سيرة» على أيام الملكة «حتشبسوت» (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م)، وكان والده أيضا حاكما للمنطقة، مما يدل على أن هذا المنصب كان وراثيا، هذا فضلا عن أن كلا من الأب والابن إنما يحمل إسماء محليا، بينما حملت الزوجة وأخو الأمير إسمين

(١) والتر امري، المرجع السابق ص ١٥٢، محمد يومي مهران، المرجع السابق ص ٤٠٤

مصريين، الأمر الذى يحمل إشارة ضمنية إلى سرعة الأخذ بأسباب الحضارة المصرية المتقدمة، والتي أصبحت طابع العصر وقت ذاك.

هذا وقد عثر على مقبرة «جحوتى - حتب»، على بعدة كيلو ونصف شرقى النيل فى قرية «دييرة» - على بعدة ٢٠ كيلا شمالى وادى حلفا - منحوتة فى تل من الحجر الجيرى، وقد تم تخفيفها وزخرفتها بطريقة مصرية تماما^(١)، وتصور مناظرها الأمير «جحوتى - حتب»، وهو يتفقد العمل فى مزرعته، أو يتلقى فروض الطاعة من أقبانه على الطريقة المصرية أو يمارس القنص بالقوس والسهم فى مركبة يجرها حصان، أو هو يستمتع بمأدبة بين ضيوفه، ولم لم يكن قد نقش إسمه النبى «بأبتيس»، بالإضافة إلى اسمه المصرى «جحوتى - حتب»، لاستحالة تمييزه عن أى أمير مصرى من نبلاء الدولة الحديثة - كما أشرنا من قبل - هذا وتوجد على باب المقبرة نقوش تمثل الإله «حور» وربما المعبودة «حاتحور» سيدة فرس و«أنوبيس» إله مدينة الموتى، ذو رأس «ابن آوى»^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مشاركة الأمراء النوبيين فى إدارة بلادهم على أيام الدولة الحديثة، إنما قد ساعد على استمرار ازدهار بيوتات الإمارة فى كثير من مناطق شمالى السودان، تلك الإمارة التى وصلت فعلا إلى درجة من التقدم الحضارى منذ نهاية الدولة الوسطى، وأخذت تنقل عن الحضارة المصرية طوال أيام الدولة الحديثة، لتعد نفسها لدور قيادى فى حياة هذا الوادى، تنقذ فيه الوادى كله من خطر الإنهيار الحضارى، فضلا عن خطر الغزو الذى قدم من الغرب ثم من الشرق.

(1) T.Save-Soderbergh, The Paintings in The Tomb of Djehutyhetep at Debeira, Kush, 8, 1960, p. 25 - 44.

(٢) محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق من ٨٤، نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق من ٢٧٧ - ٢٧٩، وكذا

H.Wild, in Kush, 7, 1959 p. 76F.

T.Save - Soderbergy, op,cit, p. 30.

H.T.Thabit, Tomb of Duehuty- Hetep (Tehuti - Hetep) Prince of Semna, Kush, 5, 1957, p.81 - 86.

JEA, 39, 1953, p. 42.

هذا وتشير أسماء حكام النوبة (نواب الملك في كوش) إلى أنها مصرية الجرس، ومن ثم فهم مصريون، غير أن هذا لا يمنع من القول بأن منهم من كانوا من أبناء النوبة، من أولئك الذين استطاعوا - بمهارتهم وصدق ولائهم - أن يتبوأوا هذا المنصب الخطير^(٣).

بقيت الإشارة إلى أن نخوتس الثالث قد عبد في سره، بصفته «معبود سره» (ع نخت).

وهناك في «سره» معبد لرعمسيس الثاني أقيم لصورته الحية في بلاد النوبة، وأطلق عليه «وسر ماعت رع، سام في قوته»، مما يشير إلى أن الفرعون نفسه كان معبودا في هذا المعبد.

(١٨) سمنة:

سمنة: وتقع على مبعدة ٧٠ كيلا جنوبي وادي حلفاء، ٢٠ كيلا جنوب حصن «أورو - نازي»، وفيها حصن يدعى «خع كا ورع - المجل - قوى» على الضفة الغربية للنيل، والحصن يقف مهيمنا على النيل، مع الحصن التوأم «قحة» (كحة) على الشاطئ الشرقي، فالنيل في هذه المنطقة يشق طريقه في جبل من الصخر القوي في أضيق منطقة للجندل الثاني، والحصن بديء في بنائه في عهد الملك «سنوسرت الأول» (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م) وأتمه «سنوسرت الثالث»، كما ينسب إلى «أمنمحات الأول» بناء حصن في سمنة أيضا، كما بنى «سنوسرت الثالث» معبدا من الطين في سمنة، وهو الذي أجد تشييده «نخوتس الثالث» بالحجر لإله النوبي «ديدون» و«خنوم» والملك المؤله «سنوسرت الثالث»، وهو أكثر المعابد القائمة وحدها صموداً أمام السلي منذ ما قبل البطالمة في وادي النيل بأسره.

وهناك نقش في سمنة من العام الثامن من حكم «سنوسرت الثالث» يتحدث عن الإحصاءات المشددة التي اتخذت لمنع تسرب التوبييز نحو الشمال، وقد جاء في (الحمد الجنوبي) الذي أقيم في العام الثامن من حكم ملك مصر العليا والسفلى، «نخو كا ورع»، سنوسرت (الثالث)، الذي يعطي الحياة أبدا، لمنع أي

(٣) محمد إبراهيم بركات المرجع السابق ص ٨٧.

«نوبى» من المرور شمالا - برا أو بقارب - وكذا قطعان ماشية التوبيين ، ماعدا أولئك الذين يأتون للتجارة فى «ايكن» - على مبعده ٤٠ كيلا شمالى حصن سمنة - أو لعمل مشروع يتفق عليه فسوف يقدم لهم كل شىء ضيب، على ألا يسمح لأية مقينة بأن تعبر «سمنة» (حج) نحو الشمال» .

ولعل من الجدير بالإشارة الى انتشار عبادة الملوك فى النوبة (السودان) - كما وجدت فى مصر على استيحاء، ربما لأسباب سياسية ، على أية حال، فلقد بدأت منذ أيام «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م) حيث عبد «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨-١٨٤٣ ق.م) بصفته الإله الحامى للنوبة، وربما لم يكن تخوتمس الثالث مبتدعا، فى تأليهه «سنوسرت الثالث»، وإنما كان متبعا، فلقد عثر على طوابع أختام فى «أورو- نارنى» - على مبعده ٢٠ كيلا شمالى سمنة، ٥٠ كيلا جنوبى وادى حلقا - باسم الملك «سنوسرت الثالث»، ترجع إلى ما بعد الأسرة الثانية عشرة، ومن ثم فقد ذهب «جورج راينز» إلى أن «تخوتمس الثالث» لم يعمل أكثر من إحياء الماضى القديم، الأمر الذى قد يشير إلى أن «سمنة» و «أورو- نارنى» إنما كانتا من أماكن عبادة الملك المؤله «سنوسرت الثالث»^(١) .

وعلى أية حال، فلقد عبد سنوسرت الثالث فى عمدا والليسية وجبل الشمس وبوهن وجبل دوشا - أى من عمدا وحتى دوشا (Dosha).

هذا وقد عبد «تخوتمس الثالث» بصفة معبود «سرة» (عج نخت)، هذا وقد خطى «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) خطوة أخرى ، فهو لم يبن معابد ضخمة فى «سدنجا» (صدنقا) و صولب فحسب، ولكن «الصورة الحية» له، إنما كانت تؤدى لها العبادة فى صولب، كما كانت تؤدى لزوجه «تى» فى «سدنجا» ، وقد وصف فى صولب بأنه «سيد أرض القوس» فى قلعة «حج أم

(1) T.Save - Soderbergh, Agypten und Nubia, Lund, 1941, p. 203

وكذا A.J.Arkell, A History of The Sudan, London, 1955, p. 105.

ماعت، الأمر الذي يشير إلى أنه لم ينظر إليه كمجرد إله محلي، ولكنه الإله
الحامي لكل النوبة، كما عبد «توت عنخ آمون» في «فرس».

وكان «رع ميس الثاني» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) المعبود الرئيسي في
«عكشة» - فيما بين فرس ووادي حلفا - وهناك في «سرة» معبد لرعمسيس
الثاني أقيم لصورته الحية في بلاد النوبة، وأطلق عليه «وسر ماعت رع، سام في
قوته»، مما يشير إلى أن الفرعون نفسه كان معبودا في هذا المعبد.

هذا وقد عبد رع ميس الثاني كذلك في معبد جرف حسين، كواحد من
آلهة المعبد (بتاح وسخمت ونفرتم - ثالوث منف)، كما عبد في معبد وادي
السبوع - مع آمون وحر أختي - وفي معبد أبو سمبل الكبير، أقام الفرعون
تماثيل أربعة - لأمون وبتاح ورعمسيس الثاني المؤله ولرع حر أختي - وقصد من
ذلك أن يكون على قدم المساواة مع آلهة مصر العظام، وأن يؤدي له ما يؤدي لها
من شعائر، هذا فضلا عن أنه وإنما أراد في معبد أبو سمبل - وكذا في معبد
السبوع وجرف حسين - أن يأخذ مكان «خونسو» بن «أمون» في ثالوث (أمون
وموت وخونسو)^(٢).

هذا ويسمى حصن سمته «نخ - كار - رع - المسجل قوى» على الضفة
الغربية للنيل، وتقف قلعة سمته أمرة على النيل، مع الحصن التوأم (قمة -
Kumina) على الشاطئ الشرقي، فالنيل في هذه المنطقة يشق طريقه في جبل
من الصخر القوي، في أنيق منطقة للجندل الثاني.

(٢) محمد بيومي مهران، مصر ٢٧٩/٣ - ٢٨٢، وكذا

T.Save- Soderbergh, op.cit, p. 196 - 205

وكذا W B.Emery, Egypt in Nubia, London, 1965, p. 194 - 202.

H.T.Thabit, Kush, 5, 1975, p. 81 - 86.

A J.Arkeli, op.cit, p. 106.

هذا ويدل اسم الحصن على أن بناءه إنما تم في عصر الملك «نخع كاور رع» (سنوسرت الثالث)، غير أن التنقيبات إنما دلت على أن النصف الشرقي لثبناه قد شيد في عصر سابق، ربما في عصر «سنوسرت الأول». (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م.) هذا وقد بنى حصن سمنا على قمة صخرية على شكل حرف «د» الأفترجية، على حافة النهر، ومن ثم فتحطيطه غير مستقيم، وقد بنى السور الخارجي أنكبير من اللبن، وأساسه من الحجر، ويحيط به من الجوانب الشمالية والغربية خندق واسع جاف، وأما الجدران فسمكها فيما بين ٦، ٨ مترا، ويتخللها بين مسافة وأخرى أبراج عالية ضخمة، ويمكن الوصول إلى المدينة المزدحمة داخل الأسوار عن طريق بوابتين محصنتين من الشمال والجنوب، وتتصل هاتان البوابتان ببعضهما عن طريق يشق المدينة^(١).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه كان في كل قلعة معبد، ربما كان بنى في الغالب من الطوب اللبن Mud-Brick، كان يستبدل في الدولة الحديثة بمعبد صغير يبنى بالحجر الرملي^(٢)، وإذا أخذنا مثالا على ذلك من «سمنة» لرأينا «سنوسرت الثالث» يبنى بها معبدا من الطوب اللبن، وهو المعبد الذي أعاد تشييده «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م.) وبناه بالحجر، وكرسه للإله النوبي «ديدون - خنوم» وللملك المؤله «سنوسرت الثالث»^(٣).

(١٨) سيسبي:

تقع سيسبي جنوب صولب (على مبعدة ٢٢٠ كيلا جنوبي وادي حلفا)، وقد أنشأها أمنتحسب الرابع (إختاتون ١٣٦٧ - ١٣٠ ق.م) - في مقابل بلدة

(١) والترامري: المرجع السابق ص ١٤٧ - ١٤٩، محمد يوسى مهران: مصر ٤٠٤/٢، وكنا

D.Dunham, Semna - Kamma, Boston, 1960

G.A.Reisner, SNR, 12, 1929, p. 143F.

G.Reisner, The Egyptian Forts form Helfa to Semna, Kush, 8, 1960.

(2) A.J.Arke!!, op.cit, p. 64.

A.J.Arke!!, op.cit, p. 88.

(٣) نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٧٠ وكنا

R.A.Caminos, Surveying Semna Gharbi, Kush. 12, 1964, p. 85.

دلقر (دلجو) - في خلال سوانه الأولى، وقبل أن يغير اسمه إلى إخناتون، شيد مجموعة معابد، تتكون من ثلاثة، وتقوم على أساس مشترك، كونت نواة مدينة صغيرة مسورة، تحتوى على مزار ديني للإله الجديد «أتون».

وهناك ما يشير إلى أن كهان أمون - بعد فشل دعوة إخناتون - قد عاد إليهم سلطانتهم القديم في مصر، ومن ثم فقد قاموا بتحطيم كل معابد أتون ولم يبق منها إلا «معبد سيسى» في السودان، فقد اكتفوا بتشويه نقوشه.

وعلى أية حال، فلقد كشف عن آثار «سيسى» كل من «بلاكمان» و«فرمان» في عام ١٩٣٧م، وقد تبين أنها مدينة أنشأها إخناتون لتكون منطلقاً للتبشير بـ«عقيدة التوحيد» التي تزعمها^(١).

(٢٠) صنم:

تقع «صنم» على الشاطئ الغربي للنيل، على مبعدة ١٢ كيلاً من طرفي «زوما» و«بلال» هذا وقد أقيم «طهراقا» (٦٨٩ - ٦٦٤) في «صنم» معبداً ضخماً للمعبود «أمون - رع» (ثورناستى)، كشف عنه «جريفث» (١٨٦٢ - ١٩٣٤م) في حفائره هناك لحساب «متحف الأشمولين باكسفورد»، وهو المعبد الوحيد للمرك نباتا في صنم^(٢).

(٢١) صولب:

تقع صولب على الضفة الغربية للنيل، وعلى مبعدة ٢٢٠ كيلاً جنوب وادى

(١) محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ٧٦، نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٧٠، وكذا:

W.B.Emery, Egypt in Nubia, London, 1965, p. 95

H.W.Fairman, Preliminary Report on The Excavations at Sesebi and Amarah West, Anglo - Egyptian Sudan, 1937 - 1938, JEA, 21, 1938, p. 151 - 156

B.G.Trigger, op.cit, p. 126 - 127.

A.J.Arkell, op.cit, p. 92 - 93.

(٢) محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٤، وكذا:

F.L.Griffith, LAAA, IX, p. 74 - 76, PM, 7, p. 198f.

حلفاء، ٢٠ كيلا جنوبى سدنجاء، وقد بنى «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) معبداً فى صولب، يعد أفخم معابد النوبة، وقد كرسه لنفسه ولصورته الحية، ليعبد هناك بجانب الإله أمون رع، وذلك حوالى عام ١٤٠٠ ق.م، من الحجر الرملى، وكان عند بنائه يضارع معابد الأقصر العظيمة، وكان الطريق إلى المعبد يحده من جانبيه تماثيل جرانيتية لكباش وأسدين، يعتبران من الكنوز الفنية فى المتحف البريطانى فى لندن، وقد نقلت هذه التماثيل إلى جبل البرقل - ربما على أيام الملك بعنخى من الأسرة الخامسة والعشرين.

وفى الواقع فإن إقليم النوبة إنما يشهد - فى حقيقة الأمر - بقوة ووضوح على عظمة الفرعون «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م)، فهو لم يبن هناك معابد ضخمة فى «سدنجاء» - على مبعده ١٠٩ كيلا شمالى الجندل الثالث، ٢٠٠ كيلا جنوبى وادى حلفاء، و«صولب» - على مبعده ٢٢٠ كيلا جنوبى وادى حلفاء، ٢٠ كيلا جنوبى سدنجاء (صادنقة) - فحسب، ولكن «الصورة الحية» للفرعون إنما كانت تؤدى لها العبادة فى «صولب»، كما كانت تؤدى لزوجه «تى» فى سدنجاء، التى جعل منها الإلهة الراعية للنوبة.

وعلى أية حال، فلقد شيد «أمنحتب الثالث» فى «صولب» على الضفة الغربية للنيل، أجمل معبد فى السودان وقد بناه بالحجر الرملى، على أساسات غير متقنة. ومع ذلك فما زالت بقاياها مثيرة للإنتباه، رغم حالتها المتهدمة، ولا بد أنه كان عند بنائه يضارع معابد الأقصر العظيمة، ولا عجب فالتصميم لنفس المهندس، وقد كان الطريق الموصل إلى المعبد يحده من جانبيه تماثيل جرانيتية لكباش وأسدان يعتبران من الكنوز الفنية فى المتحف البريطانى، وقد عثر على هذه التماثيل فى برقل (بركل) حيث نقلت على أيام الأسرة الخامسة والعشرين (٧٥٠ - ٦٥٦ ق.م).

هذا وقد كرس «أمنحتب الثالث» معبده فى «صولب» - أفخم معابد النوبة قاطة - كرسه لنفسه ونسورته الحية، ليعبد هناك، بجانب الإله «أمون رع»، بل

إن الرجل إنما رفع زوجه الملكة «نى» إلى مرتبة التقديس حيث شيد لها معبد «سدنجا» كذلك، غير أن الفرعون لم يعبد هناك فيما يرى البعض، كما كان يأمل، وأن تعبد بعض الموظفين لتمثاله على أيام حياته.

وعلى أية حال، فلقد شيد «أمنحتب الثالث» معبده فى «صولب» (حوالى عام ١٤٠٠ ق.م) من الحجر الرملى، وكان يتقدمه طريق تحف به تماثيل الكباش، يؤدى من الميناء إلى ردة أمام صرح من خلفه فناء، تحيط به الصفات، ويفضى الصرح إلى بهو أساطين، يشتمل على ثمانية وأربعين أسطوانا فى ستة صفوف، وكان من وراء ذلك بهو ثان، ثم بقية أجزاء المعبد، غير أنها تهدمت^(١).
(٢٢) عكاشة:

عكاشة: عشر على آثار خاصة بالمجموعة الثالثة، وكانت الحرفة الرئيسية لأصحابها رعى البقر وغيرها من الحيوان، كما تميزت بنوع خاص من الصناعات اليدوية أهمها الفخار، وخاصة القدور السوداء ذات الخطوط البيضاء المتقاطعة، فضلا عن تلك الدمى الصغيرة من الطين والتي تمثل الحيوان والإنسان، والتي

(١) محمد بيومى مهران، مصر ٢٦٣/٣، والترامرى: المرجع السابق ص ١٩٦ - ١٩٨، محمد أنور شكرى: العمارة فى مصر القديمة ص ٢٠٤، جيمس بيكى: المرجع السابق ص ١٨١ - ١٨٢، وكذا

A.H. Gardiener, *Egypt of The Pharaohs*, p. 205.

PM, 7. p. 166-169, 169 - 172.

J.Vandier, *Manuel d'archeologie Egyptienne*, Paris, II, p. 968.

A.J.Arkell, *op.cit*, p. 91 - 92.

B.G.Trigger, *op.cit*, p. 118.

I.E.S. Edwards, *The Prudhoe Lions*, AAA, 25, 1939, Pls, I.II.

M Schiff Giorgini, *Report on The Excavations at Soleb, Kush*, 6, 1958, 7, 1959, 8, 1960, 9, 1961, 10; 1962

M.S. Giorgini, *Premiere Campagne de Fouilles Sedeings*, 1963-1964, in *Kush*, 13, 1965, p. 116 - 123.

لا نجد لها مثيلا في حضارة كرما، هذا إلى إن القوم إنما كانوا يتحلون بأقراط مصنوعة من الصدف، كما صنعوا نوعا من الزينة على شكل محابس، إلى جانب استعمالهم لخرز الزينة، وقد اتخذت مقابرههم شكلا مستديرا جعلها متشابهة في المنظر، كما عثر على مقابر خاصة لبعض الحيوانات كالكلاب أو الكباش، مدفونة بعناية خاصة، أو مع أصحابها في مقابرههم، مما يشير إلى نوع من التقديس لهذه الحيوانات.

(٢٣) عكشة:

تقع عكشة فيما بين وادي حلفا جنوبا، وقرى شمالا، وقد عثر على معبد يرجع إلى أيام «سيني الأول» (١٣٠٨ - ١٢٩١ ق.م) ورعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م).^(١)

(٢٤) عمارة غرب:

تشير «لوحه كويان» - وكذا الحفريات - أن «سيني الأول» (١٣٠٨ - ١٢٩١ ق.م) هو الذي شيد مدينة «عمارة غرب»، وأن ولده «رعمسيس الثاني» هو الذي بنى معبدها^(٢).

هذا وكانت النوبة على أيام الرعامسة (الأستين التاسعة عشرة والعشرين) تنقسم إلى قسمين، الواحد: النوبة السفلى، وتسمى «اوات»، وتمتد من جنوب أسوان وحتى «سمنة» - على مبعده ٧٠ كيلا جنوبي وادي حلفا - وكانت عاصمته «مبعم» - وهي عنيفة، على مبعده ٢٢٤ كيلا جنوبي سد أسوان -.

وأما الثانية، فهي النوبة العليا، وتسمى «كاش»، وقد حُفرت فيما بعد إلى «كوش»، وتمتد من الجندل الثاني، عند سمنة، وحتى نهاية النوبة جنوبا،

(1) B.G.Trigger, op.cit, p. 125.

A.J.Arkell, op.cit, p. 96.

(2) H.W.Fairman, Preliminary Report on The Excavations at Amara West, Anglo - Egyptian Sudan, 1938-1939, JEA, 25, 1939, p. 139- 144 and 1947-1948, JEA, 34, 1948.p. 1-11.

وعاصمتها «عمارة غرب» - على مبعدة ١٨٠ كيلا جنوبي وادى حلفا- (١).

وهناك ما يشير - على أن «سينى الأول» (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م) هو الذى شيد مدينة عمارة غرب وأن ولده «رعسيس الثانى» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) هو الذى بنى معبدها وكانت النوبة على أيام الرعامسة قد انقسمت إداريا إلى قسمين، النوبة السفلى، وعاصمتها «عينية» والعليا وعاصمتها «عمارة غرب»، وكانت تشرف على الطريق الصحراوى من نهري النيل إلى واحة سليمة، وقد أجريت فيها حفائر فيما بين عامى ١٩٣٩، ١٩٤٧ م.

ولعل من الجدير بالإشارة أن الأمر فى «عمارة غرب» لم يختلف عنه فى «سيسى» إذ لم يبق الكثير فى المدينة، نتيجة للعوامل الطبيعية وخاصة الرياح، ومع ذلك فقد قدمت حفائر «فرمان» عام ١٩٣٩ م فى الموقع كثيرا من النتائج (١).

ولعل من الجدير بالإشارة أن «دونبار» - أحد موظفى الحكومة السودانية وقت ذاك، أى أثناء المسح الأثرى الثانى - إستغل وظيفته فأمضى وقتا فى النقل باليد وتصوير النصوص التى لاحصر لها والمناظر التى وجدها على الصخور على شاطئ النيل بإسهاب، ثم سجل ما اكتشفه، وهو جهد قيم، فى سجلات مصلحة الآثار المصرية، مما ظل بعد ذلك أساسا للعمل فى هذا الأمر، بل عملا ممتازا باعتباره إطار لأى أبحاث جديدة فى هذا الفرع من آثار النوبة (٢).

(٢٥) عينية:

كشفت فى عينية (ميعام القديمة) - وتقع على مبعدة ٢٢٤ كيلا، جنوبي

(١) محمد بيومى مهران: مصر ٢٥٩/٣، وكذا

E.Zylhary, The Countries of The Ethiopion Empire of Kash (Kush) and Egyptian Old Ethiopaian in The New Kingdom, in Kush, 6, 1958, p. 11.

R.O.Faulkner, A, Concise Dictionary of Middle Egyptian, Oxford, 1972, p. 53, 264.

(٢) رواتر امري، المرجع السابق ص ٩٥ - ٩٦

الجنديل الأول - عن البقايا المارية التي لا تعتمدى أساسات الحصون الكبيرة، ونواة القوة المحصنة التي بناها «سنوسرت الأول»، وتشبه فى شكلها وحجمها حصن «بوهن»، فهو مستطيل الشكل، وله جدران ذات أبراج، وحاجز قصير له شرفات نصف دائرية، وخندق جانف، كما فى قلعة بوهن، مما يشير إلى أن العمل لنفس المهندس فى القلعتين^(١).

هذا وقد كشف عن لوحة ترجع إلى العام الخمسين من حكم «تحتومس الثالث»، يذهر فيها الفرعون أمام «حور ميعام» و«الإلهة «ساتيس».

وفى عصر الرعامسة نرى «بنتوت» أمير ميعام (عنيبة) - عاصمة النوبة السفلى وقت ذلك - قد شيد مقبرته المنقورة فى الصخر، والتي تميزت بأنها مقبرة أحد كبار الموظفين، وكان من النادر جدا أن يدفن موظف مصرى كبير فى النوبة، فالمقابر الصخرية البسيطة غير المنقوشة - كما فى بوهن - إنما كانت لموظفين مصريين صغار، أو لنوبيين أغنياء، ذلك لأن فكرة الدفن خارج مصر كانت غير مقبولة للذين كان فى وسعهم أن يدفنوا بمصر.

(٢٦) فرس:

فرس: تقع «فرس» (باخوراس Pakhoras القديمة) على مبعده ٢١ كيلا شمالي وادى حلفاء، ٤٠ كيلا جنوبى الجنديل الثانى، وقد عثر فيها على آثار مصرية فى مقابر المجموعة الأولى، وترجع إلى عهدى الملكين «جر» و«جت» من الأسرة الأولى، كما كشف عن جمارين تحمل اسم «كاموزا» وقد شيدت الملكة «حتشبسوت» معبدا فى فرس كرسته للمعبودة «حاتحور»، كما بنى «تحتومس الثالث» أيضا معبدا فى فرس، أقيم على أطلال معبد من الدولة الوسطى، كما تدل النقوش التي عثر عليها فى «تحنوت - سره» على أن هذه المنطقة كانت مقرا لأسرة محلية حاكمة، كما بنى «توت عنخ آمون» (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) معبدا ومستوطنة فى فرس، وكانت فرس عاصمة لمقاطعة اسمها «أكين» Akin

(١) والتر امرى: المرجع السابق ص ١٥٥-١٥٧.

G.Steindorff, Aniba, Cairo, 1937, p. 2F

وكذا:

A.J.Arkell, op.cit, p. 62.

وكذا

وتقابل التربة السفلى حاليا، وقد أظهرت الحفريات بعض المباني الرسمية، كالقصر الغربي، ويرجع إلى القرن الأول الميلادي، هذا فضلا عن حصن شيد على الضفة النهر.

وقامت في فرس مملكة «النوباديين» (Nobadae) التي أسسها الملك «سلكو» (حوالي عام ٣٥٠م)، وتمتد من أسوان إلى قرب الجندل الثالث، وعاصمتها فرس، وقد كشفت البعثة البولندية (١٩٦٢/٦١) عن عدة مباني مسيحية.

(٢٧) قمة:

تقع في مقابل سمته - عبر النهر - على مبعدة ٧٠ كيلا جنوب وادي حلفا - ويعرف حصنها باسم «باعد الأقواس»، وتصميمه العام مربع، وهو أصغر من حصن سمته، الذي يكون وحدة دفاعية واحدة، ورغم أن تصميمه أبسط، إلا أنه من نفس العصر، وكان له مدخل واحد من الجانب الشمالي الشرقي، غير أن اختفاء هذا الجزء من الحصن، جعل شكل المدخل غير معروف لنا، على أن هناك في الركن الشمالي الغربي بوابة نهرية تتصل بالنهر عن طريق ممر مغطى (١).

(٢٨) كاوا:

كاوا: هي الكوة الحالية، على الضفة الشرقية للنيل، وعلى مبعدة ٤ كيلا جنوبي دنقلة الحديثة (دنقلة العرضي)، ٣٢ كيلا جنوبي «أرقوة»، وهي مدينة كبيرة قديمة، بها معابد كثيرة تشير إلى تاريخ طويل.

(١) والتر امري: المرجع السابق ص ١٤٩، وكذا:

D.Dunham and J.M.A. Janssen, Second Cataract For I, Sem-
١٩٦٠, Boston, na,

وهناك في «كاوا» أسس «إخنتون» (١٣٦٧-١٣٥٠ ق.م) مدينة «جم أتون» (وجود أتون)، والتي كانت بمثابة المركز الثالث لدعوة التوحيد - بجانب المركز الرئيسي في مصر في العمارة (أخيتاتون)، ومركز ثان في غربي آسيا - ربما في بيت المقدس أو بيت شمس - وربما كان إسم «جم أتون» نسبة إلى معبد أتون في طيبة (الأقصر الحالية)، كما أقام «توت عنخ آمون» (١٣٤٧ - ١٣٢٩ ق.م) معبدا صغيرا في «كاوا»، وقد عثر «حريفث» في «كاوا» على مجموعة من النصوص تلقى مزيدا من الضوء على سياسة «طهرقا» في إقامة المعابد وتزويدها بالموظفين والسدنة، وتقديم القرابين النفيسة، ومنح أمن الهدايا تقريبا للآلهة.

وعلى أية حال، فمن المؤكد أن داعية التوحيد إنما أسس المركز الثاني لدعوته في هذه المدينة في النوبة، وليس بعيدا أن يكون الفرعون قد أنشأ تلك المستعمرة في وقت متأخر من حكمه، إذ لم يعثر على أى بناء قبل عصر «توت عنخ آمون» الذى بنى معبدا هناك، على أن هناك من يرى أن «أمنحتب الثالث» هو الذى أسس مدينة «كاوا»، وأن ولده «إخنتون سماها «جم أتون»^(١).

هذا وقد شيد «توت عنخ آمون» معبدا صغيرا في «كاوا» إغتصبه فيما بعد «رعمسيس الثاني» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م)^(٢)، كما بنى «حوى» نائب الملك في النوبة على أيام «توت عنخ آمون» معبدا ومستوطنة مسورة في «فرس»^(٣).

(١) محمد بيومى مهران: مصر ٢٦٤/٣.

وكداء B.G.Trigger, op cit, p. ١٤٨ - ١٢٩ وكداء A.J.Arkeil, op.cit, p. ١٣٣

٩٣

مكداء M.F.L.Macadam, The Temples of Kawa, I, Oxford, 1949, p p XfI

١٢ (2) M.F.L. Macadam, op cit, p

وكداء A.J.Arkeil, op cit, p. ١٣٣

وكداء B.G.Trigger, op cit, p. ١٢٩ - ١٤٨

(3) F.L. Griffith, Oxford Exavations in Nubia, LAAA, 8, 1921. p. 83.

C.D.Noblecourt, op.cit, p. 191

(٢٩) كوش:

لعل من الجدير بالإشارة أنه قد ظهر في النصوص المصرية - ولأول مرة - الاسم الجغرافي «كاش» - والذي حرف فيما بعد إلى كوش - ويعنى فى الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م) إقليمًا إداريًا متميزًا عن «واوات» يمتد إلى الجنوب فيما وراء الجندل الثانى، بينما يقصد به فى التوراة «أثيوبيا» عامة، وذلك فى مقابل تسمية النوبة السفلى «واوات»، وتمتد فيما بين الجندل الأول والثانى^(١).

هذا وقد قامت مملكة كوش المستقلة على أيام الهكسوس (١٧٣٠ - ١٥٧٥ ق.م)، ولعل استقلال كوش فى تلك الفترة إنما يفسر لنا سبب انتشار العناصر المميزة لحضارة كرما فى منطقة المجموعة الثالثة فى أخريات مراحلها، مما يدل على سقوط الحواجز السياسية بين أصحاب المجموعة الثالثة فى منطقة النوبة السفلى، وبين أصحاب حضارة كرما من حول الجندل الثالث، والتي امتدت إلى مناطق أخرى، شمالًا وجنوبًا، وذلك بعد أن انضمت الحضارتان تحت لواء أصحاب حضارة كوش^(٢).

وأما وثائق تاريخ دولة كوش، فكلها وثائق مصرية، ومن عجب أن السودان لم يمدنا بمعلومات تاريخية ذات قيمة عن تلك الفترة (١٧٣٠ - ١٥٧٥ ق.م)، ومن ثم فإن عمادنا الأساسى إنما هو المصادر المصرية. وأهمها:

١- لوح كارنارفون ٢- لوح الكرنك، ثم هناك فى القرية الثانية:

١- لوح إياح وسر ٢- لوح سويد حور^(٣).

وأما عاصمة كوش: فلقد كان الرأى التقليدى أن مدينة «بوهس» إنما كانت عاصمة إمارة كوش المحلية، غير أن هناك اتجاهًا جديدًا يذهب إلى أن العاصمة إنما

(١) محمد بيومى مهران: مصر ٣٩٨/٢.

(٢) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق ص ٥٩.

(٣) محمد بيومى مهران: تاريخ السودان القديم ص ٤٣ - ٢٤٩.

كانت «كرما»، اعتماداً على أن الاسم الجغرافي «كوش» (كاش) إنما يرتبط بكرما، فضلاً عن أن الرموس التي في كرما، إنما تظهر بوضوح أنها مدافن حكام وطنيين أقوياء كانت لهم علاقات تجارية ودبلوماسية مع ملوك الهكسوس في مصر، ومن ثم فإنه يبدو مرجحاً أن «كرما» إنما كانت عاصمة مملكة كوش^(١).

وأما حدود مملكة كوش، فقد امتدت شمالاً حتى إليفنتين، وجنوباً حتى منطقة الجندل الثاني، غير أن المعلومات التي يمكن استنتاجها من لوحة (Ha'ankhef) - والذي كان في خدمة أمير كوش - أن سلطانة ربما امتد جنوباً حتى «كرما»^(٢).

وأما عن علاقة مصر ومملكة كوش، فمن المعروف أن كوش قد انتهزت فرصة تراخي قبضة الحكام المصريين على أيام الانتقال الثاني لزيادة حجم التجارة التي كانت تعود عليها بالنفع بين وادي النيل الأعلى والأدنى، وهكذا وجدت آثاراً لا تخصي من طين الأختام المستخدم في ختم الرسائل، وعدد من مختلف الأدوات الأخرى المستوردة من الشمال، قد عثر عليها في كرما، وفي الحصون التي لم تهجر أثناء عصر الانتقال الثاني على عكس ما كان شائعاً من قبل، أو أنها هجرت في فترة متأخرة نسبياً، ولفترة لم تطل كثيراً، هذا فضلاً عن أن الحاميات في عصر الدولة الوسطى كانت تستبدل على فترات منتظمة، أصبح الذين يحتلونهم في عصر الانتقال الثاني قاطنين مستديمين في النوبة، تستقر معهم أسرهم، بل ويدفنون هناك، وربما اتجهوا بالتدريج إلى الاعتراف بسيادة ملك كوش، ولما كان هؤلاء من أصل مصري، فلا بد أنهم قاموا بجهد كبير لنشر الثقافة المصرية في مجتمعهم

(١) نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق من ٢٦٤.

وكننا A.J.ARKELL, OP.CIT, P. 72

G.POSENER, Pour une Localisation du Pays Koush au وكنا
Moyen Empire Kush, 6, 1958, p. 39.

(2) B.Gunn, A Middle Kingdom Stele from Edfu, ASAF, 29, 1929,
P. 8 - 10.

T.Save - Soderberg, JEA, 35, 1949, p. 57 - 58

G.Posner, Kush, 6, 1958, p. 56. وانظر:

الجديد هذا^(١).

وهناك ما يشير إلى أن الصلات بين كوش والهكسوس كانت على أوثقها - كما في رسالة ملك الهكسوس (أبوفيس) إلى أمير كوش^(٢) - وقد وجد على طول البحر النوبي جمارين وأختام تحمل أسماء الملوك الأسيويين الذين كانوا يحكمون مصر وقت ذلك، وهي في «كرما» نفسها من الكثرة حتى ظن البعض لفترة ما، أن النوبة قد اجتاحتها الهكسوس، بعد أن أخضعوا مصر العليا، غير أننا نعرف الآن أنه كان لأفارقة النيل الأوسط صلات وثيقة جدا مع أسيويي الدلتا، لدرجة أن ملوك الأسرة السابعة عشر الطيبية عندما بدأوا حرب التحرير، واسترداد مصر الوسطى والسفلى، إجمه ملك الهكسوس بصورة طبيعية بطلب العون من حليفه الأفريقي - أمير كوش - والقيام بعمل عسكري مشترك ضد عدوهما المشترك - ملك مصر-.

على أن علاقة الكوشيين بحكام طيبة الوطنيين إنما كان يشوبها العدا، ويميزها التكامل في نفس الوقت، فالطيبيون الذين كانوا في خدمة ملك كوش إنما حملوا معهم خدماتهم الفنية إلى النوبة الوسطى، كما أن وجود الكثير من المصريين المرابطين في قلاع النوبة السفلى، قد كفل بقاء كوش على اتصال بحكام الهكسوس في الشمال، هذا فضلا عن أن أواخر ملوك الأسرة السابعة عشرة الطيبية قد استخدموا المرتزقة الجاي (المدجاو) في جيوشهم سواء في كفاحهم لتوحيد مصر العليا، أو في حروبهم ضد الهكسوس، وكان هؤلاء المرتزقة الذين جاءوا من الصحراء النوبية ينتمون، عرقيا وثقافيا، إلى التحسيو المستقرين على ضفاف النهر.

(١) شحاته آدم، جان فركوتير: المرجع السابق ص ٢٤٤.

(٢) أنظر: محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٩٢ - ١٩٣

A.H.Gardiner, op.cit, p. 167 - 168

وكدا:

L Habachi, ASAE. 53, 1955, p. 201 - 202.

وكدا:

وهكذا يبدو واضحا أن النوبيين قد وجدوا في مصر، كما وجد المصريون في النوبة، طوال عصر الانتقال الثاني، الأمر الذي ساعد على نشاط العلاقات التجارية والثقافية، وبالتدريج تحول الممر النوبي إلى بوتقة امتزجت فيها العناصر الأفريقية وعناصر البحر المتوسط، وابتجت ثقافة مختلطة، غير أن هذه الصلات القوية إنما قد أسفرت عن نتائج خطيرة بالنسبة لتطور مملكة كوش الأولى في كرما، ذلك أن ملوك التحامسة في الأسرة الثامنة عشرة المصرية، إنما قد أدركوا بعد طرد الهكسوس أن وجود مملكة قوية على حدود مصر الجنوبية أمر يمكن أن يمثل خطرا على مصر نفسها، وقد رأوا من قبل أن تحالفا عسكريا من الهكسوس والكوشيين، كان من الممكن أن يقضى على آمال طيبة في طرد الهكسوس من مصر، خاصة وأن ذلك التحالف إنما كان إبان حرب التحرير نفسها، هذا فضلا عن أن الخطر الآسيوي كان ما يزال محتملا، حتى بعد تقيهنتر الهكسوس إلى فلسطين، ومن ثم فقد لجأت مصر إلى سياسة التدخل العسكري المنظم في الشرق الأدنى القديم^(١).

هذا وتسجل نقوش القائد الكايبى «أحمس بن إيانا» بمقبرته في الكاب ثلاث حملات على النوبة في عهد «أحمس الأول»، استطاع الفرعون بعدها إستعادة سيادة مصر هناك.

وهكذا رأينا أحمس يمد نفوذه إلى الجنوب عن برهن بأكثر من ١٦٠ كيلوا، حيث وجدت آثار تحمل اسمه واسم زوجته^(٢).

(٣٠) كويان:

تقع كويان وحصنها على الضفة الشرقية للنيل، على مبعده ١٠٨ كيلوا، جنوبي أسوان، ويعرف حصن كويان باسم «حصن باكي»، وقد كشف عنه

(١) نجم الدين محمد شريف، المرجع السابق ص ٢٤٤.

(٢) محمد يوسى مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ٢٠٤ - ٢٠٨.

T.G.H.James, CAH, II, Canlridge, 1965, p. 11- 13. ركلا

J.A.Arkel, JEA, 36, 1950. p. 27 - 30.

T.Save- Soderliergh, JEA, 35, 1949, p. 50 - 58.

«إمرى» فى عام ١٩٣٠، وهو يشبه حصن بوهن إلى حد بعيد، وقد غرق تحت مياه خزان أسوان.

هذا وقد عثر على حصن من نفس الطراز على الضفة الغربية للنيل عند «إكورة» (IKKur) على مبعدة بضعة أميال إلى الشمال من كوبان، وهو يتكون مع حصن كوبان وحدة واحدة، ومن ثم فقد حمل نفس الاسم «ياكى» على أن الحصنين لم يكونا معسكرين، وإنما كانا محطة تجارية، ومقراً للبعثات إلى مناجم الذهب فى وادى العلاقى، إلى جانب صد أى هجوم لأية قوة تأخذ طريق وادى العلاقى، عبر الصحراء، من «أبو حمدة» بنية أن تتحاشى حصون الحدود الجنوبية عبر النهر.

هذا ويذهب «إمرى» إلى أن «سنوسرت الأول» (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م) هو الذى بنى حصون «أكورة» و«كوبان» و«بوهن» و«سمنة» لحماية الطرق التجارية^(١).

(٣١) كرجوس:

تقع «كرجوس» على مبعدة ٨٠ كيلا جنوبى مدينة «أبو حمدة» الحالية - عند نهاية الطريق الصحراوى الذى يبدأ عند «كورسكو» أو «كوبان» - على مبعدة ١٠٨ جنوبى أسوان - فى النوبة السفلى، ويختصر المسافة بتخيب المرور فى منطقة الجنادل - من الثانى وحتى الرابع - وقد صور الفرعون تحوتمس الأول فى نقش كرجوس هذا، على هيئة أسد أمام الإله «أسون راع»، ومن ثم فأكبر الظن أن قلعة كرجوس إنما قد بنيت فى عهده، كما أقام حولها أسوارا طولها ٧٠٠ مترا^(٢).

(١) أنظر: A.J.Arkell, op.cit,p. 62.

وكنّا: W.B. Emery, Nubian Treasure, p. 20.

C.M.Firth, The Archaeological Survey of Nubia Report for 1908 - 1909, Cairo, 1912, p. 22 F.

وكنّا: T.Save - Sodenbergh, op.cit, p. 1-3.

(٢) محمد ابراهيم بكر المرجع السابق ص ٦٦، محمد يبرى مهران: المرجع السابق ص ٢٦٠، وكنّا:

A.J.Arkell. op cit, p. 36 - 39

(٣٢) كرما:

لعل من الجدير بالإشارة أنه رغم أن هناك من يذهب إلى أن المركز التجاري في «كرما» إنما قد أنشئ في عهد الدولة القديمة، فمن المرجح أنه أنشئ في عهد «أمنمحات الأول»، (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق.م) حتى أطلقت النصوص على أسوار «أسوار أمنمحاب الميجل»، وهي حصن كبير مبنى بالضرب على هيئة حوش كبير، ذي جدران ضخمة عالية، تستطيع صد أية غارة من الصحراء وتجعل جاليتها التجارية تعيش في أمن وأمان، وقد كان لهذا المركز من الأهمية مما جعل فرعون يولى عليه أحد كبار موظفيه، ومن أشهرهم «حعبي زفای»، وهو أحد أمراء أسيوط.

وأما «حضارة كرما» - جنوبي الجندل الثالث بمسافة قصيرة، وعلى مبعدة ٢٤٠ كيلاً - في خط مستقيم - إلى الجنوب من «سمنة»، حيث عشر على مخلفاتها - فهي تشبه حضارة المجموعات - الأولى والثانية والثالثة - في أنها لم تترك آثاراً مكتوبة، كعدم معرفة أهلها بالكتابة، ومن ثم فقد انصبت كل مجهودات العلماء على الحفائر، وما تكشفه من مخلفات.

هذا وقد انتشرت حضارة كرما في منطقة دنقلة العرضى (دنقلة الحديثة) بل من الجندل الثاني في الشمال، حيث لم تكتشف مواقع تحتوي على نماذج من حضارة كرما في النوبة إلا في أماكن ينتهي امتدادها شمالاً عند مرجيسة (أو مرقيسة)، مما يشير إلى أن منطقة الجندل الثاني كانت هي الحد الفاصل بين حضارة كرما وحضارة المجموعة الثالثة، وأما في الجنوب فقد وصلت إلى جزيرة «أرقو» على مبعدة ٣٢ كيلاً شمالي كارا^(١).

B.G.Trigger, op.cit, p. 108.

A.J.Arkell, A History of The Sudan from Earliest Times to 1821, 1955, p. 84 - 85.

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٤٤، نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق، ص ٢٦٤، وكذا:

J. Vercoutter, Excavations at Mirgissa, I, Kush, XII, 1964, p. 59.

هذا وقد بدأت أولى مراحل حضارة كرما بنهاية الدولة القديمة، وانتهت آخر مراحلها بقيام الدولة الحديثة، وبداية تمصير النوبة، أى فى الفترة (حوالى ٢٢٨٠ - ١٥٧٥ ق. م)، وكانت سماتها المميزة أوعية فخارية رقيقة على درجة رفيعة من الصقل، لونها أحمر، وحوافيها العليا سوداء، وقد شكلت على عجلة صانع الفخار، هذا فضلاً عن أوان من فخار على هيئة حيوانات، وأخرى محلاة بزخارف حيوانية، وخناجر نحاسية خاصة ومصنوعات خشبية مطعمة بالعاج والميكا فى أشكال زخرفية، وحلى مخيطة على قلانس جلدية^(١).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه رغم أن كثيراً من الأواني الفخارية المكتشفة فى كرما، إنما تشير، دونما ريب، إلى تراث محلى، غير أن تأثير التقنيات الصناعية، والتصميمات المصرية، إنما هو جد واضح^(٢)، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أن كثير من هذه المخلوقات إنما هو من إنتاج صناع مصريين، وإن كنا نستطيع القول بأنها ربما صنعت استجابة للذوق الخلى بأيدى صناع محليين تدرّبوا على التقنيات المصرية^(٣).

وعلى أية حال، فلقد وجدت أيضاً فى مخلفات القوم صناعات خشبية مطعمة بالميكال (الماليكا) أو العاج، فى هيئة صور لحيوانات وطيور، هذا فضلاً عن مساند للرأس، تتميز عن مثيلاتها المصرية بأن قاعدتها طويلة نسبياً، وعلى عكس المساند المصرية ذات القاعدة القصيرة، وذلك لأنها إنما كانت تستعمل داخل توابيت الدفن، التى لا يسمح اتساع عرضها بقواعد طويلة لمساند الرأس^(٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن السمة المميزة لثقافة كرما هى شعائر الدفن حيث تتسم المثبرة برمس ترابى مقبب تحيط به حلقة من الحجارة السوداء، مشور عليها حصى أبيض، هذا ويتكون أحد الرموس الكبيرة فى مقبرة كرما (ك٣)

(١) نجيم الدين محمد شريف المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(2) B. G. Trigger, History and Settlement in Lower Nubia, New Haven, 1965, p. 103.

(3) A. J. Arkell, op. cit., p. 74.

(٤) محمد إبراهيم بكر المرجع السابق، ص ٤٤ - ٤٧.

من جدران دائرية من الأجر، قضيها ٩٠ متراً، ولم يستعد ارتفاعها ٣ متراً، وهناك جدران متوازيان يمتدان عبر القبة من الشرق إلى الغرب، مكوّنان ممراً وسطحاً يشطر القبر شطرين، بينما تمتد إلى الخارج جدران أخرى متوازية، ومتعامدة على جانبي هذا الممر، متجهة إلى محيط الدائرة شمالاً وجنوباً، وفي منتصف الجدار الجنوبي للممر، باب يفضى إلى بهو يؤدي إلى غرفة الدفن الرئيسية في الجانب الشرقي منه، وكان جثمان صاحب الرمس يسجى على سرير على الجانب الأيمن، وتوضع فوقه وسادة رأس خشبية، ومروحة من ريش النعام وعلنان، كما يوضع عدد كبير من الأواني الفخارية بجانب السرير، وحول جدران الغرفة، وقد عثر في منطقة الدفن في كرما على مقاصير مبنية من الطوب، وتحمل صوراً مرسومة، وكانت بمثابة أماكن لإقامة الطقوس الخاصة بجميع مقابر الجبانة^(١).

هذا وتمثل المقابر الصغيرة في حضارة كرمة، تلك المقبرة التي عثر فيها على «خنجر» (بمتحف الخرطوم رقم ١٢٢٨)^(٢)، وقد دفن صاحبها على سرير (عنقريب) على جانبه الأيمن، والرأس إلى الشرق، واليد اليمنى أسفل الرأس، وأما الخنجر فقد وجد ملقى بين الساتين مما يشير إلى أنه كان في الأصل متصلاً بحزام الوسط، كما عثر في المقبرة على بعض القدور الفخارية، ومروحة من ريش النعام، وبعض حبات الخرز، فضلاً عن زوجين من القرون كل منهما من قرني الحيوان المتصلين بعظام الجبهة وعادة ما كانت تلون بالجير، ويرسم فوقها بعض الزخارف البسيطة، والتي ربما أعدت لفرض دنيسوى، هذا وقد دفن مع الميت شخصان ضحى بهما، ومعهما كبشان، وأما الخنجر فقد صنع من البرونز (النحاس والقصدير) بطريقة الضرب على المعدن الساخن، وله مقبض من العاج يثبت

(١) نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق، ص ٢٦٦، محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٤٧، وكذا:

J. Vercoutter, Excavations at Sai, 1955 - 1957, Kush, VI, 1958, p. 144 - 169.

(2) J. Vercoutter, A Dagger from Kerma, Kush, VIII, 1960, p. 265, (X- Group)

بالسلاح بأربعة مسامير، تدخل في تقرب السلاح والمقبض معا^(١).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن طريقة الدفن في حضارة كرما، وما عثر عليه من صناعات يدوية متقنة، إنما تشير إلى أن حضارة كرما، إنما قد امتازت عن حضارة المجموعة النائية في الشمال، بنظام مركزي قوى، ونظام داخلي متقدم، فقد كان يتزعم أهلها أمير، تحت إمرته جهاز إداري، غير أن عدم وجود وثائق مكتوبة، - بسبب عدم معرفة القوم للكتابة - إنما كان سبباً في عدم تحديد أسماء وأنسب أولئك الحكام أصحاب تلك المقابر الضخمة في كرما، فضلاً عن معرفة الكثير عن طريقة تفكيرهم ومستوى حضارة قومهم.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أصحاب حضارة كرما، إنما قد مارسوا عادة التضحية البشرية، وإن اختلف عدد المضحى بهم من الخدم والأتباع والحيوانات الأليفة من شخص لآخر، ففي المقابر الكبيرة بلغ عدد من دفنوا مع سيدهم عنوة، ما بين ٢٠٠، ٣٠٠ شخصاً من الرجال والنساء والأطفال، وأما المقابر الأصغر شأنًا، فقد تفاوت عدد الضحايا فيما بين ١، ١٢ شخصاً، وعلى أية حال، فلقد كان الضحايا يتركون في أرضية غرفة الدفن الرئيسية، وفي الدهليز الكبير داخل المقبرة، في غير نظام، وربما كانوا يعطون مخدراً قوياً، ثم يترج بهم عنوة، ويغلق عليهم القبر^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أصحاب حضارة كرما، إنما هم الأصل في قيام الحضارات المستقلة في شمال السودان في الفترة فيما بين سقوط الدولة الوسطى وقيام الدولة الحديثة في مصر، أي أنه ليس بمستبعد أن أهل سهل كرما والمنطقة المحيطة به، هم أصحاب «دولة كوش» التي عاصرت حكم الهكسوس في شمال مصر^(٣)، والتي حاول «أبو فيس» ملك الهكسوس أن يعقد معهم حلفاً ضد أمراء طيبة^(٤).

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٤٨ - ٤٩.

(٣) انظر عن الهكسوس (محمد بيومي مهران. حركات التحرير في مصر القديمة، دار المعارف،

القاهرة ١٩٧٦، ص ١٠ - ٢٢٣)

(٤) محمد بيومي مهران (المرجع السابق، ص ١٩٢ - ١٩٣، وكذا.

L. Habachi, ASAE, 53, 1955, p. 201 - 202.

وعلى أية حال، فهناك مبيتان من الطين في الدفوفة، يتميان إلى حضارة كرما، أحدهما يمثل قصر أمير كرما، وهو مبنى ضخيم من اللبن، وتشير نتائج الحفريات إلى أن المدينة في إقليم كرما، كانت أشبه ما تكون بالمدينة المصرية، فقد كانت هناك مثلاً صناعة محلية لأدوات مصرية، كانت تجد سوقاً رائجة في الجنوب، وقد أثرت الثقافة المصرية في هذا الإقليم، كما تأثر الوافدون من الشمال بثقافة وعادات الأهليين، وأن هذا التأثير امتد إلى المعتقدات الدينية ومراسم الدفن، كما حدث في دفن «حمى زفاى»^(١).

وأما أصل أصحاب حضارة كرما، فهو موضع خلاف بين الباحثين، فلقد ذهب «رايزنر» إلى أنهم مجموعة بشرية استوطنت البلاد منذ أيام الدولة القديمة، وربما قبل ذلك، وأنهم - مثل أصحاب المجموعة الثالثة - لم يطرأ عليهم إلا سحنة قليلة من العنصر الزنجي^(٢)، ويذهب «جورج شتايندورف» (١٨٦١ - ١٩٥١ م) إلى أن أصحاب حضارة كرما من طائفة شعوب شمال إفريقيا، شأنهم في ذلك شأن الليبيين، وأما أصحاب المجموعة الثالثة فهم وافدون من منطقة منابع النيل الأزرق وعطبرة، أو من منطقة كردفان^(٣)، وأما «هرمان يونكر» فالرأى عنده أن كليهما - أصحاب حضارة كرما والمجموعة الثالثة - من العنصر الحامى، اختلط بهما الزنوج إلى حد ما، ثم يؤكد أنهما قبيلتان لشعب واحد^(٤)، ويذهب «أركل» إلى أن أصحاب المجموعة الثالثة لبيون جنوبيون^(٥).

=/=

وكذا:

A. H. Gardiner, op. cit., p. 167 - 168.

T. Save-Soderbergh, The Nuobian Kingdom of The Socond Intermediate Period, Kush, 4, 1956, 54 - 61.

G. Reisner, Excavatiopns at Kerma, I, 1926, p. 30.

(١) أنظر:

(2) Ibid., V, p. 555 F.

(3) G. Steindorff, Anilia, I, 1935, p. 13.

(4) H. Junker, Kubanieh Nord, p. IV, V.

(5) A. J. Arkell, op. cit., p. 46 F.

والرأى عند الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم بكر، أن الدراسة المستفيضة لمخلفات الحضارتين إنما توضح الصلة الحضارية بينهما، وخاصة فى طريقة الدفن على سرير، وعادة التضحية بدفن الحيوان مع صاحبه، وربما فى شكل القبر المستدير، فضلاً عن بعض الصناعات المتشابهة، وأما ما يظهر من اختلاف كبير فى حجم المقابر ربما يعزى إلى النظام المركزى الذى تمتعت به حضارة كرما، على عكس حضارة المجموعة الثالثة، وليس بغريب أن أقصى الحدود التى بلغها المصريون على أيام الدولة الوسطى إنما تنتهى عند الحدود التى تفصل جغرافياً بين هاتين الحضارتين، أى عند الجندل الثانى^(١).

(٣٣) مرجسية (مرقيسة):

وتقع على الضفة الغربية للنيل، عند الجندل الثانى، وعلى مبعده ٢٠ كيلا جنوبى وادى حلفا، ٣ كيلا جنوب «مايانارتى»، وفيها قلعة من الدولة الوسطى تدعى «التى تكبح الصحراوات» وتشبه قلعة «بوهن» فى الشكل والحجم، وهى مستطيلة ولها جدار من ناحية النهر، ويحميها من الناحيتين الشمالية الغربية والجنوبية جداران يليهما خندق جاف، وقد عثر فيها على بقايا معبد من عهد «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق. م)، أضاف إليه «أمنتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق. م).

(٣٤) نورى :

تقع على مبعده ٣٥ كيلا جنوبى الشلال الثالث، ٨ كيلا جنوبى جبل البرقل، على الشاطئ الأيسر للنيل، وقد أقام بها «طهرقا» مقبرته، وهى أعظم بناء جنازى فى جبانة نورى الملكية، التى أقيمت بعد ازدحام الجبانة القديمة فى «الكرو» - على مبعده ١٢ كيلا من كريمة - وقد سار على نهج «طهرقا» عدد كبير من ملوك نباتا، فبنوا مقابرهم فى نورى - على مبعده ٢,٥ كيلا من النيل - هذا وقد بقيت الصبغة المصرية غالبية على الملوك الأوتال الذين دفنوا فى جبانة

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٥٠ - ٥١، وكنا:

M. Bakr, The Relationship between The C-Group, Kerma, Napatan and Meroitic Cultures, Kush, XIII, 1965, p. 261 - 264.

نورى، حيث دفنوا فى مقابر تعلوها أهرامات ذات طراز مصرى، كذلك التى عرفها كبار الشخصيات فى أخريات الدولة الحديثة، وليس كالأهرامات الملكية للأسرة الرابعة، هذا وقد تميزت أهرام نورى بأبها من طراز واحد، وتميزها خواص ثلاثة هى: أولاً: الهرم الذى تتبعه مقصورة خارجية بنيت فى جهة منه، ثانياً: لكل هرم سور يحيط به وبالمقصورة، ثالثاً: كان لحجرة الدفن سلم مفتوح يتحدر من الغرب، ويؤدى إلى سلسلة حجرات، تتكون من حجرتين أو ثلاث حجرات للدفن.

هذا وكان الزخرف فى حجرات الدفن والتوابيت المنحوتة من الجرانيت يتمشى مع الأسلوب المصرى فى كل التفاصيل، فالتقوش الدينية التى تغطي جوانبها تتبع تقليداً ترجع إلى أهرامات مصر، كما أن بعض أدوات الأثاث الجازى التى نجت من نابشى القبور، كجرار سكب القرابين وتمائيل الأوشابتي والتماثيل الصغيرة، تماثل تماماً تلك التى وجدت فى مصر.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى «مرسوم نورى» الذى أصدره الفرعون «سيسى الأول» (١٣٠٨ - ١٢٩١ ق.م) فى عام حكمه الرابع، وذلك لمخصصات معبد أوزير فى أيدوس (مركز البلينا - سوهاج)، ووجهه إلى جميع المسئولين طالباً الحفاظ على ممتلكات المعبد فى النوبة، وعدم التدخل فى شئونه .

هذا وهناك فى «نورى» أقام «طهرقا» مقبرته، وهى أول وأعظم بناء جنازى فى جبانة نورى الملكية، التى أقيمت بعد ازدحام الجبانة القديمة فى «الكرو» - على مبعده ١٢ كيلا من كريمة - وقد سار على نهج «طهرقا» عدد كبير من ملوك نباتا، فبنوا مقابرهم فى «نورى»، على مبعده ٢,٥ كيلا من النيل، خاصة وقد أصبح حكم مملكة نباتا - بعد تانوت أماني - مقصوراً على السودان، دون مصر، وهناك أكثر من ٢٢ هرمًا للملوك فى نورى^(١).

ولاريب فى أن هرم «طهرقا» فى نورى، من أعظم ما أقيمت عليه الأيام من أهرام السودان، ويمكن الوصول إلى حجرة الدفن فيه عن طريق سلم ذى درجات تؤدى إلى دهليز، وبعد حجرة الدفن الواسعة التى يحمل سقفها ستة أعمدة مربعة منحوتة فى صخرة الجبل نفسه، وهى تقسم الحجرة إلى ثلاثة أقسام، فى الوسط

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٦٠ - ١٦٢.

منها صفة حجرية ليستقر عليها السرير الخشبي المعد لوضع التابوت فوقه، وفي آخر
حجرة الدفن يوجد باب وراءه بضع درجات تؤدي إلى دهليز يسير حول هذه
الحجرة^(١).

هذا وقد عثر داخل الهرم وحوله على أكثر من مستماتة تمثال مجيب
(أوشابتي) كتب عليها «أوزير، الملك طهرقا»، وكانت هذه التماثيل ترتدى لباس
الرأس الملكي، ومنحوتة في الحجر، وتشبه التماثيل الجيبية المصرية، كما وجدت
آيتان من أواني الأحشاء باسم طهرقا، وقد نقشت عليها الصيغة التي سادت في
عصر الأسرة الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين، وهي: «حماية الملك طهرقا
المبرأ، إن حابي يحمي أوزير طهرقا المبرأ»^(٢).

على أن هناك أمراً مثيراً بالنسبة لمدفن الملك طهرقا، فالرجل قد أقام لنفسه
مقبرة وهرما في نوري، ذلك أن الهرم الذي لم يعثر بداخله - كما ذكر مكتشفه
رايزنر - على أية آثار للدفن، بل إن هناك من يذهب إلى أنه قد تخلى عن المقبرة
التقليدية في «الكرو»، وبني ما يبدو وكأنه مقبرة تقليدية وهمية في نوري شبيهة
بمقبرة أوزير في أييدوس، كذلك هناك مقبرة في «سدنجا» (صدنقا) - على
مبعدة ١٠٩ كيلاً شمالي الجندل الثالث، ٢٤٥ كيلاً جنوب وادي حلفا -
تحتوي بعض ألقاب طهرقا، وهي بعيدة نسبياً عن مراكز الثقل السياسي في كل من
مصر ونيابا، ومع ذلك فإن «جيورجيني» إنما يرجح أن طهرقا قد دفن فيها فعلاً،
بدليل العظام الأدمية التي عثر عليها داخل هذا المدفن^(٣).

والرأى عند الأستاذ الدكتور بكر، أن «جيورجيني» مصيب في رأيه وأن هناك
أمثلة في التاريخ المصري لا تختلف عن ذلك، فلقد أقام بعض ملوك الأسرة الأولى
والثانية مقابر رمزية لأنفسهم في أييدوس، بينما كانت مقابرهم الحقيقية في

(١) أحمد فخري: الأهرامات المصرية، ص ٣٥٦.

(٢) سليم حسن: مصر القديمة، ١١ / ٢٦٦.

(٣) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٥٧، جان لكلان: المرجع السابق، ص ٢٨٣، وكنا،
M. S. Giorgini, *Klusch*, XIII, 1965, p. 116 - 123.

سقارة، كما أقام «زوسر» في الأسرة الثالثة، مقبرة في سقارة أيضاً، وهكذا فعل «طهرقا» فالخلفية الدينية عند ملوك نباتا، لا تختلف عن ذلك، فلقد أقام بعض ملوك الأسرة الأولى الثانية مقابر رمزية لأنفسهم في أبيدوس، بينما كانت مقابرهم الحقيقية في سقارة. فقد أقام زوسر مقبرة لنفسه في «بيت خلاف»، وفي نفس الوقت أقام هرمه المدرج في سقارة ليدفن فيه، وهذا الذي في كريمة لا يختلف كثيراً عما كان سائداً في مصر^(١).

=/=

D. Dunham and O. Bates, op. cit., II, 1955, p. 6 - 16.

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٥٧، وانظر عن المقابر الحقيقية والرمزية (محمد بيومي مهران: مصر ٣/٣ - ٣٣ - ٤٤، ١١٣ - ١١٨، محمد أنور شكري: العمارة في مصر القديمة، ص ٢٧٦ - ٢٧٧، وكنا:

W. B. Emery, *Archaic Egypt*, 1963, p. 65 - 68, 74 - 80, 84 - 90.

W. M. F. Petrie, *The Royal Tombs of The First Dynasty*, I, London, 1900, p. 19 - 20.

الفصل الثاني

المغرب القديم

(١) المدن الفينيقية والمراكز الأثرية

تقديم:

لا ريب في أن الفينيقين قد تأثروا إلى أبعد الحدود بالبيئة التي عاشوا فيها، واستجابوا لها استجابة كاملة، فشكلت تجارتهم وحياتهم الاقتصادية والإجتماعية والسياسية، على أن أبرز النواحي التي ظهرت فيها آثار البيئة في الحياة الفينيقية هي النشاط البحري، فقد كانت جبال لبنان التي تقع خلف الوطن الفينيقى تعرقل صلة السهول الساحلية بالأقاليم الداخلية، وتجبر السكان على أن يلتمسوا لانفسهم مخرجاً آخر، وذلك بأن يتجهوا إلى البحر، هذا فضلاً عن أن البيئة المحلية لم تعد قادرة على إعالة عدد من السكان يتزايد عددهم عاماً بعد عام، ولم تكف الزراعة بقيادة على إطعام آلاف الأفواه التي تعيش في المدن الساحلية.

وانطلاقاً من كل هذا، فقد كان على الفينيقيين أن يلتمسوا لهم سبلاً أخرى، أو أن يتطلقوا إلى ميدان التجارة، وأن يتصلوا بالأمم الكبرى من وراء البحر، هذا فضلاً عن أن سفوح جبال لبنان إنما تزخر بالخشب الجيد الصالح لبناء السفن، وهكذا فإذا اقترنت الرغبة في المخاطرة، والبحث عن لقمة العيش، بتوفر المواد الصالحة، والمواد الخام اللازمة، لم يكن شيئاً غريباً أن يستجيب هؤلاء الساميون القادمون من شبه الجزيرة العربية لنداء البيئة، ويتركوا حياة البداوة التي ألفوها، ويقبلون على البحر فيركبون متنه.

هذا وقد بدأ القوم برحلات بحرية قصيرة لصيد الأسماك أو البحث عن الزجاج أو الصلصال، ثم بيع هذه الأشياء وغيرها من المنتجات المحلية الأخرى، ثم زاد هذا النشاط بعد القرن الثالث عشر أو الثاني عشر قبل الميلاد، حينما ضغط الأراميون عليهم في وسط سورية، وأحاط بهم الإسرائيليون والفلسطينيون من

الجنوب، ومن ثم فلم يجدوا مقرا من أن يتجهوا إلى البحر بكليتهم، فقد كان هو المخرج الوحيد^(١).

وقد أدى هذا الوضع الجديد إلى إنشاء محطات ومراكز مستقرة في المناطق التي تتجه إليها سفنهم لتكون محطات استقرار، أو على الأقل، محطات يستريحون فيها أياما معدودات، في أول الأمر، على الأقل، وقد أدى ذلك إلى تنابع هجراتهم بالتدرج، وعلى مرات معدودات، تحقيق هذا النشاط التجاري في هذه الأسواق والمناطق الجديدة في غربي البحر المتوسط^(٢).

وليس هناك من ريب في أن الدوافع الأساسية وراء إرسال التجار الفينيقيين إلى غربي البحر المتوسط، وهو البحث عن موارد معدنية - وخاصة الذهب والفضة والنحاس والقصدير، وقد قادهم هذا البحث - في تاريخ مبكر - إلى أسبانيا التي ظلت أحد المصادر الرئيسية في عالم البحر المتوسط، حتى في العصر الروماني^(٣).

وتقدم لنا التوراة - في سفر حزقيال - وصفا مفصلا لتجارة الفينيقيين البرية والبحرية في مظاهرها المختلفة، وهو يذكر من بين وارداتهم، الفضة والحديد والقصدير والرصاص من أسبانيا، والرقيق وأواني النحاس الأصفر من إيونيا، والكتان من مصر، والخراف والماعز من شبه الجزيرة العربية، ويشير «هيروdot» إلى أن توابل بلاد العرب كانت تنقل عن طريق التجار الفينيقيين^(٤)، ونقرأ في التوراة أيضاً عن أسطول «حيرام» ملك صور، الذي أبحر من أسطول سليمان إلى «أوفير»^(٥)، وأتى من هناك بالذهب والأخشاب النادرة والأحجار النفيسة، وكل ما هو نادر وغريب^(٦).

(١) حسن محمود: المرجع السابق، ص ٣٩٢.

(٢) محمد يومي مهران: تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم، القاهرة ١٩٨٥، ص ١٨٤.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٤٥٤.

(٤) حزقيال ١ / ٢٧ - ٣٦، نجيب ميخائيل. المرجع السابق، ص ١١٦، فيليب حتى المرجع السابق، ص ١٠٧ - ١٠٨، وكذا Strabo, XVI, 3 - ١.

(٥) أنظر عن «أوفير» والآراء التي دارت حول موقعها (محمد يومي مهران: اسرائيل، التاريخ، الجزء الثاني، الإسكندرية، ١٩٧٨، ص ٧٨٢ - ٧٩٢).

(٦) ملوك أول ١١ / ١٠ - ١٢، محمد يومي مهران المرجع السابق، ص ٧٨١.

ويقتول «ديودور الصقلي» (٨٠ - ٣٠ ق.م) أن الوطنيين (أى فى أسبانيا) إنما كانوا يجهلون استخدام الفضة حتى حصل عليها الفينيقيون فى رحلاتهم التجارية فى مقابل كمية قليلة من السلع، وحملوها إلى بلاد الإغريق وآسيا والبلاد الأخرى، وحصلوا على ثروات كبيرة، كما زادت قوتهم عن طريق هذه التجارة التى مارسوها لوقت طويل، وكانوا قادرين على إرسال أعداد من المهاجرين إلى صقلية والجزر الخدورة وأفريقيا وسردينيا، وإلى أسبانيا ذاتها^(٧).

وعلى أية حال فلم يكن الفينيقيون يكتفون بمجرد المتاجرة والعودة من حيث أتوا، وإنما كانوا يستقرون ويستعمرون وينشئون منها فينيقيا جديدة، أما اذا كانت البلاد التى ينزلها الفينيقيون ذات حكومات قوية وقادرة على حماية نفسها، فإن ملاحى فينيقيا لا يؤسسون مستعمرة حقيقية، وإنما يكتفون بوكالات تجارية وبشراء حق حرية التجارة، كما فعلوا فى مصر، حيث استقروا عند مصبى الدلتا، وطبقا لرواية هيرودوت، فلقد اتخذوا لأنفسهم فى «منف» - العاصمة المصرية القديمة - حيا خاصا بهم سمي «معسكر الصوريين»، كمات أقاموا معبدا هناك كانوا يتعبدون فيه للمعبودة «إفروديت الأجنبية»، وهى عشتار على الأرجح^(٨).

٢- المستعمرات الفينيقية فى الشمال الأفريقى:

لعل من الأهمية يمكن الإشارة هنا - وقيل أن نتحدث عن المستعمرات الفينيقية فى الشمال الأفريقى - إلى عدة نقاط، لعل من أهمها (أولا) أن تأسيس المراكز الفينيقية فى المغرب، إنما قد تم فى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، ومن ثم فإن العصر الفينيقى إنما قد أستمر فيما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، حيث بدأت الدولة القرطاجية فى الوقوف على قدميها، كقوة ذاتية مستقلة سياسيا عن المشرق.

ومنها (ثانيا) أن العصر الفينيقى فى المغرب إنما كان عصر استكشاف

(٧) ب. هـ. ورامنتون: المرجع السابق، ص ٤٥٤.

(٨) ج. كوتتو: المرجع السابق، ص ٩٥، محمد بهومي مهران: تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم،

ص ١٨٤، نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ١١٦.

اقتصادي، أكثر منه عصرا سياسيا، ذلك لأن المدن الفينيقية في الشمال الأفريقي، إنما كانت تابعة سياسيا لمدينة «صور» في فينيقيا، بل يمكننا القول أن الإرتباط السياسي - فضلا عن الإلتزام الضريبي، وربما الحضاري - إنما ظل قائما حتى بعد استقلال المدن الفينيقية الإفريقية عن أصولها الأولى في فينيقيا. وثمنها (ثالثا) أن الإنتقال من المرحلة الفينيقية إلى المرحلة القرطاجية، إنما قد تم في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، حيث أسس «ماقون» أو «ماجوجو» Mago أسرة حاكمة في «قرطاج» (الأسرة الماجونية)^(٩).

وأما أهم المدن أو المستعمرات الفينيقية في الشمال الأفريقي (المغرب) فهي:

١- قرطاج:

لا ريب في أن أعظم المدن الفينيقية عبر البحر قاطبة إنما هي مدينة «قرطاج»^(١٠)، وتقع على مقربة من مدينة «تونس» الحالية، فيما بين «بورسعيد» و«لاجويت»، ويرجع تأسيسها إلى عام ٨١٤ ق.م، حتى وإن زعم البعض أنه يرجع إلى ما قبل ذلك - إلى القرن الثامن قبل الميلاد - حيث ثبت حتى الآن عدم وجود أية آثار فينيقية الأصل في تلك المناطق قبل منتصف القرن الثامن (أي حوالي عام ٧٥٠ ق.م)^(١١)، وهو لا يعد كثيرا عن التاريخ المتعارف عليه، أي عام ٨١٤ ق.م، وعلى أية حال، فلا يمكن أن نستنتج شيئا ذا قيمة تاريخية من أسطورة تأسيس قرطاج التي وصلت إلينا في مختلف كتابات المؤلفين الإغريق والرومان^(١٢).

هذا ويذهب البعض إلى أن اسم «قرطاج» (قرطاجة) (Carthago) وفي

(٩) رشيد الناصوري. المرجع السابق، ص ١٦٧ - ١٧٣، هـ ب وارمنجتون. المرجع السابق، ص ٤٥٦.

(١٠) قرطاج: حوت. عادة بعض المؤرخين أن يكتبوها «قرطاجة»، وهو خطأ شائع، والصحيح كتابتها «قرطاجة» أو «قرطاج»، كما يسميها أهل تونس أنفسهم، أما «قرطاجة» فهي مدينة في أسانيا. معالم تاريخ الإسبانية ١٢ / ٥٠٥.

(11) B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, p. 22.

D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, p. 54.

(١٢) ب هـ وارمنجتون. المرجع السابق، ص ٤٥٥.

اللاتينية Carthage) إنما هو صورة محرفة من الإسم الفينيقي «قرت حدثت» بمعنى «المدينة الجديدة»، وبدل هذا ضمنا على أن المكان قدر له منذ البداية أن يكون المستوطنة الرئيسية للفينيقيين في الغرب، وطبقا لقصة إنشائها، أو بعبارة أصح أسطورة إنشائها^(١٣)، فقد أسستها الأميرة «إلياء» (Eliasa) ابنة «متان» ملك صور، عندما هربت من ظلم أخيها «بيجماليون» (Pygmalion) - الذى خلف أباه فى حكم صور، وكانت إيليا ترغب فى الزواج من خالها «أشرباس» (Echerbas) - أحد كهنة المعبود ملقارت - وقد أغضب ذلك أخوها «بيجماليون» فأمر بقتل هذا الكاهن، مما دفع إيليا إلى الهجرة إلى جزيرة قبرص - مع عدد من المعارضين لأخيها - وهناك أنضم إليها أحد كهنة المعبودة «عشتارت» Asterte الذى اشترط أن تكون له ولعائلته أولوية فى كهنوت المراكز الفينيقية الجديدة، وأن يكون ذلك وراثيا فى أسرته، وسرعان ما انضمت إليها ثمانون عذراء كانوا أصلا للبعث المقدس، ثم اتجهوا جميعا إلى منطقة الساحل الأفريقي المغربى، غير أن «إلياء» سرعان ما انتحرت عندما أراد رئيس البربر أن

(١٣) لعل مما تجدر الإشارة إليه أن هناك الكثير من الأساطير التى ترتبط بالشخصيات الهامة - وربما الأسطورية - بتأسيس المدن الهامة، فضلا عن الأحداث الرئيسية، وذلك لأن الكتاب القدامى أرادوا لفت الأنظار إلى أهميتها - المدن والأحداث - فقاموا بتسجيلها بصورة شعبية وبإسهاب وتفصّل، قد يترى فى كثير من الأحيان عواطف العامة وخيالهم، أكثر مما يرضى عقول العلماء، فقدموا لنا أحداثا أقرب إلى الأساطير منها إلى التاريخ الحقيقى.

وهناك فى تاريخ العرب القديم - على سبيل المثال - مدينة «هائل» - وهى مركز دينى هام فى دولة معين - وتسمى «براقش» (وكانت قديماً تسمى يطيل)، وهى نفسها مدينة (Athluba) (Athrula) = آخر موضع وصلت حمله «إليوس حاليوس» الرومانى على اليمن فى عام ٢٤ ق.م - وعلى أية حال فإن «براقش» عند الإخباريين مدينة قديمة جداً، كان يسكنها عند ظهور الإسلام «بو الأبر» من بلحارث بن كعب ومراد، وقد اختلفوا فى سبب تسميتها «براقش»، فرواية تذهب إلى أنها إنما سميت كذلك نسبة إلى كلبية عرفت باسم براقش، ورواية أخرى تسبها إلى امرأة تدعى «براقش» عهد إليها أبوها بتصرف ثغور الدولة أثناء غيابه فى واحدة من غزواته، فما كان من براقش إلا أن اغتلبت الفرصة، فبست مدينتى براقش ومعين تحليداً لذكراها، غير أن ذلك قد أغضب والدها الملك، ومن ثم فقد أمر بهدم المدينة، على أن رواية ثالثة تسبها إلى مرقش امرأة لقمان بن عاد (أنظر: البكرى ١/ ٢٢٨، الميلانى ١٤ / ٢ - ١٥، البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٢٢٢، القاموس المحيط ٢/ ٢٧٢، وكذا محمد بيومى مهراڤ: تاريخ العرب القديم ص ٣٣٢).

يتبعها زيجة له، هذا ريسدى الرواة الأميرة «إليا» هذه، باسم «ديدون» بمعنى «الهارية»، وهو اسم غير فينيقي، وليست لدينا أية وثائق تسوغ لنا قبول هذه الرواية أو حتى رفضها^(١٤).

غير أن هناك مصدرا آخر يتحدث عن تأسيس «إليا» (ديدون) لمدينة «قرطاج» حيث يحدثننا المؤرخ البهردى يوسف بن متى (يوسفوس فيلافيوس = ٣٧ - ٩٨ أو ١٠٠ م)^(١٥) - نقلا عن آخرين - أنه في السنة السابعة من حكم «بيجامبون» أسست إليا مدينة قرطاج، ومن ثم فهناك عنصر تاريخي سليم - إذا ما صدقت رواية يوسف اليهودى - يتعلق بارتباط هذه الأميرة الصورية بتأسيس مدينة قرطاج^(١٦).

وعلى أية حال، فإن المستوطنات الفينيقية جميعا، بما فيها قرطاج نفسها - على عكس المستوطنات التي أقامها الإغريق في صقلية وإيطاليا وغيرهما في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد - إنما ظلت (أى المستوطنات الفينيقية) محدودة المساحة، وربما لم يسكنها، لدى بضعة أجيال، غير مئات قليلة من المستوطنين على الأكثر^(١٧).

ولاريب فى أن المؤرخ الرومانى «إبيات» (القرن الثانى الميلادى) إنما كان موفقاً إلى حد كبير فى وصفه لمدينة قرطاج عندما وصفها بأنها أشبه ما تكون بالسفينة الراسية، فبنيت فى شبه الجزيرة المحاطة بالبحر من ناحية، وبالبحيرتين من ناحية أخرى، الأمر الذى جعل رجزتها بحرية، أكثر منها برية أفريقية، وعلى أية حال فمدينة قرطاج إنما تتميز نموذجا للمدينة القرطاجية التي تعبر عن التفكير والحياة القرطاجية، فضلا عن النشاط السياسى والاقتصادى فى العصر القرطاجى^(١٨).

(١٤) ج. كوتشور: المرء: السابق، ص ٩٨، ب. هـ. وارنستون: المرجع السابق، ص ٤٥٥، رشيد
الناصرى: المرجع السابق، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(١٥) أنظر عن يوسف بن متى (محمد بن موسى مهران: تاريخ العرب القديم، ص ٣١ - ٣٢)

(١٦) رشيد الناصرى: المرجع السابق، ص ١٦٢

(١٧) ر. هـ. وارنستون: المرجع السابق، ص ٤٥٥ - ٤٥٦

(١٨) رشيد الناصرى: المرجع السابق، ص ١٧٧ - ١٧٨ وكذا

هذا وقد كان لقرطاج ميناء صناعي أهدأ إعداداً جيداً، فأما الميناء الخارجي فكان لا يستخدم السفن التجارية، وإن كما لا نعرف عدد السفن التي كان يمكنها استخدامه في وقت واحد، وأما الداخلي فكانت به أرصفة وأحواض تتسع لمائتين وعشرين سفينة حربية، هذا فضلاً عن مبنى للمراقبة يصل ارتفاعه إلى درجة تكفي للرؤية - رغم المباني المترضة - إلى مسافة بعيدة في البحر.

وكانت أسوار المدينة - والتي ترجع إلى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد - هائلة الحجم، الأمر الذي مكنها من الصمود لكل هجوم - بما في ذلك الهجوم الروماني الأخير في عام ١٤٦ ق.م - وكان طول الأسوار - بما في ذلك المسافة المطلية على البحر - حوالي ٣٥ كيلاً، وكان ارتفاع القطاع الحاسم - لمسافة ٤ كيلاً عبر برزخ قرطاج - أربعين قدماً، وسمكه ثلاثين قدماً، ولم تقتصر مهمة تلك الأسوار، وإنما كانت جدران الأسوار الضخمة تستخدم بعد تجهيزها بالاحتياجات الأساسية - كشككات واسطبلات ذات أسوار سفلية وعلوية، وكان الدور السفلي يسع ٣٠٠ فيلاً، ويسع العلوي ٤٠٠٠٠ حصاناً، وقد جهزت الأرضيات المنحدرة بحيث تساعد على نزول وصعود هذه الحيوانات، وتتسع الشككات لحوالي عشرين ألف جندي من المشاة، وأربعة آلاف من الفرسان، هذا فضلاً عن حفر خندق كبير يبلغ عرضه عشرين متراً لزيادة تحصين المدينة، الأمر الذي جعل وسائل الدفاع عن قرطاج في غاية القوة.

ولم تقتصر وسائل التحصين على ذلك، وإنما أقيمت أيضاً قلعة داخلية، مكانها الآن كنيسة لويس التاسع، ويحيط بها سور كبير طوله حوالي ٣ كيلاً، وهو بلاشك أقدم جزء في المدينة.

وهناك أيضاً آثار المباني ذات الصبغة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كالمساحات - أو كما تسمى عند المواطنين العرب في تونس بالرحبة أو البطحاء - وتشبه الساحة اليونانية (Agora) واللاتينية (Forum)^(١٩)، وتقع في مكان

(١٩) الاجوراء (Agora) عند اليونان، و«القوروم» (Forum) عند الرومان، هو سوق المدينة، وكانت تجرى فيه أعمال البيع والشراء، وهو ملتقى الاجتماعات العامة، ولما اتسمت روما زاد عدد الأسواق بها، وكانت تقوم به المنشآت والأبنية العامة.

متوسط بين الميناء والقلعة، وهكذا وجد بين الميناء وتل بيرصة ساحة عامة مكشوفة، تشبه «الأجوراء» الأغرريقية، و«الفرروم» الروماني، وإن كان يبدو أن ساحة قرطاج إنما قد خططت تخطيطاً منتظماً، أو اتخذت مظهر الفخامة الذي تميزت به ميادين المدن الأغرريقية، هذا فضلاً عن مبان أخرى لها وظيفتها السياسية مثل مبنى مجلس الشيوخ وقاعات القضاء^(٢٠).

وعلى أية حال، فإن مدينة قرطاج - في أكبر الظن - قد نمت دون تخطيط، فكانت شوارعها ضيقة ملتوية، وإن كانت مرتفعة بالنسبة لعصرها، حتى وصل ارتفاع بعضها إلى ستة طوابق، شأنها في ذلك شأن تلك المباني التي وجدت في صور - المدينة الفينيقية الأم - وفي موتيا في صقلية، وقد استمر القرطاجيون في تلك المباني ذات الأدوار المتعددة، بصورة تقليدية لما كان في مدينة صور، رغم عدم الحاجة إليها في المغرب، وعلى أية حال، فلقد وضحت في تلك الدور القرطاجية بعض التأثيرات المعمارية اليونانية، وخاصة الأعمدة الإيونية^(٢١).

وأياً ما كان الأمر، فلقد استكملت قرطاج جوانبها الدينية ببناء المعابد، غير أن معابد قرطاج - رغم ما قيل عن كثرتها، - فليس هناك ما يشير إلى أنها كانت ضخمة، حتى المراحل الأخيرة من التاريخ القرطاجي، حين وضع التأثير الثقافي الإغرقي، وذلك لأن الأدلة إنما تشير إلى أن القرطاجيين إنما كانوا قوماً محافظين في المسائل العقديّة، ومن ثم فقد ظلوا طويلاً، مخلطين بساطة الأماكن المقدسة الخالية من أية أبنية أو أنصاب فخمة^(٢٢).

بقيت الإشارة إلى أن ما يقدمه لنا المؤرخون عن عدد السكان في قرطاج، إنما هو مجرد افتراضات، لا تقوم على إحصائيات رسمية، وعلى أية حال، فلقد قدر «سترابون» عدد السكان بسبعمائة ألف، وهذا يعني ببساطة كشافة سكانية مستحالة، فضلاً عن أن مدن العالم القديم لم تكن تعرف هذه الأرقام في عدد

(٢٠) ب. هـ. ولرمجتون: المرجع السابق، ص ٤٦٣، أحمد صقر: مدينة المغرب العربي في التاريخ، تونس ١٩٥٩، ص ٩٧، ١٠٢، رشيد الناصوري: المرجع السابق، ص ١٧٩ - ١٨٠

(٢١) ب. هـ. ولرمجتون: المرجع السابق، ص ٤٦٣. رشيد الناصوري: المرجع السابق، ص ١٨٠

(٢٢) ب. هـ. ولرمجتون: المرجع السابق، ص ٤٦٣

السكان، وإن كان هناك من يذهب إلى أن «ستراير» كان يعنى بهذا العدد الذى ذكره (سبعمئة ألف) كل سكان قرطاج وكل منطقة أذار، وربما كان التقدير الأكثر قبولا هى أربعمائة ألف، بما فى ذلك العبيد، وهو، على أية حال، رقم يجعل عدد سكان قرطاج مساويا لعدد سكان أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد (٢٣).

وأيا ما كان الأمر، فإن التاريخ الحقيقى لقرطاج لم يبدأ إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد، عندما بدأت صور تضمحل ويقال شأنها تحت ضربات الإمبراطور الكلدانى «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م)، كما أشرنا من قبل، ثم خضوعها له وضمها إلى الإمبراطورية البابلية الكلدانية، غير أن العامل الأهم - فيما يرى وارمنجتون - إنما كان ازدياد ضغط المستوطنات الإغريقية فى صقلية، مثل «سرقوسة» التى نبت ثروتها وسكانها بسرعة كبيرة، والتى تأسست أصلا - هى وغيرها من المستوطنات هناك - نتيجة للضغط السكانى فى بلاد اليونان ذاتها.

وسرعان ما ازدهرت قرطاج حتى غدت زعيمة المدن الفينيقية فى أواسط البحر المتوسط، ثم صارت قرطاج على نفس سياسة صور وصيدا، فأظلت المدن الفينيقية بحمايتها، وأست مستعمرات جديدة، من ذلك تلك المستعمرات التجارية فى جزيرة «إليا» - بين سردينيا وأسبانيا - حوالى عام ٦٥٠ ق.م، فضلا عن مستعمرات أخرى على شواطئ «مينوركا» فى جزر البليارد، وغيرها من المستعمرات على شواطئ البحر المتوسط الأوربية والافريقية (٢٤) - كما سنرى -.

هذا وكان المظهر الوحيد فى قرطاج (قرطاجنة) الذى حظى بإطراء ومديح أباطره الإغريق والرومان هو دستورها السياسى الذى يبدو أنه كان يكفل لها الإستقرار، وهو مطلب عزيز كانت تشده المدن فى العصور القديمة، إن كانت التفاصيل عن هذا الدستور غامضة، كما أنه ليس من المؤكد أن هؤلاء الكتاب

(٢٣) نفس المرجع السابق، ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

(٢٤) محمد يرمى مهران: المرجع السابق، ص ١٨٥ - ١٨٦، وكذا:

D. Harden, the Phoenicians, London, 1963, p. 54.

القدامي قد أدركوا الحقائق، كما ينبغي أن ندرك^(٢٥)، وعلى أية حال، فإن التنظيم السياسي في قرطاج قد مر بمراحل رئيسية ثلاثة:

١- المرحلة الأولى: مرحلة الملكية، والتي استمرت حتى العصر الهلينستي، وذلك النظام استمرارا لما كان موجودا في حكومات المدن الفينيقية في المشرق - كما تشير إلى ذلك النظام الفينيقي الوثائق المصرية والآشورية - فقد كانت الملكية الفينيقية وراثية في الغالب، مع انقطاع أحيانا في التسلسل الملكي - ومع ذلك، ففي الإمكان عمل قوائم بأسرات ملكية حكمت في عدة مدن، وإن كانت غير كاملة، فهناك مثلا أسرة حيرام في صور، وكذا «لولي» (ايلو ايلى) في صور أيضا، وقد ظهر الأول كأهم شخصية في منطقة الساحل في عهد داود وسليمان عليهما السلام، وظهر الثاني كأهم شخصية في نفس المنطقة على أيام سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م.)، بل إنه إنما قد فرض شخصيته على قسم كبير من فينيقيا، حتى أنه حاول إخضاع قبرص^(٢٦).

غير أن الملكية القرطاجية - رغم ذلك - إنما كانت إلى حد ما فريدة في نوعها، فهي ليست كالمملكة المصرية القديمة ذات الطابع الإلهي^(٢٧). أو المملكة السومرية^(٢٨)، ذلك لأن الملكية القرطاجية إنما كانت في بداية أمرها تتم عن طريق الانتخاب - وليس الوراثة - فكان الملك القرطاجي يختار من الطبقة

(٢٥) ب. هـ. واربنتون: المرجع السابق، ص ٤٦٤.

(٢٦) أنظر: محمد بيومي مهران: اسبائيل، الكتاب الثاني ص ٧٨ - ٧٨٤، ص ٨٤٣ - ٨٤٧، ٩٠٤، ٩١٠، ٩١٢، ٩٦٣.

(٢٧) أنظر: سورة الشعراء: آية ٢٩، القصص: آية ٣٨، النازعات آية ٢٢، ٢٤، محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة، الجزء الثاني، الطلعة الرابعة، الإسكندرية ١٩٨٩ ص ١١٩ - ١٥١.

(٢٨) هاك ما يشير إلى مبادئ ديمقراطية بدأت في العراق القديم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، تشير إلى نواجد التفكير الديمقراطي في بداية العصر التاريخي، وانتخاب الحاكم الذي يرأس حكومة المدينة، بناء على قرارات الجمعية العمومية، والتي تتكون من جميع المواطنين، ربما بما فيهم النساء (أنظر: رشيد الناصوري: جنوبي غرب آسيا وشمال أفريقيا، محمد عبد الغلطي: تاريخ العراق القديم، ص ١٧٨ - ١٨٠).

T. Jacobson, Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, in JNES, II, 1843, p: 165, No. 35.

الإرستقراطية، ذات المال والجاه المورثين، ومن ثم فإن النظام السياسى القرطاجى يتفق مع الهدف الفينيقي الأول، وهو الإستحواذ على الثروة الإقتصادية، حتى أن العمليات السياسية والحربية القرطاجية إنما كانت تهدف إلى تدعيم الجانب الإقتصادى، كما أن عمليات إستكشاف البرى والبحرى القرطاجى، فضلاً عن التدخل فى أسبانيا وغيرها، إنما كانت لتثبيت هذا الهدف الإقتصادى الذى احتل مكان الصدارة فى التاريخ الفينيقي والقرطاجى، ومن ثم فقد كان أصحاب الثروة فى المكانة الأولى فى السلطات السياسية.

وعلى أية حال، فلقد تولى منصب الملك فى قرطاج خلال القرنين، السادس والخامس قبل الميلاد، أفراد من «الأسرة الماجونية»، والتي ظهر من أفرادها المبرزين «هملكار» (حملقرت = Hamilear) الذى قاد حملة فى عام ٤٨٠ ق.م، والمستكشف «حنون» (هنو = Hanno) والذى ربما كان ابناً للملك «هملكار»، وذلك لأن النصوص تشير اليهما بوصفهما ملكين، وقد شغل ملوك أسرة «ماجون» (ماجون) خلال هذين القرنين (السادس والخامس قبل الميلاد) منصب القادة العسكريين للدولة كذلك، عندما تطلبت ذلك تلك القيادة، ومن المحتمل أن الكتاب القدامى فى تلقيبهم لهؤلاء بالملوك قد أخذوا فى الإعتبار سلطتهم الدينية والقضائية، فضلاً عن سلطاتهم السياسية.

٢- وفى أثناء القرن الخامس قبل الميلاد حدث تطور أدى فى النهاية إلى تناقض قوة الملوك نتيجة لتغير النظم الإقتصادية، فلقد نشأت طبقة جديدة فى المجتمع القرطاجى، وهى طبقة ملاك الأراضى الزراعية، وبذلك بدأت عوامل التنافس الإقتصادى على الثروة، والتنافس السياسى على الحكم، وقد نجحت طبقة ملاك الأراضى فى النهاية من الإستحواذ على تلك السلطة، وانتزاعها من الأسرة الماجونية، وذلك فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ومن ثم فقد بدأت مرحلة جديدة هى أقرب إلى النظام الجمهورى، منها إلى النظام الملكى، رغم الإستمرار فى استخدام تعبير «الملك» الحاكم للبلاد، وقد استمرت هذه المرحلة الثانية من التنظيم السياسى فى قرطاج من حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، إلى حوالى بداية القرن الثالث قبل الميلاد.

هذا وقد صاحب هذا التطور الجديد نشأة «الشفطان» (Sufetes)، وهو الإصطلاح السياسي القرطاجي الوحيد الذي نقله لنا الكتاب الرومان، وكلمة «الشفطان» أو السبطان، تعادل الرقباء (المناسرة) عند الرومان، كما كان لقبها باللغة السامية يعادل لقب «القضاة»^(٢٩) عند بني إسرائيل، ومنذ القرن الثالث كان ينتخب منها اثنان - وربما أكثر - سنويا، وقد ظل اصطلاح «الشفيط» (Selinus) مستخدما في شمال أفريقيا في مناطق الثقافة القرطاجية لمدة قرن على الأقل بعد الغزو الروماني، ليشار به إلى الحكام الرئيسيين للمدينة، وكان تقلص سلطة الملك شيئا بالتطورات في المدن الإغريقية وروما، وفي نفس الوقت إزدادت قوة الإستقرائية الثرية، حتى أصبح لهم - إلى جانب عضويتهم الجماعية في مجلس للدولة يشبه السناتو الروماني (مجلس الشيوخ) - مجلسان آخران منتخبان - مجلس المائة والأربعة ومجلس الثلاثين - وهما يكونان في الحقيقة «أوليجركية» ضيقة وثيقة البنيان، مكونة من أغنى الرجال، وأوسعهم نفوذا، ويتحكمون في كل ادارات الحكومة.

هذا ورغم أن جماعة المواطنين كان لها بعض الرأى في انتخابات الملوك والشفطان وغيرهم من المواطنين فإنه من المؤكد أن السياسات القرطاجية كانت تحكمها الثروة دائما. ويحتمل التراسوف اليوناني «أرسطو» (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) أن الدور الذي لعبته الثروة في قرطاج كان مظهرا سيئا، فلقد كان شرف المولد وتوفير الثروة شرطين أساسيين للإنتخاب، فكل الأمور يقررهما الملوك أو الشفطان والمجلس بالتشاور معا. وفي حالة اختلافهم فقط تتم استشارة الجمعيات الشعبية (الموطية).

٢- وكانت المرحلة الثالثة عملي أيام القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، وتركزت فيها السيادة السياسية لأسرة برقة (برقا) وإن امتدلت عن المرحلة الأولى، إلا أنها حسعت هذه المرحلة الثالثة بين سلطه برقة وسلطات مجلس الشيوخ وانحمار الأخرى الخاصة بالعموم المالية والدينية كالمجلس الثلاثيني ومجلس الشرة.

(٢٩) أنظر عن القضاة عند بني إسرائيل (محمد بيومي مهران - إسرائيل، الجزء الثاني، ص ٦٢٣ - ١٥٧).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا أن قرطاج لم تخضع لانقلاب عسكري يقوده قائد طموح أو مغامر، مثلما تكرر هذا المصير في المدن الإغريقية، وخاصة في صقلية، وربما كان السبب أن أجهزة الرقابة والسيطرة كانت فعالة (٣٠).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن «قرطاج» إنما قد انجحت إلى تدعيم كيانتها العسكرية بإنشاء قوة حربية برية وبحرية للدفاع عن الدولة القرطاجية، وفي القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد فصلت قيادة القوات المسلحة فصلا تاما عن الوظائف الأخرى، وكان القواد يعينون فقط في حالة الضرورة، ولحملات محددة الجهة والهدف، حيث لم يكن للدولة جيش ثابت يتطلب قائدا دائما، وقد انتهجت العديد من الأسر نهجا عسكريا، مثل «آل ماقون» (ماجون) في أوائل التاريخ القرطاجي، وأسرة برقاه (Barcids) فيما بعد ذلك.

وكان عبء قيادة الفينيقيين في الغرب - فيما يبدو - ثقيلًا على القوة البشرية المتاحة لقرطاج، وقد ظلت قرطاج حتى القرن السادس قبل الميلاد، تعتمد على مواطنيها - شأنها في ذلك شأن المدن الحرة الإغريقية - غير أنها منذ منتصف هذا القرن السادس، وتحت قيادة «ماقون» (ماجو) = (Mago) - الذي أسس أسرة حاكمة في قرطاج - إنما اتبعت سياسة استخدام القوات المرتزقة على نطاق واسع، وهي نفس السياسة التي تبعت حتى نهاية التاريخ القرطاجي.

هذا وكانت العبادة في قرطاج تشبه تلك التي في فينيقيا، وأهم المعبودات

- ١- بعل حمون ٢- تانيت ٣- عشتارت ٤- أشمون ٥- ملقارت

هذا وقد اعتمدت قرطاج على التجارة، أكثر من أية مدينة أخرى، وأن الرجل القرطاجي الأصيل، إنما كان في أذهان الناس وقت ذلك - وخاصة عند اليونان والرومان - تاجراً بطبعه، كما كانت قرطاج تمثل أغنى مدينة في عالم البحر المتوسط، ومع ذلك فإن الثروة التجارية لم تترك آثارا تتفق، وما اشتهرت به قرطاج من غنى وجاء، فضلا عن أنها - (أي الآثار) - أقل بكثير من آثار المدن الكبرى

(٣٠) - ب. وارمحتون المرحع السابق، ص ٤٦٤، رشيد الناصوري. المرحع السابق، ص ١٨٠ - ١٨٤ هـ. ح. ويلر: معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق حاويدة، القاهرة ١٩٦٩، ص

- الإغريقية والإنثورية - التي ترجع إلى نفس الفترة، وليس هناك من ريب في أن أحد الأسباب الرئيسية في حالة قرطاج، أن أغلب تجارتها إنما كانت في سلع لا تترك أثراً، فأغلبها معادن غير مصنعة - وهي الهدف الرئيسي من حركة الاستكشاف، الفينيقية - ثم المنسوجات والرقيق والمواد الغذائية التي تزايدت نتيجة لاستغلال أراضيها الخصبة، وكانت تجني الأرباح من التجارة مع القبائل الداخلية التي جلبت منها الذهب والفضة والقصدير، وربما الحديد أيضاً، ذلك لأن قرطاج - كما هو معروف - إنما كانت تصنع أسلحتها بنفسها - .

وليس من شك في أن قرطاج إنما قد حصلت على تلك المعادن في مقابل مصنوعات رخيصة، ومن ثم فقد جنت أرباحاً طائلة، وليس أدل على وفرة الأرباح من تلك الجيوش الضخمة التي استطاعت قرطاج تجنيدها من المرتزقة في القرنين - الرابع والثالث قبل الميلاد - هذا فضلاً عن سك العملة من الذهب، على نحو ما فعلته المدن المتقدمة الأخرى وقت ذلك (٣١).

هذا وقد مارست قرطاج احتكار التجارة داخل إمبراطوريتها - سواء بإغراق أية سفينة تخرق هذا الاحتكار، أو بعقد معاهدات تجارية مع المنافسين المحتملين مثل المدن الأثورية وروما - وكان طبيعياً أن لا يسمح للتجار بالتجارة في غربي قرطاج، وهذا يعني ببساطة أن السلع التي كانوا يحضرونها إلى هذه المدينة كانت تنقل إلى السفن التجارية القرطاجية، ومن ثم فقد كانت المنتجات الواردة من أثوريا وكامبانيا ومصر ومختلف المدن الإغريقية إنما تصل إلى عدد كبير من الأماكن في شمال أفريقيا.

ويدهى أن ذلك كله إنما كان مصدر قوة اقتصادية لقرطاج، خاصة بعد التغييرات الاقتصادية والسياسية الضخمة التي حدثت في غربي البحر المتوسط بسبب فتوحات الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م.)، فلقد أوجدت هذه الفتوحات أسواقاً كبرى عالمية للمصنوعات الرخيصة التي كان القرطاجيون في موقع متميز يمكنهم من ترويجها، فضلاً عن الأرباح منها (٣٢).

(٣١) ب. هـ. وارمنجتون. المرجع السابق، ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

(٣٢) ب. هـ. وارمنجتون، المرجع السابق، ص ٤٦١ - ٤٦٢.

عذا وكان القرطاجيون يقومون برحلات تجارية برية، عبر الصحراء إلى منطقة نهر النيجر والسبخال، وربما كانت عن طريق «لبدة» و «صبراتة»، وهما المدينتان الواقعتان في منطقة تكاد تخلو من عوائق التضاريس الوعرة، وعلى أية حال، فإن اهتمام قرطاج بإبعاد الإغريق عن المنطقة دليل على وجود تجارة هامة مع الداخل، حيث أن الأرض الزراعية المناسبة للإستيطان نادرة، وفي القرن الخامس قبل الميلاد يحدثننا هيرودوت عن مجموعتين قبليتين هما: الجرمانيون والناسامونيون في أقاليم جنوب سرت، وأن المسافة بين الساحل ومنطقة الجرمانيتين - المركز السكاني لجرمة - تستغرق ثلاثين يوماً، وأن الرومان قد حصلوا - عن طريق الجرمانيين - على مزيد من المعلومات عن المراكز الداخلية في القرون التالية.

ورغم أن اليونان قد استخدموا العملة في القرن السابع قبل الميلاد - وربما منذ أيام ملك ليديا «كرويسوس» (٦٥٠ - ٥٤٦ ق.م)، واستخدم الفرس العملة على أيام «دار الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) عند نهاية القرن السادس، ورغم أن فينيقيا كانت وقت ذلك خاضعة للفرس، غير أن دارا لم يحاول أن يضرب العملة باسمهم، وأما أقدم عملة شرقية فينيقية فقد ضربت في صور عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ثم تبعتها صيدا وأرصاد، وجبيل في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد (٣٣).

وأما «قرطاج» فقد بدأت في إصدار عملتها في القرن الرابع قبل الميلاد، حيث تزايدت تجارتها مع الدول المتقدمة، وحيث أصبح من الضروري - نتيجة للتغيير في الوضع الاقتصادي - أن تدفع للمرتزقة أجورهم نقداً (٣٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى الصراع القرطاجي الروماني، والذي عرف باسم «الحرب البونيقية» (٣٥) المشهورة في التاريخ الروماني القرطاجي بأدوارها الثلاثة، كانت الحرب الأولى في الفترة (٢٦٤ - ٢٤١)، وكانت الثانية في

(٣٣) عبد الحميد، الشرق الخالدة، ص ٣٢٠ - ٣٣١، سبتينز موسكاني، المرجع السابق، ص ١٣٦.

(٣٤) ب. هـ. وارمجتون، المرجع السابق، ص ٤٦٢.

(٣٥) كلمة «البونيقية» (Punic) مشتقة من الكلمة اللاتينية «بيونيكوس» (punicus) أي القرطاجية - أعنى الفينيكية - ومن هنا سميت الحرب بين روما وقرطاج بالحرب البونيقية أو الحرب الفينيقية.

الفترة (٢١٨ - ١٠٢ ق.م.)، وكانت الثالثة في الفترة (١٤٩ - ١٤٦ ق.م.) وذلك من أجل السيادة على غربي حوض البحر المتوسط.

وقد انتهت الثانية منها بانتصار الرومان على «قرطاج»، وكانت الشروط قاسية، بيد أنها تركت لها المجال في أن تأمل في مستقبل كريم، فأجبرت عن التخلي عن أسبانيا لروما، وأن تنازل عن أسطولها الحربي، إلا عشر سفائن، وأن تدفع عشرة آلاف تالتوم، وأن تتخلى عن سلاح القبيلة، وثمة شرط آخر هو أصعب شروط الحرب قاطية، وبه توافق قرطاج على أن لا تخوض غمار حرب، دون إذن من روما، ثم أضيف آخر الأمر شرط يقضى بتسليم هانيبال - عدو روما اللدود - بيد أن البطل القرطاجي كفى موطنه هذا الإذلال، بأن فر إلى آسيا، وعندما أبرمت روما الصلح مع «أنطيوخس الثالث» (٢٤١ - ١٨٧ ق.م.) بعد هزيمته في «مجنيزيا» (مجنيسيا Magnesia) في عام ١٩٠ ق.م، كان تسليم هانيبال أحد شروط هذا الصلح، وسرعان ما قبض عليه في «بيثينيا» في مخبأ له، فاعتقله ملكها لكي يرسله إلى الروم، بيد أن هانيبال إنما كان يحمل منذ أمد طويل في خاتمه السم اللازم له، وبه قضى على نفسه في عام ١٨٣ قبل الميلاد، وأما «سكيبور» فقد عاد إلى روما، وأقيمت له مواكب النصر، ومنح لقب «الإفريقي»، وأصبح يعرف باسم «سكيبو الإفريقي» (Scipie Africanus)، تخليدا لانتصاره على هانيبال (٣٦).

وانتهت الحرب البونية الثالثة بتدمير العاصمة «قرطاج»، ومن ثم فقد توقفت هذه القوة السياسية الهامة في المغرب، وحوض البحر المتوسط، وانفردت القوة الرومانية بالسيادة الكاملة على هذه المنطقة، فضلا عن مناطق حوض البحر المتوسط الشرقية والغربية جميعها (٣٧).

(٣٦) هـ. ج. ويلز: المرجع السابق، ص ٥٤٩ - ٥٥٠، أحمد صقر: المرجع السابق، ص ٢٣١، رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢٧٢ - ٢٧٥، عبد اللطيف أحمد علي: المرجع السابق، ص ١٢٧ - ١٢٩، مصطفى العبادي: المرجع السابق، ص ٥٤ - ٥٥، وكذا:

H. G. Wells, op. cit., p. 117.

B. H. Warmington, op. cit., p. 190 - 191.

(٣٧) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢) أوتيكا:

كانت أوتيكا (Utica) - أو عتيقة - بمعنى القديمة، تميزا لها عن «قرطاج» بمعنى الجديدة أو الحديثة، وقد سماها ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) «وطافة»، وتقع إلى الغرب من قرطاج، وتلى قرطاج في الأهمية، وتعتبر أقدم مستعمرة فينيقية في شمال أفريقيا، على الأرجح، وقد أسستها صور حوالي عام ١١٠٠ ق.م، أو ١١٠١ ق.م، وقد عثر على آثار ترجع إلى حوالي هذا التاريخ.

وتقع أوتيكا على مرتفع من الأرض عند مصب نهر «بجراداس»، أهم أنهار تونس، الذي يجري في أخصب بقاعها، ومن ثم فهي - كقرطاج - ميناء، رغم أنها تقع الآن على بعد ١١ كيلا في الداخل، ذلك لأن معالم الموقع تغيرت اليوم عنها في العصور القديمة، فنظي الغرين المجرى الأدنى للنهر، ويمكن التعرف على القلعة القديمة عند تل كان يوما ما في داخل البحر، مع جزيرة إلى شرقه، يفصلها عنه ممر مائي ضيق.

هذا وما تزال هناك - كما هي الحال في قرطاج - خرائب رومانية كثيرة، وإن كان من العسير التعرف على آثار بونوية (٢٨)، وقد ترجع أقدم المقابر هنا إلى القرن الثامن قبل الميلاد، ومكانها على جانبي المسر المائي، أما المقابر من العصر المتأخر، فبعيدة إلى الغرب والشمال.

هذا وقد ظلت «أوتيكا» مستقلة - على الأقل إسميا - عن قرطاج، حتى مرحلة متأخرة، ووراءها على الساحل حتى مضيق جبل طارق عدة مواقع لمراس، ولكن قلة منها هي التي تصورت إلى نفس الدرجة التي وصلت إليها مراكز الساحل التونسي، وليس هناك من ريب في أن هذا إنما يرجع أساسا إلى الصعوبة الكبرى في الوصول إلى الداخل (٢٩).

(٢٨) كلمة «بونوية» (Punic) مشتقة من الكلمة اللاتينية «بيريكوس» (Punicus) - أي

قرطاجية، أعنى فينيقية (معالم تاريخ الإسبانية، ١٢ / ٥١٤).

(٢٩) ج كوتشو: المرجع السابق، ص ٩٧، محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٨٥، نجيب

ميخائيل: المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٣) هيبو:

هيبو - أو «هيبو أكر» (Hippo Actra) هي «بنزرت» الحالية، وكان لها مرفأً عظيم في بحيرة بنزرت، وكانت مقراً ملكياً، ومن ثم فقد أعطيت «هيبو» لقب (Regius)، وأما كلمة «هيبو» فهي كلمة ليبية، وتذهب الأساطير أن «ليبيا» - وهو الأسم اليوناني لشمال أفريقيا - كان في الأصل إسم زوجة المعبود «بوسيدون» إله البحر، ووالدة «أجينور» ملك فينيقيا.

(٤) ليتس:

وهي المدينة الوحيدة التي أختيرت في موقع غير مناسب، في مجاورات خليج «سرت»، ولم يكن لها مرفأ، غير مصب نهر.

(٥) موجادو:

كانت أبعد مكان فينيقي أمكن الكشف عنه حلي الساحل الإفريقي غرب إنما يقع إلى الجنوب من مدينة «موجادو» مباشرة، على الشاطئ المغربي، فيما بين الدار البيضاء وأجاديو، حيث يصب نهر «كسوب» في خليج صغير تدود عنه أمواه المحيط، جزيرة صغيرة، طولها ٣ كيلا، وعرضها نصف كيلو متراً، وتبعد عن الشاطئ بمسافة تتراوح فيما بين كيلو ونصف، وثلاثة كيلو مترات، وقد عثر هناك على ما يؤكد قيام مستعمرة فينيقية بها (٤٠).

(٤٠) فليب حتى: المرجع السابق، ص ١١٠، ج. كوتنتو: المرجع السابق، ص ٩٧، نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) المدن المغربية والمراكز الأثرية

(١) أشكار:

يقع موقع أشكار فى أقصى شمال غرب «طنجة» على سواحل المحيط الأطلسى، ويمثل هذا الموقع العصر الحجرى الحديث الخالص من كلى تلبذ، فلا وجود للأدوات الميكروليثية به. إلى جانب الخرفة والمعول، مما يشير إلى اكتشاف الزراعة، خاصة وقد عرفت هذه المنطقة الإستقرار والنظام الاجتماعى، وقد كتف «رولمان» فى «وادي بات» على مقربة من طنجة، عن ثلاث مجتمعات سكنية، لا يعد الواحد منها عن الآخر، بأكثر من خمس كيلو مترات (١).

ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن «نوفرى» إنما يذهب إلى أن مصر انما كانت وراء التغيرات التى مر بها العصر الحجرى الحديث فى المغرب القديم، من القفصية فى مرحلتها العليا الحديثة إلى العصر الحجرى الحديث ذى التقليد القفصى، والذى امتد من حوالى ٥٢٠٠ ق.م إلى ٣٥٠٠ ق.م، ويبدو أن العصر النيوليتى فى المغرب إنما قد تأخر عنه فى مصر، فلقد أرخ «كربون ١٤» لموقع جاعتشة بحوالى ٣٠٥٠ ق.م + ١٥٠ سنة ق.م، وهو تاريخ قد يوافق الأسرة الثانية فى مصر (٢).

(٢) المقطع:

ويقع فى مجاورات مدينة قفصة، ويتكون من ثلاث مرتفعات، الأول شمال غرب قفصة، والثانى على مبعده كيلو متر شمال شرق قفصة، والثالث على الضفة الغربية لوادى يياش، على مبعده كيلو مترين جنوب شرق قفصة.

(٣) أكاكاس:

وهى جبال تقع فى أقصى الجنوب الغربى للجماهيرية الليبية، قرب حدود الجزائر وفيها استؤنثت الماشية.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك - فيما يرى فيرون - ما يشير

(1) A. Rhubman, op. cit., p. 105 - 106.

(2) L. Balout, op. cit., p. 481.

إلى أن الصحراء وتمتد إلى أفريقيا، إما كانت في العصر الحجري الحديث مسكونة بمسوم من الرعاة قدموا من الشرق، مع قطعان لهم^(١)، من الخراف والماعز^(٢) والثيران ذات القرون، والبقر^(٣) والكباش، فضلاً عن الحصان المستأنس (حوالي ١٥٠٠ ق.م) والجمال المستأنس (ربما قبل القرن الثالث أو الرابع قبل

(١) يذهب بعض العلماء إلى أن استئناس الحيوان واستخدام الزراعة، إنما كان موطنهما الأصلي في مكان ما في الشرق الأدنى القديم، وطبقاً لرأي «ماك برني» فإنه في ضربي آسيا، على أن هناك فريقاً آخر يميل إلى أنهما قد ظهرا في أماكن مختلفة، ومستقلة عن أي تأثير أو اتصال، على أن «بريونا» يرى، إنما يقترح طريقتين أو صيول التهجيرات المستأنسة من الشرق الأدنى القديم إلى الشمال الأفريقي، عن طريق مصر، أولهما: على طول سواحل البحر المتوسط، وحتى المغرب القديم، ومن اجتاز الأمازيغ المسحورين بحثاً عن الماء، حتى وصل التاسيلي والهوفار، بينما يمتد الطريق الثاني مباشرة من مصر العليا (الصعيد) إلى الصحراء على طول خط عرض ٢٠ (عشرين درجة).

ولكن يتفق دون ذلك أمران: الواحد: عدم وجود آثار استئناس الحيوان في مصر، أقدم من وجوده في الصحراء الوسطى (الصحراء الجزائرية)، كما أن «الغيري» أو «الحمداني» (وتقع جنوب جبال الهوفار في الجزائر، وتشمل مناطق عظيمة الاتساع تغطيها صحور شديدة الصلابة، عارية من الرواسب والخصوبة، بسبب فعل الرياح) إنما تعتبر طريق مرور من مصر العليا إلى الصحراء الوسطى، ومع ذلك، فلا أثر لثانوية مستأنسة هناك (أنظر: أم الخير العقون: المرجع السابق، ص ٧٥ - ٧٦، C. B. M. Mc Burney, op. cit., p. 248.

A. R. Wilcox, *Rock Art of Africa*, New York, 1948, p. 35).

(٢) ليس هناك ما يميز الهياكل العظمية للماعز عن تلك التي للإغنام، وإن استؤنست الماعز أولاً، وهناك من يرجع أصل الماعز إلى النوبة، فهو أن حفريات «أركل» في «شهينات» (٤٨ كيلاً شمال أم درمان) أثبتت، أن الماعز لم يستأنس محلياً، وإنما وفدت من الخارج، وعلى أية حال، فلقد وجدت آثارها في كهف «دوارف» في شبه صحراء الجزائرية وفي جنوب السودان، وهناك احتمال دخول الماعز من كهف دولوف إلى شهينات، كما وصلت وادي النيل عن طريق التستى، ومن ثم فبعدك من يذهب إلى أن الإنسان في شمال أفريقيا قد استأنس الحيوانات الماعز، وفي وقت - كثر، وكان هذا اتجاهاً فرديته الظروف الطبيعية عليه، أما الزراعة فقد وصلتهم عن طريق أقدم شرقيين (أنظر:

A. J. Arkell, *Shahrinab*, p. 15 - 16.

وكنا،

R. Vaufray, *L'Art Rupestre Nord Africain*, 1939, p. 65.

(٣) هناك مدعان من المشرق في المغرب القديم، الأول كبير الحجم، وهو بطل الأبقار البرية، والثاني صغير الحجم، ويذهب العلماء إلى أنه من إيبيريا.

هذا العصر موضوع الحديث)، وكذا الفيل والخرنيت والجاموس الضخم (٤)، ومن المؤكد أن الثور قد تم استئثانه حوالي عام ٤٠٠ ق.م، على الأقل.
(٤) برقة:

من المعروف أن شعوب البحر - بعد أن أخضعوا كريت - فكروا في الإبحار جنوباً، وكان الشاطئ الأفريقي عند برقة Cyrenaica أقرب اليهم من أية نقطة أخرى (٢٨٨ كيلاً)، ذلك لأن أقرب ميناء مصرى كان ضعف تلك المسافة تقريباً، ومن هنا نشأت علاقات ودية بين شعوب البحر وبين ريبو برقة، وفضلاً عن ذلك فإنه من المحتمل أن التجارة المصرية البحرية قد حملت في تلك الفترة، ومن هنا ربما كان النضال بين شعوب البحر ومصر من أجل تجارة البحر الأبيض المتوسط وربما كان ذلك هو نفس السبب الذي جعلهم يتضمون إلى الليبيين ضد مصر في هذه الحرب (٥).

هذا وقد عقد الفرعون «أحمس الثاني» (٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م) حلفاً في الغرب مع «برقة» وتزوج من سيدة - وربما أميرة - من هناك تدعى «لاديكة»، كما عمل على تحصين حدوده الغربية، فأنشأ حاميات كثيرة على الشاطئ، وفي الواحات، وشجع إقامة الناس فيها، وبنى المعابد في سيوه والبحرية والخراجة، ليجمعل من الواحات الحصون الأمامية، إذا جد خطر، وحدث هجوم على مصر من يوناني ليبيا (٦).

(٥) بئر العاتر (الحضارة العاترية):

موقع حضارى في وادى جبانة قريبا من قسطنطينة فى الجزائر، على الحدود بينها وبين تونس - وكان «فردريك مورو» أول من أشار إلى الصناعة العاترية فى عام ١٨٨٨م، وذلك عندما التقط «أدوات مذنية» فى وادى سليحة (جنوب غرب

(4) H. Alimen, op. cit., p. 422.

R. Furon, Manuel de Prehistoire generale, Paris, 1958, p. 311.

(5) W. Resch, Das Rind in den Felsbilddarstellungen Nordafrikas, P. 5, 2. P. Beck et P. Huard, Tihesti, Carrefour de la Prehistoire Saharienne, Paris, 1969.

(٦) انظر: محمد بيومى مهران: مصر ٦٥٧/٢ - ٦٥٨.

قنصية، وإن كان أكبرها قد سبقه إلى ذلك، عندما نشر عام ١٨٨٦م عن مواقع ما قبل التاريخ في «غزلان» ووصفها بأنها «موسيرية» وإن كانت انحصارة العاترية - رغم تشابهها مع الحضارة الموسيرية في كثير من الوجوه - إنما تختص بالأدوات المذنية^(٦).

وفي عام ١٩١٩ نشر «بيجانس»^(٧) دراسة عن التقنيات الحجرية القديمة في شمال أفريقيا، كما أشار إلى اكتشاف الموقع الموسيري النموذجي (الأبيرة) ثم اكتشف موقع «بئر العاتر» وعثر فيه على الصناعة العاترية تحت «سقي ثلاثة أمتار في نفس الطبقة، مع الصناعة الموسيرية، ومنذ ذلك التاريخ دأب «بيجانس» على استخدام مصطلح العاترية، بدلا من الأبيرة، ثم أقر «مؤتمر مونبيلييه» عام ١٩٢٩م هذا المصطلح، ويعني التقنيات الموسيرية ذات الأدوات المذنية^(٨).

وعلى أية حال، فلقد وجدت العاترية بمظهرها الصميم في كثير من المواقع والطبقات الأثرية في جميع أنحاء المغرب، فوجدت في الرسومات السطحية لوادي جبانة ووادي جوف الجمل وكاف الأحمر ووادي سرديس، وفي رمال جبل عواش، وفي عقلة شعاشع، وفي كل رسوبات مقاطعة قسطنطينية، وفي رسوب الرمل الأحمر على طول الساحل الجزائري في كازويه وضواحي بتزوت وغيرها، وفي كهوف المملكة المغربية، في الحضيرة، وفي الروايب السطحية لوادي جوربا وكهوف دار السلطان وتافروال، وبيت مليل والحك^(٩).

هذا ويبدو أن الإنسان في هذا العصر، قد استعمل - بجانب الحجر - الأخشاب والجلود والنظام وبيض النعام أو قشوره، كما بدأ يدرك حقيقة وجود قوى خفية تتحكم في الحياة الإنسانية والحيرازة والنباتية والطبيعية، وأراد تجسيم

(6) A. Balout, Prehistoire de L'Afrique du Nord, Arts, et Metiers Graphiques, Paris, 1955, p. 269.

(٧) أبقار:

M. Reggasse, Etudes de Palethnologie Maghrebine (Nouvelle Serie), L'Anthropologie, 25, 1919-1920.

(٨) أم العير العفون - العلاقات الحضارية والسياسية بين مصر وشمال أفريقيا منذ أقدم العصور حتى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٧

(9) R. Vaufrey, op.cit. p. 106

هذه القوى في أماكن معينة لكي يحاول استرضاءها ضمانا لحياته ومصيره^(١٠). هذا وقد اختلف الباحثون حول المناخ الذي ساد الشمال الأفريقي إبان عصر الحضارة العاترية، فمن يرى أن المناخ كان رطبا حارا (أى آخر فترة مطيرة)، ومن يرى أنه كان جافا، ومن يحاول التوفيق بين الإجهامين، فيذهب إلى أن المناخ إنما كان وقت ذلك يتميز بالرطوبة الشديدة، مع انخفاض قليل في درجة الحرارة^(١١). وعلى أية حال، فالرأى عند «كاتون طمسون» أن موقع الخزيرة (طبقة أ) في المغرب الأقصى، إنما يمثل أقدم مرحلة للعاترية في الشمال الأفريقي^(١٢)، ثم انتشرت جنوب الأطلس الصحراوي في العصر العاتري الوسيط، ثم إلى الشرق حيث وجدت بعض المواقع العاترية في ليبيا، كما في وادي ما صودا، ووادي درنة، اللذين اكتشفهما «ماك برنى» عام ١٩٤٩م، ووصفهما بالفللوازيه الموسيرية، ومن ثم فقد أصبحت منطقة الجبل الأخضر في ليبيا بمثابة جسر انتقال الحضارة العاترية من الشرق إلى الغرب أو العكس، وتذهب «كاتون طمسون» إلى أن العاترية سرعان ما انتقلت إلى الواحات المصرية - سيوه والداخلة والخارجة - حوالي العصر الحجري القديم الأعلى المبكر، بدليل وجودها في واحة الخارجة فوق طبقة الفلوازية مباشرة^(١٣).

ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخري - طيب الله ثراه - إلى أن «ستون كان» (H.W.Seton Ken) و «كومنجتون» (C.W.Cummington)، إنما قد عثرا في واحة سيوه على بعض الأدوات التي نسيها إلى تأثيرات غربية (شمال أفريقيا)، ووصلت مصر أثناء العصر الحجري القديم الأعلى^(١٤).

(١٠) رشيد الناظوري، المرجع السابق ص ١٠٥.

(11) H.Alime, Prehistoire de L'Afrique, Ed.N.Boubee, VI, Paris, 1955, p. 63 - 64.

(12) Caton - Thompson, The Aterian Industry, Its Place and Significance in The Paleolithic World, in JRAI, V. 1946, p. 115.

(13) G.Caton - Thompson and E.W. Gardiner, Kharga Oasis in Prehistory, London, 1952, p. 31.

(14) A.Fakhry, Siwa Oasis, Cairo, 1944, p. 71.

وعلى أية حال، فهناك من يذهب إلى أن الصناعة العاترية (العاطرية) قد وصلت إلى مصر في العصر الحجري القديم الأوسط، ولعل أهم مواقعها إنما كانت تلك التي كشف عنها «ساندفورد» على مقربة من تغادة، وفيما بين دنبرة والمراشدة، فضلا عن تلك التي على مقربة من نجح حمادى (بمحافظة قنا) وأسيوط، إلى جانب ما كشف عنه «سليجمان» في ضواحي طيبة «الأقصر»، وفي العراية المدفونة «مركز البلينا - بمحافظة سوهاج»، وأخيرا فلقد كشفت «كاتون - طمسون» عن وفرة من الصناعة العاطرية في واحة الخارجة (١٥)، بل إن هناك ما يشير إلى وصول النماذج العاطرية التي وجدت في مصر إلى المملكة العربية السعودية (١٦).

هذا وقد اختلف الباحثون حول أصل هذه الحضارة العاطرية، فهناك من ينسبها إلى الشمال الأفريقي، ويرى أنها ظهرت في غرب الجزائر، وفي المغرب الأقصى، ثم بعد ذلك في شرق الجزائر وتونس (١٧)، على أن هناك وجها آخر للنظر تذهب صاحبه - كاتون طمسون (١٨) - إلى احتمال أصل أسيوى لصناعة النصال العاترية انتقل إلى شمال أفريقيا باعتبار الحضارة السبيلية مرحلة انتقال (١٩).

(15) C.Seligman, The Older Paleolithic Age in Egypt, JRAI, 1921, Fig, 31-35, p.13-35, p. 128 - 129.

K.S.Sandford and W.J.Arkeil, Paleolithis Man and The Nile Fayum Divid Chicago, 1933, p. 116 - 118, Fig, 47-52.

G.Caton - Thompson and E.W. Gardiner, in GL, LXXX, 1932, p. 404.

(16) R.M. Gramly, Neolithic Flin Implement Assemblages from Suadia Arabia, in JNES, 30, 1971, p. 177 - 185.

G.Caton - Thompson, in JRAI, LXXVI, 1946, p. 89.

(17) L.Balout, op.cit., p. 334.

(18) G.Caton- Thompson, The Aterian Industry, its Place and Signetiance in The Palealitic World, in JRAI, V, 1946, p. 119.

(١٩) أنظر عن الحضارة السبيلية (محمد بيومي مهران - مصر - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٠١ - ٢٠٦).

تسمى، ويعدّ بل بينهما نهر «ملوية» (مونوكا - Mulucha) وكانت مدينة
«درشائ» عاصمة لاوريتانيا القبصرية، ومدينة «طنجة» عاصمة لموريتانيا
الغنيبية (٢١١).

(٢١٠) قفصة:

هي المدينة الرومانية القديمة (Capsa) في جنوب تونس وهي «قفصة» الحالية
في اقلد. «تسطينة» شمالي سط الجريد.

هذا وقد نسب إلى مدينة «قفصة» «الحضارة القفصية»، ويذهب العلماء إلى
أن الموقع النموذجي لهذه الحضارة، هو «حقل الجوزون» أو «الرماديان».

وكان «دي مورجان» أول من حدد سميتها الصناعية (٢١٥)، معتمداً على المادة
الأثرية من موقع «المقطع» (على بعد ١٤ كيلاً شمال غرب قفصة)، وقد قام
كل من «فورني» و«جوير» بحفائر في هذا الموقع.

هذا وقد ظهر أصحاب هذه الحضارة حوالي سبعة آلاف سنة قبل الميلاد،
وهم قوم ذو قوام طويل رشيق، من جنس البحر المتوسط، وإن لم يخلو من
الصناعات، شرا الزخبية، وقد ازدهروا في منطقة غير محددة تماماً، وإن كانت على
سبيل التقدير في الجزء الداخلي، دون الإمتداد - على ما يظهر - إلى أقصى
الحدود الغربية لشمال أفريقيا، أو إلى الصحراء الجنوبية، وقد انتهت هذه الحضارة
القفصية حوالي عام ٤٥٠٠ ق.م (٢١٦).

هذا وقد أطلق العلماء الفرنسيون على مواقع الحضارة القفصية «الحلزونات»
أو «البيات» Escargotieres، وهي ركام من الرماد أو الحجارة التي استعملت
كأواني الفخار لتوع من القواقع، وتبلغ أبعادها أحيانا ٢٠٠ مترا طولاً، ٥٠ مترا
عرضاً، أما ارتفاعها، هذا فعلا عن الأدوات الحجرية التي كان يستخدمها
الإسكان.

٢١٥، ريبس: «التاريخ» المرجع السابق من ٢٢٥، ٢٢٢.

(٢١٥) J. De Morgan, Les Premières Civilisations, Paris, 1904.

(٢١٦) جيهان دواخ: تاريخ أفريقيا العام من ٢٢٢.

G.Camps, op.cit., p. 159, 262, 185.

يرتبط نهياً لكل العظمية التي عشر عليها في الرماديات على أن الإنسان القفصي - والذي استمر وجوده حتى العصر الحجري الحديث - مختلف عن إنسان «مشتا العربي» (حامل الحضارة الإيبرو مغربية)، وأنه من جنس البحر المتوسط، وإن كان يحمل ملامح زنجية، وقد مارس هذا الإنسان عادة صقل الحجارة في صنع الكرات المثقوبة - والتي ربما كان يستخدمها لدق وطحن الحبوب البرية، وإن لم يثبت عدم معرفته للزراعة -، كما استخدم الفخار، ومارس عادة قلع الأسنان، بطرق تختلف عند الرجل عنها عند المرأة، فبعضهم تفلح أسنانه العلوية، وبعضهم تفلح أسنانه السفلية، وإن لم يعرف الهدف من هذه العادة حتى الآن (٢٧).

وهناك ما يشير إلى بداية التعبير الفكري: عند إنسان الحضارة القفصية، الأمر الذي سوف تتحدد ملامحه بصورة واضحة في العصر الحجري الحديث، هذا فضلاً عن ممارسة النقش على قشور بيض النعام ثم صياغتها في حبات لتنظم عقود الزينة، ومن المعروف أن استعمال قشور بيض النعام إنما كانت من مظاهر الصناعات الأصلية في الشمال الأفريقي في المرحلة التي أعقبت العاترية (٢٨).

هذا وقد انتشرت الحضارة القفصية حول موارد المياه والأماكن الصعبة المال في تونس وشرق الجزائر، وخاصة في منطقة «تيسة»، حيث وجدت بها ما يزيد عن تسعين «رمادية»، ولعل من أهم مواقعها: عين مترشام وشر أم علي وعين دركازة وشر حميرة وعين غيلان وواد مدفون وكف ركنية وخنقة موحد وفم السلجة وفج إبراهيم والمقطع وورديف، وتشير مواقع سكني القفصيين هذه - فيما يرى بالوه - إلى أن القوم إنما كانوا غزاة، لا يحسون بأمان فردي أو جماعي، ومن هنا كانت سكناتهم في مواقع صعبة المال، فضلاً عن سيطرتهم على موارد المياه (٢٩).

(27) R.Fauvrey, La Préhistoire de L'Afrique, I, Le Maghreb, Paris, 1955, p. 127, 257.

L.Balout, op.cit., p. 100.

(28) H.Alimen, op.cit., p. 78.

(29) L.Balout, op.cit., p. 399.

على أن القفصية الصميمة لم تمتد إلا في الجزء القارى من جنوب تونس، وتتفق حدودها مع قاطمة قسطنطينية الجزائرية، ولا تصل إلى الساحل الشرقى، كما أنه في الغرب لا تتعدى الكتل الجبلية لجبال أطلس، ولا تتجاوز شمالها، ثم هي بعد ذلك لا وجود لها في الصحراء أو مقاطعات الجزائر ووهران، فضلا عن المغرب الأقصى، ومن ثم فقد اعتبر البعض مرحلة القفصية الصميمة مرحلة حضارية قصيرة الأجل (٣٠).

وأما القفصية العليا، فقد شملت كل منطقة القفصية الصميمة، فضلا عن أنها زحفت إلى الشمال، ولكن دون الاتجاه نحو الشرق، ووصلت إلى الحد الشمالى للهضاب العليا، ولكن دون بلوغ البحر، أما من جهة الغرب فهي لم تتجاوز خط التنصيف لمدينة الجزائر، الذى يرى فيه «فوفرى» الحد الغربى بقفصية العليا، وعلى أية حال، فلقد أربط انتشار الحضارة القفصية بأماكن وفرة الظران (٣١).

هذا وقد قسم «بالوه» الصناعة القفصية إلى مرحلتين، مرحلة القفصية النموذجية، وتشمل أدوات كبيرة من نصال وأزاميل، ثم تطورت إلى القفصية الحديثة التي تتميز باتجاه صناعتها إلى الأدوات القزمية واتخاذ الأشكال الهندسية، وقد أرخ «كربون ١٤» للمرحلة النموذجية في موقع «المقطع» (٣٢) بفترة تتراوح فيما بين ٦٦٥٠ + ٤٠٠ سنة قبل الميلاد، وللفترة الحديثة في موقع «الماء الأبيض» في تيسة بالجزائر، بحوالى ٥٠٥٠ + ٢٠٠ سنة قبل الميلاد (٣٣).

هذا وقد ظهرت القفصية في «كهف هواشيج» فى الطبقة (E) والتي امتدت زمنيا فيما بين عامى ٩٠٠٠، ٧٠٠٠ ق.م، وفى هذا الكهف تبدأ الحضارة

(30) R.Vaufrey, op.cit., p. 195.

(31) Ibid., p. 241.

(٣٢) المقطع: الموقع الأثرى النموذجي للحضارة القفصية، ويقع فى مجاورات مدينة قفصة، ويتكون من ثلاث مرتفعات، الأول شمال غرب قفصة، والثانى على مبعدة كيلو متر شمال شرق قفصة، والثالث على الضفة الغربية لوادى بياش، على مبعدة كيلو مترين جنوب شرق قفصة.

(33) H.Alimen, op.cit. p. 82.

القفصية في الانخفاض في عدد الأزاميل والمحكات في الطبقة «الإبيرو مغرية» ثم ظهور اللون الأحمر على النصال الكبيرة، ووجود قشور بيض النعام مزخرفة بأشكال هندسية، ورصف عقود من هذه القشور⁽³⁴⁾.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن عددا من الباحثين إنما ينسبون آثار بعض المواقع الأثرية المصرية إلى الصناعة القفصية (نسبة إلى قفصة في إقليم قسيلية، شمالي شط الجريد في تونس) - بما في ذلك المستوى الثالث لقرية السيل (في مجاورات مدينة كوم امبو بمحافظة أسوان)، وصناعة حلوان القرمزية، وكل مانسبه «ساندفورد» و«أركل» إلى الصناعة السيلية الحديثة - معتمدين في ذلك على أن الصناعة القفصية إنما قد وجدت في الشمال الأفريقي وفي سورية وفلسطين - أي في غرب مصر وشرقها - ومن ثم فمن الصعوبة بمكان، أن لا توجد هذه الصناعة في مصر، ثم يمللون قلة المواقع القفصية في مصر، بأن القوم في أرض الكنانة إنما كانوا يقتربون في السكنى من شواطئ النيل، وأن العظمى الحديث للنيل، ربما قد طمر بقايا الصناعة القفصية في تلك المواقع⁽³⁵⁾.

ولعل أهم المواقع التي نسبها بعض الباحثين إلى الحضارة القفصية، إنما هي ستة مواقع اكتشفها الأمير كمال الدين حسين في منخفض عين دالة وشمال الغرافرة في الصحراء الغربية، وتبعد هذه المواقع الستة عن ينابيع المياه بما لا يزيد عن أربع كيلو مترات، ومن أدواتها شظايا، بعض منها طويل، وآخر قزمي، وكذا مكاشط ومحكات مقعرة، ونصال مثلثة، ومواقد صغيرة، مع كسرات من قشور بيض النعام⁽³⁶⁾.

هذا وقد عثر «جيرودي كوتفيل» على مواقع للصناعة القفصية في منطقتين، الواحدة: حول طيبة (الأقصر)، وتنتشر حول وادي المدامود، بين الأقصر وخزام

(34) G.B.M.Mc Burney, op.cit., p. 333.

(35) R.P.Bovier - Lapierre, L'Egypte Prehistorique, Percis de L'Histoire de L'Egypte, Le Caire, 1932, p. 34.

(36) Kamel El Din Hussein et R.P. Bovier - Lapierre, Recentes Explorations dans Le Desert Libyque-BIE, 1929 - 1930, XII, Le Caire, P. 123- 126

(على مبعده ١٥ كيلا شمال الأقصر)، فضلا عن مواقع أخرى في مصر العليا (الصعيد)، على مقربة من الصحراء الشرقية، وأما المنطقة الثانية فكانت في الفيوم، عند قناة هواره (على مقربة من مدينة غراب) وفي عزبة جورج، وجنوب جبال الروسى، وقد وجدت أدوات هذه المواقع على السطح، ويذهب الأثرى «جيرودى كوتفيل» إلى أن هذه الصناعة القفصية الوافدة متقنة الصنع ومتفوقة على سابقة: (السبيلية)، ومن ثم فهو يستبعد احتمال أن تكون الحضارة القفصية قد تطورت من الصناعة السبيلية، وإلى هذا القول يذهب «أدموند فينار» (٢٧) أيضا أضف إلى ذلك أن بعضا من الباحثين إنما قد نسبوا آثارا لهذه الحضارة «المستبرو - قفصية» في شمال مدينة حلوان، بين خط السكة الحديد وعزبة الوالدة (٢٨)، ويعتقد «جيرودى كوتفيل» أن مصر قد شاركت في تطور صناعة قفصية في مصر، مشابهة للإبيرو مغربية، وذلك بوجود الآلات الميكروليثية في موقع حلوان عند فتحة وادى خوف، وفي كوم امبو بمحافظة أسوان (٢٩).

وعلى أية حال، فرغم إمكانية وصول مؤثرات قفصية إلى مصر في هذه الفترة من خواتيم العصر الحجري القديم الأعلى، فلعل من الأفضل التحفظ بشأن هذه الآراء - وخاصة تلك التي ترى في كل صناعة وجدت في مصر تمقب المستبرية، إنما هي صناعة قفصية أو قفصية متطورة (٤٠) - إذ أن كل ما عثر عليه إنما هو لقيمة سطحية لبعض القطع والآلات الحجرية، زعم مكتشفوها أنها قفصية - كما في نواحي أسوان والمدامود وحلوان في الوادى، وعين دالة في الصحراء الغربية، ومنخفض الخارجة (٤١).

(37) G.Cotteville, L'Egypte avant L'Histoire, BI FAO, 33, 1933, p. 28 - 34.

(38) A.J.Arell and K.S. Sandford, Paleolithic Man and The Valley in Upper and Middle Egypt, p. 116 - 118.

(39) Giraude Cotteville, op.cit., p. 40.

(40) Ibid., p. 28.

(41) G.Caton - Thompson, Man, 32, 1932, p. 131 - 133.

K.Hussein et R.P. Bovier - Lapierre, op.cit., p. 126.

E.Massoulard, Prehistoire et Protohistoire de E'gypte, Paris, 1949, p. 23.

C. Seligman, The Older Paleolithis Age in Egypt, JRAI, 1921, p. 129 - 130.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى موقع نفاية قصب السكر، على مقربة من مصنع السكر فى نجع حمادى (بمحافظة قنا)، وعلى مقربة من المدينة الرومانية «ديوسبوليس بارفا» (٤٢)، حيث كشف «أدموند فينيار» عن مجموعة من الآلات الحجرية، تتميز بوجود مجموعة كبيرة من الأزميل - فضلا عن بعض المهكات، وقطع أخرى مشذبة ذات نمط خاص - ونظرا لأن الأزميل هو آلة الصناعة «الأورنياسية» المميزة - إلى جانب اعتبارات تقنية أخرى - فقد نسب «أدموند فينيار» هذا الموقع إلى «الأورنياسية الأوربية»، وأن سكان هذا الموقع إنما جاءوا إلى مصر من سورية أو من تونس (٤٣).

وقد أثار رأى «فينيار» هذا جدلا بين العلماء، فذهب «هرمان يونكر» إلى أن هناك شباها بين موقع نجع حمادى هذا، وبين المستوى الثانى للسبيلية، وأنهما ربما كانا متعاصرين، ويصلان إلى بداية «القضية»، بينما المستوى الثالث - والأكثر تطورا - ما هو إلا «القضية» ذاتها (٤٤)، وأما «دى مورجان» فقد عثر فى مواقع سطحية تنتهى إلى هذه المرحلة على فؤوس صنعت بنفس التقنية التى

(٤٢) «ديوسبوليس بارفا» مكانها الآن قرية «هرو»، وتقع على مسافة ٥ كيلا جنوب غرب مدينة نجع حمادى، وربما كانت «هرو» هذه تصحيفا للاسم المصرى القديم «حرو» أو «حات» (والتي كان اسمها الكامل «حوت سخم نوت») عاصمة الاقليم السابع من أقاليم الصعيد، ويسمى «حوت سخم» بمعنى «قصر الصاجات»، هذا وقد سميت «هرو» كذلك «بكتمت» بمعنى «الكروم»، وهو اسم واحة الخارجة المعروفة بخرمها، وكانت تبغ الاقليم السابع هذا من الناحية الادارية (محمد بيومى مهران - الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٦٠ - ١٦١ وكذا).

P.Lacau et H.Chevrier, Une Chapelle de Sesostris Ier a Karnk, Cairo, 1956, p. 225,

H.Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographiques, IV, p. 45, 129, 130.

(43) E.Vignard, une Station Aurignacienne A Nag - Hammadi, (Haute Egypte), Station du Champ de Bagasse, BIFAO, XVIII, 1921, p. 1- 20.

(44) H.Junker, Bericht über die Bon der Akademie de Wissenschaften in Wien Nach dem Westdelta Entsendete Expedition, Wien, 1928, p. 14.

صنعت بها قووس تجع حمادى (٤٥).

ويذهب الدكتور سليمان حزين إلى أن الأزاميل لا تعتبر دليلا مميزا للعصر البابليولىتى الأعلى، فقد وجدت فى فلسطين فى زمن الآشولية العليا، كما عثر فى أرمنت، (٤٦) على أزاميل، بعضها يشبه تلك التى عثر عليها الأثرى الفرنسى «أدموند فينيار» فى تجع حمادى. ثم يجلس - بعد عدة مقارنات بين بعض الآلات الحجيرية من الموقعين - إلى أن الواحد منهما إنما كان بهامصر الآخر، وأنهما يتألفان إلى عصر الحجى والنحاس (٤٧).

على أن هناك اقترانا عكسيا يذهب أصحابه إلى أن السيلية فى مصر العليا هى المهيد الذى ولدت فيه الحضارة القفصية، وكل صناعة ميكروليثية أخرى، غير أن «بالر» إنما ذهب إلى أن تقويم السيلية لا يعتمد على تسلسل الطبقات، وأن انقطاع الصلة بين إنسان «نياند رثال» (حامل الصناعة الموستيرية) وإنسان الصناعة القفصية، لا يتفق مع وجود صلة تطور، ومن ثم فإن البعض إنما يرى أن السيلية والقفصية حضارتان ميكروليثيان متشابهتان إلى حد كبير، من حيث التقنية والشكل، وخاصة فى المرحلة الأخيرة من تطورهما (٤٨)، غير أن هذا الاتجاه لم

(45) J.De Morgan, La Prehistoire Orientale, II. L'Egypte et L'Afrique de Nord, Paris, 1926, fig. 86, 88, p. 31, 82.

(٤٦) أرمنت: كانت واحدة من المدن الأربعة التى تكون الإقليم الرابع من أقاليم الصعيد (طيبة والمدامود وطود)، قبل أن ينتقل مركز النقل إلى طيبة (الأقصر) لتصبح العاصمة، وتقع أرمنت على بعد ١٥ كيلا جنوبى الأقصر ٧٤٧ كيلا جنوبى القاهرة، وكان مبيودعا «موتود»، وقد سميت فى المهيد الاغريقى «هرموتس»، وأصبحت منذ الأسرة التاسعة والعشرين تحوى جماعة المعمل المقدس «بوحيس» (الموسوعة المصرية ٩٠/١، وكذا، محمد بيومى مهران: الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية ص ١٣٥ - ١٣٦، وكذا:

A.H Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 116.

(47) S.A. Huzayyin, The Place of Egypt in Prehistory, A Correlated Study of Climates and Cultures of The Old World, MIE, 43, 1941. p. 292.

R.Mond, O H.Mayers, Cemeteries of Amant, London, 1937, p. 198-199.

(٤٨) أم النمر العزون المرجع السابق ص ٥٢، وكذا L.Balou, op.cit., p 416.

يعد أن يكون مجرد فرض، وليس نظرية علمية، فضلا عن أن تكون حقيقة تاريخية.

هذا وقد استمر الإنسان في تشكيل بعض القطع على هيئة معينة كما في كهف Marhsal و كهف أشكاره، هذا إلى جانب المجموعة التي اكتشفها Bu chet والتي رأى فيها Kochler رموزا قفصية مرتبطة بالمعبودات النسائية التي سادت رموزها حوض البحر المتوسط، وقد عرفت بمعبودات أشكار (٤٩).

وهناك أيضاً إمكانية وجود غاية سحرية في هذه الرسوم، على أساس تصور الإنسان وإظهار تحكمه فيها، ليحمل في طياته معنى تجسيم هذه الفكرة في الواقع، ذلك لأن الإنسان - رغم تقدمه الحضارى بالمقارنة بالمراحل السابقة الطويلة أثناء العصر الحجري القديم - فهو لا يزال يبحث عن الأمان والطمأنينة، فضلا عن الانتصار على القوى الشريرة الضارة بحياته ومستقبله.

هذا وتؤرخ هذه الرسوم بالفترة التي تمتد من حوالى منتصف الألف الثالث وحتى منتصف الأول قبل الميلاد، وهي فترة تقابل فترات هامة من صميم العصر التاريخي في مصر الفرعونية، الأمر الذي يؤكد أن هذه الرسوم إنما تعبر عن أفكار حضارية متأثرة بالحضارة المصرية القديمة، مما يعد استمراراً للصلات المصرية ببلاد المغرب، وإن كان هناك اتجاه إلى أن هذه الرسوم إنما قد جاءت من غربى أوروبا وأسبانيا، أو هي تطور من الحضارة القفصية، وإن كان هذا الاتجاه يصعب الإعتماد، إذا ما قورن بالأدلة الأثرية الأنفة الذكر (٥٠).

وعلى أية حال، فلقد كشف في المستويات السفلى من «تل سوس» على مجموعة من التماثيل الصغيرة - الحيوانية والإنسانية - والمصنوعة من الحجر أو الطين أو العاج (٥١)، وقد كشف في مصر عن تماثيل من الصلصال في مقابر

(49) H.Camps - Febrer, op.cit., p. 401.

H.Kochler, La grotte d'Achakar au Cap Spertel, Bull, de Inst, d'Et des Reliy. de Eveleche de Rabat, 1931.

R.Vaufrey, op.cit., p. 365.

(٥٠) رشيد الناضورى: الرجوع السابق من ١٣٩ - ١٤٤

البيدازى ونقادة - وكذا فى العالم الإيجى - تمثل إلى حد ما تلك التى وجدت
«أشكار» (٥٢)، مما يشير إلى انتشار هذا النوع فى إقليم البحر المتوسط، وعلى أية
حال، فرغم اختلاف التفسيرات من حول هذه الأشكال، فأكبر الظن أنها ترتبط
بمجموعات البحر المتوسط، كرمز أثنوى لشعائر الخصوبة.
(١١). قورين: (قورينة)

أنشأ الدرزيون فى عام ٦١٣ ق.م، مستعمرة «قورينة» على الشاطئ الشمالى
البعيد فى أفريقيا، أخذت تهدد استقلال القبائل الليبية، فضلا عن اغتصاب
مساحات واسعة من أملاك الأهالى، إلى جانب الإضرار بالمصالح المصرية، بل
وربما بتجارة اليونانيين فى أفريقيا عموما.

وهكذا نشأ نزاع مرير بين القبائل الليبية الممتدة حتى تونس الحالية، وبين
هذه الجماعات الدورية الإغريقية التى استعمرت «برقة». وما حولها، استعمارا
تجاريا تحول إلى استعمار سياسى، أصبحوا به سادة البلد، واتخذوا من مدينة
«قورينة» (Cyrene) عاصمة، وشيئا فشيئا ازدادت أعداد المهاجرين، وفى نفس
الوقت ازداد ضيق الليبيين بمنافستهم لهم فى أرزاقهم وأرضهم، فضلا عن
تعاليمهم عليهم، ومن ثم فقد لجأ «إديكرات» - أحد رؤساء الليبيين إلى الفرعون
«إيريس» بطلب حمايته.

وهكذا وجه الفرعون «واح إيب رع» (إيريس ٥٩٥ - ٥٨٩ ق.م) جيشا
إلى هذه الناحية، غير أن هذا الجيش المصرى إنما لقى هزيمة منكرة، حين وقع
فى كمين بسبب خيانة بعض ضباطه من اليونانيين، وكاد أن يبيده يونانيو ليبيا،
ولم يعد منه غير القليل، الأمر الذى أدى إلى ثورة المواطنين فى مصر ضد
الفرعون وأعلن من نجوا المصيان، واتهم الجميع - المواطنين والجنود المصريون -
الفرعون بأنه دبر هذه الحملة ليشخلص من المصريين فى الجيش، حتى يزداد
تسلطا، وأنه قد أسرف فى احتضان الإغريق على حساب المواطنين المصريين،
وكان لكل من الإتهامين نصيب من الصحة.

(51) H.Camps- Febrer , op.cit., p. 402.

(52) A. Jodin, Les grottes de Khrl a Achakar, (Province de
Tanger), Bull d'Archeol. Neroac, III, 1959, p. 249 - 331.

وانتهت الأمور بقتل الفرعون إيريس عند «مومفيس» (كوم الحصن - مركز كوم حمادة - بمحافظة البحيرة)، أو على مقربة من «الطرانة» على الفرع الكانوبي للنيل، أو كما كانت تسمى قديماً «سخت مافكا» (٥٣).

(١٢) كهف حجة الطرة: (حكفت الطير):

ويقع على مبعدة ٢٤ كيلاً من بنى غازى، عند تقابل الصحراء مع الوادى الساحلى، حيث عشر على آثار مرحلة الانتقال فى أرضية الكهف، فضلاً عن الصناعات النصلىة، وخاصة الأسلحة الميكروليثية والأزاميل الدقيقة.

(١٣) كفه حجة الضبع: (حكفت الضبعة):

وهو فى «برقة» حيث عشر على أسلحة كثيرة مختلفة الأحجام، مما يؤكد اعتبارها منطقة إنتقال حضارى، ذلك لأن التوصل إلى صناعة حجرية جديدة لا يعنى أبداً الإنقطاع الفجائى عن التقاليد الحضارية السابقة، وإنما المفروض منطقياً أن يسير التقليدان جنباً إلى جنب، حتى يحل القديم محل الجديد.

(١٤) كهف هوافتيح:

وثالثهما «كهف هوافتيح» (٥٤)، والذي تعتبر طبقاته الأثرية بمثابة سجل حى

(٥٣) محمد يومى مهران: مصر، الجزء الثالث، ص ٦٥٦-٦٥٨، عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٢٨٠-٢٨٢، وكذا:

A. A. H. Gardiner, op. cit., p. 361 - 362.

S. A. Cook, CAH, III, 1965, p. 401.

W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 281 - 284.

Herodotus, II, 169. W. J. Wiseman, op. cit., p. 94 - 95.

(٥٤) كهف هوافتيح (Haua Fteah): كشفت عنه بعثة كمبردج فيما بين عامى ١٩٥١، ١٩٥٥م، على مقربة من سوسة فى ليبيا (إلى الشرق قليلاً من مرسى سوسة، وهى أبو لونا القديمة، بمنطقة الجبل الأخضر) وأرخ له «كربون ١٤» ما بين ٩٠٠٠، ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ويمد هذا الكهف من أكبر وأوسع كهوف عصور ما قبل التاريخ، ربما فى كل حوض البحر المتوسط، وشكله نصف دائرى بقطر ٨٠ متراً، ويعد عن ساحل البحر بهضمة مثلت من الأمتار، وتوجد فى سطح الكهف آثار من عهد الإستهيطان الإغريقى (القرن ٧ ق. م)، ثم آثار الليبيين القدامى، ثم أدوات من العصر الحجري الحديث، ومع أن عمق الحفريات ومبل إلى ١٣,٥ متراً، غير أن عمق للترسيبات غير معروف (أنظر عن كهف هوافتيح:

C. B. M. Mc Burney, the Hawa Fteath (Cyrenatca) and the Stone Age of The South-East Mediterranean, Cambridge, 1967).

لتاريخ الانسان فى هذه المرحلة، وما تلاها حتى العصر التاريخى، حيث عشر على كميات كبيرة من الأسلحة الحجرية المشابهة لصناعة حجفة الطيرة، ولتحدث الان عن الحضارتين الرومانية والقفصية.

هذا فضلاً عن آثار العصر الحجري الحديث فى موقع «هوافتيح» بمنطقة الجبل الأخضر فى برقة، وعلى رأسها الفخار، إنما تثبت توصل الانسان هناك إلى الإستقرار والزراعة، وقد طبقت طريقة «كربون ١٤» المشع على آثار الطبقة الأخيرة فى موقع هوافتيح، وأرخت نتيجة لذلك بحوالى النصف الثانى من الألف الخامس قبل الميلاد(٥٥).

وعلى أبة حال، فهناك ما يشير إلى مؤثرات مصرية واضحة فى هذه الآثار الليبية، فهناك وجه شبه كبير بين فخار الفيوم وبين موقع هوافتيح، والأمر كذلك فى الصناعات الحجرية، كرؤوس السهام، والتي لم يعثر على جذورها فى المواقع الليبية، الأمر الذى يؤكد وجود التأثيرات المصرية، خاصة وأن حضارة الفيوم، فيما يرى كثير من الباحثين - ومنهم سليمان حزين، وكاتون طمسون، ويورتر، وجاك فاندبييه، ووليم هيز - إنما كانت أسبق من حضارة مرمدة(٥٦)، ذلك لأن مجتمع الفيوم، رغم أنه كان مجتمعاً مستقراً، ولكن دون أن يقيم أكواخاً، أو يتخذ له مأوى ثابتاً - كما فعل أهل مرمدة وحلوان العمرى - هذا فضلاً عن أن أدوات أهل الفيوم إنما كانت أقل تطوراً، وفخارهم أكثر خشونة، وربما يرجع إلى منتصف الألف السادس قبل الميلاد(٥٧).

(55) L. Balout, op. cit., p. 481.

وانظر عن الآراء المختلفة حول التواريخ المقترحة لمصر التأسيس (الأسرتين الأولى والثانية فى مصر الفرعونية): محمد بيومى مهران: مصر، الجزء الثانى، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٩ - ١٢.

(56) W. C. Hayes, Most Ancient Egypt, Chicago, 1962, p. 70.

G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, The Fayum, I, 1943, p. 295 - 296.

S. A. Huzayyin, op. cit., p. 295 - 296.

(٥٧) اختلف العلماء حول بداية العصر الحجري الحديث فى مصر ونهايته، فهناك من يقترح البداية فى الألف العاشر أو الثامن من قبل الميلاد، ومن يقترح حوالى عام ٦٥٠٠ ق. م، كبدية بالنسبة للفيوم (أ)، وحوالى ٥٠٠٠ ق. م بالنسبة للزراعة، وأنه استمر حوالى ٨٠٠ عام، على أن فريقاً =/=

وعلى أية حال، فهناك صلات حضارية بين حضارة الفيوم أ، وبين مواقع سيوه والخارجة وغيرها من مواقع الصحراء الغربية المصرية، مما يؤكد وجود سير خط حضارى بين منطقة شرقى ليبيا وبين وادى النيل الأدنى وخاصة منطقة الفيوم، فى ذلك الوقت المبكر من مرحلة استقرار الإنسان.

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب إلى أن الجذور الأولى لحضارة العصر الحجري الحديث فى شمال أفريقيا، بوجه عام، إنما ترجع فى الحقيقة إلى جهود الإنسان وقت ذلك فى منطقة الصحراء الكبرى - وهى منطقة فسيحة تمتد من البحر الأحمر وحتى المحيط الأطلسى - وكانت مسرحاً ضخماً لتجول الإنسان وتنقله بين الأودية والعيون والواحات والآبار، خلال المراحل الجوية المناسبة التى تخللت تاريخ هذه المنطقة الصحراوية، وقد عثر الأثاريون على عدد كبير من المواقع الأثرية فى أجزاء من هذه المنطقة، وقد أكدت أبحاث «كاتون طمسون» وجود صلات حضارية فى التقاليد الصناعية بين هذه المواقع الأثرية.

وقرب نهاية العصر الحجري القديم الأعلى، وبداية الانتقال للعصر الحجري الحديث، أى بعد ظهور مراحل الجفاف الأخيرة، اضطر الإنسان فى هذه المنطقة الصحراوية إلى الرحيل نحو الأودية والمناطق التى يجد فيها مأكله ومشربه، ومن ثم فقد اتجهت مجموعات من هذا الإنسان نحو الشمال - نحو برقة وتونس - واتجه بعضها نحو الشرق - نحو الواحات المصرية وبحيرة قارون ووادى النيل الأدنى - وقد تمكن هؤلاء الذين انتقلوا إلى المنطقة الأخيرة من أسبقية التوصل إلى الاستقرار، وإنشاء القرى، وعلى ذلك يمكن تفسير وجود هذه الصلات الحضارية

=/=

وابتأرى أن العصر الحجري الحديث يبدأ فى الربع الأول من الألف الخامسة، أو حوالى منتصفها فى الوجه البحرى، وأخيراً فهناك من يراه فيما بين منتصف الألف الخامسة وبداية الألف الرابعة قبل الميلاد (أنظر: محمد بيومى مهران: مصر، الجزء الأول، ص ٢١٥ - ٢١٦، وكذا:

W. C. Hayes, op. cit., p. 113 - 116.

E. Massoulard, op. cit., p. 48.

G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, op. cit., p. 93.

K. W. Butzer, BSRGE, 32, 1959, p. 43.

G. Clark, op. cit., p. 227.

J. Vandier, op. cit., p. 188.

الأنفة الذكر، بين حضارة الفيوم أ، وبين حضارة منطقة شرقي ليبيا، على أساس إمكانية انتماء كلتا الحضارتين أصلاً، إلى جذور وتقاليد حضارية واحدة في منطقة الصحراء الكبرى (٥٨).

هذا ويذهب الدكتور يسرى الجوهري إلى أن تفسير بعض التشابه بين مواقع سيوه والخارجة والفيوم وكهف هوافتيح، إنما وجد عن طريق افتراض إمكانية انتماء حضارة الفيوم وشرق ليبيا، إلى جذور وتقاليد حضارية واحدة في الصحراء (٥٩).

بقيت الإشارة إلى أنه قد عثر - من مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط - على فك إنسانى فى «كهف هوافتيح» - إلى الشرق قليلاً من مرسى سوسة (أبولونا القديمة) فى غرب درنة بمنطقة الجبل الأخضر فى ليبيا - وطبقاً لتأريخ «كربون ١٤»، فتلقد أرخ الفحم الخشبي الذى عثر عليه فى الموقع بحوالى ٤٣,٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٦٠)، وقد أكدت الدراسات الدقيقة لإنسان «هوافتيح» أنه قريب الشبه بإنسان «الطابون» و«الكرمل» فى فلسطين (٦١)، فضلاً عن التشابه فى الصناعة الحجرية، مما يؤكد وجود نوع من الصلات الحضارية والبشرية بين جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، مما دفع البعض إلى القول بأن هذا الإنسان قد دخل هذه المنطقة من الجنوب أثر هجرة جنوبية - شمالية، ظهرت آثارها كذلك فى وادى النيل، ثم تطور بعد استقراره فى هذه المنطقة (٦٢).

بقيت الإشارة إلى وجود صلات حضارية بين شرقي البحر المتوسط - وخاصة فلسطين، وعلى الأخص مدينة أريحا (٦٣) - وبين المواقع الليبية (حكفت

(٥٨) رشيد الناضورى: المغرب الكبير / ١ - ١٢٦ - ١٢٧.

(٥٩) يسرى الجوهري: جغرافية المغرب العربى، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٨١، ص ٥٤.

(60) C. B. M. Mc Burney, The Haua-Fteah (Cyrenaica) and The Stone Age of The South-East Mediterranean, Cambridge, 1961, p. 168.

(61) Ibid., p. 349.

(٦٢) رشيد الناضورى: المرجع السابق، ص ٦١ - ٦٢.

(٦٣) أريحا (جرىكو = Jericho): ومعناها مدينة القمر، أو مكان الرواح العطرية، وهى مدينة هامة

=/=

الطيرة، وحكفت الضبعة، وكهف هوافتيح) أثناء العصرى الحجري القديم الأعلى، وأن هذه التأثيرات أو الصلات نم عن طريق دلتا النيل، غير أنه لم يعثر على آثار هذه الحضارة فى المنطقة ما بين دلتا النيل وخليج سرت فى ليبيا، بينما وجدت فى هذه المنطقة أدوات الحضارة العاترية، واستمرت حتى العصر الحجري الحديث بدون انقطاع، ومن ثم فقد بدأ العلماء فى البحث عن طريق آخر لمرور هذه الحضارة من غربى آسيا إلى ليبيا.

هذا وقد أصدر «فيلب جيمس» (٦٤) عام ١٩٨٣م دراسة عن ٢٧ موقعا أثريا، تقع فى المنطقة ما بين أسوان والأقصر، وتنتمى جميعها إلى العصر الحجري القديم الأعلى، وكان من بينها موقعان يقعان على مبعده ٨ كيلا شمال غرب إسنا (ربما غرب مدينة «حسفت القديمة، وهى المطاعنة الحالية»)، وقد عثر فيها

=/=

تقع على مبعده ٨ كيلا غربى نهر الأردن، ٢٧ كيلا شمال شرق القدس، أما «أريحا» التى جاء ذكرها فى التوراة فمكثانها «تل السلطان» على مبعده ميل واحد من مدينة «أريحا» الحديثة، وقد أثبتت الحفريات التى أجريت فى «تل السلطان»، على أن أريحا واحدة من أقدم مدن العالم، وقد اكتشف فيها فخار من أقدم فحار العالم، كما عثر فى أريحا على آثار الحضارة النطوية بصورة متصلة حضاريا، تؤكد الانتقال الفعلى نحو مرحلة الاستقرار وإنتاج الطعام (أى مرحلة ما قبل النيوليتية، كما عثر على آثار مرحلة العصر الحجري الحديث الصميم ابتداء من الطبقة التاسعة، وكان أول من قام بالحفر فى أريحا «أرنست سيلين» و «كارل فتنزجر» فى الفترة (١٩٠٧ - ١٩٠٩م)، ثم «جون جارسناج» فى الفترة (١٩٣٠ - ١٩٣٦) ثم «مس كاتلين كينيون» منذ عام ١٩٥٢م (أنظر: رشيد المفاضورى: جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ١/ ١١٧ - ١١٩، ٢٤٠، محمد يرمى مهران: إسرائيل ٢/ ٩٠٥، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٥٩، وكذا:

E. Sellin and C. Watzinger Jericho, 1913.

J. and J. B. E. Garstang, The Story of Jericho, 1940.

K. M. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, London, 1970, p. 13 - 43.

K. M. Kenyon, in PEQ, 1952, p. 62 - 82, 1953, p. 18 - 95, 1954, p. 45 - 63, 1955, p. 108 - 117, 1956, p. 67 - 82 and in Scientific American, 90, 1954, p. 76 - 82.

(64) Phillips James The Nile Valley Final Paleolithic and Externai Relations, University Microfilms International, Aim Albor, Michigan, U.S.A., 1983.

على كميات ضخمة من النصال، بلغت في الموقع الأول ١٠١٩٤، وفي الثاني ٢١٥٠٢ نصالاً، وأن أحد الموقعين يشبه تشذيب أدوات «أوشتاتا» في تونس، كما اتبع في صنع أدواته نفس التقنيات التي اتبعها إنسان موقع «أوشتاتا» Ouchtata، وأن الموقع الثاني (وقد انتقل إليه أصحابه من الموقع الأول) يشبه كثيراً من حيث التقنية والشكل موقع «الهامل»، والذي يبعد عن الساحل الجزائري بحوالي ٥٢٠ كيلاً، كما أشرنا من قبل، وقد خضع الموقعان لعملية التأريخ بواسطة «كربون ١٤» (٦٥) المشع، فأرخ لها بفترة لا تقل عن ١٤٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وبالتالي فهما سابقان لموقعي شمال أفريقيا (٦٦).

وانطلاقاً من هذا، فإن «فيلب جيمس» - وكذا «بالوه» - يتفقان على أن التأثير الذي وقع على شمال أفريقيا إنما قدم من الشرق - من السواحل الليبية أو وادي النيل - وليس من الصحراء، وأنه لم يكن مقصوراً على الأداة فقط، وإنما امتد كذلك إلى الملامح الجسمانية، خاصة وأن إنسان النوبة وقت ذلك إنما كان يشبه رجل «مشتا العربي» (٦٧)، وبالتالي فإن أصل الحضارة الإيبرو مغربية (الوهرانية) من وادي حلفا (السودان) وليس من مصر، خاصة وقد كشف «فاريديج» فيما بين عام ١٩٦١، ١٩٦٢م عن ستة مواقع ذات أدوات ميكروليثية ميزتها أنصال ذات القاعدة في منطقة شمال وادي حلفا (٣٤٠ كيلاً جنوب أسوان)، وأطلق عليها «حضارة حلفا»، وتظهر أهمية هذا الكشف الأثري في أمرين، الواحد: أنه يكشف لنا عن أول صناعة ميكروليثية في أفريقيا، والآخر: أنه

(٦٥) أنظر عن التقويم بـكربون ١٤ (محمد بيومي مهران: مصر، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٨٨، ص ٢٧٠ - ٢٧٤، وكذا:

W. F. Libby, Radiocarbon Dating, Chicago, 1952.

R. M. Derricourt, Radio Carbon Chronology for Egypt and North Africa, in JNES, 1971.

H. S. Smith, Egypt and C 14 Dating, Anliguity, 1964.

C. Flight, A Surjeiy of Recent Results in The Radiocarbon Charonology Northern and Western Africa, JAH, 14, 1937.

(٦٦) Phillips James, op. cit., p. 35, 130, 202.

(٦٧) Fred Wendorf, The prehistory of Nubia, I, Dallas-Texas, U.S.A., 1968, p. 32.

تم فى هذه المواقع الستة تطور الصناعة من التثظية إلى النصال (وهى تقنية جديدة).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هذه الصناعة ميكروليثية تماماً، ومبكرة جداً فى أفريقيا، ولا علاقة لها بالحضارة السبيلية (نسبة إلى قرية السبيل، فى مجاورات مدينة كوم، بمحافظة أسوان)، وتمثل صناعة نصال قزمية فى وادى النيل، ومبكرة عن باقى مناطق أفريقيا، ولقد أرخ لها «كربون ١٤» بحوالى ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وتمثل النصال فيها نسبة ٧٩٢,٧٪ من مجموع أدواتها^(٦٨).

هذا وقد نرحت هذه الحضارة شمالاً إلى «إسنا» (بمحافظة قنا)، وسكن أصحابها فى غربى «حسفت» (المطاعة الحالية - مركز إسنا)، كما وجدت فى «بلانة» (٣٠ كيلاً شمالى وادى حلفا) بالنوبة المصرية القديمة (النوبة السفلى)، ويؤرخ لموقع بلانة هذا بحوالى ١٤,٠٠٠ سنة ق. م (طبقاً لكربون ١٤)، ويؤكد «وندروف» أن الحضارة الإيبرو مغربية ظهرت فى شمال أفريقيا حوالى ١٢,٥٠٠ سنة ق. م، وقد نرحت من مصر - وليس من أوروبا - وأن أصحابها إنما كانوا يعيشون على طول نهر النيل، قبل أن تنتقل إلى شمال أفريقيا، وبالتالي فإن موقعى «وادى حلفا» و «بلانة» إنما هما سابقان زمنياً، ومن ثم فهما يمثلان السلف المباشر للحضارة «الإيبرو مغربية»^(٦٩).

(١٥) محجر سيدى عبد الرحمن:

هو أحد المحاجر الكثيرة المنتشرة فى نواحي مدينة «المدار البيضاء» بالمملكة المغربية، نتيجة تجمع الرسوبات البحرية والحجر الرملى والجص طوال العصور الجيولوجية، وقد تخللت طبقات هذه المحاجر بقايا عظمية لحيوانات فقيرة - كفرس النهر ووحيد القرن - وحيوانات لافقرية، فضلاً عن البقايا الأثرية - التى خلفها الإنسان من تلك المرحلة، وتندرج هذه المواقع من ارتفاع يزيد عن مائة متر، وإلى مسافة ٥ كيلاً، تجاه المحيط الأطلسى، كما تمتد

(٦٨) أم الخير العقون: المرجع السابق، ص ٣٨ - ٤١، وكذا:

F. Wendorf, op. cit., p. 457.

(69) Fred Wendorf, The Prehistory of Nubia. II, 1968, p. 1050, 1057.

نحو الجنوب الغربى، حيث عشر على «كهف الديبة» (Grotte des Ours)، و «كهف ليتورين» (Grotte des Littorines) وقد كشف فى الكهف الأخير (ليتورين) فى عام ١٩٥٥م عن فك سفلى إنسانى من قطعتين، وفى حالة جيدة، ينتمى إلى مجموعة إنسان «باليكار»، أى «مجموعة أتلاتشروبوس»، اثنى ترتبط بمجموعة الشرق الأقصى (إنسان جاوه، وإنسان بكين)، وإن كان حجم الأسنان فى كهف «ليتورين» (Littorines) يقل عن نظيره فى «باليكار».

وفى شهر فبراير عام ١٩٣٣م، عشر فى نواحي «الرباط» على بقايا إنسان، عرف باسم «إنسان الرباط»، وأغلب الظن أنه ينتمى إلى مجموعة إنسان باليكاو، وسيدى عبد الرحمن (مجموعة أتلاتشروبوس). كما يؤكد التشابه الجيولوجى بين طبقات محجرى سيدى عبد الرحمن والرباط، تشابه البيئة المحيطة بحياة الإنسان الأول فى كلا الموقعين (٧٠).

(١٦) أهم المواقع الصحراوية فى العصر الحجري الحديث:

(١) موقع عبد العظيم: يقع فى أقصى الجنوب الغربى، على حافة وادى الساوره.

(٢) موقع زميلة بركة: ويعد من أغنى المواقع، ويقع على مبعده ٢ كيلا، جنوب غرب واحة أوغرطة، وعلى مبعده ١٥٠ كيلا شمال موقع عبد العظيم.

(٣) موقع زفان: ويقع على مبعده ٢٥ كيلا، جنوب شرق مدينة زفان.

(٤) موقع تبليلة: ويقع غرب الساوره، ويتميز برؤوس سهام وفؤوس ومدى ذات تأثير مصرى.

(٥) موقع أمكين: ويقع فى أقصى الجنوب الشرقى للصحراء الجزائرية، وعلى مبعده ٤٠ كيلا شمال غرب «تمراست»، وهو تل مرتفع يشرف على السهل، حيث يجرى عند السفح مجرى مائى كبير يمد السكان بالماء والأسماك، كما

(٧٠) رشيد الناشرى: المنزب الكبير، ص ٥٤ - ٦١، وانظر:

H. V. Vallois, L'homme de Rabat, BAM, III, 1958 - 1959, p. 89

C. B. M. Mc Burney, The Stone Age of Northern Africa, London, 1960, p. 118.

وجدت آثار لمساكن متناثرة بين الكتل الصخرية، وقد وجدت بجانبها أحواض الطحين محفورة في الصخر، وتعتمد الصناعة في هذه المواقع على الكوارتز، ومن أدواتها نصيلات مسننة وؤوس سهام.

هذا ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن المواقع الأثرية الصحراوية إنما وجدت في الهضاب أيضاً - كما وجدت في الجبال - وقد عثر على أدوات على السطح، وقد كشف «فورو لامي» في عام ١٩٠٥م في العرق الشرقي الكبير عن أكثر من ٢٣٢ موقعا، في مساحة لا يتعدى طولها ٤٨٥ كيلا، وعرضها ٣٢٠ كيلا، وقد عثر فيها على نصال عادية، وأخرى متنوعة قزمية، وفؤوس وسهام موسستيرية، وأخرى عاترية، كما عثر على ما يدل على استخدام القوم هناك في العرق الشرقي لقشور بيض النعام والفخار (٧١).

(١٧) مخبأ رديف:

هناك ما يشير إلى وجود أدوات العصر الحجري الحديث، ذات التقليد القفصي في عدة مواقع تمتد من تونس شرقاً، وحتى المغرب الأقصى غرباً، ومن أهمها مواقع: الصفصاف والكف الأحمر والكيفان وجاعتشة، ثم مخبأ رديف، وهو أهمها جميعاً، (ويقع على سفح جبل رديف غربي قفصة بحوالي ٥٥ كيلا، وعلى مبعده كيلو متر واحد من بلدة رديف على الشاطئ الشمالي لخور ينزل من جبل رديف)، ويذهب «جوبار» إلى أن موقع «مخبأ رديف» هذا، إنما يمثل حداً مشتركاً بين العصر الحجري الحديث في المغرب القديم والصحراء، أو هو - فيما يرى فوفري - نقطة عبور من السمة الصحراوية إلى سمة العصر الحجري الحديث ذي التقليد القفصي (٧٢).

(٧١) أم الخير العقون: المرجع السابق، ص ٧١ - ٧٤، طاهر المدوناني: دراسة للحضارة في عصور ما قبل التاريخ بالصحراء الجزائرية، وخاصة أثناء العصر الحجري الحديث، الإسكندرية ١٩٧٥، ص ١٦٠ - ٩٦١، وكذا:

Foureau Lamy, Documents Scientifiques De La Mission Saharnerne, II, Publications De La Societe Geographique De Paris, 1905, p. 1100 - 1125.

(72) R. Vauferly, op. cit., p. 291 - 306.

(١٨) موقع برزينة.

ويقع جنوب «وهران» في الجزائر، ويمثل مرحلة انتقال من العصر الحجري الحديث (١) (موقع رديف) إلى العصر الحجري الحديث (٢) (دار السلطان)، فيما يرى «بالوه» (٧٣)، وإن ذهب «فوفري» إلى أن الموقع متأخر زمنياً عن مواقع أخرى وجدت في وهران، وذلك لقلّة الأدوات النفضية، وزيادة الأدوات النيوليتية الخالصة في الموقع، وأما الفخار فلم يعثر منه على آنية كاملة، وإنما عثر على كسور ذات زخرفة بمسحة المشط أو بالأصابع، فضلاً عن كسور ذات لون واحد، أحمر وأسود، بدون زخرفة، على أن هناك نوعاً أحمر ذا قمة سوداء يشبه فخار عصر ما قبل الأسرات في مصر، وآخر بلون أحمر يشبه فخار المعادي، والفخار جميعه أما ذو قاع محروطي أو دائري (٧٤).

(١٩) مشتا العربي:

كان مشتا العربي مكنناً لأقوام طولال القمامة (١٧٢ سم في المتوسط) ومستطيلي الرؤوس، لهم جبهة ضيقة، وشفاة طويلة، وربما كانوا أول سلالة تتخذ لها موطناً في المغرب، وكانوا يمارسون عادة خلع الأسنان القاطعة، ثم بدأ يظهر تحول نحو قصر الرأس، وتحافة الجسم في أماكن معينة أظهرتها «كولومناطة» (Columnata) في غرب الجزائر، وذلك حوالي عام ٦٠٠٠ ق.م (٧٥).

(73) A. Rhulman, La Grotte Prehistorique De Dar-Essoltan, Paris, 1951, p. 88.

(74) R. Vaufrey, op. cit., p. 360.

(٧٥) جيهان ديزاج: تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو ١٩٨٥، ص ٤٣١ - ٤٣٢،

L. Balout, op. cit., p. 346, 349 - 351. وكنا:

G. Camps, op. cit., p. 81 - 88. وكنا:

M. C. Chamla, Les Hommes epipaleolithiques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem. C R. A. P. E, XV, 1970, p. 113 - 114).

ولعل من الجدير بالإشارة إلى أن هناك من يذهب إلى أن إنسان «مشتا
العربي» من أصل غربي لوجود شبه بينه وبين إنسان كرومانيون، وكذا إنسان جزر
كناريا، والتي كانت بمثابة ملجأ بشري تصل إليه العناصر البشرية من المغرب، غير
أن هناك فريقاً من العلماء إنما يرى أن ذلك أمراً بعيد الاحتمال، ذلك لأن
«الجوانشيين» (Guanches) رغم أنهم مشابهُون أنثروبولوجياً لرجال «مشتا
العربي»، فإنهم لا يماثلونهم في الحرف والصناعات والمعدات، كما أن الحضارة
الوهرانية لم تأت من أوروبا، ذلك لأنها إنما ظهرت قبل بداية الملاحة عبر المضائق
(حوالي الألف الرابع قبل الميلاد)، ومن وإلى صقلية، وهناك ما يحمل على الظن
بأن أصولها شرقية، ومن المحتمل أيضاً أنها أتت من شمال السودان وادي النيل -
فيما يرى تكسيير - ومن ثم فما داموا قد أتوا تحت ضغط من الشعوب المهاجرة،
فلا شك أن «الإيبيريين - الموريتانيين» قد اتخذوا ملاجئ في التلال، ويمكن أن
يعتبروا أحد العناصر الإنثروبولوجية لسكان الجبال (٧٥).

(٢٠) وهران:

ميناء جزائري على البحر المتوسط، وكانت أهم القواعد البحرية الفرنسية
بشمال أفريقيا، هذا وينسب تأسيسها إلى تجار من عرب الأندلس في القرن العاشر
الميلادي، وقد تداولها الأسبان والأتراك (القرن ١٦ - ١٨م) واحتلها الفرنسيون
في الفترة (١٨٣١ - ١٩٦٤م) (٧٦).

هذا وينسب العلماء إلى «وهران» «الحضارة الوهرانية» وقد كشف عنها
«بول بالاري» (Paul Pallary) في عام ١٨٩٩م في وادي مويلج، على مقربة
من مدينة مغنية في غرب الجزائر، وأطلق عليها اسم «إيرو - مغرية»، اعتقاداً منه

(٧٥) جيهان ديزاج. المرجع السابق، ص ٤٣١ - ٤٣٢، وكذا:

M. C. Chamle, Les home epipaleolithiques de Columnata
(Algerie Occidentale) Mem. C.R.A.P.E, XV, 1970, p. 113 - 114.

(٧٦) جيهان ديزاج: المرجع السابق، ص ٤٣٢.

أن هناك صلة تربطها بحضارة العصر الحجري القديم الأعلى في شرق أسبانيا، وإن أثبتت المقارنة بين المواقع المختلفة عدم وجود هذه العلاقة، ومن ثم فقد أطلق عليها «فوفري» اسم «الحضارة الوهرانية»^(٧٧)، غير أن موقع مويلح إنما كان متوسط الأهمية، وأقل شأنًا من موقع «أفلوريمال» بين جيجل و بجاية في شرق الجزائر، هذا فضلاً عن انتشار مصطلح «إيرر - مغربية» في الأبحاث الأثرية، الأمر الذي أدى إلى الإبقاء على هذا المصطلح، رغم عدم دقته.

وعلى أية حال، فالحضارة الوهرانية حضارة ساحلية، وصناعتها غير دقيقة، ومن مادة رديئة، بل وبعدها الباحثون من أنقر صناعات عصور ما قبل التاريخ، ويقسمها الباحثون إلى ثلاث مراحل: الأولى سابقة للحضارة القفصية، وتوجد في موقع واحد قرب مدينة قفصة في تونس حيث الأدوات الكبيرة وعدم وجود أدوات ميكروليثية، ثم تتجه شمالاً إلى موقع سيدي منصور في تونس أيضاً، حيث وجدت الأزاميل القرمزية. والثانية والثالثة معاصرة لها، وإن تميزت المرحلة الثانية بالأدوات الميكروليثية، فضلاً عن تلك التي صنعت من عظم، وقد وجدت في مواقع عميقة في المغرب الأقصى ككهف الخنزيرة ودار السلطان ومغارة تافورالت، وأما المرحلة الثالثة فقد وجدت في مغارة «كلومنانا» في الجزائر، وقد تميزت بأدواتها الميكروليثية، وأنها تمثل أوج «الحضارة الأيرومغربية»^(٧٨).

هذا وقد اختلف الباحثون في تحديد مكان هذه الحضارة الوهرانية في سلم التطور الحضارى في هذا العصر، فهناك من يراها متأخرة زمنياً، أى أنها معاصرة للمرحلة الأخيرة من الحضارة القفصية، ومن يرى لها أسبقية في الصناعة التصليية على أساس أن بعض المواقع الأثرية في نواحي الدار البيضاء إنما تحوى خليطاً من

(٧٧) قارن: رشيد الناظوري: المرجع السابق، ص ١١٦ - ١١٧.

(٧٨) أم الخير العقون: المرجع السابق، ص ٣٠ - ٣١، وكذا:

R. Vaufray, Prehistoire de L'Afrique, I, Le Maghreb Ed-Masson, Paris, 1955, p. 88 - 89.

L. Balout, op. cit., [304.

الأثار الوهرانية، وبالتالي فإن للحضارة الوهرانية أولوية فى النصلية فى المغرب، على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب إلى وجود صلات حضارية بين حضارة «هوافتيح» فى برقة، والحضارة الوهرانية، وأخيرا فهناك اتجاه رابع يذهب أصحابه إلى الاعتقاد فى وجود صلات حضارية بين المواقع الساحلية الأسبانية والمواقع الوهرانية والمغربية، وإن اختلفت الآراء فى أيهما المصدر الأصلى لهذه الحضارة، هل هو الجانب الأوروبى أم المغربى (٧٩).

وعلى أية حال، فلقد انتشرت الحضارة الوهرانية فى تونس والجزائر والمغرب، وإن اختلفت مواقعها من الساحل قريبا أو بعدا، ففى تونس: وجدت مواقع: أكارت، وأدواته مطابقة لأدوات كحفن الطيرة فى ليبيا، و«أوشنتانا»، وقد كشف عنه عام ١٩٥٢م، ويعتبره البعض من أقدم مواقع الحضارة الوهرانية فى الشمال الأفرقى، وفى «قلعة الصنم» على الحدود بين تونس والجزائر (٨٠).

وأما مواقع الحضارة الوهرانية فى الجزائر، فهى مواقع ساحلية تمتد من عنابة وحتى أقصى الغرب الجزائرى، وقد وجدت فى عنابة وسوق وهران وبجاية، وأما فى الوسط الجزائرى، فتبعد المواقع عن الساحل، ويتمثل ذلك فى اختراق إنسان «مشتا العربى» (٨١) (حامل الإبيرو مغربية) للهضاب العليا، كما فى موقع «الهامل» على مبعده ٢٥٠ كيلا من الساحل، وتشير القواقع البحرية فى هذه المواقع على اتصال بالمواقع الساحلية.

(٧٩) رشيد الناضورى: المرجع السابق، ص ١١٥ - ١١٧.

(80) L. Balout, op. cit., p. 375 - 377.

(٨١) كان مشتا العربى سكنا لأقوام طولال القامة (١٧٢ سم فى المتوسط) ومستطلى الرأس، لهم جبهة ضيقة، وشفاه طويلة، وربما كانوا أول سلالة تتخذ لها موطن فى المغرب، وكانوا يمارسون عادة خلع الأسنان القاطمة، ثم بدأ يظهر تحول نحو قصر الرأس، ونحافة الجسم فى أماكن معينة أظهرها «كولومنانا» (Columnata) فى غرب الجزائر، وذلك حوالى عام ٦٠٠٠ ق.م (أنظر: جهان ديوانج: تاريخ أفريقيا العدم - اليونسكو ١٩٨٥ ص ٤٣١ - ٤٣٢، وكذا:

L.Balout, op.cit., p 346, 349-351.

G.Camps, op.cit., p. 71- 88

وكنا

M.C. Chamla, Les Hommes Epipaleolitiques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem . C.R.A.P. E, XV, 1970, p. 113 - 114).

هذا ويعد موقع «أفلوهريمال» (Aflou bou Rhumel)، على مقربة من بجاية في الجزائر من أكثر المواقع أهمية لهذه الحضارة، فلقد عثر «أمبورج» في حفائر عام ١٩٢٨م على حوالي ٦٠ هكيلا عظيما، إلى جانب مجموعة من الآلات الحجرية وغيرها، وهناك موقع «كولومنانا» - على بعد ٢٠ كيلا شمال تياريه، ١٢٠ كيلا من الساحل - وقد قدم لنا تنابعا طبقيا لثلاث مستويات حضارية من أسفل إلى أعلى (وهرانية ثم قفصية عليا ثم عصر حجري حديث)، كما أن صناعته ذات سمة وسطى للتحول نحو القفصية، وقد أطلق عليها «الكلومنانيه».

(٢١) نوهديا؛

كان سكان المغرب القديم - أثناء حكم القرطاجيين - من البربر، وقد كونوا ممالك نوميديية، وفي أثناء الصراع بين روما وقرطاج - الذي انتهى بانتصار روما نهائيا في موقعة «زاما» (Zama) في عام ٢٠٢ ق.م.

وتقع «زاما» أو «جامة»: السبع يبار، على مقربة من قرطاج نفسها - (وهي ساقية سيدى يوسف على مقربة من ناراجرا (Naraggara) فيما يرى وارمنجتون وهي قرب الضريح القائم بقصر طوال الزمامل، وفي أعلى نقطة من الممر المفتوح بين جبل ماحبوح شمالا، والجبال الملاصقة لصرد مكثر من جهته الشمالية جنوبا، والذي يصل فيما بين سهل سليانة وسهل السرس، فيما يرى أحمد صقر) وقد ساهم في معركة «زاما» هذه «ماسينيسا» بأربعة آلاف فارس، فأكسب ذلك الروم ولأول مرة تفوقا عظيما على هانيبال في الفرسان، فتزحج جناحا هانيبال من الفرسان عن مراكزهما، على حين استطاع مشاة «سكيبيو الأفريقي» بما لهم من نظام أصلب وأسلم، أن يفسحوا بين صفوفهم دروبا تهجم خلالها فيلة الحرب القرطاجية، دون أن يضطرب نظام هؤلاء المشاة.

هذا وقد استغل «ماسينيسا» - حليف روما - ذلك الشرط الجائز الذي يقضى بتقيد حرية قرطاج العسكرية، وألا تشن حربا - داخل أو خارج أفريقيا - إلا بإذن من روما، في توسيع رقعة بلاده، على حساب جوارته المهزومة قرطاج، وكثيرا ماهاجم الأراضي القرطاجية بهذه الدعوى، وفي كل مرة كانت قرطاج

لاستطيع رد المدوان، وكل ما كان فى إمكانها أن تتقدم بشكوى إلى مجلس السيناتو فى روما، الذى كان يجد عادة مايرر به اعتداءات ماسينيسا.

على أن هذا لا يمنع من القول بأن «ماسينيسا» (Masinissa) - فيما يرى البعض - إنما كان شخصية قوية البنيان، جملة النشاط، متعددة المواهب، وقد تلقى تعليمه فى قرطاج، وقدر - تقديرا سليما - أهمية الإفادة بما يمكنه من الحضارة القرطاجية فى اقلية الخاص (مملكة نوميديا)، وفى الواقع، فلقد كانت شخصيته فى مستقبل الأيام، أكبر من كونه رجلا خرج على قومه، ليعمل فى صفوف أعدائهم الرومان، وهكذا بدأ منذ عام ٢٠٦ ق.م، يعقد أوامر صداقة متينة مع عدد من أبرز السياسيين الرومان، وقد كوفىء بعد معركة «زاما» فى عام ٢٠٢ ق.م بالأجزاء الشرقية، والتي تمثل أنصب «أراضى سيفاكس» وهكذا امتد حكمه من «قسنطينة» (قرطه Cirta) فى منطقة تمتد إلى الغرب من هذه المدينة، وحتى الحدود القرطاجية الجديدة - فى نفس الوقت الذى تركت فيه المنطقة الأقل تقدما بين مملكة ماسينيسا وحتى وادى ملوية، لابن سيفاكس -.

هذا ويذهب بعض الكتاب القدامى إلى أن «ماسينيسا» إنما قد زاد الانتاج الزراعى فى نوميديا زيادة كبيرة، حتى أن «سترابو» إنما يحاول أن يوهمنا أنه قد حول الرعاة إلى مزارعين، ورغم ما فى هذا القول من مبالغة، فالذى لاشك فيه أن هناك زيادة فعلية فى المنطقة المزروعة بالحبوب، حتى أصبح هناك فائض للتصدير، وإن ظلت الماشية سائدة دونما ريب، كما أن هذا يبشر، دونما ريب أيضا، بمزيد من التطور الزراعى فى المصر الرومانى، ورغم أن التجارة كانت محدودة، فلقد سكّت العملة من البرونز والنحاس.

هذا وقد أصبحت «قرطه» (قسنطينة) عاصمة «ماسينيسا» مدينة حقيقية، وإن كان تقدير عدد السكان بمائتى ألف نسمة فى عهد ابن ماسينيسا، مبالغ فيه كثيرا، ورغم أننا لانعرف عن آثارها الكثير، فإن شكلها العمرانى إنما كان قرطاجيا صحيحا، وقد عثر فيها على لوحات حجرية يونية، أكثر مما عثر فى أى موقع أفريقى آخر - عدا قرطاج نفسها - كما أن لغة قرطاج إنما قد استخدمت بكشل متزايد فى نوميديا وموريتانيا.

وعلى أية حال، فلقد ظل «ماسينيسا»، وعلى مدى نصف قرن من الزمان، يمارس ضغطا متزايدا لانتزاع أراضي قرطاج، وربما ساروره أمل في أن تكون قرطاج نفسها في النهاية من نصيبه بموافقة الرومان، وعلى أية حال، فلقد ظلت مكاسب «ماسينيسا» حتى عام ١٧٠ ق.م، صغيرة في الأرض، غير أن روما إنما بدأت منذ عام ١٦٧ ق.م، تنتهج سياسة تسم بالخشونة والقسوة، سواء أكان ذلك في أفريقيا، أو في خارجها، مع استمرار تعاطفها مع ماسينيسا الذي يغذى شكوكها نحو قرطاج^(٨٢)، وفي كل هذا لم تكن قرطاج تملك غير الشكوى لمجلس السيناتور في روما، وكانت روما - كالعادة - ترد بإرسال وفد من مجلس السيناتور Senato للتحقيق في الأمر.

على أن روما إنما قد أرسلت في إحدى المرات «ماركوس بوركيوس كاتو» (٢٣٤ - ١٣٩ ق.م) لتسوية الخلاف بين نوميديا وقرطاج، وكان «ماركوس بوركيوس كاتو» هذا، محاربا قديما، وسياسيا ضيق النظر، وقد شاهد برأس عينيه أن قرطاج إنما قد بدأت تستعيد شيئا من تجارتها وريختها، فهاله ذلك، بل أرحبه ما في قرطاج من بعض دلالات الرخاء، بل وإمارات السعادة، ومنذ تلك الزيارة أصبح «كاتو» هذا، يختتم كل خطاب يلقيه في مجلس السيناتور، بأن يتفق قائلا: «يجب أن تدمر قرطاج» Delenda est Carthago^(٨٣).

هذا وقد أدى موت «ماسينيسا» في عام ١٤٨ ق.م - أثناء الحرب البونية الثالثة ١٤٩ - ١٤٦ ق.م - إلى عودة البربر إلى «الفرقة السياسية - مرة أخرى، بعد أن نجح «ماسينيسا» إلى حد كبير في جمع شملهم، فضلا عن الخلافات الأسرية بين أبناء «ماسينيسا» الثلاثة (ميسبا ومستنجل وغولومة)، فيمن يخلف الأب على عرش نوميديا، ولعل في تدخل القائد الروماني «سكيبيو» في هذه الشؤون الداخلية، بل في شؤون الأسرة البربرية، ما يدل على وثاقه العلاقات بين الروم والقرطاجيين، وعلى أية حال، فلقد انفرد «ميسبسا» (Micipsa) الأخ

(٨٢) ب. ه. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٧٠ - ٤٧١.

(٨٣) هـ. ج. ويلز: المرجع السابق ص ٥٤٢، وكلا B.H.Warminington, op.cit., p. 202.

الأكبر، يعرش نوميديا في الفترة (١٤٨ - ١١٨ ق.م) كما سحب الأخ الثالث (غولوسة) القائدة الروماني في حملته على قرطاج.

وهكذا انتهت مشكلة «نوميديا» بانضمامها نهائيا مع الروم ضد قرطاج، غير أن قبائل البربر الموريتانية إنما قد انضمت إلى قرطاج ضد روما وبربر نوميديا، الأمر الذي يؤكد أنه - على الرغم من نجاح الرومان في توطيد صلاتهم بالبربر، وتقوية روح الكراهية بينهم ضد القرطاجيين، على الأقل في المجال الحربي - فإن هناك فريقا من البربر ما يزال في جانب القرطاجيين، هذا فضلا عن تقبل البربر للتراث القرطاجي - الأدبي والدين - والذي يتمثل في استمرار اللغة البونية الجديدة، بعد اندحار القرطاجيين في أعقاب الحرب البونية الثالثة - إلى جانب التأثير الكبير بالعقيدة القرطاجية^(٨٤).

هذا ويتميز عهد «ميسيسا» (Micipsa) (١٤٨ - ١١٨ ق.م) بن ماسينيسا: بازدياد حجم التبادل بين روما وإيطاليا، وبين النوميديين، ومن ثم فقد أصبحنا نسمع كثيرا عن العديد من التجار في العاصمة «قرطة»، وعندما توفي انتقل حكم نوميديا إلى اثنين من أخوته، فضلا عن ابن أخ لهما يدعى «يوجورثا» (يوغرطه - Jugurtha)، حفيد «ماسينيسا»، والذي كان يحظى بتأييد رجل الدولة الروماني «سكيبيو إيميليانوس» (Scipio Aemellanus) - كما كان جده «ماسينسا» يحظى بتأييد سكيبيو الأفريقي^(٨٥).

وانتهت الأمور في عام ١٦ قبل الميلاد، بأن قسمت روما «مملكة نوميديا» إلى مملكتين، الواحدة: شرقية يحكمها «أدهربال»، وتمتد من حدود الدولة القرطاجية القديمة - والتي أصبحت الولاية الأفريقية الرومانية - وحتى حدود «قرته»، والأخرى: غربية، وتمتد حتى الحدود الشرقية للمغرب الأقصى أي وادي ملوية، ويحكمها «يوجورثا».

غير أن «يوجورثا» سرعان ماثار على هذا الوضع، واستولى على «قرطة»، وأعاد الوحدة السياسية مرة أخرى لنوميدية - المملكة البربرية - تحت رياسته، وهو

(٨٤) رشيد الناضوري: المرجع السابق ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٨٥) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٧١ - ٤٧٢.

أمر، لاشك في أنه يتعارض تماما مع السياسة الرومية، وقد يؤدي - في نفس الوقت - إلى تكوين قوة بربرية جديدة لها شأنها في المغرب، يمكن أن تحل محل القوة القرطاجية القديمة، ومن ثم فقد انتهز الروم قتل «يوجورتا» لأفراد الجالية الإيطالية هناك، فأعلنوا عليه الحرب، وهكذا بدأ صراع عنيف بين يوجورتا والروم في الفترة (١١١ - ١٠٥ ق.م)، حقق فيها الرجل عدة انتصارات على الروم، بعد أن ألحق بجيوشهم هزائم منكرة، غير أن روما سرعان ما لجأت إلى الخداع والمؤامرات حتى أمكنها الإيقاع به، وأخيرا غرر به حموه «بوخوس» (Bocchu) - ملك موريتانيا، وسلمه للرومان، بناء على اتفاق بين بوخوس والقائد الروماني «سلا» (Sulla)، وهكذا تحقّق للرومان ما يريدون من تقوية نفوذهم في المغرب، وقتل «يوجورتا» في عام ١٠٤ ق.م، ونال «بوخوس» ثمن غدره بصهره إقليما كبيرا شرقي ملوية.

وسرعان ما نصبت روما عضوا آخر من أسرة «ماسينيسا» ملكا يدعى «غودة» أو «جوده» (Gauda)، ثم خلفه ولده «هيمبال» (Heimpsal) الذي خلعه أحد منافسيه قرابة أعوام خمسة (٨٨ - ٨٣ ق.م)، غير أنه أعيد مرة أخرى إلى الحكم لمدة تقرب من ثلاثة وعشرين عاما (٨٣ - ٦٠ ق.م)، ومن المعروف عنه أنه ألف كتابا عن أفريقيا باللغة اليونانية، وفي أكبر الظن أنه استمر في الخط الحضاري الذي بدأه أسرته.

هذا وقد تورطت نوميديا - في أخريات أيامها كدولة مستقلة - في الحرب الأهلية التي دمرت الجمهورية الرومانية، وذلك بسبب إهانة تلقاها «يوباء» (Juba) بن «هيمسال» (٦٠ - ٤٦ ق.م) على يد «يوليوس قيصر» باعتباره فتى صغيرا، الأمر الذي دفع «يوباء» إلى الانضمام إلى معسكر «بومبي» في عام ٤٩ قبل الميلاد، وقدم له قدرا كبيرا من المساعدة في أفريقيا، حتى قيل أن «يوباء» قد وعد بأن يتولى إمارة الاقليم الروماني في أفريقيا، إذ ما قدر لأنصار «بومبي» (١٠٦ - ٤٨ ق.م) أن يكسرو الحرب، غير أن النصر إنما كان منتصب «يوليوس قيصر» (١٢٠ - ٤٤ ق.م) في معركة «نابسوس» (رأس الديماس على الساحل التونسي)، في عام ٤٦ ق.م، الأمر الذي أدى إلى انتحار «يوباء»، وفرض الحكم

الرومانى المباشر على نوميديا، فضلا عن تكوين ولاية جديدة - إلى جانب ولاية أفريقيا التى حلت محل الدولة القرطاجية - وقد دعيت الولاية الجديدة، ولاية «أفريقيا الجديدة»، وهكذا بدأ الرومان يشبتون أقدامهم فى المغرب، مما مهد فى السنوات التالية إلى احتلال كامل للمنطقة، واعتبارها جزءا من الإمبراطورية الرومانية(٨٦).

(٢٢) موريتانيا:

يذهب المؤرخون إلى أن تقدم المملكة الموريتانية - بصفة عامة - أكثر بطئا من نوميديا، وربما كان هذا التصور بسبب نقص المعلومات، غير أنه من الواضح أن الجزء الرئيسى لجبال أطلس إنما ظل حصنا للحضارة الفينيقية - مثلما كان فيما بعد حصنا للحضارة الرومانية - ومع ذلك، فلاريب فى أن هناك بعض التقدم فى حياة الاستقرار فى المناطق الخصبة مثل «وادي ملوية»، وعلى طول ساحل الاطلنطى، وفى المناطق الجبلية احتفظت القبائل المستقلة بشخصيتها خلال العصر الرومانى، وحتى بعد ذلك.

ومرت البلاد بفترة نزوح داخلى، حتى أصبحت فى عام ٣٣ قبل الميلاد، ومقتل «يوجود» فى عام ٣١ ق.م، خلوا من أى حاكم وطنى، وكان فى إمكان روما ضمها إليها مباشرة، غير أن القيصر «جايوس أوكتافىوس» - ابن أخ يوليوس قيصر، والذي صار إمبراطورا يحمل لقب «أغسطس» (٢٧ ق.م - ١٤ م) - إنما رأى أن الوقت لم يعد بعد مناسباً، لكى تتولى روما الحكم المباشر، ربما خوفاً من المشاكل العسكرية الكبيرة من جانب القبائل الجبلية.

وأياً ما كان الأمر، ففي عام ٢٥ قبل الميلاد، نصب «يوبا» الثانى - ابن الملك النومي الأخير - ملكاً، وهو الذى قضى طفولته منذ الرابعة من عمره فى إيطاليا، والذي أعاد تنظيم المملكة النوميديه مؤقتاً فى الفترة (٣٠ - ٢٥ ق.م)، وقد استمر هذا الملك «يوبا الثانى» فى الحكم أكثر من أربعين سنة (٢٥ ق.م - ١٥ م)، كان خلال دونما ريب عميلاً مخلصاً للروم، وقد قام فى موريتانيا -

(٨٦) ب.هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٧١ - ٤٧٢، رشيد الناضورى: المرجع السابق ص

والى حد ما - بنفس الدور الذى قام به «ماسينسيا» فى توميدبا، وإن كان الأمر الذى لاشك فيه أن عاصمته «إبول» Iol يمكن آخر الأمر من إخضاعها فى عام ٢١٢ ق.م قد صارت متحضرة فى عصره، كما صارت كذلك العاصمة البديلة «وليلى» (فولوبيليس - Volubillis) متحضرة أيضا^(٨٧).

وعلى أية حال، فهناك من يذهب إلى أن «يوبيا الثانى» هذا، إنما كان يمد مواطننا رومانيا، وأنه قد ارتبط بالزواج بالأميرة «كليوترا» ابنة الملكة الشهيرة «كليوترا» آخر ملوك البطالمة وأن عصره إنما يمد - من الناحية الحضارية - أقرب إلى الصفة الدولية، فقد كان يعتمد على كافة الثقافات الرومانية والقرطاجية واليونانية والمصرية، وقد دعم هذا الإجماع بتكوين مكتبة شاملة لمختلفة هذه الثقافات فى ذلك العصر، وأنه هو شخصيا على جانب من العلم والأدب، حتى نسب إليه تأليف عدد من الكتب بالإغريقية، وإن لم يوجد منها شيء الآن.

على أن تأثره بالثقافة الرومانية كان أكثر وضوحا من غيره، ربما بسبب نشأته الرومانية، ومن ثم فقد اتجه إلى النظام السياسى الرومانى، فضلا عن العقيدة نفسها، ومن هنا فإنه - على الرغم من أن البربر إنما كانوا يتمسكون بالمعبودات البرية الأصل، والتي أمن بها الفينيقيون والقرطاجيون سواء بسواء - غير أن «يوبيا الثانى»، إنما اعتنق عبادة الإمبراطور الرومانى «أوغسطس»، بل وشيد فى عاصمته «شرشال» معبدا للإمبراطور أوغسطس (٢٧ق.م - ١٤م)^(٨٨).

وكانت الأسباب الرئيسية للثورة، مقاومة السكان الأصليين للإستيطان الرومانى، فلقد حمل الثائر التومدى (تكفاريناس) السلاح لإرغام أقوى إمبراطور وقت ذلك، على الإعتراف بحق شعبه فى أرضه، ذلك لأن الغز الرومانى إنما قد أدى إلى مصادر كل الارضين الخصبة فى الحال، وخربت حقول التوميديين المستقرين، كما تقلصت، وأحيانا حددت المناطق التى تعارف التوميدون على

(٨٧) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٧٣.

(٨٨) رشيد الناضورى: المرجع السابق ص ٣٢١ - ٣٢٣.

التجوال فيها، ووطأ المحاربون القدماء وغيرهم من الايطاليين والرومان بأقدامهم فى كل مكان، بادئين بأغنى أجزاء البلاد، واقتطعت شركات التزام جباية الضرائب، وأعضاء الإستقرارية الرومانية، وأعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ممتلكات ضخمة لأنفسهم، وبينما كانت بلادهم تستغل بهذه الطريقة، فإن الرعاة الأصليين، وكل السكان المقيمين الذين لم يسكنوا المدن القليلة الباقية بعد الحروب المتتالية، أو إجراءات المصادرة للملكية الشخصية، فهم إما تحولوا إلى قمر مدقع، أو طردوا إلى السهوب غير المشجرة، وإلى الصحراء، وصار أملهم الوحيد فى المقاومة المسلحة، وكان هدفهم الرئيسى من الحرب، هو استعادة أراضيهم (٨٩).

وعلى أية حال، فلقد تبادل «تكفاريناس» مع الروم، النصر والهزيمة، طوال سنوات الثورة الثمانية، حتى تمكن الروم آخر الأمر من استخدام طريقة الكمائن المفاجئة ضد قوات «تكفاريناس»، وضاعفوا من مهاجمتهم لقواته، حتى تمكنوا آخر الأمر من التحكم فى الموقف، وقتل «تكفاريناس» عام ٢٤ م.

رجاء بعد «يوما الثانى» ولده «بطليموس»، والذى ظل يحكم موريتانيا فى الفترة (٢٣ - ٤٠ م) ثم استدعاه الإمبراطور «جايوس كاليجولا» (٣٧ - ٤١ م) وأعدمه لسبب غير معروف، على وجه اليقين، على رأى، ولأنه اجتذب انتباه الحاضرين بزيه الأرجوانى اللون فى حفل رسمى فى عام ٤٠ بعد الميلاد، على رأى ثان، غير أن السبب الحقيقى إنما يرجع، دونما ريب - إلى أن الرومان إنما كانوا يرغبون فى الإستيلاء على المناطق شبه المستقلة فى الغرب، ثم ضمها إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية، وقد تحقق لهم هذا الأمر، ومن ثم فقد أنشئت ولايتى موريتانيا القيصرية والطنجية، داخل نطاق المغرب الرومانى.

وهكذا أصبح المغرب يتكون من أربع ولايات رئيسية هى: أفريقيا ونوميديا وموريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية، وقد امتدت الولاية الإفريقية فى جانبها

(٨٩) عمار محجوبى: العصر الرومانى وما بعده فى شمال أفريقيا - كتاب تاريخ إفريقيا العام - تورينو ١٩٨٥ ص ٤٧٦.

الشرقي حتى مدينة طرابلس، وفي جانبها الغربي حتى مدينة عنابة، بينما تركزت ولاية نوميديا في شرقي الجزائر، وأما ولايتا موريتانيا - القيصرية والطنجية - فتحتل مناطق غربي الجزائر والمغرب الأقصى، ويفصل بينهما نهر «ملوية» (مولوكا - Mulucha) وكانت مدينة «شرشال» عاصمة لموريتانيا القيصرية، ومدينة «طنجة» عاصمة لموريتانيا الطنجية^(٩٠).

(٩٠) رشيد الناصري: المرجع السابق ص ٣٢٥، ٣٢٢.

الباب الخامس
إيران وآسيا الصغرى

الفصل الأول إيران (١) فيما قبل العصر الإخميني

تقديم:

لعل من الجدير بالإشارة أن الباحثين إنما يستخدمون تعبيرين للإشارة إلى منطقة جغرافية واحدة، وإن كانا ليسا مترادفين تماما، وأعني بهما: إيران وفارس:

١- إيران: وهي التسمية الأقدم، وقد جاءت في الأوستاك «إيربانا فيجا»، بمعنى «موطن الآريين» و«الإيرانيين»، ثم تطورت إلى «بلاد إيران»، هذا وقد استخدم الجغرافي مصطلح «بلاد إيران» (إيرانا)^(١).

والآرى: بمعنى «نبيل أوسيد» وهي تسمية عامة لهؤلاء القوم الذين قدموا إلى هذه المنطقة - فيما بين نهري الجاج والفرات، عند نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى قبل الميلاد^(٢).

٢- فارس: وأول من أطلق هذا الاسم هم الأغارقة، ولعل اشتق من إقليم «بارسا» (Parsa)، ثم حُرف إلى «برسيس» (Persis)، ثم أسماء العرب «فارس»، وربما استجد «إقليم بارسا» شهرته من أنه مسقط رأس الملوك الهخامنديين الذين أسسوا البيت الفارسي الحاكم، ثم أطلق الأغارقة هذا الاسم على الإمبراطورية الإيرانية، ومن ثم فقد عرفت باسم «الإمبراطورية الفارسية»^(٣).

وعلى أية حال ففي عام ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م، طلبت الحكومة الإيرانية من الدول الأجنبية أن تطلق على بلادها رسميا إسم «إيران»^(٤).

(١) أحمد أمين سليم: إيران ص ٧-٨ (وسترجع إليه بعد ذلك عدة مرات)، عبد النعيم حسنين: الإيرانيون القدماء - القاهرة ١٩٧٤ ص ١١، طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ٣٧٣/٢ (بغداد ١٩٥٦).

وكتبا: E.Herzfeld, Iran in The Ancient East, Oxford, 1941, p. 192.

وكتبا: R.N.Frye, The Heritage of Persia, London, 1963, p. 2.

(٢) طه باقر: المرجع السابق ص ٣٧٣.

(٣) أحمد أمين سليم: المرجع السابق ص ٨.

وكتبا: B.Dicks, The Ancient Persia.. London, 1979, p. 14.

(٤) دونالد ديكس: إيران ماضيها وحاضرها ص ١ (مترجم - القاهرة ١٩٥٨).

وأما أهم المدن والمواقع الأثرية في إيران فهي:

(١) بهستون: قرية بين همدان وحلوان، وعلى مسافة ٤٨ كيلا شرق «كرمنشاه» وقامت بالحفر في الموقع بعثة انجليزية في الفترة (١٨٣٦ - ١٨٤١م) برئاسة «سيرهنري رولنسون» وقد تمكنت من الكشف عن نقش للملك الفارسي «داربوش» (دارا الأول ٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م). وقد نحت في صخرة عالية هناك.

ثم قامت بالحفر هناك بعثة أمريكية في الفترة (١٩٤٨ - ١٩٤٩م)، وقد عثر «كارلتون كورن» في «كهف بهستون» هذا في عام ١٩٤٩م، على بقايا عظام إنسانية مثل «عظمة الزند» وأحد الأسنان، فضلا عن بعض الأدوات الموستيرية، إلى جانب كمية كبيرة من السكاكين ذات التقنية التي تفوق مثيلاتها في المناطق الأخرى^(٥).

(٢) تبة جيان:

تقع جنوب غرب مدينة «نهاوند»، شرق «كرمنشاه» بمنطقة «لورستان» وعلى ارتفاع حوالي ١٨٠٠ م فوق سطح البحر، في آخر الأودية التي تتاخم شمال جبال لورستان، وكانت تقع على الطريق الذي يصل ما بين «حارسين» و«دلفان» و«على أشتار».

وهناك على مسافة ٤٠ كيلا إلى الشمال الغربي منها، الطريق الذي يصل ما بين «حمدان» و«طهران»، حيث يسهل الوصول إلى «بلاد النهرين» (العراق) عن طريق «قصرى شيرين»، فضلا عن الوصول إلى «سوسة» عن طريق أودية لورستان، الأمر الذي أدى إلى اتصال «حضارة جيان» بـ «حصارات عصور ما قبل التاريخ» في العراق القديم من ناحية، و«سوسيانا» من ناحية أخرى، وقد ظهر أثر ذلك في إنتاج حضارة جيان في عصور ما قبل التاريخ.

هذا ويقع الموقع الأثري شمال «قرية جيان» مباشرة، ويصل ارتفاعه إلى حوالي ١٩ م، وطوله يزيد عن ٣٥٠ م، وتشغل الجبانة معظم التل الأثري.

(٥) أنظر عن «بهستون» (أحمد سليم: المرجع السابق ص ٣٨، ٨٨، أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ٢١٩، جواد على: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٧/١) بيروت (١٩٦٨).

هذا وقد قامت بعثة فرنسية - برئاسة جورج كوتنيو، ورومان جرشمان - بعمل حفائر في موقع «تبه جيان» في عام ١٩٣٢/١٩٣١، بإشراف متحف اللوفر بباريس.

وقد عثر على نوعين من الفخار في الطبقة الخامسة - من العصر الحجري الحديث - أولهما: صنع من عجينة خشنة ومسامية، وجدرانها سميقة، وحوافه غليظة، والثاني: صنع من عجينة جيدة وخالية من الشوائب. وأما التحديد الزمني لعصر حضارة جيان الخامسة (أ) فيذهب «ديسو» إلى تحديدها بالفترة فيما بين عامي ٤٨٠٠، ٤٥٠٠ ق.م^(٦).

(٣) تبه حसार:

وتقع بالقرب من «دمغان» - والتي على مبعده ٣٦١ كيلا شرق طهران - وقامت بعثة أميركية مشتركة من «متحف بنسلفانيا للفن»، والمعهد الأمريكي للفنون والآثار الفارسية - تحت إشراف إريش ف. شميدت (Erich. F.Schmidt) - في عام ١٩٣٢/١٩٣١ م.

هذا وقد تميز موقع تبه حसार - على مبعده ٣ كيلا من مدينة دمغان - بأهميته طوال العصور التاريخية لموقعه على الطريق التجاري الذي يمر بشمال إيران.

ولعل من الجدير بالإشارة أن «عادة وأد البنيات» ربما وجدت في «تبه حसार»، إعتقاداً على ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال، وأن ذلك بسبب «وأد البنات» في سن الطفولة - كنوع من التضحية البشرية^(٧).

هذا فضلاً عن انتشار عادة الزواج بين الأخ وأخته، وقد كانت منتشرة في

(٦) أحمد سليم: المرجع السابق ص ٤٠، ٤١ - ١٥٨ - ١٦١.

وكذا G.Contenau et E. Ghirshman, Fouilles du Tepe- Giyon Pres de Nehavend (1931- 1932), Paris, 1935, p. 1 - 3, 62-63.

(٧) أنظر عن التضحية البشرية في مجتمعات الشرق الأدنى القديم (محمد يومي مهرا، بنو اسرائيل ١٥٢/١ - ١٦٣ (ط ١٩٩٩)، مصر ٤٠١/٢ - ٤٠٢، المدان الفينيقية ص ٣٤٥ - ٣٥٣، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١٧٧/١ - ١٨٠ (ط الرياض ١٩٨٠، ط بيروت ١٩٩٠، ط الإسكندرية ١٩٩٥).

غربي آسيا، ثم ظلت بين الفرس، فضلا عن عادة زواج المرأة بأكثر من زوج، ورغم عدم وجود أدلة مقنعة على ذلك، غير أن هذا الزواج قد وجد له شبيه في بعض مناطق الشرق الأدنى القديم (٨).

(٤) تبة جانجي داره:

وتقع على مبعدة ١٤ كيلا جنوب بهستون، وعلى ارتفاع يصل فيما بين ١٣٠٠، ١٤٠٠ م ويصل عمق المخلفات الأثرية إلى ٧ م، ويمكن تأريخها بأواسط الألف التاسعة قبل الميلاد.

هذا وقد كشف فيها عن بقايا معمارية صلبة يصل سمكها إلى ٢٠ قدما، وكانت مساكنها بهدف الاستقرار الدائم، وإن لم يعثر على أية مخلفات فخارية في هذا الموقع لم يتوصلوا، بينما عثر على كميات كبيرة من المعظام الحيوانية. وكان حجر الصوان هو المادة الرئيسية التي صنعت منها الأدوات الحجرية، ولم يعثر على أية أدوات مصنوعة من حجر الأوبسيدان، كما أن سكان هذا الموقع إلى مرحلة إنتاج الطعام.

هذا ويرجع بعض الباحثين إلى أن هذا الموقع (تبة جانجي داره) يرجع إلى فترة ما قبل العصر الحجري الحديث، والذي كان في هذه المنطقة في الفترة (١٠٠٠٠ - ٨٠٠٠ ق م) (٩).

(٥) تبة جوران:

وتقع على نهر الكرخة، على مبعدة ٦٧ كيلا جنوبا كرمينشاه، ويصل ارتفاعها إلى حوالي ٩٥٠ قدما فوق مستوى سطح البحر، وتغطي بقايا الموقع الأثرية مساحة (١١٠ × ٨٠ م) وسماط الطبقات الأثرية حوالي ٨ م. هذا وتمتد زمنيا من حوالي منتصف الألف السابعة، وحتى منتصف الألف

(٨) أحمد سليم: المرجع السابق ص ٤١، ٢٣٤، ٢٥٢.

وأنظر: E.F.Schmidt, Excavations at Tep - Hissar Damghhan, Philadelphia, 1937, p. 25 - 29.

(٩) أحمد سليم: إيران من ١٠٤ - ١٠٥.

T.C.Young and P.E.L. Smith, Research in The Prehistory of Central Western Iran, in Science, Vol, 153, No 3731, 1966, p. 387 - 388.

السادسة قبل الميلاد، وتعاصر حضارة جرمو في العراق القديم^(١٠)، وهي من أولى المواقع الإيرانية التي تدل بقاياها الأثرية على بداية الاستقرار البشري في الهضبة الإيرانية.

وتشير الحفائر إلى أن المساكن التي شيدت في الطبقة الأولى إنما كانت أكواخا بسيطة من الخشب، وكان سكانها من الرعاة، كما اشتغلوا بصيد بعض الحيوانات الضخمة، كالماشية البرية.

وقد كشف في الطبقات الأثرية الوسطى من «تة جوران» - في بداية الألف السادسة قبل الميلاد - عن بعض أدوات الإنتاج الزراعي - كالرحى والمتاجل - كما عثر على بعض حبوب الشعير المتكرنة، وقد عرف الإنسان إستئناس الحيوان - كالماعز - هذا وقد جمع الإنسان هنا بين الرعي والصيد، وبداية الزراعة المستقرة، وبالتالي فقد بدأت الأكواخ الخشبية تختفي، وأخذت المنازل تبنى بقوالب اللبن، فوق أساس من الحجر، ثم غطيت أرضية الحجرات بملاحق من الجص الأبيض والأحمر، واستخدم القوم أفران مقببة - كالتي في حضارة جرمو في العراق -.

هذا وقد بدأ الفخار يظهر في الموقع بعد الطبقات الثلاث الأولى، وهو عبارة عن أوان ذات لون رمادي داكن، غير مزينة، وبشكل خشن، وجدران الأواني سميقة، وجوانبها أفقية أو مقوسة، ثم أصبح الفخار مصقولاً، ثم الفخار الملون، ثم المزين باللون الأحمر، وفوق أرضية صفراء أو برتقالية، ثم الفخار الأحمر المصقول، وعليه طبقة لامعة، ويشبه فخار «سيالك الأولى»، وهو يعاصر حضارة حسونة^(١١) - سامراء في شمال العراق.

هذا وقد عرف إنسان هذا الموقع الصناعات الحجرية والعظيمة، كما صنع من العظام بعض المخارز والدبابيس، وكان حجر الصوان، هو الحجر الرئيسي، كما عرف حجر الأوبسيدان، واستخدم الأصداف والطين المجفف في عمل أدوات الزينة، فضلاً عن تماثيل النساء والحيوانات، وقد يشير إلى أهمية المرأة كأم.

وأما عن دفن الموتى، فقد عثر على دفنة واحدة في الطبقات الأولى، في قبر

(١٠) أنظر عن حضارة جرمو (محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم ص ١١ - ١٤).

(١١) أنظر عن حضارة حسونة (محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم ص ١٤ - ٢٠).

بيضاوى، وقد وضعت الجثة فى هيئة مقرقصة (١٢).

(٦) تل هاكون:

يقع تل هاكون على مبعدة ٢ كيلا جنوب «برسيبوليس» فى إقليم فارس، شرق إقليم خوزستان، فى سهل «ميرف داشت»، ويتكون من تلين أ، ب، وتشير الأدلة الأثرية إلى أن الاستقرار البشرى إنما بدأ فى «تل هاكون ب» منذ العصر الحجري الحديث.

ويتميز الموقع بأنه منطقة مراعى، وقد اعتمد الاستقرار البشرى فيه، فضلا عن الزراعة، على مياه الأمطار، هذا وتعتبر مرحلة «هاكون ب» من أقدم مواقع العصر الحجري الحديث فى منطقة فارس، وتؤرخ - عن طريق كربون ١٤ - بحوالى الفترة ٤٢٢٠ ± ٨٣ ق.م - وكان الفخار فيه غير ملون، وخال من الزينة، وإن ظهر الفخار الملون فى الطبقات العليا (مرحلة هاكون ب ٢)، وأما «هاكون أ ١» فهى المرحلة التالية من عصور ما قبل التاريخ فى إيران (١٣).

(٧) تبة سيالك:

تقع تبة سيالك على مبعدة ٣ كيلا، جنوب غرب كاشان، فى واد مرتفع يصل إلى حوالى ١٠٠٠ م فوق سطح الأرض، على الحافة الغربية للصحراء الإيرانية الكبرى، على مقربة من سلسلة الجبال التى تمتد المنطقة بالمياه من الأمطار التى تسقط عليها.

وموقع «تبة سيالك» مهيب جغرافيا لأن يكون محطة هامة على الطريق التجارى، الذى تشعب منه الصحراء، ويتصل بالمركز المزدهر فى «جبال البرز» وغيره من مراكز غربى وجنوب غربى إيران، وكشفت الطبقات الأثرية فى الموقع عن اتجاه السكان للتبادل التجارى مع المناطق الواقعة إلى الغرب منها، فى المرحلة الأولى والثانية من سيالك، ومع المناطق الواقعة إلى الشرق منها فى المرحلة الثالثة،

(١٢) أحمد سليم: إيران من ١١٥ - ١١٩.

(١٣) نفس المرجع السابق ص ١٦٦ - ١٧٩.

M.Mallowan, The Development of Cities from Al-Uleaid to The End of Urjk, 5, in CAH, I. Part, I, Camleridge, 1976, p. 441 - 442.

تم إلى المناطق الواقعة إلى الغرب منها في المرحلة الرابعة^(١٤).

ويتكون الموقع من تلين، يفصل بينهما ٦٠٠ م، أقدمها التل الشمالي، إذ كشف عن إتباع المرحلة الأولى والثانية، ثم التل الجنوبي حيث كشف عن المرحلتين الثالثة والرابعة، ويبلغ ارتفاع المخلفات الإنسانية فيهما حوالي ١٤ م.

وتتنمى حضارة «سيالك أ» إلى نهاية العصر الحجري القديم، لم يعرف فيها القوم بناء المنازل، وإنما كانت «دورة» من المواد الخفيفة، ثم تطورت إلى جدران من الطين، ورغم استمرار الفرد فيها صياداً، فقد استأنس بعض الحيوانات - كالماشية والأغنام - كما بدأ مرحلة الزراعة، وصنع الفخار (أسود أو أحمر)، وزخرف أوانيه التي كانت محاكاة للسلال، وكانت الآلة من الحجر، وقد عثر على سكاكين وفؤوس.

واستعمل أدوات الزينة - كالدلايات والأساور والخواتم - كما استعمل «الوشم»، كما بدأ الحفر والنقش في العظام، وقد عثر على مقابض بعض الأدوات مزينة بما يمثل غزال أو أرنب، فضلاً عن مقبض سكين في هيئة إنسان يلبس قلنسوة، ويغطي عورته إزار، مثبت بحزام، وهي تعد من أقدم تماثيل الشرق الأدنى القديم.

وكان القوم يدفنون موتاهم تحت أرضية المنازل في وضع «مقرفص»، وربما اعتقدوا في البعث لوجود بعض الأثاث الجنائزى، والتقدمت مع الموتى.

ويرجح بعض الآثاريين توصل القوم إلى معرفة النحاس واستخدامه في بعض الأغراض كعمل الدبابيس، ومن ثم تصبغ إيران - إن صح ذلك - أول من استخدم النحاس في العالم القديم، وبالتالي لا تصبح «سيالك أ» من العصر الحجري الحديث.

وأما «سيالك ب» فتعاصر حضارة البدارى في مصر^(١٥)، وحضارة العمق

(١٤) أحمد سليم: المرجع السابق ص ١٤٣ - ١٤٥.

V.G.Child, New Light on The Most Ancient East, London, وكنا، 1964, p. 191.

R.Ghirshman, Fouilles de Siak, Pres de Kashan, 1933, 1934, 1937, Vol. I, Paris, 1938, p. 5, 9, 34.

(١٥) أنظر عن حضارة البدارى (محميد بيومي مهران: مصر ٢٤٧/١ - ٢٥٧ (الإسكندرية ١٩٨٨).

(ج) فى سورية، وفيهما بدأ القوم يستخدمون اللبن، بدلاً من الكتل الطينية التى كان يستعملها فى بناء المنازل، والتى كان شكلها بيضاوياً، وكانت متسعة، ومغطاة باللون الأحمر، وتزود بالأبواب أو بمنافذ تغطيها ستائر، وكان الموتى يدفنون فيها، كالحضارة السابقة.

وتقدمت صناعة الفخار، وزينت بمناظر حيوانات وطيور رسمت بلون أسود على أرضية حمراء، وكثير استخدام النحاس، وأزدوات الزينة، واستخدم فيها مواد جديدة كالعقيق، وغيره من الأحجار البراقة، واستأنس القوم كلاب الصيد، والخيول الصغيرة الحجم، فضلاً عن الماشية والأغنام التى استأنسها القوم من الحضارة السابقة.

وفى حضارة سيالك ٣: ظهر تطور معمارى، وأصبح شكل اللبن منتظماً، بعد أن صار يصب فى قوالب، وأصبحت القرى تخرقها ممرات طويلة ضيقة ومتعرجة، وزودت المنازل بأبواب ونوافذ صغيرة ضيقة، وساعد على زيادة إضاءتها أنها كانت ذات مداخل ومخارج أو فجوات، على أبعاد منتظمة، وكانت تزينها من الخارج قطع من الأواني الفخارية الكبيرة، يرجح أنها ثبتت فى الجدران لحمايتها من الرطوبة، كما كانت تطلّى باللون الأحمر أو الأبيض، وظل الموتى يدفنون تحت أرضية المنازل، وفى الوضع المقرص، وزادت كمية الأثاث الجنزى، وكثرة التقدّمات.

هذا وينسب لهذا العصر «عجلة الفخار» التى ساعدت على إنتاج أشكال مختلفة من الأواني، كما أدخلت أنواع عديدة من الزخارف، مرت بمراحل ثلاثة، وترجع هذه المرحلة إلى العصر الذى ظهرت فيه الكتابة فى العراق، كما أنتجت هذه الفترة تماثيل صغيرة، تمثل إلهة الأمومة، فضلاً عن أنواع مختلفة من الحيوانات ولعب الأطفال.

وأصبح النحاس فى هذه الحضارة يصهر ويصب فى قوالب لعمل أدوات مختلفة، وإن ظلت الآلات الحجرية مستعملة كذلك، وتعددت أدوات الزينة، وزاد استعمال الأحجار شبه الكريمة، هذا وكان اتساع التجارة سبباً فى أن يميز الصناع صناعتهم، بعلامات مميزة، فاستخدموا ختماً من الحجر، على شكل مخروط، كان فى بداية الأمر ينقش بزخارف هندسية الشكل، ثم وضعت بعد ذلك رموز أخرى من الكائنات الحية، والنباتات التى كانت تستوحى من رسوم الفخار.

هذا وقد انتظمت الجماعات المختلفة في مدن كبيرة في مناطق السهول - وخاصة في «سوسة» فقد ظهر أول حكومة مدينة في عيلام، غير أن قلة السكان وتفرقهم في المناطق الأخرى من الهضبة، وفي أماكن متباعدة، إنما كان سببا في تأخر نمو هذه الجماعات، وانتظامها في مدينة كبيرة.

ثم أخذت صناعة الفخار والمعادن تخطو في تقدمها خطوات موحدة تقريبا، وإن وجدت مميزات خاصة بكل منطقة، الأمر الذي أدى إلى تطور الحضارة في منطقة عيلام، قبل دخولها في العصر التاريخي.

ولعل من الجدير بالإشارة أنه وجد في «سيالك» آثار حريق وتدمير بعض المساكن التي تنتمي إلى «سيالك ٣» وإقامة مساكن أخرى في مكانها، اختفى الفخار الملون منها وحل مكانه فخار أحمر أو رمادي، يشبه فخار سوسة، هذا وقد أصبح الختم للإسطواني يستعمل بدلا من الختم المخروطي، مما يدل على إدخال الكتابة على الألواح الطينية، ثم ظهرت «الكتابة قبل العيلامية» في الألواح وأثار، وجدت مع هذه الأختام.

هذا وقد دخلت هذه العناصر - التي أتت بالكتابة «قبل العلامية» إلى سوسة - إلى منطقة «سيالك» في غزوة وحشية، ومن المرجح أنها كانت أقوى وأغنى من سكان المنطقة الأصليين، ذلك لأن وجود مظاهر حضارية - من تلك التي أحدثوها في سوسة - بمنطقة سيالك، مع ماصاحبها من آثار تدمير وحريق، إنما يشير إلى أن هذه الحضارة قد فرضت بالقوة، خلافا لما حدث في المنطقة الشمالية، حيث تسالت إلى هذه الأخيرة العناصر المسالمة التي يحتمل مجيئها من التركستان أو من السهول البعيدة في وسط آسيا، وقد أتت معها بالفخار الأسود والرمادي، واندمجت مع السكان الأصليين.

وتتميز منازل هذا العصر بأنها بنيت بعناية، وقد زوّدت عند مدخلها بموقد، قسم إلى قسمين: أحدهما للطعام، والآخر للخبز، وإلى جانبه إناء للماء، وقد عثر فيها على أثاث خشن الصنع.

وكان الموتى يدفنون تحت أرضية الحجرات، وتوضع معهم مهمات جنزیه، وتقدمات مختلفة، كأدوات الزينة، والمرامى النحاسية، وأواني من المرمر وغيرها، وقد زين الموتى أنفسهم بحلى كثيرة، كالدلايات المطعمة بالذهب أو الفضة، وأقراط مزينة بقطع من الذهب، وأساور من فضة، وعقود طويلة خرزها من أحجار بيضاء،

ومن الذهب والفضة، ويوحى تعدد المواد، ورقى الصناعة، بأن هذه الحلى قد صنعت فى «سوسة» أو بلاد العراق، حيث عشر على شبيهة لها فى مقابر أور الملكية.

هذا وقد ظهرت الكتابة فى حضارة سوسة، التى توغلت إلى وسط هضبة إيران، وهى كتابة متقدمة عن الكتابة التصويرية البحتة، وقد وجدت وثائق مكتوبة - قبل عصر الإخمينيين - فى داخل الهضبة، والتى تأثر بحضارة عيلام، وربما كان هذا التأثير أتى عن طريق توسع سياسى عيلامى، ربما لخدمة أغراض تجارية، على أن هذه التأثيرات الحضارية التى أتت إلى إيران لم تأت من منطقة واحدة، أو فى وقت واحد، أو بدرجة واحدة، ومع ذلك فقد امتصتها، بل ونشرت ثقافتها فى جيرانها، ومثالنا ذلك النوع من الفخار المزخرف الذى انتقل إلى العراق، وكان شائعاً فى إيران - فى سيالك وحمار - (١٦).

(٢) العواصم الإيرانية (الفارسية)

كانت العاصمة الإيرانية - أو الفارسية - شأنها شأن غيرها فى كثير من الدول - قد تغيرت أكثر من مرة، بل ربما كانت توجد أحياناً أكثر من عاصمة فى وقت واحد.

وعلى أية حال، فلقد كان مقر الحكومة المركزية فى «إقليم فارس»، حيث كان يوجد الملك - كرئيس للجهاز الإدارى - وكان يوجهه فى سرعة ودقة إلى الهدف المقصود، وهو السيطرة على الولايات، حتى لا يخرج عن طاعته، وكان يستعين فى ذلك بقوته وشجاعته، وسلطانه، وأما عواصم الإمبراطورية الفارسية فهى:

١- سوسة:

إختار «كيروش» مدينة «سوسة» (سوسا) عاصمة عيلام، لتكون مركز إدارته، عندما كان حاكماً لإقليم «أنشان» - وربما كانت مدينة «مسجيدى سليمان» الحالية - التى أصبح يحكم منها حتى أسس عاصمته «بازار جاده» (Pasargadiae).

(١٦) محمد أبو الحسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم - الإسكندرية ١٩٦٨ ص ٢٩٩ - ٤٠٧.

وانظر: R.Ghirshman, Iran, p. 48 F.

ومدينة «سوسة» هذه، إنما هي واحدة من المدن القديمة، وقد جاء اسمها في سجلات الملك الآشوري «أشورباينبال» (٦٦٨ - ٦٢٧ ق.م)، وذلك عندما استولى عليهما في عام ٦٥٠ قبل الميلاد.

ثم صارت للبابليين، بعد اقتسام المملكة الآشورية بين البابليين والميديين، حيث استولى الميديون على قسمها الشرقي، وأخذ البابليون جنوبها، واضطرت الحكومة الآشورية - بقيادة الملك «أشور - أو بلط الثاني» (٦١٠ - ٦٠٩ ق.م) - أن تجعل من «حران» - وتقع على نهر بلخ، على مبعدة ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات - عاصمة لها، بعد سقوط «نينوى» - على مبعدة ٤٠ كيلا، من التقاء الدجلة بالزباب الأعلى، قبالة الموصل - في أغسطس من عام ٦١١ ق.م، ثم أعقبها «حران»، في عام ٦٠٩ قبل الميلاد^(١٧).

هنا وقد ذكرت «سوسة» في التوراة باسم «شوشن القصر»^(١٨)، و«شوشان القصر»^(١٩).

وتشغل «سوسة» هذه الأيام موضع قرية «شوش أو سوس» بين نهري الخرجة وأولاي، وتشغل خرائبها مسافة محيطها حوالي ٥ كيلا، وتتكون من أربعة أكوام. هذا وقد كشفت الحفريات عن «قصر دارا العظيم»، هذا فضلا عن النص الحالي لقانون «حمورابي»، إنما كشف عنه في هذه العاصمة العيلامية (سوسة) في شتاء عام ١٩٠٢/١٩٠١م، بعثة فرنسية برئاسة «جاك دي مورجان»، ثم نقل إلى متحف اللوفر في باريس، وكان قد نقله الملك العيلامي «شترك نختته»، ربما حوالي عام ١١٥٠ قبل الميلاد^(٢٠).

(١٧) محمد بيومي مهران، الحرب وعلاقتهم الدولية في المصور القديمة - الرياض ١٩٧٦ ص ٣٤٩، تاريخ المسراق القديم - الاسكندرية ١٩٩٠ ص ٤٣١، وكذا A.H.Gardiner, op.cit, p. 258

وكذا G.Roux, op.cit, p. 346- 347 وكذا A.L.Oppenheim, ANET, p. 303- 305

وكذا C.J.Gadd, The Fall of Nineveh, London, 1923.

(١٨) نحميا ١/١، استيرا ١/٢.

(١٩) «دانيال» ٢/٨، وكذا A.Poebel, The Name of Elam in Sumerian Akkadian and Hebrew, AJSL, 48, p. 20F

(20) H.Schmokol, Geschichte des Alten Vorderasien, Leiden, 1957, P.III.

وكذا J.Meek, ANET, p. 163-164.

ولعل من الجدير بالإشارة أن «كيروش» - بعد أن أسس عاصمته الجديدة «بازارجادة»، وبنى فيها قصرًا له، إنما كان يقضى معظم وقته في «سوسة».

(٢) أكبتانا:

إنخذ «كيروش» مدينة أكبتانا (أكباتانا - Ecbatana) ومكانها الآن مدينة همدان الحالية - عاصمة لمملكته، ثم أصبحت بعد ذلك عاصمة صيفية.

(٣) بازار جادة:

أسس «كيروش» الثاني (٥٥٨ - ٥٣٠ ق.م) عاصمته «بازار جادة» (Pasargadae) والتي أصبحت - ولأول مرة - عاصمة بلاد فارس الموحدة (٢١)، بعد أن أصبح لها حاكم واحد، هو «كيروش» - أو قورش -.

وتقع «بازار جادة» أو «باسار جادي» (Pasargadae) إلى الشمال من مدينة «يرسوبوليس» (Persopolis) بحوالي ٨٠ كيلوا، ومعنى اسمها في الفارسية «مخوم القوس»، ومكانها - على وجه التحديد - الخرائب المعروفة في الوقت الحاضر باسم «مشهدى مرغاب».

وهناك رواية تذهب إلى أن «قورش» قد اختار مكانها، لأنها في مكان الموقعة الحاسمة التي انتصر فيها على «إستياجز» - آخر ملوك الميديين -.

وظلت سوسة - كما أشرنا من قبل - على أهميتها، بعد تأسيس العاصمة الجديدة (بازار جادة) وبنى فيها قصرًا، كما عمر أيضا في بابل، في قصر «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) في الجزء الشمالي من المدينة.

(٤) بوسوبوليس:

لم يقتنع «دارا الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) بهذه العواصم القديمة، وقد بلغ نفوذ الفرس غايته في عهده، فامتدت دولته من البحر الأبيض إلى نهر السند، وأواسط آسيا، وشملت مصر وسورية وفينيقيا وليديا وأرمينيا والقوقاز، وأشور وبابل، وميديا وفارس، وأفغانستان وبلوخستان، وجزءًا من الهند.

(٢١) سميت إيران باسم «فارس»، نسبة إلى الإقليم الذي كانت فيه عواصم الدولتين الأخمينية، (الهخامنشية عند الفرس، والإكمنية عند اليونان) والساسانية، وأطلق الجزء على الكل، كما سميت اللغة التي يتحدث بها الإيرانيون باسم «اللغة الفارسية» نسبة إلى هذا الإقليم أيضا، وتحتل الدولتان - الإكمنية والساسانية - مكانة كبيرة في نفوس الفرس أو الإيرانيين، لأنهما الدولتان اللتان تحقق فيهما الاستقلال الفارسي، وبلغ مجد إيران فيهما ذروته (عبد المعصم حسنين: المرجع السابق ص ٤١٨ هامش ١).

وعلى أية حال، فلقد استقر رأى «دارا» على إنشاء عاصمة جديدة فى موطن قومه - أى فى فارس - و«برسيبوليس» هى نفسها البلد المعروف باسم «إصطخر» (Stakhra) - أى الحصن - والتي عرفت فى أيام العرب باسم «إصطخر».

ومن عجب أن بعض المؤرخين العرب إنما يذهب إلى أن ملك «سليمان» عليه السلام، إنما وصل إلى اليمن، بل إن الخيال ليذهب بالبعض الآخر، إلى أن يجعل عاصمة سليمان بعيداً - فى «إيران»، حيث اتخذ من «إصطخر» التي ينسبون إليه - أو إلى جنبه - أمر بنائها، مقرأ لحكمة، وعاصمة لبلاد^(٢٢).

وليت الذين ذهب بهم الخيال إلى هذا الحد، يعرفون أن المدينة الفارسية (بروسيولس = إصطخر Stakhra) إنما قد بدىء فى بنائها حوالى عام ٥٢٠ قبل الميلاد، على أيام الملك الفارسى «دارا الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م)، ولكن البناء لم يتم إلا فى عهد الملك «أرتاكزركسيس الأول» (أرتخششا الأول ٤٦٤ - ٤٢٤ ق.م) حوالى عام ٤٦٠ قبل الميلاد.

وإذا تذكرنا أن سليمان عليه السلام، إنما كان يحكم فى الفترة (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م)^(٢٣)، لتبين لنا أن المدينة إنما قد بدىء فى بنائها، بعد وفاة النبي الكريم، بحوالى أربعة قرون^(٢٤)، بقيت الإشارة إلى أن مدينة «برسيبوليس» إنما تعرف فى الفارسية باسم «تخت جمشيد»، كما تعرف «بازار جادة» - فى الفارسية أيضاً - باسم «تخت مادر سليمان».

هذا فضلاً عن أن الملك الفارسى، إنما كان يدير شئون ولايات إمبراطوريته من أية واحدة من عواصمه - الأنفة الذكر^(٢٥).

بقيت الإشارة إلى أن ما عثر عليه من خرائب مدينة «بزر جادة» إنما يثبت أنها مدينة فارسية أصيلة، لم تدخل عليه عناصر غريبة، ذات أهمية.

(٢٢) على إمام عطية: الصهيونية العالمية وأرض اليعازر ص ٧١، ٧٢، وانظر: معجم باقوت الحموى

٢١١/١ (بيروت ٢١٩٥٥)، محمد بيومى مهران: إسرائيل ٨٠٣/٢.

(٢٣) أنظر عن فترة حكم سليمان عليه السلام (محمد بيومى مهران: إسرائيل ١٤٥/٢، تاريخ العرب القديم ٥٢٠/٢).

(٢٤) محمد بيومى مهران: إسرائيل ٨٠٣/٢ - ٨٠٤ (الإسكندرية ١٩٧٨).

(٢٥) عبد النعيم وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم ص ٤٣٥.

وأما مدينة «برسبوليس» = برسبوليس) ففيها عناصر مختلفة من العمارة والزخرفة، وفيما عثر عليه من تماثيل ولوحات وحلى وغيرها، نرى فيها آثاراً من فنون أواسط آسيا، وهلاذ الراقدين وآسيا الصغرى وسورية، ومصر، على الأخص. هذا ورغم ما تعرضت له بقايا القصور والدور الحكومية والمعابد في «برسيبوليس» فإن هذه البقايا إنما تشهد بمظمة وفخامة تلك المباني. على أن الذي يحز في النفس، ويسجله بالعار على الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) أنه أقام وليمة كبيرة، أفرط فيها الجميع في الشراب، ثم قام الإسكندر بحرق المدينة، إرضاء لإحدى محظياته، التي كانت تكره الفرس (٢٦).

(٢٦) أحمد فخري المرجع السابق ص ٢٢٩،
E.Herzfeld, Archaeological History of Iran, 1935. وانظر:

الفصل الثاني آسيا الصغرى

تقديم:

آسيا الصغرى: شبه جزير بأقصى غرب آسيا، تدعى «الأناضول»، يحدها البحر الأسود شمالا، والبحر المتوسط جنوبا، وبحر إيجه غربا، ويصل البحر الأسود ببحر إيجه، بحر مرمرة، ومضيقا البوسفور والدردينيل.

هذا ويقرب الحد الجنوبي لآسيا الصغرى تمتد جبال طوروس، بينما يتكون باقى شبه الجزيرة من هضبة تعلوها الجبال، وتكثر بها البحيرات.

وكانت آسيا الصغرى ملتقى الحضارتين الشرقية والغربية فى العصور القديمة، إذ تربطها نهرا دجلة والفرات بالعراق، وتربطها سواحلها باليونان، وبعد تدهور «الدولة الحيثية» ظهرت المستعمرات اليونانية على السواحل، وبهذا اتصل اليونانيون ببلديا وفريجيا وطروادة، وأدى غزو الفرس لآسيا الصغرى للحروب الفارسية، وأدمج الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) الإقليم فى إمبراطوريته، وبعد وفاته قسمت إلى ولايات صغيرة، ثم وحدها الرومان من جديد ولكنها كانت موضع مستمر من الغزاة فى ظل الإمبراطورية البيزنطية، وسقطت بيد العرب والأتراك السلاجقة، واستعادها الغرب مؤقتا على أيدي الصليبيين، واستولى عليها الأتراك العثمانيون فيما بين القرنين ١٣، ١٥ م، ودخلت بعد ذلك ضمن الإمبراطورية العثمانية، وكانت عاصمتها «القسطنطينية» وفى عام ١٩٢٣ م، أصبحت «أنقرة» عاصمة لتركيا.

وأما أهم المدن والمواقع الأثرية فى آسيا الصغرى فهى كالتالى:

١- أرثو (أرزاوا):

أرثو: هى «أرزاوا» بالبابلية، وهى معروفة من رسائل العمارنة، وسجلات «بوغازكوى» وهى ليست مدينة، وإنما هى بلد - أو عدة بلاد - وهناك شبه اتفاق بين العلماء على أن «أرزاوا» إنما تقع على ساحل البحر المتوسط، فى الجهة الغربية من الجنوب الغربى من بلاد «خانى»، وتشغل المنطقة التى احتلتها أخيرا «بامفيليا» (Pamphylia).

وأما لغة أرزوا، فقد عرفت - للمرة الأولى - من خطابين من العمارنة، وتنتمي إلى «اللغة الهندو - أوروبية»، وتنسب إلى اللغة الحيثية، وتعرف الآن باسم «اللغة اللوية» (Luwian).

هذا وتظهر «أرزوا»، وكأنها تحتل مركزا بارزا بين حلفاء الحيثيين في معركة قادش (حوالي عام ١٢٨٥ ق.م) بين رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) والحيثيين (١).

وفي قائمة رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) - بمدينة هابو في طيبة الغربية - فإن «أرزوا» هي «أرتو»، وعلى أية حال، فهي قد ذكرت مرة - على الأقل، في عهد رعمسيس الثالث - في حملة السنة الثامنة (٢) - إذ يرى رعمسيس الثالث، وهو يهاجم مدينتي حيثيين، أحدهما «أرزوا» (٣).

٢- إيسوس:

مدينة في قلب آسيا الصغرى، تقع في عمق الخليج الذي يحمل اسمها، وفيها وقعت معركة إيسوس في عام ٣٣٣ ق.م، بين الإسكندر الأكبر، والملك الفارسي، «دارا الثالث» (٣٣٥ - ٣٣٢ ق.م)، وانتهت بانتصار الإسكندر، وفرار الملك الفارسي، تاركاً والده وزوجته في الأسر (٤).

٣- بوغازكوى:

تقع «بوغازكوى» (Boghazkoy) على مبعدة ١٤٤ كيلا، شرق العاصمة التركية الحالية «أنقرة»، على الهضبة المرتفعة التي في أواسط آسيا الصغرى، شرق نهر «هاليس» (Halys) (٥).

(١) أنظر عن معركة قادش (محمد بيومي مهران: مصر ٢٥٢/٣ - ٢٥٦).

(٢) أنظر عن «حملة السنة الثامنة» من عهد رعمسيس الثالث (محمد بيومي مهران: مصر ٣٧٤/٣ - ٣٨٠).

(3) A.H.Gardiner, Onom..., I, p. 129 - 132.

W.Edgerton and J.Wilson, Historical Records of Ramassess, III, Chicago, 1936, p. 53.

(٤) أنظر (محمد بيومي مهران: مصر ٦٩٤/٣، و.وتارن: الإسكندرية الأكبر - ترجمة زكي على - القاهرة ١٩٦٣ ص ٥٥ - ٦١).

(٥) محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص ١٩١ - ١٩٢ الإسكندرية ١٩٦٩. وكلا A.H.Gardiner, Onom., I, p. 126.

هذا وقد قام «هوجوفنكلر» (Hugo Winckler) بعمل حفائر لحساب «جمعية الشرق الألمانية» (The German Orient Society)، وبدأت الحفائر - تحت إشرافه - عام ١٩٠٦م، وقد حققت النتائج كل الآمال، بل وأكثر، فقد كشف عن حوالي عشرة آلاف لوح مسماري، ووضح للمنتقبين أنهم قد عثروا على سجلات ملكية، هذا فضلا عن أن معظم هذه الألواح مكتوبة بلغة أرزوا، ولا يمكن فهمها، وإن كتب بعضها بلغة بابل الأكديّة المعروفة.

وقد كشفت الدراسة الأولية لهذه الخطابات أن هذه المدينة (الخرائب) إنما هي في الواقع «عاصمة بلاد حاني» (حاني) (٦)، وأن «لغة أرزوارا» إنما كانت

(٦) «خت» أو «حاني» - بلاد الحثيين - ورد ذكرها في النصوص المصرية من عهد الفراعنة العظيم «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) لأول مرة - حيث الهدايا - وليست الجزية - أرسلت من أميرحاني إلى فرعون، وتشير «لوحة منف» التي أتمها وأنتخب الثاني (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م) إلى أمراء نهرين وحاني وسنجانر - أي أعظم ثلاثة ملوك شماليين وقت ذلك - جاءوا إلى مصر، لوضع أسس الصداقة مع الفرعون، إثر سماعهم بانتصاره في سورية. وفي عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) ظلت بلاد «حاني» تسمى «خت» لأن معظم التغيير إلى «حاني» إنما حدث في عهد الفرعون «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م).

هذا وتقع بلاد حاني (الحيثيين) في آسيا الصغرى، وأما العاصمة فهي «بوغاز كوي»، ويقع على الضفة المرتفعة بوسط آسيا الصغرى، شرقي نهر هاليس Halys. وكانت علاقة «حاني» بمصر - في معظمها - عدائية حتى عقدت معاهدة السلام بين البلدين، في السنة الحادية والعشرين من عهد رعمسيس الثاني (حوالي عام ١٢٦٩ ق.م) لم توجت بزواج رعمسيس من ابنة ملك الحيثيين «خاتوسيل» حوالي عام ١٢٥٦ ق.م.

غير أن القوة الحيثيين إنما بدأت في الانهيار السريع تحت ضربات الآشوريين، لم بدأت الاضطرابات وجمت الفوضى، وكثرت المحامات، مما اضطر الفرعون «مرينتاح» (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) أن يرسل إلى «حاني» القمح، حوالي عام ١٢٢٠ ق.م بل وأن يرسل إمدادات عسكرية إلى غربي آسيا، غير أن ذلك لم يفي شيئا، إذ سرعان ما تنهارت دولة الحيثيين، تحت ضربات «شعوب البحر» التي كان القضاء عليها من نصيب فرعون مصر العظيم «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م).

بقيت الإشارة إلى أن الملك «خاتوشيليش الأول» (١٤٢٠ - ١٤٠٠ ق.م) إنما تولى الحكم في العاصمة «كيشار» ثم نقل العاصمة إلى «خاتوشاش»، وقد نسب إلى هذا الملك عقد معاهدة سلام مع مصر، حوالي عام ١٢٧٠ ق.م (محمد بيومي مهرا، مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث، رسالة دكتوراه، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ١٩٢، أحمد سليم، تاريخ العراق،

اللغة الرسمية لمملكة حاتى، وكما حدث فى الماضى، إذ زصبحت كلمة «حاتى» (Hattite) وصفا للخط الهيروغليفى فى «حماة»، فهكذا حل هذا الإسم محل «أرزاورى» للدلالة على النصوص المسماة (The Cuneiform Texts) وما كلمة «حتى» (Hittite) إلا النطق الإنجليزى للأصل «حاتى» (Hatti).

وأما عن تاريخ الألواح، فلقد عشرعلى وثيقة تبين أنها النسخة الحيثية للمعاهدة التى عقدت بين الفرعون رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) وملك حاتى فى السنة الحادية والعشرين من حكم فرعون (١٢٦٩ ق.م)^(٧).

وهكذا تبين لنا أنه هنا - فى حاتى - وليس فى سورية - كانت عاصمة «خيىتا العظمى» (Great Kheta) التى دفعت إناوة للفرعون «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م)، والتى حاربت «رعمسيس الثانى» تم هادته.

وفى عام ١٩٠٧م قدم «هوجوفنكلر» قائمة من اللوحات بأسماء ملوك حاتى - من «شوبيلوليو ماش» (١٣٧٥ - ١٣٨٥ ق.م) فى النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، إلى «أرنوروانداس» فى آخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد - ثم تنقطع السجلات فجأة.

وقد دل ذلك على أن المملكة الحيثية فى كابا دوكيا (The Cappado- cian Hittite Kingdom) سائته مدة هذه المائتين من السنين جميع ممالك الاتحاد الحشى الأخرى، مثل قرقيش وميليد وحماة، والتى ذكرت السلجات الأشورية أن الغزاة الموشكيين (Mushki)، الذين وحدهم الآشوريون يحتلون هذا الجزء من البلاد فى القرن الثامن، قد تغلبوا عليها حوالى عام ١٢٠٠ ق.م، وأن الممالك الحيثية الأخرى قد استقلت عندئذ من جديد تحت زعامة «قرقيش»

مهران، آسيا الصغرى، الإسكندرية ١٩٩٨، ص ٤٨٧، ٥١١ - ٥١٢، وكذا:

O.R.Gurney, The Hittites, 1969, p. 5F; A.H.Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I, Oxford, 1947, p. 127.

(٧) أنظر عن المعاهدة (محمد بيومى مهران: مصر ٢٥٦/٣ - ٣٦٠، وكذا:

K.A.Kitchen, JEA, 50, 1964, p. 68 - 69.

G.G.aballa, JEA, 55, 1969, p. 82 - 88.

J.Kuentz, BIFAO, 55, 1928, p. 14.

L.D. III, 156.

(Carchemish)^(٨).

وعلى أية حال، فإن الممالك الحثية - فيما عدا قرقميش - سوف تكون في الألف الأولى قبل الميلاد، دولا جديدة، بعد سقوط مملكة كبادوكيا (The Capadocian kingdom Fall)

هذا وقد ظل الخط الهيروغليفي، مستعملاً في الصخر المنقوش في «نشان تاش» (Nishan Tash) في وسط منطقة بوغازكوى، فضلاً عن العلامات الهيروغليافية في مطابع خاتم على لوح من الألواح المسامرية^(٩).
(٤) طرسوس:

مدينة في آسيا الصغرى تقع على نهر طرسوس (قره صو) - وهي كدنوس القديمة، التي كانت ثغرا لبلاد كيليكيا (قيليقيا) - في جنوب تركيا، كانت حوالي ١٢٠٠ ق.م تحت حكم الحثيين، ثم تعرضت لغزوات شعوب البحر، واستولى الآشوريون عليها في الفترة فيما بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد، ثم جاء من بعدهم الفرس، فالإسكندر الأكبر (عام ٣٣٣ ق.م) فالسلوقيون.

هذا وقد تحزبت المدينة لقيصر ضد «بومبي»، وأطلقت على نفسها اسم «يوليس بوليس»، وقد نهبها «كاسيوس»، غير أنها سرعان ما استعادت امتيازاتها على أيام أنطونيوس.

وقد حاولت «طرطوس» في ظل الإمبراطورية الرومانية أن تنافس الإسكندرية وأثينا على صعيد مدارس الفلسفة وعلم البيان، ولكن يبدو أنها لم تنجح، وأن تفوقت في الميدان التجارى.

وكانت تقيم في طرسوس جالية -يهودية كبيرة، اشتهر من أفرادها القديس بولس الرسول، وقد ولد فيها، وقد توفى ودفن فيها الخليفة العباسى المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٢٣ م) في آخر غزواته في بلاد الدولة البيزنطية^(١٠).

(٨) أ.رجزنى: الحثيون - ترجمة. حمد عبد القادر محمد - القاهرة: ١٩٦٣ ص ٢٦، ٢٧، وانظر الأصل

O.R.Gurney, The Hittites, 1969, p. 5- 7.

(٩) أ.ر. رجزنى: الحثيون ص ٢٦، ٢٧، وانظر الأصل.

O.R.Gurney, The Hittites, p. 7.

(١٠) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٧٤٢/٢، فاسوس الكتاب المقدس ١٩٦/١ - ١٩٩، هنري

٥- طروادة:

وتقع على مبعده ٦ كيلا، شرقي مدخل الدردنيل - من ناحية بحر إيجه - ويعرف موقعها اليوم باسم «حصار ليناب»، هذا وقد تكونت أول محلة في طروادة في «عصر البرونز القديم» والذي استغرق الجزء الأكبر من الألف الثالثة قبل الميلاد، وإن لم يستخدم النحاس في داخل الهضبة إلا في وقت متأخر عن ذلك.

هذا وقد قام «شليمان» (Shliemann) بحفائر في الفترة (١٨٧١ - ١٨٨٢م) كشف فيها عن بقايا تسع مدن، أقيمت كل منها فوق أطلال الأخرى - منذ أوائل عصر البرونز، وحتى العصر الروماني.

هذا وقد أثبت حفائر جامعة سنسيتاني أن المدينة السابعة كانت مدينة «برام» لأنحريقا حارب هذه المدينة وقع حوالي التاريخ التقليدي لحرب طروادة، وتدل مخلفات طروادة على أنها كانت من أهم مراكز الحضارة الإيجية.

هذا وتشير مخلفات الحضارات التالية من عصر النحاس في طروادة، والتي تتمثل في طبقاتها الأثرية - ابتداء من الطبقة الثانية، وحتى الطبقة الخامسة - والتي تعد نموذجا لكل المنطقة المحيطة ببحر إيجه، إلى اقتصاد زراعي متواضع، غير أن بعض الآثار انما تدل على غنى عظيم، يوحي بوجود مستوى أعلى للحياة بين الطبقات العليا، والتي تتمثل في وجود بعض حلى من الذهب والفضة، عثر عليها «شليمان» في الطبقة الثانية من حفائره في طرواده، غير أن شواهد أخرى من هذه الطبقة الثانية انما تدل على تغييرات واضحة فيما بعد، حيث توجد آثار حريق كبير في هذه الطبقة الثانية يرجع تاريخه إلى نهاية القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد^(١١).

٦- قدي:

منطقة تقع بين قرقيش والبحر المتوسط، وكانت في عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) تغطي منطقة واسعة، وفي عهد رمسيس الثاني

=عبودي، عجم الحضارات السامية ص ٥٦٣ (بيروت ١٩٨٨)، الموسوعة العربية الميسرة ص ١١٥٧.

(١١) محمد أبو المحاسن عمصفر. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٣٠١ - ٣٠٢، الموسوعة العربية الميسرة ص ١١٥٨.

(١٢٩١ - ١٢٢٤ ق.م) كانت بين حلفاء حاتى ضد مصر، وفي نقوش
رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) بمدينة هابو، قائمة بالشعوب التي
اجتاحتها شعوب البحر - ومن بينها «قدي» - مما يشير إلى أنها قد نظرت إليها
وقت ذاك، على أنها قوة عظيمة، ولكنها أثبتت عدم القدرة على مقاومة شعوب
البحر الذي هزمهم رعمسيس الثالث.

وفي أكبر الظن أن «قدي» إنما كانت تمتد حتى البحر، وقد وصفت في
نصوص مصرية متأخرة أنا خشب أمور^(١٢)، مما يشير إلى أن قدي وأمور كانتا
مختلفتين، وأن «قدي» يجب أن تكون إلى الشمال الأقصى، وإن كانت -
دونما ريب- لاتصل إلى الخليج إيسوس (إسوس)، ولكنها تمتد إلى مسافة بعيدة
إلى الشرق من «كرواتانا»، كما عين موقعها - فيما يذكر جاردنر - كل من
«سيدنى سمث» و«جوتز»^(١٣).

٧- قرة تبه:

موقع أثرى في «قليقيا» (تركيا)، شمال شرق «كادرلى»، عشر فيه عام
١٩٤٦ م على «حصن حشى» يحيط به سور، ذو أحجار ضخمة، يتخلله بابا
مزخرفتان على الطريقة الفينيقية، برسوم مآدب وصيد وحرب، ترجع إلى القرنين
- التاسع والثامن قبل الميلاد، كما عشر كذلك على شمال نصفى ملكى، من
البازلت، عليه كتابة فينيقية، كما عشر على كتابات أخرى، ساعدت على قراءة
الكتابة الهيروغليفية الحثية.

هذا وقد استولى «إسرحدون» الأشورى (٦٨١-٦٦٩ ق.م) على المدينة،
ودمرها عام ٦٨٠ ق.م^(١٤).

٨- قليقيا:

قليقيا: بلاد في آسيا الصغرى، تقع على شاطئ البحر المتوسط في القسم
الجنوبى من الأناضولى، وكانت قليقيا (كليكيا) منذ العصور الحثية ممراً للجيش
المتجه لغزو سورية.

(١٢) أنظر عن «أمور» (محمد بيومى مهرا: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث من
١٩٥، ١٩٦، مصر ٣/٣٧٣ - ٣٧٤).

(١٣) محمد بيومى مهرا: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث من ١٩٢، ١٩٣
وكتنا. A.H.Gardiner, Onom., I, p. 136.

(١٤) هنرى عبودى: المرجع السابق ص ٦٨٣.

وفي القرن التاسع قبل الميلاد، دخلت قليقيا (كليزيا) في الفلك الآشوري، فقد اجتاحتها «شلمنصر الثالث» (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) وكانت تابعة للملك «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) تدفع له الجزية، هذا وقد قام «سرجون الثاني» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) بضم «قليقيا» إلى الإمبراطورية الآشورية، وعين عليها حاكما^(١٥)، ثم هجر إليها إسرائيلى السامرة - عاصمة دولة إسرائيل وهي سبسطية الحالية على مبعدة ١٠ كيلا شمال غرب شكيم^(١٦) - بعد أن استولى عليها عام ٧٢٢ ق.م^(١٧).

هذا وقد استعمل الجيش الآشورى قليقيا قاعدة لغزو جبال طوروس، غير أن غزواته قد أخفقت، مما أدى إلى حروب كثيرة، كان من نتائجها تهجير جديد، فلقد أرسل كثيرا من الحيثيين والإسرائيليين إلى بابل.

ثم وقعت قليقيا تحت الإحتلال الفارسى، ثم استعملها الإغريق ممراً للجيوش، ومن ثم فقد أصبحت مسرحاً للمعارك بين البيزنطيين والفرس، ثم بين البيزنطيين والعرب^(١٨).

٩ - قبادوقيا:

قبادوقيا - أو كبادوكيا Cappadocia - منطقة في آسيا الصغرى على نهر هاليس الأعلى، شمال قليقيا، كانت عاصمتها «مازاقا»، وقد دعت «قيصرية»^(١٩)، وهي «قيصرى» الحالية، وتقع المنطقة كلها غربى الفرات الأعلى.

(١٥) أنظر: محمد يومى مهران: العراق القديم ص ٣٧٣، ٣٩٤، ٣٩٧، عبودي: المرجع السابق ص ٦٩٨.

(١٦) أنظر عن السامرة (محمد يومى مهرانك إسرائيل ١٩٠٠/٢ - ٩٠٢ وأنظر طبعة ١٩٩٩ م).

(١٧) محمد يومى مهران: إسرائيل ١٩٤٠/٢ - ٩٥٠.

(١٨) عبودي: المرجع السابق ص ٦٩٨.

(١٩) قيصرية: هناك أكثر من مدينة تحمل هذا الاسم، فهناك: ١- قيصرية فلسطين: وقد بناها الملك «هيرودوس» (٣٧ - ٤ ق.م) - والتي قدر لها أن تكون عاصمة فلسطين الرومانية، وتقع على مبعدة ٧٢ كيلا جنوبى عكا، ٧٥ كيلا شمالى غرب القدس، وذلك فى عام ١٠ ق.م، وسماها «قيصرية» تكريماً للإمبراطور «أوغسطس قيصر» (٢٧ ق.م - ١٤ م)، ٢- قيصرية بانياس: بلدة فى سورية على جبل حرمون، على مقربة من الحدود اللبنانية الفلسطينية الحالية، وفى عام ٣٠٢ م قام فيلبس بن هيرودوس بتوسيعها وتجميلها، ثم أطلق عليها إسم «قيصرية بانياس»، وسميت أيضاً «قيصرية فيلبس»، ٣- قيصره لبنان: وهو اسم أطلقه الرومان على مدينة «عرقه» اللبنانية، ٤-

وكان يعيش فيها قبل الألف الثالثة قبل الميلاد، قوم من الساميين، هذا وقد عثر في كل تبة - شمالي شرق قيصرية - على ألواح مسمارية تمثل أقدم أشكال اللغة الآشورية - القريبة من البابلية القديمة - وتتعلق هذه الألواح بأسود اقتصادية.

هذا وتشير الوثائق إلى أن التجارة البرية - عن طريق القوافل - إنما كانت مزدهرة في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد - قبل اجتياح الهكسوس والكاشيين (٢٠).

وقد تبعت قبادوقيا (كبادوكيا) الإسكندر المقدوني، ومن بعده السلوقيين فالرومان (٢١).

١٠ - كانش:

أشارت النصوص المسمارية المكتشفة في «كانش» - وهي كول تبة الحالية، على الضفة اليسرى لنهر هاليس، شمالي قيصرية - بمنطقة قبادوقيا إلى وجود جماعات من التجار الآشوريين كانت تقطن في شرقي بلاد الاناضول في مراكز تجارية ذات تنظيمات إدارية وقانونية خاصة بها.

ورغم أننا لانعرف على وجه اليقين متى بدأ اتصال الآشوريين التجاري بآسيا الصغرى؟ وكيف حدث هذا الاتصال؟ وهل تم سلماً أم عنوة؟ غير أن أكبر الظن إنما قد تم منذ ظهور الكيان السياسي للآشوريين، وأنه كان في بدايته - على الأقل - إتصلاً سلمياً، وأنه كان نشاطاً تجارياً واسعاً، وآية ذلك إقامة هذه المراكز التجارية الآشورية المتعددة بمنطقة وسط الاناضول، والتي يمكن تحديدها

«قيصرية الجزائر»، وهو اسم أطلق في العصر الروماني على مدينة «بول» القرطاجية (محمد بيومي مهران، إسرائيل ١٤٤/٢، فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٣١٢/١، قاموس الكتاب المقدس ٧٥٥/٢، ١٠٠٩، و M.F.Unger, Unger's Bible Dictionary, p. 470.

وكنّا Strabo, XVI, 2, 27 وكنّا Josepus, Antiquities, XV, 9, 6

وكنّا Pliny, V, 14، وانظري هنري عبودي: المرجع السابق ص ٦٩٧ - ٦٩٨.

(٢٠) أنظر عن الهكسوس والكاشيين (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٠٣، ٢٢٣، تاريخ العراق القديم ص ٢٩٨ - ٣١٥.

(٢١) هنري عبودي: المرجع السابق ص ٧٠٩، ٧١٠.

بحوض نهر هاليس وتخومه المباشرة، وما وراء هذا الحوض جنوبا حتى سهل قونيا وأقاليم قليقيا، وشرقا حتى مشارف أعالي الفرات، وأنه كان لاستغلال ثروات هذه البلاد، وممارسة نشاط تجارى كبير بها، دون أن يتكبدوا فى ذلك جهدا حريا يذكر، حيث خلت نصوصهم من الإشارة إلى توجيه حملات حربية إلى هذه البلاد.

على أن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن هذه المراكز التجارية إنما قد مارست نشاطها من خلال كونها مستعمرات أقامها الآشوريون للسيادة وفرض النفوذ على آسيا الصغرى، وكانت «كانش» بمثابة مركز للإدارة الآشورية الحاكمة، وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه على أنه من الصعب أن يحقق الآشوريون هناك استغلا اقتصاديا كاملا، دون سيطرة سياسية، فضلا عن عبادة الإله آشور فى هذه المراكز التجارية بآسيا الصغرى، وتشابه بعض التنظيمات الإدارية بهذه المراكز التجارية مع مثيلات لها فى آشور^(٢٢).

وأكبر الظن أن هذه المراكز التجارية إنما كان خاضعة سياسيا لأمراء الدويلات المحلية، مع تمتعها بنوع من الاستقلال الذاتى والحماية العسكرية، مقابل ضرائب معينة كانت تدفع للأفراد المحليين، وأما علاقة هذه المراكز بالدولة الآشورية، فربما كانت من نوع علاقة الفرع بالأصل، واية ذلك أنها كانت تدبىن بالديانة الآشورية، وتعيش الحياة الآشورية، مع بعض التأثيرات المحلية، ومن ثم فقد تشابهت العقود التجارية والقوانين الآشورية التى كشف عنها فى «كانش» بتلك التى كانت فى بلاد آشور نفسها.

وعلى أية حال، فلقد كانت هذه المراكز التجارية الآشورية فى آسيا الصغرى (وتسمى كاروم)^(٢٣) تقوم بدور الوسيط بين الدولة الآشورية الأم، وبين الدويلات (٢٢) محمد عبد اللطيف: المراكز التجارية الآشورية فى وسط آسيا الصغرى فى العصر الآشورى القديم، الإسكندرية ١٩٨٤، ص ١٨، ٤، ٣.

CAH, I, Part, 2, Maps, 9 - 10, p. 373,

J. Lewy, on Some Institutions of The old Assyrian Empire, in HUCA, 27, 1956, p. 13 - 21.

(٢٣) أطلق الآشوريون على كل مركز من مراكزهم التجارية اسم «كاروم» (Karum)، وتعنى فى الأكدية رصيف أو حائط ميناء يقع على نهر أو قناة، تجمع عنده ضرائب الدخل على الوارد، ثم

=/=

الغلية في بلاد الاناضول، وهكذا كانت القوافل التجارية الآشورية تذهب محملة بالنسوجات والملابس الآشورية والباهلية وخامات القصدير - وهي مستوردة أصلاً - وتعود إلى بلاد آشور بالذهب والفضة والنحاس - وربما الرصاص - والاحجار الكريمة (٢٤).

وأياً ما كان الامر، فلقد زاد هذا النشاط التجارى على أيام «ايلو شوما»، وهناك نص من عهد ولده «اريشوم الاول» (١٩٠٦ - ١٨٦٧ ق.م) يشير إلى أنه أقام حرية الحركة للفضة والذهب والنحاس والرصاص، فضلاً عن القمح والصوف، إلى جانب سلعتين أو ثلاث من السلع الرخيصة - وكان أرخصها التبن - وأن هذا الامتياز قد منح للتجار الآشوريين، الامر الذى يشير إلى دعم النشاط التجارى مع آسيا الصغرى التى أقيم فيها عدد كبير من المراكز التجارية الآشورية التى نالت اهتمام هذا الملك، كما نالت اهتمام خليفته «ايكونوم» (١٨٦٦ -

=/=

انسع مفهومه ليعنى السوق على جانب الرصيف، ثم مجموعة تجار المدينة، ولم يقصد الآشوريون بتعمير «كاروم» فى نصوص الألواح القبادوشية ميناء نهرياً غالباً، إذ لم يقع كاروم كانش أو «خاتوش» (بوغازكوى) أو غيرها، على نهر، وإنما يعنى غالباً مجموعة الرجال الذين تولوا إدارة المركز التجارى، وهم من التجار وأصحاب رؤوس الأموال الآشوريين، وقد شيدت «الكاروم» غالباً فى الأماكن الملازمة على طرق القوافل، كمركز تجارى للسلع المتبادلة بين آشور وآسيا الصغرى، فضلاً عن جباية المكوس التى كانت تحصل من القوافل التجارية، مثل ضريبة الطريق وضريبة العشر وضريبة الخمسة فى المائة التى كان الكاروم يقوم بتحصيلها، ربما لحساب الدولة الآشورية، وقد استخدم القوة فى تحصيلها أحياناً، كما كان للكاروم سلطة قضائية، وجهاز إدارى على رأسه «حاكم الكاروم» الذى اتحل لقب (Rubaum)، والذى كان يمثل السلطة التنفيذية للكاروم ورأسها، وغير خاضع غالباً لحكام آشور، كما كان للكاروم مقر مركزى يسمى «بيت الكاروم» (بيت كاريم - Bit-Karim) وكان بمثابة غرفة تجارية وبيت تخطيط للتجارة، ووكيلاً للقصر (أنظر: محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٧٢ - ٨٨، وكذا:

J. Bottero and Others, op. cit., p. 196.

J. Lewy, CAH, I, Part, 2, p. 37, 47, 709, 722, 760 F.

(٢٤) عامر سليمان: المرجع السابق، ص ١٢٥ - ١٢٦، وكذا:

J. Lewy, op. cit., p. 24 - 28.

١٨٥٥ ق.م) و«سرجون الأول الآشوري» (١٨٥٥ - ١٨٤٠ ق.م) (٢٥)

ولعل من الأهمية بمكان أن الوثائق الآشورية إنما تشير إلى أن العصر الأموري إنما قد شارك في مجتمعات المراكز التجارية الآشورية القديمة في آسيا الصغرى، وأن الاختلاط بين الأسماء الآشورية والأمورية في هذه المجتمعات، ما يشهد بامتزاج هذه العناصر كسكان يتعايشون معا في نطاق المركز التجاري الواحد.

وكان الأموريون أقرب العناصر للآشوريين، وأكثرهم ارتباطاً بهم اجتماعياً ودينياً، وقد اعتمدوا عليهم بدرجة كبيرة في مزاوله نشاطهم التجاري، أما السكان الوطنيون وخاصة العناصر (الهندي - أورية) فقد نظر إليهم الآشوريون بازدراء، وأطلقوا عليهم صفة «برابرة» (٢٦).

وليس هنا من ريب في أن الوجود الأموري في هذه المجتمعات إنما كان سبباً في التقارب بين الأموريين والآشوريين في آسيا الصغرى، وطبقاً لدراسة عقود الزواج والطلاق، فإن معظم زيجات الآشوريين بالأناضول إنما كانت من هؤلاء الأموريين، كما كان رجال الأعمال الآشوريين كثيراً ما يستعينون بهؤلاء الأموريين، وكثيراً ما كانوا يهدون إليهم بتولى أمر قوافلهم التجارية (٢٧).

(١١) واشوكاني:

واشوكاني عاصمة دولة ميتاني، التي عاصرت الامبراطورية المصرية (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م)، والكاشيين (١٥٩٥ - ١١٥٧ ق.م) في جنوب العراق، وقد أثرت هذه القوة الجديدة (الحوريين) في بلاد آشور.

والحوريون قوم من منطقة القوقاز، إنتشروا في بلاد الأناضول وسوريا وأعلى

(25) CAH, I, Part, 2, p. 1001.

J. Lewy, in JAOS, 78, 1958, p. 99 - 101.

وكنا:

J. Lewy, in HUCA, 27, 1956, p. 40, 65, 66.

وكنا:

A. Goetze, in JLSA, 30, 1954, p. 350.

وكنا:

(26) H. Lewy, Anatolia in The Old Assyrian Period, in CAH, 2, 1971.

(٢٧) محمد يومي مهران: بلاد الشام، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ٦٨ - ٧٠، وكنا:

J. Lewy, Amurritica, in HUCA, 32, 1961, p. 65.

ما بين النهرين وشرقي بلاد آشور، وأقاموا دولة قوية هي «دولة الميتان»، واتخذوا من مدينة «واشوكاني» (Washukkanni) عاصمة لهم، وهي «تل الفخارية» (Tell - Fekheriya) الحالية، وقد استغلت الدولة الميتانية ضعف الإمبراطورية الحيثية وانقساماتها الداخلية، فمدت نفوذها على المناطق الواقعة فيما بين بحيرة «وان» (Lake Van) وأواسط الفرات، ومن جبال زاغروس وحتى الساحل السوري، وكانت بلاد آشور من المناطق التي وقعت تحت نفوذها وسيطرتها المباشرة، ومع ذلك فلقد ذكرت قوائم الملوك الآشوريين أسماء عدد من الملوك الذين حكموا في بلاد آشور في فترة السيطرة الميتانية، وربما كانوا ملوكاً محليين تابعين للملوك الميتانيين المحتلين.

غير أن قوة الدولة سرعان ما انتابها الضعف، وانقسمت إلى دولتين، الواحدة تسيطر على منطقة بحيرة وان، والأخرى تسيطر على بلاد آشور وأجزاء من سورية، وقد استغلت آشور هذا الضعف واستقلت عن الميتانيين، ثم تمكنوا بعد فترة من القضاء على الدولة الميتانية وضم أراضيها إلى الدولة الآشورية، وقد تم ذلك على يد الملك «أشور أوبلظ» (١٣٦٥ - ١٣٣٠ ق.م) الذي انتصر على الملك «أرتاتاما الثاني» (١٣٦٦ - ١٣٥٩ ق.م)، كما أعاد بناء الدولة الآشورية (٢٧).

هذا وكان الميتانيون على علاقة مصاهرة بفراعنة مصر، فلقد تزوج «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) من «جيلوخيبا» أخت «توشراتا» ملك ميتاني، فضلاً عن ابنته «تادوخيبا»، وكان أبوه «تخوتمس الرابع» (٤١٣ - ١٤٠٥ ق.م) قد تزوج من ابنة ملك الميتان، التي أعطيت الإسم المصري «موت إم ربا».

ولعل سبب هذه المصاهرات أن دولة الميتان إنما كانت تتجاوز حدود الإمبراطورية المصرية في غربي آسيا، وربما لأن الفرعون قد أخطأ التقدير في معرفة قوة الحيثيين - أعداء الميتان.

(٢٧) عامر سليمان، المرجع السابق ص ١٢٩ - ١٣١، عبد العزيز صالح: المرجع السابق ص ٤٩٠، ٤٩٩، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٢٤٣ - ٢٤٥، طه باقر، المرجع السابق ص ١٧٣ - ١٧٥، ل. دولات: المرجع السابق ص ٢٩٦ - ٢٩٧، محمد عبد القادر: المرجع السابق ص ٢١٣، وكنا - G.Roux, op.cit., p. 229, 233, J.Laessoe, op.cit., p. 82, 92, Delaporte, Les Hittites, p. 93F.

وأيا ما كان السبب، فلقد كان من نتائج هذه الصداقة - أو المصاهرة
- المصرية الميتانية، أن امتنع الفرعون عن التفكير في مدّ نفوذ مصر إلى الشرق من
الفرات، وإلى أن ينشأ نوع من العداء، لدولة «حاني» التي مدت يد الصداقة لمصر،
فأغفلها الفرعون (٢٨).

(٢٨) محمد بيومي مهران: مصر ٢٣١/٣، ٢٣٤، ٢٣٨، نجيب ميخائيل: مصر الشرق الأدنى القديم
٢٤٤، ٥١٢، وكذا

S.A.B.Mercer, The Tell - Amarna Tablets , I,p. 162.

H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypt, II, 1908, p. 301.

المراجع المختارة أولاً: المراجع العربية

- ١- القرآن الكريم
- ٢- الحديث الشريف
 - أ- صحيح البخارى (٩ أجزاء) القاهرة ١٣٨٦ هـ
 - ب- صحيح مسلم (١٨ جزءاً) بيروت ٨١ - ١٩٨٣
 - ج- سنن أبى داود القاهرة ١٩٥٢
 - د- فتح البارى - بشرح صحيح البخارى القاهرة ١٩٥٩
 - هـ- مستد الإمام أحمد بن حنبل بيروت ١٩٦٩
- ٣- كتب التفسير
- ٤- التوراة
- ٥- ابن بلهيد: صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار (٥) القاهرة ٥١ - ١٩٥٣ أجزاء
- ٦- ابن ظهيرة: الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها، وبناء البيت الشريف بيروت ١٩٧٩
- ٧- ابن عساكر: تاريخ دمشق - تحقيق صلاح المنجد دمشق ٥١ - ١٩٥٣
- ٨- ابن عنبه: عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب بيروت -
- ٩- ابن عبد ربه: العقد الفريد (٩ أجزاء) بيروت ١٩٨٣
- ١٠- ابن فهد القرشى: غاية المرالم بأخبار سلطنة البلد الحرام مكة المكرمة ١٩٨٦
- ١١- الدكتور أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول القاهرة ١٩٦٥
- ١٢- الدكتور أحمد إبراهيم الشريف: دولة الرسول فى المدينة الكويت ١٩٧٢
- ١٣- أحمد السباعى: تاريخ مكة مكة المكرمة ١٣٨٧ هـ
- ١٤- الدكتور أحمد أمين سليم: سوريا وبلاد العرب الإسكندرية ١٩٩١
- ١٥- الدكتور أحمد أمين سليم: لهران بيروت ١٩٨٨

- ١٦- الدكتور أحمد أمين سليم: دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم
بيروت ١٩٨٩
- ١٧- أحمد حسين شرف الدين: مسالك القوافل التجارية فى شمال الجزيرة العربية وجنوبها
الرياض ١٩٨٤
- ١٨- الدكتور أحمد سوسة: تاريخ حضارة وادى الرافدين (جزءان)
بغداد ١٩٨٦
- ١٩- الدكتور أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ
دمشق ١٩٨٢
- ٢٠- الدكتور أحمد فخرى: اليمن ماضيها وحاضرها
القاهرة ١٩٥٧
- ٢١- الدكتور أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم
القاهرة ١٩٦٣
- ٢٢- الدكتور أحمد فخرى: معبد المساجد ببلاد مراء
القاهرة ١٩٦١
- ٢٣- الدكتور أحمد ضياء - محمد بيومى مهران: العلاقات بين مصر وبنى اسرائيل أثناء الألف الأول قبل الميلاد
الإسكندرية ١٩٨٨
- ٢٤- الدكتور إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود فى بلاد العرب
القاهرة ١٩٢٧
- ٢٥- البكرى: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (٤ أجزاء)
القاهرة ٤٥-١٩٥١
- ٢٦- البلاذرى: أنساب الأشراف
القاهرة ١٩٥٩
- ٢٧- البلاذرى: فوح البلدان (٣ أجزاء)
القاهرة ١٩٥٧
- ٢٨- الحرى: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة
الرياض ١٩٦٩
- ٢٩- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (ط السعادة)
القاهرة ١٣٤٩ هـ
- ٣٠- السهمودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (٤ أجزاء فى مجلدين)
بيروت ١٩٧١
- ٣١- السهلى: الروض الأنف (٧ أجزاء)
القاهرة ١٩٧١
- ٣٢- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب - الجزء الأول
الإسكندرية ١٩٦٧
- ٣٣- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب - تاريخ الدولة العربية
الإسكندرية ١٩٨٢
- ٣٤- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب - العصر العباسى الأول
الإسكندرية ١٣٩٨ هـ

- ٣٥- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ مدينة صيدا بيروت ١٩٧٠
في العصر الإسلامي
- ٣٦- الطبري: تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) القاهرة ١٩٦٩ / ٥٧
- ٣٧- المصري: مسالك الأبطال في ممالك الأماص القاهرة ١٩٢٤
- ٣٨- الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين بيروت ١٩٨٦
- ٣٩- الفاسي: المنقح من أخبار الملوك والخلفاء وولاية مكة الشرفاء بيروت ١٩٨٦
- ٤٠- الفلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب القاهرة ١٩٥٩
- ٤١- المقرئ: النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم القاهرة ١٩٨٨
- ٤٢- الدكتور أمل محمد بيومي مهران: دراسة تاريخية للعلاقات بين الجزيرة العربية، وبلاد الشرق الأدنى القديم، خلال الألف الأول قبل الميلاد الإسكندرية ١٩٩٦
- ٤٣- النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري بأخبار أم القرى (٣ أجزاء) مكة المكرمة ١٩٨٣
- ٤٤- الهمداني: صفة جزيرة العرب الرياض ١٩٧٤
- ٤٥- الدكتور تقي الدين الدباغ: العراق في عصور ما قبل التاريخ - العراق في التاريخ بغداد ١٩٨٣
- ٤٦- الدكتور جواد علي: المنفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٠ أجزاء) بيروت ١٩٧١/٦٨
- ٤٧- حامد إبراهيم أبو درك: مقدمة في آثار تيماء الرياض ١٩٨٦
- ٤٨- الدكتور حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام القاهرة ١٩٦٧ / ٦٤
- ٤٩- حسن عبد الله باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة القاهرة ١٩٦٤
- ٥٠- الدكتور رشاد بغدادى: العلاقات بين الجزيرة العربية وفلسطين مكة المكرمة ١٩٨٧
- ٥١- الدكتور رشيد الناضوري: حول أرض مدين: موقعها ودورها التاريخي المبكر الرياض ١٩٨٤
- ٥٢- الدكتور رشيد الناضوري: جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا (جزءان) بيروت ١٩٦٩
- ٥٣- الدكتور رشيد الناضوري: المغرب الكبير - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٦٦
العصور القديمة

- ٥٤- الدكتور رشيد بويرية: مسجد المدينة في حدائق الكتب القديمة الرياض ١٩٧٩
- ٥٥- الدكتور رضا الهاشمي: تجارة القوافل في التاريخ العربي القديم بغداد ١٩٨٤
- ٥٦- الدكتور سامي سعيد الأحمدى: نظرة في جغرافية شبه جزيرة العرب الرياض ١٩٦٩
- ٥٧- الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام بيروت ١٩٧٥
- ٥٨- سعيد الأفغاني: أسواق العرب بيروت ١٣٧٩هـ
- ٥٩- الدكتور صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب - الجزء الأول بغداد ١٩٥٩
- ٦٠- الدكتور صبحي أنور رشيد: العلاقات بين وادي الرافدين وتيماء الرياض ١٩٨٤
- ٦١- صلاح البكري: تاريخ حضرموت السياسي - الجزء الأول القاهرة ١٣٥٤هـ
- ٦٢- الدكتور صلاح الشامي: الموانئ السودانية القاهرة ١٩٦١
- ٦٣- الدكتور طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - (جزءان) بغداد ١٩٥٥
- ٦٤- الدكتور عامر سليمان: العصر الأشوري - العراق في التاريخ القديم بغداد ١٩٨٣
- ٦٥- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: لغات من القبائل البائدة في الجزيرة العربية - مجلة كلية الآداب الرياض ١٩٧٥
- ٦٦- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: لغات من بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة - مجلة الدارة الرياض ١٩٧٥
- ٦٧- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو الرياض ١٩٧٩
- ٦٨- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: الأحوال العامة للجزيرة العربية عند البعثة النبوية الرياض ١٩٨٩
- ٦٩- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: الموسم الرابع لحضرات قرية الفاو الرياض ١٩٨٤
- ٧٠- الدكتور عبد العزيز الدوري: كتب الأنساب وتاريخ الجزيرة العربية الرياض ١٩٧٩

- ٧١- الدكتور عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول القاهرة ١٩٧٣
- ٧٢- الدكتور عبد العزيز صالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية في القاهرة -
عصورها القديمة
- ٧٣- عبد القدوس الأنصاري: آثار المدينة المنورة المدينة المنورة ١٩٧٣
- ٧٤- عبد القدوس الأنصاري: الكعبة الرياض ١٩٨٤
- ٧٥- الدكتور عبد الله مصري: آثار الجزيرة العربية، ودررها في نشأة
حضارة سومر الرياض ١٩٧٦
- ٧٦- الدكتور عبد الله مصري: ما قبل التاريخ في شرق المملكة الرياض ١٩٨٤
العربية السعودية وشمالها
- ٧٧- الدكتور عبد الله الوهيبى: تحديد الشعراء العرب للمواقع الرياض ١٩٧٩
الجغرافية
- ٧٨- الدكتور عبد المنعم عبد الحلیم ميد: البحر الأحمر وظهيره في الإسكندرية ١٩٩٣
العصور القديمة
- ٧٩- الدكتور عبد التميم محمد حسنين: الإيرانيون القدماء القاهرة ١٩٧٤
- ٨٠- عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة (٥) بيروت ١٩٨٥
أجزاء)
- ٨١- الدكتور عويد المطرفى: داود وسليمان عليهما السلام في القرآن مكة المكرمة ١٩٧٩
والسنة
- ٨٢- غالى محمد الأمين الشقيطى: كتاب الدر الثمين في معالم الدوحة ١٩٨٨
دار الرسول الأمين
- ٨٣- الدكتور فؤاد سفر: الحضر - مجلة سومر - العدد ٨ بغداد ١٩٥٢
- ٨٤- الدكتور فؤاد سفر، ومحمد على مصطفي: الحضر مدينة بغداد ١٩٧٢
الشمس
- ٨٥- الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة بيروت ١٩٧٨
- ٨٦- الدكتور محمد إبراهيم بكر: تاريخ السودان القديم القاهرة ١٩٨٣
- ٨٧- الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور معالم تاريخ الشرق الأدنى الإسكندرية ١٩٦٨
القديم

- ٨٨- الدكتور محمد العبد الخطراوى: المدينة فى العصر الجاهلى دمشق ١٩٨٤
- ٨٩- الدكتور محمد بيومى مهران: حركات التحرير فى مصر القديمة القاهرة ١٩٧٦
- ٩٠- الدكتور محمد بيومى مهران: بنو اسرائيل (٥ أجزاء - طبعة الثالثة) الإسكندرية ١٩٩٩
- ٩١- الدكتور محمد بيومى مهران: بلاد الشام الإسكندرية ١٩٩٠
- ٩٢- الدكتور محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم (جزءان) الإسكندرية ١٩٩٥
- ٩٣- الدكتور محمد بيومى مهران: الحضارة العربية القديمة الإسكندرية ١٩٨٨
- ٩٤- الدكتور محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم الإسكندرية ١٩٩٠
- ٩٥- الدكتور محمد بيومى مهران: المغرب القديم الإسكندرية ١٩٩٠
- ٩٦- الدكتور محمد بيومى مهران: المدن الفينيقية (تاريخ لبنان القديم) بيروت ١٩٩٤
- ٩٧- الدكتور محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم (٤ أجزاء) (طبعة رابعة) الإسكندرية ١٩٩٥
- ٩٨- الدكتور محمد بيومى مهران: تاريخ السودان القديم الإسكندرية ١٩٩٤
- ٩٩- الدكتور محمد بيومى مهران: المدن الكبرى فى مصر والشرق القديم - الجزء الأول - مصر - الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٠٠- الدكتور محمد بيومى مهران: حضارة الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٠١- الدكتور محمد بيومى مهران: قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة الرياض ١٩٧٥
- ١٠٢- الدكتور محمد عوض: السودان الشمالى القاهرة ١٩٥١
- ١٠٣- محمد عبد القادر فقيه: تاريخ اليمن القديم بيروت ١٩٧٣
- ١٠٤- محمد لييب البتانونى: الرحلة الحجازية القاهرة ١٣٢٩ هـ
- ١٠٥- الدكتور محمد عبد الحليم نور الدين: مقدمة فى الآثار اليمنية صنعاء ١٩٨٤

- ١٠٦- الدكتور محمد عبد الحليم نور الدين: مواقع ومناخف الآثار القاهرة ١٩٩٨
المصرية
- ١٠٧- الدكتور محمود طه أبو العلا: جغرافية شبه الجزيرة العربية (٤ القاهرة ٦٥ / ١٩٧٢
أجزاء)
- ١٠٨- الدكتور محمود عمر: التأثير المصري فى آثار نيماء القاهرة ١٩٩٣
- ١٠٩- مير خورى: صيدا عقب حقب التاريخ بيروت ١٩٦٦
- ١١٠- هنرى عبودى، معجم الحضارات السامية بيروت ١٩٨٨
- ١١١- الدكتور نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم (٦ الإسكندرية ١٩٦٣
- ١٩٦٦ أجزاء)
- ١١٢- ياقوت الحموى: معجم البلدان (٥ أجزاء) بيروت ١٩٥٧ / ٥٥
- ١١٣- يوسف رزق الله غنيمه: الحيرة: المدينة والملكة بغداد ١٩٣٦
- ١١٤- يوسف محمد عبد الله: أوراق فى تاريخ اليمس وأثاره بيروت ١٩٨٥
- ١١٥- الدكتور يوسف مزهر: تاريخ لبنان القديم - الجزء الأول بيروت -
- ١١٦- قاموس الكتاب المقدس (جزءان) بيروت ١٩٦٧ / ٦٤

ثانياً: المراجع المترجمة إلى اللغة العربية

- ١١٧- الدكتور أحمد فخرى رحلة أثرية إلى اليمن - ترجمة صنعاء ١٩٨٨
الدكتور هنرى رياض، الدكتور يوسف محمد، ومراجعة الدكتور
محمد عبد الحليم نور الدين
- ١١٨- أحمد محمد على الحاكم وأ. هريك وج فركوثير: حضارة
نباتا ومروى (تاريخ أفريقيا العام - الجزء الثانى) اليونسكو ١٩٨٥
- ١١٩- إليويس موسل: شمال الحجاز، ترجمة الدكتور عبد المحسن الإسكندرية ١٩٥٢
الحسينى
- ١٢٠- أندريه بارو: بلاد آشور - ترجمة عميسى سلمان ومليهم بغداد ١٩٨٠
التكرينى

- ١٢١- أرثر كريستس: إيران في عهد الساسانيين - ترجمة الدكتور القاهرة ١٩٥٧
يحيى الخشاب
- ١٢٢- أنزولد ويلسون: الخليج العربى - ترجمة الدكتور عبد القادر الكويت -
يوسف
- ١٢٣- اليزابيث مونرو: الجزيرة العربية بين البخور والبترول - ترجمة الرياض ١٩٧٦
محمود محمود
- ١٢٤- أ.ر. جرنى: الحثيون - ترجمة الدكتور محمد عبد القادر القاهرة ١٩٦٣
والدكتور فيصل الرئالى
- ١٢٥- ب. هـ. وارمنجتون: العصر القرطاجى - تاريخ أفريقيا العام تورينو ١٩٨٥
- ١٢٦- برنارد لويس: العرب فى التاريخ - ترجمة نبيه فارس ومحمود بيروت ١٩٥٤
يوسف
- ١٢٧- تيودر تولدكه: أمراء غسان من آل جفنة - ترجمة قسطنطين بيروت ١٩٣٣
رزق ويندى خورى
- ١٢٨- جاكلمين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب - ترجمة قدرى بيروت ١٩٦٣
قلمجى
- ١٢٩- جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة فى المحيط الهندى -
القاهرة ١٩٥٨
ترجمة وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر
- ١٣٠- جورج كونتنيو: الحياة اليومية فى بلاد بابل وأشور - ترجمة بغداد ١٩٨٦
طه التكريتى، وبرهان عبد التكريتى
- ١٣١- ج. كوتتنيو: الحضارة الفينيقية - ترجمة الدكتور محمد القاهرة ١٩٦٥
عبدالهادى شعيره، ومراجعة الدكتور طه حسين
- ١٣٢- جيهان ديزاخ: البربر الأصليون - تاريخ أفريقيا العام تورينو ١٩٨٥
- ١٣٣- حسن بيرينا: تاريخ إيران القديم - ترجمة محمد نور الدين القاهرة ١٩٧٩
عبد النعيم، والسباعى محمد السباعى - مراجعة وتقديم
الدكتور يحيى الخشاب
- ١٣٤- دونالد دولبر: إيران: ماضيها وحاضرها - ترجمة عبد النعيم القاهرة ١٩٥٨
محمد حسنين - مراجعة وتقديم إبراهيم الشواربى

- ١٣٥- دي تلف نلسن وآخرون التاريخ العربى القديم - ترجمة وزاد القاهرة: ١٩٥٨
عليه الدكتور فؤاد حنين
- ١٣٦- رينيه ديسو: العرب فى سورية قبل الإسلام - ترجمة القاهرة: ١٩٥٩
عبد الحميد الدواخلى
- ١٣٧- سبتينو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة - ترجمة وزاد القاهرة: ١٩٦٨
عليه الدكتور السيد يعقوب بكر
- ١٣٨- فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - (جزءان) - بيروت: ١٩٥٨
ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق
- ١٣٩- فيليب حتى: تاريخ العرب - الجزء الأول - (مطول) - بيروت: ١٩٦٥
ترجمة إدوارد جرجس، وجبرائيل جبور
- ١٤٠- فيسرو مورى: حول تاريخ الرسوم الصخرية فى الصحارى ليبيا ١٩٧٩
الكبرى - ترجمة مكائيل محرز - كتاب الصحراء الكبرى -
- ١٤١- لويس أميل سديو: تاريخ العرب العام - ترجمة عادل زعيتر القاهرة: ١٩٤٨
- ١٤٢- لانكستر هاردنج: آثار الأردن ترجمة سليمان موسى عمان: ١٩٦٥
- ١٤٣- مانفرد فيبر: المصريون القدماء والصحراء الكبرى - ترجمة ليبيا ١٩٧٩
عماد الدين غانم - كتاب الصحراء الكبرى
- ١٤٤- هيربرت جورج ويلز: معالم تاريخ الإنسانية (جزءان) - ترجمة القاهرة: ١٩٦٩
عبد العزيز توفيق جاريه
- ١٤٥- ول ديورانت: قصة الحضارة - الجزء الثانى - ترجمة محمد القاهرة: ١٩٦١
بهران
- ١٤٦- ونديل فيليس: كنوز مدينة بلقيس - قصة اكتشاف مدينة سبأ القاهرة: ١٩٦١
الأثرية فى اليمن - ترجمة عمر النيرادى
- ١٤٧- و. و. تارن: الإسكندرية الأكبر - ترجمة زكى على ومراجعة القاهرة: ١٩٦٣
محمد سليم سالم
- ١٤٨- ولیم أولبرايت: آثار فلسطين - ترجمة زكى اسكندرا ومحمد القاهرة: ١٩٧١
عبد القادر

- ١٤٩- يوسيبوس القيصري: تاريخ الكنيسة - ترجمة مرقس داود القاهرة ١٩٦٠
 ١٥٠- يوسيفوس. تاريخ يوسيفوس - دار صادر بيروت
 ١٥١- دائرة المعارف الإسلامية - دار الشعب - القاهرة ١٩٦٩

ثالثاً: المراجع الأجنبية

- 152- Abbot, (n.), The Rise of the North Araba, Chicago, 1939.
 153- Abbot, (n.), Pre - Islamic Arab Queens, AJSL, 1944.
 154- Al-Adami, (K.A.), Excavations at Tell-Es-Sawwan, in Sumer, 24, 1968.
 155- Arkell, (J. A.), Early Kharton, Oxford, 1949.
 156- Arkell, (J. A.), A History of the Sudan from the Earliest Time to 1821, London, 1961.
 157- Amer, (M.), The Ancient Trans - Peninsular Routes of Arabia, Cairo, 1926.
 158- Bates (H.), The Eastern Lilyans, London, 1914.
 159- Baker, (M.), The Relationship Between The C-Group, Kerma, Napatan and Meroitic Cultures, in Kush, XIII, 1965.
 160- Beeston (A. F.L.), The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Haven, 1924.
 161- Beeston, (A. F. L.), Sculptures and Inscriptions from Shabwa, in JRAS, 1954.
 162- Belgrave, (J. H. D.), Welcome to Bahrain, London, 1965.
 163- Bent (T.) and Mrs. Bent, Southern Arabia, Sudan and Socotra, London, 1900.

- 214- Save - Soderlergh, (T.), Aegypten und Nubia, Luna, 1941.
- 215- Shata, (A.), The Lower Nubia Area, Egypt, in BSGE, 35, 1962.
- 216- Smith (W.), Adictionary of The Bille, 3 Vols, London.
- 217- Shahid (I.), Pre-Islamic Arabia, in CAH, I, Cambridge, 1970.
- 218- Stark, (R. F.), An Exploration in The Hadhramut and Journey to Coast, in GJ, XCIII, 1939.
- 219- Shanidar Cave, Northern Iraq, Smithsonian Report Publication (1959 - 1960).
- 220- Woolley (L.), Excavations at Ur, London, 1963.
- 221- Woolley (L.), Ur of The Chaldees, London, 1965.
- 222- Woolley (L.), The Beginnings of Civilization, N. Y., 1965.
- 223- Steindroff, (G.), Inibia, I, 1935.
- 224- Smith, (H. S.), The Nubian B-Group, Kush, 14, 1966.
- 225- Trigger, (B. G.), Nubia under th Pharaohs, London, 1976.
- 226- Vercoutter (J.), Excavations at Mirgissa, I, Kush, XII, 1964.
- 227- Vercoutter, (J.), Excavations at Sai, 1955 - 1957, Kush, 1968.
- 228- Vercoutter (J.), ADaggar from Kerma, Kush, VIII, 1960.
- 229- Vercoutter (J.), U pper Egyptian Settlers in Middle Kingdom, Nubia, Kush, V, 1967.
- 230- Vercoutter (J.), Mirgissa, I, Paris, 1970
- 231- Young (T. C.), Smith, (P. E. L.), Research in Prehistory of Central Western Iran, in Science, 153, 1966
- 232- Enceyclopaedia Billica.
- 233- Enceyclopaedia Britannica.
- 234- Encyclopaedia of Islam
- 235- Encyclopaedia of Religion and Ethics.
- 236- The Jewish Encyclopaedia, N Y , 1903

المؤلف في سطور

دكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



- ١- ولد في البهيلية - مركز إدفو - محافظة أسوان.
- ٢- حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمعهد المعلمين بقنا، حيث تخرج فيه عام ١٩٤٩م
- ٣- عمل مدرساً بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩ - ١٩٦٠م).
- ٤- حصل على ليسانس الآداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٠.
- ٥- عين معيداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم، بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦١م.
- ٦- حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف في التاريخ القديم من كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩م.
- ٧- عين مدرساً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩م.
- ٨- عين أستاذاً مساعداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٤م.
- ٩- عين أستاذاً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٩م.
- ١٠- أعير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في الفترة ١٩٧٣ - ١٩٧٧م.
- ١١- عين عضواً في مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية في عام ١٩٨٢م.

- ١٢- عين عضواً بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة فى عام ١٩٨٢م.
- ١٣- أعير إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة فى الفترة ١٩٨٣ - ١٩٨٧م.
- ١٤- عين رئيساً لقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية فى كلية الآداب جامعة الإسكندرية (١٩٨٧ - ١٩٨٨م).
- ١٥- أختير مقررًا للجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨ - ١٩٨٩م).
- ١٦- عين أستاذًا متفرغًا فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٨٨م.
- ١٧- عضو لجنة التراث الحضارى والأثرى بالمجالس القومية المتخصصة.
- ١٨- عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية فى هيئة الآثار.
- ١٩- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
- ٢٠- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
- ٢١- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى التاريخ.
- ٢٢- أشرف وشارك فى مناقشة أكثر من ٥٥ رسالة دكتوراه وماجستير فى تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم فى الجامعات المصرية والعربية.
- ٢٣- أسس وأشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية منذ عام ١٩٨٢م.
- ٢٤- شارك فى حفائر كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى الوقف - مركز دشنا - محافظة قنا، (فى عام ١٩٨٠ / ١٩٨١م)، وفى «تل الفراعين» مركز دسوق - محافظة كفر الشيخ (فى عام ١٩٨٢ / ١٩٨٣م).
- ٢٥- عضو اتحاد المؤرخين العرب.
- ٢٦- عضو مجلس إدارة اتحاد الآثاريين العرب.
- ٢٧- عضو نقابة السادة الأشراف، بجمعية علماء مصر العربية

مؤلفات

الأستاذ الدكتور: محمد بيومي مهران
أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

أولاً: فى التاريخ المصرى القديم

- ١- الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية مصر رسالة ماجستير الإسكندرية ١٩٦٦
- ٢- والعالم الخارجى فى عصر رمسيس الثالث رسالة دكتوراه الإسكندرية ١٩٦٩
- ٣- حركات التحرر فى مصر القديمة
- ٤- إخناتون - عصره ودوره

ثانياً: فى تاريخ اليهود القديم

- ٥- التوراه (١) مجلة الأسطول - العدد ٦٣ الإسكندرية ١٩٧٠
- ٦- التوراه (٢) مجلة الأسطول - العدد ٦٤ الإسكندرية ١٩٧٠
- ٧- التوراه (٣) مجلة الأسطول - العدد ٦٥ الإسكندرية ١٩٧٠
- ٨- قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة مجلة الأسطول - العدد ٦٦ الإسكندرية ١٩٧١
- ٩- النقاوة الجنسية عند اليهود مجلة الأسطول - العدد ٦٧ الإسكندرية ١٩٧١
- ١٠- النقاوة الجنسية عند اليهود مجلة الأسطول - العدد ٦٨ الإسكندرية ١٩٧١
- ١١- أخلاقيات الحرب عند اليهود مجلة الأسطول - العدد ٦٩ الإسكندرية ١٩٧١
- ١٢- التلمود مجلة الأسطول - العدد ٧٠ الإسكندرية ١٩٧٢
- ١٣- بنو إسرائيل - الجزء الأول - طبعة ثالثة، منقحة مزيدة الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٤- بنو إسرائيل - الجزء الثانى - طبعة ثالثة، منقحة مزيدة الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٥- بنو إسرائيل - الجزء الثالث - طبعة ثالثة، منقحة مزيدة الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٦- بنو إسرائيل - الجزء الرابع - طبعة ثالثة، منقحة مزيدة الإسكندرية ١٩٩٩

- ١٧- بنو إسرائيل - الجزء الخامس - طبعة ثالثة، منقحة مزيدة الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٨- أرض الميعاد طبعة ثالثة، منقحة مزيدة الإسكندرية ١٩٩٩

ثالثاً: في تاريخ العرب القديم

- ١٩- الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي الرياض ١٩٧٤
- ٢٠- مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة الرياض ١٩٧٧
- ٢١- العرب وعلاقتهم الدولية في العصور القديمة الرياض ١٩٧٦
- ٢٢- الديانة العربية القديمة الإسكندرية ١٩٧٨
- ٢٣- العرب والفرس في العصور القديمة الإسكندرية ١٩٧٩
- ٢٤- الفكر الجاهلي القاهرة ١٩٨٢

رابعاً: في تاريخ العراق القديم

- ٢٥- قصة العلوفاك بين الأنار والكتب المقدسة الرياض ١٩٧٦
- ٢٦- قانون حمورابي، وأثره في التوراه الإسكندرية ١٩٧٩
- خامساً: سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم
- ٢٧- الجزء الأول - في بلاد العرب طبعة ثالثة الإسكندرية ١٩٩٥
- ٢٨- الجزء الثاني - في مصر طبعة لانية الإسكندرية ١٩٩٥
- ٢٩- الجزء الثالث - في بلاد الشام طبعة ثانية الإسكندرية ١٩٩٥
- ٣٠- الجزء الرابع - في العراق طبعة ثانية الإسكندرية ١٩٩٥

ملحوظة: الطبعة الأولى في الرياض ١٩٧٧ والثانية في بيروت ١٩٨٨

سادساً: سلسلة: تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم

- ٣١- مصر - الجزء الأول طبعة سادسة الإسكندرية ١٩٩٥
- ٣٢- مصر - الجزء اثنان طبعة سادسة الإسكندرية ١٩٩٥
- ٣٣- مصر - الجزء الثالث طبعة سادسة الإسكندرية ١٩٩٥

الإسكندرية ١٩٩٠	طبعة رابعة	٣٤- الحصار المصرية القديمة - الجزء الأول
الإسكندرية ١٩٩٠	طبعة رابعة	٣٥- الحصار المصرية القديمة - الجزء الثاني
الإسكندرية ١٩٩٤	طبعة سادسة عشرة	٣٦- تاريخ العرب القديم - الجزء الأول
الإسكندرية ١٩٩٤	طبعة سادسة عشرة	٣٧- تاريخ العرب القديم - الجزء الثاني
الإسكندرية ١٩٩٠	طبعة ثمانية	٣٨- بلاد الشام
الإسكندرية ١٩٩٠	طبعة ثمانية	٣٩- المغرب القديم
الإسكندرية ١٩٩٠	طبعة ثمانية	٤٠- العراق القديم
الإسكندرية ١٩٩٤	طبعة ثمانية	٤١- التاريخ والتاريخ
الإسكندرية ١٩٩٤	طبعة ثمانية	٤٢- السودان القديم
بيروت ١٩٩٤	طبعة أولى	٤٣- المدن الفينيقية (تاريخ لبنان القديم)
الإسكندرية ١٩٩٦	طبعة ثالثة	٤٤- الحضارة العربية القديمة
الإسكندرية ١٩٩٩	طبعة ثمانية مفعمة مزينة	٤٥- الثورة الاجتماعية الأولى في مصر العرونية
الإسكندرية ١٩٩٩	طبعة أولى	٤٦- حضارة الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول
تحت الطبع	طبعة أولى	٤٧- حضارة الشرق الأدنى القديم - الجزء الثاني

سابعاً: المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم

الإسكندرية ١٩٩٩	طبعة أولى	٤٨- الجزء الأول - مصر
تحت الطبع	طبعة أولى	٤٩- الجزء الثاني - الشرق الأدنى القديم
ثامناً: سلسلة في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين.		
بيروت ١٩٩٠		٥٠- السيرة النبوية الشريفة - الجزء الأول
بيروت ١٩٩٠		٥١- السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثاني
بيروت ١٩٩٠		٥٢- السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثالث
بيروت ١٩٩٠		٥٣- السيدة فاطمة الزهراء
بيروت ١٩٩٠		٥٤- الإمام علي من أبي طالب - الجزء الأول

- ٥٥- الإمام علي بن أبي طالب - أثيره - بيروت ١٩٩٠
- ٥٦- الإمام الحسن بن علي - بيروت ١٩٩٠
- ٥٧- الإمام الحسين بن علي - بيروت ١٩٩٠
- ٥٨- الإمام علي زين العابدين - بيروت ١٩٩٠
- ٥٩- الإمام جعفر الصادق - تحت الطبع

تاسعاً: سلسلة الإمامة وأهل البيت

- ٦٠- الإمامة - بيروت ١٩٩٣
- ٦١- الإمامة والإمام علي - بيروت ١٩٩٣
- ٦٢- الإمامة وخلفاء الإمام علي - بيروت ١٩٩٣
- عاشراً: مقالات في مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
- ٦٣- دراسة حول التأريخ للأبياء - العدد ٣٩ الإسكندرية ١٩٩٢
- الإعجاز في القرآن - دراسة في الإعجاز التاريخي
- التقاوة الجنسية عند اليهود - دراسة جديدة - العدد ٤٠ الإسكندرية ١٩٩٣
- منقحة مزيدة - العدد ٤٦ الإسكندرية ١٩٩٧

محتويات الكتاب

الباب الأول

بسلامد العرب

الفصل الأول: فى شمال بلاد العرب

- ١٧٦-١
٥٢-١
٥٢-١
٣-١
٦-٣
١٩-٦
٢٣-١٩
٢٥-٢٣
٢٦-٢٥
٢٨-٢٦
٣٥-٢٨
٤٢-٣٥
٥٢-٤٣
٩٠-٥٣
٥٧-٥٣
٥٩-٥٧
٦٠-٥٩
٧٩-٦٠
٧٢-١١
٧٩-٧٢
٨٣-٧٩
٨٤
- ١- مكة المكرمة :
١- موقع مكة المكرمة الجغرافى وأهميته
٢- أسماء مكة المكرمة
٣- نشأة مكة المكرمة
٤- تحريم مكة المكرمة
٥- حدود الحرم المكى
٦- أمان مكة المكرمة
٧- مكة فى عهد إسماعيل وولده
٨- مكة فى عصر قصى
٩- بنو هاشم
١٠- مكانة مكة المكرمة
- ٢- المدينة المنورة
١- موقع المدينة الجغرافى وأهميته
٢- بين مكة وبثرب
٣- أسماء المدينة المنورة
٤- سكان المدينة المنورة
١- اليهود ص ١١ - ٧٢
٢- العرب ص ٧٢ - ٧٩
٥- فضائل المدينة المنورة
٦- إمام جده النبوى الشريف

٩٠-٨٤	٧- الررنضة الشرففة
١٠٠-٩١	٣- الطائف
١١١-١٠١	٤- تيماء
١١٧-١١٢	٥- دومة الجندل
١٢٣-١١٨	٦- مدائن صالح (الحجر)
١٢٨-١٢٤	٧- العلا (ديدان)
١٤٨-١٢٩	الفصل الثاني: فى جنوب بلاد العرب
١٣٠-١٢٩	١- فى دولة معين
١٢٩	١- قرناو
١٢٩	٢- براقش
١٣٠	٣- نشق
١٣٠	٤- نشان
١٣٠	٥- لوق
١٣٤-١٣١	٢- فى دولة حضرموت
١٣١	١- شبوه
١٣١	٢- ميفعة
١٣٢	٣- قنا
١٣٢	٤- مذب
١٣٣	٥- منا
١٣٥-١٣٤	٣- فى دولة قتيان
١٣٤	١- تمنع
١٣٤	٢- حريب
١٤٨-١٣٥	٤- فى دولة سبأ
١٣٥	١- صرواح
١٤٠-١٣٦	٢- مأرب

١٤٤-١٤١

٣- سد مأرب

١٤٦-١٤٥

٤- نجران (رجمت)

١٤٦

٥- ظفار

١٤٨-١٤٦

٦- صنعاء

١٥٢-١٤٩

الفصل الثالث: فى شرق بلاد العرب

١٤٩

١- دلون

١٥٠

٢- جرما

١٥١

٣- مجان

-١٥٣

الفصل الرابع: فى الممالك والإمارات العربية فى العراق والشام

١٦٣-١٥٣

١- تدمر

١٦٤

٢- الجابية - جلق

١٦٨-١٦٥

٣- الحيرة

١٧١-١٦٩

٤- الحضر

١٧٤-١٧٢

٥- الرها

-١٧٥

٦- حمص

-١٧٦

٧- ملين

الباب الثانى

العراق

-١٧٧

-١٧٧

الفصل الأول: المدن والمراكز الاثرية فيما قبل العصر التاريخى

١٧٨-١٧٧

تقديم

١٧٨

١- فى شمال العراق

١٧٩-١٧٨

١- تل الصوان

١٧٩

٢- تل حسونة

١٨٠

٣- تل حلف

١٨٠

٤- حرمو

١٨١

٥- سامراء

١٨٦-١٨٢	٢- في جنزب الوراق
١٨٢	١- أريدو
١٨٣	الوركاء
١٨٤	٣- جمدة نصر
١٨٥	٤- سيار
١٨٥	٥- الحاج محمد
١٨٦	٦- الغنيد
١٩١-١٨٧	الفصل الثاني: المدن والمراكز الأثرية منذ العصر السومري وحتى ١٨٧-١٩١
	قيام الدولة البابلية
١٨٨-١٨٧	١- العصر السومري
١٨٧	١- تقديم
١٨٨	٢- لجش
١٨٩	٣- أوما
١٨٩	٤- نيور
١٩١-١٩٠	٥- كيش
١٩٢-١٩١	٢- العصر الأكدي
١٩٢-١٩١	١- أكد
١٩٤-١٩٢	٣- أسرة أور الثالثة
١٩٤-١٩٢	١- أور
١٩٥-١٩٤	٤- إيسين ولارسا
١٩٥-١٩٤	١- إيسين
١٩٥	٢- لارسا
١٩٦-١٩٥	٥- مملكة أشنونا
١٩٦-١٩٥	١- أشنونا

الفصل الثالث: منذ قيام الدولة البابلية وحتى قيام الدولة ١٩٧-٢٠٦
الآشورية

١٩٧-٢٠٤	١- بابل
٢٠٤	٢- كوث
٢٠٤	٣- مفروايم
٢٠٦-٢٠٤	٤- دوركو ريجالز
٢١٦-٢٠٧	الفصل الرابع: الدولة الآشورية
٢٠٧	تقديم
٢٠٩-٢٠٨	١- آشور
٢١٠-٢٠٩	٢- كالح
٢١١	٣- كار - نوكلتي - ننورتا
٢١٣-٢١١	٤- دور شاروكين
٢١٥-٢١٣	٥- نينوى
٢٢٣-٢١٧	الفصل الخامس: منذ العصر الإخميني وحتى الفتح الإسلامي
٢١٧	١- الإخمينيون
٢١٧	١- بابل
٢١٩-٢١٧	٢- السلوقيون
٢١٩-٢١٧	١- سلوقية
٢٢٠-٢١٩	٣- البارثيون
٢٢٠-٢١٩	١- بابل
٢٢٣-٢٢٠	٤- الساسانيون
٢٢٢-٢٢٠	١- المدائن (طيسفون)
٢٢٣-٢٢٢	٢- كوخة
٢٢٣	٣- مدينة كسرى أنطاكية

٢٢٢-٢٢٤	الفصل السادس: العواصم الإسلامية
٢٢٥-٢٢٤	١- البصرة
٢٢٧-٢٢٥	٢- الكوفة
٢٢٨	٣- واسط
٢٣١-٢٢٨	٤- بغداد
التياب الثالث	
بلاد الشام	
٢٤٤-٢٢٣	الفصل الأول: فلسطين
٢٦٨-٢٣٥	١- القدس الشريف
٢٤٤-٢٣٥	١- موقع القدس
٢٣٥	٢- مكانة القدس الدينية
٢٣٨	٣- أسماء القدس
٢٤٠	الفصل الثاني: المسجد الأقصى
٢٥٥-٢٤٥	٢- السامرة
٢٥٨-٢٥٦	٣- أريحا
٢٦٠-٢٥٩	٤- أشدود
٢٦١-٢٦٠	٥- أفيق
٢٦١	٦- أدام المدينة
٢٦١	٧- ترصة
٢٦٢	٨- تعنك
٢٦٢	٩- بئر سبع
٢٦٢	١٠- بيت إيل
٢٦٢	١- بيت شان
٢٦٣	١٢- بيت لحم
٢٦٤	١٣- جبع

٢٦٤	١٤- جيمون
٢٦٤	١٥- جازر
٢٦٥	١٦- حبرون
٢٦٥	١٧- حاصور
٢٦٥	١٨- دان
٢٦٧-٢٦٦	١٩- الناصرة
٢٦٧	٢٠- يابيش جلعاد
٢٦٧	٢١- يافا
٢٦٧	٢٢- شليم
٢٦٧	٢٣- غيش
٢٩٠-٢٦٩	الفصل الثاني: لبنان - المدن الفينيقية
٢٧٥-٢٦٩	تقديم
٢٧٨-٢٧٥	١- أوجاريت
٢٧٩-٢٧٨	٢- أرواد
٢٨٠-٢٧٩	٣- جبيل
٢٨٤-٢٨٠	٤- صيدا
٢٨٨-٢٨٥	٥- صور
٢٨٩	٦- بيروت
٢٩٠-٢٨٩	٧- سميريا
٢٩٢-٢٩١	الفصل الثالث: سورية
٢٩١	١- في شمال سورية
٢٩١	١- مرعش
٢٩١	٢- سنجرلي
٢٩١	٣- كوتالوا
٢٩١	٤- أرباد

١٩٢-٢٩١	٥- حلب
٣٠٢-٢٩٢	٢- في وسط وجنوب سورية
٢٩٣-٢٩٢	١- حران (حاران)
٢٩٦-٢٩٣	٢- دمشق
-٢٩٦	٣- صوبية
٣٠٢-٣٠٠	٤- ماري
٣٠٢	٥- مجدو
٣٠٩-٣٠٣	الفصل الرابع: شرق الأردن
٣٠٤-٣٠٣	١- الادوميون
٣٠٤-٣٠٣	١- البتراء
٣٠٤	٢- بصره
٣٠٤	٣- تيمان
٣٠٥-٣٠٤	٤- عصيون جابر
	٢- المزابيون
٣٠٥	١- ديبون
	٣- العمونيون
٣٠٦-٣٠٥	١- ربة عمون (عمان)
	٤- مملكتا الأموريين في شرق الأردن
٣٠٧	١- حشبون
٣٠٨-٣٠٧	٢- باشان
	الباب الرابع
-٣٠٩	السودان والمغرب القديم
-٣١١	الفصل الأول: السودان (النوبة العليا)
٣١٣-٣١١	تقديم
٣١٦-٣١٣	١- نباتا

٢١٨-٢١٦	٢- سرون
٢١٩	٣- الخرطوم
٢٢٠-٢١٩	٤- الجراوية
٢٢١-٢٢٠	٥- إيكن
٢٢٥-٢٢١	٦- الكرو
٢٢٦-٢٢٥	٧- أور - نارتي
٢٢٦	٨- النقة
٢٣٠-٢٢٦	٩- بوهن
٢٣٠	١٠- بعمبة
٢٣٠	١١- بناجة
٢٣٨-٢٣٠	١٢- جبل البرقل
٢٣٩-٢٣٨	١٣- دنقلة المعجوز
٢٣٩	١٤- ساي - صاي
٢٣٩	١٥- سدحجا
٢٤٠	١٦- سوس
٢٤٢-٢٤٠	١٧- سره
٢٤٥-٢٤٢	١٨- سمنة
٢٤٦-٢٤٥	١٩- سيسي
٢٤٦	٢٠- صنم
٢٤٨-٢٤٦	٢١- صولب
٢٤٩-٢٤٨	٢٢- عكاشة
٢٤٩	٢٣- عكشة
٢٥٠-٢٤٩	٢٤- عمارة غرب
٢٥١-٢٥٠	٢٥- عنيبة (ميعام)
٢٥٢-٢٥١	٢٦- فرس

٢٥٢	٢٧- قمة
٢٥٣-٢٥٢	٢٨- كارا
٢٥٧-٢٥٤	٢٩- كوش
٢٥٨-٢٥٧	٣٠- كويان
٢٥٨	٣١- كرجوس
٢٦٤-٢٥٩	٣٢- كرما
٢٦٤	٣٣- مرجسيه
٢٦٧-٢٦٤	٣٤- نوري
-٢٦٧	
٢٦٧	
٢٦٧	
٢٦٩	
٢٧٠-٢٨٢	
٢٨٢	
٢٨٤	
٢٨٤	
٢٨٥	
٢٨٥	
٢٨٥	
٢٨٧	
٢٨٧	
٢٩١	
٢٩١	
٢٩٢	
٢٩٢	

الفصل الثاني: المغرب القديم

المدن الفينيقية والمراكز الأثرية

١- تقديم
٢- المستعمرات الفينيقية في الشمال الأفريقي
١- قرطاج
٢- أوتيكا
٣- هيبو
٣- المدن المغربية والمراكز الأثرية
١- أشكار
٢- المقطع
٣- أمكاكاس
٤- برقة
٥- بئر العاتر
٦- تونس
٧- دار السلطان
٨- سرته
٩- شرشال

٣٩٣	١٠- ققصة
٤٠١	١١- قورينه
٤٠٢	١٢- كهف حجفة الطرة
٤٠٢	١٣- كهف حجفة الضبع
٤٠٢	١٤- كهف هوافتح
٤٠٨	١٥- محجر سيدى عبد الرحمن
٤٠٩	١٦- أهم المواقع الصحراوية فى العصر الحجري
٤٠٩	الحديث
٤٠٩	١- موقع عبد العظيم
٤٠٩	٢- موقع فيلة بركة
٤٠٩	٣- موقع زفان
٤٠٩	٤- موقع نبليلة
٤٠٩	٥- موقع أمكين
٤١٠	١٧- مخيا رديف
٤١١	١٨- موقع برزينة
٤١١	١٩- مشتا العربى
٤١٢	٢٠- وهران
٤١٥	٢١- نوميلديا
٤٢٠	٢٢- موريتانيا

الباب الخامس

إيران وآسيا الصغرى

٤٢٥	الفصل الأول: إيران
٤٤٠-٤٢٧	
٤٢٧	١- تقديم
٤٢٨	٢- أهم المدن والمواقع الأثرية فى إيران
٤٢٨	١- بهستون

٤٢٨	٢- تبة جيان
٤٢٩	٣- تبة حسار
٤٣٠	٤- تبة جانجى داره
٤٣٠	٥- تبة حوران
٤٣٢	٦- تلي باكون
٤٣٢	٧- تبة سيالك
٤٣٦	٣- العواصم الإيرانية (الفارسية)
٤٣٦	١- سوسة
٤٣٨	٢- اكبثانا
٤٣٨	٣- بازار جادة
٤٣٨	٤- برسوبوليس
٤٥٤-٤٤١	الفصل الثانى: آسيا الصغرى
٤٤١	١- تقديم
٤٤١	٢- أهم المدن والمواقع الأثرية فى آسيا الصغرى
٤٤١	١- أرثو (أرزوا)
٤٤٢	٢- إيسوس
٤٤٢	٣- بوغازكوى
٤٤٥	٤- طرمسوس
٤٤٦	٥- طروادة
٤٤٦	٦- قدى
٤٤٧	٧- قره تبة
٤٤٧	٨- قلتيا
٤٤٨	٩- قبادوقيا
٤٤٩	١٠- كانش
٤٥٣	١١- واشوكابى
٤٥٥	المراجع المختارة

